مذكرات الضباط الأحرار

الثورة فوق الديمقراطية

نحو حكم الفرد

د. محمد الجوادى

مطبوعات دار الخيّال

مذكرات الضباط الأحرار

« نحو حكم الفرد »

مذكرات الضباط الأحرار
«نحو حكم الفرد»
الطبعة: الأولى يناير ٢٠٠٣
رقم الإيداع: ١٠٠٣٥ / ٢٠٠٢
الترقيم الدولى: 3 - 29- 7959- 977
دار الخيّال : ٠١٢٣٢٩٠٦١٨ / ٠١٢٤١٢٦٠١٤

دار الخيّال

تصميم الغلاف: محمد الصباغ
جرافيك: محمد كامل مطاوع
خطوط الغلاف: لمعى فهيم
المشرف على الإنتاج: عماد حمدى
طبع الغلاف: القطان للمطبوعات الفنية
المهندسين ت/ ٣٤٧٩١٦٣
كمبيوتر: دار جهاد ـ ت : ٧٩٦٤٧٨٣

إهداء

إلى الفنان المـبدع الأستاذ محمد حجى تقديراً
لشخصه النبيل وفنه العبقرى وخلقه الكريم .

محمد الجوادى

فهرس مذكرات الضباط الأحرار

للملك ● ملامح الثورة الوطنية الحقيقية التى كانت نفسه تجيش بها وهو ضابط صغير ● أسفه الحقيقى لموقف رجال ثورة ١٩٥٢ غير المنصف من ثورة ١٩١٩ ● تقرب هو وزملائه الضباط الشبان من ثورة ١٩١٩ وقادتها العظماء ● قابل النحاس باشا سنة ١٩٢٩ ● سعى إليه ليقول له «إن الجيش وراءك» ● فى ١٩٤٢ رفض الانصياع للرغبة فى محاكمة اليوزباشى أنور السادات بتهمة التجسس وهدد بالاستقالة من منصبه كنائب أحكام ● الفخر بالنجاح الذى حققه فى انتخابات نادى الضباط التى أجريت قبل الثورة، تحدى بترشيح نفسه للرئاسة مرشح الملك ● أهم إنجازات نجيب العسكرية ترتبط بالطبع بما حققه على مستوى القيادة فى حرب فلسطين ● كان فى مستوى الرجل الثانى فى قيادة القوات المصرية المهاجمة تحت قيادة اللواء أحمد المواوى ● إصاباته فى الحرب ● يصف بعض وقائع المعارك الحربية التى قدر له أن يخوضها على أرض فلسطين ● جهده فى معارك حرب فلسطين فى مرحلة تالية تحت قيادة قائد جديد هو اللواء أحمد فؤاد صادق ● رأيه فى حرب فلسطين ومعارضته لها منذ البداية ● تجربة مثيرة حين انتقل من سلاح المشاة إلى سلاح السوارى ومدى العنت الذى لقيه فى هذا السلاح الذى كان حكرا على مجموعة معينة من الضباط ● مدى التوفيق الذى كان حليفاً له فى كثير من الأوقات، لم يكن الحظ هو كل ما وراء هذا التوفيق، لكن اجتهاد نجيب نفسه وثقافته كانا بمثابة معينين مهمين له ● يبدو فى منتهى الصدق والواقعية فيما يتعلق بحديثه عن حقيقة الدور الذى قدر له أن يلعبه فى حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، لا يعطى نفسه ولا ينسب لها أدوارا لم تلعبها، كما أنه فى ذات الوقت لا يتنصل من أى عمل قام به ● الحوار الذى دار بينه وبين رئيس الوزراء الأخير فى عهد الملك فاروق، وقد كانا يعرفان بعضهما بالقدر الكافى لأن يحدث الحوار بينهما على هذا النحو الذى لايخلو من الود، ولكنه لم يكن فى ذات الوقت حوار الأصدقاء أو المتحالفين ● ما وجده على مكتب رئيس الأركان الفريق حسين فريد حين قدر له أن يدخل رئاسة الأركان منتصرا بعد نجاح الحركة ● الرئيس نجيب يسجل بكل وضوح أن مفكرة حسين فريد كانت تضم أسماء ثمانية من الضباط الأحرار كانوا مرشحين للتشريد فى نفس يوم قيام الثورة ● حواراته مع الأقطاب الثلاثة: رئيس الوزراء (الهلالى) ووزير الداخلية (المراغى) والفريق حيدر ● مدى الثقة والاطمئنان اللذين كانا يصبغان موقفه ● رأيه فى حريق القاهرة ● مؤامرة دبرها الملك بالاشتراك مع عملاء الإنجليز للتخلص من الوفد، وهو رأى حصيف ● نموذج لمأساة كل مسئول فى مصر مع أقاربه، ضارباً المثل بنفسه ● فوجئت بشقيقتى نجية تأتى لى ومعها أوراق منحة حصلت عليها لدراسة الطب فى الولايات المتحدة،وعرفت منها أن شقيقى الأصغر محمود حصل هو الآخر على منحة أخرى لتكملة دراسة الطب البيطرى فى انجلترا.. وفزعت من هذه الأخبار ● يروى نموذجا لسلكه المبكر فى قيادة الثورة حين كان يخضع لرأى الأغلبية، وهو يروى فى وضوح أنه كان معارضاً لقانون الإصلاح الزراعى، ولكنه التزم برأى الأغلبية ● بعد ذلك اقتنع بمشروع قانون الإصلاح الزراعى ● تفاصيل أزمة من أهم الأزمات التى وقعت بينه وبين زملائه من أعضاء مجلس قيادة الثورة: أزمة محاكمة إبراهيم عبد الهادى أمام محكمة الثورة والحكم عليه بالإعدام ● الرئيس نجيب يصور الأمر وكأنه ـ كان هو ـ وحده ـ الذى أنقذ رقبة إبراهيم عبدالهادى

من المشنقة!! ● موقفه من زعماء ما قبل الثورة وبخاصة النحاس باشا الذى طلب عبدالناصر تحديد إقامته ضمن المعتقلين، لكن الرئيس نجيب بحكمته - حسب روايته - لم يوافق على مثل هذا الاقتراح ● حديثه التلقائى عن الجوانب الإنسانية البسيطة جداً فى حياته ● تعبير رئيس الجمهورية عن نفسه دون إحساس مفرط بالتأله أو الزعامة ● يتحدث بكثير من الصدق والتواضع والواقعية وطيبة النفس عن كثير من المواقف التى مر بها بعدما أصبح رئيسا لثورة الجيش ● ملامح شخصيته الآسرة ● المواقف الطريفة التى واكبت تعرفه كضابط بالملك فاروق عن قسرب ● سألنى: من أين يمكن أن آتى بأقدم مسدس فى مصر؟ ● لقائه الثانى بالملك فاروق حين نخرج هو فى كلية أركان الحرب ● قصة حرصه على ألا يقبل يد الملك عند سلامه عليه ● رأى المؤلف أن رواية نجيب - لو صدقت - تدلنا على أن الملك فاروق كان واعيا ومتقبلا لمثل هذه المواقف، بل كان حريصا على أن يظهر لأمثال نجيب أنه يفهم ما يقصدونه ويمرره بإرادته!! ● واقعة طريفة حدثت له ولأسرته تدل بوضوح على مدى التسامح الذى كان بين الأسرة المالكة وبين أفراد الشعب ● آلامه الخاصة بعد عزله من رئاسة الجمهورية بطريقة مأساوية ● ظل ينظر إلى جانب مضىء من قضية الصراع على السلطة فيما بينه وبين مجموعة عبدالناصر من الضباط الأحرار، وها هو يصير نفسه أو يعزيها ● حديث المذكرات عن الإخوان المسلمين، يعد بلاشك من أهم المصادر للكتابة عن دور أعضاء هذه الجماعة فى أول الثورة وفى أزمة مارس ١٩٥٤ وفيما بعدها من تطورات سريعة متلاحقة ● نجيب يصور الأمور على العكس تماماً، حتى إنه ليضع عبدالناصر نفسه فى الموضع الذى وُضع هو فيه من التآمر مع الإخوان على الثورة وعلى الديمقراطية ● يتحدث عن الإخوان وموقفهم فى أزمة مارس ١٩٥٤ بمرارة شديدة ● يبدو وكأنه يرثى للإخوان: الإخوان ظلوا على مواقفهم القديمة، ولم يتعلموا من درس حلهم ● يرى أن جماهير الإخوان المسلمين وشبابها كانوا أكثر وعيا بالسياسة من قادة هذه الجماعة ● حديثه يوحى بما يقوى الشائعات المتواترة عن تعاونه مع الإخوان قبيل محاولة اغتيال الرئيس عبدالناصر فى المنشية ● يرى أن الإخوان لم يدركوا حقيقة أولية، هى أنه إذا ما خرج الجيش من ثكناته فإنه حتماً سيطيح بكل القوى السياسية المدنية، ليصبح هو القوة الوحيدة فى البلد ● بعض المعانى التى يضمنها آرائه تنطق بمدى النضج السياسى الذى أدركه ● حديثه عن قلق أعضاء مجلس قيادة الثورة على حياتهم ومستقبلهم ● يأتى حديثه عن هذا المعنى فى سياقه تماماً بعد إيراده تفاصيل واقعة اعتراض البكباشى حسنى الدمنهورى ● يردف برواية موقفه من الحكم على حسنى الدمنهورى ● يروى قصة لا نكاد نتصورها، مع أننا لا نكذبه، ولا نستبعد وقوع ما يرويه، ولكننا نقف حيارى أمام مثل هذه القصة التى يرويها عن رغبة قادة الثورة فى تأمين حياتهم ومستقبلهم بالأموال ● الظروف الإنسانية والسياسية التى كانت تدفع بالوزراء المدنيين إلى الاستقالات المتكررة بسبب عدم نضج قرارات الثوار المتعلقة بالشئون الداخلية ● ضباط الجيش بدأوا - هم أيضا - يتململون مبكراً من تصرفات الضباط ● رأيه فى النفوذ المبكر للعسكريين من رجال الثورة عقب قيامها بفترة قصيرة ● حديث مرسل عن بداية فساد الضباط ● مذكرات نجيب تخلو فى مجملها من التعريض بأى من زملائه أو نظرائه من قادة القوات المسلحة

على أى مستوى باستثناء حسين سرى عامر ومحمد رشاد مهنا فى مواقف معدودة ومحدودة.. وإن كانت المذكرات لا تخلو بالطبع من انتقاد كل من جمال عبدالناصر و صلاح سالم وهما من الجيل التالى لنجيب ● يروى قصة يدين بها محمد رشاد مهنا فى موقف بارز حدث من قبل الثورة وهو طلبه الابتعاد عن القوات المسلحة العاملة فى القاهرة بعدما أصبح عضواً فى مجلس إدارة نادى الضباط ● لا يخصص صفحات طوال فى تقييم ونقد محمد رشاد مهنا بعد قيام الثورة، وإنما هو يضع هذا الأمر فى تصوره الطبيعى نتيجة معرفته القديمة ● حرصه على نشر البيان الخاص بإعفاء رشاد مهنا من منصبه كوصى على العرش ● نراه معجباً غاية الإعجاب بمواقف يوسف صديق، وحريصاً على أن يسجل هذا الإعجاب، وهو يذكر من هذه المواقف موقف يوسف صديق مثلاً عقب القبض على ضباط المدفعية ● الرئيس عبدالناصر يحظى بكثير من انتقادات نجيب التى تأتى ضمن السياق بسلاسة ● يتحدث عن دور عبدالناصر فى حرب فلسطين بالطريقة التى تدين عبدالناصر ولا تشرفه ● ويلخص الرئيس نجيب تقييمه لعبد الناصر كرئيس فى سطور قليلة ● نلمح مدى التوافق الفكرى الذى كان موجوداً فى البداية بين الرئيس محمد نجيب والرئيس جمال عبدالناصر ● الرئيس محمد نجيب ينتقد فى مذكراته فى مرارة شديدة سياسة صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة فى السودان، وتبدو انتقاداته منطقية وحقيقية ● خالد محيى الدين يحظى كالعادة فى كل المذكرات المشابهة بثناء الرئيس نجيب على توجهاته وتصرفاته ● كان يظن أن تجديد الأزهر كان يتوقف على إبعاد المشايخ المسنين فحسب، مع أن الأزهر لا يستغنى ـ شأنه شأن أى معهد علمى ـ عن هؤلاء الشيوخ المسنين ● حديثه يشى بقصور فهمه للتحول الاجتماعى.

● التعريف بالمذكرات وصاحبها ● إذا أردنا الدقة فلنقل إن خالد محيى الدين نشر الجزء الأول من مذكراته ، فقد توقف فيما نشر عند نهاية عام ١٩٥٥ ● التسلسل التاريخى بمعناه المعروف لايتحقق فى هذه المذكرات إلا فى داخل الفصل الواحد ● نجح خالد محيى الدين فى أن يقدم لنا صورة نفسه على أنه الثائر المتمسك بالديمقراطية إلى أبعد الحدود، وتعمد أيضاً أن يقدم لنا صورة هذا الثائر وهو يفشل فى تحقيق هذا الهدف لأنه حسن النية ● صاحب المذكرات نجح فى أن يلقى بكثير من العبء التاريخى ـ إن صح هذا التعبير ـ على أكتاف مجموعة أخرى من أعضاء مجلس قيادة الثورة ● تفصيلات أحداث مارس ١٩٥٤ بمثابة بطل هذه المذكرات ● سعة صدر صاحب المذكرات تجاه ما يعرفه وما يتوقعه من اختلاف بعض رواياته مع الآخرين ● صاحب المذكرات يصدر عن رؤية تتمتع بالحنكة والاتساع فى ذات الوقت، وإن كانت خبرته بالتاريخ لا تزال متأثرة بوجوده فى دائرة الذين يصنعون التاريخ ● أضاف القليل جداً إلى معلوماتنا بالأحداث العامة، ولكنه أضاف الكثير جداً إلى معلوماتنا الخاصة بالتفصيلات الدقيقة ● خالد محيى الدين لم يستطع أن يمنع نفسه من انتقاد عبدالناصر بشدة فى كثير من الجوانب المهمة فى شخصيته ● خطة عبدالناصر للتخلص من رشاد مهنا ● عبدالناصر لم يكن يرغب فى إعطاء أية مساحة جديدة للأصدقاء وتحديداً للضباط الأحرار

● الإشارة إلى وقوع عبدالناصر فى الخلط بين الرضا الشعبى والمشاركة الشعبية ● صاحب المذكرات ينظر إلى الإدراك السياسى لعبد الناصر من علٍ ● عبدالناصر لم يدرك أن كسب جولة شيء، وكسب المسار التاريخي شيء آخر ● خالد محيى الدين يصف تصرفات عبدالناصر بأنها لا تدرك اختلاف الظروف ● الحرص على إيراد الاستشهادات المناسبة من أقوال زملائه ومعاصريه فيما يتعلق بنقد أسلوب عبدالناصر فى التصدى للمسئولية ● الإشارة إلى تولى أكثر من ضابط القيام بأدوار حاسمة فى أزمة ١٩٥٤ لم يكن عبد الناصر ليقوم بها لأنها تتنافى مع طبائعه وتكوين شخصيته، أو مع الصورة التى يريد أن يستبقيها لنفسه فى أذهان الجماهير ● الحرص على الإيحاء بترحيب الدوائر الحاكمة فى الغرب بعبدالناصر بديلاً عن نجيب ● تشخيص بعض السياسات التعسفية (أو التحكمية) التى لجأت إليها قيادة الثورة فى أول عهدها: سياسة إما وإما، إما الثورة وإما الديمقراطية ● التحليل الانطباعى لعلاقة الرئيسين محمد نجيب وجمال عبدالناصر ببعضهما ● الأزمة التى فجرها محمد نجيب حين بدا له مايدل على تجاهل أعضاء مجلس القيادة لوجوده ● تطورات أزمة مارس ١٩٥٤ التى كاد صاحب المذكرات نفسه يصبح من خلالها رئيساً للوزراء ● رأيه فى موقف الرئيس محمد نجيب ● صاحب المذكرات يستبقى لنفسه الحق فى الدور التاريخى الذى نسب إليه وهو حرصه على عودة الحياة النيابية ● خالد محيى الدين يروى دقائق وتفصيلات ما حدث طوال يوم ٢٤ فبراير ١٩٥٤ ● يتحامل فى حديثه هذا على أحد زملائه (وهو صلاح سالم)، وكأنما كان القرار قرار صلاح سالم وحده ● قصة اللقاء العاصف مع زملائه فى مجلس القيادة الذين استقبلوه دون أن يتقبلوه ● انطباعات صاحب المذكرات عن غضب الشعب وثورته ● كانت حسابات أعضاء مجلس قيادة الثورة قائمة على أساس أن الجيش معهم فإذا بالشعب قد وقف ضدهم، والمدرعات وقفت ضدهم ● فى المقابل: المدفعية والطيران والمشاة معهم، لكن هناك شرخ خطير فى الجيش، وربما أدى تجاهله إلى حدوث مذبحة بين قوات الجيش ● صاحب المذكرات يلخص معارضة كثير من أفراد القوات المسلحة لتصرفات مجلس قيادة الثورة ● تأمل فى طبيعة العلاقات بين الثوار وبين الرئيسين محمد نجيب وجمال عبدالناصر ● علاقة صاحب المذكرات بالإخوان المسلمين: لا يهادن الإخوان على طول الخط فى هذا الكتاب، وهو أيضا لا يهاجمهم على طول الخط ● كيف بدأت علاقته بالإخوان المسلمين عن طريق عبدالمنعم عبدالرءوف ● تعليق المؤلف: هكذا تصف المذكرات علاقة كان صاحبها بمثابة أحد طرفيها، وهو وصف غير معهود فى حديث كهذا!! ● حواره الأول مع محمود لبيب وحسن البنا، وكأنه يسقط عقيدته الحالية واقتناعاته على تلك الفترة الباكرة مع أنه غير مطالب بهذا ● نما فى داخله تحفظ واضح تجاه ممارسة هذه الجماعة للسياسة على نحو ممارستها ● صاحب المذكرات يشير إلى دور الإخوان ضد عمال كفر الدوار: على الرغم مما نعرفه من أن الثورة هى التى حكمت على هؤلاء بالإعدام ● صاحب المذكرات ينعى على الإخوان موقفهم من حكم الثورة بإعدام خميس والبقرى، مع أنه يعترف فى ذات الفقرة بأن «حدتو» نفسها وهى الحركة الشيوعية وقفت من الإضراب العمالى وقفة مستريبة!! هكذا فإن المذكرات تتجنى عن عمد لتنسب إلى الساكت عن الحق دورا أكبر من دور القائم بالباطل

● حرص المذكرات على الإشارة إلى موقف «الأخ سيد قطب» المعادى للحركة النقابية لصالح حكم الثورة ● علاقة خالد محيى الدين بالتنظيمات الماركسية أو اليسارية تحظى من المذكرات بوضوح أكبر ● بعض الانتقادات وبعض المديح إلى «إيسكرا» ● محاولة من المذكرات للايحاء بإجابة عن السؤال المتوقع من قراء المذكرات عن مدى مشاركة جمال عبدالناصر فى الانضمام إلى الحركة الشيوعية ● المذكرات تلمح إلى علاقه الرئيس عبد الناصر بالحرس الحديدى بل وعلاقة عبدالمنعم عبدالرءوف هو الآخر ● مدى النفوذ الذى تحقق لمجموعة الضباط الأحرار من خلال اتصالهم بالقصر الملكى أو بالحرس الحديدى ● صاحب المذكرات يروى قصة إعادته من سلاح الحدود على يد جمال عبدالناصر ودور الحرس الحديدى ● الامتنان لزوجته ● خالد محيى الدين يعطى لحسين الشافعى دوراً كبيراً جداً فى نجاح الثورة ليلة قيامها ● تقديره لثروت عكاشة ● خالد محيى الدين يذكر فى صفحة ١٣٦ أن ثروت عكاشة هو الذى اعتقل اللواء حشمت، وفى صفحة ٣٣٦ من المذكرات ينسب هذا العمل المجيد ذاته إلى حسين الشافعى ● القصة الحقيقية لتحويل «لجنة القيادة» إلى مجلس لقيادة الثورة ● خالد محيى الدين يتحدث بتعالٍ أو ترفع أو فى تعالٍ مترفع عن إبعاد ثروت عكاشة عن مصر مرجعا السبب فى ذلك إلى خلاف نشب بين ثروت وبين زملائه حول دوره ليلة قيام الثورة ● صاحب المذكرات يتحدث عن ثروت عكاشة بطريقة يبدو فيها وكأنه مندهش من قبول ثروت جفاء الثورة فى معاملته ● تأثره المبكر بوطنية حسن عزت وإخلاصه العميق لوطنه ● الضوء القوى على موقف محمد نجيب قبل وقبيل الثورة ● رأى المؤلف فى أن صاحب المذكرات يتعمد إمساك العصا من الوسط وكأنه حريص على ألا يخطئ.. وهو فى هذا يبرز وجه السياسى فى شخصيته، ويؤخر دور الثائر ● خالد محيى الدين يقع فى كثير من المآخذ التاريخية التى وقع فيها غيره ● خالد محيى الدين يقع فى بعض التعارض مع رواياته التى يقدمها هو نفسه ● صاحب المذكرات لا يبدى الاهتمام الكافى بتعريف القارئ لمذكراته بكثير من الشخصيات التى ترد فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب القيم، على سبيل المثال: لا يذكر كل زملائه من ضباط الفرسان الذين كانوا أبطال أزمة مارس ١٩٥٤ ● صاحب المذكرات يتعمد أن يهمل ذكر بعض الأسماء بدون داع ● خالد محيى الدين ظلم الرفيق بدر لأنه لم يحدثنا عن نشاطه بأكثر من ذكر اسمه وأنه اجتهد حتى أصبح قيمة كبيرة ● الخلاف بين حدتو وبين عبدالناصر ● رأى صاحب المذكرات: أخطأ الشيوعيون منذ البداية ● اليسار فى ذلك الوقت كان يفتقد القدرة على التعامل المتوازن مع سلطة له علاقة قديمة بها ● حرص خالد محيى الدين على الهجوم الشديد على كثير من المدنيين القانونيين الذين أحاطوا برجال الثورة فى أول عهدها، سواء فى ذلك السنهورى باشا أو سليمان حافظ أو السيد صبرى ● بل ويضم إليهم فتحى رضوان أيضاً، بل ويضم إليهم من عرفوا بأنهم أميل إلى الاشتراكية كراشد البراوى ● بل إنه بدون أى داع يضم إليهم على ماهر الذى كان بالفعل فى مكانة كبيرة ولم يكن وضعه يسمح له بأن يقتصر دوره على أن يشير على الثورة بما يرضيها على نحو ما كان يفعل الآخرون ● رأى خالد محيى الدين فى موقف لسليمان حافظ ● طبيعة تعامل الثورة مع القانون ● ينتقد الفقيه القانونى الكبير الدكتور عبدالرزاق السنهورى بطريقة

مباشرة ● الحديث عن ألاعيب القانونيين ● خالد محيى الدين فى وسط هذا الحديث عن هؤلاء جميعاً يثنى بشدة على عبدالجليل العمرى.

● صاحب المذكرات يصور خلافه مع الإخوان على أنه خلاف تكتيكى ● ويصور خلافه مع قادة الثورة من زملائه وكأنه اتخذ طابعاً وظيفياً بحتا ● يصور نفسه حريصا على العودة إلى القوات الجوية لأن ترتيبه فيها السابع ومن ثم فإنه سيفيد من هذا الموضع ● بعد صدور المذكرات: لم تعطه الصحافة الإخوانية ما تعطيه عادة لما هو أقل منها ● طبيعة الاختلاف الصامت لصاحب المذكرات مع الإخوان، بناء على «تقدير الموقف» فى أزمة مارس ١٩٥٤ كان عبدالمنعم عبدالرءوف يريد قراراً حاسماً بالتصدى لعبدالناصر وهو لا يزال فى أوليائه ● رأى المؤلف أن عبدالمنعم عبدالرءوف يتفوق فى عسكريته على عبدالناصر وعلى السادات، ولكنه كان ـ بكل تأكيد ـ يأتى بعدهما بمراحل كثيرة فى آفاقه السياسية، وقدراته على اتخاذ المواقف ● حديث صاحب المذكرات عن المصاعب التى لاقاها بسبب ترك الوطن ● قسوة النفى والتشريد فى جو التعتيم الذى كان يحيط حياتنا السياسية كلها ● سيوف الاتهام تظل مسلطة على رقاب أمثال عبدالمنعم عبدالرءوف حتى بعد وفاتهم ● قُدر لجماعة الإخوان المسلمين أن تعانى من اضطراب شديد فى تقييم أصحاب الجهود والنشاط فيها، دون أن تكون هناك حقيقة معلنة أو متفق عليها ● المذكرات بمثابة أهم وثيقة سياسية تتناول دور جماعة الإخوان المسلمين ورأيها فى السياستين الداخلية والعربية بدءا من ١٩٥٤ ● مدى الالتزام التنظيمى عند عبدالمنعم عبدالرءوف تجاه جماعة الإخوان المسلمين ● صاحب المذكرات ينبئنا أنه كان واعيا جدا لعامل الوقت، وأنه نقل هذا الوعى إلى أصحاب القرار من الإخوان المسلمين، لكنهم لم يقدروا خطورة الأمر بنفس الدرجة من الدقة التى تمتع بها تقديره هو ● صاحب المذكرات ينتقد القرارات المتسرعة التى ينسب صدورها إلى الإخوان المسلمين وذلك من قبيل عدم اشتراكهم فى الحرس الوطنى ● انضمام الأستاذ سيد سابق إلى الرئيس جمال عبدالناصر فى التشكيك فى صلاحية الأستاذ الهضيبى لمنصب المرشد العام للإخوان ● تحليل جيد لشخصية هنداوى دوير ● المذكرات تنفرد بالحديث عن مظاهرة من عشرة آلاف شخص قامت فى الخرطوم تأييداً لعبدالناصر فى قرار إعدام سيد قطب!! ● صاحب المذكرات يجاهر بانتقاده للحال التى وصل إليها النظام الخاص للإخوان المسلمين بعد شهرين من هربه ● يتحدث بتعال وتأفف عن اللجنة الخماسية التى تشكلت فى بيروت من الإخوان المسلمين منه ومن سعيد رمضان وكامل الشريف ● يتحدث بعدم ارتياح أو باشمئزاز ونفور عما أشاعه عنه بعض الإخوان المسلمين من أنه أصبح جاسوساً لعبدالناصر على الإخوان فى أثناء تواجده فى بيروت ● يروى بداية تعاونه مع الاخوان المسلمين بقدر معقول من التفصيل. لقاؤه الأول بالمرشد العام الشيخ حسن البنا فى أواخر مايو ١٩٤٢ ● تكوين الخلية الأول لضباط الاخوان المسلمين ● بيعة عبدالمنعم عبدالرءوف وجمال عبدالناصر وزملائهما ● تطور علاقته بعبد الناصر والضباط الأحرار فيما قبل الثورة ● متى حدث التحول فى فكر جمال عبدالناصر بالاتجاه إلى توسيع ما قد نطلق عليه

قاعدة العمل الانقلابى، وعدم قصره على الإخوان المسلمين الملتزمين فحسب ● صاحب المذكرات لم يعلم بنبأ قيام الثورة إلا من الإذاعة ● ومع هذا فهو يعطى الإيحاء بأن الجهاز السرى للإخوان كان على علم أو مشاركة فى خطوات الثورة فى الأيام أو الساعات التى أعقبت الثورة ● يروى موقفاً نبيلاً للملك فاروق حسبما ورد على لسان العقيد عبدالله رفعت الذى كان قائداً للحرس الملكى يوم محاصرة رأس التين ● حديثه عن رغبته فى العودة إلى القوات الجوية،بعد الثورة● لقاؤه بعبد الناصر وعبد الحكيم عامر ● لماذا لم يسأل عبدالمنعم عبدالرءوف نفسه عن السبب فى سلوك الرئيس جمال عبدالناصر وحرصه على إنكار ما قد يدل على اجتماعه معه أمام مساعديه أو زملائه ● لقاءاته هو ومجموعة من زملائه بالثائر العظيم عزيز المصرى، وأثر هذه اللقاءات فى تكوين فكرهم الوطنى وشخصياتهم المستعدة للفداء والمغامرة ● حقيقة الدور الثورى البارز الذى قام به فى محاولة هروب عزيز المصرى وهى المحاولة التى شاركهما فيها الطيار حسين ذو الفقار صبرى ● وجهة سفر عزيز المصرى: لم تكن هذه الوجهة هى ألمانيا لكنها كانت أكثر قرباً بكثير عن هذا ● عزيز المصرى كان ينوى الهرب إلى قوات المحور، ولكن بعد أن يهرب إلى جبل رزة ● تفصيلات مهمة ومضيئة وموحية عن حرب فلسطين فى ١٩٤٨ ● كان من الذين طلبوا أن يحالوا إلى الاستيداع حتى يتطوعوا بالمشاركة فى الحرب، كما كان من الذين شاركوا فى المعارك الأولى لهذه الحرب إلى جوار الشهيد البطل أحمد عبدالعزيز ● مشاركته مع كثير من الإخوان الضباط: الصاغ أركان حرب كمال الدين حسين واليوزباشى أنور الصيحى ، واليوزباشى خالد فوزى، والصاغ حسين فهمى عبد المجيد ● تفصيلات سفر متطوعى الاخوان المسلمين إلى فلسطين ومشاركتهم فى حرب ١٩٤٨ ● المذكرات تضرب أروع الأمثلة للوحدة الوطنية حين تتحدث عن الجندى المتطوع ألفونس جيد فانوس ● طبائع الجنود العرب المشاركين فى حرب فلسطين والفروق بين المتطوعين الجزائريين والليبيين ● موقف عبدالمنعم عبدالرءوف من الرئيس جمال عبدالناصر فى هذه المذكرات يتوقف على حالته النفسية التى كانت تتغير بالطبع من فقرة إلى أخرى ومن فصل إلى فصل، ولا ننسى أن ما بينهما كان نوعاً عميقاً من أنواع العواطف المشبوبة بالحب والإخاء ● مزايا عبدالناصر: طموحه وكرمه، وعيوبه: حقده وخبثه وقسوته ● لا يزال يحتفظ بمصحف شريف أهداه له عبدالناصر وكتب عليه «إلى أخى عبدالمنعم ذكرى نجاته من معركة العسلوج بحمد الله» ● بعد وفاة عبدالناصر سئل عن رأيه فيمن هو أحق بأن يخلفه فانحاز فى هذا الرأى ـ الذى لم يكن بالطبع ليقدم أو ليؤخر ـ إلى أنور السادات ● اختار أنور السادات لأنه متدين ، حافظ للقرآن ، يصلى ، وعنده رحمة ومن أسرة متوسطة لاهى غنية ولاهى فقيرة ، وأنه أقدم ضابط سياسى بين جميع من عملوا فى محيط السياسة منذ عام ١٩٣٩ فقد كان الساعد الأيمن لعزيز المصرى ، وهو الذى طلب منى تسفيره إلى خارج البلاد عام ١٩٤١ ● قصة عودة عبدالمنعم عبدالرءوف إلى مصر فى بداية عهد السادات ● استقبلنى بحفاوة وبينما كنا نتحدث فاجأنى بقوله: بأن على حكما بالإعدام ، وسألنى: ما رأيك ؟ ● محمد رشاد مهنا يحظى بتقدير عميق وتمجيد خاص من صاحب المذكرات ● أكبر إنصاف يناله محمد رشاد مهنا فى مذكرات عبدالمنعم عبدالرءوف هو

الحديث عن دوره البارز فى توجيه الضباط الأحرار ـ مبكراً ـ إلى الابتعاد عن فكرة المظاهرة السلمية التى كانوا ينوون تنظيمها والتحول إلى خوض انتخابات نادى الضباط ● يتحدث عن الشعبية الجارفة التى كان رشاد مهنا يتمتع بها ● الدفاع المهم الذى ينفى به عبدالمنعم عبدالرءوف مسئولية محمد رشاد مهنا عن مذبحة الضباط فى بداية عهد الثورة ● الحديث عن دور مهم لمحمود رياض فى حرب فلسطين ● أدوار مهمة قام بها صلاح نصر ● ثناؤه على روح يوسف السباعى النبيلة ● يوسف صديق منصور. الكتاب حافل بتقدير خاص له ● يروى لنا ـ بطريقته ـ قصة ليلة الثورة على نحو ما رواها له يوسف صديق ● عبارات حاول بها كاتب المذكرات الإيحاء بالتقليل من دور كل من الرئيس جمال عبدالناصر والرئيس محمد نجيب ● حبه وتقديره لخالد محيى الدين: لا يشير إليه إلا مسبوقاً بلقب البطل ● تقدير واضح لموقف خالد محيى الدين فى أزمة مارس ١٩٥٤ ● حديث عن شمائل كمال الدين حسين: غزارة المعلومات والوطنية المتأججة ، متمسك بآداب الإسلام وبسيط فى معيشته ● عبد اللطيف البغدادى نموذج القرناء الذين لايحظون بإعجاب صاحب المذكرات على طول الخط، ولا يحظون منه بانتقاد واضح أيضا، وإنما هم يحظون بالتحفظ ● من المهم أن يستجلى دارسو التاريخ موقف عبدالمنعم عبدالرءوف من زميله أبو المكارم عبدالحى ● رأى عبد المنعم عبد الرؤوف فى جمال سالم قاس من جميع الوجوه، كان يلعب الميسر و يحتسى الخمر ● رأيه فى أن عبد الحكيم عامر لايصلح لأن يكون ضمن أى تنظيم فى الجيش لتعاطيه الحشيش، ذكر رأيه لعبدالناصر فأجابنى: إننى(أى جمال) لو طلبت من عبد الحكيم روحه لأعطاها لى ● المذكرات تتضمن آراء فى غاية الخطورة والطرافة عن حرب ١٩٦٧ ومدى المسئولية عنها ● صاحب المذكرات يورد مجموعة من الشائعات أو الأقاويل التى لا نملك حتى الآن تحقيقها علميا على نحو مطمئن ● تفاوت رأى عبدالمنعم عبدالرءوف فى زملائه من قادة حرب ١٩٦٧، فعلى حين أنه يرى أن صدقى محمود وجمال عفيفى ضابطان ممتازان فإنه يجاهر بأن عبدالحميد الدغيدى وشقيقه عبدالحكيم الدغيدى سيئان ● غموض الجوانب الاجتماعية من حياة هذا الرجل فى المذكرات التى بين أيدينا ● عبدالمنعم عبدالرءوف يذكر زوجته الأولى بكل الحب والتقدير طيلة أيامه الأولى وحتى هروبه من مصر، ومع هذا فإنه لا يذكر لنا شيئاً عنها بعد هروبه ● تفاصيل الرواية «الأسطورية» عن تهريب عبدالناصر لصديقه عبدالمنعم عبدالرءوف بعد محنة الإخوان المسلمين، وعن لقاء الرجلين فى الهند، وهى الرواية التى روج لها الأستاذ فتحى رضوان فى مقال شهير، بعض فقرات مقال فتحى رضوان ● زوج شقيق عبدالمنعم عبدالرءوف تنفى صحة الواقعة الخاصة بقيام عبدالناصر بتهريب عبدالمنعم عبدالرءوف ● تلاحظ أن عبدالمنعم عبدالرءوف فى مذكراته لم يوف هذه السيدة [أى زوج شقيقه] بعض حقها فى الحديث عن دورها فى تهريبه ● مقال فتحى رضوان « عبد المنعم عبد الرءوف وأكبر قضية عسكرية فى تاريخ مصر الحديث »وقد نشره فى مجلة الهلال (سبتمبر ١٩٨٥) ● ما كتبه إسماعيل النقيب عقب وفاة عبد المنعم عبد الرءوف بعنوان «عبدالمنعم عبدالرءوف: سؤال بلا جواب»، إسماعيل النقيب يلقى بظلال من الشك على طبيعة علاقة عبد المنعم عبد الرءوف بعبد الناصر واستمرار هذه العلاقة حتى هروبه، ويوحى بدور واضح لعبد الناصر فى تهريب عبد المنعم عبد الرءوف خارج مصر.

● التعريف بالمذكرات وصاحبها ● مذكرات من نوع خاص ● المذكرات كتبت بطريقة جميلة ودقيقة فى نفس الوقت، الجزء الثانى المتعلق بالدبلوماسية: كُتب على طريقة اللقطات المتتالية غير المترابطة ● جمال منصور يقول: أحببت كل مكان رحلت إليه، أحببته بحلاوته ومرارته ● صاحب المذكرات يقدم لنا بعداً اجتماعياً ونفسياً جديداً فى فهم العوامل التى قادت إلى الاقتناع بالثورة ● الفترة التى تشكل فيها وعى زملائه وتنامى إحساسهم بأهمية التغيير ● الدور البارز لخمسة من سلاح الفرسان ● النشاط المبكر لتنظيمهم ● بعض المصاعب التى واجهت توزيع المنشورات وإرسالها بالبريد ● النجاح الكبير الذى حققته المنشورات ● الالتقاء بضباط المدفعية ● قصة زيارة مصطفى كمال صدقى وبصحبته رشاد مهنا لأحد اجتماعات الجماعة فى منزل عبدالفتاح أبو الفضل ● مصطفى كمال صدقى يعتقد فى ضرورة ضم بعض الصولات وصف الضباط ● محسن عبد الخالق كان أول من نلتقى به من ضباط المدفعية ● رأيه فى مصطفى كمال صدقى وأنه كان متهوراً إلى حد عدم التقدير ● قصة الصول جمال الذى ضمه مصطفى كمال صدقى إلى الحركة فذهب إلى النقراشى باشا رئيس الوزراء وصار جاسوساً على الحركة مما أدى إلى القبض على مجموعة من الضباط وإحالتهم للنائب العام ● القبض على اثنين من مجموعتهم المؤسسة واستغلال هذا الموقف بذكاء شديد لصالح التنظيم وحركة ضباط الجيش الشبان ● إصدار منشور جديد باسم ضباط الجيش ● النجاح فى إحداث الفرقة بين الملك ورجله الأول فى الجيش «عطا الله باشا» الذى كان متحمساً لأن يظهر بمظهر البطل القادر على ردع أى حركة فى جيش مولاه ● الحديث عن معاناة مجموعته فى كتابة المنشورات وإعدادها للتوزيع وطباعتها ● كان للمنشور وقعه الكبير على النائب العام ● أرسلنا إليه منشوراً باسمه على سكنه، وكان مندهشاً من ذلك غاية الدهشة، وقرأ المنشور وذهب به إلى «النقراشى» الذى كان قد وصله هو الآخر نفس المنشور ● المنشور يقول للملك: إما الجيش وضباطه وإما عطا الله، ولك وحدك ياصاحب الجلالة أن تقدر وتعطى الأمر بما تنتهى إليه حكمتك!! ● الأثر الشديد الذى تركته حرب فلسطين فى نفوس الضباط ودفعتهم يوماً بعد آخر إلى التفكير فى طريق الخلاص ● أكثر ما يحرص جمال منصور عليه فى كل ما يرويه عن إرهاصات الثورة هو أن يحتفظ لنفسه ولزملائه بالأسبقية إلى التنظيم والعمل ● علاقة مجموعتهم مع مجموعة جمال عبدالناصر اقتصرت على هذه الرابطة التى كان خالد محيى الدين يمثلها ● علاقة هذه المجموعة بالقوى السياسية النشطة فى ذلك الوقت: الإخوان المسلمون،الشيوعيون، الوفد ● يؤكد ما ذهب إليه زملاؤه الضباط من قبل ومن بعد فى حديثهم المتعالى (بلا داع) عن علاقتهم بالإخوان المسلمين ● لقاء له مع الرئيس جمال عبد الناصر فى مطلع أيام الثورة ● كيف كان الرئيس عبد الناصر قد بدأ ينظر بريبة وشك إلى عبد المنعم عبدالرؤف وغيره من الضباط ذوى العلاقة بجماعة الإخوان المسلمين ● علاقة مجموعته بحركة «حدتو» (الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى) وبحزب مصر الفتاة ● عبدالحميد كفافى قال لأحمد حسين زعيم مصر الفتاة إنه من الأفضل تدريب جماعات صغيرة على أن يكون التدريب أكثر جدية وحيوية، وإن عشرات من المدربين

خير من الآلاف غير المدربين ● تدريب مجموعات من أعضاء مصر الفتاة ● تخزين المفرقعات والقنابل في عزبة في أبي زعبل ● التدريب على تفجير لغم بحرى في قناة السويس، والتدريب على هذه العملية في الحوامدية ● كيف لم يكتب النجاح لهذه التجربة ● قصة السفر بقطار الدلتا إلى المنزلة وعبور بحيرتها ● المذكرات تدلنا على أنه كان هناك وطنيون كثيرون من المواطنين البسطاء لم يكونوا أقل حماسة ووطنية من الضباط الأحرار ● تطورات المحاولة الجريئة لزرع لغم في القناة ● الاتجاه بنشاطهم إلى منطقة المواجهة مع العدو في قناة السويس ● قصة الهجوم على معسكر التل الكبير وكيف قام عبدالحميد كفافى [الذى يصفه جمال منصور بأنه كان أكثرهم جرأة] بتجميع بعض الأفراد الذين كانوا يقومون بالتدريب وقادهم إلى منطقة القنال وهاجم معسكر التل الكبير ونسف السكة الحديد أمام بوابة المعسكر مما أدى إلى انقلاب أحد القطارات ● يناقش ادعاءات حركة حدتو حول المنشور الوحيد الذى أصدرته تحت عنوان «أهداف الضباط الأحرار» ● علاقة أحمد فؤاد بالثورة بعد قيامها على ضوء الخيارات التى وضعها عبد الناصر أمامه ● الضباط الشبان أرادوا الالتقاء بالنحاس باشا عقب حريق القاهرة ● أوفدوا إليه اليوزباشى محمد محمد النحاس ابن شقيقه، ولكن النحاس باشا لم يكن - حسب رأى صاحب المذكرات - قد تفاعل مع الأحداث ولم يكن - لديه الاستعداد للقيام بأى عمل ثورى أو انقلابى حتى لو ضمن دعم هذا العمل بتأييد من الجيش ● التوتر الشديد الذى حفلت به الأيام التى سبقت قيام الثورة مباشرة، وقصة استدعاء اللواء عبدالمنصف محمود وكيل وزارة الداخلية لمصطفى نصير مع والده اللواء عبدالمجيد نصير، يلقى بها أو يحاول أن يلقى بها بعض الشكوك على مدى إخلاص مجموعة الضباط الأحرار لفكرة الثورة قبل نجاح حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ● مجموعة الرئيس عبدالناصر لم تكن على القدر ذاته من التضحية والإخلاص الذى كانت عليه مجموعة الفرسان ● يروى واقعة مهمة لم يروها خالد محيى الدين فى كتابه الذى صدر بعد كتاب جمال منصور ● أسماء ١٣ ضابط جيش من الضباط الأحرار مطلوب اعتقالهم ● يبلور سر الخلاف بين مجموعته وبين مجموعة عبدالناصر فيما بعد قيام الثورة بما حدث فى أحد اجتماعات سلاح الفرسان ● يؤكد أنه هو - أى جمال منصور - كان بمثابة الرجل الذى أطلق تعبير «١٣ فاروق» بدلا من فارق واحد! ● الخلافات المبكرة التى حدثت بين جماعات الضباط الأحرار بعد قيام الثورة ● تفاصيل خلافات سلاح المدفعية مع عبد الناصر ● وفاة زميلهم اليوزباشى محمد وصفى فى السجن ● أزمة فبراير ١٩٥٤، ويذكر لنا بالتحديد أسماء الضباط الذين يصنفهم على أنهم (انتهازيون) وهو يقصد بهذا الوصف أولئك الذين حالوا بين رجال الثورة وبين التنازل عن الحكم تمهيدا للحكم الديمقراطى: عبدالمحسن أبو النور، حسن التهامى، أحمد أنور، حسين عرفة، جمال القاضى، وحيد جودة رمضان ● الآراء المهمة لجمال منصور فى أعضاء مجلس قيادة الثورة ● رأيه فى الرجل الذى عين مديراً لسلاح الفرسان، وهو حسين الشافعى، وهو يوحى إلينا بسؤال مهم: هل كان الشافعى أقوى رجل فى مصر بعد الثورة ● حسن إبراهيم وقيامه بطباعة المنشورات السرية التى كان الضباط الأحرار يصدرونها ● تفكير عبد الناصر فى التخلص من كل من عبدالمنعم أمين ورشاد مهنا

● يتحدث باستنكار واضح ونفور وتأفف طبعا عن الجهد (!!) الذى بذله كمال رفعت فى تأديب محمد نجيب وخالد محيى الدين فى أزمة ١٩٥٤ ● يتحدث عن حسن التهامى بقدر من التأفف والنفور لا يقل عن القدر الذى أظهره فى حق كمال رفعت ● يعرض تعريضاً شديداً بأحد زملائه من الضباط السفراء، أول سفير لمصرفى فرنسا بعد رفع العلاقات إلى درجة سفير بعد عودتها فى الستينيات ● أخطر فقرات هذا الكتاب على الإطلاق: الفقرة التى يوحى لنا فيها صاحب المذكرات بكل وضوح بأن قوى معروفة فى مصر (على صبرى وعزيز صدقى على وجه التحديد) قد عملت على تخريب العلاقات مع ألمانيا الغربية، على حين كان الرئيس عبدالناصر يتمنى استمرار وازدهار هذه العلاقات ● الرئيس عبدالناصر حريص على التعاون مع ألمانيا والغرب، ولكن بعض معاونيه فى مصر يتآمرون ضد هذا التعاون ● على هذا النحو يقدم جمال منصور الصورة وكأنه يبرئ عبدالناصر ويدين نفسه، فهو حسب روايته لم يقدم لعبدالناصر طريقا آخر ينقذ به الموقف، لكنه وضعه فحسب أمام الأمر الواقع أو القادم! ● يروى لنا بشىء من التعاطف مع الألمان الغربيين كيف أبلغه المسئولون الألمان بعزمهم النهائى على إقامة علاقتهم مع إسرائيل وصدى هذا القرار فى العالم العربى ● رد فعل الحكومات العربية التى بادرت باستدعاء سفرائها فى بون، تصوير قصور نظر بعض مساعدى الرئيس جمال عبدالناصر (سامى شرف) ● ونرى على النقيض وزير الخارجية اللبنانى وهو يكتل الدول العربية الإسلامية فى حل وسط يقضى بقطع العلاقات مع ألمانيا الغربية وعدم الاعتراف بألمانيا الشرقية فى ذات الوقت ● مدى نفوذ هذا الجناح الخفى فى السياسة المصرية، كان يعطل بل ويقلب إلى النقيض توجيهات وتوجهات رئيس الجمهورية نفسه ● يصرح بأن هذا الجناح كان يضم بعض المسئولين المصريين وكان على رأسهم على صبرى ● لم يسكت هذا الجناح الخفى عند هذا الحد بعد قطع العلاقات، بل قام بتحطيم كل الروابط بين القاهرة وبون حتى الروابط الثقافية والمهنية ● معقبات أخرى امتدت إلى ميادين مختلفة ● ما يتطرق إليه جمال منصور من الحديث عن العقلية العبثية التى قادت وسادت تصرفات بعض المصريين تجاه الدول الغربية بعد هزيمة ١٩٦٧ ● عصبية بعض المسئولين المصريين فى ذلك الوقت من الستينيات كانت قد وصلت إلى درجة خطيرة جداً، ويكفى أننا رفضنا رسمياً معونة طبية لأنها جاءت من هولندا على حين كان وزير الصحة يرى أننا فى أشد الحاجة إليها ● «العبث» السياسى المماثل فى نهاية عهد الرئيس السادات تجاه العلاقات المصرية ـ السوفيتية ● تصوير بعض أجهزة الأمن للموقف بصورة بعيدة عن الحقيقة ● اضطرار قيادات الخارجية المصرية (كمال حسن علىّ وبطرس غالى) للبحث عن حل للخروج من مأزق الحاجة إلى إعادة الخبراء السوفييت لتشغيل المصانع التى تعطلت بعد ترحيلهم فى ذروة التصعيد السياسى لأزمة العلاقات مع الاتحاد السوفيتى ● انطباعات السوفييت ● يشيد بروح التفهم والحرص على المصلحة التى كانت عند كل من السيد كمال حسن على والدكتور بطرس غالى ● يتحدث عن توجهات بعض كبار رجال الدولة فى تلك الفترة وكأنه لم يكن قد أصبح بمثابة الرجل الدبلوماسى الأول أو الثانى [على أقل تقدير] بين أصحاب المناصب الكبرى فى وزارة الخارجية المصرية!! ● الجهود الدبلوماسية التى بذلها

من أجل السيطرة على هذه الأزمة وكيف ساعده الوزراء المسئولون فى العمل من أجل تحقيق مصلحة مصر ● روايات عن العلاقات العربية ـ العربية ● يوحى بأن إسماعيل فهمى لم يعتذر عن مصاحبة الرئيس اعتذارا صريحا مع أن الشائع والمعروف هو أن إسماعيل فهمى لم يعتذر فحسب، بل واستقال من منصبه!!● رأى المؤلف. على كل حال فهذا نموذج من نماذج حرص أصحاب المذكرات على التقليل من قيمة أفعال رؤسائهم أو زملائهم إذا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا! ● وجهة نظر وموقف الرئيس السادات من المبادرة وضرورتها ● يحدثنا عن لقائه السريع بالرئيس السادات فى ذلك اليوم قبل توجهه إلى المؤتمر الصحفى ● لخص جمال منصور فى عبارات رفيعة المستوى وجهة نظر الرئيس السادات ربما بأحسن من عرض الرئيس السادات نفسه لها فى ذلك الوقت ● حقيقة مشاعر الوزراء السوريين تجاه سياسات قائد الثورة الليبية الرئيس القذافى ● حضوره زواج أمير موناكو من الممثلة العالمية جريس كيلى حين كان يعمل كقنصل لمصر فى مارسيليا ● إحدى السيدات التى تعرفت إليها أسرته فى فرنسا وقدرتها على التنبؤ فى قصة «قارئة المنديل» ● الحديث عن عمل المرأة المصرية فى المجال الدبلوماسى فى وقت مبكر ● لا يقف تقدير جمال منصور لهدى المراسى ـ عليها رحمة الله ـ عند أى حد، حتى إننا نراه حفياً بأن يشيد بشهامتها وإخلاصها فى العمل .

● اسم صاحب المذكرات لم يكن من الأسماء المعروفة قبل نشره لهذه المذكرات، لأنه كان نائباً لرئيس المخابرات ● عنوان هذا الكتاب نفسه بمثابة اللقطة الصحفية ● الكتاب لقى نوعاً من سوء الحظ غير المقصود إن جاز هذا التعبير ● صور هذا الكتاب وكأنه لم يصدر إلا للهجوم والرد على حسن التهامى ● من أهم الكتب التى كتبت فى تاريخ مقدمات ثورة يوليو ١٩٥٢، وتحدث عن خطط ضباطها قبل قيامها ● بيت مؤلفه محمد عبدالفتاح أبو الفضل كان فى كثير من الأحيان مقراً للاجتماعات السرية التى مهدت لقيام الثورة ● أجاد الحديث عن دوره فى جهاز المخابرات العامة، ودوره كضابط مخابرات فى المواجهة المبكرة للاحتلال الإنجليزى ● المذكرات تروى سبباً مرسياً (كما يقال فى الطب) لتشكيل تنظيم الضباط الأحرار وهو إحساسه هو وزملائه بالمهانة عندما كانوا مكلفين بالمشاركة فى استقبال الإمبراطورة فوزية شقيقة الملك عند عودتها من إيران ● يروى النهايات التى انتهى إليها هذا التنظيم ● يعترف بأن الحرس الحديدى نفسه قد انشق من هذا التنظيم الوطنى المبكر الذى كان هو نفسه مشاركا فيه، أما تنظيم ثورة يوليو فقد أفاد من هذا التنظيم وإن لم يكن هو هو ● حرص فى كتابه على تسجيل أسماء مَنْ كان يعتقد أنهم أعضاء الحرس الحديدى بالكامل ● لا يورد اسم أنور السادات بينهم ● حديثه عن تنظيم آخر مكون من مجموعة وطنية صغيرة من ضباط المدفعية فى حامية مرسى مطروح، قررت فيما بينها وجوب تحريض باقى ضباط وقوات الحامية فى التصدى لأمر تسليم أسلحة الجيش المصرى للجيش البريطانى● حديثه عن المجموعة الثورية التى كونها مصطفى كمال صدقى من تنظيم ١٩٤٦ وضم إليها بعض صولات الجيش ومنهم الصول جمال جلال الذى أبلغ فى أكتوبر ١٩٤٧ عن أسماء ٢٩ ضابطاً ثوريا ● حرب فلسطين: التهوين من شأن العدو

كان فيما يبدو خلقاً متأصلاً فى بعض قادة الجيش المصرى منذ ما قبل الثورة ● التفصيلات الدقيقة عن أعمال البطولة فى حرب فلسطين شارك فيها محمد عبدالفتاح أبو الفضل وعدد من زملائه الشهداء والأبطال ● قيام الكتيبة الأولى مشاة بالهجوم على مستعمرة دير سنيد ● صدرت إلينا الأوامر بالاستعداد لمهاجمة نيتساليم ● جهود الأسلحة المختلفة من الجيش المصرى من أجل النجاح فى الأداء والانتصار فى معركة نيتساليم ● أصداء قبول الهدنة فيما بين الضباط المشاركين فى الحرب الذين كانوا مندهشين لقبول مبدأ الهدنة ● أسفه لقبول مصر الهدنة الثانية بعد معركة تبة الفناطيس ● دور كتيبته فى معركة أسدود، نحس بالفخر ونحن نقرأ فى هذه الفقرات دور جندى مصرى عظيم من طراز الشاويش وهبة البطل الشجاع النبيه الجسور ● انسحبت الكتيبة من الموقع الأمامى فى أسدود للراحة فى مواقع خلفية عند مدينة غزة ● معركة «تبة الفناطيس» تحظى باهتمام صاحب هذه المذكرات وروايته لبعض تفصيلاتها الدقيقة وهو يحدثنا عنها بشىء من التفصيل مصوراً لنا كيف كانت القوات الإسرائيلية المعادية على درجة عالية من الكفاءة ودقة التصويب والقدرة على الالتفاف، ومع هذا فإن الأفراد المصريين لم يعدموا الحيلة لـلتمكن من مواجهة العدو ● عبدالحكيم عامر كان يتمتع بذكاء عسكرى وقدرة على التخطيط الجيد فى أوليات حياته العسكرية ● عامر استطاع اللجوء إلى الوسيلة المناسبة للتغلب على استعدادات الإسرائيليين وإمكاناتهم، مما مهد للنصر فى هذه المعركة التى كان لمحمد عبدالفتاح أبو الفضل نفسه دور بطولى فيها نال بسببه الترقية الاستثنائية ● حديثه عن معركة «نجبا» وهى آخر معركة اشترك فيها، وهو يصفها بأنها المعركة التى استعد لها العدو بخطوط دفاعية قوية، فضلاً عن خندق من النيران ● يصور مشاعره حين عاد من المعركة لاستكمال علاجه فى مستشفى العجوزة، فإذا به يسمع أصوات الموسيقى الراقصة الصاخبة فى ملهى الكيت كات ● حديثه عن دوره ودور زملائه فى المقاومة السرية ضد الاحتلال أثناء العدوان الثلاثى على مصر عام ستة وخمسين (١٩٥٦) ● دوره فى النصف الثانى من يوليو سنة ١٩٥٦ ● يتحدث بأسى شديد وأسف بالغ عن موقف القوات المسلحة المصرية فى أثناء العدوان الثلاثى من واقع ما رآه وشاهده بنفسه ● يشيد ببطولة قائد القوات المصرية المدافعة عن بورسعيد فى هذه الحرب وهو الشهيد العقيد حسين توفيق يسن ● تعليق المؤلف: القارئ يعجب من أسماء وبطولات هؤلاء الأبطال الشهداء الذين أغفلت بلادنا تكريمهم حتى هذه اللحظة● يضرب صاحب هذه المذكرات المثل على وطنية أبناء شعبه وحبهم لبلادهم ببعض البطولات التى قام بها أفراد المقاومة الشعبية فى بورسعيد شارحا بالتفصيل ما حدث فى عمليتى الأشجار وخلف البواكى ● نسف طريقى القناة والمعاهدة ● المشاركات الفاعلة التى شاركت بها قوات الحرس الوطنى لتزداد القوات الوطنية قوة وثقة بنفسها ● صاحب المذكرات يحرص على أن يرينا أن الفهم الاستراتيجى لحقائق الأمور ولتكتيكات الدفاع لم يكن بالأمر الصعب ولاالمستحيل على الوطنيين من غير ذوى المواقع الرسمية فى السلطة ● قصة وقوعه هو نفسه فى الأسر لفترة قصيرة ● يحكى تفاصيل طريفة عن معاملته هو وزملائه فى أثناء الأسر ● يحكى مأساة ١٩٦٧ من وجهة نظره بكل ما فيها من أسف وأسى، وهو يروى فى البداية وقبل وقوع الحرب كيف أنه شاهد قوات الاحتياط فى محطة سكة حديد القنطرة شرق فى حالة يرثى لها من الفوضى ● أخذ يتساءل:

هل هذه هي حالة قواتنا التي سنواجه بها جنود عدوتنا إسرائيل؟ ● جاءه طلاب مصريون بالجامعة الأمريكية ووضعوا أنفسهم بحماس كبير تحت تصرفه ولكنه لم يستطع أن يجد جهة حكومية تلبى هذا التطوع الشعبى ● قصة اجتماع المجلس الأعلى للمقاومة الشعبية قبل المعركة بأسبوع ● يروى أحداثاً مهمة حدثت في ثانى أيام الحرب، أى فى ٦ يونيو ● كان فى مقر القيادة بالإسماعيلية طيلة الساعة التى تولى فيها أحد القادة إصدار أمر التعليمات بالانسحاب على القادة الموجودين ● يروى واقعة مهمة تنبئنا عن مدى المظهرية والتمثيل اللذين كان يسيطران على الجيش المصرى حتى بعد وقوع الهزيمة ● يرى أن الجماهير التى خرجت فى ٩ و١٠ يونيو ١٩٦٧ تهتف لعبدالناصر، لم تخرج للتمسك به وبنظامه، لكنها خرجت مطالبة بتصحيح الأخطاء لأن من خرَّب مصر عليه أن يحقق النصر ● حديث المذكرات عن فترات العمل المبكر فى المخابرات العامة المصرية ● علم أن مهمته القادمة ستكون فى السودان وأنه سيعمل تحت مظلة أنه مراسل صحفى لجريدة الجمهورية ● يروى مثلاً بسيطاً ومهماً لقدرة المستعمر الإنجليزى على صياغة نفسية الشعب السودانى بحيث استطاع تشويه العلاقة الأخوية المصرية ـ السودانية ● ركزت الجريدة الناطقة الأجنبية على عبد الناصر وهو فى حالة عصبية ظاهرة ويضرب بيده على المنصة بحماس. فما كان من الجمهور السودانى إلا أن ضج بالأصوات المعادية والسخرية لمرأى عبدالناصر ● إدراكه للأهمية الاستراتيجية للصمغ العربى ● اكتشف أن إحدى الشخصيات التى استعانت بها الثورة فى موضع مرموق وهو "ملس عندوم" رئيس مكتب الاتصال الحبشى بالسودان كان عميلاً للولايات المتحدة ● بعض فقرات التقييم التى حظيت بها بعض الشخصيات العامة ● عدائه التقليدى لشمس بدران، نراه حريصا على أن يضمن ضمن حديثه عن هزيمة ١٩٦٧ هذه الفقرة المهمة التى تدين شمس بدران بمشاعر الكراهية التى ينسبها صاحب المذكرات إلى أحد الضباط الذين قابلهم فى بورسعيد بعد الانسحاب من سيناء ● أبو الفضل ينبهنا فى هذه المذكرات إلى أنه كان من حسن حظه (وإن لم يصرح بهذا مباشرة) أن اكتشف مبكراً مدى المأزق الذى وضعت الثورة فيه نفسها بانسياقها وراء دعاوى ونظرية الأمن، ووقوعها بالتالى فى براثن الانتهازيين ● محمد عبد الفتاح أبوالفضل يجهر بانتقاد شديد للفريق أول محمد فوزى ولم يكن الفريق فوزى حتى ذلك الحين الذى نشرت فيه مذكرات أبو الفضل قد لقى مثل هذه الانتقادات ● أبو الفضل يحرص فى مذكراته على إدانة جماعة الإخوان المسلمين فى كثير من المواضع. من ذلك انتقاده لهم فى موقفهم من اتفاقية الجلاء حيث قاوموا هذه الاتفاقية بعد عقدها ● الشيخ محمد فرغلى رفض المشاركة فى الدفاع عن مدينة الإسماعيلية ● الروح الوطنية العظيمة التى كانت تسيطر على أغلبية الضباط فى الجيش المصرى ● ينبئنا أن الروح العامة كفيلة بتحقيق إضافات مهمة إلى النجاح الذى تحققه أى حركة وطنية.

● التعريف بصاحب المذكرات: واحد من السبعة الذين بدأ بهم تنظيم الضباط الإخوان، أو تنظيم الإخوان المسلمين فى الجيش ● واحد من ثلاثة فقط من هذا التنظيم المبكر نشروا مذكراتهم، وقد نشر

مذكراته (١٩٨٥) عن دار الزهراء للإعلام العربي قبل أن ينشر خالد محيي الدين مذكراته (١٩٩٢)، وقبل أن تُنشر مذكرات عبدالمنعم عبدالرءوف بعد وفاته (١٩٨٨) ● صاحب المذكرات خدم بلاده ومواطنيه على نحو ما نعود من الهدوء والصمت، وقد أبرأ ذمته من أن يبقيها وقد احتفظ لنفسه بما كان لابد أن تتيحه للناس ● المذكرات تمتاز بقدر كبير من التنظيم الحقيقي، دون أن يقفز، ودون أن يخلط ● تمتاز أيضاً بقدر كبير من الانضباط التاريخي ● خلاف حسين حمودة مع عبدالناصر لم يبدأ مبكراً كخلاف عبدالمنعم عبدالرءوف وغيره، بل إن حسين حمودة قضى عاماً فى كلية أركان الحرب ما بين سبتمبر ١٩٥٢ و١٩٥٣ ● كان واحداً من الضباط الأحرار الذين قبلوا أن يستمروا فى العمل فى القوات المسلحة فى مواقعهم ● لكن شيئاً ما حدث فى بداية ١٩٥٤، وفى مذكراته لم يكن هذا الشيء إلا «وشاية، وفبركة» جعلته متهماً بالتعاون مع الإخوان ضد عبدالناصر ● نمو الوطنية فى فكره: الأثر الذى تركه حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ فى نفسيته ● حديثه عن عزيز المصرى.. فى المستشفى التقى الرجلان وانتقلت شرارة الوطنية الثائرة فيما يبدو من عزيز المصرى إلى حسين حمودة ● عزيز المصرى يتعجب من المسلمين المعاصرين وأحوالهم مع أن أول ما نزل من القرآن الكريم هو كلمة «اقرأ» ● التعريف الموجز الذى يقدمه صاحب المذكرات بالصاغ محمود لبيب ● لا يعرف محمود لبيب إلا من خلال عبدالمنعم عبدالرءوف ● يصور محمود لبيب أقل تمردا وخضرمة من عزيز المصرى الذى شارك فى أكثر من تمرد وفى أكثر من معركة حربية ● حديثه عن الدور الشجاع الذى قام به صهره ذلك الجندى المجهول العظيم سعد توفيق ليلة الثورة، فقد كان يخدم فى المخابرات الحربية ومقرها الدور الأول مبنى قيادة الجيش ● يروى كيف تكونت الخلية الأولى من الضباط الإخوان على نحو يتوافق مع ما رواه بعد ذلك كل من عبد المنعم عبد الرءوف وخالد محيى الدين ● حسين حمودة يلخص نشاط خليته الإخوانية ـ العسكرية، ونراه يقرر أن محمود لبيب (وليس جمال عبدالناصر أو غيره من الضباط الشبان) كان هو الشخص الوحيد الذى يعرف كل أعضاء هذا التنظيم السرى ● قصة البيعة «الشهيرة» التى شارك فيها مع زملائه الستة الآخرين، رواية هؤلاء الثلاثة تكاد تتطابق فيما يتعلق بكثير من التفصيلات الموحية ● حسين حمودة يروى كيف قطع جمال عبد الناصر العلاقة بالإخوان المسلمين ● حمودة ينبئنا عن أن هذه الصلة بين الجانبين قد فترت منذ مرحلة سابقة وبالتحديد عقب حرب ١٩٤٨، وهو يروى هذا المعنى الدقيق بثقة ووضوح ● يتحدث بقدر غير قليل من التحفظ عن الصورة التى وصل إليها تنظيم الضباط الأحرار فى الكلية الحربية على يد جمال عبد الناصر فيما قبل (أو قبيل) الثورة ● يروى واقعة انفصال عبدالمنعم عبدالرءوف عن تنظيم الضباط الأحرار، ومن الطرافة أن روايته تتضمن أن عبدالحكيم عامر كان هو الذى حل محل عبدالمنعم عبدالرءوف فى قيادة التنظيم ● المذكرات تحفل بكثير من الألم النبيل الذى يصور به صاحبها مشاعره تجاه الأذى الذى أصابه على يد الثورة بعد قيامها، على الرغم من جهده الوطنى، وربما بسبب هذا الجهد الوطنى أو الثورى ولا يقف صاحب المذكرات عند حدود الآلام النفسية أو المادية التى حاقت به هو نفسه، لكنه يتألم ويشركنا معه فى التألم لما أصاب الوطنيين الأحرار من أصحاب الإخلاص الوطنى والجهد الثورى الحقيقى ● مقتل سعد

توفيق أحد السبعة الذين بدأ بهم تنظيم الضباط الإخوان بالسم بعد أن دسوا له السم فى كوب شاى ● تاريخ صهره وزميله سعد توفيق ● يصف حال مصر بعد خروجه من السجن بعد الإفراج عنه للمرة الثانية● خرجت من السجن يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٥٨ فوجدت مصر قد تغيرت وتحولت كلها إلى سجن رهيب، وتحول شعب مصر إلى شعب صامت صمت نزلاء القبور، خرست الألسنة وكسرت الأقلام، وقهرت حرية الرأى والفكر، وكممت الأفواه وأصبحت الصحف مملوءة بالشعارات التى بغير مضمون أو تنفيذ، والمدح الباطل للحكام وارتفع المنافقون والانتهازيون والوصوليون ● المذكرات تتضمن عبارة حافلة بمشاعر نفسية قاسية ضمن تحليله لهزيمة يونيو ١٩٦٧ يقول فيها: «فليس من المعقول أن يجتمع عدد من المصادفات السيئة بالنسبة لمصر كما تجمع فى هذه الحرب» ● رأيه أن أنور السادات قُتل مظلوماً وأن قتلته هم بطانته وليس الجناة الذين ارتكبوا الحادث بنية تخليص مصر من فرعون جديد ● المذكرات تتضمن فقرة مهمة جداً عن ذلك الإخلاص للوطن الذى يميز كثيراً من قادة الشرطة المصرية حتى فى أحلك اللحظات ● طلب منى اللواء أحمد طلعت حكمدار بوليس العاصمة (وكان بين المعتقلين فى الكلية الحربية منذ ٢٤ يوليو ١٩٥٢) الاتصال بالمسئولين عن الثورة لأن لديه وثائق فى خزانة مكتبه يود تسليمها لرجال الثورة لأنها ستنفعهم فى حكم البلد على حد قوله ●ونصحنى أن أبلغهم بتشديد الحراسة على إبراهيم عبدالهادى رئيس وزراء مصر فى عهد الإرهاب الملكى خشية أن ينتهز الإخوان المسلمون فرصة الثورة ويقتلوه مما يسيء إلى الثورة ● حديثه عما سماه بهوية جمال عبدالناصر ● عبدالناصر كان يبحث لنفسه عن دور بطولى، لابد له من أن ينفرد بالمجد، ولكى ينفرد بالمجد لابد له من الانفراد بالسلطة، فتتبع مَنْ توهم مزاحمته له فى ذلك المطلب بالاعتقال والتعذيب الوحشى والمحاكمة الظالمة والسجن لمدد طويلة أو الإعدام أو القتل غيلة حتى قلم الأظفار الخادشة واستبد بحكم مصر ● يصل إلى مناطق ومحطات متقدمة فى اتهامه لعبد الناصر بالانتهازية والميكافيلية، لقد كان دستوره وإنجيله وقرآنه كتاب «الأمير» لمكيافللى، الذى قرأه عبدالناصر سبع عشرة مرة حتى حفظه عن ظهر قلب ● أوغر صدر نجيب وصدور زملائه أعضاء مجلس القيادة ضد رشاد مهنا ● أرسل لرشاد مهنا فى سجنه مَنْ يقول له إنه أنقذه من حكم الإعدام ● دبر نهاية محمد نجيب على النحو المعروف ● بطش بالماركسيين ● بطش بالإخوان المسلمين ● دور عبدالرحمن السندى ومَنْ شايعوه فى تأييد عبدالناصر ضد الهضيبى ● اعتقد حسن الهضيبى أن عبدالناصر ينافسه على زعامة الإخوان، وقد ساعد عبدالناصر على ذلك استمالته لعبدالرحمن السندى رئيس التنظيم السرى المدنى لجماعة الإخوان المسلمين، الذى شايع عبدالناصر ضد حسن الهضيبى، واستطاع عبدالرحمن السندى أن يستقطب عدداً من الإخوان من أعضاء مكتب الإرشاد ومن الجهاز السرى ومن شعب الإخوان المختلفة لصالح عبدالناصر ● أعضاء الجهاز السرى للإخوان شاركوا فى تأييد عبدالناصر ضد الهضيبى ولم يعتقلوا فى سنة ١٩٥٤» ● حسن الهضيبى أدرك أن عبدالناصر ينوى الاستئثار بالسلطة لا شريك له فيها ● عبدالناصر اتخذ من تمثيلية محاولة اغتياله فى أكتوبر سنة ١٩٥٤ مبرراً لاعتقال عشرين ألفاً من الإخوان ● فى عبارات صريحة وواضحة يؤكد حسين حمودة على

معنى مهم وهو أن ثمة اتفاقاً بين الإخوان والرئيس نجيب لو تم وخرج إلى حيز التنفيذ لكان كفيلاً بالقضاء على عبدالناصر ● رأيه أن بعض أنباء هذه الاتصالات بين الإخوان ومحمد نجيب قد تسربت إما عن طريق بعض الإخوان المتصلين بعبدالناصر، أو عن طريق الضباط المحيطين ● حسين حمودة يبلور رأيه فى الرئيس عبدالناصر بعد هذا كله بطريقة أخرى ● أقسى نقد وجه إلى الرئيس عبدالناصر: لم يكن عبدالناصر رجل سياسة قط ولا كان رجل حرب على الإطلاق، فقد كان أسداً أمام الشعب الأعزل فقط ● عدد المعتقلين والمسجونين السياسيين قد بلغ رقماً يقرب من مائة ألف نفس من يوم أن تولى عبدالناصر حكم مصر إلى أن مات ● رأى المؤلف: مع هذا فإن النصوص توحى لنا ببُعد نظر عبدالناصر حين كانت تدور المناقشات بينهما قبل قيام الثورة ● جمال عبدالناصر يعتقد فى أن الحالة السياسية فى مصر خطيرة جداً وأن الإصرار على توفر صفة التدين فى الضباط تزمت لا داع له لأن أغلبية ضباط الجيش فى ذلك الوقت لاتتوفر فيهم صفة التدين.. وبالتالى سيتأخر تنفيذ الثورة وربما قد لا نستطيع القيام بها إلا بعد وقت طويل جداً ● عبد الناصر نجح فى أن يحصل من محمود لبيب على سر الأسرار فيما يتعلق بالضباط من أعضاء تنظيم الإخوان، كما نراه يروى لحسين حمودة أنه لم يترك بيت محمود لبيب وهو يحتضر إلا بعد أن حصل على هذا الكشف الثمين ● يحدث نفسه بصوت عال: كان يجب علىّ أن أتنبأ بنيات عبدالناصر، ولكنى لم أفطن وتتنذ إلى هذه النوايا ● حسين حمودة يذكر لنا أنه حضر مع عبدالناصر عدة لقاءات بالأمريكيين قبل قيام الثورة ● يضع هذه اللقاءات فى إطار طبيعى جداً بعيداً عن اتهام عبدالناصر أو الثورة كلها بالعمالة ● حسين حمودة يعترف بفضل الولايات المتحدة الأمريكية على الثورة بطريقة مباشرة، وهو يعتبر موقف الولايات المتحدة الأمريكية أحد الأسباب الخمسة وراء نجاح حركة الجيش ● السفير الأمريكى كافرى هو الذى توصل للملك فاروق إلى الاتفاق بخروجه حيا ● ذكرياته عن فترة دراسته فى الولايات المتحدة الأمريكية بعد قيام الثورة ● حسين حمودة يثبت لعبد الناصر وضوح رؤية مبكر فيما يتعلق بآفاق تعاونه مع الأمريكيين ● الرواية الطويلة التى يروى بها صاحب المذكرات بداية متاعبه مع الرئيس عبدالناصر فى يناير ١٩٥٤ ● سألنى جمال عبد الناصر عن مدى صلتى الآن بالإخوان المسلمين فقلت له إن صلتى بالإخوان المسلمين أنت تعرفها جيداً ولا تعدو الصلة التى كانت تربطنى وتربطك بهم منذ عام ١٩٤٣ حتى ١٥ مايو ١٩٤٨ ● عبد الناصر سأله: مدى صلتك الآن بعبد المنعم عبد الرءوف ● وبمعروف الحضرى ● وبأبى المكارم عبدالحى ● أخيرا قال عبدالناصر: سأضطر لاعتقالك حتى تنجلى الأمور، وضغط جمال عبدالناصر على جرس فدخل ثلاثة ضباط من الشرطة العسكرية كانوا جاهزين ● اعتقلت للمرة الأولى فى حياتى وللمرة الأولى فى عهد جمال عبدالناصر يوم ١٨ يناير سنة ١٩٥٤ ● يقدم لنا من وجهة نظره بترتيب وتفصيل قصة تفجر الخلاف بينه وبين عبدالناصر، وهو لحسن الحظ لا ينصف نفسه فقط ولكنه ينصف عبدالناصر بما يرويه عن موقف عبدالناصر منه رغم ظلمه له فى النهاية ● القصة الطريفة فى الكتاب كله هى قصة اعتقاله الثالث، وهو الاعتقال الذى لم يستمر إلا لساعات قليلة وخرج منه مصحوبا بالاعتذار وباطمئنان مدير المباحث العامة عليه بنفسه ● فقرات سريعة عن التعذيب

الذى تعرض له ● لابد أن ننظر إلى شهادته باحترام شديد وذلك لسبب مهم وهو أنه حرص على أن يثبت أن معاملته فى فترة من الفترات وهى فترة السجن الحربى كانت حسنة جداً ● صاحب هذه المذكرات رأى فى فترة الاعتقال الثانى الويل والثبور وعظائم الأمور ● ما أن رآنى شمس بدران حتى بادرنى بسيل من الشتائم القذرة التى لاتصدر إلا من أحط الناس خلقاً وأعرقهم فى الإجرام والخسة والنذالة ● صاحب المذكرات سأل نفسه: هل وضعنا ثقتنا فى جمال عبد الناصر ومهدنا له الطريق لحكم مصر لتكون النتيجة أن يستعين بالسفلة والأوغاد ومعدومى الضمائر للقضاء على خيرة شباب مصر خلقاً وعلماً ووطنية ● فهم من على شفيق صفوت أن جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر كانا يستحثانه من أجل الحصول من حسين حمودة على اعتراف مزيف بعلاقة تحريض بين محمد نجيب وحسن الهضيبى ● حسين حمودة يحكى بمرارة شديدة وأسى بالغ بعض تفاصيل تجربته الأليمة هو والإخوان فى بداية عام ١٩٥٥ فى ليمان طرة ● حديثه عن محرم عثمان مدير عام مصلحة السجون ● فى يوم الثلاثاء ٣٠ سبتمبر ١٩٥٨ تم الإفراج عنى ● ذهبت فى الصباح لسجن قرة ميدان وأعدت الملابس التى استعرتها لصاحبها بالسجن ● محاكم الشعب التى شكلها مجلس قيادة الثورة لمحاكمة الإخوان المسلمين ● يقدم اتهامات مباشرة إلى جمال عبدالناصر فى عقيدته وفهمه الدينى والإنسانى والسياسى ● رأيه الشخصى فى نهاية عبدالحكيم عامر: نراه ينتصر لنفس الفكرة التى كان كمال الدين حسين أبرز المتحمسين لها، وهى أن عبد الحكيم عامر لا يمكن أن ينتحر ● القول بأن حادث الشروع فى قتل جمال عبدالناصر فى ١٩٥٤ كان مدبراً بإحكام وبتخطيط جيد لدفع جمال عبدالناصر للانقضاض على جماعة الإخوان المسلمين ● تفصيلات مهمة عن حرب فلسطين ١٩٤٨، وعن دور الجيش المصرى فيها، وعن مشاركة الإخوان المسلمين ● تأتى هذه الآراء جميعا منطبعة ومتأثرة بوجهة نظر صاحب المذكرات، لكنها فى الوقت نفسه تضيف إلى معلوماتنا عن الحرب وإلى معرفتنا بهذه الفترة من تاريخنا المعاصر ● حسين حمودة يُدقق فى المعلومات التى يوردها فى هذه المذكرات عن حرب فلسطين ● يتحدث بنقاء وصفاء عن علاقة المسيحيين بالإخوان فى حرب فلسطين ● ما يرويه صاحب المذكرات عن قصة ومأساة الفالوجا ● قصة تحرير العسلوج من الاحتلال الإسرائيلى ● يستشهد بشهادة أدلى بها قائد القوات المصرية فى الحرب [اللواء المواوى] ● المذكرات تقدم رؤية واضحة جداً (وإن تكن شخصية) لأزمة عميقة جداً واجهت مصر حين كان النقراشى وحسن البنا يبدوان وكأنهما يتنازعان الزعامة السياسية فى مصر، وانتقل هذا النزاع إلى القوات المشاركة فى حرب فلسطين ● لا نكون منصفين إذا نقلنا رؤية حسين حمودة على أنها الحقيقة المطلقة ● يروى أنه هو نفسه (وليس أحدا آخر) كان بمثابة الضابط الذى كلف بقيادة معتقل رفح الذى اعتقل فيه الإخوان المسلمون الذين كانوا يشاركون فى العمليات الحربية، مع أنه كان على ما صور لنا نفسه بمثابة الإخوانى المنتمى ● حسين حمودة يتبنى فى هذه المذكرات وجهة نظر الإخوان المسلمين القائلة بأن الملك والحكومة المصرية كانا يخشيان من تصاعد أو تنامى القوة العسكرية للإخوان المسلمين بسبب الاشتراك فى حرب فلسطين ● يتبنى وجهة نظر الإخوان من موقف محمود فهمى النقراشى باشا منهم فى أثناء حرب

فلسطين، تصوير النقراشى فى صورة السياسى الأخرق الذى آثر النجاح فى معركة داخلية على النجاح فى المعركة الحربية مع العدو مع أن الوقائع والمنطق لا يخدمان رؤية حسين حمودة التى يوردها ● رأيه فى قصة الأسلحة الفاسدة ● يقدم رواية أخرى أكثر معقولية، ويعطينا تفسيراً حكيماً يستحق أن ننقله عنه ● المسئول هم أعضاء اللجان التى اشترت الأسلحة ● رأيه: لا يُعقل أن يكون الملك مسئولاً أو متواطئا ● الأسلحة الفاسدة مع وجودها بالفعل لم ترسل إلى ميدان القتال ● حديث ممتزج بالموضوعية والذاتية عن رؤيته لكثير من شخصيات عهد الثورة ● الرئيس محمد نجيب يحظى بإنصاف حسين حمودة ● يوسف منصور صديق يحظى بتقدير صاحب هذه المذكرات ● خالد محيى الدين يحظى بالثناء الجميل والتقدير لشخصيته ● سعد توفيق أحد الضباط السبعة الذين بايعوا الإخوان فى بداية ١٩٤٦ يحظى بتقدير عميق من المؤلف ● حسين الشافعى هو الآخر يحظى بهذا التقدير وبالثناء على دوره ليلة الثورة ● يروى أنه اكتشف خصال حمزة البسيونى منذ مرحلة مبكرة جداً حين زامله فى عام ١٩٤٥ ووجده إنساناً غير طبيعى يتميز بالتوحش والقسوة والإجرام، وأنه لم يدر فى ذلك الوقت ما تخبئه الأقدار لشعب مصر على يد ذلك السفاح المجرم(!!) ● تحليل شخصية شمس بدران ودوره ● يعتز بزمالته لشعراوى جمعة ويذكر أنه كان من الضباط الممتازين ● يثنى ثناء جماً على محمد أحمد سكرتير عبدالناصر ● يقدم سيرتين ذاتيتين مهمتين لاثنين من أقطاب الحركة الوطنية عزيز المصرى ومحمود لبيب ● وجهة نظر حسين حمودة فى أن الضباط الأحرار لم يحكموا مصر بعد الثورة، وهو يقيم حجته على هذه الرواية بالقفز وراء وأمام بعض الحقائق التى نعرفها.

الثورة فوق الديمقراطية

هذه هى الطبعة الثانية أو الموسعة من هذا الكتاب، وتكاد أن تكون كتابا جديدا لا أقول لا علاقة له بالأول ، ولكنى أقول إنه هو الأول بعد التوسيع والتعديل والتنقيح والترتيب والتنسيق.

وقد تعمدت (أو بالأحرى التزمت) أن أعيد كتابة كثير من الأجزاء التى تضمنها هذا الكتاب بما يتوافق مع ما تنامى من معلوماتى خلال السنوات الخمس الماضية .وبما يتوافق أيضا مع ما سجلته وما كتبته فى الكتب التسعة من سلسلة هذه الكتب التى تتناول مدارسة المذكرات، فقد صدرت خلال هذه السنوات تسعة كتب بعد هذا الكتاب الذى كان الثالث فيما صدر، ولم يكن قد صدر قبله إلا كتابان هما: «مذكرات وزراء الثورة» و«مذكرات المرأة المصرية». وقبل هذا مع مايتوافق مع نمو ونضج منهجى فى التناول والنقد والمدارسة.

كذلك كان من الضرورى أن تنضبط الروايات الواردة فى هذا الكتاب مع ما سبق أن تناولناه من روايات وآراء فى الكتب العشرة التى صدرت منذ صدور الطبعة الأولى لهذا الكتاب، وهى: «مذكرات الهواة والمحترفين»، و«مذكرات رجال القضاء»، و«مذكرات قادة المخابرات والمباحث»، و«مذكرات رجال الدبلوماسية» وثلاث مجموعات من «مذكرات قادة العسكرية المصرية فى ١٩٦٧ وفى ١٩٧٣ ومابين ١٩٦٧ و١٩٧٢»، و«مذكرات وزراء نهاية الملكية (٤٩ ـ ١٩٥٢)» و«مذكرات الصحفيين».

وسيجد القارئ أن هذا الكتاب قد حمل عنوانا جديدا هو «نحو حكم الفرد» على نحو ما بدأنا من تقليد أرسته «دار الخيّال» منذ خامس كتاب من هذه الكتب وهو تقليد إعطاء عناوين

كبيرة تتصل بالمضمون وتعبر عنه، وهكذا يأتى عنوان هذا الكتاب ليكون متصلا بالعناوين السابقة «محاكمة ثورة يوليو»، و«الأمن القومى لمصر»، و«الطريق إلى النكسة»، و«فى أعقاب النكسة»، و«النصر الوحيد»، و«على مشارف الثورة»، و«فى خدمة السلطة».

وفى الحقيقة فإن العنوان الذى تحمله مدارستنا لهذه المجموعة من المذكرات يعبر تمام التعبير عن المضمون السائد فيها، فهى فى مجملها تغلب الحديث عن الظروف والآليات والأسباب والدوافع والنوازع التى قادت فى النهاية إلى تحول حكم الثورة إلى حكم فردى، سواء كان هذا تقدما نحو الصواب أو بعدا عنه، بل ربما يحس القارئ أن التحول إلى حكم الفرد كان أرحم بالوطن من استمرار التنازع بين فصائل مختلفة من الضباط الأحرار، ولسنا نستبق بمثل هذا الرأى ما قد توحى به قراءة المذكرات، كما أننا لا نصادر بمثل هذا الحكم على ما قد يصل إليه رأى القراء، ولكننا فى واقع الأمر نصور حقيقة وطبيعة الشعور الذى يتنامى فى النفس الإنسانية وهى تقرأ أو تناقش هذه التفصيلات المتعددة حول الصراعات المتوالية التى دارت بين مجموعات الضباط الأحرار والقوى المرتبطة بها بعدما نجحت حركة الجيش فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

ويكاد الحديث عن الانتقال من حكم جماعة أو جماعات إلى حكم الفرد أن يكون بمثابة الموضوع المسيطر على حديث أصحاب المذكرات عن الفترة الأولى من عهد الثورة، ونحن نرى الرئيس محمد نجيب ـ على عكس ما نتوقع ـ أقل هؤلاء حديثا عن هذا الانتقال، وليس هذا بالأمر الغريب لأنه ببساطة لم يعان من عبدالناصر بمفرده، وإنما عانى من مجموعة مجلس قيادة الثورة مجتمعين، ولهذا فإنه فى المقام الأول لا ينعى على عبد الناصر سلوكه ، ولكنه ينعى على أعضاء مجلس قيادة الثورة انسياقهم مع عبد الناصر (ولا يقول وراءه) حتى أطاحوا به غدرا على نحو ما يرويه ، وعلى نحو ما نعرف ويعرف التاريخ ، أما بقية المذكرات فهى تتحدث عن هذا المعنى فى وضوح شديد لا تنقصه الصراحة ولا التصريح.

ونحن نرى خالد محيى الدين ـ على سبيل المثال ـ وهو يروى المراحل المختلفة التى مر بها فكر عبد الناصر حتى وصل إلى ما وصل إليه من هذا النجاح فى السيطرة على الأمور، كما نرى نفس التفصيلات فى حديث عبدالمنعم عبدالرءوف وحسين حمودة ، وإن غلفت بالحديث عن نكث عبد الناصر ومجموعته بحلفهم مع الإخوان.

وعلى الرغم من أن بلادنا العزيزة قد عانت معاناة رهيبة من حكم الفرد ونتائجه وعواقبه، فإننا لا نستطيع أن ننكر حقيقة مهمة ، وهى أن هذا الحكم ربما جنبها سلسلة طويلة من الفتن والقلاقل كان من الممكن أن تنساق إليها لو أن كل سلاح من الأسلحة أو كل مجموعة من مجموعات الضباط قد نجحت فى أن تصل إلى الحكم عبر انقلاب أو بواسطة القوة ، ولو أن

هذا حدث لكانت مصر بكل ما فيها قد انخرطت وانزلقت إلى دوامة الانقلابات العسكرية التى عرفتها دول شقيقة ومجاورة.

ومع هذا فإننا لا نستطيع أن ننفى حقيقتين مهمتين:

الحقيقة الأولى: هى أننا لا نجزم أو بالأحرى لا نستطيع أن ننفى أن انقلابا من هذه الانقلابات كان كفيلا بأن يقود وطننا إلى حياة سياسية أكثر ازدهارا ومعقولية من تلك التى عاشتها بلادنا تحت حكم جمال عبد الناصر، وقد انتهت بأقسى مأساة يتخيلها العقل البشرى على نحو ما حدث بالفعل فى ١٩٦٧.

أما الحقيقة الثانية: فهى أننا لا نستطيع أن نجزم أو أن نؤكد أن مصر بكل تاريخها الليبرالى كانت عاجزة عن أن تقود حياتها السياسية بعيدا عن حكم الفرد حتى لو كان هذا فى ظل ديكتاتورية عسكرية.

وعلى كل الأحوال فإن التفصيلات التى نستعرضها فى هذه المذكرات لا تتوقف عند حدود هذه الفرضيات، وإنما هى تمتد إلى رواية وتأمل وشرح الآليات المتعددة التى قادت إلى ما حدث على نحو ما حدث.

وليس من شك فى أن الحديث عن الفترات الباكرة من الحياة السياسية لعبد الناصر والسادات وزملائهما أمر كفيل بأن يلقى بأضواء كثيرة ومتعددة على الجوانب المهمة فى مرحلة التكوين. كما أن الحديث عن ديناميات العلاقات فى ظل المجموعات الصغيرة كفيل بأن يجعلنا نتفهم موقف الشخصيات ذاتها حين تخرج فى نطاق نشاطها وممارستها للسياسة من نطاق إلى نطاق آخر أكثر عددا وأكثر تنوعا فى ذات الوقت.. ولن يكون من الصعب علينا أن ندرك من خلال المذكرات التى نتدارسها فى هذا الكتاب أن كثيرين من الذين قاموا بالثورة وأداروا أمورها لم يكن قد نما عندهم، بل ربما لم يكن قد وجد لديهم الحس السياسى من الأساس، ولهذا فقد كانت هناك تربة خصبة تهيئ لصاحب المبادرة ذى الحس السياسى (مهما كان قصوره) أن يعتقد فى أهمية انفراده بالأمر.. ومن ثم بالحكم.. على أن هذا لا ينفى الوجه الآخر للقضية، وهو أن آراء الآخرين لم تكن خطأ على طول المسار، وأن ممارستهم لم تكن ضلالا على طول الخط، كما أن تمسكهم بالقيم العليا لم يكن يقل عن تمسك صاحب الفرصة فى الحكم المطلق بما رآه حقا أو خيراً أو و جمالاً.

وربما قادنا هذا إلى تأمل السؤال الذى طرحه فى ذكاء شديد واحد من أصحاب هذه المذكرات وهو حسين حمودة، وهو نفسه الذى أجاب فى ذكاء شديد عن سؤاله بأن الضباط الأحرار لم يحكموا مصر بعد الثورة، وقد دلل على هذا بمجموعة من الأدلة التى لا يتطرق

إليها الفساد فى الاستدلال ولا القصور فى التسبيب، ومن ناحية أخرى فإن مقارنة كشف الضباط الذين شاركوا فى السلطة بكشف الضباط الأحرار تجعلنا بسهولة ننحاز إلى رأى حسين حمودة.

وربما يكون من الطريف أن نتأمل ـ على سبيل المثال ـ أسماء الذين وصلوا إلى عضوية اللجنة العليا (التنفيذية) قبل وفاة الرئيس جمال عبد الناصر، فصحيح أن أنور السادات كان من اللجنة القيادية لتنظيم الضباط الأحرار، لكننا فى المقابل لا نجد غيره من أعضاء هذه اللجنة وقد بقى فى هذا الموضع المتقدم من دولاب الحكم فى عهد الثورة. فعلى صبرى لم يكن عضوا فى تنظيم الضباط الأحرار، وحسين الشافعى لم ينضم إلى اللجنة القيادية إلا عند تشكيل مجلس قيادة الثورة بعد قيام الثورة بشهر، وبالتحديد فى أغسطس ١٩٥٢، أما عبدالمحسن أبو النور فكان من الصف الثانى للضباط الأحرار، وبالموازاة لهؤلاء العسكريين الأربعة فى اللجنة التنفيذية العليا، كان هناك أربعة مدنيين، أحدهم تكنوقراطى قبطى يعكس وجوده الرغبة فى التعبير عن وحدة الأمة الوطنية، وقبله تكنوقراطى تقليدى ظل مع الثورة (منذ ديسمبر ١٩٥٢) على السراء والضراء حتى وصل إلى منصب نائب رئيس الجمهورية، وبعده أستاذ جامعى ومحام إقليمى وجدا الفرصة (بآليات حكم الفرد) إلى المواقع المتقدمة من خلال الاتحاد الاشتراكى.

بل ربما يكون من الإنصاف أن نذكر أن هناك من الضباط الأحرار مَنْ لم يصل إلى المواقع الأولى فى الحكم إلا فى عهد الرئيس حسنى مبارك (كتوفيق عبده إسماعيل وصبرى القاضى)، أو فى نهاية عهد الرئيس السادات (كالمشير أبو غزالة).

بل ربما نضيف أن الضباط الأحرار الذين تولوا الوزارة فى عهد الرئيس عبد الناصر كانوا أقل عدد من الضباط الوزراء الذين لم يكونوا أصلا من الضباط الأحرار.

فإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن النفوذ فإننا نفاجأ بأن سامى شرف ـ على سبيل المثال ـ لم يكن من الضباط الأحرار.

ونحن ندرك من مدارستنا لهذه المذكرات أن التوجه نحو حكم الفرد لم يكن هو النتيجة الحتمية أو الطبيعية الوحيدة لسلوك قادة الثورة فى أول عهدها، ولكن كانت هناك نتائج عديدة لهذا السلوك، ومن أسف أن هذه النتائج قد سيطرت على حاضر ومستقبل مصر منذ ذلك الحين، ولعل أبرز النتائج الفورية لصراع رجال الثورة على الحكم أن هذا الصراع تركز فى الصراع على السلطة وحدها دون أن يكون صراعا على أساليب تحقيق الأهداف أو الأمانى الوطنية، وهكذا كانت السلطة تقود إلى عملية هى أشبه بالتجريف (أو النحر)فى قياداتنا الوطنية، وقد وصلت الذروة الأولى لهذا السلوك فى صدور قانون يحظر على كل من تولى

الوزارة قبل الثورة أن يكون له أى نشاط سياسى، وهكـذا تم نفى طبقة وطنية عريضة تمتعت بالخبـرة الوطنيـة والأداء المتميـز ثم بدأت "ذروات " كثيـرة تتالى فـى هذا الاتجاه حتـى أصبح الخروج من السلطـة فى عهد الثورة بمثابة موت سيـاسى لصاحبه، وهكذا انتشـر التجريف إلى أبناء الثورة القائمين بها، وشمل هذا التجريف الأشخاص كما شمل المجموعات بنفس الآلية، وعلـى سبيل المثـال؛ فقـد رجال المدفـعية دورهم تـباعا، فـأبعـد رشاد مهـنا (أول وزيـر من العسكريين وممثلهم فى هيئة الوصاية على الـعرش) عن منصبه، ثم حوكم وحكم عليه بحكم قاس أبعده طيلة البقيـة الباقية من حـياته عن السيـاسة حتى توفى فـى نهاية القرن الـعشرين، وعاش من حياته فى ظل النسيان أكثر مما عاش من حياته قبل الثورة، وحدث نفس الشىءلعبد المنعم أمين عضو مجلس قيادة الثورة، ثم اقتيد أبرز رجال المدفعية للتحقيق والمحاكمة وأبعدوا تماما عن صفوف السلطة منذ ١٩٥٣.

وبالموازاة لهـؤلاء كان يوسف منصـور صديق عضو مجلـس قيادة الثورة يُـعد هو الآخر وهكذا كان أصحاب الرتب التى تعلو رتبة البكباشى وهم خمسة (محمد نجيب ومحمد رشاد مهنا ويوسف صديق وأحـمد شوقى وعبد المنعم أمين) قد أصبحوا خـارج السلطة (ويبدو أن هذا لم يكن صدفة) وأصبح أنور السـادات بهذا أعلى صاحب رتبة لأنه حرص على نوال حقة فى التـرقية إلى القائـمقام .. أما عبـد الحكيم عامر فـإنه ترقى إلى رتـبة اللواء من رتـبة الصاغ مباشرة !!!.

وعلى نـحو ما حدث لأقطـاب المدفعية حدث شـىء من هذا القبـيل لـسلاح الفـرسان فى ١٩٥٤ وأبعد خالد محيى الدين، وثروت عكاشة إلى خارج الوطن، فلما أعيدا بعد فترة جعلا من كبار موظفى الدولة فى حقلى الصحافـة والثقافة. ولـم ينته عام ١٩٥٤ إلا وقد أبعد محمد نجيب وعزل فى مـنفى قاس فى المرج، وأبعد صـلاح سالم فى ١٩٥٥، ولحق به شقيـقه جمال سالـم، وهكذا فإن اللجنة الـتنفيذية القيادية للضباط الأحـرار فقدت أربعـة من أقطابها من قبل أن يصبـح جمال عبدالنـاصر رئيسا منـتخبا للـجمهورية (باسـتفتاء عام) فى ١٩٥٦، مـكرسا بهذين الاستفـتاء والانتخاب؛ الانفراد بالحكم بحـل مجلس قيادة الثورة نهائـيا، ولم يكن قد بقى مـنه إلا نصف أعـضائه الأصلـيين: البغـدادى، والسادات، وكمـال الدين حسـين، وعبد الحكيم عامر، وحسن إبراهيم.

ومن بين مَنْ بقوا فإن اثنين قررا تجنب النزاعات تماما واكتفيا بمناصب بروتوكولية إلى حين وهما : أنور السـادات وحسن إبراهيم.

هكذا فإن العشرة الذيـن كانوا فى موقع القيادة ليلة الثورة قد تـقسموا خلال أربع سنوات فقط إلى أربعة واثنين وأربعة :

أربعة ابتعدوا نهائيا (محمد نجيب ، وخالد محيي الدين ، وصلاح سالم ، وجمال سالم).

واثنان بقيا على الهامش مؤقتا (السادات ، وحسين إبراهيم) .

وأربعة ظلوا يمارسون الحكم والسلطة (عبد الناصر . وعبد الحكيم ، وعبد اللطيف بغدادى، وكمال الدين حسين) ولم تسمح الظروف فيما بعد بعود أحد إلى تفعيل دوره إلا لأنور السادات .

كما كان نصف الأعضاء الجدد الذين ضموا فى أغسطس ١٩٥٢ قد أبعدوا (عبد المنعم أمين، ويوسف منصور صديق)، على حين بقى النصف الآخر (زكريا محيى الدين، وكمال الدين حسين).

ومع مطلع الستينيات كان ثلاثة من أعضاء مجلس القيادة الأولين (البغدادى، وكمال الدين حسين، وحسن إبراهيم) يحسون بأنه آن لهم أن يبتعدوا كزملائهم السابقين، وقد تكرس ابتعادهم بطريقة رسمية فى ١٩٦٤، على حين بقى من زملاء عبد الناصر الأولين اثنان فقط هما: عبد الحكيم عامر على رأس المؤسسة العسكرية نائبا للقائد الأعلى للقوات المسلحة، وأنور السادات على رأس المؤسسة التشريعية (!!) رئيسا لمجلس الأمة.

ولم يكن غير هذين الصديقين الصدوقين لعبد الناصر مَّن استطاع البقاء إلى ١٩٦٧، وليس من قبيل التجنى أن نزعم أن كليهما كان يعتقد ـ سراً أو علناً ـ فى أحقيته هو الآخر فى أن يكون بمثابة " الفرد ' الذى يحظى بحكم الفرد ولولا هذا ما بقيا.

❑

على أن الأهم من تأمل كل هذا التتابع فى" التجريف" أن نتأمل فى طبيعة الخلافات التى أبعدت هؤلاء جميعا عن بعضهم، وللأبد، منذ سنوات مبكرة فى ممارستهم للحكم، ومما يؤسف له أن هذه الخلافات لم تكن تنم إلا عن أخلاق مرضية من قبيل التعصب الشخصى، والروح الفردية، وضيق الأفق، وقلة الثقافة، وانعدام الوعى، ولم يحدث أن كانت هذه الخلافات خاضعة لمنطق أو عقل، أو نابعة من فهم أو فكر، وإنما هى كما ترينا المذكرات التى نقرؤها فى هذا الكتاب خلافات قائمة على الظن والشك والتخوين، ومنحصرة فى الاعتقاد باحتكار الصواب وانعدام البدائل.

ومن العجيب أن يحدث هذا بين شباب من المفترض أنهم عاشوا شبابهم فى ظل حكم ليبرالى كانت السلطة تتداول فيه حتى لو جاءت أحزاب الأقلية إلى الحكم بالتزوير، وكان الوفد صاحب الأغلبية يحترم القانون حتى لو أسىء استعماله، وكانت الزعامات الكبيرة ترتضى العمل مع بعضها من أجل الوطن فى كثير من الأحيان، وليس ببعيد عن الذاكرة أن

محمد محمود وإسماعيل صدقى باشا وغيرهما من كبار رجال الأحزاب المناوئة للوفد كانوا أعضاء تحت رئاسة النحاس باشا فى الجبهة الوطنية التى فاوضت بريطانيا حتى تم إبرام معاهدة ١٩٣٦، وليس ببعيد كذلك أن الحركة الوطنية كانت تعترف لأحمد ماهر (وكان لايزال وفديا) ولعبد الحميد بدوى (ولم يكن وفديا) بالجهد البارز فى إنجاز إلغاء الامتيازات الأجنبية بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ على يد النحاس باشا العظيم.

وقبل هذا فإن سعد زغلول باشا (بكل ما كان يمتلكه من سطوة حب الشعب وتأييده وانسياقه وراءه وحصوله على الأغلبية الساحقة من الأصوات فى انتخابات ١٩٢٦)، قد قبل بأن يشكل عدلى باشا الوزارة وأن يتولى هو نفسه رئاسة مجلس النواب وأن يرأس حسين رشدى مجلس الشيوخ.. ولما أصر عدلى باشا على الاستقالة كان سعد باشا نفسه هو الذى سعى إلى عبد الخالق ثروت حتى يقبل برئاسة الوزارة.

بل إن عبد الخالق ثروت نفسه قبل أن يعمل وزيرا تحت رئاسة عدلى يكن بعدما كان قد وصل إلى رئاسة الوزارة، وكذلك قبل حسين رشدى أن يكون نائبا لرئيس الوزراء عدلى باشا يكن فى «وزارة الثقة»، بينما هو الذى اختار عدلى كوزير لأول مرة وذلك فى وزارته عام ١٩١٤.

وقل مثل هذا عن قبول صدقى للعمل وزيرا فى وزارة محمد محمود باشا بعدما كان قد تولى رئاسة الوزارة لفترة أطول من رئاسة محمد محمود، وقل مثل هذا أيضا عن قبول عبد الفتاح يحيى العمل تحت رئاسة محمد محمود... إلخ.

وعلى النقيض من هذا كله فإن أحدا من رجال الثورة جميعا (على الرغم من ضعف مقومات العظمة فى شخصياتهم) لم يقبل بالعمل تحت رئاسة مَنْ هو أحدث منه لا فى كشف الأقدمية وحده، ولكن فى عقيدته هو.. وقد أدى هذا بالطبع إلى نتيجة خطيرة، وهى تطلع كل واحد من هؤلاء إلى انزياح من هم أقدم منه من طريقه حتى يصعد سهمه، وكان هؤلاء جميعا يؤمنون بالتالى بروعة الخلاصَ ممن هم قبلهم فى الكشف، لأن هذا كان بمثابة السبيل الوحيد للوصول.

□

ولم يكن صعبا تخيل مدى ما يمكن للديمقراطية ان تعانيه فى ظل الحكم العسكرى، فالحكم العسكرى بطبعه ينقل للحياة المدنية أسلوبا لا يتوافق مع طبيعتها. ولكنه مع هذا يكفل لنفسه السيطرة على الحياة المدنية حتى لو لم تتقبله، وحتى لو أنها عبرت عن رفضها له، ولا يقتصر هذا الأسلوب على مبدأ إطاعة الأوامر الصادرة من أعلى، فهذا هو أهون ما فى طبيعة الحياة العسكرية، لكنه يتعدى هذا إلى كافة الأساليب الإدارية الاستثنائية التى لابد منها فى

الحياة العسكرية، على حين أن الحياة لا تستقيم بها ولامعها في الحياة المدنية، ولكي أبسط الصورة على الفهم فإني أستطيع أن أصور للقارئ أن الله سبحانه وتعالى زود الجسم البشرى بالقدرة على إفراز «الإدرينالين» في الأزمات، حتى يستطيع أن يواجه الحاجة إلى رفع كفاءة أجهزة الجسم في مواجهة الأزمة، فتتسارع ضربات القلب ويزداد المدفوع القلبى من الدم، وتنتبه الأعصاب السمباثاوية، ويأتى هذا على حساب وظائف أخرى روتينية ينصرف الجسم عنها قاصداً متعمداً مضطرا إلى حين، وهكذا فإن الجسم لا يستطيع أن يعيش على الدوام بنفس النمط الذى يعيشه فى الأزمات الطارئة، وهو نفس المنطق الذى ينطبق على حالات الحكم العسكرى، فبوسع الحكم العسكرى أن يحقق كثيرا من الإنجازات بسرعة البرق، ولكنه يبقى بحكم طبعه عاجزا عن أن يهيئ الفرصة لأداء وظائف مدنية هادئة كثيرة لا يمكن لها أن تؤدى كما ينبغى فى ظله، وليس فى الأمر سر ولا كثير من التنظير، فهذه هى طبيعة الأشياء.

وربما يحتاج القارئ إلى التأكد مما يدور فى خلده الآن ـ على سبيل المثال ـ من أن المشاركة الفردية فى التنمية لا يمكن أن تزدهر أبدا فى ظل حكم عسكرى يقوم عن الأفراد بمهمة التنمية، ويعتقد أن التنمية ليست إلا إنجاز مهام محددة فحسب، وهكذا يمكن تصور مثل هذا المجتمع، وهو يكرر أداء وظائف تنموية قديمة دون أى إبداع أو تجديد، وهكذا تصبح التنمية فيه نوعا من الترهل أقرب إلى التضخم من دون أن تحدث طفرات نوعية فى الأداء وأسلوبه، وربما تصبح التنمية فى ظل الحكم العسكرى قادرة على مواجهة احتياجات حالة أو مرحلة من مرحلة سابقة، لكنها لا تستطيع بحكم طبائع الأشياء أن تستشرف مستقبلا مزدهرا أو حتى مختلفا فحسب .

❑

وتنتقل خصائص الحكم الثورى لتسيطر على اختيارات الدولة للكفاءات التى تتولى معاونتها ـ فى أعلى مستوى ـ على أداء رسالة الحكم أو وظيفته، ومن حسن حظ الثورة المصرية فى ١٩٥٢ أنها وجدت مصر حافلة بكفاءات متميزة فى كل مجالات الحياة المدنية، وكانت فرصتها واسعة فى اختيار تلو اختيار، وبحيث إنها لم تكن تضطر إلى الحفاظ على كفاءة معينة لأنها كانت تجد بدائل متعددة من كفاءات ممتازة تعلمت ونمت وازدهرت فى عصر الليبرالية المصرية.

وقد كان التعليم المصرى ـ كما نعرف ـ متميزا وممتازا وقادرا على الوفاء لمصر وللمنطقة كلها بالكوادر فى جميع المستويات.. ومع هذا فإن الثورة ـ بقدرة قادر ـ مارست فى تعاونها مع الكفاءات المهنية أسوأ أساليب الاختيار والانتقاء بل والمعاملة، وقد كان هذا واضحا وضوح الشمس حتى وإن أخفته سياسة الثورة فى التعتيم والتجهيل وإخفاء الحقائق والاكتفاء

بصوت أوحد تُستقى منه الأقاويل على أنها الحقائق بينما هى الأكاذيب مضخمة أومزوقة أو ربما مختلقة من الأساس .

وربما يحتاج الأمر إلى بعض الإيضاح لطبيعة سياسات الثورة فى التعامل مع وزرائها ومساعديها فى أول عهدها، وقد تكفلت مذكرات كل من محمد نجيب وخالد محيى الدين ببعض هذا، ولست أدرى سببا جعل جمال منصور يتنازل عن رواية ما حدث لعمه وزير التموين محمد صبرى منصور فى أول عهد الثورة، وإن كان جمال منصور نفسه قد تفوق فى رواية مساوئ ومثالب وخطايا ومخاطر سيطرة بعض الاتجاهات والتوجهات على قرارات الدولة فى عهد عبد الناصر، وقد سجل ذكرياته بكل هذه الحرارة التى لا تزال تعتصر عقله وهو ذاهل من أن يسعى أبناء وطن إلى إحاقة الأذى بوطنهم على نحو ما فعلت إحدى الجماعات السياسية فى نهاية عهد عبد الناصر بصورة غاية فى الحدة، وفى نهاية عهد السادات أيضا بصورة أقل حدة.

ومن الجدير بالذكر أن الطرف الآخر فى العلاقات التى أشار إليها جمال منصور لم يكن واحدا، وإنما هو الغرب الأوروبى فى الحالة الأولى، والشرق السوفيتى فى الحالة الثانية، وهكذا كان الخلق «الثورى» فى الحالتين هو المندفع إلى ما لا ينبغى الاندفاع إليه فى السياسة الخارجية التى تقوم على حسابات دقيقة وتوازنات مرعية، ولكن مصر للأسف الشديد كانت تظن أنها لابد أن تندفع فى السياسة الخارجية إلى ما يرضى رجل الشارع، لا كل يوم ولكن كل ساعة.. وهكذا أصبحت سياستنا الخارجية نموذجا احتذى بالفعل بعد ذلك ممن ظنوا تجربتنا قابلة للتكرار فإذا هم فى عصر الإعلام مكشوفون ملامون بل ومتأسف عليهم. وللقارئ أن يتخيل أنفسنا لو أن سطوة الإعلام العالمى كانت قد تحققت قبل عشرين عاما من تحققها، وكيف كنا نصبح النموذج الأمثل للارتجال السياسى والاستراتيجى والدبلوماسى على كل المستويات.

ومن غرائب الأقدار أن أفضل ما يمكن لتكنوقراطى عاقل أن يفعله فى مثل هذه الظروف هو أن يحاول بشتى الطرق والأساليب أن يعوق الإنجاز الثورى أو أن يهدئ من سرعته أو أن يجمده أو أن يدفع به دفعا إلى الثلاجة،أو أن يقطع عنه وسائل الحياة والازدهار بكل ما هو ممكن ومتاح من طرق سلبية وغير سلبية، فذلك هو السبيل الأوحد لتقليل الآثار السلبية للسياسات المرتجلة التى تتولد عن الدكتاتورية العسكرية، لهذا السبب يمكن فهم النجاح الذى ينسب للدكتور محمود فوزى الذى عمل مع الثورة طيلة عهد عبد الناصر : وزيرا للخارجية، ثم مساعدا للرئيس للشئون الخارجية، فقد كان هذا الرجل يتولى بقدرة ملحوظة وغير ملحوظة تنفيذ كل ما يمكنه من التلطيف والتطييب من أجل التقليل من آثار الجموح الفعلى

والجنوح الفكرى، وكـان يستعين على أدائه لهذه المهمة بكل ما كان يمكن له أن يحققه لو أنه أدى وظيفته بما ينبغى من حماس.. وهكذا يمكن لنا فهم سر الانتقادات المتعددة التى توجه له من بعض النـاس وسر الثناء الذى يحظى به من أناس لا يختلفون فى توجهاتهم عمن ينتقدونه، والأمر ببساطة أنه كان كفاءة ما فى ذلك من شك، ولكن الظروف لم تتح له أن يستغل كفاءته فى أداء وظيفة إيجابية، وإنما اضطرته الظروف إلى أداء مهمة محدودة فى التقليل ما أمكن من آثار جانبية.. وكأنما تحول الدواء إلى الانحصار فى وظيفة محدودة هى أن يكون ترياقا فحسب لبعض العقاقير التى تم تناولها بطريق الخطأ. ولم يكن لدى الثورة استعداد بأى درجة لأن يكون لديها وزير خارجية من طراز آخر غير هذا الطراز، وليس هذا افتراء، فقد حدث بالفعل أن وقع اختيار الثورة فى أول عهدها على سلف متميز لمحمود فوزى، لكنه لم يستطع أن يمكث فى منصبه إلا ثلاثة شهور (من سبتمبر ١٩٥٢ وحتى ديسمبر ١٩٥٢) ريثما وفق الله الثورة إلى وزير خارجيتها التقليدى!

و لم يكن الأمر مقتصرا على مهنة الدبلوماسية وحدها، بل إنه تعدى هذا إلى كل المهن تقريبا بما فيها المهنة العسكرية نفسها، ومن الطريف أن الثورة احتفظت (مع مشيرها المفضل المترقى على يديها لواء ثم فريقاً ثم مشيراً) برئيس للأركان من الطراز الجامد الذى لا يحظى بمحبة الضباط أو تقديرهم له ولقيادته أو التفافهم حوله، وحين عبر أحد الثوار للرئيس عبد الناصر عن انعدام حب الضباط لرئيس الأركان هذا، كان جواب عبد الناصر عبقريا بكل المقاييس منبئا زميله أنه ليس من المطلوب أن يكون رئيس الأركان محبوبا من الضباط!!

وباختصار شديد فقد كان هذا التفكير بمثابة التفكير الحاكم فى كثير من اختيارات الثورة لرجالها المسئولين عن قطاعات كثيرة وحيوية آثرت الثورة لها كفاءات مكروهة على كفاءات محبوبة كى تحتفظ بالتوازنات التقليدية التى تقوم عليها أفكار وفلسفة الإدارة العامة فى إطار السياسة الميكيافيلية.

❑

ولم يكن من الغريب ولا من العجيب إذن أن تتلازم وتتزامن وتقترن تضحية الثورة بالديمقراطية بتضحيتها فى نفس الوقت بأبرز الكفاءات التكنوقراطية التى تعاونت معها فى مطلع الثورة ، ومع أن أحدا لم يعن بدراسة هذه النقطة دراسة موسعة ومفصلة ، فإن قراءة سريعة للتاريخ تنبئنا أنه مع انتهاء أزمة مارس لصالح عبد الناصر ومجموعته فى مواجهة الأحزاب والقوى السياسية ، بل وفى مواجهة سلاح الفرسان ، مع هذه النهاية التى بلورتها حادثة الاعتداء "الثورى" على الدكتور السنهورى كانت نهاية أخرى لتعاون طائفة من أبرز التكنوقراطيين المصريين مع الثورة، وخرج من الحكم نهائيا كل من عبد الجليل العمرى وعلى

الجريتلى ووليم سيلم حنا وعباس عمار وحسن بغدادى ، وهم خمسة متميزون إلى أبعد حدود التميز والتفوق والأمانة والوطنية والفهم والفكر والخبرة لم تعوضهم الثورة أبدا فيما بعد رغم زخم كل الكفاءات التى استعانت بها !!.

وبتمكن الثورة من الحكم بدأت فى فرض أساليب جديدة ومبتكرة من الاختيارات، ومن حسن حظ الثورة كما ذكرنا أنها لم تعان فى الخمسينات من اختياراتها على نحو ما نعانى منذ نهاية التسعينات وذلك لأن البدائل الكثيرة التى كانت متاحة كانت كلها متميزة بل وواضحة التميز، وكما ذكرنا فقد تكفل التعليم المصرى المتميز فى الفترة السابقة على الثورة بالتغطية على الآثار الجانبية لأهداف الثورة من اختياراتها للتكنوقراطيين المتعاونين معها. ونحن نلحظ هذا المعنى واضحا فى التفصيلات الكثيرة التى تحفل بها المذكرات التى نتدارسها فى هذا الكتاب.

ولكن فلسفة الثورة فى الاختيار كانت تصيب المراقبين بقدر من العجب أو الاشفاق على الثورة نفسها ولم يكن لهؤلاء أن يعجبوا أو يشفقوا فقد كانت الثورة وقيادتها أدرى بالصواب الذى تنشده .

وعلى سبيل المثال فإن الثورة كانت إذا أرادت اختيار قيادة تنفيذية تتولى الإشراف على تنفيذ هدف نبيل، فإنها كانت تعمد إلى مَنْ هو أقل إيمانا بهذا الهدف وتترك نظرائه ممن كانوا أكثر إيمانا بالهدف ودعوة له، وكان ذكاء الثورة فى هذه الجزئية ينبع من رغبة عميقة فى الاستحواذ على المجد بعيدا عن مشاركة مَن دعا أو بشر أو سعى إلى الهدف النبيل من قبل .

كذلك فإن الثورة كانت تعمد فى اختيارها لمن يتولون قطاعات الخدمات إلى مَن هو أقل الموجودين كفاءة بحيث يظل ولاؤه مرتبطا بالثورة التى اختارته لا أن يكون هذا الولاء مرتبطا بمستواه المهنى الذى لم ينبغ بعد بما فيه الكفاية لأن يتقدم الصفوف بصفة مطلقة .. وهكذا فعلت الثورة فى قطاعات كثيرة.

بل إن الثورة كانت كثيرا ما تتعمد إسناد الأمور الدقيقة إلى مَنْ هم متخصصون فى أمور دقيقة أخرى بعيدة عن التخصص المنشود وإن كانت تتجاور معه أو تتقارب فى الوجدان الشعبي، وكان هذا يحدث بتخابث يصور الأمر توحداً فى هذه التخصصات أو المجالات حتى وإن لم تتجاور فى الأداء المهنى، وهكذا كانت الثورة تختار للصناعة من تخصص فى هندسة العمارة، وتختار للعمارة والإسكان من تخصص فى هندسة الميكانيكا، وتختار للمالية من تخصص فى السياسات النقدية، وتختار للاقتصاد من تمرس بالأعمال المحاسبية.. وهكذا. ولم يكن هذا عن قصور نظر أو ضعف إدراك كما يظن بعض القراء، وإنما كان عن بعد نظر لا يدركه إلا من عاود القراءة والتحليل مرة ومرات واكتشف أن هذا لم يكن محض

مصادفة، لأن المصادفة لا تتكرر على الدوام، وإنما هى إذا تكررت بصفة دائبة ودائمة شيء آخر غير المصادفة. فإذا ما درست بطريقة علمية متأنية فإنها تقودنا إلى فهم حقائق حرص أصحابها على إخفائها إلى حين.

وتطلعنا قراءة مذكرات الضباط الأحرار التى بين أيدينا على عدد من الحقائق الأخرى التى تتعلق بظاهرة إنسانية غريبة وفريدة حين يتفاوت مصير جيل واحد تفاوتا رهيبا فيصبح أحدهم أسير محبس الحياة السياسية الإجبارية فى خلال سنوات قلائل، على حين يظل الآخر متصلاً بالحياة السياسية ومتفاعلا معها طيلة ثلاثة عقود تالية لابتعاد صنوه . ونحن نرى زكريا محيى الدين ـ على سبيل المثال ـ وقد ابتعد عن الحياة والأضواء بمحض إرادته الكاملة فى ١٩٦٨، بينما نرى خالد محيى الدين ابن عمه وزميله فى عضوية مجلس قيادة الثورة لا يزال فاعلا ومشاركا فى الحياة السياسية والبرلمانية إلى يومنا هذا فى ٢٠٠٢.

ولكى تتبلور الصورة فى أذهاننا بوضوح فإن أى شاب من أفراد عائلة محيى الدين الذين ولدوا فيما بعد عام ١٩٦٠ لايذكر أنه رأى عمه زكريا فى السلطة أو سطوتها أو أبهتها فى أى يوم من الأيام.. بينما هو يرى عمه خالد نجما متواصل اللمعان حتى وإن اختلفت درجة اللمعان والألمعية من عام إلى آخر..ومع أن هذه هى الحقيقة التى أدركتها حواس هذا الشاب فإنه يجد مَنْ هم أكبر منه من أفراد عائلته رجالا ونساء يخبرونه ولا يزالون يخبرونه أن عمه زكريا كان هو السلطة كلها، أو بعبارة أدق : كانت السلطة كلها هى عمه زكريا، بينما لم يكن عمه خالد إلا سياسيا من المعنيين بالكلام المنطوق أو المكتوب فحسب!!

بل يتعدى الأمر هذا إلى المهنيين المخضرمين،وحتى لا أطيل على القارئ فسأقص على القارئ قصة أربعة زملاء من دفعة واحدة كانوا مرشحين فى فترات متتالية لتولى وزارة العدل فقد تخرج أحمد فؤاد وأحمد خليفة وأحمد ممدوح عطية وفاروق سيف النصر فى نفس الدفعة من كلية الحقوق (١٩٤٣) ، وكان أحمد فؤاد مرشحا لمنصب الوزارة (وفى وزارة العدل نفسها) فى ١٩٥٣ لكنه عوض عنها بمنصب مواز فأصبح مسئولا عن بنك مصر ، بينما أصبح أحمد خليفة عضوا فى مجلس الوزراء فى منتصف الستينيات وكان مرشحا أيضا لوزارة العدل ولكنه ولى الشئون الاجتماعية والأوقاف وسرعان ما ترك الوزارة إلى منصب علمى هادئ، أما أحمد ممدوح عطية فقد أصبح وزيرا بالفعل فى النصف الثانى من السبعينيات وتركها إلى منصب قضائى رفيع ثم عاد إلى الوزارة (١٩٨٢) وتركها بمحض إرادته فى ١٩٨٧ مرشحا زميله (فاروق سيف النصر) الذى يتولى وزارة العدل إلى يومنا هذا.

ويتكرر هذا المثل فى قطاعات متعددة من حياتنا السياسية، وهو نمط غريب لا يمكن أن يوجد إلا فى ظل حكم الثورة التى عجلت للأولين بما حصل عليه الآخرون فى أوانه الطبيعى،

ولكن فسيفساء الحياة السياسية جعلت الصورة متداخلة على نحو ما يتداخل «الموزايك» الذى نعرفه فى حالات قصور صمامات القلب حين يختلط الدم الماضى فى طريقه الطبيعى بالدم المرتجع من طريقه بسبب قصور الصمامات، وتنشأ عن هذا صورة تختلف عما هو مفترض فى ديناميكيات الحركة الطبيعية واتجاهاتها المفترضة فى حال الصحة حين تتعاقب الأجيال مع تداخل طبيعى معقول بدلا من أن يتكرر وجود جيل واحد بصورة شاذة على مدى خمسين عاماً .

❑

وتتناول المذكرات التى نتدارسها فى هذا الكتاب قضية الفساد المبكر الذى تطرق إلى بعض الضباط الأحرار، وربما تتجاهل هذه المذكرات أن مثل هذا الفساد لم يكن إلا نتيجة طبيعية للدكتاتورية ولغياب الديمقراطية وغياب الشفافية والحساب وإعلاء الانتصار للمجموعة أو الجماعة أو الشلة ، و اعتبار باقى الشعب من " الآخرين"،وقد كانت الآثار السلبية والايجابية لمثل هذه الروح تجتمع معاً لتصب ضد مصلحة الثورة وكان هذا مما يؤسف له ، ففى حالة شباب أطهار لم تلوثهم الحياة بعد فإن الفساد المالى أو الإدارى أو الخلقى يعبر عن حالة من اليأس من تحقيق الأمل فى الصلاح أو الصواب، ومع قوة الشباب وطاقته يجد هؤلاء أنفسهم مدفوعين إلى تفريغ طاقاتهم فى صور كثيرة من الفساد الذى هو أسهل وأيسر وأقرب من البناء بكل مشقته، ولا تقف المشكلة عند حدود انتشار الفساد فى مجموعة ما من الضباط الأحرار، ولكن الانعكاسات الخطرة تتمثل فى ثورة بعض آخر منهم على القيادة بسبب تغاضيها عن الفساد، كما تتمثل فى رغبة آخرين فى أن يحققوا لأنفسهم مكاسب موازية لما يحققه الفساد لمرتكبيه، ويقود هذا الوضع إلى نوع من الصراع بين أنصار الحق المطلق، ومتقبلى الأوضاع الراهنة،ويعبر هذا الصراع عن نفسه بمفردات سياسية أخرى تجنح إلى تصوير نفسها منتصرة إلى أفكار أخرى أكثر ارتباطا بالحياة السياسية والاجتماعية فى إطارها النظرى ، وهكذا تدخل الصراعات والاختلافات الديمقراطية الطبيعية دائرة أخرى من الحديث بأسماء عن مسميات أخرى، ومن التوجه إلى مناطق أخرى ظنا من أصحاب التوجه أنها هى الكفيلة بتطهير المسيرة مما شابها من أخطاء، وربما كانت مناقشات سلاح الفرسان التى تلخصها المذكرات ، من أبرز الأمثلة الدالة على وقوع الفساد المبكر فى هذه الإشكالية ومعقباتها ومضاعفاتها .

وعلى النقيض من هذا فإن قيادة تاريخية كعبد الناصر سرعان ما تقع ـ للأسف ـ فى هوى جدلية التبرير، ويجد زعيم كهذا الرجل نفسه مضطرا إلى أن يلجأ إلى التجريد حين يواجه فى المناقشة حقائق دامغة تدين تصرفاته و تصرفات من هو مسئول عنهم، ثم إذا هو نفسه يلجأ

إلى التشخيص حين يواجه فى المناقشة بالرأى الحاسم أو الاستنتاج الصحيح الذى يتعارض مع أطروحاته.. وتفتح ردود عبد الناصر على زملائه فى مثل هذه المناقشات أبواب الشك والريبة واليأس والتململ، ونرى كل هذا فيما ترويه كل هذه المذكرات من مناقشات كان عبد الناصر طرفا فيها، وإن كنا نرى هذا المعنى أوضح ما يكون فيما توحى به المذكرات لقارئها على الرغم من أن كل من أصحاب المذكرات لم يستطيع بلورة الحقائق فيما وراء ما رواه من مشاهدات أو محسوسات .

❑

ومع أن الثورة قد حققت قبولا واستحسانا لسياساتها فى أول عهدها، فإننا سرعان ما نفاجأ بأن هذه الثورة لم تستثمر قبولها ولا استحسانها ولا نجاحها فيما كان ينبغى عليها أن تستثمره، ولكنها ظلت تعانى وتداوى حالة الخوف من تكرار الثورة، ولهذا تضاعف الاهتمام بأمن الثورة حتى استقطب نجاحات الثورة لتفرغ فيه، وخصص لهذا الجانب من الحياة أكثر الوقت الذهبى الذى كان من المفترض أن يتوجه إلى التنمية، بل إن علاقات مصر الخارجية صيغت للأسف الشديد من منظور التفكير فى هذا الأمن الثورى فحسب، وضاعت للأبد قوى دفع ضخمة وجبارة كان متاحا للثورة أن تستغلها لو أن القيادات المسئولة تفرغت لمهام القيادة بوعى ومسئولية، ولكن نقص الخبرة جعل رجال الثورة يفقدون بأكثر مما يكسبون.

وترينا المذكرات التى بين يدينا ـ على سبيل المثال ـ أن فشل الثورة فى موضوع السودان لم يكن بسبب السودان ولا الإنجليز ولا مصر، ولكنه كان فى المقام الأول بسبب صراع رجال الثورة مع أنفسهم حول رؤاهم للوضع فى هذا الجزء من وادى النيل، وربما كانت استقالة صلاح سالم التى روت المذكرات جوها وملابساتها أبلغ تعبير عن هذا الصراع الداخلى الذى انتهى بهذه الاستقالة معلنة وحاسمة وكاشفة دون أن يجد الآخرون فى أنفسهم الشجاعة قبل شهر أو شهور ليسبقوا الرجل إلى تفجير الموقف، ونجد عبد الفتاح أبو الفضل يطلعنا على تفصيلات حية تكشف عن الفشل المصرى فى مقابل الدهاء البريطانى، على حين نجد مذكرات عبدالمنعم عبد الرءوف وحسين حمودة وخالد محيى الدين مشغولة تماما عن التطرق لهذا الموضوع الجوهرى بسبب انشغال أصحابها فى ذلك الوقت بما كان من صراعات داخلية، وفى المقابل فإن جمال منصور (وهو الذى يرى أنه صاحب تسمية الضباط الأحرار ومنشوراتهم الأولى) قد أصبح ومنذ مرحلة مبكرة بمثابة السائح المصرى في أوروبا فحسب. ويكفينا هذا التأمل لفهم طبيعة معالجة الثورة لقضية السودان، وهى ذات المعالجة التى تكررت بعد هذا بطريقة أكثر فظاعة وفظاظة فى سوريا ثم فى اليمن وإلى حد ما فى العراق والجزائر وغيرها، حيث ربطت السياسة المصرية فى عهد الثورة استراتيجية مصر بأشخاص معينين،

واكتسبت تلقائيا عداوة مَن هم مختلفون معهم، ثم غذت الصراع بطريقة إعلامية وتصريحية فجة، وصنفت القوى الوطنية فى كل هذه الأقطار الشقيقة بحيث أصبح مَن يرى رأينا وطنيا وقوميا وعروبيا ومَن لا يراه خائنا وانفصاليا ورجعيا وعميلا ، وتعاملت سياستنا بتعال شديد مع كل هؤلاء، سواء فى ذلك أنصارنا أو مَنْ هم متحفظون على تصرفاتنا القاصرة. ولم تتوقف سياستنا الثورية فى تلك الفترة لحظة واحدة لمراجعة نفسها، وكان من الطبيعى أن تقل طائفة أهل ثقتنا يوما بعد يوما عدداً وقوة ، وأن تزداد بالتالى وبتلقائية طبيعية طائفة المناهضين لتصرفاتنا القاصرة، وهكذا فإننا أحرجنا أصدقاءنا فى النهاية فى كل هذه الأقطار، بل وصل الأمر فى النهاية إلى أن أصبح وجود هؤلاء الذين أحرجناهم يمثل قلقا لبلادهم لا يحل إلا باستضافتهم فى مصر بعيداً عن نظم الحكم فى بلادهم.. ولم يكن كل هذا إلا نتاجا لدكتاتورية شابة لم تفلح فى أن تصقل من معارفها أو من تصوراتها، أو أن توسع فى آفاق علمها ومعارفها وفكرها وعملها بعيدا عن منظور الأمن الضيق!! وللأسف الشديد فإن أصحاب القلم المقربين لم يتورعوا عن تغذية الأخطاء وتكرارها ولم يكلفوا أنفسهم النصح للحظة واحدة لأنهم لم يحسبوا إلا حساب نعيمهم الدنيوى وتفردهم بالمجد وأذن الزعيم وفمه !!

❑

ولا تخلو المذكرات التى بين يدينا من بحث لأصحابها عن المبررات التى تسوغ تقبل وقوع رجال الثورة فى الخطأ، ونحن نرى خالد محيى الدين بصفة خاصة، ومحمد نجيب إلى حد ما، ينتقدون انسياق القانونيين إلى تأييد الثورة وتمهيد الطريق لها، حتى إذا ما وقعت الواقعة وقام فصيل من فصائل الثورة بإهانة القانون فى شخص رئيس مجلس الدولة القانونى العظيم الذى لم تنجب مصر مثله، فإننا لا نرى أسفا على ما حدث وإنما نرى تشفيا من أصحاب المصلحة فيمن ساعدهم على تحقيق أهدافهم وكأنهم استعبدوه لأغراضهم، ولم يعد من حقه أن يعود إلى رشده، وهكذا حكمت الثورة بعد هذا على كل أصحاب الحماس لها بأن يتربثوا فى حماسهم لأنه لا يجوز لهذا الحماس أن يتوقف أو يفتر أو يتحول إلى حماس إيجابى ناقد، بل إننا نعجب من أن يفيض خالد محيى الدين فى هذا الهجوم على القانونيين الذين أفادوا الثورة والحياة السياسية دون أن يوازن هذا بالإشادة بموقف قانونى كبير كوحيد رأفت، وقف نفسه ضد تيار الثورة المخالف للمنطق والقانون،ودون أن يدين أصحاب المصلحة وهم زملاؤه بمن فيهم هو نفسه ، وهكذا نستطيع أن نلمح بوضوح أن الثورة كانت حتى فى كتابات أكثر أفرادها حرصا على تصوير نفسه وعيا بالديمقراطية (وهو خالد محيى الدين) لم تكن ترحب بالصواب ولا بالحق ولا بالقانون ولا بالمنطق ، لكنها كانت ترحب بما

يتوافق مع أهوائها،وإذا حدث أن ذكرها أحد بالحق بحثت له فى تاريخه عن تأييده لها بالباطل لتفحمه وتسكته أو تعايره دون أن تتوب أو أن تعلى فى ذات الوقت من قيمة مَن وقفوا مع الحق.. وقد سارت الثورة طيلة عمرها على هذا المنهج الميكيافيلى المتميز.

❑

ومع سعادة الثورة بإنجازيها الكبيرين فى الإصلاح الزراعى والسد العالى، فإنها حتى الآن لم تفكر فى أن تكرم أصحاب هاتين الفكرتين، ولا من أفنوا أوقاتهم من أجل الفكرتين، وليس فى مصر كلها شارع يحمل اسم صاحب فكرة السد العالى ، ولا تمثال له، ولا قاعة، مع أن الرجل هام بالفكرة إلى حد أن استغرقته وأخذت عليه مجامع نفسه، كذلك فإن السياسى القديم الذى نادى بفكرة الإصلاح الزراعى قبل الثورة وطرحها فى البرلمان ودافع عنها وتعرض فى سبيلها للهجوم، لم ينل من الثورة أى تقدير، بل إن نائبا آخر كان قد أيد دعوته استبعد من أن يكون مرشحا لتولى المسئولية عن الإصلاح الزراعى حتى لا تختلط الأوراق فى أذهان الناس عندما يرون الفكرة متجسدة فيظنونها بفضل إدارته التنفيذية.

وحدث هذا مع إنجازين آخرين كانا بالطبع فى حاجة إلى شجاعة القرار وإعلانه، وهما إعلان الجمهورية، وإعلان تأميم القناة، ولكن أحدا لم يسمح بأن يترك أحدا يصرح للناس بأن هاتين الفكرتين كانتا واردتين من قبل، وإنما صورت الأمور على أنها من اختراعات قيادة الثورة التى صور لها منافقوها من أصحاب القلم أنها احتكرت الإلهام، وبالتالى فإنها احتقرت كل إلهام للآخرين وقد أدى هذا بالطبع إلى سيادة وتنمية روح الادعاء عند طبقات المديرين الصغار والتنفيذيين الكبار على حد سواء، فأصبحت المؤسسات القديمة بقدرة قادر مؤسسات جديدة بإجراء واحد فقط، وهو وضع يافطة جديدة عليها، وعلى سبيل المثال كان هناك مجلس فؤاد الأول للبحوث العلمية (منذ أوائل الأربعينيات)، فإذا بيافطة جديدة باسم المركز القومى للبحوث توضع على المبانى بعد اكتمال بنائها وتحمل تاريخ ١٩٥٦ على أنه تاريخ الإنشاء، مع أن ١٩٥٦ لم يكن إلا تاريخ تغيير الاسم، ولولا الصعوبة الفنية فى سلوك هذا المسلك مع الجامعات القائمة، لكان قد حدث هذا مع الجامعات عند تغيير أسمائها، بل إنه حدث بالفعل مع جامعة أسيوط التى كانت الدراسة لم تبدأ فيها بالفعل فإذا بالقرار القديم بإنشائها يختفى ليفسح المجال لقرار جديد يجعلها من منجزات الثورة، حتى إذا ما مضت السنوات وتضخم الادعاء لم تجد إدارات الثورة حرجا فى أن تفعل هذه الفعلة الشنعاء مع أقدم جامعة فى العالم: الأزهر الشريف، فإذا بتاريخ إنشائها يصبح ١٩٦١، وهو لايزيد عن أن يكون تاريخ صدور قانون بالتطوير شمل إدخال كليات جديدة إلى الجامعة العريقة.. وهكذا.

ومن حسن الحظ ومن نعم الله أن مصر المعاصرة قد بدأت تتخلى عن كل هذا العبث وتعود إلى تأصيل وتجذير إنجازتها ونسبتها إلى أصولها وتاريخها الصحيح.

❑

ينبغى لى بعد هذا كله أو فى ختام هذا كله أن أشير إلى أن هذه الطبعة تتضمن أجزاء كثيرة لم تنشر فى الطبعة الأولى التى كنت حريصاً فيها على عدم تجاوز حجم معين، ولهذا كنت أكتفى بالإشارة إلى مواضع أخرى وإلى آراء أخرى وإلى تعقيبات أخرى.. وها أنذا أعود اليوم إلى كتابة هذا الكتاب مرة ثانية فأضم إليه ما كان حرياً أن تضمه الطبعة الأولى، وقد فعلت ذلك اليوم ولعلى أكون قد وفقت فى هذا.

كذلك فقد تناولت كثيراً من ألفاظ وعبارات الطبعة الأولى بالتنقيح، ومن حسن الحظ أنى لم أتعد ـ بعد ـ المرحلة التى يكون فيها المرء قادراً على التنقيح والتهذيب والتأنق فى اللفظ والجملة والعبارة والصياغة.

من ناحية ثالثة فقد أعدت ترتيب فقرات كل باب من أبواب هذا الكتاب بحيث يبدو الكتاب فى النهاية أقرب إلى تحقيق المعمار الأكثر ملائمة لما يتحدث عنه ولما يتناوله.

وفى كل هذه التغييرات والتعديلات والتنقيحات بذلت جهوداً كانت كفيلة بأن تصيبنى بالضجر والسأم والملل والإجهاد والإنهاك والاستنزاف، لولا ما كنت أستحضره من رضا القراء وسعادتهم وثناءهم الجم والجميل على ما اكتنف هذه السلسلة من الكتب من ارتقاء كتاباً بعد كتاب، وقد كان هذا الكتاب كما ذكرت بمثابة الثالث فى هذه السلسلة التى وصلت الآن إلى اثنى عشر كتابا أرجو الله أن ينفع بها وأن يوفقنى لاستكمالها عن قريب.

إنى لأشعر بالرضا عما وصل إليه هذا الكتاب اليوم، وقد كنت أيضاً سعيداً به أيما سعادة عندما انتهيت من آخر بروفاته فى الطبعة الأولى، لكنى اليوم أحس أن إعادة البناء قد قدمت شيئاً ذا بال كان يستحق إعادة البناء بالفعل.

والله أسأل التوفيق والرحمة والمغفرة والهداية والعفاف والرضى والغنى .

د.محمد الجوادى

مذكرات الضباط الأحرار

نحو حكم الفرد

1

كنت رئيسا لمصر

مذكرات:

الرئيس محمد نجيب

دار الخيّال

(١)

يدهش القارئ لمذكرات الرئيس محمد نجيب من مدى إلمامها التام والدقيق بتعاقب الأحداث، وليس من شك فى أن هذه المذكرات وإن صدرت فى الثمانينات إلا أن نواتها قد كتبت واستوفيت فى الخمسينات، لأنه يستحيل أن تأتى هذه المذكرات على هذه الصورة من باب التذكر وحده، ومن العجيب أن هذه المذكرات تحفل بكثير من التفصيلات المهمة (وإن لم تكن صارخة) التى لا نجدها فى غيرها ولن نجدها فى غيرها من المذكرات، وفضلاً عن هذا فإن هذه المذكرات تتمتع بروح علمية وموضوعية دقيقة، وهى تنم بوضوح عن أن صاحبها كان صاحب اليد الطولى فى صياغتها، وأن دور كاتبها قد اقتصر على الصياغة الصحفية فحسب.

وتخلو هذه المذكرات ـ إلى حد كبير جداً ـ من الإطناب والإسهاب والتزيد والمقدمات الطويلة والاستطرادات والإطراءات، ولو كان فى وسع الرئيس نجيب أن يصدرها مبكراً عن هذا لكانت آية من آيات التعبير الفنى الجميل، ولكن السنين كانت قد مضت ولم يعد فى الإمكان أن تصدر إلا على هذا النحو الذى استخلصها به الناشر من أنياب الزمان.

ومع هذا فيبدو أن كتاب «مصير مصر» الذى أصدره محمد نجيب عام ١٩٥٥ قد احتوى كثيراً مما احتواه هذا الكتاب، أو كان بمثابة النسيج الأصلى له، وتحتاج المسألة شيئاً من التحقيق ولست مؤهلاً له اليوم، ولكن النظرة السريعة على النسخة التى صدرت أخيرا بالعربية عن دار «ديوان» من هذا الكتاب «مصير مصر» تعطينا هذا الانطباع فى سهولة شديدة.

وقد اتضحت فى هذه المذكرات بصورة بارزة ثقافة نجيب وشخصيته الرفيعة، وسعة

اطلاعه، وعمق نظرته، حتى لو كان هو الخاسر فى كل المعارك التى خاضها مع تلاميذه أو زملائه من أعضاء مجلس قيادة الثورة، ولكن يبدو أن التاريخ يعلمنا اليوم أن نجيباً قد كسب نفسه فى هذه المعركة، وأن عبدالناصر (مثلاً) بكل ما حققه من مكاسب قد عذب نفسه، وعلى الرغم من أن نجيباً عاش حياته شبه سجين، وبعيداً عن الحياة العامة، فإنه لم يصادف فى حياته كلها ألماً كذلك الألم الذى صادفه عبدالناصر ليلة الانفصال، أو يوم الخامس من يونيو، أو فى الأيام الأولى من حرب ١٩٥٦، دعك من آلام القلق الدائم والمستديم التى عاشها عبدالناصر طيلة ما عاش من حياة قصيرة.

ومع هذا فإننا لا نحكم بعذابات الرجلين على إنجازاتهما أو ما قدماه لوطنهما الحبيب إلى نفس كل منهما، ونحن لا نرضى لأنفسنا أن نقع فى ظاهرة «الانحياز الانحصارى» التى تقود معتنقها إلى كراهية الثانى إذا أحبت الأول، وتقود الآخرين إلى كراهية الأول إذا أحبت الثانى، وهى ظاهرة معروفة ومسيطرة على مناخ الكتابات المصرية فى التاريخ المعاصر، ومن العجيب أن تنتعش هذه الظاهرة حتى وقتنا هذا، ومن العجيب أيضا أن تمارس أدبيات هذه الظاهرة فى قراءة تاريخ الرجلين وأن تعود بهذا الاختلاف إلى مراحل مبكرة، مع أن الخلاف بينهما لم يكن قديما ولا جذريا كما حرصت بعض الكتابات الفيروسية أن تصوره، بل ربما كانت الحقيقة على النقيض من هذا، فالحق أن الرجلين كانا صديقين، وكانا متعاونين، وكانا متكاملين، وبفضل تعاونهما وتكاملهما وجهدهما المشترك قدما (فى الفترة التى شهدت هذا التعاون) لهذا الوطن الذى نعيش على أرضه كل خير.

وربما نجد أنفسنا فى حاجة إلى بعض التعريف السريع بشخصية محمد نجيب قبل أن نتطرق إلى مذكراته، فهذا الرجل تخرج فى كلية غوردون بالخرطوم، وقد كان لهذه الكلية شأن كبير فى الحياة العامة فى ظل الاحتلال، وحتى لا نطيل على القارئ بشرح وسرد تاريخ التعليم فى مصر والسودان فى العصر الذى نشأ فيه نجيب، فإننا سنقرب الصورة للقارئ ونذكر له أن التخرج من كلية غوردون كان شبيهاً فى زماننا هذا بالتخرج من الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

وبعد تخرج نجيب فى كلية غوردون بدأ حياته الوظيفية فالتحق بمعهد الأبحاث الاستوائية حيث تدرب على الآلة الكاتبة، وعلى أعمال الموظفين الإداريين تمهيداً للعمل كمترجم.

ولكن نجيباً وهو الشاب القوى فى عصر الفتوة كان طموحاً إلى ما هو أكثر من مجرد الوظيفة، وإذا هو يصمم بينه وبين نفسه على أن يلتحق بالكلية الحربية ليتخرج ضابطاً كوالده وكخاله، وهو يبذل المستحيل حتى يستطيع أن يلتحق بهذه الكلية رغم كل المعوقات الطبيعية والزمنية والطالع السيء. ورغم أنه كان ينقص عن الطول المطلوب سنتيمتراً واحداً!

ويتخرج محمد نجيب من الكلية الحربية بسرعة شديدة، وسنلخص للقارئ تاريخه الدراسى فنذكر أن الدراسة كانت (بلغة أيامنا) مكونة من خمسة فصول دراسية، وكانت هذه الفصول الدراسية تتدرج من الخامس إلى الأول (عكس ما هو شائع الآن)، وقد أتاحت الظروف لنجيب أن يدرس فى فصلين فقط هما الرابع والثانى وأن يتخرج على هذا النحو فى سرعة بالغة بسبب تفوقه هو لا بسبب حاجة الجيش إلى تخريج ضباط جدد، كما كان يحدث فى الدفعات التى تخرج فيها ضباط الثورة فيما بعد معاهدة ١٩٣٦.

وكانت الكلية (المدرسة) الحربية وقتها تسير على النظام الأقرب للصواب الذى يمكن المتفوقين من أن يأخذوا فرصتهم وألا يضطروا إلى سلوك طابور التعليم النمطى الذى أصبح يفرض نفسه اليوم على كل مؤسساتنا التعليمية.

وهكذا فإن نجيباً عند دخوله الكلية ألحق بالفرقة الرابعة مباشرة وبذلك لم يمر بالفرقة الخامسة إلا لأربع وعشرين ساعة، ولما نجح فى الفرقة الرابعة كان الأول وكان ترتيبه يفوق التالى له أكثر من مائة درجة، ولهذا فإنه نقل هو والخمسة التالون له إلى الفرقة الثانية من دون أن يمر بالفرقة الثالثة، ولما ظهرت نتيجة هذه الفرقة كان الأول أيضاً وكانت درجاته تسبق درجات الأول على الفرقة الأولى، وهكذا كان لابد له أن يتخرج وأن يصير ضابطاً.

ومن أجل تحقيق أحلامه فى الكادر العسكرى يروى الرئيس نجيب فى هذه المذكرات كيف نجح فى لقاء كل من السلطان حسين كامل وسردار الجيش الإنجليزى السير وينجت باشا وقد عرفه بنفسه وبأبيه وخاله، وقدم له طلب الالتحاق بالمدرسة الحربية، وأمر السردار رئيس أركانه الميجور كامبل بأن يكتب للمدرسة الحربية أن تقبل نجيباً إذا كان لائقاً، ولأنه لم يكن ممكناً قبول محمد نجيب فى ذلك الوقت الذى تقدم فيه بتوصية من السردار فقد طلبوا إليه أن يعود عند الاستدعاء ليلتحق بالدفعة القادمة وأعطوه تذكرة مجانية للعودة إلى الخرطوم، وتذكرة أخرى من الخرطوم إلى القاهرة.

هذه بعض الملامح العامة فى التكوين العسكرى المشبوب الذى حظى به الرئيس محمد نجيب فى شبابه، وهى تدلنا دلالة قاطعة على أنه منذ نعومة أظافره لم يكن شخصاً هيناً ولا تقليدياً، فهو يعرف طريقه، بل هو يشق هذا الطريق إن لم يجده ممهداً، وفضلاً عن هذا فإنه يحظى بثقة فى النفس، كما أنه كان يعيش الأمل ولا يستسلم لليأس.

❑

ولكن نجيباً العظيم لم يكن يرى فى وظيفته العسكرية نهاية آماله، فقد كان لأسباب كثيرة قلقاً على مستقبله فى ظل نظام الاحتلال، ولهذا فإنه يبذل جهده وينجح فى امتحان البكالوريا المصرية وينجح فى الالتحاق بكلية الحقوق ويجتاز سنوات الدراسة فى هذه الكلية ويتخرج

فى دفعة ١٩٢٧، فإذا تذكرنا أن رئيس الوزراء إبراهيم عبدالهادى كان من خريجى دفعة ١٩٢٣ وتولى رئاسة الوزارة فى ديسمبر ١٩٤٨، وجدنا النسبة والتناسب محفوظين بين إبراهيم عبدالهادى ومحمد نجيب الذى تولى رئاسة الوزارة هو الآخر بعد ربع قرن من تخرجه فى ديسمبر ١٩٥٢!!

كذلك فإن حكومة الوفد فى ١٩٥٠ ضمت من خريجى دفعة ١٩٢٦ كلا من حامد زكى وزكى عبدالمتعال، وفى هذه الدفعة تخرج الدكتور وحيد رأفت والدكتور أحمد سويلم العمرى والدكتور السيد صبرى، أما دفعة الرئيس نجيب نفسه فضمت المستشار محمد كامل القاويش محافظ القاهرة وحسين فهمى عميد حقوق الإسكندرية، ولعل هذا التقريب ينضم إلى ما سنذكره من حقائق وقرائن أخرى فى هذا الباب ليرينا جوانب حقيقية من المكانة التى كان الرئيس نجيب مؤهلا للوصول إليها حتى بدون أن تقوم الثورة.

ثم يجتاز محمد نجيب دبلوم الدراسات العليا فى الاقتصاد السياسى (١٩٢٩) ثم دبلوم القانون الخاص فى (١٩٣١) ويصبح مؤهلاً للحصول على الدكتوراه إذا ما قدم رسالة.

❑

على أن هناك مستوى رابعاً من الخبرة بالحياة قد حققه محمد نجيب، وهو عمله كضابط بوليس، ولا ينبغى للقارئ أن يعجب، فقد كان الانتقال من الجيش للبوليس ومن البوليس للجيش أمراً طبيعياً فى ذلك الزمان.

وبالإضافة إلى هذا التكوين العسكري المتميز، فقد استطاع الرئيس نجيب أن يتخرج أيضاً من مدرسة البوليس حوالى عام ١٩٢١، وهو يحكى بالتفصيل كيف فكر فى الالتحاق بتلك المدرسة ولماذا.. إلى أن يقول:

«... فقررت أن أتقدم إلى امتحان شهادة الكفاءة.. وأن أطلب نقلِى إلى البوليس.. وحصلت على شهادة الكفاءة ودخلت مدرسة البوليس لمدة شهرين، لدراسة القانون الإدارى، ولوائح البوليس، تمهيداً للعمل فى أقسام القاهرة.. وبعد أن تخرجت من مدرسة البوليس، خدمت فى قسم عابدين (٥ شهور) وفى قسم مصر القديمة (٤ شهور) ثم فى قسم بولاق (٧ شهور).. وطوال هذه الشهور تعرفت على قاع القاهرة.. واقتربت أكثرمن الناس».

وربما نكون بحاجة إلى أن نذكر للقارئ أن حيدر باشا وزير الحربية الأشهر فيما قبل الثورة كان ضابط بوليس فى الأصل، وكان مديراً لمصلحة السجون.

وهكذا فإنه فى لحظة من لحظات الضجر المهنى التى يعرفها كل مَنْ مارس مهنة من المهن انتقل نجيب من الجيش ليعمل فى البوليس إلى أن أصابه الضجر بالطبع بعد فترة قصيرة وعاد

إلى الجيش.. على أن نجيب لم ينتقل للعمل فى البوليس على نحو ما ينتقل الضابط من وحدة إلى وحدة، أو من سلاح إلى سلاح، لكنه انتقل إلى البوليس بعدما درس الدراسة الشرطية كلها، وهكذا فإنه تخرج فى مدرسة البوليس على نحو ما تخرج فى المدرسة الحربية وفى كلية الحقوق، بل إنه اضطر إلى أن يؤدى امتحان شهادة الكفاءة كى يكون مؤهلا للتقدم للالتحاق بمدرسة البوليس، وقد اجتاز نجيب بالفعل امتحان الكفاءة، كما تخرج فى مدرسة البوليس وإن كانت المدة التى قضاها فى تلك المدرسة لم تزد على شهرين.

ومن الطريف أن خدمة الرئيس نجيب كضابط بوليس تركزت فى ثلاثة أقسام من أقسام العاصمة، وهكذا أضافت هذه الوظيفة إلى معرفته بالحياة المصرية وبالأحياء.

❑

ونأتى إلى مستوى خامس من الخبرة بالحياة العامة والسياسية، وربما لا يعرف القراء أن اللواء محمد نجيب قد تولى مناصب إدارية مهمة ورفيعة فى أثناء خدمته العسكرية قبل قيام الثورة، فقد عين وكيلاً لمحافظة سيناء وبعدها محافظاً للبحر الأحمر، كذلك فإنه خدم فى الصحراء المصرية وسلاح الحدود حوالى ست سنوات، وعاش فى بورتوفيق وسيناء والجبل الأصفر وواحة المنايفة، والواحات، والقنطرة شرق، والبحر الأحمر حتى الحدود مع السودان.

وفى إطار القوات المسلحة نفسها تولى الرئيس محمد نجيب عدة مناصب رفيعة، فقد عين قائدا لمدرسة الضباط العظام، كما تولى رئاسة سلاح الحدود، وترينا مذكرات مرتضى المراغى ـ على سبيل المثال أن فترة رئاسة نجيب لهذا السلاح شهدت نجاحاً بارزاً.

وفى مرحلة مبكرة من خدمته العسكرية كان نجيب مسئولا عن المتحف الحربى!!

❑

ونأتى إلى مجال آخر من اهتمامات الرئيس نجيب المبكرة، وهو اهتمامه بالثقافة العسكرية والاستراتيجية العامة والخاصة على حد سواء، فإلى نجيب يعود الفضل فى إنشاء مجلة الجيش المصرى عام ١٩٣٧، وقد ظل يشرف عليها عدة سنوات وكتب فيها عشرات المقالات. وهكذا كان توجهه الفكرى والثقافى رائدا وواعدا.

كذلك كان الرئيس محمد نجيب من أبرز المصرين المهتمين بالصحراء حتى إنه عين عضواً عاملاً فى معهد الصحراء، كما تولى إعداد الكثير من الدراسات حول: حياة البدو وكيف يمكن رفع مستواها، واستغلال المعادن، وكان يلقى المحاضرات فى مثل هذه الموضوعات.. كما نشر العديد منها فى صورة مقالات، ورفع عنها أكثر من تقرير للملك فاروق، طالب فيها بالاهتمام بطرق استغلال الصحراء وتعميرها.

وكان نجيب من أوائل الضباط المهتمين بتشجيع سياسات التدريب العسكرى لطلاب الجامعات والداعين إليه، ومن أهم المقالات التى كتبها، مقالات تدعو إلى ضرورة التدريب العسكرى لطلبة الكليات والمدارس الثانوية، وهو ما أخذ به بعد ذلك، ولكن بجدية أقل.

وكان الرئيس نجيب يعتقد منذ وقت مبكر أن التدريبات العسكرية للجنسين ضرورة لخلق المواطنين الصالحين، خاصة فى البلاد النامية، كمصر.

❑

ونأتى بعد هذا إلى المجال السابع من مجلات تميز شخصية الرئيس محمد نجيب وهو معرفته بالسودان وهى معرفة عميقة توجها بنشره بحثه الشهير «رسالة عن السودان» فيما قبل قيام الثورة بعقد من الزمان .

وقد نجح الرئيس محمد نجيب فى هذه المذكرات أن يعود بالكاميرا إلى أيام سالفة ليحدثنا عن كثير من ملامح حياته المبكرة التى تفيد تاريخه وتاريخنا المعاصر، وعلى الرغم من عذوبة وجمال ما يرويه عن هذه الفترات، فإن ضيق المقام يجعلنا نكتفى بأن نشير إلى بعض هذه الملامح فى اختصار شديد وتتابع زمنى.

فقد كان جده لأمه الأميرالاى محمد عثمان بك قائد حامية فى الخرطوم الجنوبية، وقد قتل فى الثورة المهدية هو وأخوته الثلاثة: رضوان وأحمد وشرف وكانوا هم أيضاً ضباطاً.. ولكن أسرة جده لقيت معاملة كريمة بفضل ما كان جده يقدمه لأهالى السودان من خير فى مضيفته، ورفعت على باب الأسرة راية بيضاء بأمر من السيد محمد أحمد المهدى.

كما تمكن خاله عبدالوهاب محمد عثمان من الهرب من قافلة التجار وسعى لمقابلة الخديو عباس حلمى ونجح فى مقابلته، وتكفل الخديو بتعليم هذا الخال على نفقته الخاصة حتى المدرسة الحربية.

وفى المدرسة الحربية التقى أبوه يوسف نجيب بخاله عبدالوهاب محمد عثمان وقد تخرج يوسف نجيب فى المدرسة الحربية ١٨٩٦، أما نجيب فقد تخرج منها عام ١٩١٨، وقد أصبح قائد سرية الوالد فى ١٨٩٦ قائدا لكتيبة الابن محمد نجيب فى ١٩١٨.

هذا وقد كان لوالد نجيب ابن من زوجة سودانية، أرسله إلى قرية النحارية (بالقرب من المحلة الكبرى) ولم يعش كثيراً ولكن أولاده وأحفاده ما يزالوان يعيشون هناك حتى الآن.

كما كان لنجيب شقيقان: اللواء على نجيب سفيرنا فى سوريا بعد الثورة، والدكتور محمود نجيب الأستاذ بكلية الطب البيطرى وست أخوات متميزات.

وقد توفى والد محمد نجيب عام ١٩١٤ عن ٤٣ عاماً بعد إصابته بالتهاب فى الزائدة الدودية،أما خاله فقد توفى عام ١٩١٩ بالكالازار.

على هذا النحو شاءت الظروف لنجيب أن يكون هو ووالده وخاله وجده وأشقاء جده على علاقة وثيقة بالسودان وبأهل السودان كذلك فقد كان إبراهيم عبود (رئيس السودان فيما بعد) زميلاً لنجيب فى المدرسة الحربية وفى الوحدة العسكرية وفى فريق الملاكمة، وهو الذى أبلغ نجيباً (حين كان يخدم فى السودان) بقيام ثورة ١٩١٩ فى مصر.

وبعد هذا فقد كان الرئيس نجيب معنياً بالتعرف على الزعيم الوطنى السودانى علىّ عبداللطيف وترصد أخباره، وعرف أنه مسجون فى القاهرة فى مستشفى الأمراض العقلية، وزاره نجيب فى هذا المستشفى و لم ير عليه أى علامة من علامات الجنون. كذلك كان نجيب على علاقة بالأميرالاى السيد فرج، وبأعضاء جمعية اللواء الأبيض ووكيلها عرفات محمد عبدالله الذى كان زميلا له فى كلية غوردون.

يورد لنا نجيب كثيراً من الأمثلة على توطد علاقته بزعماء السودان، وهو يقول:

«.. مثلاً كان كل من جاء من السودان من سياسيين وضباط وموظفين، من أصدقائى ومعارفى وزملاء دراستى، وكانت علاقتى بهم قوية جداً، وكانوا لا يمكن أن يزوروا مصر إلا وألتقى بهم، وأذكر أنى دعوت السيد عبدالرحمن المهدى لتناول الشاى بمنزلى فى شارع قصر العينى عند زيارته لمصر عام ١٩٣٧ فقبل الدعوة وحضر معه الوفد المرافق له، وكانت هذه هى الزيارة الخاصة الوحيدة التى قام بها فى مصر».

❑

ولهذه الأسباب نجد الرئيس نجيب فى غاية الألم وهو يرى السودان وهو ينفصل ويبتعد عن مصر وفى صوت عال لا ينقصه الوضوح، يحرص صاحب هذه المذكرات على أن يتهم مَنْ جاءوا بعده بالتفريط فى أرض مصر والتنازل عنها للسودان، ومن أطرف ما يمكن أنه يشير فى هدوء شديد إلى جذور الأزمة التى حدثت بعد نشر مذكراته بسنوات حول حلايج والشلاتين حيث يقول:

«بل إن من جاء بعدى، لم يكتف بفصل السودان عن مصر. بل ووصل إلى حد التفريط فى أرض مصر والتنازل عنها للسودان، وأقصد بذلك مساحة الأرض التى تصل إلى ١٨٠٠ كيلومتر مربع عند بئر الشلاتين ومرسى حلايج، وتقع بين البلدين. فقد استولى الإنجليز على هذه الأرض عام ١٩٠٢، بعد أن تصوروا أن بها ذهبا، واستندوا فى تصورهم على آثار قدماء المصريين التى كانت موجودة هناك، وعندما فشل الإنجليز فى العثور على الذهب، طالبوا بضم

هذه المنطقة للسودان، بحجة أن بها قبائل البشارية السودانية، وفي المقابل أخذوا من السودان ١٨٠ كيلومترا مربعا، وهي منطقة تعيش فيها قبائل العبابدة، بحجة أنها قبائل مصرية وضموها إلى مصر، واعترفت مصر بذلك بعد أزمة ١٩٥٨ بين مصر و السودان، والتي كاد عبدالناصر فيها أن يحارب السودانيين».

ويعقب الرئيس محمد نجيب على هذه الفقرة التي يرويها هكذا على مسئوليته ودون أن تلزمنا بأي شيء فيقول:

«إن مشكلة جمال عبدالناصر وصلاح سالم، وباقي مجلس الثورة، مع السودان، هي أنهم لم يعرفوا ولم يفهموا أهله، ولم يتصوروا أهميته بالنسبة لمصر، فتصرفوا وكأنهم سياح، وليسوا أبناء واد واحد».

وحين يحكي الرئيس محمد نجيب في هذه المذكرات ذكرياته عن خدمته في السودان قبل هذا الحديث بفصول كثيرة، فإنه ينقلنا إلى جو مختلف لم نعرفه من قبل ويثير فينا الجاذبية والانجذاب إلى السودان وأرضه :

«كانت مشكلة السودان، العريض، متعدد الأطراف، ولا تزال، هي مشكلة الطرق والمواصلات.. فقد كانت المسافة بين الخرطوم وبحر الغزال، مثلاً، تستغرق ٣٥ يوماً، منها ١٠ أيام تمشيها على القدمين.. وكان من الصعب على الصغار أن يمشوا على أقدامهم.. فأجرت حمارين.. ودفعت ٣ جنيهات.. وقررت أن يركبها أولاد العساكر.. وأنا أمشي مثل باقي العساكر على قدمي.. أكثر من ١٠٠ كيلومتر.. كل يوم ١٠ كيلومترات».

«وكان مرتبي لا يزيد على ١٢ جنيها.. يعني دفعت ربعه في إيجار الحمارين.. وكان على أن أعيش بالباقي».

«لكنني كنت سعيداً في بحر الغزال».

«كنت في أوقات فراغي أمارس هوايتي القديمة.. هواية الصيد».

«وكنت في المساء أذاكر دروس البكالوريا على مصباح غاز».

«وبعد أن أنهيت تدريب ٤ دفعات من الجنود، جاء لي قومندان الأورطة، وقال لي:

«ماذا تطلب مكافأة على هذا المجهود الكبير؟».

«قلت :

«أريد أن أنضم إلى وحدة مدافع الماكينة لأخذ فرقة على استخدام الأسلحة الأوتوماتيكية».

«فوافق..».

«وسافرت إلى مقر الوحدة فى مالكال.. وكانت المسافة بينها وبين بحر الغزال تستغرق ١٧ يوما.. قضيتها ماشياً على قدمى.. وما أن وصلت حتى فوجئت بالقائد، وكان اسمه ناب بك يرفض، ويقول:

«نحن لا نقبل المصريين!».

«كان هناك، فى الجنوب، رفض للشمال، ورفض للمصريين»..»

«فقلت :

«هذا كلام فارغ.. أنت ضابط مثلى فى الجيش المصرى، حتى ولو كنت إنجليزياً وإذا رفضت قبولى فسأرسل ببرقية إلى الملك.. فلا فرق بين الضابط من مصر أو من السودان».

«فقال :

«يقبل استثنائيا!».

(٣)

كما يورد الرئيس محمد نجيب فى موضع آخر من هذه المذكرات قصة مهمة تدلنا على مدى معاناة الوطنيين فى الجيش المصرى، وكيف كان الاتصال بالمناضلين السودانيين بمثابة سبب لإثارة المتاعب لمن هم من طبقة الرئيس نجيب من الضباط العاملين بالحرس الملكى وهو يروى كيف قادته تصرفاته الثورية إلى أن يطرد من الحرس الملكى بسبب اتصاله بالمناضلين السودانيين:

«... وفر إلى مصر أيضاً، عرفات محمد عبدالله، وكيل جمعية اللواء الأبيض وزميلى القديم فى كلية غوردن، الذى اعتقل فى القاهرة لشبهه القوى بعبدالخالق عنايت، أحد المتهمين فى قضية مصرع السردار».

«واعتقل معه، من أعضاء الجمعية فى مصر: محمود محمد فرغلى، والشيخ محمد زكى عبدالسيد (القاضى الشرعى)، والمهندس محمد سر الختم، والرحالة أحمد حسن مطر».

«وقد عرفت بأمر اعتقالهم وأنا فى الحرس الملكى».

«وعرفت أنهم فى سجن الاستئناف بباب الخلق».

«فقررت زيارتهم».

«رحت لمدير السجن، وكان اسمه صفوت بك، لأطلب الإذن بالزيارة.. فقال لى الرجل:

«يابنى أنت ضابط فى الحرس، ولابس علاماته، وترتدى بدلته، وتطلب زيارة ناس مقبوض عليهم بتهمة التمرد والشغب.. أنت كده تروح فى داهية!».

«قلت له :

«لكنهم أصحابى، وأصدقائى من أيام الطفولة، ومن أيام المدارس، ولا يمكن مهما جرى أن أتخلى عنهم».

«قال :

«أنا سأبلغهم بسؤالك.. لكن أرجوك. انصرف الآن.. هنا أنت فى خطر.. وأنا أيضاً».

«قلت:

«لكن .....».

«ولم أكمل كلامى».

«قام الرجل من على مكتبه.. وترك الغرفة.. فانصرفت.. ولم أجد مفراً من انتظارهم حتى يخرجوا».

«وعندما خرجوا، دعوتهم لتناول الطعام فى مقر الحرس الملكى، داخل قصر عابدين».

«وكان هذا الطعام هو الطعام الأخير لى فى الحرس الملكى.. طردت من الحرس الملكى».

(٤)

على هذا النحو تدلنا هذه المذكرات فى سلاسة وبغير تكلف كما تدلنا الوقائع التاريخية أيضا بغيرافتعال أو تعسف على بعض ملامح تكوين الرئيس محمد نجيب العام، وهو تكوين يندر أن يكون متاحاً يومها فى غيره من القيادات البارزة، لا فى القوات المسلحة وحدها ولكن فى مصر كلها.

ولو لم يقدر للثورة أن تقوم فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لكان اللواء محمد نجيب قد تولى وزارة الحربية فى أى من الوزارات المتتالية التى كان سيناريو الأحداث يومها يفرض تواليها، وكان اللواء محمد نجيب قد أصبح بلا جدال بمثابة أحد صمامات الأمن التى كان لابد للسياسة ولرؤساء الوزارات أن يلجأوا إليها بحكم الحنكة السياسية، وليس هذا رجماً بالغيب، فمن الثابت أن منصب الوزارة قد عرض على نجيب قبل الثورة بالفعل.

ولو قدر لنجيب أن يدخل مجلس الوزراء فى ظل الليبرالية كوزير للحربية، فإنه كان فى

الغالب سيتولى منصب القائد العام للقوات المسلحة إلى جوار المنصب الوزارى أو بعد تركه الوزارة كما حدث من قبل مع حيدر باشا، ولو أن الأمور كانت تسير سيرها المستقيم لأصبح نجيب قائدا عاما للقوات المسلحة فى ظل حكم الوفد نفسه ولمدة طويلة.

على أن شخصية نجيب وقدراته وفهمه وسعة اطلاعه كانت ـ فى رأيى ـ ستؤهله لأن يتولى أيضاً وزارات أخرى غير الحربية، بفضل أنه رجل محبوب، وإدارى ناجح، ووجه مشرف ونظيف، ولكن الأقدار سارعت له بهذا كله حين شكل الوزارة قبل أن تنتهى سنة ١٩٥٢ وتولى وزارة الحربية بالإضافة إلى رئاسة الوزارة، ثم سارعت له بتولى منصب رئاسة الجمهورية وليكون الرجل الأول فى الدولة فى ظل وجود كل الزعامات التقليدية التى كانت موجودة على الساحة السياسية منذ العشرينات وحتى الأربعينات.

وقد عمل اللواء محمد نجيب رئيساً للوزارة ما بين سبتمبر١٩٥٢ ويونيو ١٩٥٣ فى ظل الملكية الدستورية وفى ظل وجود الساسة البارزين بمن فيهم النحاس وهيكل وإبراهيم عبدالهادى ومكرم عبيد وعلى ماهر وحسين سرى وفؤاد سراج الدين وحافظ عفيفى والسنهورى ولطفى السيد وأحمد عبدالغفار، وكان معظم هؤلاء تقريباً على استعداد للعمل معه ومن خلاله وربما تحت رئاسته، ولا يستطيع أحد أن يقول إن هذه الروح استمرت مع عبدالناصر، فقد كانت الفجوة واسعة جداً مهما حقق عبدالناصر من إنجازات، وليس فى هذا أى غمط لعبدالناصر أو لشخصية عبدالناصر، بل ربما كان العكس هو الصحيح.

(٥)

أما على مستوى ما يسميه علماء التاريخ بالمواقف المبكرة الكاشفة عن عظمة الشخصية، فإن حظ الرئيس محمد نجيب كان وفيراً جداً،فقد كان نجيب هو الضابط المصرى الوحيد الذى ترجم سخطه من حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ إلى استقالة قدمها للملك، مع أنه كان لايزال فى رتبة الرائد، وقد أعاد له الملك فاروق الاستقالة مع اللواء عبدالله النجومى كبير الياوران:

«وعندما رأيت كل هذا، أحـ...ـت باحتقار وقرف من بدلتى العسكرية، وكتبت استقالتى، احتجاجا على ما حدث، وقلت للملك فى الاستقالة:

«حيث إنى لم أستطع أن أحمى مليكى وقت الخطر، فإنى لأخجل من ارتداء بدلتى العسكرية والسير بها بين المواطنين، ولذا أقدم استقالتى».

«كنت الضابط الوحيد الذى قدم استقالته».

«ولكن الملك أعاد الاستقالة مع ياوره عبد الله النجومى، واضطررت لسحبها نزولا على رغبة زملائى».

«قال لى النجومى:

«بما أن الملك منع الحرس الملكى أن يقاوم الإنجليز، فهو لن يسمح لك بالاستقالة».

«وعدت إلى إدارة الجيش بعد ذلك».

«ورقيت فى العام التالى.. إلى رتبة بكباشى (مقدم)».

❑

وقبل هذا فإن فى مذكرات الرئيس محمد نجيب كثير جدا من ملامح الثورة الوطنية الحقيقية التى كانت نفسه تجيش بها وهو ضابط صغير، وسنكتفى بقصة واحدة من هذه القصص تصور شعوره الوطنى الفطرى عند قيام ثورة ١٩١٩، وقد كان فى ذلك الوقت فى ميعة الشباب:

«... وبعد أيام من وصولى الخرطوم، جاء لى إبراهيم عبود، الذى كان زميلى فى الوحدة، وكان زميلى فى المدرسة الحربية، وكان زميلى فى فريق الملاكمة، وأصبح رئيساً لجمهورية السودان فيما بعد، وقال لى:

«هل سمعت بما يجرى فى بلدكم؟».

«لا ».

«بلدكم فيها ثورة».

«كان إبراهيم عبود يقصد ثورة ١٩١٩.. بالطبع».

«وقبل أن يكمل الرجل كلامه، ويصف لى ما سمعه، رحت للقائد، وطلبت منه إجازة، لأسافر إلى مصر».

«وسافرت إلى السويس بالبحر عن طريق بورسودان.. ومن السويس إلى القاهرة بالقطار».

«فى محطة القطار، مر أمامى أميرالاى إنجليزى، اسمه بيرسى سميث، قائد الكتيبة الأولى للجيش المصرى.. كان سميناً مثل البرميل.. وكان مغروراً مثل الديك الرومى.. مر أمامى.. فلم أؤد له التحية العسكرية.. كنت مرهقاً.. ومرتبكاً بسبب تأخر حقائبى.. وكنت لا أجد مبرراً لتحيته والبلد فيها ثورة ضد الإنجليز».

«جاء لى الرجل، وسألنى:

«لماذا لم تؤد لى التحية العسكرية؟».

«قلت له :

«لأن بيننا وبينكم خصومة والبلد فى حالة ثورة ضدكم، ولو أديت لك التحية لأحسست بالعار وأتعرض لاحتقار الذين يملأون المحطة من حولنا.. ثم إن المحطة كالميدان العام لا تحية فيه بين الرتب».

«قال فى غضب:

«من علمك هذا الكلام؟».

«قلت :

«قوانين الجيش!».

«سألنى :

«ما هى وحدتك؟».

«قلت :

«الكتيبة ١٦ ـ مشاة».

«وأعطيت له ظهرى وانصرفت دون تحيته، فإذا به ينفجر فى وجهى ويقول:

«إذا لم تحينى فسأضعك تحت الإيقاف العسكرى فوراً».

«ولأن أمى وإخوتى كانوا فى انتظارى.. ولأننى كنت لا أريد إفساد إجازتى.. ولأننى كنت أريد أن أرى عن قرب، وبسرعة، ما يحدث فى شوارع القاهرة بعد أن انفجرت فيها الثورة.. قلت له:

«أحييك بشرط.. أن ترد لى التحية بنفس الطريقة».

«وافق».

«وتبادلنا التحية كما اتفقنا».

«وانصرفت..».

«لكن.. بعد ستة أيام فوجئت بخطاب استدعاء من هربرت باشا، قائد منطقة القاهرة، والمدير السابق للمدرسة الحربية، لكى أحضر إلى مكتبه».

«وفى مكتب هربرت باشا عرفت أن الأميرالاى بيرسى سميث، قدم فىّ شكوى.. فرويت ما حدث بيننا.. وتوقعت عقاباً صارماً على ما فعلت.. لكن هربرت باشا أنهى الموضوع ببساطة وقال لى:

«إذا رأيته مرة أخرى فلا تتردد فى تحيته».

«وخرجت ليلتف حولى الضباط وليسألونى:

« ـ عملت إيه؟».

«فضحكت..».

«وكان أكثر الضباط قلقاً علىّ ضابط اسمه على فهيم، كان فى مكتب هربرت باشا.. وساعة أن وصلت عنده قال لى:

«وقعتك سودة.. هربرت باشا النهارده زعلان.. وأنصحك ألا تدخل عليه الآن».

«وعندما دخلت على هربرت باشا قال:

«ربنا يستر!».

«وعندما خرجت سليماً من عنده قال:

«احمد ربنا دون انقطاع».

«فقلت :

«الحمد لله».

(٦)

ومن الجدير بالذكر أن الرئيس محمد نجيب بدا حريصا جدا فى هذه المذكرات على أن يعبر فى شجاعة أدبية أو فى ندم واضح عن أسفه الحقيقى لموقف رجال ثورة ١٩٥٢ غير المنصف من ثورة ١٩١٩، وهو يقول فى إحدى فقرات هذه المذكرات:

«ولازلت أذكر إلى اليوم هتافات المصريين المدوية كالرعد: سعد.. سعد.. يحيا سعد. ولازلت أذكر مظاهرات النساء والرجال.. الصغار والكبار.. وشيوخ الأزهر وقساوسة الكنيسة».

«ولازلت أذكر أكوام الجثث والحجارة و عربات الترام المقلوبة فى الشوارع.. على أن الصورة التى لا تزال شاخصة أمامى إلى الآن.. كانت صورة شاب صغير.. غالباً ما يكون أحد تلاميذ المدارس.. كان راقداً على الأرض.. وهو ينزف دماءه بعد أن أصيب برصاصة من عسكرى إنجليزى.. ورغم ذلك كان يرفع قميصه المصبوغ بدمه، ويلوح به فى الهواء على طول ذراعه، وكأن القميص راية يستنفر بها باقى زملائه ليواصلوا الكفاح».

«إن هذا المشهد وحده يكفى أن أحزن على تاريخ مصر، الذى تصور البعض أنه لم يبدأ إلا ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢».

«وكان هذا التصور الأبله عاراً على ثورة يوليو.. وعلينا جميعا».

«فمن لا أصل له لا أوراق له».

«ومن ينكر ماضيه، لا يعترف أحد بمستقبله».

ويردف الرئيس نجيب بعد هذا بقوله:

«لذلك لابد أن نعترف بأن ثورة ١٩١٩ كانت من أهم الثورات التى قام بها الشعب المصرى.. وأنا أشهد بذلك.. خاصة أننى شهدت أحداثها ورأيت تفاصيلها.. وتابعت حركتها».

«ولا أدعى أننى اشتركت فيها.. وإنما كل ما فعلته كان مجرد تقرب منها.. وكان محاولة للانتماء إليها».

(٧)

وفى هذا الإطار يروى الرئيس نجيب ما يعتبره بمثابة محاولة تقرب منه ومن زملائه الضباط الشبان من ثورة ١٩١٩ وقادتها العظماء:

«ذهبت مع مجموعة من الضباط الصغار ونحن نرتدى ملابسنا العسكرية، ونعلق رتبنا، إلى بيت الأمة، لنعبر عن احتجاجنا ورفضنا وغضبنا لنفى سعد زغلول.. وجلس بعضنا على سلالم البيت.. كنت منهم.. لا نخشى القبض علينا.. ولا نخشى محاكمتنا.. ولا نخشى الكاميرات التى كانت لا تتوقف عن التصوير».

«وقد التقطت لى صورة وأنا جالس على سلالم بيت الأمة، وأنا أرفع العلم.. والتقطت لى صورة أخرى وأنا أرفع صورة سعد زغلول».

«وكان جزاء الضابط الذى يفعل مثل هذه الأمور الخروج من الجيش.. لكننا لم نكن نفكر فى ذلك.. بل كنا نرى أن الجيش لا يمكن أن ينفصل عن الشعب.. خاصة فى أيام الغضب والاحتجاج والثورة».

«وكنا نرى أن ما فعلناه كان أبسط شيء يمكن أن نفعله لمصر».

كذلك يذكر نجيب أيضاً أنه قابل النحاس باشا سنة ١٩٢٩، وأنه سعى إليه ليقول له «إن الجيش وراءك» وذلك فى حضور مكرم عبيد، وأن النحاس قال له ردا على هذا:

«أنا أفضل أن يكون الجيش بعيداً عن السياسة، وأن تكون الأمة هى المصدر الوحيد للسلطات، وإن كنت فى نفس الوقت أتمنى أن يكون انتماء الضباط للوطن وللشعب أكثر من انتمائهم للملك».

❑

ويشير الرئيس نجيب كذلك إلى علاقته المتميزة بالزعيم الوطنى محمود فهمى النقراشى:

«فكثيراً ما كان النقراشى باشا يأخذ رأيى فى الأمور التى تتعلق بالسودان، وكثيراً ما كان يسألنى رأى أخى على نجيب فى الأمور التى لم أكن أعرفها، لأن علياً كان سكرتيراً للحاكم العسكرى السودانى لمدة ١٠ سنوات. وعندما ذهب النقراشى لعرض قضية مصر على مجلس الأمن عام ١٩٤٧ حمل معه كتابى «رسالة عن السودان» الذى كتبته عام ١٩٤٣».

ويروى الرئيس محمد نجيب أنه وقف موقفاً وطنياً مبكرا فى ١٩٤٢ حين رفض الانصياع للرغبة فى محاكمة اليوزباشى أنور السادات بتهمة التجسس وهدد بالاستقالة من منصبه كنائب أحكام حيث يقول:

«... إذا كان رشاد مهنا هو آخر ضابط رفع سيف التمرد على إبراهيم عطا الله عام ١٩٤٧، فإننى كنت أول من فعل ذلك عام ١٩٤٢.. كنت وقتها مساعداً لنائب أحكام.. واتهم أنور السادات، وكان يومها برتبة يوزباشى، بأنه يعمل جاسوساً لصالح الألمان، وجاء والده منزعجاً من التهمة التى أسندت لابنه، وأنا أعرف والد السادات، كان صديقاً وجاراً لى فى الخرطوم بحرى، أعرفه من قبل أن يولد أنور، أما أنور نفسه فلم أعرفه إلا فى اللواء الرابع [يقصد اللواء الرابع مشاة الذى تولى هو نفسه فيما بعد قيادته مرتين فى فلسطين]، حيث كنت أنا القائد وكان هو ضابط الإشارة، واللواء الرابع كان من القوات التى حاربت فى فلسطين، وكان أنور يتمتع بروح الدعابة، ويميل إلى تقليد الممثلين، وقد قلد أمامى ذات مرة نجيب الريحانى».

«قال لى والد السادات: الحقنى.. ابنى قبضوا عليه.. فطمأنته.. وكتبت مذكرة رفعتها إلى إبراهيم عطاالله قلت له فيها: إنه حتى لو ثبتت تهمة التجسس ضده، فإنها تهمة ليست ضد مصر، وإنما ضد عدوتنا بريطانيا.. لصالح الألمان».

«ورفض عطا الله مذكرتى.. فهددت بالاستقالة من منصبى كنائب أحكام إذا ما حوكم، لأننى سأعتبر نفسى مقصراً فى عملى. فاكتفوا بطرده من الجيش».

(٨)

ويحرص الرئيس نجيب على الفخر بالنجاح الذى حققه فى انتخابات نادى الضباط التى أجريت قبل الثورة، وأنه تحدى بترشيح نفسه للرئاسة مرشح الملك ويعدد نجيب أسماء منافسيه فى رئاسة نادى الضباط:

«ويوم الانتخابات كان ينافسنى على رئاسة النادى ثلاثة ضباط آخرين هم: اللواء حافظ بكرى مدير سلاح المدفعية، واللواء إبراهيم الأرناؤطى مدير المهمات، واللواء سيد محمد مدير الصيانة. وبينما حصل نجيب على أغلبية ساحقة شبه إجماعية، لم يحصل الثلاثة الآخرون سوى على ٥٨ صوتاً فقط».

وهو يذكر لنا أسماء المرشحين من الضباط الأحرار ونتيجة الانتخابات على النحو التالى:

«وكان اسمى على رأس قائمة مرشحى الضباط الأحرار.. وكانت تضم: بكباشى رشاد مهنا (مدفعية) وأحمد عبيد، وصاغ جمال الدين حماد (مشاة) وزكريا محيى الدين (مشاة) ، وقائد أسراب حسن إبراهيم (طيران)، وقائد جناح صلاح سالم، والبكباشى محمد فوزى.. وقد تولى حسن إبراهيم طبع هذه القائمة على الرونيو داخل سلاح الطيران،ووزعت على أعضاء الجمعية العمومية».

«لقد استغل الضباط الأحرار اسمى وسمعتى وشعبيتى أحسن استغلال فى اختبار قوتهم، وفى إحساسهم بذاتهم. وكنت كما قال خالد محيى الدين بعد ذلك بسنوات طويلة (الأهالى: ٢٦ يوليو ١٩٧٨): «الواجهة التى تتحرك جماعة الضباط الأحرار فى إطارها»، حتى أتحمل المسئولية تجاه السلطة عن هذه المعركة وعن نتائجها.. وقال خالد: «وكانت هذه خطوة شجاعة أكسبت نجيب احترامنا وثقتنا».

«ونجح من قائمة الضباط الأحرار: رشاد مهنا، وزكريا محيى الدين، وحسن إبراهيم، وجمال حماد، وخان الحظ جمال سالم، ومحمد فوزى».

❑

ومع أن مذكرات الرئيس نجيب حافلة بكثير من المواقف التى التقى فيها ببعض السياسيين والقيادات التاريخية، فإننا سنكتفى بأن نشير إلى المواضع المختلفة التى تتحدث فيها المذكرات عن بعض لقاءات صاحبها ببعض الشخصيات التاريخية:

ومن هذه المواقف أن إبراهيم ابن الزعيم الوطنى أحمد عرابى قال لنجيب حين علم برغبته

فى الالتحاق بالكلية الحربية : «إن الضابط فى بلد محتل ليس إلا مقاول أنفار أو رئيس فعلة كل عمله الحفر والردم لا أكثر ولا أقل».

❑

ويذكر لنا نجيب أنه كان عضواً مع المستشار سليمان حافظ فى محكمة عسكرية كان يرأسها سليمان أثناء الحرب العالمية الأخيرة.

(٩)

ونأتى إلى أهم إنجازات نجيب العسكرية وهى تلك التى ترتبط بالطبع بما حققه على مستوى القيادة فى الحرب حرب فلسطين، نعرف بالطبع أن جيل العسكريين المصريين من زملاء نجيب قد شارك بفعالية فى هذه الحرب، وقد كان نجيب أبرز قادة هذا الجيل حظا فى حرب فلسطين، وفى الحقيقة فإن هذا الحظ لم يأت صدفة ولكنه أتى ليتوافق مع ما عرف عن نجيب من شجاعة وتمكن وقدرة، وقد تولى هذا الرجل قيادة اللواء الثانى مشاة، ثم قيادة اللواء الرابع مشاة، ثم اللواء العاشر مشاة، ثم اللواءين العاشر والرابع معا.

❑

وفى حرب فلسطين كان محمد نجيب فى مستوى الرجل الثانى فى قيادة القوات المصرية المهاجمة تحت قيادة اللواء أحمد المواوى، وقد خاض هذه الحرب وأصيب فيها عدة إصابات على نحو ما يعرف الجميع

وهو يروى فى إحدى فقرات مذكراته ملخصا بديعا يتحدث فيه عن إصاباته فى هذه الحرب فيقول:

«أما الإصابات الكبيرة التى سجلتها، فكانت تستحق فعلاً التسجيل، كانت هناك إصابة من لغم انفجر على بعد متر ونصف متر منى، أصابنى فى صدرى وتحت إبطى وبدى اليمنى، الإصابة الثانية كانت رصاصة اخترقت شعرى واحتكت برأسى وجرحتنى جرحاً سطحياً، أما الإصابة الثالثة والخطيرة فكانت فى معركة التبة ـ ٨٦!».

«كانت هذه المعركة فى ديسمبر ١٩٤٨، أصبت فى صدرى.. فى الشرايين القريبة من القلب. وعندما نقلت إلى المستشفى كنت فى حالة إغماء تام.. حتى تصور الأطباء أننى مت.. وفعلاً كتبوا ذلك على الورق، لكن النقيب صلاح الدين شريف رفع الغطاء عن وجهى ولاحظ أن عينى ترمش.. فأمر باستدعاء طبيب ثان نجح فى إعادتى إلى الحياة بواسطة الأدرنالين، ونقل الدم، وخيمة الأكسوجين».

ويتحدث الرئيس محمد نجيب فى موضع آخر عن بطولاته فيقول:

«قبل معركة التبة ـ ٨٦ بشهور.. وبالتحديد فى شهر يونيو.. كسبت قواتى أكبر معركة فى تاريخ حرب فلسطين.. فى أسدود جنوب تل أبيب.. فبعد ثلاثة أيام من المعارك تمكنا من قتل ٤٥٠ فرداً وأسرنا ١٢٢ رجلاً وسبع بنات.. وكانت خسائرنا طفيفة جداً. وبعد أسبوع من معركة نيتسانيم أشاد اللواء المواوى بشجاعتى، وأوصى إما أن أحصل على رتبة اللواء، أو أمنح وسام نجمة الملك فؤاد، التى كانت تعتبر أعلى وسام عسكرى فى مصر، فى ذلك الوقت».

ويصف الرئيس محمد نجيب بعض وقائع المعارك الحربية التى قدر له أن يخوضها على أرض فلسطين فيقول :

«...... وفى تلك المعركة انفجر بالقرب منا اللغم الذى أصابنى فى صدرى وتحت إبطى، لكننى حاولت أن أخفى الجروح السطحية التى أصبت بها عن اللواء المواوى، خوفاً من أن يأمر بعودتى للقاهرة».

«وبعد أيام من تلك المعركة، وصل اللواء محمد فهمى نعمة الله، من القاهرة، فسلمته قيادة اللواء الثانى ـ مشاة، الذى كان تحت قيادتى، وتسلمت قيادة اللواء الرابع مشاة، لأحل محل اللواء محمد فوزى الذى وقع مريضاً.. وكان اللواء الرابع يقاتل فى جبهة عريضة من بيت لحم إلى الفالوجا، ومنها إلى المجدل على شاطئ البحر المتوسط».

«وفى شهر يوليو.. قبيل الهدنة الثانية، بليت قواتى بهزيمة قاسية فى معركة «نجبة».. وكان سبب الهزيمة أن اللواء المواوى رفض خطتى وأصر على تنفيذ خطته التى كانت فى رأيى يشوبها الكثير من الأخطاء.. وعندما رفضت تنفيذها، اضطر أن يعفينى من القيادة.. ولكن عندما أدرك أن الهزيمة واقعة لا محالة، طلب منى أن أقود الانسحاب.. وفعلاً قمت بهذه المهمة، فى ظروف بالغة الصعوبة، وتحت القصف الجوى للأعداء».

«وبعد عدة أيام، طلبت من المواوى تعزيز قواتنا، وتعويضنا عن الخسائر التى أصابتنا، لكنه لم يصدق أرقام الخسائر التى أذكرها، واعتقد أننى أبالغ فيما أقوله، وأحاول أن ألومه على الهزيمة».

«وأمام جمع من الضباط تفوه المواوى بألفاظ اعتبرتها إهانة.

«قال: أنت كذاب!».

«فغضبت وثرت وقلت له أمام أركان حربه:

«بل أنت الكاذب والمزور.. وكل ما تملكه هو أن تحاكمنى وتضربنى بالرصاص.. لكن لا تقل لى أنت كاذب».

«أكثر من ذلك، طلبت منه الاعتذار، لكنه لم يعتذر».

«وكتبت تقريراً إليه، طالباً منه الاعتذار كتابة، لكنه أمر بأن أسلم نفسى إلى القيادة العامة بالقاهرة، مع توصية منه أن أحاكم بتهمة ازدراء قادتى. ولكن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث، وذلك لتناقض هذه التوصية مع التوصية السابقة بترقيتى أو منحى وساماً».

«وفى القاهرة كنت ألوم نفسى بشدة لما حدث.. ولم تكن هذه هى المرة الأولى ولا الأخيرة التى ألوم فيها نفسى على حدة طباعى».

«وفى القاهرة عينت قائداً لمدرسة الضباط العظماء.. ورغم أن قادتى اعتبروا هذا المنصب الكبير كتعويض لى، فإننى كنت أشعر بالتعاسة، وكنت أعتبر هذا المنصب بمثابة عقاب لى، لأننى كنت أفضل أن أحاكم عسكرياً، أو أن يرسلونى إلى الجبهة».

«ويبدو أن إحساسى بالتعاسة، واختناقى فى القاهرة بعيداً عن الجبهة، ضاعف من غليان الثورة فى داخلى، وجعلنى أتحدث مع بعض الضباط ممن كنت أتوسم فيهم الرجولة، بضرورة التغيير.. تغيير نظام الحكم الذى كبلنا بقيود من الاستهتار والفشل والهزيمة».

«ولم تمض المشادة بينى وبين المواوى بلا نتيجة».

(١٠)

وعلى صفحات هذه المذكرات يروى الرئيس محمد نجيب تفصيلات حية ومهمة عن جهده فى حرب فلسطين فى مرحلة تالية تحت قيادة قائد جديد هو اللواء أحمد فؤاد صادق، ولابد لنا أن نتنبه إلى أن أحمد فؤاد صادق هذا كان هو مرشح الضباط الأحرار لقيادة ثورتهم قبل الرئيس محمد نجيب نفسه، لولا أنه اعتذر بأنه أقسم يمين الولاء للملك.

«... فى شهر نوفمبر، وبعد عدة انسحابات مخزية، أعفى المواوى، وحل محله اللواء أحمد فؤاد صادق، لقيادة القوات المصرية فى فلسطين.. وقام اللواء صادق بتعيينى قائداً للواء العاشر مشاة، الذى كان يعتبر القوة الضاربة الرئيسية لنا».

«وكان قرار تعيين اللواء صادق هو أحد قرارات لجنة التحقيق التى شكلت لبحث الخلاف بينى وبين المواوى، وكان يرأسها إسماعيل شيرين، زوج الأميرة فوزية، إمبراطورة إيران السابقة، وأخت الملك فاروق.. وهو أصلاً كان مقدم ـ شرف، حصل على هذه الرتبة بفضل زوجته.. وهذا لا ينفى أنه كان شاباً كفءً.. أشكره على وقوفه بجانبى».

«وعندما رفع إسماعيل شيرين تقريره إلى الملك، أمر بترقيتى، ترقية استثنائية إلى رتبة

اللواء، وقبل سفرى إلى الجبهة جاء ياوره الخاص وهنأنى أمام طلبة معهد الضباط العظام، بالترقية، وسلمنى علامتى الرتبة، هدية منه، وقال: إن الملك وقع أمر الترقية وسيظهر فى الأوامر بعد يومين».

«وخيرونى، أنا، أو صادق، أو اللواء عباس عبدالحميد لقيادة القوات فى فلسطين».

«لكن.. حيدر رئيس الأركان، الذى رقي إلى رتبة الفريق، التمس من الملك ألا يرقينى ترقية استثنائية طالما أنى لازلت حياً.. ونزل الملك على رأيه واستبدلت الترقية بنجمة فؤاد الأول العسكرية التى حصل عليها الكثير من الضباط وهم يجلسون فى النوادى بالقاهرة».

«واختار حيدر الفريق صادق لقيادة القوات».

«وطلبنى اللواء صادق للحضور فوراً إلى الجبهة، بغض النظر عن حالتى.. وفى الطريق سمعت فى الراديو خبر منحى نجمة فؤاد.. وتسلمت قيادة اللواء العاشر.. وكان يتكون من أربع كتائب مشاة، ووحدات من المدفعية والدبابات والمهندسين والشئون الإدارية وقوات مساعدة أخرى. كان ذلك فى ١٩ نوفمبر».

❑

ثم يروى الرئيس نجيب تفاصيل استيلاء القوات المصرية بقيادته علي التبة ٨٦، وهو الإنجاز الذى حققه حين كان يقود بمفرده لواءين هما اللواء العاشر واللواء الرابع مشاة:

«وبعد أسبوعين أضافوا إلى قيادتى اللواء الرابع مشاة.. وبهذا أصبحت أول ضابط مصرى يقود ما يربو على الفيلق فى الميدان».

«وفى ذلك الوقت كنا قد خسرنا أسدود والمجدل.. وتراجعت جبهتنا فى بيت لحم إلى خط يقع بين بئر سبع وغزة على البحر المتوسط».

«وفى ليلة ٢٢ ديسمبر ١٩٤٨، اخترق العدو صفوفنا جنوب غزة بين دير البلح وخان يونس، وتمكن من الاستيلاء على التبة ٨٦، وكان يمكنهم وهم فوق هذه التبة ضرب دير البلح وخان يونس».

«وفى فجر ٢٧ ديسمبر ١٩٤٨، حاولت بمساعدة ثلاث مجموعات وخمس دبابات، محاصرة التبة ٨٦، لكن الدبابات تعطلت قبل أن تصل إلى مواقع العدو.. وفقدنا ميْزة المفاجأة».

«ومن بين هذه الدبابات المعطلة وقعت إحداها بين نيران العدو وتمكن واحد من طاقم الدبابة من الخروج بسلام، وقتل الثانى فى الحال، أما الثالث فكان مصاباً بداخل الدبابة.. وحاولت إنقاذه.. وتركت عربتى الجيب وسائقى وزحفت حوالى ٥٠٠ ياردة، تحت النيران

المكثفة لكى أتمكن من سحب المصاب.. وبينما كنت أجذبه لإخراجه من الدبابة، أصيب فى رأسه ومات فى الحال.. وأصابتنى قذيفتين قبل أن أتمكن من الاختباء خلف الدبابة.. واستلقيت على ظهرى وفككت معطفى.. وتدفق الدم بغزارة من فتحة صدرى.. ورغم أننا كنا تحت ضوء النهار إلا أننى أحسست أن الدنيا أظلمت من حولى».

❑

نتوقف هنا لنشير إلى أن هذه هى الإصابة المشهورة للواء نجيب فى معركة التبة ٨٦:

«وفى حوالى الساعة الثامنة إلا ربع، أجبرت الدبابات الإسرائيلية على الانسحاب، وتمكن النقيب جمال صابر بمساعدة اثنين من الجنود من الكتيبة السابعة ـ مشاة من إعادتى إلى عربتى الجيب».

«حاول الرجال حملى، لكننى أصررت على المشى، واضعاً يداى على ظهرى، لكى أخفى عن القوات مدى خطورة إصابتى، ولرفع روحهم المعنوية، وحتى لا يرى الجنود أن قائدهم حمل من أرض المعركة».

«وفى مقر قيادتى شرحت ما حدث وأعطيت الأوامر للاستمرار فى المعركة.. وتولى اللواء محمد رفعت القيادة مكانى وفوجئت به يطلب منى أن أسامحه، على ما بدا منه قبيل المعركة، إذ قال لى:

«ربنا يرسل لك رصاصة لو أدخلتنا فى متاعب أكثر مما نحن فيه».

«وبالرغم من الألم الشديد، فقد حاولت إخفاء ما أشعر به، وحاولت أن أبتسم وقلت له:

« اكتب وصيتى لأبنائى».

«وكتب محمد رفعت ما أمليته عليه وكان:

« تذكروا يا أبنائى أن أبيكم مات بشرف.. وكانت رغبته الأخيرة أن ينتقم من الهزيمة فى فلسطين ويجاهد لوحدة وادى النيل».

«ولكنى لم أمت، كما رويت».

«وعندما جاء اللواء صادق لزيارتى، سألته:

«هل أحرزنا انتصارات على العدو؟».

«فقال والدموع فى عينيه:

«إننا أجبرنا العدو على الجلاء عن التبة ٨٦ وخان يونس ودير البلح».

«وعندئذ قلت له :

«يمكننى الآن أن أموت سعيداً».

«وبعد أسابيع نقلت إلى مستشفى العجوزة فى القاهرة.. وفى أبريل ١٩٤٩ كنت فى تمام الصحة والعافية، وتركت المستشفى لألحق بأسرتى فى البيت الصغير الذى استأجرته زوجتى فى حلمية الزيتون».

«انتهت حرب فلسطين بالنسبة لى.. بعد هذه الإصابة».

«وعدت إلى القاهرة، قائداً لمدرسة الضباط العظام، مرة أخرى».

❑

وفى هذه المذكرات يروى لنا الرئيس محمد نجيب أيضاً رأيه الواضح فى حرب فلسطين ومعارضته لها منذ البداية، وذلك على الرغم من أنه أصبح بالفعل أحد أبطال هذه الحرب، بل ودخل التاريخ بهذه الصفة قبل أن يقوم بالثورة، أو يتولى قيادتها، وربما نعجب أن يكون هذا رأى كبار الضباط (أو واحداً على الأقل من كبار الضباط) فى هذا الوقت، وها هو الرئيس نجيب يصرح برأيه فيقول:

«... عندما قامت هذه الحرب، كنت معارضاً لها من الرصاصة الأولى، فلم يكن هناك شىء يمكن أن نكسبه من ورائها، بل بالعكس، كان هناك الكثير مما سوف نخسره، بسبب ضعف قوتنا العسكرية».

«لقد كان من الأفضل لنا أن نخوض حرباً من حروب العصابات، مع بقية فصائل المقاومة العربية، فهذه الطريقة كانت ستمنع تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، صحيح أنه لن يكون بمقدورنا مع حرب العصابات أن نكسب الجولة، لكن على الأقل لم نكن لننهزم هذه الهزيمة الساحقة. إننا باشتراكنا العلنى فى حرب فلسطين،أعطينا الصهاينة ذريعة ليمارسوا حقهم كأقلية، فى الحرب من أجل البقاء فى أرض لا علاقة لهم بها. وكانت هذه الحرب فى حقيقتها عبارة عن سلسلة من الهدنة تتخللها معارك بسيطة، وكانت فترات الهدنة الطويلة تستغل لصالح اليهود».

ويكرر الرئيس محمد نجيب هذا الرأى فى موضع آخر من مذكراته يأتى بعد مائتين وخمسين صفحة من الموضع الأول فيقول بكل وضوح وتركيز:

«رغم أننى حاربت فى فلسطين، وجرحت فيها حتى كدت أموت، وحصلت فيها على أعلى وسام، إلا أننى أرى أننا تورطنا فيها، دون استعداد حقيقى، كانت مظاهرة سياسية للملك فاروق».

(١١)

ونعود الآن إلى السنوات الأولى من حياة هذا الرجل في القوات المسلحة، وليس من العسير علينا أن نلاحظ أنه حين بدأ طريقه في العسكرية، فإنه على حسب ما يوحي به ويرويه كان يبدو متنبهاً تمام الانتباه إلى أهمية القدرة والكفاية وأهمية التجويد، وهو يروى أنه حين عام أنه سيتخرج مبكراً عن دفعته وأنه سيتخرج مع طلبة الفرقة الأولى بدلاً من طالب فى الفرقة الأولى لم يحصل على الدرجات المطلوبة للنجاح، بكى بدموع حقيقية فلما سأله هربرت باشا عن سر بكائه أجابه:

«لأننى كنت أود أن أستكمل دراستى، إننى لم أضرب ناراً، ولم أركب خيلاً، وسأتخرج ضابطاً جاهلاً، وسأكون فى ذيل ترقيات النشرة العسكرية، ولن تتاح لى فرصة اختيار السلاح الذى أريده، ولن أحصل على سيف الشرف الذى يمنح لباشجاويش المدرسة!!

وهنا أجابه هربرت باشا: لا تكن أحمق.. لقد رقيتك لأنك ممتاز.. وفى الجيش ستستكمل تدريباتك العسكرية.. وأمامك الفرص كبيرة للحصول على نياشين أهم من سيف الشرف الذى يحصل عليه باشجاويش المدرسة!!

ويعقب صاحب المذكرات على هذه الواقعة بقوله:

«الشىء الذى لم أقله لهربرت باشا فى هذا الحوار، هو أننى كنت أحلم أن أكون باشجاويش المدرسة، كى أحقق ما كنت أرمى إليه، وهو معالجة الغطرسة، واللغة القاسية، التى كان يتعامل بها ضباط الصف مع زملائهم الطلبة».

(١٢)

ويروى لنا الرئيس محمد نجيب فى هذه المذكرات تجربة مثيرة له حين انتقل من سلاح المشاة إلى سلاح السوارى ومدى العنت الذى لقيه فى هذا السلاح الذى كان حكرا على مجموعة معينة من الضباط، وكيف أنه آثر العودة إلى المشاة :

«ففى السوارى كان القائد الإنجليزى لا يحبنى.. لله فى لله، وكان اسمه سميث.. وضاعف من هذه الكراهية، أننى أصلاً من المشاة.. يعنى من طينة أقل من طينة السوارى».

«ولأننى لم أكن أعرف عادات السوارى، ظللت فى خيمتى حتى أسمع البروجى فى الصباح، استعداداً للطابور كما فى المشاة.. لكن البروجى لم يضرب.. وخرجت أرض الطابور لأعرف سر تأخره.. فوجدت سميث أمامى.. وإذا به يقول لى فى سخرية:

«صباح الخير ياباشمفتش!!».

«قلت له :

«ليه الأسلوب ده؟».

«قال :

«لأن عندنا فى السوارى الضابط لابد أن يكون فى اصطبل الخيل من الساعة الرابعة فى الفجر، وأنت حضرتك لا تزال فى خيمتك حتى الآن؟».

«قلت :

«لكننى مستجد فى السوارى ولا أعرف مثل هذه الأمور».

«ومن يومها ظل يترصدنى.. ويضعنى تحت ضرسه..».

«وبعد أن ارتبطت بحصان لطيف وأصبحنا أصدقاء جاء لى ليقول :

«لا تركب هذا الحصان مرة أخرى!».

«لماذا ؟».

«لأنه حصانى أنا!».

«بكم اشتريته؟».

«هذا الحصان مخصص لى من الآن.. هذا أمر!».

«هذا حصانى، وسأظل أركبه مهما حدث!».

«وانتهى النقاش بيننا فى مكتب قائد عام السوارى.. الذى ترك موضوع الحصان وقال لى:

«سوف تنضم إلينا فى السوارى، ولكننا سنؤخر ترقيتك. وسنقدم عليك أربع صولات علينا أن نرقيهم إلى ضباط قبل أن يخرجوا على المعاش».

«ورفضت».

«وعدت إلى المشاة».

(١٣)

ويروى نجيب ما يدلنا أيضاً على مدى التوفيق الذى كان حليفاً له فى كثير من الأوقات، ولم يكن الحظ هو كل ما وراء هذا التوفيق، لكن اجتهاد نجيب نفسه وثقافته كانا بمثابة معينين

مهمين له، ومن الوقائع التي تدل على هذا ما يتندر به صاحب هذه المذكرات من أنه فى أثناء عمله فى الصحراء أصبحت له شهرة ذائعة كطبيب، وهو يقصد بالطبع أن تكون له خبرات طبية لا المعنى الاصطلاحى للكلمة، فقد كان الرجل على ما يظهر من روايته أعقل من أن ينزلق إلى هذا المعنى الذى بسطته المذكرات على هذا النحو الطريف:

«... لقد كانت حياة الصحراء حياة خطرة، وشاقة، لكننى كنت أستمتع بخدمتى فيها، أكثر من استمتاعى بالخدمة فى أى مكان آخر.. وأنا خدمت فى الصحراء وسلاح الحدود حوالى تسع سنوات.. ثلاث سنوات وأنا برتبة يوزباشى (نقيب) وثلاث سنوات أخرى وأنا برتبة قائمقام (عقيد)، وثلاث سنوات أخرى حين عينت وكيلاً لمحافظة سيناء، وبعدها محافظاً للبحر الأحمر.. وخلال سنوات خدمتى فى سلاح الحدود، عشت فى بورتوفيق، وفى سيناء، والجبل الأصفر، وواحة المنايفة، والواحات، وفايد، والقنطرة شرق، والبحر الأحمر حتى الحدود مع السودان».

«وفى كل مكان بالصحراء المصرية التى خدمت فيها، كانت علاقتى بالبدو الذين يعيشون فيها علاقة شخصية جداً».

«كنت أحضر لهم السجاير.. وكانت علبة السجاير بتسعة قروش، وبها ١٠٠ سيجارة».

«وكنت أعطيهم قدر استطاعتى من الأغذية المحفوظة التى كنا نتناولها، وكنت ـ وهذا هو الأغرب ـ أعالجهم من الأمراض المختلفة».

«كان البدو يستعينون بى كطبيب.. وكنت أستجيب لذلك، وأعالج أمراضهم البسيطة، بالأدوية التى فى حقيبة الإسعافات الأولية.. الإسبرين.. القطرة.. المراهم.. والأربطة».

«وأصبحت لى شهرة فى الصحراء كطبيب.. وتحولت خيمتى إلى مستوصف..»

« وفى يوم وقعت فى شر أعمالى، وجاء لى أحد الشبان من الذين ينتمون إلى أقوى وأكبر القبائل، وطلب منى أن أعالجه من ضعفه الجنسى.. وارتبكت.. ولم أدر ماذا أفعل فى هذه الورطة.. وبلمحة فاحصة أدركت أن الشاب هزيل جداً وفى حاجة إلى تغذية قوية.. فقمت إلى مخزن الأطعمة وأعطيته منه بعض اللحوم والمأكولات الأخرى المغذية وأعطيته معها شراباً مقوياً.. ولكى أوحى له بالشفاء أعطيته حبتين عاديتين للإسهال، وأكدت له أن هذه الأقراص من نوع نادر جداً من الصعب الحصول عليه.. وخرج الشاب وكله ثقة فى نفسه وهو مقتنع بالشفاء».

«وبعد فترة نقلت من هذا المكان.. لكننى عدت إليه مرة أخرى بعد ١١ سنة لأرأس محكمة عسكرية عرفية، خاصة بنظر دعاوى القبائل.. وإذا برجل طويل القامة، قوى

العضلات يهجم علىّ ويعانقنى بحرارة ويقبلنى فى كل مكان يصل إليه، وعرفت منه أنه ذلك الشاب النحيل المريض الذى جاء لى يطلب العلاج المناسب لضعفه الجنسى.. ثم قدم لى غلاماً فى العاشرة من عمره وقال لى: هذا ياسيدى ابنى البكر».

(١٤)

ويحرص الرئيس نجيب فى هذه المذكرات على أن يبدو فى منتهى الصدق والواقعية فيما يتعلق بحقيقة الدور الذى قدر له أن يلعبه فى حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وهو لا يعطى نفسه ولا ينسب لها أدوارا لم تلعبها، كما أنه فى ذات الوقت لا يتنصل من أى عمل قام به، كذلك فإنه لا يبالغ فى تصوير أحاسيسه ومشاعره واتصالاته، وإنما هو يصور الأمور تصويرا جيدا بكل ما فى ذلك من مشاعر الخوف والوجل والاضطراب والقلق والتوجس والترقب، ونحن نرى هذه المعانى واضحة حين نقرأ ما نراه يرويه ـ بكل براءة ـ حتى عن بعض حواراته التلقائية والروتينية ليلة الثورة :

«... صليت العشاء ورحت أتلو هذه الآية عشرات المرات.. وعينى على التليفون.. الجهاز الوحيد الذى يربطنى بالعالم الآن.. عند منتصف الليل اتصلت زوجة شقيقى «على» لتسأل عنه.. قالت:

«أنا مشغولة عليه، فليس من عادته أن يتأخر دون أن يقول لى».

«طمأنتها.. وقلت لها :

«اطمئنى.. سأبحث عنه».

«لم يكن على [أى اللواء على نجيب شقيق محمد نجيب وسفير مصر فى سوريا بعد الثورة] يعرف شيئاً عن الحركة.. ورغم ثقتى المطلقة به إلا أننى لم أحدثه عنها مطلقاً.. خشيت أن يتعارض ذلك مع واجبه العسكرى، فقد كان قائد حامية القاهرة والمسئول عن أمنها وحمايتها.. وإن كنت نصحته بصورة غير واضحة وغير مباشرة، أن يجرى بعض التدريبات لجنوده فى أماكن بعيدة عن مسرح الأحداث».

«بعد دقائق طلبنى على التليفون.. ربما ليتأكد من وجودى فى البيت.. ثم أخبرنى أن بعض قوات الجيش تتجه نحو قصر عابدين.. فطمأنته هو الآخر، وطلبت منه أن يتجه بنفسه إلى قصر عابدين ليرى بنفسها ما يجرى هناك لعلمى أن قصر عابدين كان خارج خطة التحركات فى هذه الليلة».

وأعدت السماعة إلى مكانها.. دون أن أرفع عينى من على التليفون.. ودون أن أعرف كيف ستمر هذه اللحظات دون أن أنفجر من القلق.. فكرت فى أن أرتدى ملابسى وأنزل إلى القيادة.. لكنى رجعت فيما فكرت فيه لأن الالتزام بأى خطة هو السر الوحيد وراء نجاحها.. وخشيت أن يقبض علىّ قبل أن أصل إلى القيادة فينتهى كل شيء».

«بعد قليل، اتصل بى من الإسكندرية أحمد مرتضى المراغى، وزير الداخلية، وقال لى:

«يا نجيب بك، أتوسل إليك كضابط وطنى أن توقف هذا العمل!».

«قلت له :

«ماذا تقصد بالضبط؟».

«قال :

«إنك تعرف ما أعنى.. فأولادك بدأوا شيئاً فى كوبرى القبة وإن لم تمنعهم فسيتدخل الإنجليز».

«قلت :

«أنا لا أعرف ما تتحدث عنه!».

«قال :

«يانجيب أنت تعرف جيداً ما أقوله.. فتحرك قبل فوات الأوان».

❑

على هذا النحو كان الحوار يدور بين مرتضى المراغى وزير الداخلية (الذى عمل قبل ذلك كوزير للحربية والداخلية معا) وبين الرئيس نجيب، ونحن نرى ملامح التحرش من نجيب بالوزير واضحة فيما يلى من فقرات، كما نرى صاحب المذكرات وهو يتمتع بصدق تلقائى فيما يرويه إلى أن يصل إلى التصريح ـ دون تغطرس ـ بأن وزير التجارة والصناعة فى مكالمة تالية قد أغلق خط التليفون فى وجهه حين يأس من أن يحصل منه على وعد ذى قيمة!:

«قلت :

«هل تشك فى أننى أدبر انقلاب.. هل تريد أن تلصق بى هذه التهمة الخطيرة.. ألا يكفى أننى مراقب وأنا فى بيتى!!».

«قال :

«أقصد أن لك سيطرة على ضباطك وجنودك.. اذهب إلى كوبرى القبة واصرفهم».

«قلت :

«كيف أعرف أن المتحدث هو مرتضى المراغى؟».

«قال :

«يانجيب.. رئيس الوزراء سيستدعيك قريباً!».

«وأقفل الخط».

«بعد أقل من ربع ساعة، اتصل بى فريد زعلوك، وزير التجارة والصناعة وقال:

«ولادك يانجيب عاملين دوشة فى كوبرى القبة قوم شوف الحكاية!».

«قلت له :

«أنا ما عنديش ولاد».

«قال :

«إذا لم توقف الانقلاب فسوف يعود الإنجليز لاحتلال مصر».

«قلت :

«هذا اتهام أرفضه!».

«فأغلق الخط».

(١٥)

ثم يروى الرئيس نجيب جزءاً قليلاً من الحوار الذى دار بينه وبين رئيس الوزراء الأخير فى عهد الملك فاروق، وقد كانا يعرفان بعضهما بالقدر الكافى لأن يحدث الحوار بينهما على هذا النحو الذى لا يخلو من الود، ولكنه لم يكن فى ذات الوقت حوار الأصدقاء أو المتحالفين:

«ثم تلقيت مكالمة من رئيس الوزراء نجيب الهلالى شخصياً، قال لى:

«يا نجيب.. أنا أستاذك فى مدرسة الحقوق.. ما يحدث الآن مسألة عواقبها وخيمة.. وتفتح الباب لتدخل الإنجليز.. لكنى عدت للمرة الثالثة أنفى معرفتى بما يجرى».

«وانتهت المكالمة».

«وتضاعف ارتباكى وقلقى، ووصلت حيرتى إلى القمة.. وظللت فى هذه الحالة إلى أن جاء الفرج».

«رن التليفون.. وعندما رفعت السماعة، جاء صوت الصاغ جمال حماد، يهنئنى بنجاح المرحلة الأولى.. قال:

«مبروك يافندم. كله تمام».

«استولى أولادى على القيادة العامة.. مركز الاتصالات الحيوية. وتحركت المدرعات ودخلت القاهرة.. وتجمع الجنود بعرباتهم المدرعة فى شارع الخليفة المأمون».

«أى أن الخطة نفذت تقريباً كما رسمناها».

«لكن بسبب خيانة أحد الضباط ، عرف المسئولون عن أمن القيادة خبراً بالحركة فاستعدوا للمقاومة.. ولم يكن هناك مفر من الاستيلاء على المقر بالقوة، فمات اثنان من الجنود.. وجرح اثنان آخران فى القاعدة الجوية بألماظة».

(١٦)

كذلك يروى صاحب هذه المذكرات بعض التفاصيل المهمة والدقيقة خاصة ما يتعلق بما وجده على مكتب رئيس الأركان الفريق حسين فريد حين قدر له أن يدخل رئاسة الأركان منتصرا بعد نجاح الحركة. ويسجل الرئيس نجيب بكل وضوح أن مفكرة حسين فريد كانت تضم أسماء ثمانية من الضباط الأحرار كانوا مرشحين للتشريد فى نفس يوم قيام الثورة، كما يصور صاحب المذكرات طبيعة الحوار الذى دار بينه وبين الأقطاب الثلاثة: رئيس الوزراء (الهلالى) ووزير الداخلية (المراغى) والفريق حيدر، ونلمح فيما يرويه نجيب مدى الثقة والاطمئنان اللذين كانا يصبغان موقفه منذ الساعات الأولى لنجاح حركة الجيش:

«على مكتب رئيس الأركان اللواء حسين فريد وجدت مفكرته الخاصة.. وفى هذه المفكرة كان حسين فريد قد سجل أسماء ثمانية من أسمائنا تمهيداً للقبض علينا أو تشريدنا، فى نفس اليوم.. يوم ٢٣ يوليو».

«وعلى هذا المكتب بدأت بعد دقائق من وصولى أرد على المكالمات التى بدأت تلقيها من الإسكندرية.. من الفريق حيدر، ومن وزير الداخلية، ومن رئيس الوزراء، وكانوا جميعا يطلبون تأجيل إذاعة البيان الأول، الذى عرفوا أنه سيذاع مع افتتاح الإذاعة».

«فقلت لوزير الداخلية :

«نحن مصرون على إذاعة البيان فى موعده.. ونأسف لعدم إجراء أى تعديل فى برنامجنا».

«ثم قلت له :

«نحن حركة لا هم لها سوى إصلاح الفساد فى الجيش، فلا تنزعجوا.. وبعد خمس دقائق اتصل بى رئيس الوزراء فكررت عليه نفس العبارات تقريباً.. وأضفت: لقد استولينا على السلطة لمساعدة الحكومة فى تطهير الأمة من الفساد».

«واتصل بى حيدر وقال :

«إن الملك سوف يعينك وزيراً للحربية، ويغفر كل شىء، إذا أوقفت الانقلاب!».

«فقلت له :

«سوف أدرس الأمر».

«لكننى لم أعده بشىء».

وعلى هذا النحو كان نجيب يتصرف ويجيد التصرف دون فلسفة أو فذلكة أو ادعاء.

(١٧)

ويسجل صاحب هذه المذكرات رأيه فى حريق القاهرة بكل الوضوح، ونراه ينحاز للرأى القائل بأن الحريق كان مؤامرة دبرها الملك بالاشتراك مع عملاء الإنجليز للتخلص من الوفد، وهو رأى حصيف، ولكن عهدا الملكية والثورة اجتمعا ـ للأسف ـ على عدم الانتصار له، وبوسع القارئ أن يعود إلى مذكرات مرتضى المراغى التى تناولناها فى كتابنا «على مشارف الثورة» ليتأمل أدلة قوية وحقيقية يقدمها المراغى ـ وهو وزير الداخلية فى أعقاب الحريق ـ للتدليل على صواب هذا الرأى الذى يميل إليه نجيب بحكم فهمه ـ هو الآخر ـ لما حدث، وهو يروى ذكرياته عن ذلك اليوم فيقول :

«أنا أعتقد أن الملك وحاشيته بالاشتراك مع عملاء الإنجليز حاولوا خلق موقف حرج للوفد حتى يتمكنوا من طرد النحاس وحكومته ويعطلوا البرلمان، وتعيين وزارة تطيع الملك».

«وهذا ما حدث فعلاً».

«فقد كان يوم حريق القاهرة..يوم السبت الأسود، هو يوم نهاية الوفد والنحاس وسراج الدين.. لكنه.. كان أيضاً يوم نهاية الملك فاروق».

«فيوم الحريق كان بداية العد التنازلى لانهيار حكمه.. الذى انتهى بطرده من البلاد فى ٢٦ يوليو من نفس العام.. أى بعد ٦ شهور بالضبط من حريق القاهرة».

(١٨)

ها هى الثورة قد قامت واستقر لها الحكم وأصبح لنجيب وضعه المميز الذى تحدثنا عنه، ولكنه لا يتأله ولا يتجسد وإنما هو يحكى لنا ممارساته كرئيس بسيط سوى النفس بمنتهى الصدق والأمانة وعلى سبيل المثال يحدثنا الرئيس نجيب فى هذه المذكرات ببساطة واضحة عن نموذج لمأساة كل مسئول فى مصر مع أقاربه، ضارباً المثل بنفسه فيقول:

«... فى ذلك الوقت (أى عقب قيام الثورة) كان أديب الشيشكلى يحكم سوريا، هو ومجموعة من الضباط، وكان علينا (أى على مجلس قيادة الثورة) أن نختار ضابطاً عظيماً ليمثل حكومتنا هناك.. فاخترنا على نجيب لهذه المهمة.. وقد وافقت على ذلك بناء على طلب الآخرين.. ودون أى إضافات فى مرتبه. كان على مؤهلاً جداً لهذه الوظيفة.. فقد خدم لمدة ١٠ سنوات فى السودان كسكرتير للحاكم العسكرى الإنجليزى هناك».

«وتصورت أن هذا الاختيار سيفتح النيران علىَّ.. لكن هذا لم يحدث.. فلا أحد حاول الطعن فى كفاءة على نجيب».

«لكن ما إن مر هذا القرار على خير، حتى فوجئت بشقيقتى نجيبة تأتى لى ومعها أوراق منحة حصلت عليها لدراسة الطب فى الولايات المتحدة،وعرفت منها أن شقيقى الأصغر محمود حصل هو الآخر على منحة أخرى لتكملة دراسة الطب البيطرى فى انجلترا.. وفزعت من هذه الأخبار، وحاولت جهدى لمنعهما من قبول هاتين المنحتين.. فبالرغم من ثقتى أنهما يستحقانها، إلا أننى كنت أعرف أننى وهما ستعرض للنقد الشديد، إذا قبلا المنحتين. وقد نجحت فى إقناع نجيبة برفض المنحة وقررت أن تبقى فى القاهرة وتتزوج».

«ولكنى فشلت مع محمود، الذى أصر على أن يكمل دراسة الدكتوراه فى الطب البيطرى من مدرسة جابى مديكيل بلندن.. فأصدرت قراراً بمنعه من استخدام المنحة، فرفع قضية ضد وزارة التربية والتعليم وكسبها وسافر فعلاً».

❑

ويورد الرئيس نجيب فى هذه المذكرات نموذجاً لمسلكه المبكر فى قيادة الثورة حين كان يخضع لرأى الأغلبية، وهو يروى فى وضوح أنه كان معارضاً لقانون الإصلاح الزراعى، ولكنه التزم برأى الأغلبية، وها هو يبلور وجهة نظره هذه فى نهاية حديثه فيقول:

«... وقد صدر (أى قانون الإصلاح الزراعى)، كما قلت، رغم معارضتى، ونزولاً على رأى الأغلبية.. فقد كنت مع الضرائب التصاعدية، ومع إعادة توزيع الأرض بصورة تدريجية، وليست فجائية».

«وكنت أرى أن الضرائب التصاعدية ستجبر الكثير من الملاك على التخلص من أرضهم التى تخضع لشرائح الضريبة العليا».

«وكنت أرى أننا سنعلم الفلاح الذى حصل على الأرض بلا مجهود أو تعب، الكسل والنوم فى العسل».

«وكنت أرى أن تطبيق القانون سيفرض علينا إنشاء وزارة جديدة لمباشرة تنفيذه (هى وزارة الإصلاح الزراعى) وهذا سيكلفنا أعباء مالية وإدارية لا مبرر لتحملها».

«وكان من رأيى أن وجود الملاك الجدد بجانب الملاك الأصليين سيثير الكثير من المتاعب والصراعات الطبقية، وهو ما كنت أحاول قدر استطاعتى أن أجنبه البلاد».

«كما أن توزيع الأراضى على عدد أكبر من الملاك سيفرض علينا عيوب تفتيت الملكية، وسنخفض من الإنتاج الزراعى، وسيؤثر بالتالى على اقتصادنا القومى».

«وقلت هذا الكلام لأعضاء مجلس القيادة ونحن نناقش المشروع.. لكنهم قالوا: أنت تنظر إلى المشروع من الزاوية الاقتصادية، ونحن ننظر إليه من الزاوية السياسية.. إننا نرى أن سرعة الاستيلاء على الأراضى ستدعم مركزنا.. فنحن سنجرد ملاك الأراضى من ثروتهم ونفوذهم، وسنحولهم من خانة المعارضة لنا إلى خانة الإهمال والظلام، وكسبت السياسة، وخسر الاقتصاد، وأقر مشروع الإصلاح الزراعى، وكان هذا القانون هو أول قانون يصدر بعد أن أصبحت رئيساً للوزراء».

هذا إذن هو تعبير الرئيس نجيب عن وجهة نظر ضباط الثورة فيما يتعلق بالإصلاح الزراعى، وقد اختزله كاتب المذكرات ـ على نحو ما قرأنا ـ فى تصوير الأمر من زاويتين، زاوية السياسة وزاوية الاقتصاد، لكننا نجد سيد مرعى فى مذكراته حينما تناول هذه الجزئية وقد أجاد تصوير موقف الثورة مع أنه اعترف بأن النظام الجديد كان يدرك قيمة وجهة النظر الأخرى، وكان يعرف عيوب الرأى الذى أخذوا به.

ونحن نلاحظ أن تصوير سيد مرعى للموضوع فى مذكراته يضفى على تصرفات الضباط الحكمة والحنكة بأكثر مما يفعل الرئيس محمد نجيب، وليس هذا بالأمر الغريب فإن سيد مرعى نفسه كان هو الرجل الذى تولى مسئولية الإصلاح الزراعى على نحو ما أرادت أغلبية أعضاء مجلس قيادة الثورة.

❑

ومع هذا فإن صاحب هذه المذكرات حريص ـ فى موضع آخر ـ على أن يروى لنا فى شىء من التناقض الظاهر مع ما ورد فى الفقرة السابقة كيف أنه قد اقتنع بمشروع قانون الإصلاح الزراعى على النحو الذى طبق به ويقول:

«... في الحقيقة لم يكن هذا الكلام سوى محصلة للحوار الذى دار فى منزلى، قبل ساعات من الإدلاء به، بينى وبين الاقتصادى الألمانى الكبير د. شاخت، صاحب الشهرة العالمية، الذى ساعد الاقتصاد الألمانى على النهوض بعد الحرب العالمية الثانية. كان د. شاخت يزور مصر تلبية لدعوة من د. عبدالجليل العمرى وزير المالية، فالتقيت به، وكان اللقاء فى وقته المناسب، حيث كنا على وشك تطبيق القانون، فشرحت له كل مخاوفى من القانون ووجهة نظرى حول الضرائب التصاعدية وقلت له: إن ما أخشاه أن يثير القانون الصراع الطبقى».

«وقلت له: إن من تؤخذ منه الأرض قسراً وتعطى للآخرين سيكون عدواً للثورة وعدواً للملاك الجدد! فإذا به يقول لى: إن هؤلاء الأفراد الغاضبين سوف يجيئون بعد ثلاث سنوات ليشكروك، إذ أن مشروع تحديد الملكية سوف يفيدهم كما يفيد أى إنسان آخر.. وإذا كانوا غاضبين اليوم، فسيعرفون غداً مقدار فائدة هذا المشروع لهم، فإن الطريقة التى كانوا يسيرون عليها كانت ستفقدهم كل شىء، والآن سيوجهون أموالهم إلى مشروعات اقتصادية أكثر فائدة لهم، وسيفادون ثورة شيوعية تقضى عليهم، واقتنعت بالقانون، واقتنعت بقرار إقالة على ماهر، واقتنعت بقرار تولى رئاسة الوزراء بدلاً منه».

(١٩)

ويحرص الرئيس نجيب فى هذه المذكرات على أن يروى تفاصيل أزمة من أهم الأزمات التى وقعت بينه وبين زملائه من أعضاء مجلس قيادة الثورة، وهى أزمة محاكمة إبراهيم عبد الهادى أمام محكمة الثورة والحكم عليه بالإعدام، وهو يقدم لنا قصة هذه المحاكمة وهذا الحكم من وجهة نظره ويقول:

«... وتشكلت المحكمة فى أوائل سبتمبر ١٩٥٣، من عبداللطيف البغدادى رئيساً، وحسن إبراهيم وأنور السادات أعضاء.. وخولت هذه المحكمة سلطات محاكمة قضايا الخيانة العظمى وبعض قضايا أمن الدولة.. وكان من حقها أن تكون جلساتها علنية أو سرية.. أما أحكامها فلا تكون نهائية إلا إذا صدق عليها مجلس الثورة بأغلبية الأصوات».

«ولم تكن هذه المحكمة سوى أسوأ دعاية للثورة.. فقد أشاعت الكراهية لنا بعد إعادة اعتقال بعض الزعماء والسياسيين الذين سبق الإفراج عنهم.. حتى أننى نجحت فى إلغائها بعد ذلك».

«لكن بين ٢٦ سبتمبر ١٩٥٣ و٣٠ يونيو ١٩٥٤، نظرت المحكمة ٣١ قضية، وحكمت

على ٤ أشخاص بالخيانة العظمى والإعدام، ونفذ فيهم الحكم فعلاً.. وكان خامسهم إبراهيم عبدالهادى رئيس وزراء مصر الأسبق، الذى حكم عليه بالإعدام أيضاً، لكنى خففت الحكم عندما طلبوا التصديق عليه إلى الأشغال الشاقة.. وساعتها قلت لأعضاء المجلس:

«إنى أفضل أن يلتف حبل المشنقة حول عنقى دون أن أصدق على هذا الحكم. وسافرت إلى الإسكندرية وأنا أنوى عدم العودة إلى الحكم، احتجاجاً على هذا الانزلاق الخطير.. وبقيت فى ثكنات مصطفى كامل هناك.. وحتى لا تثار بلبلة بين الناس، أعلنت أن اعتكافى فى الإسكندرية هو اعتكاف صحى.. كان ذلك يوم الأحد ٤ أكتوبر ١٩٥٣، وبعد يومين صدرت نشرة طبية من ديوان كبير الأطباء، جاء فيها:

«شعر السيد رئيس الجمهورية بعد ظهر الأحد ٤ أكتوبر بانحراف فى صحته مما استدعى توقيع الكشف الطبى عليه، ووجد أن سيادته يشكو من إجهاد عام يستلزم الراحة التامة بالفراش لبضعة أيام، وصحة سيادته الآن فى تحسن مطرد والحمد لله».

«وأحس أعضاء المجلس بالذعر والارتباك فى تصرفى..».

«لكنهم انبسطوا من حكاية الاعتكاف الصحى هذه..».

«ففى نفس اليوم خرج صلاح سالم، الذى كان وزيراً للإرشاد، بعد انتهاء المؤتمر المشترك ليعلن:

«إن الرئيس لواء أ.ح. محمد نجيب مازال مريضاً فى الإسكندرية وملازماً الفراش باستراحة ثكنات مصطفى باشا، وأنه يشكو من مرض بسيط، وقد نصحه الأطباء بعدم مغادرة الفراش حتى يوم الجمعة القادم».

«وانزعج جمال عبدالناصر من موقفى، فسافر لى إلى الإسكندرية وكان معه عبدالحكيم عامر، وزكريا محيى الدين، وأحمد أنور قائد البوليس الحربى، وأبلغونى أن المجلس وافق على رأيى، وخفف حكم الإعدام على إبراهيم عبدالهادى إلى الأشغال الشاقة المؤبدة».

«وفى ٨ أكتوبر بعد انتهاء الأزمة، صدرت نشرة طبية أخرى جاء فيها: «إن صحتى قد تحسنت تحسناً ملموساً، تمكننى من مقابلة الزوار والسفراء فى مكتبى بالقاهرة».

❑

هكذا يصور الرئيس نجيب الأمر وكأنه ـ كان هو وحده ـ الذى أنقذ رقبة إبراهيم عبدالهادى من المشنقة!!

ولعل من المفيد هنا أن نشير إلى ما رواه حلمى سلام فى مذكراته التى تدارسناها فى كتابنا «فى خدمة السلطة» عن حوار دار بينه وبين عبدالناصر حول الحكم على إبراهيم عبدالهادى

بالإعدام. ونكاد نرى توافقا فى الرأى بين كل من الرئيسين حتى وإن كان هذا التوافق قد عبر عن نفسه بعد وقوع الأحداث بفترة، على أن الأرجح أن عبدالناصر كان فى وعيه السياسى أقرب إلى نجيب منه إلى جمال سالم أو صلاح سالم على سبيل المثال، ولولا أن الأمور قد مضت فى تصوير وقوف عبدالناصر وزملائه فى جانب، ووقوف نجيب وحده فى جانب آخر، لأمكن الوصول إلى أن الخلاف الحقيقى فى بداية عهد الثورة لم يكن خلاف أجيال، ولكنه كان خلاف طبائع. وعلى كل الأحوال فقد حسم عبدالناصر بطريقته كل الخلافات وانفرد بالسلطة.

❑

وعلى نفس الخط الذى صور به نجيب موقفه من الحكم على إبراهيم باشا عبدالهادى.. يصور صاحب المذكرات موقفه النبيل من بقية زعماء ما قبل الثورة وبخاصة النحاس باشا الذى طلب عبدالناصر تحديد إقامته ضمن المعتقلين، لكن الرئيس نجيب بحكمته ـ حسب روايته ـ لم يوافق على مثل هذا الاقتراح:

«... قدم جمال عبدالناصر لمجلس الثورة، بصفته وزيراً للداخلية، كشفاً بأسماء بعض الزعماء السياسيين، الذين رأى أنهم خطر على النظام، ورأى أن من الضرورى اعتقالهم. وكان من بينهم مصطفى النحاس، الذى طلب تحديد إقامته.. ورفضت.. ووافقنى المجلس على رفضى.. وشطب اسمه من الكشف.. ووقعت الكشف.. لكنى فوجئت بأنهم أعادوه للكشف بعد توقيعى.. واعتبرت ذلك تزويراً لا يمكن السكوت عليه.. وطلبت شطب النحاس من جديد.. فقال جمال عبدالناصر:

«إن شطب اسم النحاس بعد أن نشر الكشف فى الصحف يزيد الموقف بلبلة».

«وتعجبت من تصرف عبدالناصر».

«وتعجبت من موقفه من النحاس، الذى سبق أن قال لى عنه:

«إنه رجل طيب واللى يتعرض له ما يشوفش خير».

«ومرة أخرى اعتكفت فى بيتى».

«كان ذلك فى ٢١ أكتوبر، وصدرت نشرة طبية أخرى تقول:

«أننى اعتكفت فى بيتى «بسبب انحراف مفاجئ» ألم بصحتى فى الصباح، لم يمكننى من «الذهاب إلى القصر الجمهورى بعابدين»، وتأجلت جميع مقابلاتى الرسمية، وكان منها مقابلة سفير العراق، ووزير استراليا المفوض».

ويبلور الرئيس نجيب كل هذا بعد روايته كله بقوله :

«إلى هـذا الحد كنت أرفض قرارات المجلس، سواء (الصادرة) منه مباشرة، أو التى يصدرها من خلال محكمة الثورة».

(٢٠)

وربما جاز القول بأن أصدق ما فى هذه المذكرات هو حديث صاحبها التلقائى عن الجوانب الإنسانية البسيطة جداً فى تعبير (رئيس الجمهورية) عن نفسه دون إحساس مفرط بالتأله أو الزعامة. ولعل هذا يفسر لنا سر هـذه الشعبية الجارفة والحب العارم اللذين استطاع نجيب تحقيقهما فى فترة قياسية فى بداية عهد الثورة، والحق أن أيا من زعمائنا جميعا لم يستطع تحقيق ما حققه نجيب إلا بعد جهد ومواقف وسنوات، أما نجيب فإنه دونا عمن قبله وعمن بعده، قد استطاع أن يأسر الجماهير ويستحوذ على قلوبها بشخصه وصورته وتصرفاته العفوية وابتسامته الودودة الواثقة، ونحن نراه وهو يدرك سر عظمة نفسه وسر بساطتها، ويدرك أيضا حجم ما نال من نجاح، لكنه فى براعة غير معهودة يروى تاريخ حياته قبل الثورة، فنراه يسير فى هذا الطريق الذى وصل إلى قمته بما جبل عليه من بساطة وصدق وواقعية فى ذات الوقت.

فها هو نجيب يتحدث بكثير من الصدق والتواضع والواقعية وطيبة النفس عن كثير من المواقف التى مر بها بعدما أصبح رئيسا لثورة الجيش.

وهو يحدثنا عن الكثير من الانطباعات الإنسانية التى كانت تطغى عليه فى كثير من اللحظات، ولنقرأ على سبيل المثال الفقرات التى يضمنها ما يروى به شعوره يوم خروج الملك فاروق من البلاد:

«... وهذا ما كنت أحلم به، والجماهير تكاد تحمل سيارتى، التى تنقلنى من رأس التين، بعد وداع الملك، إلى ثكنات الجيش فى مصطفى باشا.. وكان أول ما فكرت فيه فى تلك اللحظة التاريخية، الجنود الذين قتلوا وأصيبوا من ليلة الثورة إلى ليلة خروج الملك.. فساعة أن اقتحم البكباشى يوسف صديق مبنى القيادة، فوجئ بمن يطلق عليه النار.. وبعد ربع ساعة من الاشتباك أصيب أحد رجاله، وهو الأومباشى عبدالحليم محمد أحمد، من منقباد ـ أسيوط، وقتل فى الحال».

«وفى أثناء صعود يوسف صديق إلى الدور العلوى، صوب مكتب حسين فريد، اعترضه

الأومباشى عطية السيد دراج من نهطاى ـ الغربية، فأطلق عليه يوسف صديق النار،فأصابه إصابة قاتلة».

«وفى الاشتباكات التى وقعت صباح اليوم بين قواتنا وقوات الحرس الملكى، جرح ستة من جنود الحرس الملكى.. وكان من الممكن أن يكون عدد المصابين أكبر لولا حكمة الضابط الذى أصدر أوامره بوقف إطلاق النار، وأعتقد أن دماء الجنود الستة الذين أصيبوا جعلت الملك يشعر بعدم جدوى المقاومة.. وبالخوف من الحرب الأهلية.. وكانت أحد أسباب الإسراع بتنازله عن العرش».

«فكرت فى أولئك الجنود.. وأمرت بإرسال الحلوى لهم مع بطاقة خاصة منى، تحمل لهم أمنيات الشفاء.. وأمرت بصرف مبلغ عاجل كإعانة لأسرتى الجنديين القتيلين».

❑

ويبدو لى أن من الأفضل أن ننقل عن الرئيس نجيب ما يصور به ملامح شخصيته الآسرة قبل أن نمضى فى تناول بقية ما يرويه عن الساعات التى قامت فيها الثورة، وعلي سبيل المثال فإن الرئيس نجيب يطلعنا على بعض المواقف الطريفة التى واكبت تعرفه كضابط بالملك فاروق عن قرب وذلك حين قدر له أن يقضى معه ستة أيام كاملة فى الإسكندرية، وربما كان من الأفضل أن ننقل للقارئ ما يرويه صاحب المذكرات دون كثير من التعليق:

«... وبعد أن ولد فاروق ابنى، جاءتنى الفرصة لأن أقابل فاروق ـ الملك.. كنت قد رقيت إلى رتبة رائد.. وكنت مسئولاً عن المتحف الحربى فى القاهرة فى غياب المدير الذى كان يزور متحفاً أو أكثر من متاحف أوروبا العسكرية.. صدر الأمر أن أسافر إلى الإسكندرية، حيث كان فاروق يقضى الصيف، ومعى سيارتين لورى تمتلئان بالتحف العسكرية».

«يومها كان فاروق عمره ١٨ سنة، أما أنا فكنت ٣٧ سنة».

«ويوم وصلت إليه فى الإسكندرية كان يستحم فى المنتزه، فطلب رجاله أن نفرغ حمولة السيارتين، أنا ورجالى، وننتظر جلالته فى الحديقة».

«وجاء لنا فاروق بلباس البحر، وصندل، وقبعة تحميه من الشمس، وكنت أنا ورجالى نرتدى ملابسنا الرسمية».

«وأخرجت التحف التى كانت معنا لفاروق».

«من ضمن هذه التحف كان هناك مسدسان صغيران، أحدهما من النحاس، ويرجع إلى عصر الخديو إسماعيل.. والآخر من معدن آخر.. من نفس العصر تقريباً».

«وعندما أخرجتهما بيدى قال لى فاروق :

«أنت قوى ماذا تأكل؟».

«قلت له :

«فول» .

«وأراد فاروق أن يثبت أنه قوى هو الآخر، لكننى لاحظت أن جسمه كان مترهلاً، رغم أن عمره ١٨ سنة.. وأنا كان جسمى متماسكاً رغم أن عمرى هو ضعف عمره تقريباً».

«وبقيت معه ستة أيام».

«وكان معجباً بما كنت أقوله عن المتحف الذى لم يزره مرة واحدة فى حياته. وفى ليلة كنت أفرجه على شرائح أفلام عن المتحف، فأخذها منى أو من المتحف، ولم يرجعها، وفى تلك الليلة سألنى:

«من أين يمكن أن آتى بأقدم مسدس فى مصر؟».

«فقلت له :

«الخديو إسماعيل باشا اشترى مجموعة من المسدسات عام ١٨٧١، أربعة منها موجودة فى الجيزة».

«فأصدر أوامره لى أن أحضر واحداً منها».

«ورغم عنى أحضرت له ما طلبه».

«وعندما أعطيته له، فرح به كطفل حصل على لعبة».

«ولما حاولت أن أنزع إبرة ضرب النار جاء مستشار الملك عبدالغفار عثمان ليساعدنى، وانحنى ليقبل يد الملك.. رغم أنى لم أفعل ذلك، واكتفيت بتأدية التحية العسكرية له.. وكان معنا أنطون بوللى الكهربائى الإيطالى الذي أصبح بعد ذلك مستشار الملك الخاص».

«وعرفت من بوللى أنه اقترح على الملك أن يرتدى ملابسه قبل أن يرانا، لكن الملك أصر على أن يقابلنا بالمايوه».

«وعندما جئت أشرح للملك كيف يعمل المسدس، أزاحنى عثمان من أمامه ليحظى ـ كما تصور ـ بهذا الشرف.. وحاول عثمان محاولات يائسة لفك المسدس وفشل.. وحاولت أن أتدخل، فغمز لى الملك أن أسكت.. وعندما أعلن عثمان فشله، أعطانى الملك المسدس.. ونجحت فيما فشل فيه عثمان.. وسأل فاروق عثمان:

«أين تعلمت العسكرية؟».

«فقال : «فى انجلترا».

«فقلت : «نحن فى مصر أفضل من انجلترا».

«وعثمان بالمناسبة رقى بعد ذلك أكثر من ترقية استثنائية، وحصل على وشاح النيل، واتهم بشراء بعض صفقات الأسلحة الفاسدة من إيطاليا، وحوكم بعد الثورة وسجن ١٥ سنة».

❑

ثم يروى صاحب هذه المذكرات قصة لقائه الثانى بالملك فاروق حين تخرج هو فى كلية أركان الحرب، وحضر الملك فاروق حفل تخرج دفعته، وتعمد صاحب المذكرات ألا يقبل يد الملك عند سلامه عليه، ومن الجدير بالذكر أن رواية نجيب ـ لو صدقت ـ تدلنا على أن الملك فاروق كان واعيا ومتقبلا لمثل هذه المواقف، بل كان حريصا على أن يظهر لأمثال نجيب أنه يفهم ما يقصدون ويمرره بإرادته!!:

«وقد قابلت فاروق مرة أخرى فى نفس العام، فى حفل تخريج دفعتى من كلية أركان حرب».

«وأذكر أننى حرضت زملائى فى الدفعة على عدم تقبيل يد الملك».

«لكن لم يسمع أحد كلامى».

«وعندما جاء الدور علىّ، لم أقبل يده، ومثلت دور المرتبك الذى لا يعرف التصرف فى مثل هذه المناسبات، أمام الملك».

«أديت له التحية و سلمت عليه بشدة.. فإذا به يغمز لى بعينه.. وظهرت هذه الغمزة فى صور جرائد اليوم التالى».

❑

وفى الأجزاء المبكرة من هذه المذكرات يروى صاحبها تفاصيل واقعة طريفة حدثت له ولأسرته وهى واقعة تدل بوضوح على مدى التسامح الذى كان بين الأسرة المالكة وبين أفراد الشعب دون أن يكون نجيب قد قصد هذا المعنى بالذات من روايتها:

«أذكر أن أمى وأختى كانتا مدعوتين فى حفل شاى لأسر ضباط الحرس بمناسبة افتتاح البرلمان فى قصر عابدين، لكن بدلاً من أن تدخلا مقر الحرس، دخلتا الحرملك خطأ، ودخلتا جناح الملكة والأميرات، واستقبلهما أحد الأغوات وأوصلهما إلى الملكة بعد أن تصور أنهما تريدان رؤيتها، بعد أن قدمت أمى كارتا يحمل اسمى كنت قد أعطيته لها حتى يسمحوا لها بدخول القصر، واستقبلت الملكة أمى وأختى بعد أن أخذت من الأغا الكارت وأكرمت استقبالهما، وحملت كلا منهما بالهدايا، ووعدت برد الزيارة لهما، وأعتقد أن الملكة فهمت

الكارت خطأ، لم تتصور أن محمد نجيب ضابط فى الحرس الملكى، وتصورت أنه باشا من باشوات مصر».

«فى هذه الليلة بكت أمى على الخطأ الذى وقع، وتصورت أنهم سيعاقبوننى على ذلك، أما أنا فكنت مكسوفاً من أن تأتى الملكة إلى بيتنا المتواضع جداً. بعد عدة أيام جاء ضابط بوليس إلى بيتنا وأعلن وصول بعض الوصيفات، كمقدمة لاقتراب وصول الملكة، فأفهمت الضابط بالخطأ الذى وقع، وطلبت منه أن يعتذر للملكة وأن يشرح لها بطريقة مهذبة ما حدث، ويبدو أن هذا حدث فعلاً، لأن الملكة لم تأت، وتصورت أنهم لابد أن يعاقبونى على هذا الخطأ، لكن هذا لم يحدث».

(٢١)

ويتحدث الرئيس نجيب عن آلامه الخاصة بعد عزله من رئاسة الجمهورية بطريقة مأساوية، وقد يكون لصاحب المذكرات الحق فى مثل هذا الحديث ولكنى أتصورأنه كان يمكن لهذا الكتاب أن يكون أكثر قيمة حتى من دون هذه الفقرات، ولكن رواية مثل هذه الفقرات فى مذكرات نجيب ربما تعطينا بعض التصوير الصادق لمشاعر الزملاء تجاه بعضهم حين يختلفون ويصبح أصدقاء أو حلفاء الأمس أعداء اليوم، وهذا هو الرئيس السابق نجيب يقارن بين ما آل إليه حاله وبين حال الملك فاروق من قبل، وكأنه يريد أن يصفعنا جميعاً بهذه العبارات التى يقول فيها:

«لم يحافظ عبدالناصر لا على الأصول ولا على التقاليد، أنا الذى فعلت كل هذا من أجله ومن أجل مصر ومن أجل الثورة، تعاملوا معى كأننى لص، أو مجرم، أو شرير، لم يتصل بى عبدالناصر، لم يقل لى كلمة واحدة، ولم يشرحوا لى ما حدث، ولم يحترموا سنى ولا رتبتى ولا مركزى ولا دورى، وألقوا بى فى النهاية فى أيد لا ترحم وقلوب لا تحس، وبشر تتعفف الحيوانات من الانتساب لهم».

«ما أقسى المقارنة بينى وبين فاروق عند لحظات النهاية والوداع، ودعناه بالاحترام وودعونى بالإهانة، ودعناه بالسلام الملكى والموسيقى، وودعونى بالصمت والاعتقال، ودعناه بالمصافحة وودعونى بإعطاء ظهورهم لى».

ومع هذا فإن الرئيس محمد نجيب ظل ينظر إلى جانب مضيء من قضية الصراع على

السلطة فيما بينه وبين مجموعة عبدالناصر من الضباط الأحرار، وها هو يصبر نفسه أو يعزيها ويقول:

«ولكن، للحقيقة التى عاشتها الأجيال المعاصرة أقرر أن الدوائر دارت عليهم، وخرجوا من دائرة السلطة إلى دائرة الوحدة، ومن النفوذ إلى النسيان، ومن الضوء إلى الظل، وانتهى الأمر بهم إما إلى الاستقالة وإما إلى الانتحار. اللهم لا شماتة، لكن علينا أن نستوعب الدرس وأن نحفظه ولا نفرط فى التجربة التى عشناها ودفعنا فيها ثمناً باهظا».

«إننى أعتقد أحياناً أن حظى كان أفضل من حظ باقى أعضاء مجلس الثورة، فذنوبهم كانت أكثر من ذنوبى، وخطاياهم كانت أشد، وما فعلته لم يجرءوا أن يفعلوه، لقد قنعت بإقامتى فى معتقل المرج، وتآلفت مع كل ما فيها، قرأت الكثير من الكتب فى كل فروع المعرفة من الطب إلى التاريخ، ومن علم الكف إلى علم الفراسة، ومن علوم الأحياء إلى الجيولوجيا، كل فروع المعرفة بلا استثناء».

(٢٢)

ويجدر بنا قبل استعراضنا لآراء الرئيس نجيب فى علاقة قادة الثورة بالاخوان المسلمين ومدى تفاوت طبيعة وحدود هذه العلاقة بين مجموعته ومجموعة الرئيس عبد الناصر أن نتأمل فيما يورده صاحب هذه المذكرات عن طبيعة علاقته بزملائه من أعضاء مجلس قيادة الثورة .

ويلخص لنا الرئيس محمد نجيب فى فقرة رائعة تصاعد أو تنامى قلق أعضاء مجلس قيادة الثورة على حياتهم ومستقبلهم ، ويأتى حديثه عن هذا المعنى فى سياقه تماماً بعد إيراده تفاصيل واقعة اعتراض البكباشى حسنى الدمنهورى الضابط باللواء الرابع على قرار مجلس الثورة إلقاء القبض على ضباط المدفعية، وهو ما دفع أعضاء مجلس القيادة إلى أن يفكروا فى إعدامه، وهنا يلقى الرئيس نجيب الأضواء على هذا الحدث من وجهة نظره ويتطرق إلى ما أشرنا إليه من قلق زملائه أعضاء مجلس القيادة على حياتهم فيقول:

«اعترض حسنى الدمنهورى هو الآخر على اعتقال ضباط المدفعية، وطلب من رئيس الأركان اللواء محمد إبراهيم أن يفسر له ما حدث، فقبض عليه فى منزله، وحققت معه لجنة من عبداللطيف البغدادى وعبدالحكيم عامر وزكريا محيى الدين وصلاح سالم، واتهموه بأنه كان يعد مؤامرة للانقضاض على مجلس القيادة، والإفراج عن الضباط المعتقلين».

« وعرفت من جمال عبدالناصر أن حسنى الدمنهورى سيحاكم أمام مجلس القيادة، فاعترضت وقلت له: كيف تكون الخصم والحكم؟ لكنه قال: فات الوقت، إننا سنجتمع بعد ساعة واحدة، أي في السادسة صباحاً، ويحسن أن يحاكم الدمنهور ى بهذه الصورة حتى لا تكون محاكمته خارجنا موضوعاً للإثارة فى صفوف الجيش فى هذا الوقت الحرج. ورأس جمال عبدالناصر المحكمة، التى حضرها كل أعضاء مجلس القيادة ما عدا يوسف صديق وعبدالمنعم أمين، وخالد محيى الدين، وأنور السادات، وأصدرت الحكم بالإعدام».

❑

ثم يردف الرئيس محمد نجيب برواية موقفه من الحكم على حسنى الدمنهورى :

«وأبلغنى عبدالناصر بالحكم، وطلب منى التصديق عليه، لكننى رفضت وحاول إقناعى إلا أننى صرخت فيه قائلا:

«إننى لا أريد أن أمضى فى طريق مفروش بدماء الزملاء من الضباط، واقتنعت بصحة موقفى أكثر عندما أخبرنى اليوزباشى محمد أحمد رياض أنه شاهد البكباشى حسنى الدمنهورى وهو يتعرض لتعذيب شرس وإهانة قاسية من صلاح سالم، حتى يدفعوه للاعتراف بمؤامرة لم يرتكبها، ولم يفكر فيها، وتحمل الدمنهورى كل هذا العذاب النفسى والبدنى، ورفض الاعتراف».

ثم يعقب صاحب هذه المذكرات فى أسف ظاهر على هذه الوقائع بقوله :

« لقد أصبحنا مثل السمك نأكل بعضنا.. وأصبح أعضاء القيادة فى حالة خوف وفزع وتوتر لا ينتهى، كانوا يخشون من أى انقلاب يطيح بسلطاتهم وبنفوذهم، وكانوا على أتم الاستعداد ليفعلوا أى شىء لا يوصل غيرهم إلى السلطة. وانتقلت أحاسيسهم المريضة وتصرفاتهم العصبية من داخل الجيش إلى خارجه».

(٢٣)

بل إن الرئيس محمد نجيب [illegible] يرويه عن العقلية الحاكمة لضباط الثورة فى أول عهدهم بالمسئولية، يصل إلى حدود لا نكاد نتصورها، مع أننا لا نكذبه، ولا نستبعد وقوع ما يرويه، ولكننا نقف حيارى أمام مثل هذه القصة التى يرويها عن رغبة قادة الثورة تأمين حياتهم ومستقبلهم بالأموال حيث يقول:

«وذات صباح لا أنساه.. وقعت مفاجأة مذهلة لا أنساها حتى اليوم.. كنا أنا وجمال عبد

الناصر نركب سيارة، ونتجه إلى نادى الضباط فى الزمالك، لنهنئ الضباط بعيد الأضحى.. فهمس لى عبد الناصر وقال:

«إنى أود أن أعرض عليك أمرا ناقشته مع بعض الزملاء».

«وانتبهت له».

«وأعطيته كل حواسى».

«فقال:

«أعتقد أن ظروفنا الآن تفرض علينا أن ننظر إلى مستقبلنا ومستقبل الثورة ونحن محاطون بالعواصف والأعداء ولا نعرف مصيرنا معها».

«قلت له:

«ماذا تقصد بالضبط؟».

«قال:

«لقد اتخذنا قرارا أرجو أن توافقنا عليه، وهو أن يأخذ كل عضو من أعضاء مجلس القيادة مبلغ عشرة آلاف جنيه، وتأخذ أنت أربعة عشر ألفا فيكون المجموع ١٣٤ ألف جنيه.. وقد طلبت من زكريا محيى الدين أن يحجزهم لنا من النقود الجديدة».

«أحسست ساعتها بالغيظ.. وغلى الدم فى عروقى.. وارتفع ضغطه فى رأسى.. ولم أحتمل هذا الحديث، فصرخت فيه:

«اسكت. اسكت».

«وأخذت أعنفه بشدة.. وأهاجمه على استباحة أموال الشعب لنا.. ورفضت أن يخلط بين أموال الناس وجيوبنا الخاصة، وكدت أن أطلب منه أن ينزل من السيارة».

«فإذا به يضحك، ضحكة عصبية، ويرد علىّ وهو مرتبك:

«أنا كنت متأكد إنك حترد بالشكل ده».

«وبعد أن تماسك وملك نفسه، قال:

«صدقنى أنا كنت بامتحنك».

«ولم أصدق بالطبع».

«ولكنى بدأت أعيد النظر فى تصرفاته، وفى تصرفات زملائه».

«وما حدث من عبدالناصر حدث بصورة أو أخرى من باقى الزملاء فى المجلس».

(٢٤)

ويحرص صاحب هذه المذكرات على أن يلخص لنا طبيعة الظروف الإنسانية والسياسية التى كانت تدفع بالوزراء المدنيين إلى الاستقالات المتكررة بسبب عدم نضج قرارات الثوار المتعلقة بالشئون الداخلية، وهو الأمر الذى كان نتيجة طبيعية لنقص خبرتهم بالإدارة والسياسة، ويبدو نجيب فى هذه الفقرات وكأنه ينحاز ضد الرعونة بأكثر مما ينحاز للخبرة، وهو على كل حال ينبهنا إلى مدى افتقار مجموعة الثوار إلى النضج بسبب سنهم وبأسباب أخرى لا تخفى على أحد، لكن النتائج التى ترتبت على هذا كانت درامية كما سنرى من هذه الفقرة التى نقتطفها من هذه المذكرات:

«... وفى يوم عرفت أن مجلس القيادة اجتمع، اجتماعاً عاجلاً وسريعاً، حتى إنهم من شدة الأهمية ومن ضرورة السرعة، لم يستدعونى، وكان الموضوع الذى سيناقشونه هو: تحديد سعر الطماطم فى السوق، وكان بطل هذا الاجتماع صلاح سالم، الذى اعتبر أن تسعيرة الطماطم فى ذلك الوقت أهم من خروج الإنجليز، أو على الأقل هى الخطوة الأولى لتحرير مصر [يبدو أن هذه العبارة من صياغة كاتب المذكرات وليست من صياغة نجيب نفسه]، وانتهى الاجتماع بتحديد سعر الطماطم، فأرسل صلاح سالم التسعيرة ومعها توجيهات حاسمة إلى بعض الضباط لمراقبة تنفيذها فى الأسواق، بدعوى حماية الجمهور من جشع التجار، تجار الخضار الذين يفرشون الأرض، ويجرون عرباتهم الخشبية بأيديهم، ودون أن يخبروا أجهزة التموين، وغضب وزير التموين فريد أنطون من هذا التدخل الذى لا معنى له، ولم يجد مفراً من أن يقدم استقالته ويترك الضباط يرصدون حركة الطماطم والبطاطس والكوسة بأسلحتهم».

ويردف الرئيس محمد نجيب بذكر واقعة أخرى فيقول:

«وبعد أن استقال وزير التموين، استقال وزير الخارجية أيضاً، كان وزير الخارجية فى ذلك الوقت هو فراج طايع، وكان السبب تدخل جمال عبدالناصر هذه المرة فى عمله، أراد جمال عبدالناصر أن يعين عزيز المصرى سفيراً لمصر، وكان عزيز المصرى فوق السبعين من عمره، أى فى عمر أكبر من الحد الأقصى لسن تعيين السفراء، فطلب من وزير الخارجية رفع سن المعاش للسفراء إلى ٧٥ سنة، حتى يجد فرصة لعزيز المصرى. لكن الوزير رفض واستقال».

«وكاد أن يستقيل أيضاً وزير المالية د. عبدالجليل العمرى، وكان السبب هذه المرة جمال سالم، كان د. العمرى مريضاً، وأراد جمال سالم أن يتدخل فى شئون بورصة القطن بحجة

غياب الوزير، فرفضت، لكنه أصر وتحت ضغط زملائه، اتصلت بالدكتور العمرى لإبلاغه الخبر فى ثنايا مكالمة تليفونية، كانت أصلاً للاستفسار عن صحته، سألته: ما رأيك فى اتخاذ قرار بشأن أسعار البورصة، وما رأيك فى... وقبل أن أكمل كلامى، رد الرجل فى حزم: إنى أقدم استقالتى فوراً، فوضعت السماعة على أذن جمال سالم ليسمع بنفسه، وبعدها تقرر إرجاء الموضوع حتى يشفى الوزير من وعكته الصحية».

(٢٥)

كما يروى الرئيس نجيب فى مذكراته أنه أحس مبكراً أن ضباط الجيش قد بدأوا ـ هم أيضا ـ يتململون مبكراً من تصرفات الضباط، وهو يعبر عن هذا المعنى بفقرات كثيرة فى مذكراته نقتطف منها قوله:

«وانتقل الإحساس بالسخط على عبدالناصر ومجموعته من خارج الجيش إلى داخله أيضاً، فقد بدأوا حركة كبيرة من التنقلات والوقف والترقيات الاستثنائية، جعلت أغلبية الشرفاء فى الجيش يحتجون على تصرفاتهم، ووصل الأمر بهم إلى حد أن ضرب صلاح سالم بحذائه ضابط مخابرات شاباً اسمه محمد وصفى، ابن الأميرالاى وصفى مدير سلاح الحدود الأسبق، أثناء التحقيق معه، حتى نزف الدم منه، ومات بعد ذلك».

«ثم قرر عبد الناصر إبعاد من يتصور أنهم أنصارى، أو من الممكن أن يقفوا معى فى أى صدام يقع بينى وبينهم، فأمر بنقل عدد كبير منهم إلى الصعيد، وحدث نفس الشىء مع ضباط البوليس، وتولى هذه المهمة نيابة عنه ضابط مصلحة السجون السابق صلاح دسوقى، الذى كان مقربا من عبدالناصر فى ذلك الوقت، وعينه أركان حرب الوزارة، وأعطاه صلاحيات الوزير لكى لا يترك زكريا محيى الدين ينفرد بها».

«والمعروف أن صلاح دسوقى ظل تابعا لعبد الناصر ١٥ سنة، أصبح خلالها محافظا للقاهرة، ثم سفيرا، حتى تخلص منه، فترك مصر ورفض العودة إليها.»

«وذات يوم طلب عبد الحكيم عامر، بصفته قائد عام القوات المسلحة، من قائد حرسى اليوزباشى محمد أحمد رياض أن يسافر للعلاج فى أمريكا لأنه مريض».

«ورفض رياض السفر وتعجب من القرار، لأنه ليس مريضا ولم يشك حتى من الانفلونزا».

«كانوا يريدون إبعاده عنى لأنه كان من أشد المخلصين لى».

«ورفضت أنا أيضا أن يسافر».

«لكن.. عندما علمت أنهم يدبرون لاغتياله فى مصر طلبت منه السفر فورا إلى أمريكا».

«كان عبد الناصر وشلته يسعون علنا للانفراد بالسلطة.. كانوا يفعلون كل شيء لفرش الأرض وتمهيدها لذلك».

«بعد أن تخلصوا من الضباط الأحرار الذين لم يتبعوهم، سعوا لـلتخلص من الضباط الآخرين الذين يتبعونى».

«وبعد أن كمموا أفواه المدنيين، سعوا إلى تشريد العسكريين».

«وبعد أن كانوا يقربون الشرفاء أصبحوا يقربون المنافقين وماسحى الجوخ».

«ورغم كل ذلك، لم أحاول أن أفعل مثلهم.. ولم أحاول أن أواجههم بنفس أساليبهم القذرة.. فلم تكن أخلاقى لتسمح بذلك، كما أننى كنت أسعى جاهدا أن أغطى صورتهم المشوهة أمام الناس، حتى لا يفقدوا ما تبقى من إيمانهم بالثورة.. فهل كان هذا خطأى الكبير؟».

«الله أعلم».

❑

ويلخص الرئيس محمد نجيب فى هذه المذكرات رأيه فى النفوذ المبكر للعسكريين من رجال الثورة عقب قيامها بفترة قصيرة:

«فقد اخترق العسكريون كل المجالات وصبغوا كل المصالح المدنية باللون الكاكى».

«فمن العسكريين كونّا لجان تطهير الجيش، التى طهرت حوالى ٨٠٠ ضابط من المشاة والبحرية والطيران، والشرطة أيضاً، وأحالت بعضهم إلى الاستيداع. وقدمت البعض الآخر إلى محكمة الثورة».

«ومن العسكريين كونا لجان تقصى الفضائح، مثل فضيحة الأسلحة الفاسدة، وفضيحة بورصة القطن، وفضيحة بيع أراضى الحكومة بطرق غير قانونية».

«ومن العسكريين كونا محكمة الثورة، التى صادرت أموال الذين أثروا بطرق غير مشروعة، وأمرت بإنفاق هذه الأموال على بناء المدارس، والمستشفيات، والإسكان الشعبى».

❑

وتتضمن هذه المذكرات فقرات كثيرة من حديث مرسل عن بداية فساد الضباط وهو يورد هذا الحديث بعد أكثر من سبعين صفحة من حديثه عن تغلغل نفوذهم الذى تناولناه فى الفقرة السابقة :

«... فقد ترك أحدهم شقته المتواضعة واستولى على قصر من قصور الأمراء فى جاردن سيتى، حتى يكون قريباً من إحدى الأميرات التى كان قصرها قريباً من ذلك القصر الذى استولى عليه.. وكان لا يتورع عن أن يهجم على قصرها بعد منتصف الليل، وفى حالة إغماء بسبب الخمر».

«وكثيراً ما طلبتنى الأميرة فى الفجر لإنقاذها من ذلك الضابط، الذى تصور، على حد تعبيره، أنه ملك جديد».

«عندما حاولت أن أثنيه عما يفعل، قال:

«إننا نسترد جزء مما دفعناه لسنوات طويلة».

«وللأسف.. كان بعض زملائه يضحكون».

«وترك ضابط آخر من ضباط القيادة الحبل على الغارب لزوجته، التى كانت تعرف كل ما يدور فى مجلس القيادة، وكانت تستغله لصالحها ولصالحه.. وكانت تتباهى بنفوذها، وكانت تقول علناً: «الجيش فى يمينى والبوليس فى يسارى»، وكان إيجار شقتها ٥٠ جنيهاً فى وقت كان هذا المبلغ يساوى إيجار بيتى فى عامين».

«وفاحت رائحة ثالث، كان يجرى وراء ناهد رشاد زوجة الطبيب بحرى يوسف رشاد، طبيب الملك فاروق الخاص، الذى كون الحرس الحديدى».

«وانتشرت هذه الفضائح وغيرها لضباط القيادة».

❑

ومن العجيب أن محمد نجيب يروى كل هذا فى إطار تصويره السريع لمفاسد الضباط الذين كانوا لا يزالون يعملون تحت رئاسته ولا يجيد تصوير أو تسجيل ما كان ممكنا له أن يصوره من معاناته فى محاولة إصلاحهم، وربما كان السبب فى هذا أن كاتب هذه المذكرات لم يعن بالتفكير فى صياغة هذا الجزء من منظور لا يدين الرئيس نجيب، ويبدو أن إعجابه بمفاسد الضباط والكشف عنها قد شغله عن تكييف الوقائع وتكييف موقف الرئيس نجيب من هذه الوقائع.

❑

وفى مواضع أخرى يؤكد الرئيس محمد نجيب على معانى استغلال الثوار الجدد لنفوذهم، ويبدو هنا أكثر إيجابية من موقفه فى الأمثلة السابقة:

«... ففى مرة ذهبت لزيارة أحد أعضاء مجلس القيادة فى منزله، فوجدت عنده فناناً

يصنع له تمثالاً، يكلفه ٢٠٠ جنيه، وكنت أعرف أن حالته المالية لا تسمح بذلك.. فلفت نظره لما يفعله.. وخرجت غاضباً من بيته الذى أقسمت أن لا أدخله مرة أخرى».

«وفى مرة أخرى عرفت أن ضابطاً خسر على مائدة القمار مئات الجنيهات فى ليلة واحدة، وكان هذا الحادث وراء قرارى بتحريم الميسر فى المحلات العامة والخاصة.. ووراء قرارى بتحريم مضاربات البورصة على الموظفين العموميين».

«ولاحظت، مرة ثالثة، ونحن نتناول طعام العشاء فى مجلس القيادة، أن بعض أدوات المائدة كانت من الفضة، ومنقوش عليها عبارة «القصور الملكية»، فرفضت أن آكل، وأمرت بإعادة هذه الأدوات إلى مكانها الأصلى، وقررت إبعاد ضابط الشئون الإدارية الذى ارتكب هذه الجريمة فى حقنا».

«وعلى الفور، سارعت برفض قبول الهدايا الشخصية، وأمرت بتحويلها إلى المتحف الحربى، أو إلى رئاسة الجمهورية».

«أردت أن أعطى درساً للآخرين».

«لكن ...».

«لا أحد منهم كان فى وضع يسمح له أن يرى أو يسمع أو يفهم».

❑

وفى موضع ثالث يتناول الرئيس محمد نجيب فى صراحة النتيجة الطبيعية لبعض التصرفات الطائشة التى صدرت عن الثوار فيقول:

«... ولم يتوقف تدخل الضباط فى الحياة المدنية عند مستوى القمة، وإنما امتد إلى المستويات الأخرى».

«فقد سرق بعض الضباط فلوس معونة الشتاء».

«وسرقوا هدايا وبضائع قطارات الرحمة وباعوها علناً».

«وسرقوا فلوس التبرعات الخاصة بالشئون الاجتماعية».

«وسرقوا تحف ومجوهرات وبعض أثاث القصور الملكية».

«وحاولت المستحيل لإعادة الضباط إلى ثكناتهم.. وأصدرت قرارات مشددة بذلك.. وتكلمت مع الضباط أثناء زياراتى لهم فى الوحدات، التى بلغت فى العام الأول للحركة ٨٦٩ زيارة، وأفهمتهم خطورة تسربهم للحياة المدنية.. لكن..»

«كل ذلك لم يأت بنتيجة».

هكذا فإن الرئيس نجيب كان قد وصل إلى اليأس من قبل أن تستبعده الثورة من منصبه! أو هكذا يريد أن يقول!

(٢٦)

على أن نصوص هذه المذكرات تدلنا فى وضوح شديد على أن نجيباً لم يكن فى كل الأحداث والمعقبات التى شهدتها الثورة عند تفاقم الخلاف بينه وبين الآخرين يطالب بالقيادة الجماعية أو الديمقراطية على نحو ما يحلو للبعض تصويره،ولكنه كان كرجل دولة محنك وكعسكرى ملتزم وكموظف بدأ السلم الوظيفى من أدناه إلى أعلاه، يؤمن بما هو أهم من ذلك فى نظره وهو تحديد الاختصاصات، وهو على سبيل المثال يقول:

«كنت مقتنعاً بأن أى جهاز حكم سواء كان حربياً أم كان مدنياً، لابد أن يعتمد على علاقات واختصاصات ومهام واضحة ومحددة، على كافة مستويات القيادة، وكنت مقتنعا بأن عبدالناصر ورفاقه لا يريدون ذلك، وكانوا فى أسلوبهم فى الحكم كمن يخلط الزيت على الماء. وإذا كان للقيادة الجماعية بعض المميزات، فإن المجموعة من تحت المنضدة تصوت حسب أهدافه وأغراضه، كما حدث، ونتج عن ذلك أيضاً تعدد السلطات وتضاربها وعدم التنسيق فيما بينها».

وإذن فإنه من الممكن لنا أن نستنتج أن الرئيس نجيب كان يؤمن بالتكنوقراطية لا بالديمقراطية، أو على الأقل فقد كان يؤمن بالتكنوقراطية أكثر من إيمانه بالديمقراطية، بل ربما يمكن القول إنه كان يؤمن أيضاً بالبيروقراطية أكثر من الديمقراطية، وهو ما يدلنا عليه بوضوح موقفه الذى يرويه فى الوقائع التى تحدث فيها عن بعض خلافاته مع الثوار.

(٢٧)

وحديث الرئيس محمد نجيب فى مذكراته التى بين أيدينا عن الإخوان المسلمين، يعد بلاشك من أهم المصادر للكتابة عن دور أعضاء هذه الجماعة فى أول الثورة وفى أزمة مارس ١٩٥٤ وفيما بعدها من تطورات سريعة متلاحقة، وعلى الرغم من أن كتابات المناوئين لنجيب، والناصريين، والذين يأخذون صف أعضاء مجلس قيادة الثورة يصورون الأمر على

أن نجيب كان متواطئاً مع الإخوان، وأن الإخوان كانوا متواطئين مع نجيب، حتى لتكاد هذه الصورة تكون ثابتة فى كثير من أدبيات التاريخ المعاصر، على الرغم من هذا فإن نجيب يصور الأمور على العكس تماماً، حتى إنه ليضع عبدالناصر نفسه فى الموضع الذى وُضع هو فيه من التآمر مع الإخوان على الثورة وعلى الديمقراطية.

ومع أن وجهة نظر الرئيس نجيب لا تحظى بمن يروج لها أو يتحيز لها فى ظل عدم وجود مَنْ قد نطلق عليهم وصف «نجيبيين» فى مقابل «ناصريين» إلا أن وجهة نظره التى عبرت عنها هذه المذكرات لا ينقصها المنطق، وربما أن الواقع نفسه لا ينقضها، ونحن نراه يتحدث عن الإخوان وموقفهم فى أزمة مارس ١٩٥٤ بمرارة شديدة، وهو يقول:

«... دفعت المخابرات بنص المكالمة إلى جريدة «الأخبار» التى تساند عبدالناصر بكل قوتها. ورغم ذلك لم يعتقل، ولم يفرج عن أحمد حسين، ولا عن رشاد مهنا، بينما أفرج عن حسن الهضيبى، الذى اتصلت به فقالوا لى: فى الحمام! وبعد الإفراج عن الهضيبى ذهب جمال عبدالناصر لزيارته فى منزله فى منتصف الليل، وفى صباح اليوم التالى نشرت الصحف: إنه تقرر الإفراج عن جميع الإخوان، وإن الإخوان استأنفوا نشاطهم وعقدوا اجتماعاً مع المرشد العام لجماعتهم، وأعلن الهضيبى: إننا الآن أقوى مما كنا! ووقع الإخوان فى الفخ الذى نصبه لهم جمال عبدالناصر، فقد كان الإخوان هم القوة المرجحة لفوز إحدى القوتين المتنازعين فى هذه المرحلة، قوتى، وقوة عبدالناصر، وكان على عبدالناصر أن يستميلهم إلى جانبه، فإذا ما كسب معركته معى وسيطر على الحكم، استدار عليهم وتخلص منهم، وهذا ما حدث فعلاً. لقد اشتراهم عبدالناصر ليبيعنى، ثم باعهم واشترى السلطة المطلقة».

ويردف الرئيس محمد نجيب بعد هذا وكأنه يرثى للإخوان فيقول:

« إن خطأ الإخوان فى هذا الموقف كان خطأ استراتيجياً، لأنهم تصوروا أن القضاء على الأحزاب كان لصالحهم، بحيث يصبحون الحزب الوحيد، والقوة الوحيدة، ولم يدركوا ببساطة حكاية العصا الوحيدة التى يمكن كسرها، ومجموعة العصى التى لا يمكن كسرها معا والتى كنا نسمعها ونحن أطفال، ولا نزال نرويها لصغارنا إلى الآن».

«والدليل على ذلك أنهم انتهوا إلى السجن والتعذيب والتشريد عندما وصل عبدالناصر إلى الحكم، بينما كان موقفهم فى تلك الفترة ضد الأحزاب وضد تعدد الآراء، حتى إن أحد قادتهم قال للصحف يوم ٢٧ مارس: «فيما يختص بعودة الأحزاب السياسية أملنا ألا يعود الفساد أدراجه مرة أخرى، لأننا لن نسكت على هذا الفساد، بل ولن نطلب تأليف أحزاب

سياسية لسبب بسيط، هو أننا ندعو المصريين جميعاً لأن يسيروا وراءنا ويقتفوا أثرنا فى قضية الإسلام».

وهنا يعقب الرئيس نجيب مرة أخرى بقوله :

«أى أن الإخوان ظلوا على مواقفهم القديمة، ولم يتعلموا من درس حلهم، ولا من درس وضع قادتهم فى السجن، وقرروا أنهم ضد الحياة النيابية، ومع الحياة العسكرية».

❑

وبعد صفحتين أخريين يروى لنا الرئيس محمد نجيب أبعاداً أخرى لموقف الإخوان المسلمين وقصور رؤيتهم السياسية من وجهة نظره، ومن المدهش أن نجيب يرى أن جماهير الإخوان المسلمين وشبابها كانوا أكثر وعيا بالسياسة من قادة هذه الجماعة، ويدلل الرئيس نجيب على صحة هذا الذى يراه بما حدث بالفعل:

«... قال حسن الهضيبى إنهم لم يتدبروا أمرهم بعد، وإنهم يفضلون الانتظار والهدوء حتى يتم الإفراج عن كافة المعتقلين، وقد كان هذا موقف مكتب الإرشاد للإخوان المسلمين، أما جماهير الإخوان التى خرجت لتأييدى فى فبراير ١٩٥٤ بعد استقالتى فى مظاهرات ضخمة لم تشهد مصر مثلها من قبل، هذه الجماهير التى واجهت نيران الشرطة والبوليس الحربى وخرجت تهتف بعودتى وقت أن كانت قيادة الإخوان فى المعتقلات، هذه الجماهير لم توافق مكتب الإرشاد على هذه السياسة، بل احتل بعض شباب الإخوان المسلمين مركز الإخوان احتجاجاً على ذلك، وكان هذا بداية الانقسام فى الإخوان المسلمين، الأمر الذى ساعد فى القضاء عليهم».

«إننى بمنتهى الصراحة لم أتصور أن يغير الإخوان موقفهم ويؤيدوا جمال عبدالناصر، ومع ذلك كان ما فعله عبدالناصر هو أهم ضربة سياسية فى حياته، ولولاها ما وصل إلى الحكم».

❑

وبعد اثنتى عشر صفحة من هذه المذكرات يقول الرئيس نجيب فى صراحة شديدة أو فى تشف واضح:

«فى آخر مايو اعتقل (أى عبدالناصر) ٢٥٢ شيوعياً، واعتقل عدداً كبيرا من الضباط الإخوان فى الجيش، ولم يلبث أن دفع الإخوان ثمن تأييدهم لعبدالناصر فى أزمة مارس عندما دبر ما سمى بحادث الاعتداء عليه فى المنشية يوم ٢٦ أكتوبر، واتهم فيها محمود عبداللطيف».

(٢٨)

وقبل نهاية كتابه يعود الرئيس محمد نجيب إلى الحديث عن نفس الفترة وعن مأساة الإخوان، وكأنه فى هذا الحديث (أو كأن كاتب المذكرات) يريد أن يوحى بما يقوى الشائعات المتواترة عن تعاون نجيب مع الإخوان قبيل محاولة اغتيال الرئيس عبدالناصر فى المنشية:

«بعد حادث المنشية بدأت مهزلة اعتقال ومحاكمة الإخوان المسلمين، بدأت هذه المحاكمات قبل اعتقالى بيوم وانتهت بعد اعتقالى بيوم، ورأسها جمال سالم، وتمت فى جو من الإرهاب والضغط، والسخرية بكل شيء، بالإنسان، وبالمبدأ، وبالقيم، وبكتاب الله أيضاً، إلى حد أن جمال سالم طلب من بعض أفراد الإخوان المتهمين أمامه أن يقرأوا القرآن بالمقلوب».

ويردف الرئيس نجيب بقوله :

«كانت مشاعرى معهم، مع الإخوان، رغم أنهم تخلوا عنى وعن الديمقراطية ورفضوا أن يقفوا فى وجه عبدالناصر إبان أزمة مارس، بل إنهم وقفوا معه، وساندوه، بعد أن اعتقدوا خطأ أنهم سيصبحون حزب الثورة وأنهم سيضحكون على عبدالناصر ويطوونه تحتهم، فإذا بعبدالناصر يستغلهم فى ضربى، فى ضرب الديمقراطية، وفى تحقيق شعبية له، بعد حادث المنشية».

❑

ويعود الرئيس محمد نجيب ليؤكد على هذا المعنى بعبارات أخرى وبتوزيع لحنى جديد ويتحدث بمشاعر كأنها الأسف الشديد:

«إن الإخوان لم يدركوا حقيقة أولية، هى أنه إذا ما خرج الجيش من ثكناته فإنه حتماً سيطيح بكل القوى السياسية، المدنية، ليصبح هو القوة الوحيدة فى البلد، وإنه لا يفرق فى هذه الحالة بين وفدى وسعدى، ولا بين إخوانى وشيوعى، وإن كل قوة سياسية مدنية عليها أن تلعب دوراً لصالح القيادة العسكرية الدكتاتورية ثم يقضى عليها».

«لكن لا الإخوان عرفوا هذا الدرس، ولا غيرهم استوعبه».

«ودفع الجميع الثمن، ودفعته مصر أيضاً، دفعته من حريتها وكرامتها ودماء أبنائها، فالسلطة العسكرية أو الديكتاتورية العسكرية لا تطيق تنظيماً آخر، ولا كلمة واحدة، ولا نفساً ولا حركة، ولا تتسع الأرض لها ولأحد غيرها».

«وكما قلت من قبل: كان حزنى شديداً على عبدالقادر عودة الذى صعد درجات المشنقة

شجاعاً، وتذكرت يوم استدعيته قبل ذلك بشهور فى شرفة القصر الجمهورى بعابدين ليطل معى على أنصاره فى الميدان، ويطلب منهم الانصراف بهدوء بعد أن قلت لهم إن عودتى هى عودة الحياة البرلمانية، وإن المسئولين عن جرحاهم سوف يحاسبون».

❑

ويملى الرئيس نجيب فى مذكراته بعض المعانى التى يضمنها آرائه التى تنطق بمدى النضج السياسى الذى أدركه، سواء عند كتابة المذكرات، أو وهو فى الحكم، وليس بغريب أن يكون الرئيس نجيب قد استوعب هذه المعانى ضمن ما استوعب من فهمه لحركة التاريخ:

«والتحول من العمل الجماهيرى إلى الإرهاب أعطى دلالة بالغة على فقدان الثقة فى الشعب، وهو ما سقطت فيه قيادات الإخوان المسلمين، ولم يدفع الإخوان الثمن بمفردهم، دفعه شباب مصر، ورجالها، ودفعه أيضاً أبنائى، فالإرهاب يولد إرهاباً، والدم يفجر الدم، والقسوة تعشق القسوة، والديكتاتورية العسكرية لا تحكم إلا بدولة المخابرات».

(٢٩)

ونأتى بعد هذا إلى آراء الرئيس نجيب فى السياسات الخارجية، وفى الاستقطابات التى واجهتها الثورة فى الفترة التى كان فيها صاحب هذه المذكرات بمثابة الرجل الأول فى هذا الوطن، ومن حسن الحظ أن هذه المذكرات تسجل لصاحبها رؤية واضحة تجاه هذه القضايا. ولربما يرجع البعض صراحته إلى أنه فى هذه المذكرات رئيس سابق بعيد تماماً عن الحكم فهو من ثم لا يجد أى حرج فى أن ينتقد بقوة، وأن يجاهر بما يعتقد. وعلى كل حال فإن الرئيس نجيب ينتقد السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط وفى مصر، وهو يجاهر بموقف قوى ضد الأمريكان فى بداية الفصل الثالث عشر من هذه المذكرات ويقول فى وضوح تام:

«... قبل أن توقع اتفاقية ٢٧ يوليو مع بريطانيا، كانت أمريكا تسعى إلى ملء الفراغ الذى سيتركه الإنجليز فى مصر، كانت أمريكا تحلم بميراث الإمبراطورية العظمى. لكن الأمريكان كانوا يريدون أن يحصلوا على مصر مجاناً، أو ببضعة (أجوال) من قمح المعونة، ولم يكونوا على استعداد لأن يدفعوا أكثر من ذلك، كأن يمدونا بالسلاح مثلاً».

وليس فى أدبيات السياسة المعاصرة مَنْ وصل إلى هذا التصوير الجيد والمختصر لنظرة الولايات المتحدة الأمريكية إلى مصر فى مطلع الثورة.

وعلى النقيض من هذا الموقف المتعالى على الفهم الأمريكى القاصر للعلاقات المصرية ـ الأمريكية يجاهر الرئيس نجيب فى هذه المذكرات بموقفه الإيجابى والمتعاطف مع اليهود المصريين ويقول:

«فى تاريخ مصر الحديث يهود وصلوا إلى أعلى مراكز الدولة، كانوا مثلاً وزراء. وحتى عام ١٩٥٥ كان يعيش فى مصر حوالى ٨٥,٠٠٠ يهودى ولدوا فيها، وكانت لهم نفس الحقوق التى يتمتع بها باقى المصريين، فقد كانت الثورة حريصة فى البداية أن تفرق بين الصهيونية واليهودية، وبين إسرائيل والمجتمع اليهودى الذى يعيش فى مصر، وعند افتتاح شيكوريل اليهودى محله الجديد، بعد الذى احترق فى حريق القاهرة، أرسلنا أحمد أنور قائد البوليس الحربى مندوباً عن القيادة ليحضر الافتتاح، وأكثر من مرة حرصت على أن أزور معابد اليهود فى القاهرة والإسماعيلية فى يوم كيبور، وأمضيت وقتاً طويلاً مع الحاخام الأكبر حاييم ناحوم الذى كان عضواً فى مجمع اللغة العربية والذى كنت أدعوه دائماً لحضور المناسبات الرسمية مع شيخ الأزهر، وبطريرك الأقباط».

على هذا النحو نرى الرئيس نجيب وهو يقدم رؤيته، ويستشهد على إيمانه بها وتمسكه بما فعل أثناء توليه السلطة، بحيث لا يمكن الادعاء ضده بأنه يدعى الحكمة بعد فوات الأوان، أو أنه ينسب لنفسه أدوارا أصبح يتمناها المرء لقادة بلاده. ولكن واقع الأمر أن الرئيس نجيب بطبعه وثقافته وشخصيته كان واعيا لمثل هذه الدقائق وقادرا على اتخاذ القرار الصائب فيها.

(٣٠)

ومن حسن الحظ أن مذكرات نجيب تخلو فى مجملها من التعريض بأى من زملائه أو نظرائه من قادة القوات المسلحة على أى مستوى باستثناء حسين سرى عامر ومحمد رشاد مهنا فى مواقف معدودة ومحدودة.. وإن كانت المذكرات لا تخلو بالطبع من انتقاد كل من جمال عبدالناصر و صلاح سالم وهما من الجيل التالى لنجيب.

ويحرص الرئيس محمد نجيب على إدانة زميله اللواء حسين سرى عامر فى مواقف كثيرة، لعل أبرزها ما يذكره من أنه فى ١٩٥٢ قام (أى حسين سرى عامر) ببيع البترول والذخيرة ومخلفات الحرب العالمية بالصحراء الغربية إلى جماعة من اليهود فى غزة ، وأنه ارتكب بذلك جناية تستحق العقاب وتصل إلى حد الخيانة العظمى.

ويذكر نجيب أن هذا التصرف كان بمثابة السبب وراء قيام عبدالناصر بمحاولة اغتيال حسين سرى عامر الشهيرة.

أما موقف الرئيس محمد نجيب فى هذه المذكرات الناقد لتصرفات وشخصية القائمقام محمد رشاد مهنا فيبدأ مبكراً حين يروى الرئيس محمد نجيب واقعة يدين بها رشاد مهنا فى موقف بارز حدث من قبل الثورة وهو طلبه الابتعاد عن القوات المسلحة العاملة فى القاهرة بعدما أصبح عضواً فى مجلس إدارة نادى الضباط، ويروى الرئيس محمد نجيب هذا المعنى فى مذكراته بكل وضوح فيقول:

«ووسط هذا الغضب المتبادل بيننا وبين الملك فوجئت بخبر غريب جداً، عرفت أن رشاد مهنا نقل من القاهرة إلى العريش، تصورت أنها مؤامرة لإبعاده، فأسرعت إلى مكتب حيدر محتجاً، فقال لى: صدقنى يانجيب أنا لا أعرف شيئاً عن هذا الخبر، ورفع سماعة التليفون وطلب مدير سلاح المدفعية ليعرف منه الحقيقة، وعندما وضع السماعة مكانها قال: «رشاد مهنا نقل للعريش بناء على طلبه».

«ولم أصدق هذا الكلام، وقلت بينى وبين نفسى إنها ألاعيب كبار الضباط، ونزلت من عند حيدر إلى بيت رشاد مهنا، وقابلته، وللأسف تأكدت أن الخبر صحيح، وأن رشاد مهنا هو الذى طلب نقله، وكان تبريره هو أنه فضل الابتعاد عن القاهرة فى وقت يطاردنا فيه الملك، ويحاول سحقنا. وأحسست بصدمة، خاصة أن رشاد مهنا كان رجلاً له تاريخ مشرف ولم أقتنع بتبريره».

(٣١)

ولهذا السبب لا يلجأ صاحب هذه المذكرات فيما بعد هذا بصفحات طوال إلى إجهاد نفسه فى تقييم ونقد محمد رشاد مهنا بعد قيام الثورة، وإنما هو يضع هذا الأمر فى تصوره الطبيعى نتيجة معرفته القديمة به فيقول:

«ولم تمر عشرة أسابيع حتى وقع الخلاف بيننا وبينه، فقد تجاوز رشاد مهنا حدود سلطته الدستورية، بالتدخل فى شئون تطهير الأحزاب والهيئات السياسية، وبالاتصال بالوزراء وإقحام نفسه فى شئونهم، وبالاتصال برجال الصحافة ومناقشة الأمور معهم والاعتراض عليها. كما أنه كان أيضاً يسعى لإحياء الخلافة الإسلامية ليكون على رأسها».

« لقد اعتدى رشاد مهنا على نصوص الدستور التى حددت سلطاته فى صراحة ووضوح، ونسى أنه مجرد عضو فى هيئة تمثل الملك الذى يملك ولا يحكم».

«وفى يوم من أيام شهر أكتوبر ١٩٥٢، اتصلت به فى مكتبه بقصر عابدين، لتهنئته بمولود

رزق به، ولتحديد موعد أراه فيه، لتكون التهنئة مباشرة، وجهاً لوجه، فإذا به يصرخ فى وجهى ويقول: أريدك أن تأتى إلى مكتبى فى القصر ومعك السيد سليمان حافظ نائبك لمقابلتى».

«كنت أيامها رئيساً للوزراء. وتعجبت من هذا الاستدعاء ، ورغم ذلك ، قررت أن أستجيب له ، لأنه صادر من أحد الأوصياء ، الذين لهم بحكم مناصبهم اتخاذ مثل هذه الخطوة».

«وتوجهت فعلا، أنا وسليمان حافظ إلى القصر ، وقابلت رشاد مهنا فى مكتبه أكثر من ساعة. كان رشاد مهنا ثائرا جدا .. يتحدث إلينا فى عنف .. ويضرب المكتب بقبضة يده .. ونحن نسمع ولا نعلق».

«قال رشاد مهنا : إننى أحب أن تعرف أن رشاد مهنا ليس بصمجيا.. إننى لا أقبل أن أجلس هنا أوقع المراسيم التى ترسلونها إلينا فحسب .. إننى ألاحظ أن الوزارة تتخذ خطوات كثيرة لا أعرف عنها شيئا ، ولا يعرض على من أمرها أية تفصيلات.. انك يانجيب تستقبل ستيفنسون (السفير البريطانى) وكافرى (السفير الأمريكى) وتستدعى من السودان أقطابه ، وتتباحث مع الجميع دون علمى مع أننى واحد منكم ولا بد أن يؤخذ رأيى فى كل شىء».

«قلت فى هدوء : أنت ثائر الآن ، وأنا أفضل أن أتركك بضعة أيام حتى تستعيد هدوءك. لكنه ازداد انفعالا وقال فى ثورة شديدة: اعلموا اننى لن أكون طرطورا ».

«ولا أعرف ما الذى دفع رشاد مهنا إلى أن يقول مثل هذا الكلام، ورغم ذلك ، حاولت أن أوضح له الأمر، عندما انتقلت إلى مكتب الأمير محمد عبد المنعم ، ومعنا بهى الدين بركات ، لكنه أصر على موقفه ، وشاركه بهى الدين بركات .. حاولت توضيح الموقف الدستورى لهم ، لكنهم لم يقتنعوا ».

«وأصر رشاد مهنا على أن يقدم استقالته .. وبقى الأمير محمد عبد المنعم صامتا.. وأعلن بهى الدين بركات أنه سيستقيل هو الآخر. فاتخذنا قرارا بإقالته وتحديد إقامته . واقترحت على مجلس الوزراء أن نكتفى بوصى واحد هو الأمير محمد عبد المنعم ، بعد أن أصر بهى الدين بركات على الاستقالة».

(٣٢)

وفى ختام هذا كله يحرص صاحب هذه المذكرات على نشر البيان الخاص بإعفاء رشاد مهنا من منصبه كوصى على العرش ومما جاء فى هذا البيان :

«لقد قام الجيش بثورته وكان أول أهداف الثورة القضاء على الطغيان، فأقصت ملكاً طاغياً

لا يحترم السلطات ودائب التدخل فى شئون الحكم، ويؤسفنا وقد رشح الجيش أحد ضباطه، القائمقام أ.ح محمد رشاد مهنا فى مجلس الوصاية المؤقت، وطلب منه أن يلتزم حدود وظيفته كوصى لا دخل له بشئون الحكم، فأخذ تارة يتصل بالوزراء طالباً إجابة مطالب شتى أكثرها وساطات ومحسوبيات، وتارة أخرى يتصل برجال الإدارة، وتمادى إلى أن حدث يوماً أن أمر بمباشرة إيقاف إصدار إحدى الصحف، بل وسحب رخصة أخرى».

«وقد نبه المرة تلو المرة، لكنه تجاهل ما كان يوجه إليه من نصح وإرشاد، فحدث أن سمح لنفسه بأن يعارض علناً قانون تحديد الملكية (الزراعية) رغم علمه التام بأن القانون هو حجر الزاوية فى الإصلاح الشامل الذى تريده الأمة والجيش وقيادته التى قامت بتوجيه الحركة».

«بل وبلغ به التمادى فأخذ يدلى بالتصريحات العامة للصحف والمجلات المصرية والأجنبية، وبعض هذه التصريحات من صميم سياسة الدولة، وهذا ما لا يجوز بحال أن يصدر من وصى على العرش. فتناول موضوع السودان ومواضيع شتى داخلية، وأخذ يتصل بدور الصحف موحياً إليها القيام بدعاية واسعة النطاق له، ودأب على بث روح التفرقة حتى خيل للبعض أن هناك جملة اتجاهات للجيش وليس اتجاهاً واحداً قوياً نحو غاية مرسومة».

«ولقد تحملت القيادة العامة تصرفاته هذه على مضض أسبوعاً تلو الأسبوع إلى أن تقدم حضرته رسمياً لنا بطلب تدخله الفعلى فى كل أمر من أمور الحكم، ومن ذلك ظهر لنا بوضوح أن حضرته لم يستطع التمشى مع أهداف الحركة والسير على مبادئها المرسومة. لذلك قررنا إعفاءه من منصب الوصاية على العرش، وليعلم الجميع أن هذه الحركة قائمة على المبادئ، ولن تقف فى سبيلها نزوات أشخاص، أو أطماع أفراد. والله ولى التوفيق».

على هذا النحو يصور الرئيس نجيب خروج أو إخراج رشاد مهنا من صفوف المسئولين إلى صفوف المدانين، وقد كان هذا الرجل أول من تعرض لهذا الموقف القاسى على هذا النحو، وكان أول قائمة طويلة استمرت تتغذى وتتوسع طيلة عهد الثورة، ومن المؤسف أننا لم نقرأ حتى وقتنا هذا مذكرات لهذا الرجل توضح الجانب الآخر من القضية، وإن كنا لا نعدم الثناء عليه وعلى وطنيته وعلى شخصيته فى كثير من المذكرات المتاحة، ومنها ـ على سبيل المثال ـ بعض المذكرات التى نتدارسها فى هذا الكتاب كمذكرات عبدالمنعم عبدالرءوف.

(٣٣)

وعلى النقيض من موقف الرئيس نجيب (المعادى) لرشاد مهنا، فإننا نراه معجباً غاية الإعجاب بمواقف يوسف صديق، وحريص على أن يسجل هذا الإعجاب، وهو يذكر من هذه المواقف موقف يوسف صديق مثلاً عقب القبض على ضباط المدفعية فيقول:

«وبمجرد أن قبض على ضباط المدفعية قدم يوسف صديق استقالته، وقال: «إن ضميره لا يمكن أن يستقيم وهو عضو فى مجلس يصدر قرارات تخالف أفكاره وعقيدته، ولا يستقيم الأمر بأن قرارات المجلس تصدر بالأغلبية، فإن المجلس فى ذاته لا يمثل الشعب ولا يمثل الجيش أيضاً».

«ورفض المجلس إعلان استقالة يوسف صديق، وأجبر على الرحيل إلى سويسرا فى مارس ١٩٥٣، بعد حوالى شهرين تقريباً».

ويعقب الرئيس نجيب على هذا الموقف الشجاع ليوسف صديق بقوله:

«كان يوسف صديق يدعو للتمسك بالدستور ويطالب بدعوة البرلمان المنحل للانعقاد لتعيين مجلس الوصاية، كان مع كل ما هو دستورى، رغم أنه كان شيوعياً».

«وهكذا نجد هذه المذكرات تعانى من نفس العقيدة التى تسيطر ـ للأسف ـ على كثيرين من أن الشيوعية تتضمن سلفاً عدم الاعتراف بالدستور.

(٣٤)

أما الرئيس عبدالناصر فإنه بالطبع يحظى بكثير من انتقادات نجيب التى تأتى ضمن السياق بسلاسة ودون أن يلجئ صاحب المذكرات نفسه إلى كثير من التنظيرات.

فهو يتحدث عن دوره فى حرب فلسطين بالطريقة التى تدين عبدالناصر ولا تشرفه، فيقول على سبيل المثال:

«... وفى خلال شهور الحرب لم يلفت جمال عبدالناصر انتباهى لكنى أتذكر أنه كان يحب الظهور ويحب أن يضع نفسه فى الصفوف الأولى، والدليل على ذلك ما حدث فى الفالوجا، كنا نلتقط صورة تذكارية فى الفالوجا، ففوجئت بضابط صغير يحاول أن يقف فى الصف الأول مع القواد، وكان هذا الضابط جمال عبدالناصر، ولكنى نهرته وطلبت منه أن يعود لمكانه الطبيعى فى الخلف، وعرفت منه بعد ذلك أنه لم يحارب فى عراق المنشية كما ادعى، ولكنه ظل طوال المعركة فى خندقه لا يتحرك، وفى الحقيقة كان الجنود السودانيين هم الذين حاربوا فى هذا المكان ونجحوا فى الاستيلاء على ١٣ دبابة من اليهود. والمعروف أن السودانيين مغرمون بكتابة الشعر، وقد سجل بعضهم تفاصيل القتال الذى دار فى عراق المنشية فى قصائد طويلة، وصفوا فيها عبدالناصر وصفاً غير لائق بضابط مصرى».

وهو يتحدث عن نشاط عبدالناصر السياسى قبل الثورة بطريقة مبتسرة، وإن كان يذكر أنه

كان على علاقة بالإخوان، وأنه كان بينه وبينهم تاريخ طويل، قبل الثورة، وكان اسمه الحركى عندهم زغلول عبدالقادر، وقد اكتشف الإخوان، كما قال حسن عشماوى فى مذكراته: «الإخوان والثورة»: إن عبدالناصر كان قبل أن يعرفهم عضواً فى خلية شيوعية، وكان اسمه الحركى فيها: «موريس».

❑

ويلخص الرئيس نجيب تقييمه لعبدالناصر كرئيس فى سطور قليلة فيقول:

«إن عبدالناصر الذى كنت أحترمه، كان شاباً صغيراً، ذا قدرات متميزة، وقد اقترحت عليه أن أدير وأقود البلاد لعدة سنوات إلى أن يكتسب الخبرة اللازمة التى تمكنه من أن يخلفنى فى الرئاسة، وأكدت له فى ذلك الوقت أننى ساكون سعيداً أن أستقيل من أجله ولصالحه، وخيرته فى ذلك، أو أن أستقيل حالاً، حتى لو أدى الأمر إلى خلق أزمة داخلية لأننى لم أعد أتحمل أو أتسامح عن الأخطاء التى يرتكبها أعضاء المجلس».

❑

وسوف نلحظ من خلال كثير من نصوص هذا الكتاب مدى التوافق الفكرى الذى كان موجوداً فى البداية بين الرئيس محمد نجيب والرئيس جمال عبدالناصر.

ومع أننا ـ على سبيل المثال ـ لا نقطع بصدق الرواية التى نوردها نقلاً عنه فى الفقرة التالية، إلا أن هذه الرواية تدلنا على أن الرجلين عبدالناصر ونجيب كانا فى فهمهما لأهداف الحركة الوطنية يعزفان نفس اللحن حتى بعد أن اختلفا:

«ففى فلسطين اكتشفت أن العدو الرئيسى لنا ليس اليهود وإنما الفساد الذى ينخر كالسوس فى مصر، والذى كان يتمثل فى الملك وفى كبار القواد والحاشية والإقطاع وباقى عناصر النظام ودعائمه فى مصر».

«وكنت أول من قال: إن المعركة الحقيقية فى مصر وليست فى فلسطين.. وهى العبارة التى نسبها جمال عبدالناصر لنفسه بعد ذلك».

«وكنت لا أتردد فى أن أقول هذا الكلام لكل مَنْ أثق فيه من الضباط. كنت أحرضهم على القتال فى فلسطين والانتباه لما يدور فى مصر».

«وكنت أوحى إليهم بضرورة عمل أى شىء لإنقاذ البلد مما هى فيه. وفى فترة من الفترات كان الصاغ أركان حرب محمد عبدالحكيم عامر أركان حرب للوائى.. ويبدو أن كلامى عن الفساد فى القاهرة أثر فيه، فذهب إلى صديقه البكباشى أ. ح. جمال عبدالناصر وقال له ـ كما ذكر لى بعد ذلك: لقد عثرت فى اللواء محمد نجيب على كنز عظيم».

«وخلال حلقات النقاش تعرفت على جمال عبدالناصر والصاغ كمال الدين حسين والبكباشى أنور السادات وصلاح سالم وغيرهم من الضباط الذين كانوا يؤمنون بما أقول».

(٣٥)

وينتقد الرئيس محمد نجيب فى مذكراته فى مرارة شديدة سياسة صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة فى السودان، وتبدو انتقاداته منطقية وحقيقية ويقول ضمن ما يقول:

«... وتصور (أى صلاح سالم) أنه بالرقص والنقود يمكن أن يكسب السودانيين، وكانت النتيجة أن بعثر النقود، وبعثر احترامنا فى السودان».

«تصور [أى صلاح سالم] أنه يمكن أن يرشى السودانيين، ولكن كان مخطئاً، كذلك تصور أنه يمكن استمالة زعمائه، باستضافتهم فى مصر، ومنحهم البيوت والفيلات، وقد بنى هذا التصور الخاطئ بعد أن نجح فى أخذ اعتراف من على المرغنى بوحدة وادى النيل، بعد أن ظل يرفض الاعتراف بذلك، وكان سر هذا التحول فى موقف هذا الرجل الذى لم يكن من أصل سودانى، (السرايا)، التى أعطوها له فى الإسكندرية، واتضح فى النهاية أنه أحد عملاء المخابرات البريطانية. هذا فى الوقت الذى كان صلاح سالم يتعامل بسخافة مع أنصار الاتحاد الحقيقيين مع مصر».

على هذا النحو يصرح الرئيس نجيب بمثل هذ الرأى الخطير فى حق الزعيم السودانى المعروف الميرغنى!!

(٣٦)

ويحظى خالد محيى الدين كالعادة فى كل المذكرات المشابهة بثناء الرئيس نجيب على توجهاته وتصرفاته ويقول:

«... لقد تصورت ببراءة أن ما يفعلونه لابد أن يكشفهم ويفضحهم ويعزلهم داخل الجيش وأمام الشعب».

«وكان هذا هو نفسه تصور خالد محيى الدين».

«وأنا لم أعرف عنه ذلك إلا بعد أن اقتربت منه فى رحلة إلى النوبة، حيث كان الوحيد الذى قبل أن يسافر معى هذه الرحلة».

فعندما أفرغت له ما فى صدرى، وعبرت له عن معاناتى من باقى أعضاء مجلس الثورة،

وعن الأحاسيس المظلمة التى أشعر بها والتى أرى من خلالها أن تصرفاتهم المشينة ستؤدى بالبلد إلى كارثة على كافة المستويات، السياسية والاقتصادية وأيضاً الأخلاقية، فوجدت به يشاركنى فى الرأى، ويؤيدنى فيما أقوله، ويضيف لى من عنده ما كنت لا أعرفه».

«وكما قلت من قبل :

«فتح خالد محيى الدين صدره لى وتبادلنا الآراء، واتفقنا على أنه لا مفر من عودة الجيش إلى الثكنات لتستقيم الأمور فى البلاد بعد أن وصلت إلى حافة الهاوية».

وبعد فقرات أخرى مشابهة يردف الرئيس محمد نجيب هذا الحديث بقوله :

«فى هذه المرحلة اقترب خالد محيى الدين من قلبى كثيراً واتفقنا على شىء واحد هو ضرورة استقرار حياة ديمقراطية فى مصر، مع عودة الجيش إلى الثكنات.. ولم نتفق على إقامة تنظيم خاص، كما كان يفعل جمال عبدالناصر، وتركنا الأمور تمضى فى طبيعتها يملؤنا التفاؤل من تأييد الجماهير الواضح للديمقراطية.. ومن نقمة الضباط المتزايدة على تصرفات أعضاء مجلس القيادة والقلة المقربة منهم. وعدت إلى القاهرة أكثر تفاؤلاً مما سافرت».

(٣٧)

وفى هذه المذكرات يعترف الرئيس محمد نجيب بشىء لابد أن ننتقده فيه، فهو يظن أن تجديد الأزهر كان يتوقف على إبعاد المشايخ المسنين فحسب، مع أن الأزهر لا يستغنى ـ شأنه شأن أى معهد علمى ـ عن هؤلاء الشيوخ المسنين، وها هو الرئيس نجيب يقول:

«وأحسست أن الأزهر يجب أن يجدد دمه بشباب مشايخه، الذين دفعهم الاستقرار إلى الجمود وعدم ملاحقة العصر، فأصدرت قرار حل هيئة كبار العلماء، وحددنا سن العضوية فيها ما بين ٤٥ إلى ٦٥ عاما، فخرج ثلاثة من مشايخ الأزهر السابقين هم: الشيخ عبدالمجيد سليم، والشيخ إبراهيم حمروش، والشيخ الخضر حسين وكانوا جميعاً فوق السبعين».

❑

كما يعترف الرئيس نجيب فى هذه المذكرات بقصور فهمه للتحول الاجتماعى، ولابد لنا أن نحمد هذا الاعتراف المهم وأن ننبه إليه لكى يأخذ كل مسئول درساً فى ضرورة الإلمام بمثل هذه الجوانب المهمة من أبعاد السياسات وصناعتها، كذلك يعترف نجيب فى مذكراته بأنه قد يكون قد أخطأ ولكنه مرتاح الضمير، وهو يقول بكل صراحة وتواضع:

«كل ما أعرفه هو أننى أعطيت لمصر كل ما كنت أملك من حب وإخلاص ووفاء، وكل ما

أعرفه هو أننى فعلت المستحيل لينصلح حالها، ولترفرف الديمقراطية إلى جانب علمها، وإذا كنت قد أخطأت فبحسن نية، وجل من لا يخطئ. وإذا كنت قد أخطأت، فإن خطأى لم يكن سوى قطرة ماء إذا ما قورن بمحيط العذاب الذى غرقت فيه، من يوم أن خرجت من قصر عابدين فى ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ حتى الآن».

(٣٨)

وفى نهاية حديثنا عن هذه المذكرات يجدر بنا أن نسجل بعض الملاحظات التاريخية والنصية، وأن نشير إلى بعض الأخطاء الظاهرة حتى يفيد منها من يرجع إلى المذكرات فلا ينقل عنها ما هو غير صائب:

١ ـ فى صفحة ٥٤ يعدنا الرئيس نجيب بأن يحدثنا عن رحلته لانجلترا للدراسة فى مدرسة أركان الحرب ولكنه لا يفعل، وفى صفحة ٥٧ يحدثنا عن سفره إلى انجلترا وفرنسا مع بعض الضباط المصريين فى فقرة قصيرة ولا نعرف هل كانت هذه الزيارة للدراسة أم بعد نجاحه فى التخرج من كلية أركان الحرب.

٢ ـ فى صفحة ٦٠ يتحدث صاحب المذكرات عن تظاهرات وقعت فى أول فبراير ١٩٤٢ فيقول: «فى أول فبراير ١٩٤٢ بعد أن احتل الألمان بنغازى، قام الطلبة فى مصر بمظاهرات لصالح على ماهر الذى كان ضد السياسة البريطانية، وفى اليوم التالى طرد الملك فاروق رئيس الحكومة الذى كان يؤيد الإنجليز وجاء بحكومة حسين سرى، وفى ٣ فبراير قبل الملك دراسة تشكيل جديد للحكومة مع على ماهر، وذهب سير مايلز لامبسون السفير البريطانى بالقاهرة إلى قصر عابدين وقابل الملك، وقال السفير البريطانى للملك: «لابد أن يشكل النحاس الحكومة»، بينما الثابت أن على ماهر كان قد ترك رئاسة الوزارة منذ ١٩٣٩ وخلفه حسن صبرى إلى أن توفى فجأة، ثم حسين سرى الذى بقى حتى أول فبراير ١٩٤٢. وهكذا تصبح هذه الفقرة كلها فى حاجة إلى إعادة كتابة، ويبدو أن الخطأ الذى فيها جاء من الخلط فى ذهن كاتب المذكرات بين رؤساء الوزراء المتعاقبين وبخاصة بين حسين سرى وعلى ماهر.

٣ ـ تحتاج النصوص المكتوبة عن علاقة صاحب المذكرات بأعضاء مجلس قيادة الثورة فى صفحة ٨٣ إلى شىء من المراجعة، فهو يقول: إنه كان يقابل خمسة منهم قبل الثورة هم: عبدالناصر وعامر وحسن إبراهيم وصلاح سالم وزكريا محيى الدين، ولكنه قبل صفحتين وفى صفحة ٨١ بالضبط ذكر أنه أثناء حلقات النقاش(؟) تعرف على عبدالناصر وكمال الدين حسين وأنور السادات وصلاح سالم، ومعنى هذا أنه كان يعرف أيضاً كمال الدين

حسين وأنور السادات، وفي صفحة ١١١ يذكر أنه كان يعرف كل أعضاء اللجنة التنفيذية للتنظيم ماعدا جمال سالم والبغدادي والسادات وخالد محيي الدين(!) وفي المذكرات نفسها يشير الرئيس نجيب إلى أنه كان يعرف الرئيس السادات الذي عمل ضابطا للإشارة في اللواء الرابع مشاة في حرب فلسطين، بل إن الرئيس نجيب يشير إلى أن والد الرئيس السادات قد لجأ إليه لينقذ ابنه من العقوبة القاسية حين اكتشفت علاقته بالألمان في مطالع الأربعينيات.

٤ ـ في الفقرة الثالثة من صفحة ٨٩ يشير إلى أن فؤاد سراج الدين كان وزيراً للداخلية وأصبح فيما بعد وزيراً للمالية، والحقيقة أنه لم يترك هذه ويتول تلك في ذلك الوقت، وإنما جمع الوزارتين معاً!!

٥ ـ في صفحة ٩٧ الفقرة الرابعة يتحدث كاتب المذكرات عن حسين سرى رئيس الوزراء فيذكر بدلاً منه اسم حسين سرى عامر «الضابط»!! ويتكرر هذا الخطأ من كاتب هذه المذكرات في صفحة ١٠٥ الفقرة الأخيرة، كذلك يحدث الخطأ العكسي مرتين في صفحة ١١٠، حيث يتحدث عن حسين سرى وهو يقصد حسين سرى عامر!! ولا أظن أن الرئيس «نجيب» نفسه يقع في هذا الخطأ. وإنما هو من خلط من كتب المذكرات بين هذه الشخصيات، خصوصاً أنه فيما يبدو يكتب بطريقة تشبه الاختزال ثم يعود إلى التبييض فلا يصل إلى الأسماء الصحيحة حين تكون فرصة الخلط أقوى.

٦ ـ في صفحة ١١٢ يذكر أن دخول زكريا وحسين الشافعي وعبدالمنعم أمين ويوسف منصور للجنة القيادة كان ليلة الثورة، وفي مذكرات البغدادي بتوثيق أكثر أن ذلك تم في ١٥ أغسطس ١٩٥٢.

٧ ـ في صفحة ١٦١ يتحدث عن أزمات ومتاعب أخرى بين الثوار وبين على ماهر قبل قانون الإصلاح الزراعي بأسابيع طويلة(!!!) ومن الطريف أن على ماهر لم يمكث معهم رئيساً للوزراء إلا ستة أسابيع فقط لا تحتمل الطول!!

٨ ـ تحتاج صفحتا ٢٤٤ و٢٤٥ إلى مراجعة وإعادة ترتيب فإن أحداث ٢٦ مارس تأتي قبل ٢٠ مارس!!

٩ ـ يرد اسم محمد فوزى خطأ في صفحة ٣٣٨ والمقصود هو الدكتور محمود فوزى سفيرنا في لندن في ذلك الوقت.

١٠ ـ يأتي الترتيب التاريخي لخروج أعضاء الثورة من الحكم في صفحتي ٣٦٧ و٣٦٨ بطريقة خاطئة.

وتقفز مذكرات الرئيس محمد نجيب من الحديث في هذه النقطة المحددة إلى الحديث المستطرد عن الحرس الحديدي :

«وخرج أنور السادات من الجيش ليدخل الحرس الحديدى.. وقد حزنت على هذا التصرف منه.. فبعض من رجال الحرس الحديدى حاولوا ضمى إليهم.. وحاولوا تحريضى على السير فى طريقهم.. وعندما رفضت دعوتهم، وهددت بالإبلاغ عنهم، اتهمونى بأننى سأقوم بانقلاب مع السيد طه، ورحت أقابل يوسف رشاد، زعيمهم، فى بيته بالجيزة، قلت له: هل بلغك ما بلغنى عن أكذوبة الانقلاب الذى سأقوم به أنا والسيد طه؟ فإذا به يقول: ليست أكذوبة كما علمت، وإنما حقيقة، قلت: من أبلغك بذلك كذاب.. لأنى لو أنا أردت أن أقوم بانقلاب، ما أخذت معى السيد طه، قال: لماذا؟ قلت: لأنه رغم كونه قائد اللواء الأول فهو لا يتمتع بقدر مناسب من الشجاعة، حتى إننا فى الجيش نطلق عليه «الضبع الأسود» لأنك كما تعلم الضبع حيوان غير شجاع. قدم لى كأساً من الويسكى.. اعتذرت.. وطلبت كوباً من عصير الليمون.. وانتهت المقابلة».

وإذن فقد كان محمد نجيب حريصا على أن ينفى للملك ولأتباعه نواياه المشاركة فى انقلاب أو التدبير له.. وفى ذات الوقت فإن محمد نجيب كان حريصا عند نشر مذكراته على أن يثبت استهجانه التام والواضح لفكرة الحرس الحديدى.

❑

وفى موضع آخر من مذكراته يتحدث محمد نجيب عن الحرس الحديدى باشمئزاز شديد بالطبع، ولكن الغريب أنه يربط تكوين الحرس الحديدى بحدوث انتكاسة فى الحركات الوطنية فى داخل الجيش على نحو ما حدث لحركة تمرد الجيش فى ١٩٤٧ حيث يقول:

«... الحرس الحديدى تنظيم كونته السراى، وأشرف على اختيار أعضائه الطبيب البحرى يوسف رشاد، ليكون عين السراى على الضباط الوطنيين فى الجيش، ونجح يوسف رشاد فى تجنيد هؤلاء الضباط بعوامل الإغراء والإرهاب، ورغم أن حركة ١٩٤٧ كانت بعثاً للحركات الوطنية التى لم تشتعل منذ أحداث ١٩٢٤، إلا أن تكوين الحرس الحديدى كان انتكاسة لها. ورغم أن حركة ١٩٤٧ كانت ظاهرة طيبة تثبت أن الجيش لا يزال فى صفوفه رجال يرفعون علم الثورة والتمرد والغضب، إلا أن تكوين الحرس الحديدى كان فصلاً مؤسفاً لها. وعلى كل حال.. كان الحرس الحديدى بمثابة بقعة صديد على جسم ثوار الجيش فى ذلك الوقت.. كان من السهل على هذا الجسم القوى أن يتحملها ويلفظها».

يجدر بنا هنا أن نشير على الباحثين بقراءة التفصيلات التى يوردها جمال منصور عن أحداث حركة الضباط فى ١٩٤٧، وهى تفصيلات مهمة، وقد تناولناها بالتفصيل فى الباب الخامس من هذا الكتاب.

مذكرات الضباط الأحرار

نحو حكم الفرد

2

والآن أتكلم

مذكرات:

خالد محيى الدين

دار الخيّال

(١)

بعد أربعين عاماً من قيام الثورة، نشر خالد محيى الدين مذكراته، أو إذا أردنا الدقة فلنقل إنه نشر الجزء الأول من مذكراته، فقد توقف فيما نشر عند نهاية عام ١٩٥٥، وعلى هذا فأظننا فى حاجة إلى أربعة أجزاء أخرى يستكمل بها خالد محيى الدين هذه المذكرات، فيتناول فى الجزء الثانى دوره فى جريدة المساء، وفى الجزء الثالث بعرض تفاصيل دوره فى أخبار اليوم وفى الاتحاد الاشتراكى فى عهد عبدالناصر بعد تطبيق القوانين الاشتراكية، ثم يتناول دوره فى عهدى الرئيسين السادات ومبارك فى الجزءين الرابع والخامس.

هذا هو المفروض على الأقل، أما أن يحدث ما هو أقل أو ما هو أكثر فأمر متروك للظروف، وهى الظروف التى أجلت كتابة هذه المذكرات أربعين عاماً.

أما هذا الجزء من المذكرات التى نشرها خالد محيى الدين فهو صراع خفى ومعلن فى ذات الوقت بين محاولتين هما محاولة المضى مع الذكريات، وبين الكتابة التاريخية المقصودة، وعلى هذا النحو سيجد القارئ لهذا الكتاب نفسه يمضى مع المؤلف إلى الأمام فى الأحداث التاريخية، ثم إذا بالمؤلف حريص على أن يشد القارئ خطوتين إلى الخلف.. تماما كما كان لينين يصف طريقة مشيته.

ويجد القارئ هذا الخلق واضحاً جداً مع بداية كل فصل، فنحن نكون قد وصلنا مثلاً إلى المرحلة السابعة والعشرين فى نهاية الفصل السابق، فإذا بنا فى الفصل التالى نعود إلى المرحلة السابعة عشرة، وإذا بنا فى الفصل التالى له نعود إلى المرحلة العاشرة.

هكذا يجد القارئ لهذه المذكرات أن التسلسل التاريخى بمعناه المعروف لا يتحقق إلا فى داخل الفصل الواحد، وذلك أن المؤلف قد قصد وتعمد أن يكون كتابه من خمسة وعشرين فصلاً قبل أن يكون كتاباً واحداً، وكأنى به يريد [أو يراد له بكتابه] أن يكون ذا موضوعات بقدر ما هو ذو موضوع واحد، وليس على المؤلف ولا على مستشاريه تثريب فى ذلك، إنما هى ملاحظة مهمة ينبغى لنا وللقارئ أن يضعها فى حسبانه عندما يتناول هذا الكتاب بالقراءة، وينبغى للباحث أن يضعها أمام عينيه إذا أراد أن ينقل عن هذا الكتاب رواية أو رأياً أو رؤية.

(٢)

وفى هذا الكتاب نجح خالد محيى الدين (كما نجح الذين تولوا عنه كتابة بعض الأجزاء) فى أن يقدم لنا صورة نفسه أو صورة صاحب المذكرات على أنه الثائر المتمسك بالديمقراطية إلى أبعد الحدود، ولكن هذا الكتاب تعمد أيضاً أن يقدم لنا صورة هذا الثائر وهو يفشل فى تحقيق هذا الهدف لأنه حسن النية. ونحن لا نريد أن ننفى عن خالد محيى الدين لا الفشل ولا حسن النية ، ولكننا ـ فى ذات الوقت ـ قد لا نتصور أبداً أن هذا الثائر العظيم كان يحارب معركته النبيلة هذه، بدون أية مخططات كما أراد أن يقول لنا أو يوحى لنا فى سطور هذه المذكرات، ولاشك أن خالد محيى الدين كانت له مخططاته. ولاشك ـ أيضا ـ أن فشل هذه المخططات لا يلقى بالعبء فى فشلها عليه ولا على شخصه، ولاشك ـ للمرة الثالثة ـ أن حديثه عنها (أى عن هذه المخططات التى لم تصادف النجاح) كان أبلغ من إهماله لها، ولكن يبدو أن خالد محيى الدين قد فضل هذا السلوك الماثل أمام أعيننا فى هذا الكتاب وقد فعل هذا فيما يبدو متأثرا بسببين مهمين:

الأول: هو اتفاق الجنتلمان أو الفارس الذى أبرمه مع جمال عبدالناصر.

والثانى: هو أن خالد محيى الدين نفسه ظل طيلة الثورة وحتى الآن بمثابة السياسى الدائم لسبب واحد هو أنه حاول ونجح فى أن يقنع الجميع بأنه ليس سياسياً.

ولا يزال خالد محيى الدين يحتفظ بهذه الورقة حتى الآن، ونحن لا نقصد أن نقول إنه ليس بسياسى فهو أذكى من أن يفعل ذلك، وقد ترك هذا القول لبعض الصحفيين، ولكنه يتصرف فى معظم الأوقات مبدأ العفوية الشديدة التى تظهره كأنه ليس بسياسى.. وهكذا فعل فى هذا الكتاب الذى نتدارسه فى هذا الباب.

(٣)

وقد نجح خالد محيى الدين أيضاً فى أن يلقى بكثير من العبء التاريخى ـ إن صح هذا التعبير ـ على أكتاف مجموعة أخرى من أعضاء مجلس قيادة الثورة (بالإضافة إلى عبدالناصر بالطبع). وقد كان فى وسع خالد محيى الدين أن يتناول آراء وتصرفات عبدالناصر فى كثير من المواقف بشىء أكثر من التفصيل والتحليل، ولكنه كان يتعمد أن يترك مواقف عبدالناصر ليتناول مواقف عبداللطيف البغدادى، وجمال سالم، وصلاح سالم، وعبدالحكيم عامر، وأنور السادات، ومحمد نجيب (بالطبع). ويبدو أن خالد محيى الدين كان منطقياً فى هذا الذى فعل، فإذا كان قد تعمد إهمال تحليل مواقفه نفسه ـ أى مواقف خالد محيى الدين ـ فقد كان من باب أولى أن يقلل التعرض لمواقف عبدالناصر، رغم أن الرئيس عبدالناصر نفسه كان صاحب التدبير كله فى أزمة مارس ١٩٥٤، ورغم أن كل المواقف التى ذكرها خالد محيى الدين لعبداللطيف البغدادى، وجمال سالم، وصلاح سالم، وعبدالحكيم عامر كانت من باب الانفعال لا من باب الفعل، ولكن يبدو أن خالد محيى الدين جمع فى هذا الكتاب بين كتابات كتبها فى ١٩٥٤ فى تلك الكراسة التى حدثنا عنها حين نُفى إلى سويسرا، وبين كتابات كتبها فى التسعينات أو ربما قبلها بقليل.

مع هذا كله فإن تسليط الأضواء على مثل هذه المواقف لأعضاء مجلس قيادة الثورة كان ولا يزال أمراً ضرورياً لكى نفهم ما قد يسمى فى علم الاجتماع بعلم اجتماع الجماعات الصغيرة، خصوصاً إذا كانت هذه الجماعات تتولى صياغة [أو عملية] الاختيار بين مواقف تصنع حياة أمة بأسرها.

وفى الحقيقة فإن تفصيلات أحداث مارس ١٩٥٤ تكاد تكون هى بذاتها بمثابة بطل تلك الفترة، وقد حرص صاحب المذكرات على أن يقدم رؤية متكاملة ومفصلة لموقفه وموقف زملائه فيها، ويبدو أنه أراد أن يبرر للقارئ قدرته على الإحاطة بتفاصيل هذه الأحداث، على الرغم من بعد العهد بها فلجأ إلى رواية قصة عن احتفاظه بالكراسة الزرقاء التى دون فيها فى ذلك الوقت ذكرياته عن هذه الأحداث، ومع هذا فإننا سنرى من واقع قراءتنا لهذه المذكرات أكثر من أمر يستدعى العجب، من هذا ـ على سبيل المثال ـ ما سوف نشير إليه فى موضعه من تقصير خالد محيى الدين فى تسجيل أسماء أبطال الفرسان الذين دفعوا ثمن تأييدهم له، أو دفاعهم عن الديمقراطية.. ومع هذا فلنقرأ ما يرويه عن الكراسة الزرقاء:

«والحقيقة أن الكتابة لم تكن سهلة.. لكنها لم تكن مستحيلة».

«فأنا لم أبدأ من فراغ، فليس من المعقول أن أجلس بعد كل هذه السنوات لأحاصر

الوقائع صغيرها وكبيرها حتى أقتنصها، وليس من المعقول أن تحتفظ الذاكرة بكل هذه الوقائع والأحداث».

«لكن ثمة سرا صغيرا سأفضى به للقارئ قبل أن نبدأ رحلتنا معا».

«.. عندما كانت أحداث مارس ١٩٥٤، وما كان خلالها وبعدها، وعندما أثمر ذلك بالنسبة لى قرارا بالنفى إلى خارج الوطن»..

«هناك فى المنفى البعيد أحسست بأن أول واجب لى هو أن أسجل الوقائع، وأن أحفظها وأحتفظ بها. والغريب أننى وبالفطرة ـ وبدون بحث أكاديمى عن معنى ومغزى الكتابة التاريخية ـ قد تصرفت وفق التعريف الإغريقى دون أن أسمع عنه، وفى كراسة ذات غلاف أزرق سجلت كل ما اعتقدت أنه جدير بالمعرفة من أحداث متعلقة بتنظيم «الضباط الأحرار»، وليلة ٢٣ يوليو، وجلسات مجلس قيادة الثورة، اختلافاتنا واجتهاداتنا واتفاقاتنا، ومواقف كل منا».

«باختصار دونت فى الكراسة الزرقاء كل ما اعتقدت أنه ضرورى لتنشيط الذاكرة عندما يحين وقت تدوين المذكرات».

وظلت «الكراسة الزرقاء» عبئا ثقيلا بقدر ما كانت مدعاة للراحة النفسية».

«فقد أراحنى كثيرا أننى ضمنت هذا الغلاف كل ما هو هام وكل ما هو ضرورى من معلومات وملاحظات، أراحنى لأننى أحسست أن ذاكرتى ليست مكلفة باستعادة ذلك كله ومحاولة التحفظ عليه، لكنه منحنى الكثير من القلق خوفا على هذه الكراسة».

«ومضت أيام بل وسنوات كان الاحتفاظ فيها بهذه الكراسة عبئا ثقيلا على مَنْ يحوزها، وكان من الضرورى أن تغيب طويلا عن ناظرى، بل وعن أرض الوطن بحثا عن مأمن آمن».

«وبرغم ذلك كان قلق ثقيل الوطأة يهبط علىّ من آونة لأخرى.. ماذا لو ضاعت؟ ماذا لو وقعت فى يد من لا أريد أن تقع فى يده؟ ماذا لو...؟».

«وأشعر بقلبى وهو معلق بهذه الكراسة».

«وإذ أصبح ممكنا عادت كراستى إلىّ.. وهدأت مخاوفى بعض الشىء، وأصبح من الممكن أن أستعد للكتابة».

«لكن هذه الكراسة لم تكن سوى رءوس موضوعات، وتطلب الأمر جهدا كبيرا لاستكمال بنيان الحدث والذكريات، وتطلب مطالعة لما كتبه زملاء أعزاء زاملتهم فى أحلى أيام شبابنا، وفى أجمل ما نمتلك من ذكريات، كما تطلب الاستعانة بذاكرة العديد من هؤلاء الزملاء، ولم يبخلوا علىّ بشىء».

ثم يردف خالد محيى الدين معبراً عن سعة صدره تجاه ما يعرفه وما يتوقعه من اختلاف بعض روايات الآخرين مع روايته وكأنه يتحوط لكل ما يتوقع أن يصادفه من هجوم أو اختلاف أو تصحيح:

«ومن الطبيعى أن يقع بعض الاختلاف أو الخلاف بين ما كتبت وبين ما كتب الآخرون».

«ومن البداية أقرر أننى لا أنسب إلى ما كتبت أنه الصحيح، أو حتى أنه الأقرب إلى الصحة، وأن الآخرين يبتعدون عن الحقيقة بقدر ما يبتعدون عما كتبت».

«فقط أقرر أننى حاولت جهدى أن أقترب من الحقيقة، فإن وقع خلاف بين محاولتى وبين ما ذكره الآخرون، فالأمر متروك للتاريخ كى يبحث ويدقق، ويصل اليوم أو غدا إلى ما هو صحيح».

«فأنا أحاول فقط أن أضيف إلى حصيلة يوليو جهدا متواضعا لعله يسهم فى إتاحة الفرصة أمام القارئ والباحث لاستكمال تعرفه على يوليو حدثا وأشخاصا وتداعيات».

وبعد فقرات يعود خالد محيى الدين إلى هذا المعنى ويقول:

«أعود لأقرر، وأكرر، أننى أكتب وعينى على مصر وعلى شعبها، وعلى المستقبل».

«ولا أمتلك أى قدر أو قدرة على التحاكم مع بعض مَنْ اختلفت معهم فى الماضى، فما اختلفنا لهوى شخصى، فقط اختلفت الرؤى، واختلف تصورنا لما فيه الخير لمصر».

«لست أكتب من أجل الماضى لنتحاكم حوله أو عنه أو لنحاكمه، فقط أدون ما أعتقد أنه تاريخ صحيح لحدث هو أهم أحداث تاريخنا الحديث، أدون بحثا عن دروس لما هو آت من أيام».

«فمصر تستحق منا أكثر مما قدمنا».

«ويستحق شعبنا أن نقدم له الحقيقة ـ أو ما نعتقد بإخلاص أنه الحقيقة ـ كى يستفيد من دروس الماضى، تطلعا للمستقبل».

«... نعم هذه هى بالدقة العبارة التى أحاطت بى فى كل سطر وكل كلمة فى هذه المذكرات.. «أن نستفيد من دروس الماضى تطلعا للمستقبل».

❑

ويكرر خالد محيى الدين التعبير عن الامتنان للذين ساعدوه وبخاصة أولئك الذين احتضنوا كراسته الزرقاء فيقول:

«قبل أن أبدأ، لابد لى أن أسجل عرفانى للعديدين الذين أتاحوا لى أن أقترب من رحلتى معك عزيزى القارئ».

«الذين احتضنوا كراستى فى مودة وحرص فى زمن صعب، وحافظوا عليها ـ فى حنان ـ حفاظ الصوفى على مسبحته».

«والذين منحونى وقتهم وذكرياتهم من رفاق السلاح القدامى، شركاء الزمن القديم الجميل فى خلايا الضباط الأحرار، وفى سلاح الفرسان، وفى ليلة ٢٣ يوليو وما بعدها».

«فإلى هؤلاء جميعا أقدم امتنانى.. مؤملا أن يجدوا فيما كتبت ثمرة تستحق ما قدموا من جهد».

(٤)

وفى كل ما كتب خالد محيى الدين فى هذا الكتاب، نجده ـ والحق يقال ـ يصدر عن رؤية تتمتع بالحنكة والاتساع فى ذات الوقت، وإن كانت خبرته بالتاريخ لا تزال متأثرة بوجوده فى دائرة الذين يصنعون التاريخ.

ولاشك أن خالد محيى الدين ـ أمدّ الله فى عمره ـ سوف يكون قادراً على كتابة أرفع بكثير من هذه الكتابة حينما يجلس فى برج عاجى أو زجاجى يطل منه من علٍ على معترك الحياة السياسية التى ما تزال تستهويه للمشاركة فيها، ولهذا فإن الروح التى فى هذا الكتاب أقرب إلى روح «البحث عن الذات» للرئيس السادات ولكل كتابات السادات، منها إلى تلك الروح التى نجدها فى كتابات عبداللطيف البغدادى.

وتتبدى الفروق بين هذه الروح وتلك فى ارتباط الفقرات ببعضها، وفى لهجة الخطاب، وفى الموسيقى الداخلية، وفى النظرة إلى الأحداث، وفى صياغة المواقف، وفى كثير غير هذا كله مما يستطيع نقاد الأدب وأساتذته الإشارة إليه.

فإذا انتقلنا إلى التفكير فيما أضافه هذا الكتاب أو هذه المذكرات إلى معلوماتنا ورؤيتنا لتاريخ الحقبة التى تناولها المؤلف فيه، فإننا قد نجد أنفسنا نجيب بأنه أضاف القليل جداً إلى معلوماتنا بالأحداث العامة، ولكنه أضاف الكثير جداً إلى معلوماتنا الخاصة بالتفصيلات الدقيقة.. وربما كان هذا هو السبب الذى دفع الفنان العظيم عبدالغنى أبو العينين إلى أن يقدم لنا هذا الغلاف الجميل الذى يعبر عن مضمون الكتاب أبلغ ما يكون التعبير، فهو قد اختار درجتين تكادان تكونان متقاربتين من نفس اللون، ثم اختار درجة أخرى من نفس اللون ليجعلها تقطع الدرجتين اللتين تمتدان من أعلى الغلاف لأسفله، وتعمد أن يترك خطاً فاصلاً أبيض بين درجتى اللون ووضع فوق كل هذا صورة شخصية لخالد محيى الدين أبدع فى

تفصيلاتها التى اعتمدت على الأبيض والأسود بدون أن يحس القارئ أنه استخدم النقاط فى رسمها، وكأنه استخدم كتلاً من السواد فحسب، وهو يظهر لنا شفتى خالد محيى الدين وهما تنفرجان عن ابتسامة وكأنه يقول إنه يتكلم الآن بالابتسامة، ثم هو يضفى فى هذا البورتريه الجميل كل هذا البشر والاستبشار على ملامح هذا الرجل بكل ما فى الفن من قدرة على التعبير.

وعلى هذا النحو يمضى هذا الكتاب ليقدم لنا فروقاً دقيقة بين الدرجات المختلفة من اللون فى كثير من المواقف السياسية التى تناولها، وفى كل هذا فإن روح خالد محيى الدين مسيطرة، وشخصيته حاضرة، وقلمه هو الذى يكتب ما نقرؤه.

(٥)

على الرغم من أن خالد محيى الدين حرص وهو يكتب هذا الكتاب على أن يظهر روح الحب لعبدالناصر، إلا أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من انتقاده بشدة فى كثير من الجوانب المهمة فى شخصيته، ولنأخذ على سبيل المثال بعض المواضع التى يبلور فيها خالد محيى الدين رؤيته وموقفه من جمال عبدالناصر. فعلى سبيل المثال فإن خالد محيى الدين يقطع فيما يكتب بانحياز عبد الناصر إلى السلطة على حساب الصداقة والماضى، وأنه من أجل هذا لجأ إلى كثير من المناورات والتكتيكات، ولعل أبرز عبارات هذه المذكرات التى تبلور هذا المعنى هى قوله فى صفحة ١٦٩:

«وهكذا بدأت حسابات السلطة تدخل فيما بيننا.. تلك الحسابات التى كان جمال عبدالناصر أول مَنْ مارسها وأكثر مَنْ أتقنها».

ونحن نراه يفصل هذا المعنى بقوله:

«قال عبد الناصر إنه يوافق على دعوة مجلس النواب ثم حله، ودعوة الناخبين لانتخاب مجلس جديد وفق أحكام الدستور خلال ستين يوما، ولكن ضباط المدفعية والطيران وقفوا ضد هذه الفكرة بشدة، وقالوا . رِ احة إنهم قاموا بالحركة ولن يسلموها للآخرين جاهزة».

«حاول عبد الناصر أن يفهمهم أننا التزمنا أمام أنفسنا، وأمام ضباط الجيش، وأمام الشعب، باحترام الدستور، واحترام الحياة النيابية، لكنهم تكاتفوا ضده، ووجد عبدالناصر نفسه وحيدا فى مواجهة ما يشبه الإجماع».

«وكان يعرف أننى سأقف معه بالقطع، ولهذا قلب الدنيا بحثا عنى».

«وعندما وجد عبدالناصر نفسه وحيدا أعلن أنه سيستقيل وترك الاجتماع إلى بيته، وأسرعوا خلفه،وعاد عبدالناصر لكنه عاد متنازلا عن فكرته».

«وسألت عبد الناصر فى دهشة: ولماذا تراجعت عن وجهة نظرك، فهى وجهة النظر الصحيحة؟ قال: أصل الحقيقة وجدت أن المسألة لا تستحق أن ننقسم بشأنها، ومش ضرورى نعمل انتخابات بعد شهرين، ممكن بعد ثلاثة أو أربعة، وقال: لاحظ إن إحنا عندنا مشاكل، فرشاد مهنا بدأ يرجع المدفعية ويكتلها وراءه، وعبدالمنعم أمين (مدفعية أيضا) «له جديد معانا ومش مضمون»، فأنا قلت أتراجع حتى نعيد الإمساك بالخيوط فى أيدينا».

(٦)

وعلى الرغم من وضوح فكرة خالد محيى الدين عن هذا الجانب " البراجماتى" من تفكير عبدالناصر وتفكيره، فإنه يردف هذا الحديث مباشرة بفقرة تكاد تنسف كل فكرته التى أبان معالمها فيما سبق من فقرات، وذلك أنه بعد هذا الوضوح يردف بالحديث عن خطة عبدالناصر للتخلص من رشاد مهنا، مع أن هذه الخطة نفذت فى يوليو ١٩٥٢ فى الأسبوع الأول للثورة وقبل أحداث ١٩٥٤ بفترة طويلة، بل إن رشاد مهنا نفسه كان قد أخرج من السلطة وحوكم وأبعد وسجن قبل وقوع أحداث ١٩٥٤، ولست أفهم كيف وقع خالد محيى الدين فى مثل هذا الخطأ الناسف لمصداقية تسلسل الحقائق فى الذكريات.. ولنقرأ فقرته:

«وأراد عبدالناصر أن يتخلص من نفوذ رشاد مهنا فى المدفعية وفى الجيش عموما، فقرر أن يعينه فى مجلس الوصاية على العرش، وكان بذلك يرضى غرورا مشحونا ومتأججا عند رشاد مهنا، لكنهم اكتشفوا أن الدستور يشترط أن يكون عضو مجلس الوصاية وزيرا، فعُين وزيرا ثم عينه مجلس الوزراء فى مجلس الوصاية».

❑

وفى موضع آخر يؤكد خالد محيى الدين على هذا المعنى المرتبط بتفسيره لتصرفات عبد الناصر ويصرح بقوله بأن عبدالناصر لم يكن يرغب فى إعطاء أية مساحة جديدة للأصدقاء وتحديداً للضباط الأحرار، وهذا هو نص كلمات خالد محيى الدين الذى يمضى إلى القول:

«لكننى أود أن أتوقف هنا لأوضح مسألة هامة، فقد كان عبدالناصر يرغب فى تطهير الجيش من الخصوم، لكنه لم يكن يرغب فى إعطاء أية مساحة جديدة للأصدقاء، وتحديداً «للضباط الأحرار»..

«ذلك أن عبدالناصر ومنذ البداية بدأ يستشعر حساسية خاصة إزاء «الضباط الأحرار» الذين يتدخلون فى كل شىء، ويتحدثون بصفتهم أصحاب «الحركة» وصناعها».

«وربما كان عبدالناصر يخشى من هؤلاء الضباط أكثر من غيرهم، فقد تدربوا بشكل أو بآخر على العمل السرى المنظم، وعلى القيام بانقلاب متقن إلى حد ما، ومن ثم فإنه لم يحرص على تسليم أى منهم موقعاً قيادياً فى الجيش، وإنما اختار القيادات الجديدة على أساس الكفاءة والوطنية، ولم يكن الانتساب «للضباط الأحرار» واحداً من المعايير المطلوبة عند الاختيار، وبهذا نجح عبدالناصر فى تأمين الجيش من خصومه.. ومن أصدقائه معاً».

(٧)

ويمضى خالد محيى الدين فى انتقاده للفكر السياسى لجمال عبد الناصر إلى حد الإشارة إلى وقوع عبدالناصر فى الخلط بين الرضا الشعبى والمشاركة الشعبية، ويأتى هذا المعنى فى نهاية حديثه عن أزمة مارس ١٩٥٤ حيث يقول :

«ولم يدرك عبدالناصر أن هناك فارقاً كبيراً بين رضاء الشعب عن الحاكم وتأييده له، وبين المشاركة الفاعلة للشعب فى اتخاذ القرار».

«لقد فجرت قضية الديمقراطية أزمة مارس ١٩٥٤، وكان هناك طرفا صراع كان لابد لأحدهما أن ينتصر على الآخر وانتصر عبدالناصر، لكنه لم يدرك أنه بانتصاره هذا حكم على مسيرته أن تظل أسيرة لهذا الانتصار».

❑

وفيما قبل هذا فإن خالد محيى الدين ينظر إلى الإدراك السياسى لعبد الناصر من علٍ، وينتقده ويقول بصراحة:

«وانتصر عبدالناصر فى مارس ١٩٥٤ ولكنه لم يدرك أن كسب جولة كهذه شىء، وكسب المسار التاريخى شىء آخر».

ويزيد خالد محيى الدين هذا المعنى الذكى وضوحا حتى فى كثير من فقرات هذا الكتاب، لكنه ينجح مبكرا فى أن يدلنا على الأثر الخطير لسلوك عبدالناصر فى أزمة مارس ١٩٥٤، وهو الأثر الذى كان نتيجة طبيعية للانتصار لمنطق معين، ويصل خالد محيى الدين إلى مرحلة متقدمة جدا من تحميل الأمور أكثر مما نتصورها قادرة على تحمله، حتى إنه يجعل سلوك عبد الناصر فى ١٩٥٤ مسئولا على المدى الطويل عن وقوع الهزيمة فى ١٩٦٧.. وليس من شك

فى أن رأى خالد محيى الدين فى هذه الناحية قد يتمتع بقدر كبير من الحكمة والوعى، ولكنه فى واقع الأمر لا يخلو من القفز والمبالغة وإهمال تقدير العوامل الخطيرة الأخرى التى كانت كفيلة وحدها بهذه الهزيمة. ولنقرأ هذا الذى يرويه مصورا به تصوره لتسلسل الأحداث منذ مارس ١٩٥٤ وحتى حدوث هزيمة ١٩٦٧:

«... وفى اعتقادى أن مارس ١٩٥٤ ونجاح عبدالناصر فيه قد مثل تجربة ظلت تهيمن لفترة طويلة على أسلوب عبدالناصر فى الحكم، وتصرفاته إزاء معارضيه، واستمد من نجاحه فى مارس أساسا فعليا لتجربته، ولم يدرك أن مثل هذا النجاح وقتى بالضرورة، ولم يكتشف متى يتعين عليه العودة للديمقراطية والتعددية الحزبية، وانساق وراء وهم نجاح التجربة حتى كانت هزيمة ١٩٦٧. وفى اعتقادى أن هزيمة يونيو ١٩٦٧ لم تكن هزيمة عسكرية، بل هى فى الجوهر هزيمة سياسية لنظام فشلت آلياته فى اكتشاف ما إذا كانت البلاد جاهزة للحرب أم لا. وبعد الهزيمة كانت هناك فرصة تاريخية لتحقيق الديمقراطية، لكن هذه الفرصة ضاعت، لأن الديمقراطية تتطلب من الحاكم أن يقدم تنازلات للشعب، ولم يكن عبدالناصر مستعدا حتى رغم الهزيمة أن يقدم أية تنازلات».

بل إن خالد محيى الدين يردف بالقول:

«وللحقيقة فإننى أعتقد أن أزمة الديمقراطية التى ولّدتها ثورة يوليو لم تزل قائمة فى بلادنا حتى الآن».

«صحيح أن يوليو حققت قدرا من الديمقراطية الاجتماعية، وحققت للشعب منجزات كبيرة، لكن افتقاد الحماية الشعبية لهذه المنجزات كان المقتل».

❑

ومع هذا الوضوح الفكرى الذى تتسم به رؤية المذكرات فى نقدها لموقف الثورة من الديمقراطية فإن خالد محيى الدين يأبى إلا أن يردف عباراته السابقة بعبارة من العبارات المنبئة عن مسك العصا من الوسط، أو من الطرفين والوسط معا، وهو أسلوب فى الكتابة السياسية والتاريخية ازدهر فى الحقبة التى نعيشها الآن، وقد صورناه وانتقدناه بما فيه الكفاية عند مدارستنا لكتاب أحمد بهاء الدين «محاوراتى مع السادات» فى كتابنا «فى خدمة السلطة»:

«... برغم ذلك كله، فإننى أعتقد أنه من حيث الجوهر لا يمكن لأى نظام آخر، سواء قبل يوليو أو بعد يوليو، أن يدّعى أنه كان ديمقراطيا بشكل كامل، أو هو ديمقراطى بشكل كامل.. أو هذا ما أعتقد».

على هذا النحو نرى صاحب هذه المذكرات وهو لا يكف عن انتهاز الفرصة المواتية وغير المواتية لتناول منهج عبدالناصر بالنقد والتحليل، حتى إنه يبحث عن الأصول التاريخية

الحاكمة لسلوك وتصورات عبد الناصر، ومع هذا فإنه يصف تصرفات زميله بأنها لا تدرك اختلاف الظروف ويقول:

«ويبدو أن «جمال» كان متأثراً بما حدث فى تركيا لكمال أتاتورك عندما استقال وخرجت الجماهير الشعبية لتعيده مرة أخرى للسلطة، لكنه نسى أن الوضع كان مختلفاً».

(٨)

ولا يبخل خالد محيى الدين على قراء مذكراته بالاستشهادات المناسبة من أقوال زملائه ومعاصريه فيما يتعلق بنقد أسلوب عبدالناصر فى التصدى للمسئولية، وهو يروى لنا ـ على سبيل المثال ـ ما ورد على لسان زميله أحمد المصرى ملخصاً رأى كثير من النقاد والمقيمين لدور ثورة يوليو وعبدالناصر:

«وتحولت المناقشة إلى جلسة استجواب عاصف لتصرفات المجلس وتصرفات أعضائه، بل ووصل الأمر إلى الخوض فى المسلك الشخصى لصلاح وجمال سالم، وتحدث البعض عما تواتر عن المصروفات السرية التى تنفق بلا رقيب، وتصرفات العديد من ضباط الصف الثانى التى تحسب على مجلس الثورة، بل على القوات المسلحة كلها».

«وحوصر جمال عبدالناصر بهذه الاتهامات المتتالية وحاول الخروج من المأزق بأن قال: أنا شخصياً أتحدى أن ينسب إلىّ أى إنسان أى تصرف غير نزيه، ورد أحمد المصرى: لكنك مسئول عن كل تصرف خاطئ يرتكبه أى واحد منهم».

وبعد ست صفحات يروى خالد محيى الدين قصة ذهابه لمحمد نجيب فى أزمة مارس ومعه ثلاثة ضباط من ضباط رجال عبدالناصر فتكون عبارته بالنص:

«والتى كان يرافقنى خلالها أو بالدقة يراقبنى خلالها ثلاثة ضباط من رجال عبدالناصر».

❑

ولنقرأ بالتفصيل تصوير خالد محيى الدين لثورة الضباط عليه فى اللحظات التى تم فيها إنهاء أزمة مارس ١٩٥٤ بناء على ترتيب مجموعة الرئيس جمال عبدالناصر:

«لم يستغرق الأمر أكثر من ساعة.. ساعة واحدة، ستون دقيقة ليس أكثر تغير فيها الوضع إلى النقيض، بما يؤكد أن مخاوفى كانت فى محلها تماما. إنها الدقائق الستون التى استغرقها ذهابى إلى منزل محمد نجيب والعودة بقرار قبوله قرارات مجلس قيادة الثورة، والتى كان يرافقنى خلالها أو بالدقة يراقبنى خلالها ثلاثة ضباط من رجال عبدالناصر. وعدت لأجد

رئاسة الجيش مزدحمة بأعدادكبيرة من الضباط، البعض يحمل مدافع رشاشة، والبعض الآخر يشهر مسدساته، والجميع يبكون ويصرخون معلنين رفضهم للقرارات، ومطالبين باستمرار مجلس الثورة».

«وعلى طول الممر المؤدى إلى غرفة القائد العام فى الدور العلوى، كان الضباط المحتشدون يوجهون شتائمهم ضدى، متهمين إياى بخيانة الثورة، وقررت ألا أرد، أو أجادل، بل لم أحاول أن أنظر إلى الوجوه لأتعرف عليها، فقد ركزت كل اهتمامى فى أن أصل إلى غرفة القائد العام».

«فتحت باب غرفة عبدالحكيم عامر لأفاجأ بما هو أكثر دهشة».

«الغرفة يحتشد فيها أكثر من مائة وخمسين ضابطا، الجميع فى حالة غضب هستيرى وصراخ وبكاء، عدد كبير منهم كان من «الضباط الأحرار».. رفاق الطريق الطويل للعمل المشترك، والمخاطر المشتركة، والنضال المشترك، ضد النظام الملكى، ومن أجل البرنامج الذى حددناه لأنفسنا ولحركتنا.. والذى كان يتمسك بالديمقراطية وبالحياة النيابية، لكن الزمن تغير، وتغيرت معه المواقف، وتغير الرجال».

❑

ونجد حالة الترقب القلق التى كانت تنتاب خالد محيى الدين فى ذلك اليوم وهى تعبر عن وجودها بل وطغيانها بحديث مفصل عن بعض اللحظات الحرجة التى صادفها صاحبها فى ذات الوقت الذى يبدو فيه وكأن حريص على أن يهمل الحديث عن لحظات أخرى «ملاحقة» أو «مواكبة» تماماً لهذه اللحظات ، ولعل المثل الواضح هو مايرويه عن عودته إلى مقر مجلس القيادة فى ذلك اليوم الفاصل : فعلى الرغم من أن خالد محيى الدين يروى أنه لم يركز فى النظر إلى الوجوه فى أثناء سيره إلى غرفة القائد العام، فإنه يعترف أو يشير إلى أنه لا يزال يذكر تعبيرات الوجوه التى قابلته، وسنرى فى هذه الفقرة مواقف محددة ينسبها خالد محيى الدين إلى بعض زملائه بعد أن وصل هذه الغرفة وهم بالتحديد جمال سالم وعبدالحكيم عامر وعلى صبرى وكمال رفعت وحسن التهامى ومجدى حسنين وربيع عبدالغنى:

«لم أزل أذكر بعض الوجوه الغاضبة فى ثورة جامحة، تلك الوجوه التى كانت تتبادل معى المودة والحب إلى أسابيع وأيام سابقة، انقلبت نظراتها إلى غضب غير قادر على التحكم فى نفسه، كان كمال رفعت يهدر رافضا استقالة مجلس الثورة، وحسن التهامى يصرخ بذات الموقف، أما مجدى حسنين فقد وصل به الأمر إلى الصراخ: «بلاش سلاح مدرعات، نلغى سلاح المدرعات»، وكان أكثر الموجودين صراخا أبو الفضل الجيزاوى».

«تماسكت بقدر استطاعتى، وفجأة انقض علىّ ضابط من البوليس الحربى اسمه ربيع

عبدالغنى، وأمسك بخناقى محاولا الاعتداء علىّ وتجمع غيره حولى، وأيضا قررت ألا أرد أو أنفعل، فقد كنت أعرف مدى سخونة المشاعر، وكيف أن أى رد فعل من جانبى قد يفجر الموقف تماما، ويحيل هذا الغضب الهستيرى المحدود فى غرفة مغلقة، إلى معركة دامية بين أسلحة الجيش المختلفة، لهذا فقد قررت أن أمسك بزمام أعصابى مهما كان الثمن».

«وهنا انقض جمال سالم على الممسكين بخناقى ضاربا إياهم بالشلاليت، صارخا بشتائمه الشهيرة، مندداً بالباكين موحيا إليهم من طرف خفى إلى فعل شىء غير البكاء، فكان يصرخ فيهم: بدل ما أنتم قاعدين هنا تعيطوا زى... روحوا وحداتكم».

«ولكن الصارخين الباكين المحتجين مازالوا ممسكين بخناقى، وهنا تدخل عبدالحكيم عامر وحمانى خلف ظهره قائلا: «اللى حا يقرب من خالد حا أضربه بالرصاص»، فازداد صراخ المحتجين مندديـن بخالد محيى الدين وبالفرسان وبموقفهم، فصرخ عبدالحكيم عامر: إذا لم تستمعوا لأوامرى سأضرب نفسى بالرصاص».

«وبينما الهرج يسود المكان.. إذا بصوت طائرات سلاح الطيران يصم آذان الجميع».

«كانت الساعة حوالى السادسة والنصف صباحا».

«لمحت على صبرى يطل من النافذة ويجفف دموعه، وسمعت جمال سالم يقول: «أيوه كده».. بل ويصرخ: «قولوا لسلاح الطيران يجهز الصواريخ ويضرب سلاح الفرسان». أما عامر فقد أبدى أنه لم يكن يعرف بخروج الطائرات، لكنه صرخ فى الجميع طالبا الهدوء ومعلنا: أنا أعلن أمامكم إلغاء القرارات، وأعلن أننى المسئول عن القوات المسلحة، وطالب الجميع بالهدوء».

(٩)

وتدلنا مذكرات خالد محيى الدين على معنى من معانى التاريخ التى تحفل بالعبرة وتستحق التأمل ، فأحيانا ما يكون صاحب التدبير الكلى عاجزاً عن أن يتخذ الموقف المشعل للشرارة الباعثة على العمل المنهى لمرحلة من مراحل الصراع أو البادئ لمرحلة أخرى ، ولكن الجو العام من حوله يدفع بعض أنصاره إلى مثل هذه المواقف ، وربما كان هذا هو أصدق وصف لما حدث لمجموعة عبد الناصر فى ١٩٥٤ فقد تولى اكثر من ضابط القيام بأدوار حاسمة لم يكن عبد الناصر ليقوم بها لأنها تتنافى مع طبائعه وتكوين شخصيته، أو مع الصورة التى يريد أن يستبقيها لنفسه فى أذهان الجماهير، ولنذكر على سبيل المثال اتفاق

مجموعة عبدالناصر مع زعماء العمال الذى أتمه أحمد طعيمة، أو تحريك الطيران الذى تختلف الروايات حول الأمر به دون أن يكون عبد الناصر واحداً من المنسوب إليهم القيام به أو توجيه المدافع إلى سلاح الفرسان.. الخ

وفى هذه المذكرات يغذى خالد محيى الدين دارسى التاريخ ومتأمليه بتفصيلات تؤكد على هذا المعنى الذى ذكرناه .

ومما تجدر الإشارة إليه أن خالد محيى الدين قد نسب الفضل فى روح المبادرة لصلاح سالم وليس لجمال عبدالناصر، وذلك فيما يتعلق باتخاذ القرار بعودة الرئيس محمد نجيب، وهو ما أدى إلى تهدئة الجماهير... بينما واصل جمال عبدالناصر الصمت، ومع أن خالد محيى الدين ينتقد موقف صلاح سالم من طرف خفى، إلا أنه فى ذات الوقت لا يعلى من قيمة صمت عبدالناصر أو تصرفه:

«... قال صلاح (سالم) إنه بعد فض الاجتماع عند الظهر ركب سيارته، لكنه خشى أن يتوجه إلى بيته فى العباسية، فالناس هناك وأصحاب المحلات يعرفونه، وخشى أن يحتك به أحد أو يهاجمه، فتوجه إلى بيت جلال فيظى أمام محطة باب اللوق ليرتاح هناك. وفى الطريق وجد الشوارع مملوءة بالمتظاهرين المتجهين إلى ميدان عابدين وهم يهتفون بحياة نجيب وبأنه «لا رئيس إلا نجيب»، وكانت المظاهرات عارمة، وتوحى برفض جماهيرى واسع لقرارقبول الاستقالة. اهتز صلاح سالم كعادته، وكعادته أيضا تغيرت مشاعره وتغير موقفه بسرعة، فدخل إلى أجزاخانة مظلوم بالقرب من ميدان عابدين وتحدث تليفونيا مع عبدالناصر قائلا: ياجمال لازم تأخذ قرارا بسرعة بعودة نجيب، فالناس تهتف بحياته، وقال له جمال: تعال فورا».

«وعندما عاد صلاح سالم إلى مكتب عامر فى رئاسة القوات المسلحة بكوبرى القبة، ألحّ على عبدالناصر بضرورة أخذ قرار بعودة نجيب. كان عبدالناصر صامتا. قال صلاح: ياجمال موعد نشرة الأخبار قرب، ولابد أن أبلغهم فورا بإذاعة خبر عودة نجيب، وإلا فإن البلد ستثور ضدنا. ولم يرد جمال. عاد صلاح سالم ليلح، وصمم جمال على الصمت، أمسك صلاح بالتليفون وطلب الإذاعة وقال: ياجمال أنا سأبلغ الخبر للإذاعة.. ولم يرد جمال، فكررها عليه أكثر من مرة، فلما واصل جمال الصمت.. قالها صلاح سالم بصوت مرتفع ليسمعه كل من فى الغرفة ومنهم عبدالناصر طبعا: «اعلنوا فى النشرة أن نجيب رفضت استقالته، وأنه قد عاد رئيسا للجمهورية».

ويحدثنا صاحب هذه المذكرات ـ فى قدر من الصراحة غير المكلفة ـ أنه كان بدأ يحس باحتمالات الغدر، فبدأ يبيت لعدة ليال خارج المنزل.. وأنه فيما بعدها بفترة صارحه

عبدالناصر بأنه كان يفعل نفس الشيء، فكأنما أراد صاحب المذكرات أن يوحى إلينا أن الشك والتربص كانا موجودين بنفس القدر على كلا الشاطئين:

«... ولكى أكون صريحا، فقد أحسست باحتمالات الغدر بى، ولهذا بدأت أبيت لعدة ليال خارج منزلى، وأعود لبيتى ليلة أو ليلتين، ثم أبيت لعدة ليال خارجه،و بعدها بفترة صارحنى عبدالناصر بأنه يفعل نفس الشىء».

(١٠)

كما يروى خالد محيى الدين فى هذه المذكرات واقعة فى غاية الخطورة عن ترحيب الدوائر الحاكمة فى الغرب بعبدالناصر بديلاً عن نجيب ومساندتها له، ولكن خالد محيى الدين يلقى بنبأ هذه الواقعة فى طريقنا بلا تحليل ولا تعقيب(!!!)

«وأخذت أجازة.. وفوجئت بإعلان قرارات ٥ مارس الشهيرة».

«لكننى ومادمت أرصد كل ما حدث من وقائع هامة، أود أن أشير إلى واقعة محيرة، بل لعلها ظلت تحيرنى لأمد طويل.. ففى هذه الأيام المليئة بأحداث مضطربة وغامضة، قابلنى صحفى فرنسى مرموق ينتمى إلى الحزب الاشتراكى الفرنسى هو «روجيه استفان»، وكان بالقاهرة ممثلا لجريدة «فرانس أوبزرفاتور»، قابلنى ليجرى حديثا معى، وفى أثناء الحديث همس فى أذنى قائلا: سأبلغك بنبأ هام، الدوائر الحاكمة فى الغرب قررت مساندة جمال ضد نجيب، إنهم الآن يفضلون جمال لأنه سيكون حاكما قويا ومتفهما للأوضاع فى آن واحد، أما نجيب فهو حاكم ضعيف وأمثاله سرعان ما يخضعون لضغط الجماهير».

ويردف خالد محيى الدين بقوله:

«ومكنتنى هذه الهمسات من أن أعرف الاتجاه الحقيقى للريح».

(١١)

ويجيد خالد محيى الدين فى هذه المذكرات تشخيص بعض السياسات التعسفية (أو التحكمية) التى لجأت إليها قيادة الثورة فى أول عهدها ، وهو على سبيل المثال يتحدث بالتفصيل عن سياسة إما وإما، إما الثورة وإما الديمقراطية (٣٠٨ و٣٠٩)، وعن إفراج عبدالناصر عن رشاد مهنا لتفجير مخاوف نجيب (٣٠٦)، وعن يقينه بأن الدولة كانت وراء الحشود التى نظمت ضد الديمقراطية (٣١٢).

وفى هذا الإطار يصرح خالد محيى الدين بأن عبدالناصر فى فترة تالية لخلافهما استطاع أو تعمد أن يضع خطأً بينه (أى بين خالد محيى الدين) وبين الزملاء (صفحة ٣٢٠) حيث يقول:

«وعندما قال لى جمال عبدالناصر: اعتبر أن استقالتك مقبولة، كان يضع خطأً فاصلاً بينى وبين الزملاء، فلو أنه دعانى لاجتماع مع المجلس وتناقشنا كنت سأتمسك بوجهة نظرى، وسأحتفظ بها، وأواصل النضال من أجلها فى صفوفهم كما اعتدنا من قبل، لكن الزملاء كانوا قد حسموا أمرهم، وقرروا إما أن أكون معهم فى كل ما يرون وكل ما يقولون.. وإما أن أبعد، كانوا قد قرروا وبشكل حاسم التباعد عن لعبة الديمقراطية، وأن ينفردوا بالحكم، وبالتصرف، وهو ما كانوا يعلمون أننى سأرفضه قطعاً».

«وكان عبدالناصر هو أكثر مَنْ يعرف أننى لست ذلك الرجل الذى يتنازل عن مبدئه وموقفه مقابل الاستمرار فى سلطة أو جاه أو منصب. صحيح أننى خضت معركة غير متكافئة، فرد واحد فى مواجهة جهاز الدولة بأكمله، فرد واحد لم يكن يريد أن يستقوى بأحد حتى لا يضر بموقف زملاء يحبهم، وثورة عاش حياته يحلم بها.. لكنها كانت فى اعتقادى معركة ضرورية، فهل لإنسان أن يزهو أمام الناس بغير موقف ثابت لصالح الوطن والشعب والثورة؟

❑

ولكن خالد محيى الدين نفسه مع كل هذا التصوير الناقد لشخصية عبدالناصر ولرؤيته السياسية بقى حريصاً على أن يعطى عبدالناصر الكلمة، أو أن يتيح له الفرصة ليعبر عن رأيه وليتكلم بما يعتقد فى صوابه فى آخر كتابه حيث يقول :

«كنت دوماً أقول له: ياجمال.. أنا مختلف معكم، أنا عايز انتخابات وديمقراطية وأنتم مش عايزين، وأنا شايف أنكم متجهين نحو علاقة مع أمريكا وأنا أرفض ذلك، فالأفضل أن أنسحب بدلاً من تفاقم المشاكل. وكان دوماً يرد: ياخالد أنت صاحب حق.. ابق معنا، ودافع عن وجهة نظرك، ثم يقول: فيه زملاء من المجلس يرغبون فى أن تخرج فلا «تعطيهم» هذه الفرصة. ولكن عندما حدثت أزمة مارسٍ وعدت من الإسكندرية وقمت بزيارته فى بيته، وبدأ التعاتب، ذكّرته بأنه هو الذى ألح علىّ فى أن أبقى وأن أدافع عن وجهة نظرى، فقال: بس مش للدرجة دى».

هل نستطيع أن نقول إن كاتب هذه المذكرات أراد بهذا أن يصور لنا عبدالناصر فى صورة السياسى الحريص على إدارة صراع فكرى، ولكن فى حدود لا يتخطاها هذا الصراع؟

(١٢)

وتحفل هذه المذكرات بالطبع بالاستطراد إلى التحليل الانطباعى لعلاقة الرئيسين محمد نجيب وجمال عبدالناصر ببعضهما، وليس فى وسعنا أن ننقل للقارئ كل التفصيلات التى يقدمها مثل هذا التحليل، كما أننا لا نستطيع ـ أيضا ـ أن نعول تعويلا كاملا على ما يرويه خالد محيى الدين فى هذا الصدد، ولكننا نستطيع ـ على سبيل القطع ـ أن ننقل للقارئ تصوير خالد محيى الدين لفترة الصراع الأولى بين الرئيسين فى بداية ١٩٥٤:

«وفى يوم ٣ يناير ١٩٥٤ جاء عامر من عند نجيب وقال إنه يشعر أنه الآن أكثر استعدادا للتفاهم، وأنه فقط يريد احترام المظاهر التى يتعين احترامها، لكنه لا يريد الدخول فى أية تصادمات».

«وسارت الأمور سيرا هادئا حتى أول فبراير، وكانت جماعة الإخوان المسلمين قد صدر قرار بحلها فى ١٥ يناير، وأود هنا أن أقرر للتاريخ أن قرار حل الإخوان قد صدر بالإجماع، أى بموافقتنا جميعا بمن فينا محمد نجيب، ومن هنا فإن تنصل نجيب فيما بعد من هذه الموافقة ليس متطابقا مع الحقيقة، وكان السبب المباشر لحل الإخوان هو وقوع تصادم فى الجامعة بينهم وبين طلاب آخرين، وأحرق الطلاب الإخوان سيارة وقاموا بأعمال عنف وتخريب،وعقدنا اجتماعا فى نفس الليلة، وحضر الاجتماع الشيخ الباقورى وصدر قرار الحل بالإجماع كما قلت، وتقرر اعتقال ١٥٠ شخصا من الإخوان».

«لكننا كنا فى نفس الوقت نرى ضرورة الاستمرار فى تعميق الخلافات داخل الجماعة، ومن ثم كان هناك اتفاق على المشاركة فى الاحتفال بذكرى وفاة حسن البنا فى ١٢ فبراير، لنعلن أننا لسنا ضد دعوة الجماعة، وإنما ضد هذه المجموعات التى تقودها،وضد قيادة المرشد حسن الهضيبى تحديدا».

«وكان من المقرر أن يشارك فى الاحتفال جمال عبدالناصر وصلاح سالم، واتصل نجيب بصلاح سالم وأبلغه أنه يريد الحضور فى الاحتفال».

«وغضب عبدالناصر غضبا شديدا، فلم يكن يريد أن يذهب مع نجيب، وإذا امتنع عن الذهاب وذهب نجيب وحده تأكدت المعلومات الخاطئة التى كان نجيب يسربها للإخوان، والتى يؤكد فيها أنه كان ضد قرار الحل».

«وفى ذات الليلة اتصل بى كمال الدين حسين ليبلغنى أن هناك اجتماعا للمجلس فى بيت زكريا محيى الدين، وفهمت أنه اجتماع خاص بنا وأن نجيب غير مدعو له.. إنها جلسة ١١ فبراير ١٩٥٤ التاريخية».

«كان جمال عبدالناصر متوترا للغاية، وبدأ الاجتماع معلنا أنه غير قادر على التعامل مع نجيب بأى حال من الأحوال، وأنه يريد أن يستقيل وأن يعود إلى الجيش مرة أخرى، وأن نجيب وحده لن يستطيع أن يدير شئون البلاد وسوف يثبت فشله».

«واختلفنا فى الرأى.. مجموعة تعارض الاستقالة وتحذر من مخاطرها مؤكدة أن نجيب سوف يحكم بدوننا، ثم يعين قائدا للجيش أو يتولى هو قيادة الجيش، ليطردنا من الجيش، و بما ليحاكمنا ثم ينفرد هو بكل شيء، وكان بغدادى وحسين الشافعى متحمسين لهذا الرأى».

«بينما كان زملاء آخرون متحمسين للاستقالة والعودة للجيش، والاستعداد لعمل ثورة جديدة، وكان هذا الرأى مثاليا، فكيف يمكن أن يتركهم نجيب بهذه البساطة، لكنهم كانوا يتصورون أن الجماهير سوف تثور لتساندهم وتعيدهم ضد إرادة نجيب، وبهذا يطيحون بنجيب».

«إنها نفس الفكرة التى طبقت فى مارس، لكنهم فى هذه المرة اقترحوها دون إعداد كذلك الذى أعدوه فى مارس».

«أما أنا فقد قلت: إذا أردتم الاستقالة فأنا موافق، والحقيقة أن سبب موافقتى كان إحساسى بأن الزملاء يرفضون أى تقدم فى مجال الديمقراطية وأية عودة للحياة النيابية، وأن هناك اتجاها ملحوظا للتعاطف مع أمريكا، فقلت: إذا أردتم الاستقالة أستقيل معكم، لكننى لن أعود للجيش.. وثار البعض: لماذا؟ قلت: إذا كنتم أنتم تهاجموننى، وتقولون إننى يسارى، وأننى ضد الاتجاه العام وأنتم تعرفون أنتى مع الديمقراطية ومع الحياة النيابية، فماذا سيفعل بى الآخرين عندما نتخلى عن سلطة السيادة، ونصبح ضباطا عاديين، سوف أفصل فورا ولربما أحاكم أيضا».

«وحذرتهم، كما حذرت نجيب من قبل، من أن الجماهير سوف تفهم الصراع على أنه صراع شخصى على السلطة، وأنه لكى تتحرك الجماهير يجب أن تطرح عليها قضية عامة مثل قضية الديمقراطية، والحياة النيابية».

«لكن أحدا منهم، لا هم ولا نجيب، كان موافقا على تلك الفكرة التى كنت ألح عليها فى كل وقت، فكرة الديمقراطية والحياة النيابية».

❑

وعند هذا الحد يتعالى خالد محيى الدين على فهم عبد الناصر ، وينسب إليه أنه كان يظن أن الجماهير كانت ستعيده إلى السلطة على نحو ما حدث فى تركيا مع أتاتورك:

«وبعد نقاش قررنا أن نؤجل الأمر كله إلى الغد لنجتمع فى المساء فى بيت جمال عبدالناصر».

«وفى الغد كان هناك الاحتفال بذكرى حسن البنا، وأرسل جمال إلى نجيب يهدده ويطلب إليه عدم الذهاب إلى الاحتفال، وأعود لأكرر عبارة «يهدده»، فقد وجه إليه جمال ما يشبه الإنذار بألا يذهب، ولم يذهب نجيب، وذهب جمال وتحدث فى الاحتفال وعاد ليجتمع بنا».

«وأعدنا مناقشة الموضوع، وعاد الزملاء لطرح فكرة الاستقالة والعودة إلى أسلحتنا، وأن نظل نعمل تحت قيادة عبدالناصر، ولم يتصوروا أن يقوم نجيب بطردهم من الجيش أو حتى اعتقالهم».

«وبعد مناقشة أكدُت لهم أنه فى حالة الاستقالة فسوف أستقيل لكننى لن أعود للجيش، وثار خلاف شديد، واقترح جمال سالم أن نغتال نجيب، ورفضنا الفكرة باستهجان، لكن عبدالناصر كان يهدأ رويدا رويدا ثم تحدث ليعلن أنه يسحب اقتراح الاستقالة، ويقترح أن نترك الأمور مرة أخرى للزمن، ربما كان الهدوء ظاهريا وربما كان استعدادالخطة جديدة».

«لكن التربص ظل موجودا، وبدأ كل طرف يستعد للانقضاض على الطرف الآخر».

(١٣)

ثم يروى خالد محيى الدين تفاصيل الأزمة التى فجرها اللواء محمد نجيب حين بدا له مايدل على تجاهل أعضاء مجلس القيادة لوجوده:

«... واستمرت الأمور كما هى فى حالة من التربص والحذر حتى كان يوم ٢١ فبراير، وكان موعد الاجتماع الدورى لمجلس الثورة».

«وذهبنا جميعا، وكالعادة بدأنا نتجمع فى غرفة جمال عبدالناصر بمبنى قيادة الثورة، وكانت العادة أن ننتظر حتى يكتمل الحضور ثم نصعد إلى الدور الثانى حيث مكتب نجيب لنعقد اجتماعا فى غرفة الاجتماعات الملحقة به، لكننا فى هذا اليوم ـ لسبب أو لآخر ـ ظللنا جالسين فى غرفة جمال نتبادل أطراف الحديث، فلما طال انتظار نجيب أرسل لنا ياوره إسماعيل فريد ليقول: الرئيس يسأل متى ستصعدون، وأتاه الجواب سبابا بذيئا من جمال سالم».

«وبعد خمس دقائق دق التليفون ورد عليه حسين الشافعى، وكان المتحدث نجيب وسأله: مش حتطلعوا؟ فقال له: أصل العدد لم يكتمل».

«وكان نجيب يعلم أن العدد قد اكتمل منذ فترة طويلة، لكنه يبدو أن البعض كان يحاول ترويض نجيب ويجعله ينتظرنا لأطول فترة ممكنة، ولعل نجيب قد أدرك ذلك فقرر أن يواجه التحدى بتحد آخر، وفوجئنا بالبروجى يعلن مغادرة الرئيس المقر».

«ووقعنا فى مأزق جديد.. فإذا انفض الاجتماع كان وضعنا سيئا أمام الجميع، وإذا استمر الاجتماع لن نستطيع إصدار قرارات ملزمة، وهذا أسوأ».

«وأحسست أن الارتباك يسود الجميع، وبدأ عدد منا يقطع الغرفة جيئة وذهابا، وخيمت الحيرة علينا».

«وفى محاولة للخروج من المأزق الشامل اقترح بغدادى أن نشكل مجلسا استشاريا يتم تعيينه من بين الشخصيات العامة المدنية وممثلى النقابات المهنية والعمالية، وأن يكون لهذا المجلس صفة استشارية، وتعرض عليه القضايا المختلفة ليدلى برأيه فيها، وعرض أن نتقدم بهذا الاقتراح مقرونا باقتراح أن يترك نجيب رئاسة مجلس الوزراء لأنه لا يقوم بمهام هذا المنصب، ولا يعطى مسئولياته الوقت الكافى».

«لكن عبد الناصر قال: لا تربطوا المسألتين ببعضهما، فنجيب ليس عبيطا، فقد يوافق على المجلس الاستشارى، لكنه سيرفض أية محاولة لإبعاده عن رئاسة مجلس الوزراء.. لكن جمال لم يرفض اقتراح المجلس الاستشارى من حيث المبدأ».

«وعدنا لمناقشة موضوع علاقتنا بنجيب، واتفقنا على أن نرسل له وفدا من جمال سالم وكمال الدين حسين وإسماعيل فريد ليعرض عليه اقتراحا بتحديد اختصاصاته كرئيس للجمهورية، وأن يترك رئاسة مجلس الوزراء ليتولاها جمال عبدالناصر».

«مرة أخرى تحدثت مؤكدا أن نجيب لن يقبل، وأن الحل الوحيد هو أن نقترح عودة الحياة النيابية، وهنا يمكن أن يتراجع نجيب، أو حتى يمكن أن يتحول الصراع من صراع شخصى على السلطة إلى صراع سياسى».

«... وأخيرا تقرر إرسال الوفد إلى نجيب وأن نعاود الاجتماع يوم الثلاثاء ٢٣ فبراير».

«وفى اجتماع ٢٣ فبراير أبلغنا جمال سالم أنه والوفد قابلوا نجيب وعرضوا عليه الاقتراح، وأنه تلقى الاقتراح مبتسما لكنه لم يبد رأيه لا بالقبول ولا بالرفض».

«وبينما نحن جالسون دخل إسماعيل فريد ياور محمد نجيب وسلم لكمال الدين حسين مظروفا، فتح كمال الدين المظروف، وقال إنها استقالة أرسلها نجيب من جميع الوظائف والمسئوليات المنوطة به، ويؤكد فيها أنه يستقيل لأسباب لا يريدالخوض فيها، وأن مصلحة الوطن هى التى أملت عليه هذا القرار».

«ومرة أخرى.. وقعنا فى المأزق».

وربما كان من أهـم ما فى هذه المذكرات (إضافة إلـى الحديث عن دور محمد نجيب قبل الثورة ، وعن انتماءات وعلاقات جمال عبد الناصر) ما يروى به صاحبها فى صراحة شديدة تطورات أزمة مارس ١٩٥٤ التى كـاد هو نفسه يصبح من خلالها رئيـساً للوزراء، ونحن نراه فى روايته حريصا على أن يذكر ما رآه وشاهده وحـضره على أنه رآه وشاهده وحضره بنفسه، وفى ذات الوقت فـإنه حريص فيمـا رواه نقلاً عن غيره عـلى أن يذكر أنه رواه نقـلاً عن غيره وهو يقول على سبيل المثال:

«... وتأتى استقـالة محمد نجيب لتفجـر من جديد الخلاف بينى وبين الزمـلاء فى مجلس قيادة الـثورة، ولترسـم الحد الفاصل بـينى وحدى، وبيـنهم جمـيعاً، فلدى كـل منحنـى كنت أتصور وأتمـسك بأن المخرج هو إعلان الاسـتعداد لإعادة الحيـاة النيابيـة، بما يستتبع ذلك من إعادة الـسماح بقيام الأحزاب السياسية، ومن البدء فى اندماجنا فى العمل السياسى».

ثم يبلـور خالد محيى الديـن رأيه فى موقف الرئيـس محمد نجيب القـوى أو الواضح فى ذلك اليوم:

«والحقيقـة أن تلك الورقة التى دخـل بها إسماعيل فـريد على اجتماعـنا ليسلمهـا لكمال الدين حسين بـصفته سكرتير المجـلس، والتى تضمنت اسـتقالة محمد نجيـب، قد أربكت كل الحسابات ووضعت مجلس الثورة فى موقف حرج للغاية».

«بسرعة فائقة أدرك جمال عبدالناصر خطورة الموقف، وأدرك أن الزمام قد يفلت من أيدينا جميعاً، فصاح فى وجـه إسماعيل فريد: روح بلغ نجيب أن يبقى فى بيته ولا يغادره، ثم تذكر أنه لابد أن يكون إسـماعيل فريد نفسـه يعلم بمحتوى الورقـة التى أتى بها، فمع أن إسـماعيل فريد كـان عين عبدالنـاصر على نجيـب، إلا أن عبدالناصر لـم يشأ أن يترك شـيئاً للمـصادفة، فصاح فى إسماعيل فريد: وأنت، لاتغـادر هذا المكان.. ثم أردف بعبارة لم أزل أذكرها: «قول لنجيب إن المسألة مش لعبة».

«وكان كل حرص عبد الناصر ألا يتسرب نبأ استقالة نجيب قبل أن نرتب نحن أمورنا».

«وبدأنا فى مناقشة الاستقالة وتداعياتها».

«ومن جديـد بدأت الاقتراحات تتـساقط من الزملاء، لـكنها تتـساقط وهى غير نـاضجة. البعـض اقترح اتخاذ قـرار بتشكيـل وزارة مدنية، وأن يلـحق به إعلان اسـتقالة مجلـس قيادة الثورة».

«وعندما تعثرت المناقشة قال جمال سالم: نشوف حل بعدين، لكن البغدادى قال: أى حل لازم يكون بعلمنا واتفاقنا، نقعد إلى أن نتفق، فقال جمال سالم: أقصد أن نحاول ترضية نجيب لكى يسحب استقالته مؤقتاً، وبعد شهر نكون قد توصلنا إلى حل، لكن كيف يمكن إقناع نجيب بسحب استقالته، وعلى أى أساس؟».

«هنا صمت جمال سالم ولم يجب».

«وتساقط حل جديد.. نشكل هيئة استشارية، وكان اقتراح الهيئة الاستشارية قد طرح من قبل، ورفضته بشدة لأنه يعنى شيئاً واحداً: مد فترة الانتقال وعدم إعادة الحياة البرلمانية».

(١٥)

ويحرص خالد محيى الدين فى هذه المذكرات على أن يستبقى لنفسه الحق فى الدور التاريخى الذى نسب إليه في كثير من الكتابات والمراجع وهو حرصه على عودة الحياة النيابية:

«واعترضت على موضوع الهيئة الاستشارية، وقلت: بصراحة ياجماعة، البلد لن تقبل بأقل من عودة الحياة النيابية، وإعلاننا الاستعداد لعودة الحياة النيابية هو وحده الذى سيسحب البساط من تحت أقدام نجيب ويبرز استقالته كموقف ضد الديمقراطية»:

«وفجأة تذكر صلاح سالم موضوع السودان، وصاح قائلاً: ياجماعة أنتم ناسين موضوع السودان، محمد نجيب شيء مهم جداً بالنسبة للسودانيين، خاصة وإحنا مقبلين على تحديد العلاقة المصيرية بين مصر و السودان».

«وهنا تقدمت باقتراح، قلت إنه يخرجنا ويخرج مصر كلها ويخرج علاقتها مع السودان من المأزق: أن نعلن بدء فترة الاستعداد لعودة الحياة النيابية، وأن نعمل فى هذه الحالة على مسايرة محمد نجيب فى المدة المتبقية من فترة الانتقال والتى لا تزيد على عام ونصف عام».

«وأيدنى عبد اللطيف البغدادى قائلاً: إن هذا هو المخرج الوحيد الذى يحل مشكلة استقالة نجيب، لكن الزملاء جميعاً كانوا ـ ومن حيث المبدأ ـ ضد عودة الحياة النيابية، وحتى موافقة البغدادى على اقتراحى كانت موافقة مرحلية، فما لبثت أن وقفت وحدى فى مواجهتهم جميعاً».

«استمرت المناقشة دون أن نصل إلى حل ، وكنا يوم الثلاثاء.. موعد اجتماع «المؤتمر المشترك»، واتصلوا بنا من قاعة «المؤتمر المشترك» ليقولوا إن الاجتماع جاهز.. إن نجيب هنا، وذهبنا جميعاً إلى الاجتماع فيما عدا عبدالناصر الذى كان ـ فيما يبدو ـ مرتبطاً بموعد فى منزله، واتفقنا أن نلحق به إلى هناك فور انتهاء الاجتماع».

وهنا يبرز خالد محيى الدين حقيقة وجوهر موقفه المختلف تماما مع زملائه وكيف تدرج فى إبدائه لرأيه فى هذا الموقف من الاختلاف التام إلى اختلاف مستتر غطى بموافقة ظاهرية:

«وكنت وحدى فى الطرف الآخر، وأكدت للزملاء أكثر من مرة أن حجة أن نجيب يريد أن يستحوذ على السلطات لا تقنع أحداً، وقلت لهم: أنتم ترفضون عودة الحياة النيابية وقررتم حل الأحزاب، أى تريدون الاستحواذ على السلطة لأنفسكم، والجماهير ستفهم الأمر أنه صراع على السلطة بين أطراف كل منها يريد أن يحوزها لنفسه وليس للشعب، كذلك فإن هذه الحجة لن تقنع أحداً فى الجيش الذى اعتاد رجاله على الخضوع التام للقيادة».

«وكنت بطبيعة الحال أيضاً ضد مد فترة الانتقال».

«لكن الزملاء صمموا على أن يصدر هذا القرار بالإجماع، لإظهار تضامننا معاً، وإزاء إلحاحهم قلت: سأعلن موافقتى بشرط أن أستقيل من مجلس الثورة، وأكدت لهم أنى سأستقيل ولن أعود للجيش، وإنما سأشتغل بالسياسة».

«ووافق الزملاء على ذلك بشرط ألا أعلن استقالتى فوراً وإنما بعد فترة، وهنا وافقت أيضاً مشترطاً ألا يطلب منى أن أذهب إلى ضباط المدرعات (الفرسان) لإقناعهم بما أعتقد فى قرارة نفسى أنه قرار خاطئ وضار».

(١٦)

ويتحدث خالد محيى الدين فى هذه المذكرات بتفصيل معقول عن إعلان مجلس القيادة لاستقالة الرئيس نجيب وما أثاره هذا الإعلان من «ثورة» على مجموعة رجال الثورة، ونحن نراه يتحامل فى حديثه هذا على أحد زملائه (وهو صلاح سالم)، وكأنما كان القرار قرار صلاح سالم وحده، أو كأنما كان فى وسع غير صلاح سالم أن يفعل غير ما فعل:

«وأتى صباح الخميس ٢٥ فبراير..».

«ذهب صلاح سالم إلى الإذاعة ليعلن نبأ قبول استقالة نجيب، وليبرر الأمر تبريرات أثارت سخرية الناس. فقد قال إن نجيب كان يلح على نشر صوره فى الصحف، وعلى إذاعة خطبه فى الإذاعة، وأنه كان يوقظ صلاح سالم بصفته وزيراً للإرشاد من نومه ليطلب إليه الأمر بإذاعة خطاب ألقاه».

«وقال صلاح سالم فى بيانه: إنه إزاء تفاقم الخلافات بينه وبين نجيب، ذهب بنفسه إلى السجن الحربى ووضع نفسه فى السجن».

«وهكذا ..».

وهنا يعلق خالد محيى الدين بقوله:

«والمهم أن الناس لم تقتنع بكلمات صلاح سالم، فكيف يُحرم رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وقائد الثورة من إذاعة خطبه فى الراديو أو من نشر صوره فى الصحف، أما موضوع أن صلاح سالم ذهب بنفسه إلى السجن الحربى ليسجن نفسه فقد أثار لدى الناس تعليقات مليئة بالسخرية».

«أما أنا فقد قررت - لكى لا أضع نفسى فى موضع الحرج، ولكى أفى بما تعهدت به للزملاء - أن أختفى، فتركت البيت طوال يوم الخميس، ذهبت وزوجتى إلى خارج القاهرة، وقررت أن أقطع حرارة التليفون لكى لا يتصل أحد بالمنزل، ويوم الجمعة ذهبت إلى السينما لأشاهد مع زوجتى فيلم "يوليوس قيصر"، ثم تعشيت فى الخارج، ولم أعد إلى البيت إلا الساعة الثانية عشرة والنصف مساء».

«عدت للبيت لأجد ضابطاً فى انتظارى يبلغنى أن الزملاء فى مجلس الثورة ينتظروننى فى مكتب عبدالحكيم عامر، قررت أن أصعد لأغير ملابسى المدنية وألبس الزى العسكرى، فقد اعتدنا أن نحضر اجتماعات مجلس الثورة بالزى العسكرى، لكن الضابط كانت لديه تعليمات بأن أذهب بأسرع ما يمكن، فقال: ياأفندم مفيش وقت».

«وذهبت بملابسى المدنية مكتفياً بأن البالطو الذى أرتديه يميل لونه إلى اللون الكاكى».

«كان الجميع هناك إلا حسن إبراهيم، فقد كان فى الإسكندرية».

(١٧)

ثم يروى خالد محيى الدين قصة اللقاء العاصف مع زملائه فى مجلس القيادة الذين استقبلوه دون أن يتقبلوه فإذا به يجدهم على غير ما عهدهم من مودة أو دفء المشاعر:

قلت: «السلام عليكم» ولم أسمع رداً، الوجوه جميعاً كانت باردة وجافة، عبدالناصر ممسكاً باريه بين يديه، والبعض يضع رأسه على مائدة الاجتماع، والجميع واجمون، ونظراتهم نحوى لم تكن ودية».

«هذه الوجوه الباردة جديدة تماماً علىّ، إنها غير تلك التى زاملتها سنوات طويلة فى الإعداد للثورة، فهذه الصداقة القديمة والطويلة اختفت وحلت محلها نظرات لا أريد أن أصفها، لكننى لا أنساها حتى الآن».

«لقد كانوا جميعا غاضبين منى، رغم أن توقعاتى هى التى تحققت، أو ربما بسبب ذلك، فبيان صلاح سالم فى المؤتمر الصحفى الذى أعلن فيه قبول استقالة نجيب، لم يقنع أحداً، بل إنه زاد من عطف الناس على نجيب».

«قال صلاح سالم إن أولاده هاجموه بشدة فى البيت، وأن خادمه مر على محلات العباسية ليشترى احتياجات المنزل، لكن البائعين رفضوا أن يبيعوا له، أقارب زكريا هاجموه بشدة، والضباط عامة ما أن نزلوا الشارع صباح الخميس حتى ووجهوا برفض جماهيرى شامل، وانتقادات حادة».

❑

وهنا يسترجع خالد محيى الدين ما تنامى إليه هو نفسه من انطباعات غضب الشعب وثورته:

«أنا نفسى كنت فى وسط البلد مساء الخميس، ووجدت الناس متجمعين أمام أحد المحلات يستمعون لخطاب صلاح سالم، نزلت من السيارة، ووقفت أستمع معهم، وعندما انتهى البيان علق أحد الواقفين قائلاً: «دول طلعوا أولاد كلب»، وأسرعت إلى سيارتى».

«كان رد الفعل الجماهيرى على غير ما توقع الزملاء، فماذا كان رد فعل الجيش؟».

«كانت الأنظار كلها متجهة إلى سلاح المدرعات [ونلاحظ هنا أن خالد محيى الدين يتحدث عن سلاح الفرسان باسم سلاح المدرعات، وهو الاسم الجديد للسلاح، وهو ما قد يدلنا على أن خالد محيى الدين لم يتول كتابة المذكرات بنفسه مباشرة، فلو أنه كان هو الذى كتب المذكرات ما طاوعته ذاكرته لأن يتحدث عن سلاحه باسم غير اسمه الذى عرفه به وقضى فيه شبابه]، ولقد اتفقت مع الزملاء فى جلسة الأربعاء ألا أتحمل أمام ضباط المدرعات مسئولية الدفاع عن موقف أنا غير راض عنه، وقد تعمدت الاختفاء من بيتى حتى لا أضطر لأن أعلن رأيى لزملائى فى المدرعات فيتصور الزملاء فى مجلس الثورة أننى أحرض الجيش ضدهم».

«وذهب حسين الشافعى ووجه بمعارضة شديدة من ضباط المدرعات، وطلبوا أن يذهب إليهم جمال عبدالناصر، فلما ذهب هاجموه بشدة ولم يستطع أن يكسبهم إلى صفه، بل ولم يستطع أن يقنع منهم أحداً بموقفه».

❑

ويستطرد خالد محيى الدين محللا وناقدا للموقف الذى وجد فيه نفسه أو وجد زملاؤه أنفسهم فيه فيقول:

«كان هذا هو سبب الوجوم، فقد كانت حساباتهم قائمة على أساس أن الجيش معهم، وأن بيان صلاح سالم يمكنه أن يقنع بعض قطاعات من الشعب، لكن المهم فى هذه الحسابات هو أن الجيش مضمون معهم فإذا بالشعب قد وقف ضدهم، والمدرعات وقفت ضدهم، ثم زاد الطين بلة أن حسن إبراهيم اتصل من الإسكندرية ليبلغ أن حامية الإسكندرية هى أيضاً ضد القرارات.. صحيح أن المدفعية والطيران والمشاة معهم، لكن هناك شرخ خطير فى الجيش، وربما أدى تجاهله إلى حدوث مذبحة بين قوات الجيش».

«حاولت أن أكسر حاجز الوجوم، والنظرات المشحونة بالغضب، فقلت: خير ياجماعة؟ ولم يرد أحد، سألت عبدالناصر: فيه إيه ياجمال؟ ولم يرد، وازداد توترى إلى درجة أننى مددت يدى وأخذت سيجارة من علبة كانت على المائدة وأشعلتها.. وعدت للتدخين من جديد بعد أن كنت قد أقلعت عنه لفترة».

(١٨)

ويلخص خالد محيى الدين قصة معارضة كثير من أفراد القوات المسلحة لتصرفات مجلس قيادة الثورة حسبما رواها أو بلورها له الرئيس جمال عبدالناصر نفسه فيقول:

«... أخيراً تكلم جمال وقال: أنتم تعرفون الحكاية لكن سأحكيها لخالد، يوم الخميس ذهب حسين الشافعى إلى ضباط المدرعات وعرض عليهم القرار فعارضوه بشدة، وبدأوا فى الاتصال ببعضهم، وحاولوا الاتصال بخالد لكن خالد لم يكن فى بيته، وقرر الضباط عقد اجتماع ثان فى صباح الجمعة وذهب لهم حسين الشافعى ولم يستطع إقناعهم أيضاً، وصمموا على أن أذهب أنا إليهم وإلا عقدوا الاجتماع بمفردهم، وأصدروا قرارات وأعلنوا رأيهم.. ومضى جمال قائلاً إنه ذهب إليهم فعارضوه بشدة وانتقدوه انتقاداً شديداً، وقال إنه بينما كان يتحدث إليهم كان طابور دبابات عائداً من التدريب على ضرب النار، فدارت الدبابات حول الميس المجتمعين فيه، وشعر جمال أن هناك نوعاً من التهديد».

«وقال جمال: أنا وجدت أمامى ناس رافضة لأى إقناع، مصممين على ضرورة عودة محمد نجيب ولو بدون سلطات، وعلى ضرورة عودة «الحياة النيابية»، واستطرد قائلاً: «وطبعاً أنتم عارفين أن موضوع الحياة النيابية ده كلام خالد وأفكار خالد».

«فقاطعته وقلت: أنا تركت بيتى حتى لا يتصل بى أحد، ولكى لا أتصل بأحد، فقال عبدالناصر: أنا لا أتكلم عن النهارده، وقال حسين الشافعى: «الحقيقة يا خالد أنت منذ عدة

أشهر وأنت تعقد اجتماعات مع ضباط المدرعات، وتقوم بزيارات جماعية مع الضباط بصورة دورية لأحد الضباط فى قريته، وكنت تتحدث معهم دوماً عن الحياة النيابية والديمقراطية..».

«فقلت: «هل كنت عايزنى أقول لهم نعمل دكتاتورية، أنا كنت أقول لهم رأيى، وقد قبلوه، والحقيقة أن ضباط المدرعات يشعرون بأنهم مغبونون وأنهم مبعدون عن عمد عن تولى المناصب الهامة».

«ومضى جمال عبد الناصر ليروى قصة حواره مع ضباط المدرعات، وقال إن ضابطا فى الفرسان ـ هو ابن محمد نور الدين الزعيم السودانى ـ قال: ياجماعة لا تنسوا السودان، وتأثير محمد نجيب على السودانيين، وأنه يمتلك شعبية كبيرة وسطهم وأن إبعاده الآن سيؤدى إلى انفصال السودان عن مصر».

«وأخيراً قال جمال: لكن أخطر ما فى الموضوع أن الضباط أعلنوا أنهم سيظلون مجتمعين حتى يصلهم رد على مقترحاتهم أو مطالبهم والتى تتلخص فى: عودة نجيب ـ عودة الحياة النيابية».

«وقال: لقد أشاروا بشكل غير مباشر إلى أن المظاهرات الشعبية سوف تنفجر فى الغد مطالبة بعودة نجيب وعودة الحياة النيابية، وأنهم لن يستطيعوا مواجهة هذه الجماهير، لأنها تنادى بما ينادون به، ولهذا فهم مصممون على أن يصلهم رد قبل طلوع الصبح».

«وفيما بعد علمت من صلاح سالم والبغدادى أن عبد الناصر اقترح على مجلس الثورة قبل حضورى الموافقة على عودة محمد نجيب، لكن الزملاء رفضوا، وكان أكثر الجميع تشدداً جمال سالم الذى قال: إذا قبلنا ذلك فمعنى هذا أننا نخضع للضغط، وأننا نشجع الآخرين على الضغط علينا، ويخرج الموقف من أيدينا، والأفضل أن نرفض.. وأن نستقيل».

«مرة أخرى.. نرفض ونستقيل».

«كان هذا قبل حضورى، فلما حضرت وتحدث جمال، سألنى بعد أن انتهى من حديثه: إيه رأيك ياخالد؟ فقلت: رأيى من رأيكم».

«وفوجئت بجمال يقدم اقتراحاً غريباً ومثيراً فى آن واحد:

«محمد نجيب يعود».

«مجلس الثورة يستقيل».

«تشكل حكومة مدنية برئاسة خالد محيى الدين».

«تعود الحياة النيابية خلال فترة أقصاها ستة أشهر».

«إنها ما عُرف فى التاريخ باسم «قرارات ٢٦ ـ ٢٧ فبراير».

«وفوجئت بهذا الاقتراح، ومضى جمال عبد الناصر مبرراً: يا جماعة بصراحة كده ما فيش حد مقتنع بعودة الديمقراطية والحياة النيابية إلا خالد.. إذن يبقى هو، ونحن نستقيل ليحقق هو الأهداف التى نادى بها».

«وبدأت أشعر بحقيقة المأزق الذى يريدون وضعى فيه، فإذا كانوا سيستقيلون فهل سيستقيل عبد الحكيم عامر.. قائد الجيش؟ فإن فعل فمن يضمن استمرار ولاء القوات المسلحة؟ وإذا كان سلاح الفرسان معى، فماذا عن المدفعية والطيران والمشاة، وضباطها يتمسكون بمجلس الثورة وبسلطاته وبرفض الحياة النيابية.. وهل أقبل أن تقع مذبحة بين قوات الجيش؟؟».

«سيل من الأسئلة، وعلامات الاستفهام تتراكم أمام ناظرى، وأحسست أن الأمر ليس سهلاً، وأننى أدفع دفعاً إلى مأزق خطير، فقلت لعبد الناصر: «ياجمال لقد فاجأتنى بهذا الموضوع، والمسألة ليست بهذه البساطة، أنت تقترح أن أشكل وزارة مدنية.. أشكلها ممن؟ وبأية سلطة؟ ومستنداً إلى أية مشروعية إذا كنتم جميعاً ستستقيلون؟ وماذا سيكون موقف القوات المسلحة؟ فرد عبد الحكيم عامر: أنا مسئول عن تأمين القوات المسلحة لفترة ثم أستقيل».

«فقلت: ومَنْ يضمن تأمينها بعد أن تذهب أنت؟؟».

«وهنا انفجر صلاح سالم فى حركة درامية قائلاً: «أستحلفك بالله يا خالد أن توافق إنقاذاً للبلد، فإذا لم توافق قبل طلوع الصبح ستقوم فى البلد مذبحة، فهناك انقسام فى القوات المسلحة، والناس عيزة لحبيب، أرجوك اقبل».

❑

وعند هذا الحد يصرح خالد محيى الدين بموقفه الذى حسب عليه بعد ذلك وكأنه يتحرز لكل ما تضمنته ولكل ما يمكن أن تتضمنه الكتابات التاريخية الأخرى ويقول:

«.. وبرغم حيرة شديدة وأسئلة حائرة بلا إجابة، وشكوك تتسرب إلى عقلى ونفسى.. قلت: إذا كان الأمر كذلك سأقبل مبدئياً، ولكن يجب أولاً أن نسرع إلى ضباط المدرعات، الذين كانوا مازالوا مجتمعين كقوة ضغط. ولابد هنا أن أذكر بأن مقر سلاح المدرعات كان فى مواجهة مقر قيادة الجيش، لا يفصلهما عن بعضهما إلا عرض الطريق، ومن ثم فإن اجتماعهم كان يمثل قوة ضغط مباشرة وفاعلة».

«وتوجهت أنا وعبد الناصر إلى سلاح المدرعات، وطوال الطريق كان هم ثقيل يطبق على صدرى، أى مأزق يريد الزملاء وضعى فيه، وأى عبء يلقونه على عاتقى. كانت الأسئلة

تتزاحم مع بعضها بعضاً: كيف ستتم السيطرة على البلد؟ كيف ستتم السيطرة على القوات المسلحة والمدفعية والطيران والمشاة؟ الأحزاب كيف ستعود؟ الحياة النيابية كيف يمكن إعادتها؟ ثم... مع هذا كله، بل قبل هذا كله.. ما هى حقيقة نوايا الزملاء فى مجلس الثورة؟ وماذا يضمرون فعلاً؟ وما هى خطتهم الحقيقية؟».

«وأخيراً وصلنا إلى ضباط المدرعات وعرض جمال الاقتراح».

«وسأله أحد الضباط: وأنتم ماذا ستفعلون؟ فقال: سنحال إلى المعاش. ويبدو أن المخاوف التى سيطرت علىّ قد وجدت سبليها إليهم، فقال ضابط منهم: إذا كنتم موافقين على عودة نجيب وعلى عودة الحياة النيابية، وترون أن هذا هو المخرج، فلماذا تستقيلون وتتركون خالد وحده؟ هل تريدون إحراج خالد؟».

«فقال جمال: نحن نرفض العمل مع نجيب ، وأنتم مصممون على إعادة نجيب، ونحن لا نثق فى نجيب، بينما نثق فى خالد ، فنحن نريد أن يتولى خالد المسئولية. واستمرت الشكوك تحيط بضباط الفرسان، وتدفعهم إلى المناقشة، لكن جمال وضعهم أمام خيارات صعبة قائلاً: أنتم مصممون على عودة نجيب ونحن نرفض عودته ، فلا تستطيعون إجبارنا على إعادة نجيب وعلى البقاء للعمل معه ، نحن نوافق على رأيكم ولكن ننسحب نحن، فنحن لن نتعامل مع نجيب ، كذلك أنتم تريدون عودة الحياة النيابية والوحيد فينا الذى يطالب بعودة الحياة النيابية هو خالد ، ولهذا اقترحنا أن يأتى هو لينفذ طلباتكم».

«وانتهى النقاش.. وضباط المدرعات غير مستريحين كما كنت أنا غير مستريح ، ولكن لم يكن هناك مخرج آخر».

«وعدت أنا وجمال إلى مقر القيادة لإعداد صيغ القرارات، واقترحت أن أذهب إلى نجيب أعرض عليه الأمر، ووافق الزملاء، لكننى فوجئت بثلاثة يصاحبوننى دون أن أطلب منهم ذلك ، وربما طلب إليهم أحد أن يذهبوا معى ليعرفوا على وجه الدقة ماذا سأقول لنجيب».

«كان الثلاثة: عباس رضوان وشمس بدران وعماد ثابت، وكان الأخير من الفرسان لكنه كان من دفعة عبدالحكيم عامر وكان صديقاً له».

«وعندما وصلنا إلى بيت نجيب أحسست أن وجود هؤلاء الثلاثة معى سوف يفسد النقاش، وقد يرفض نجيب الموافقة على هذه الاقتراحات، وقررت أن ألتقى بنجيب قبل أن يخرج إلينا، وطلبت أن أدخل إليه، كانت الساعة حوالى الرابعة فجراً، وكان فى غرفة نومه مع زوجته ، خرجت زوجته من غرفة النوم ، ودخلت أنا إليه».

«لم تستمر مقابلتى معه أكثر من ثلاث أو أربع دقائق، ولم أكن أعلم أن انفرادى بنجيب

بعيداً عن أعين الرقباء الثلاثة سوف يثير لدى الزملاء فى مجلس الثورة حساسية مفرطة، وأنه سوف يثير لديهم تساؤلات عن العبارات التى قلتها له على انفراد، وكيف ولماذا اقتنع بهذا السرعة، وهل ثمة اتفاق ما بيننا ؟ والحقيقة أن هذه الدقائق الثلاث لم تشهد أكثر من النقاش العادى المفترض فى ظرف كهذا، فعندما عرضت الأمر على نجيب حاول الاعتراض على عودته بلا سلطات ، فقلت له: أليس هذا أفضل من قبول استقالتك وإبعادك نهائياً، وقلت له إن الناس تريدك ، والمدرعات أثارت مشكلة بسببك فكيف ترفض؟».

«وأعلن نجيب موافقته. وخرجنا إلى الرقباء الثلاثة ليعلن نجيب الموافقة مصحوبة بشكاوى شخصية عديدة. ففى هذا الوقت القصير السابق لموافقته حاصروا بيته، ومنعوا الطباخ من الخروج لشراء حاجيات المنزل، و... إلى آخره من مثل هذه الشكاوى، لكننى قلت له: لا مبرر لهذه الشكاوى الآن، المهم أنك وافقت، ولنبدأ صفحة جديدة. وأسرعنا أنا والرقباء الثلاثة إلى مقر قيادة الجيش لأعلن للزملاء فى مجلس قيادة الثورة موافقة نجيب».

(١٩)

وننتقل الآن من انطباعات صاحب هذه المذكرات عن طبيعة العلاقات بين الثوار وبين الرئيسين محمد نجيب وجمال عبدالناصر لنتأمل ما يرويه خالد محيى الدين عن علاقته هو نفسه بالإخوان المسلمين، ونحن نرى صاحب هذه المذكرات لا يهادن الإخوان على طول الخط فى هذا الكتاب، وهو أيضا لا يهاجمهم على طول الخط، مع أنه ربما هادنهم فى مطلع الثورة، ولكن التعاون مع الإخوان المسلمين لم يكن فى ذلك الوقت وذلك الجو بمثابة الشيء أو التوجه الذى ينفر منه خالد محيى الدين، ومع هذا الموقف الذى لا جدال فيه فإنه فى هذا الكتاب كله لا يكاد يقترب منهم على الإطلاق بما قد يستأهلونه من تقارب ولو فكرى، بل هو حريص على أن ينبهنا تماماً إلى كل ما يظن هو أنهم قد اقترفوه فى حق الديمقراطية،وربما يكون هذا هو رأيه الآن، ولكنه ـ فى ذات الوقت ـ حريص على أن يبدو وكأنه يكاد يتشبث بهذا الرأى حتى منذ صباه، أإلى هذا الحد كان خالد محيى الدين واعياً بهذه المخاطر (؟؟) التى يحدثنا عنها اليوم؟

نرى خالد محيى الدين فى البداية يروى لنا كيف بدأت علاقته بالإخوان المسلمين عن طريق عبدالمنعم عبدالرءوف، وكيف ذهب إلى لقاء محمود لبيب هو وزميله عثمان فوزى:

«ذهبت فى لقائى الأول ومعى عثمان فوزى ، وبدأ محمود لبيب يتكلم فى تؤدة ويتطرق

إلى موضـوع الدين دون تعجل، كـان يعرف أن محركنـا الأساسى هو القـضية الوطنيـة فظل يتحدث عن هذا الموضوع ولكن بنكهة إسلامية، وكنت ألح فى استخراج إجابات محددة عن أسئلة شـغلت بـالى طـويلا، الوطـن وكيـف سنـحرره وبأيـة وسيـلة؟ وما هـو الموقـف من المفاوضـات؟ وكان يجيب هـو فى حذر وذكاء، لم يـكن يريد أن يخـسرنى بإلقـاء الإجابات التقليـدية للإخوان، كان يقول: مصـر سيحررها رجالها، وشباب القوات المسلحة هـم قوتها الضاربة.. وكلام من هذا القبيل».

«اشتم عثمان فوزى رائحة الإخوان من الحديث، وقال لـى ونحن عائدان من مقابلتنا: هذه جماعـة خطرة وضارة، لكننى كنت سعـيدا بالمقابـلة،وقلت إن الوطن بـحاجة إلى تضـحية، والاتجاه الإسلامى يمكنه أن يبث فى الشباب روح التضحية».

«صمم عثمان فوزى على موقفه، وانسحب ولم يحضر مرة أخرى، وواصلت أنا مقابلاتى مع محمود لبيب، وفى مرة تالية حضر اللقاء جمال عبدالناصر، فعبدالمنعم عبدالرءوف قابلنى بجمال، ثم قابل كل منا على انفراد بمحمود لبيب».

«وبدأت علاقـة من نوع غريب مـع جماعة الإخوان [هكـذا تصف المذكرات عـلاقة كان صاحبهـا بمثابة أحد طرفيهـا، وهو وصف غير معهود فـى حديث كهذا]، وتكونـت مـجموعة عسكرية تضم العديد من الضباط، ولم نعد نلـتقى فى أماكن عامة وإنما بدأنا نعقد اجتماعات منتظمة فى البيوت، فكنا نجتمع فى بيت مـجدى حسنين وأحيانا فى بيت الضابط أحمد مظهر (هو نـفسه الـفنان أحـمد مظـهر)، وفى هـذه اللـقاءات الإخوانـية كان يـحضر مـعنا جـمال عبدالناصر وكمال الدين حسين وحسين حمودة وحسين الشافعى وسعد توفيق وصلاح خليفة وعبداللطيف بغدادى وحسن إبراهيم. كانت عـلاقة الإخوان بهذه المجموعة من الضباط تتسم بالحساسية، ففاجأة وجـد الإخوان أنفسهم أمام أكثر من كنز من الضباط المـستعدين لعمل أى شىء من أجل الوطن».

«لكن هـؤلاء الضباط لـم يكونوا عـلى ذات الدرجة مـن الولاء للجـماعة، فمـثلا صلاح خليفة وحسين حمـودة كانا من الإخوان قلبا وقالبا، أما الآخرون فكانوا مـجرد عناصر تبحث عن طريق، لـسنا ضد الإخوان، بل نحن معهم، لكننا لـــنا معهم بالكامل، فعبدالناصر مثلا كان يعتقد أن الإخـوان يريدون استغلالنا كـضباط لنكون أداة فى أيديهـم ونعطيهم مكانـة سياسية بوجود نفـوذ لهم فى الجيش، لكـنهم لن يقدموا شـيئا للقضيـة الوطنية، وكان جمـال يلح فى الاجتماعات: إذا كان لديكم نصف مليون عضو وأربـعة آلاف شعبة، فلماذا لا نبدأ بعمليات ضرب ضد الاحتلال.. ومظاهرات وتحركات جماهيرية؟؟».

ومن الضرورى أن نتأمل ما يرويه لنا خالد محيى الدين عن حواره الأول مع محمود لبيب وحسن البنا، وأن نتأمل ما يحرص خالد محيى الدين على أن ينسبه إلى نفسه فى هذا الحوار وكأنه يسقط عقيدته الحالية واقتناعاته على تلك الفترة الباكرة مع أنه غير مطالب بهذا:

«... وبدأت ألح على محمود لبيب فى اجتماعاتنا: ما هو برنامج الجماعة؟ فيجيب: الشريعة، كنت أقول: كلنا مسلمون، وكلنا مؤمن بالشريعة لكن تحديداً ماذا سنفعل لتحرير الوطن، هل سنخوض كفاحاً مسلحاً أم نقبل بالتفاوض؟ وماذا سنقدم للشعب فى مختلف المجالات، فى التعليم والإسكان والزراعة وغيرها من القضايا الاجتماعية؟».

«وكان محمود لبيب يزوغ من الإجابة وأنا أطارده ، وانتهى الأمر بأن أحضر لنا الأستاذ حسن البنا المرشد العام للإخوان ، وللحقيقة كان حسن البنا يمتلك مقدرة فذة على الإقناع وعلى التسلل إلى نفوس مستمعيه ، وكان قوى الحجة، واسع الاطلاع، وفى اللقاء الأول معه بدأنا نحن بالحديث وطرحنا ـ أنا وعبدالناصر ـ آراءنا، وعندما تكلم البنا أفهمنا بهدوء وذكاء أن الجماعة تعاملنا معاملة خاصة ، ولا تطلب منا نفس الولاء الكامل الذى تتطلبه من العضو العادى».

«وقال حسن البنا: نحن الإخوان كبهو واسع الأرجاء يمكن لأى مسلم أن يدخله من أى مدخل لينهل منه ما يشاء، فالذى يريد التصوف يجد لدينا تصوفاً، ومَنْ يريد أن يتفقه فى دينه فنحن جاهزون، ومَنْ يريد رياضة وكشافة يجدهما لدينا، ومن يريد نضالاً وكفاحاً مسلحاً يجدهما، وأنتم أتيتم إلينا بهدف القضية الوطنية، فأهلاً وسهلاً».

«تناقشنا معه، وكان رحب الصدر، ألححت فى ضرورة إعلان برنامج، قلت: لن نستطيع أن نكسب الشعب بدون برنامج واضح يقدم حلولاً عملية لمشاكل الناس، وأجاب: لو وضعت برنامجاً لأرضيت البعض وأغضبت البعض، سأكسب ناساً وأخسر آخرين، وأنا لا أريد ذلك».

«وتكررت مقابلاتنا مع حسن البنا، وقد كان يمتلك حججاً كثيرة لكنها لم تكن كافية ولا مقنعة بالنسبة لأكثرنا، وظل عبدالناصر مستريباً فى أن الجماعة تريد أن تستخدمنا كمجموعة ضباط لتحقيق أهدافها الخاصة، وظللت أنا أوالى قراءة ما يزودنى به عثمان فوزى من كتب، وأزداد إلحاحاً فى مناقشاتى على ضرورة وضع برنامج للجماعة يحدد أهدافها الوطنية وموقفها من مطالب الفئات المختلفة، وبدأت فى هذه المناقشات أنحو منحى يسارياً، وأصبحت نشازاً فى مجموعة من المفترض أنها تابعة للإخوان المسلمين».

«وأخيراً حاول حسن البنا أن يشدنا إلى الجماعة برباط وثيق، وتقرر ضمى أنا وجمال عبدالناصر إلى الجهاز السرى للجماعة.. ربما لأننا الأكثر فعالية وتأثيراً فى المجموعة، ومن ثم فإن كسبنا بشكل نهائى يعنى كسب المجموعة بأكملها، وربما لأننا كنا نتحدث كثيراً عن الوطن والقضية الوطنية، ومن ثم فقد تصور حسن البنا أن ضمنا للجهاز السرى حيث التدريب على السلاح والعمل المسلح يمكنه أن يرضى اندفاعنا الوطنى، ويكفل ارتباطاً وثيقاً بالجماعة».

«المهم اتصل بنا صلاح خليفة، وأخذنا ـ أنا وجمال عبدالناصر ـ إلى بيت قديم فى حى الدرب الأحمر باتجاه السيدة زينب، وهناك قابلنا عبد الرحمن السندى المسئول الأول للجهاز السرى للإخوان فى ذلك الحين، وأدخلونا إلى غرفة مظلمة تماما واستمعنا إلى صوت أعتقد أنه صوت صالح عشماوى، ووضعنا يدنا على مصحف ومسدس، ورددنا خلف هذا الصوت يمين الطاعة للمرشد العام فى المنشط والمكره (الخير والشر)، وأعلنا بيعتنا التامة الكاملة والشاملة له على كتاب الله وسنة رسوله».

«وبرغم هذه الطقوس المفترض فيها أن تهز المشاعر، فإنها لم تترك إلا أثرا محدودا سواء فى نفس عبدالناصر أو نفسى».

«وعلى أية حال بدأنا بعدها عملنا فى الجهاز السرى، أخذونا للتدريب فى منطقة قريبة من حلوان، وطبعا كنا نحن ضباطا نفهم فى السلاح أكثر ممن يدربوننا، وكان عبدالناصر يبدو ممتعضا من ذلك، وبدأنا نستشعر حالة من الاغتراب عن الجماعة».

هكذا يبدو لنا خالد محيى الدين أو يصور لنا نفسه وكأنه هو وجمال عبدالناصر كانا مدعوين بشدة للانضمام إلى الإخوان وليسا كما حدث بالفعل ساعين إلى هذا الانضمام دعنا من أنهما قد انضما بالفعل، إنما نعنى فيما نناقشه فى هذه الجزئية بحديث خالد محيى الدين عن الفترة التى سبقت انضمامه، إذ أنه يصورها على النحو الذى رأيناه وبلورناه فى أنه دعى إلى هذا الانضمام بأكثر مما سعى إليه.

ويعود خالد محيى الدين فى موضع آخر إلى الحديث عن تطور علاقة مجموعته (التى كان منها جمال عبدالناصر نفسه) بالإخوان المسلمين وزعيمهم الشيخ حسن البنا وكيف نما فى داخلهم تحفظ واضح تجاه ممارسة هذه الجماعة للسياسة على نحو ما ينبئنا عنه التاريخ فيقول ما نصه:

«... وأعود مرة أخرى إلى علاقتنا بجماعة الإخوان، كانت الأحداث السياسية تتسارع، وكشفت جماعة الإخوان عن وجهها السياسى، وتصرفت كجماعة سياسية وتخلت عن دعاوى النقاء الدينى، ولما كانت بحاجة إلى صحيفة يومية وورق صحف فى ظل أزمة شديدة

فى الورق، تقاربت مع إسماعيل صدقى، وحصلت فى مقابل تقاربها هذا على ما أرادت من دعم، كذلك وقفت الجماعة ضد اللجنة الوطنية للطلبة والعمال، وحاولت أن تشكل جماعة أخرى بالتعاون مع إسماعيل صدقى، وبدأنا نحس أنهم مثل أى سياسيين آخرين يفضلون مصلحتهم ومصلحة جماعتهم على ما ينادون به من مبادئ، وعلى مصلحة الوطن».

«وتحادثت طويلاً مع جمال عبدالناصر حول علاقتنا بالجماعة، وأفضى جمال لى بمخاوفه من أن الجماعة تستخدمنا كضباط لمصالحها الذاتية وليس لمصلحة الوطن، وأفضيت له بمشاعرى واتفقنا أننا قد تورطنا أكثر مما يجب مع هذه الجماعة، وأنه يجب أن ننسحب منها، لكنه لا يمكن أن نقول إننا فى يوم كذا انسحبنا من الجماعة، فقد أصبحت الشكوك تملؤنا وأصبحنا على غير وفاق، وغير متحمسين، وبدأنا نتباعد أنا وجمال، وربما بدأت الجماعة هى أيضاً تستشعر أننا لا نمتلك الولاء الكافى فبدأت تتباعد عنا».

❑

ثم يتحدث خالد محيى الدين بفتور عن فتور هذه العلاقة فيقول:

«وتدريجياً يأتى عام ١٩٤٧ ليجد علاقتنا ـ جمال وأنا ـ وقد أصبحت باهتة تماماً مع جماعة الإخوان، ولكننى كنت لم أزل على علاقتى الحميمة بعثمان فوزى، وكان لم يزل يزودنى من حين لآخر بكتب لأقرأها، وباليقين كان عثمان فوزى قد أصبح عضواً فى جماعة ايسكرا».

(٢١)

وفيما بعد كثير من الفصول والفقرات يتهم خالد محيى الدين الإخوان بالوقوف ضد عمال كفر الدوار المعذبين،وذلك على الرغم مما نعرفه من أن الثورة هى التى حكمت على هؤلاء بالإعدام، ومن العجيب أن خالد محيى الدين ينعى على الإخوان موقفهم من حكم الثورة بإعدام خميس والبقرى، مع أنه يعترف فى الفقرة ذاتها بأن «حدتو» نفسها وهى الحركة الشيوعية وقفت من الإضراب العمالى وقفة مستريبة!! هكذا فإن المذكرات تتجنى عن عمد لتنسب إلى الساكت عن الحق دورا أكبر من دور القائم بالباطل:

«والحقيقة التى أود أن أسطرها هنا هى أن أحداً منا ـ نحن «أعضاء القيادة» ـ مؤيدين للإعدام أو معارضين له، لم يكن قد تعرف بعد على مبادئ العلاقات الاجتماعية، ولا على الحقوق العمالية فى الإضراب والاعتصام وما إلى ذلك، أما المحيطون بنا من أمثال السنهورى

وسليمان حافظ والبراوى فقد كانوا يتسمون بروح برجوازية محافظة، بل ومعادية لحقوق العمال. وجماعة الإخوان بدأت فى شن حملة عاتية ضد عمال كفر الدوار المضربين واتهمتهم بالخيانة. وحتى «حدتو» نظرت إلى الإضراب نظرة مستريبة، وربطت بين الإضراب وبين حافظ عفيفى عضو مجلس الإدارة المنتدب فى شركة كفر الدوار».

❑

وفى وسط هذا الكتاب يحرص خالد محيى الدين على أن يثبت لنا عن قصد شديد ما يصوره أو ما يقدمه على أنه موقف «الأخ سيد قطب» المعادى للحركة النقابية من أجل حكم الثورة، ويأتى هذا ضمن حديث خالد محيى الدين عن الشهور الحاسمة فى الفصل الخامس عشر من مذكراته، وهو يتحدث عن قرار منع انعقاد الحركة النقابية العمالية من أجل إنشاء اتحاد للعمال فيقول:

«... فإذا كانت الحركة النقابية تستعد لعقد مؤتمر لإعلان اتحادها العام، صدر قرار بعدم عقد المؤتمر، ومن ثم منع قيام اتحاد عام للعمال. وأذكر أن صاحب الاقتراح بمنع قيام اتحاد عام للعمال كان الأخ سيد قطب أحد قادة الإخوان، وكان يعمل فى ذلك الوقت مستشاراً لعبدالمنعم أمين الذى كان يشرف على وزارة الشئون الاجتماعية، وهى الوزارة التى كانت تتبعها فى ذلك الحين مصلحة العمل، وكانت حجة سيد قطب أن مثل هذا الاتحاد سيكون مناوئاً للثورة، وأن الشيوعيين سوف يسيطرون عليه».

❑

ولا يكتفى صاحب هذه المذكرات بتوجيه هذا الاتهام إلى سيد قطب، لكنه يضيف مردفا ما يعتبره بمثابة الحقيقة التى لا ينبغى تفويت ذكرها حتى وإن كانت خارجة عن نطاق المذكرات فيقول:

«وكذلك أسهم سيد قطب فى إعداد مشروع قانون جديد لعقد العمل الفردى، وقد تحمس عبدالمنعم أمين لهذا المشروع حماساً شديداً رغم أنه كان مجحفاً إجحافاً شديداً بحقوق العمال، فهو يحرّم الإضراب ويسمح بالفصل التعسفى، وعندما نقل إلىّ أحد الضباط نص هذا المشروع ذهبت إلى عبدالمنعم أمين فى وزارة الشئون، وتناقشنا طويلاً فى الموضوع وأصرّ كل منا على رأيه، وكان عبدالمنعم أمين يقرر صراحة أننا بحاجة إلى دكتاتورية صناعية طالما أننا قررنا إقامة دكتاتورية عسكرية».

هكذا تبلور مذكرات خالد محيى الدين ما لم يتبلور فى مذكرات أخرى عن حقيقة إسهامات عبدالمنعم أمين وفكره.

(٢٢)

أما علاقة خالد محيى الدين بالتنظيمات الماركسية أو اليسارية فتحظى من هذه المذكرات بوضوح أكبر، كما نجد هذا الحديث مترابطا ومنطقيا بأكثر من حديثه عن علاقته بالإخوان المسلمين، وربما يعود السبب فى هذا إلى خالد محيى الدين نفسه، وربما يعود إلى مَنْ تولى كتابة المذكرات، وربما يعود ـ وهو الأكثر قابلية للتصديق ـ إلى طبيعة حياة خالد محيى الدين نفسه ونشاطه فيما بعد، فقد ارتبط كما نعرف باليسار وانفصل عن الإخوان، وهكذا أصبح من المنطقى أن تكون روايته عمن ارتبط بهم متسقة، وأن تكون روايته عمن انفصل عنهم فاترة. وليس أدل على صحة هذا الذى أذهب إليه من أن عنوان الفصل الرابع من هذا الكتاب هو بالنص: «من الإخوان إلى إيسكرا»، وهكذا يفضل خالد محيى الدين أن يوحى لنا بأنه تحول من هذه الجبهة إلى تلك مع أنه كان فى وسعه أن يشير إلى أنه مضى فى خطين متوازيين.

وعلى كل الأحوال فلنقرأ التفصيلات التى يرويها عن انضمامه إلى هذا الجانب ثم انفصاله عنه:

«فى أوائل ١٩٤٧ ـ يناير أو فبراير لا أذكر تحديدا ـ التقيت بأحمد فؤاد، ولست أعتقد أن الأمر تم بالمصادفة، فقد كان أحمد فؤاد يبحث عنى، والحقيقة أننا كنا صديقين قدامى، فقد تزاملنا فى مدرسة الناصرية الابتدائية، وتلاقينا كثيرا فى نادى القاهرة النهرى، وكثيرا ما تشاركنا التجديف معا، وعندما رآنى قال دون مقدمات: هل تمانع فى أن نجلس سويا ـ كنت أعرف أنه وكيل نيابة، وأنه شيوعى ـ ولم أمانع فى مقابلته، وفى المقابلة حضر على الشلقانى المحامى وتحدثا مباشرة ودون لف أو دوران وعرضا علىّ الدخول فى منظمة «إيسكرا» الشيوعية. هذا الطلب المباشر أوحى إلىّ أن عثمان فوزى قد أعطاهما معلومات عنى، وأن هذه المعلومات قد منحتهما القدرة على المفاتحة المباشرة».

«ولم أمانع...».

«كنت لم أزل أبحث عن طريق لى يقودنى كى أضع نفسى فى خدمة مصر، كى أهبها ما أستطيع من أجل حريتها واستقلالها وتقدمها.. وتحدد لى موعد..».

«وبطبيعة الحال لست أذكر التفاصيل، لكننى حضرت اجتماعا لخلية شيوعية فى منزل فى حى السكاكينى أظن أنه فى شارع الشيخ قمر».

«.. مجموعة من الشباب ليس فيهم أى عسكريين، وفيما أذكر كان أحدهم موظفا فى شركة سكك حديد الدلتا، وكان المسئول واسمه «الصحن» شابا لم يستطع أن يكتسب لاثقتى

ولا رغبتى فى مواصلة الالتقاء معه،كانت الماركسية مشوشة فى رأسه بصورة غير عادية، ولاشك أنه كان حديث العهد بها، وأنها اختلطت فى ذهنه بأشياء عديدة منها الإلحاد مثلا، وأشياء من هذا القبيل».

(٢٣)

ولايخلو حديث خالد محيى الدين عن انتمائه إلى أحد التنظيمات اليسارية من توجيه بعض الانتقادات وبعض المديح إلى «إيسكرا» :

«ولعل «إيسكرا» لم تكن موفقة إذ نظمتنى وأنا ضابط فرسان فى خلية مسئولها باشكاتب فى سلاح الفرسان فى الشئون الإدارية، وهكذا تكاتفت أشياء عدة لتمنع مسيرتى مع «إيسكرا» من التواصل. والشىء الغريب أننى وبعد أن انقطعت عن «إيسكرا» عاود أحمد فؤاد الاتصال بى، فلما حكيت له عن تجربتى غير الموفقة مع «الصحن» قال: لقد تركنا سريعا ولم يبق معنا طويلا، وتلقيت واحدا من أهم دروس حياتى فى التعامل مع اليساريين، وهو أن التطرف الشديد والحماس المبالغ فيه والتشنج ليست دليلا على قدرة المناضل اليسارى على الاستمرار فى المعركة، بل لعلها إيحاء بالعكس، وكان «الصحن» نموذجا لهذا كله».

«لكن هذا التلامس المتعجل مع «إيسكرا» لم يمض بلا أثر، ففى الاجتماعات القليلة التى حضرتها مع «الخلية» تعلمت ـ ولأول مرة فى حياتى ـ ما يمكن تسميته القراءة المنهجية والمدققة، كنت أتسلم منهم أحد الكتب الماركسية ويُطلب منى قراءته قراءة متأنية ثم تلخيصه ثم عرضه ومناقشته فى الخلية، وهكذا تحول الفهم المتعجل للاشتراكية إلى فهم أكثر تدقيقا، أو ما يمكن تسميته بالإدراك الواعى للاشتراكية، وقد أثر فىّ هذا الأسلوب فى الدراسة تأثيرا كبيرا، ومن خلاله انطلقت إلى فهم رحب للاشتراكية، ولم أزل ـ وحتى الآن ـ أذكر سعادتى وأنا أستشعر استيعابى الواعى لأول كتاب تسلمته خلال عضويتى من الخلية وهو «الاشتراكية.. أين ولماذا وكيف».. وكيف قمت بحوارات ممتعة حول هذا الكتاب وغيره فى اجتماعات الخلية».

ويعود خالد محيى الدين إلى التأكيد على هذا المعنى الذى سبقت له الإشارة إليه:

«قلت.. تكاتفت أشياء عدة لتمنع مسيرتى مع «إيسكرا» من الاستمرار، فبعد ثلاثة أو أربعة أشهر من العلاقة غير الموفقة، وبينما كنت أستشعر التردد إزاء استمرارها، فوجئت بقرار نقلى إلى سلاح الحدود، وأبلغت أحمد فؤاد وسألنى متى يمكنك أن تعود؟ قلت: بعد حوالى

خمس سنوات، وهنا أخذ أحمد فؤاد فى الإلحاح بضرورة أن أجد طريقة لعودتى عاجلا من الحدود».

«كان أحمد فؤاد متفائلا، أو لعله كان منبهرا بالتقدم المتسارع الذى كانت تحققه الحركة الشيوعية فى ذلك الحين، والذى وصفه لى خلال إلحاحه علىّ بضرورة السعى لإلغاء النقل قائلا: نحن ننمو ونتوسع بمتواليات هندسية، ولن تمضى عدة سنوات حتى نكون قريبين من الاستيلاء على السلطة، ومن ثم فهناك ضرورة ملحة لأن تكون هنا».

«وطبعا كانت عملية نقلى لسلاح الحدود أحد العوامل التى أدت إلى تباعدى بهدوء عن اجتماعات الخلية، ومن ثم تباعدى عن منظمة «إيسكرا» نفس التباعد الهادئ والممتد إلى أمد، أى غير المباغت الذى لحق بى أو لحقت به بعد انضمامى إلى الجهاز السرى لجماعة الإخوان».

❑

ويمضى خالد محيى الدين فى تعداد أسباب تباعده عن تنظيم " إيسكرا" اليسارى ، ونراه متأثرا بنفس روح حديثه عن الاخوان فهو يسقط مواقفه الحالية على ذكرياته القديمة دون أن يكون مطالبا بهذا ، ودون أن يكون متهما!!

«ولم تكن هذه هى كل أسباب التباعد، كان هناك أيضا قرار تقسيم فلسطين، وموافقة الشيوعيين عليه، وكنت ضد قرار التقسيم وكنت أعتقد أن فيه اعتداء على حقوق الشعب الفلسطينى، ولست أذكر أننى كنت أرفض قبول الشيوعيين للقرار، لكننى كنت أستشعر الظلم الواقع على الفلسطينيين، وضرورة تقديم العون والمساعدة لهم، ومن ثم فقد كنت ضمن التيار العام الذى ساد الوطن والجيش معا بضرورة التدخل المسلح لمساندة الفلسطينيين، ولعلى فى ذلك الحين لم أناقش أو أتعمق فى فهم ما إذا كان الجيش المصرى مستعدا لمثل هذه الحرب أم لا، بل اكتفيت كغيرى بالتعبير عن مشاعر التضامن مع الفلسطينيين وضرورة التدخل لمساندتهم».

«وهكذا أضيف سببا جديدا لينسج مساحة التباعد بينى وبين «إيسكرا».

(٢٤)

ويتطرق خالد محيى الدين فى هذه المذكرات إلى محاولة للايحاء بإجابة عن السؤال المتوقع من قراء المذكرات عن مدى مشاركة جمال عبدالناصر فى الانضمام إلى الحركة الشيوعية:

«ولعل هذه العوامل التى أسرعت ودون تأن لتلاحق علاقتى بالشيوعيين هى التى دفعتنى إلى عدم مفاتحة زميل البحث الدائب عن طريق لنا ولمصر.. جمال عبدالناصر، فى مشاركتى فى الانضمام لإيسكرا، ربما لهذا السبب، وربما لأننى كنت أعتقد أنه لن يقبل الانضمام لمثل هذه الحركة. المهم أننى لم أفاتحه، والحقيقة أننى كنت قد عدت للاتصال بعبدالناصر بعد فترة انقطاع ليست طويلة، وكانت المناسبة أننا دُعينا كضباط لحضور مباراة فى الملاكمة بين الجيش المصرى والجيش البريطانى فى قشلاق قصر النيل، وهناك التقيت بعبدالناصر، وطلب إلىّ أن أزوره دون انتظار لاتصال من عبدالمنعم عبدالرءوف أو غيره، وبالفعل بدأت أزوره من حين لآخر لنتداول فى ذات الموضوع الذى يلاحقنا جميعا: ماذا يجب أن نفعل.. وكيف.. ومتى.. ومع من؟».

(٢٥)

على أن انتماء عبد الناصر إلى التنظيمات اليسارية والإخوان ليس بالانتماء الوحيد الذى ناقشته هذه المذكرات بل إن خالد محيى الدين كان شجاعا بما فيه الكفاية لتناول علاقه الرئيس عبد الناصر بالحرس الحديدى .

وتتضمن هذه المذكرات فقرة فى غاية الخطورة لأنها توحى لنا فى وضوح بأن الرئيس عبدالناصر نفسه [بل وعبدالمنعم عبدالرءوف «الإخوانى»] كانا على علاقة قوية بالقصر الملكى أو يوسف رشاد وما عرف على أنه «الحرس الحديدى»:

«... وأصبحت العلاقة مع جمال متصلة، ولما علم بنقلى إلى سلاح الحدود، فوجئت به يزورنى هو وعبدالمنعم عبدالرءوف، وفاجأنى مفاجأة لم تزل تحيرنى حتى الآن».

«قال جمال وعبدالمنعم عبدالرءوف إنهما يستطيعان تدبير عملية إلغاء نقلى لسلاح الحدود وإعادتى إلى الفرسان وبأسرع ما يمكن».

«وعندما أبديت دهشتى قالا إن النقل سيُلغى بواسطة القصر الملكى، وتحديدا بواسطة يوسف رشاد. وقد كان يوسف رشاد هو يد الملك التى يحركها وسط ضباط الجيش».

«وأبديت المزيد من الدهشة وشرح لى جمال الأمر بهدوئه المعتاد، وقال: لقد تلقيت رسالة من يوسف رشاد يقول فيها إنه على استعداد للتعامل معنا. وفهمت أن الرسالة جاءت عن طريق عبدالمنعم عبدالرءوف. وبهذه المناسبة أقرر أن عبدالناصر لم يلتق أبدا بيوسف رشاد. وإن كان قد تعامل معه عن طريق آخرين منهم عبدالمنعم والسادات ومصطفى كمال صدقى».

«وواصل جمال حديثه قائلا: لم أبد اعتراضا وقلت إننا على استعداد للتعامل أيضا، فقال يوسف رشاد: بإمكانكم أن ترشحوا لنا ضباطا يمكن الاعتماد عليهم لنقلهم إلى أماكن مهمة، فقد نحتاج إليهم فى المستقبل، وقال جمال: وبما أنك منقول إلى الحدود فقد قدمنا اسمك بأمل أن يعيدوك إلى الفرسان لتكون معنا هنا، ونحن بهذا لن نخسر شيئا، فأنت كنت مبعدا فعلا، فإن رجعت كان خيرا، وإن لم ترجع فأنت فعلا مبعد إلى الحدود».

❑

ويردف خالد محيى الدين فى الحديث عن هذه الجزئية راويا تفصيلات أكثر وتساؤلات أعمق:

«وقد ناقشت الأمر طويلا مع جمال وعبدالرءوف ولم أصدق أن بالإمكان نقلى من الحدود، وتصورت أن الأمر مجرد خدعة للتعرف على اسم ضابط أو أكثر من الضباط الوطنيين».

«ولم تزل هذه الواقعة تحيرنى حتى الآن.. وتحيرنى معها ظاهرة عبدالمنعم عبدالرءوف، فقد كان وثيق الصلة بالإخوان، ووثيق الصلة بعبدالناصر حتى بعد أن تركنا معا جماعة الإخوان، ووثيق الصلة بعزيز المصرى، ثم هو همزة الوصل مع القصر الملكى وتحديدا مع يوسف رشاد».

«ولكن وحتى لا أكون متجنيا، فإننى ومع اعتقادى بأن عبدالرءوف هو الذى نقل الرسائل بين عبدالناصر ويوسف رشاد، فإن هناك احتمالا أن يكون صاحب العلاقة المباشرة مع يوسف رشاد هو الضابط مصطفى كمال صدقى الذى كان يؤسس فى ذلك الحين مجموعة «الحرس الحديدى» التى كانت على علاقة وثيقة بيوسف رشاد».

(٢٦)

وينتقل خالد محيى الدين من هذه الجزئية إلى حديث آخر يروى فيه بقية التفصيلات التى تؤكد مدى النفوذ الذى تحقق لمجموعتهم من خلال اتصالهم بالقصر الملكى أو بالحرس الحديدى :

«.. المهم هو أن المعجزة قد تحققت، وعلى غير المألوف وغير المتوقع لم أبق فى سلاح الحدود سوى شهرين أو ثلاثة، وتقرر نقلى من جديد إلى الفرسان. وكان الضابط الذى حضر للتسلم منى فى الحدود قبل العودة للفرسان هو لطفى واكد، وبقينا سويا لمدة أسبوع للتسلم،

وطرحت عليه ما يمر برأسي من أفكار، ففوجئت به يقول إنه مسلم اشتراكي فأعجبني الكلام، وبعد أن بدأنا تأسيس «الضباط الأحرار» علمت من عبدالناصر أنه عضو معنا. وقد لعب لطفي واكد دورا هاما في الثورة، وتشاء الصدف أننا أسسنا سويا حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي عام ١٩٧٦».

«وعدت من الحدود مندهشا لألتقي بعبدالناصر الذي طلب مني أن أكف عن أي نشاط سياسي، أو أية اتصالات غير عادية بالضباط لفترة طويلة، وقال: لقد عرفوا اسمك ولابد أنهم سيراقبونك ويتتبعون حركاتك لأننا نحن الذين رشحناك، وإن كنا قلنا لهم ونحن نقدم لهم اسمك إنك مجرد ضابط «جدع» ويمكن الاعتماد عليك».

«وأذكر أنني - وبعد فترة - كنت عائدا من مهمة في الصعيد بالقطار مع أحد الضباط ذوي العلاقة بالقصر الملكي، وهو الملازم سيد جاد، وخلال الرحلة أفرط هذا الضابط في شرب الخمر حتى سكر بعض الشيء وقال لي إن يوسف رشاد يعتقد أنك ضابط يساري، لكنه لا يملك شيئا ضدك».

(٢٧)

ويمزج خالد محيي الدين حديثه عن عودته من سلاح الحدود على يد جمال عبدالناصر وبواسطة الحرس الحديدي بحديث مليء بالامتنان لزوجته التي ساعدته وشجعته طيلة مسيرته الوطنية:

«المهم عدت من الحدود، وإلى الإسكندرية توجهت إلى بيت خالتي لأخطب «سميرة» ابنتها، وبعد قليل تزوجنا، وكان هذا الزواج واحدا من أهم العوامل التي دفعتني لمواصلة طريقي نحو الهدف الذي أنشده، أن أقدم شيئا لوطني. فقد كانت زوجتي مصرية ومخلصة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، لم تكن تقف في طريقي على الإطلاق، وكانت تعتبر أن محبتها لي وإخلاصها كزوجة يحتمان عليها ألا تعرقل مسيرتي نحو هدفي الذي رسمته لنفسي لأكون دوما في خدمة الوطن، وكم مرت عليّ وعليها لحظات صعبة، وفترات مليئة بالخطر، ومع ذلك لم تشعرني في أي لحظة بأنها غير راضية عما أفعل، أو حتى خائفة مما أفعل».

«إنه توفيق من الله ليهيئ لي مسيرتي نحو هدفي».

«وبعد عودتي من الحدود كانت الأمور قد بدأت في التبلور.. في ذهني على الأقل».

(٢٨)

ونأتى الآن إلى حديث هذه المذكرات عن بعض زملاء كفاح صاحبها فى سلاح الفرسان وفى الثورة، فنبدأ بأن نشير أن فى ثنايا هذه المذكرات يعطى خالد محيى الدين لحسين الشافعى دوراً كبيراً جداً فى نجاح الثورة ليلة قيامها، وهكذا فعل ثروت عكاشة من قبل فى مذكراته، وفى كثير من المواضع لا يجد خالد محيى الدين أى غضاضة فى أن يشير بوضوح بكل اعتزاز إلى دور حسين الشافعى وفضله، ولا يكاد خالد محيى الدين ينتقد حسين الشافعى.. ولكنه فى المقابل يقف من ثروت عكاشة موقفاً مختلفاً، فهو يبدأ بالثناء الجميل على ثروت عكاشة ومواقفه ، ثم نجده ينتقده ، ثم نفاجأ به وهو يستنكر منه بعض المواقف.. وقد كنت منذ مرحلة مبكرة من الحريصين على الوصول إلى طبيعة وحقيقة أدوار هؤلاء الثلاثة ليلة الثورة وقبلها وبعدها، لأنهم كانوا يمثلون واحداً من أهم الأسلحة تأثيرا وقوة فى ذلك الوقت، وهو سلاح الفرسان بما كان يتوقع أن يكون له من تأثير فى مجريات الأحداث.

وسأنقل للقارئ من العبارات التى حفلت بتقدير خالد محيى الدين لكل من حسين الشافعى وثروت عكاشة قوله [فى صفحة ١٣٦] وهو يتحدث عن دورهما فى ليلة الثورة:

«... كذلك حسين الشافعى وثروت عكاشة كان كل منهما ثابتاً دون أى اهتزاز، وتحركا ببساطة وكأن الأمر عادى. وأذكر لحسين الشافعى ـ وكان أعلى رتبة منا جميعاً فى الفرسان ـ أنه كان أحد أهم عوامل نجاحنا.. باحترام الضباط له ومقدرته القيادية الفائقة، وأذكر كيف كان راسخ اليقين والوجدان، هادئاً تماماً، قادراً على أن يصدر القرار الحازم فى هدوء وثبات. وفى الساعات الأخيرة من عملية الاستعداد الختامى ذهبت لحسين الشافعى لأبلغه بأن كتيبتى ليس بها ذخيرة كافية، فقد كانت تحت الإنشاء ، ولم يكن مع كل عسكرى سوى خمسين طلقة. ووعدنى حسين الشافعى بأن تصلنى ذخيرة كافية قبل تحرك قواتى، وقد أنجز وعده».

ولكن من العجيب ـ ولا تخلو المذكرات من العجائب ـ أن يقع صاحب هذه المذكرات فى تناقض ظاهر الوضوح، فبينما يذكر خالد محيى الدين فى صفحة ١٣٦ أن ثروت عكاشة هو الذى اعتقل اللواء حشمت، فإنه هو نفسه فى صفحة ٣٣٦ من المذكرات التى نتدارسها ينسب هذا العمل المجيد إلى حسين الشافعى.

وها هو يقول فى صفحة ١٣٦:

«والتفت جمال ليسألنى أين سأكون فى المساء وقبل ساعة الصفر، قلت: سأذهب أنا وحسين الشافعى إلى بيت ثروت ، قال: قد أمرّ عليكم.. وأضاف: ثروت عاطفى خلّيه يخلّى

باله، ربما كان جمال يلمح إلى تكرار ثروت لمخاوفه من تدخل الإنجليز، لكن الحقيقة أن ثروت كان رجلاً شجاعاً، وكانت مخاوفه مبنية على حقائق واقعية، ولكن عندما قررنا التحرك نسى كل مخاوفه، وكان حاسماً وتصرف بشجاعة تستحق الإعجاب، وعندما أتى اللواء حشمت إلى القشلاق قبل تحركنا أصبح كل شيء مهدداً لولا أن ثروت اندفع نحوه حاملاً مدفعاً رشاشاً وألقى القبض عليه. إنها ليست مسألة سهلة أن يقوم ضابط برتبة صاغ داخل القشلاق بالقبض على لواء».

لكن خالد محيى الدين نفسه ـ كما أشرنا ـ يناقض هذه الرواية بعدها بمائتى صفحة بالضبط وفى صفحة ٣٣٦ وبينما هو يتحدث عن جهد حسين الشافعي يقول:

«وفوق هذا فهو رجل حاسم حازم أحس أن حسن حشمت قد يخيف البعض ويمنع تحركهم فاعتقله وهذه شجاعة لاشك فيها».

ويؤكد خالد محيى الدين هذا المعنى فى صفحة ١٤٨ وفى غيرها من الصفحات، وربما أكون مخطئاً فى فهم عبارات خالد محيى الدين حول هذه الواقعة، ولكن الأرجح أن نوعا من الخلط Confusion قد حدث فيما يتعلق برواية حقيقة هذه الواقعة!!

(٢٩)

ويروى خالد محيى الدين فى صفحة ١٧٤ ما يعتقد أو ما يصوره على أنه القصة الحقيقية لتحويل «لجنة القيادة» إلى مجلس لقيادة الثورة، وربما كان النص الذى أورده خالد محيى الدين حول هذا التشكيل من أهم النصوص الكاشفة لحقيقة الأمور فى هذه الجزئية، وها هو يقول:

«ثم عقدنا جلسة مغلقة حضرناها نحن التسعة أعضاء «لجنة القيادة»، وطرح جمال فكرة ضم بعض الضباط إلى اللجنة، كان هناك محمد نجيب ووجوده معنا ضرورى».

«واقترح جمال ضم يوسف صديق، فهو الذى لعب دوراً هاماً ليلة الثورة، وأبدى شجاعة فائقة (وأود هنا أن أقرر أن يوسف صديق قد ضم إلى مجلس القيادة بسبب دوره الشخصى، وليس لأسباب سياسية أو بسبب كونه شيوعياً، بل لعل «جمال» لم يكن يعرف حتى ذلك الحين أن يوسف صديق شيوعى)، وكان جمال يقول: مش معقول الراجل عمل هذا العمل المجيد وكل يوم يشوفنا ندخل غرفة ونقفل علينا.. ولا ندعوه».

«وكان هناك أيضاً زكريا محيى الدين، وقد لعب دوراً هاماً هو الآخر».

«وهناك أيضاً حسين الشافعى، فقد كان صاحب دور هام فى تحريك سلاح الفرسان، وكان وجوده خارج القيادة يسبب حرجاً شديداً لى سواء من الناحية الشخصية أو على المستوى العسكرى، ذلك أنه كان أعلى رتبة منى».

«وكان هناك أيضاً عبدالمنعم أمين، وثروت عكاشة بدوره البارز فى التنظيم منذ قيامه، وآخرون كانوا يتطلعون إلى مقعد القيادة بسبب ما أدوه من دور ليلة الثورة، ولم يكن واضحاً فى ذهن الكثيرين أن ثمة «قيادة» قديمة قامت بتشكيل التنظيم والتخطيط للحركة، كانوا ينظرون إلي أدوار البعض ليلة الثورة وحسب».

«ومن هؤلاء الذين لعبوا دوراً بارزاً ليلة الثورة: إبراهيم الطحاوى ومجدى حسنين وآخرون غيرهما، ومن ثم طرحت أسماؤهم أيضاً، وبلغ بنا الحرج مبلغه، فنحن زملاء وأصدقاء، كذلك كان هناك الكثيرون الذين قاموا بدور شجاع ليلة الثورة ولا يمكن ضمهم جميعاً. وكان وضع ثروت عكاشة يشكل حرجاً بالغاً لنا، ولى شخصياً، فقد شاركنا منذ الأيام الأولى وأسهم فى بناء التنظيم بحماس وفعالية، ولعب دوراً بارزاً ليلة الثورة، وقال جمال: أنا سأعالج الأمر معه، وبالفعل ناقشه جمال بطريقة ملتوية مؤكدا أنه يستحق أن يكون فى القيادة، وأنه واثق من إخلاصه للثورة، وأن هذا الإخلاص يدفعه بالطبع إلى عدم التمسك بالمناصب، وهكذا ظل جمال يحاوره حتى انتزع منه كلمة «اعتذار» عن عدم قبول موقع فى القيادة، واكتفى جمال بالكلمة وتمسك بها، بينما ندم عليها ثروت فيما بعد».

(٣٠)

ويتحدث خالد محيى الدين بتعالٍ أو ترفع أو فى تعالٍ مترفع عن إبعاد ثروت عكاشة عن مصر مرجعا السبب فى ذلك إلى خلاف نشب بين ثروت وبين زملائه حول دوره ليلة قيام الثورة.

ومن الجدير بالذكر أن رواية خالد محيى الدين فى هذه المذكرات تصور الخلاف على أنه حدث نتيجة تقليل دور حسين الشافعى وصلاح سالم، وليس نتيجة تقليل دور أنور السادات على نحو ما تحرص روايات أخرى أن تصور الأمر:

«واستمر الأمر كذلك حتى ٢٣ يوليو ١٩٥٣ عندما كتب ثروت مقالاً عن دوره فى الثورة، وفيما يبدو أنه تحدث عن دوره كثيراً، وقلل من دور حسين الشافعى وصلاح سالم، وحدثت مشكلة، إلى درجة أن البعض قرر مصادرة العدد، وانتهى الأمر بأن أرسل المقال محل

الخلاف إلى عبدالحكيم عامر الذى قرأه وقال إنه ليس فيه شيء يستحق المنع. وصدرت المجلة لتثير الكثير من الجدل والحساسيات، وأصدر وزير الإرشاد بياناً أعلن فيه أن «مجلة التحرير» لم تعد تعبر عن القوات المسلحة، ثم اجتمع مجلس الثورة ليقرر إخضاع المجلة كلية للرقابة، وبعدها تقرر إبعاد ثروت عن المجلة، وعندما عرف بالخبر اصطحبنى إلى دار الهلال حيث كانت تطبع المجلة، وأمرنا ـ نحن الاثنان ـ بتكسير كل الصفحات التى تم جمعها من المجلة، وأحدث ذلك مشكلة أخرى، وغضب الزملاء فى «مجلس القيادة» من تضامنى مع ثروت ومساندتى له».

ويجيد خالد محيى الدين تصوير هذا العنت الذى لقيه ثروت عكاشة على يد زملائه:

«وانتهت المسألة بأن أرسل ثروت ليعمل ملحقاً عسكرياً فى برن، ولكن ورغبة من بعض الإخوة فى القيادة فى الانتقام منه أرسل إلى هناك ملحق جوى ـ هو عمر الجمال ـ وكان أرقى رتبة من ثروت، وبهذا فقد ثروت كل دور هناك، وظل يلح حتى نقل ملحقاً عسكرياً فى باريس، وهناك انغمس فى مناخ الحياة الثقافية وأعد رسالة الدكتوراه».

❑

أما فى صفحة ٣٤١ فإنه يتحدث عن ثروت عكاشة بطريقة يبدو فيها وكأنه مندهش من قبول ثروت جفاء الثورة فى معاملته وكأنه يستنكر على ثروت عكاشة أن يكون متقبلا لهذا النمط من تعامل زملائه:

«وفى باريس كان هناك ثروت عكاشة، وكان وقتها ملحقاً عسكرياً، كان لم يزل غاضباً على عبدالناصر وعلى الزملاء، متألماً من الطريقة التى عاملوه بها (لكنه بعد فترة نسى ذلك كله..) استقبلنى ثروت بترحاب يليق بصداقتنا طويلة الأمد واستضافنى فى بيته، تحدثنا فى حرية، ولكن بقدر من التحفظ».

(٣١)

لابد لنا فى مدارستنا لهذه المذكرات أن نذكر بالتقدير لخالد محيى الدين موقفه النبيل من زميله حسن عزت صديق السادات الشهير، هذا الثائر الرائد الذى لم يجد دوره حظه من التقييم والتكريم حتى الآن، وقد طمس دوره فى الحركة الوطنية واستمر هذا الطمس، سواء فى عهد عبدالناصر أو عهد السادات، مع أنه كان قد اعتقل مع السادات فى ١٩٤٢، وبينما رحل السادات إلى ميس المدفعية بقى حسن عزت فى ميس الفرسان بألماظة تحت التحفظ

حيث التقى بـه خالد محيى الدين وبدأ يتشرب مـنه الوطنية، وكلمات خالد مـحيى الدين فى حق حسن عزت لابد أن يقرأها كل إنسان ليعرف مـدى تقدير خالد محيى الدين لهذا الرجل العظيم، وها هو يقول:

«... جلست طويلاً فى إعجـاب وشغف إلى هذا الضابط المعتقل والمتقـد حماساً ووطنية، كان يتحـدث عن مصر بمحبـة دافقة تثير الحـمية فى أى إنسان، كـان يحكى عن مصـر كوطن عظيم وبإمكانه أن يكون قوة عظمى، ويتحدث عن إنجازات محمد على فى الصناعة والزراعة والتعليم، ويؤكد أن مصر يمكنها أن تنهض لتضارع كل الدول المتقدمة، وكان يلح على واجبنا كشباب وكضباط فى فعل شيء من أجل مصر، وأن التـاريخ سوف يحاسبنا يوما.. ماذا فعلتم من أجل وطـنكم؟ كانـت كلماتـه ملتهبـة ومؤثرة وصادقـة، وكنت أجلـس إليه لألتـهم هذه الكلمات التى هزتـنى بصورة حادة، ومعه اقتنعت بضرورة أن أعمل مـن موقعى كضابط فى عمل سـياسى من أجـل مصر، ومن أجل تحـريرها من سـيطرة الاستعـمار، ولقد كـان تأثرى بكلمات حسن عزت الدافقة الوطنية كبيراً إلى درجـة أننى رتبت معه وسيلة لتهريبه من الميس فى حالة استدعائه للمحاكمة، ولما كان باب الغرفة المتحفظ عليه فيها فى ميس الفرسان يغلق عليه من الخارج، فقد قمـنا بفك أكرة الباب بحيث يمكنه فتح البـاب من الداخل، كذلك كنت أتعاطف معه أنا وعدد من الضباط إلى درجة أننا كنا نصطحبه إلى خارج القشلاق لنسـهر سوياً ونعود مساء، وأشهد أنه لم يخدعنا ولـم يحاول الهرب منا».

❑

ويكرر خالد محـيى الدين حديثه عن تأثره المبكر بوطنية حسن عزت وإخـلاصه العميق لوطنه فيقول:

«ومرة أخرى أكرر أن تـأثرى بحسن عزت كـان حقيقياً.. فإلـيه أرجع الفضل فـى إقناعى بضرورة الاشتغال بالسياسة دفاعاً عن مصالح الـوطن، ولهذا فعندما طلب منى بعد الثورة أن أكتب مقدمة لـكتابه قبلت بترحاب، وقـلت فى كلمتى صراحة: «إن حسـن عزت أستاذى فى الوطنية»، وقد أغضبت هذه العبارة جمال عبدالناصر غضباً شديداً.. وقال لى: كيف تقول عن حسن عـزت إنه أستاذك فـى الوطنيـة ، وهو مشكـوك فى مواقفـه منا، فقـلت له: هذه مـسألة أخـرى ، قد نختلف معه الآن، وقد يختلف مـعنا، وعدت لأقول: أنا أقرر حقيقة وأنا لا أنسى فضلـه علىَّ رغم اخـتلافنا مـعه الآن، وإذ أذكر حسن عـزت ولقاءاتى بـه فى ميس الـفرسان، تتهادى ذكريات أخرى، فـذات مرة طلب منى أن أنقل رسالة إلى ضابط آخر هـو عبداللطيف البغدادى، والتقـينا معاً أكثر من مرة فى مناقـشات تلمست المـسألة الوطنيـة ودورنا فيها، وعن طريق البغدادى تعـرفت بوجيه أباظة وانتظمت لقاءاتنـا فيما يشبه محاولة للتجـمع.. لكنها ما لبثت أن توقفت بعد إبعاد حسن عزت من القوات المسلحة».

ونأتى إلى حديث خالد محيى الدين عن محمد نجيب ولعل من أهم ما فى هذا الكتاب بلامبالغة ذلك الضوء القوى الذى ألقاه خالد محيى الدين على موقف محمد نجيب قبل وقبيل الثورة، والذى حاول كثيرون تشويهه بمن فيهم مَنْ اطلعوا على حقيقة هذا الدور العظيم وحيويته وفضله فى قيام الثورة نفسها، وها هو خالد محيى الدين يروى الحقائق فيقول:

«ويمضى يوم ١٩ يوليو ونحن نحسب كل حساباتنا على أوائل شهر أغسطس، ولكن حدثت واقعتان غيرتا من مجريات الأمور، وقررنا البدء فوراً فى التنفيذ.. كان محمد نجيب قد استدعى لمقابلة الوزير محمد هاشم (وهو صهر حسين سرى رئيس الوزراء)، وفى هذه المقابلة سأل هاشم عن أسباب تذمر الضباط وموقفهم العدائى من النظام، وتحدث نجيب عن الحكم غير الديمقراطى وغير المعبر عن إرادة الشعب، وعن الخضوع لإرادة الاحتلال، وخلال الحديث فاجأه هاشم بسؤال لم يكن يتوقعه: هل يكون تعيينك وزيراً للحربية كافياً لإزالة أسباب التذمر وخلق حالة من الرضاء لدى الضباط؟».

«فوجئ نجيب بالسؤال ولكنه وبلا تردد رفض المنصب، وقال إنه يفضل أن يبقى فى موقعه بالجيش، وأنه سبق أن عُرض عليه منصب وكيل وزارة الحربية ورفضه».

«والحقيقة أن «نجيب» قد أدرك بوعى أن الهدف هو استقطابه بعيداً عن حركة الضباط الشبان، بهدف إجهاض هذه الحركة، وبينما استمر النقاش بين الوزير محمد هاشم واللواء محمد نجيب، أفلت هاشم عبارة بحيث تبدو وكأنها زلة لسان أو آتية عن غير قصد، فقال: إن السراى لديها قائمة بأسماء ١٢ ضابطاً هم المسئولون عن تحريك وقيادة «الضباط الأحرار»، لم يبد نجيب اهتماماً بالأمر، وقال إن موجة التذمر عامة، وإن الكثيرين متذمرون بحيث لا يمكن حصرهم، لكن «نجيب» لم ينم طوال الليل، وكان يتعجل عودة النهار ليبلغنا بهذا الخبر».

«وفى الصباح كان جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر يطرقان باب بيت نجيب، ولكن ليجدا هناك اثنين من الصحفيين من أخبار اليوم.. هما محمد حسنين هيكل رئيس تحرير آخر ساعة، وجلال ندا. أما كيف أمسكت أخبار اليوم بخيط محمد نجيب، فقد عرفنا فيما بعد أن مصطفى أمين كان جالساً مع محمد هاشم أثناء مكالمته التليفونية مع نجيب ليدعوه إلى مقابلته، فتوقع بحسه الصحفى أن يكون نجيب مفتاحاً لبعض الأخبار، فأرسل له «هيكل» الذى اصطحب معه جلال ندا، وكان ضابطاً بالجيش وأصيب وخرج من الخدمة وعمل كصحفى فى أخبار اليوم».

«فوجئ هيكل بوافدين جديدن، وتحركت شهيته الصحفية ليطلب إلى نجيب أن يقدم إليه زائريه، لكن «نجيب» كان منشغلاً بشيء واحد.. أن يبلغ «جمال» قصة قائمة الضباط الإثنى عشر، وانفرد نجيب بجمال ليهمس فى أذنه بالخبر الصاعق».

«وقبل أن أستطرد أود أن أسجل أننا بعد الثورة حاولنا كثيراً البحث عن قائمة الإثنى عشر ضابطاً فلم نجدها، وقيل إنها كانت مسجلة فى مفكرة صغيرة لدى حسين فريد، وقيلت أشياء أخرى، لكننا على أية حال لم نعثر على القائمة، ولم نعرف على وجه اليقين إن كانت هذه القصة حقيقية أم كانت غير صحيحة،، وأن هاشم قد أوردها لتخويف نجيب والضباط، لكن الشيء المؤكد أن هذه الرواية قد حفزتنا إلى شيئين غيرا مسار الحركة ومسار مصر كلها، ففور سماع هذا الخبر دُعيت «لجنة القيادة» إلى اجتماع لتقرير التحرك الفورى. كما تقرر أن العملية التى ستقوم بها هى عملية «انقلاب»، أى استيلاء على السلطة، وليس مجرد سيطرة على المنطقة العسكرية لإملاء مطالبنا، وعقد الاجتماع يوم ٢٠ يوليو».

(٣٣)

وحين يحدثنا خالد محيى الدين عن بعض المواقف السياسية الحاسمة سواء أثناء المناقشات أو المفاوضات أو التداول فى الرأى، فإنه يتعمد إمساك العصا من الوسط وكأنه حريص على ألا يخطئ.. وهو فى هذا يبرز وجه السياسى فى شخصيته، ويؤخر دور الثائر.

ولست فى حاجة إلى أن أمضى مع القارئ لأشير إلى فقرات مهمة تحفل بهذا الخلق أو تعبر عنه، ولكنى سأكتفى بفقرة واحدة يتحدث فيها خالد محيى الدين بالنقيضين مرة واحدة، فإذا به يشير إلى أن عبد الناصر توقف أمام شيء، ثم بعد سطر واحد يشير إلى أن عبد الناصر نفسه لم يتوقف أمام هذا الشيء، ولا أظن هذا الخطأ من أخطاء الطباعة. وعلى كل الأحوال فلنتأمل الفقرة التى يقول فيها خالد محيى الدين [فى صفحتى ٩٥ و٩٦] ما نصه:

«كان عبدالناصر يتمتع بالقدرة على النظر إلى المستقبل، وقال بصراحة: عندما سنقوم بحركتنا فإن مثل هذه الوثيقة قد تدفع الإنجليز إلى التدخل ضدنا على أساس أنها تقف ضد مصالحهم، وكذلك الأمريكان، وقد توقف عبدالناصر طويلاً أمام بعض العبارات التى تترجم التوجهات الوطنية بصياغات يسارية، لكنه فى الحقيقة لا هو ولا بقية الزملاء توقفوا طويلاً أمام هذه العبارات أو الصياغات، ويمكن القول بأنهم لم يدركوا أهميتها، أو لم يريدوا أن يعطوها أهمية كبيرة. لكن أكثر العبارات التى لفتت نظر جمال عبدالناصر ودفعته إلى

الاعتراض عليها هى عبارة «الاستعمار الأمريكى».. وقال: الشعب لا يعرف سوى الاستعمار البريطانى، فلماذا ندفعه إلى اللخبطة وتتحدث عن الأمريكان.. ولما تحدثت عن أن الاستعمار البريطانى يتهاوى وأن الخطر الحقيقى هو الاستعمار الأمريكى، قال: لكن هذا التعبير لا يستعمله إلا الشيوعيون، فقلت: إن الكثير من الحركات الوطنية التحررية فى العالم أصبحت تستخدم هذا التعبير».

فهل يستطيع القارئ بعدما قرأ فقرة خالد محيى الدين بنصها أن يدلنى الآن هل توقف عبدالناصر طويلاً أم أنه لم يتوقف طويلاً؟ هذا السؤال فى الحقيقة موجه إلى الأستاذ خالد محيى الدين لا إلى القارئ، وبخاصة أن النص «توقف طويلاً» جاء قبل النص «لم يتوقف طويلاً» بسطر واحد كما يرى القارئ فى نص الفقرة التى نقلناها لتونا.

(٣٤)

ومع كل الحرص البارز فى هذه المذكرات على الاتساق مع تسلسل التاريخ وحوادثه والبعد عن الوقوع فيما تقع فيه المذكرات عادة من الخطأ فى بعض الحوادث التاريخية، مع كل هذا يقع خالد محيى الدين فى كثير من المآخذ التاريخية التى وقع فيها غيره من قبل، والتى دفعتنى منذ أكثر من سبعة عشر عاماً أن أبدأ فى إعداد (ونشر) ما قد نسميه بالمراجع الأساسية لكتابة تاريخ الثورة، وعلى سبيل المثال فإن خالد محيى الدين الذى هو عضو فى مجلس قيادة الثورة يخطئ فى الحديث عن ترتيب دخول الثوار إلى مجلس الوزراء وتوليهم الوزارات المختلفة،فيقدم معلومات مخالفة للواقع، وأظنه لو كان رجع إلى كتابى (التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة) المنشور فى عام ١٩٨٦ ما وقع فى هذا الخطأ. ومع هذا فإنى مندهش من أن تصدر مثل هذه المعلومة الخطأ عن شخصية بوزن وتاريخ خالد محيى الدين وبمكانته بين الثوار فى ذلك الوقت الذى اتخذ فيه هذا القرار

يقول خالد محيى الدين فى صفحة ٢٢٩:

«ونعود إلى موضوعنا الأساسى، وما ترتب على اختيار الزملاء الثلاثة وهم عبدالناصر نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للداخلية، والبغدادى للحربية، وصلاح سالم للإرشاد (كما أشار فى صفحة ٢٢٧) لمناصب وزارية هامة، فقد أثار ذلك حساسية لدى بعض الزملاء فى مجلس الثورة، فلماذا هؤلاء الثلاثة بالذات يصبحون وزراء؟ وكان الأكثر حساسية كمال الدين حسين، فقد تأثر جداً من عدم اختياره وزيراً، ولهذا فقد كان هو أول من عُين وزيراً فيما بعد، حيث أصبح وزيراً للشئون الاجتماعية، وبعدها وزيراً للتربية والتعليم، أما أنا، فللحقيقة لم

أشعر بـأية غضاضة، فـقد كنت أعلـم أن هذا طبيعي، بـعد كل الصدامـات التى حدثت فـيما بيننا».

أما الحقـيقة فهى كـما سجلتـها (منذ ١٩٨٦) فى كـتابى «التشـكيلات الوزارية فـى عهد الثورة» أن هؤلاء الـثلاثة (عبدالناصر والـبغدادى وصلاح سالم) كانـوا أول من دخل الوزارة فعلاً فى يونيو ١٩٥٣، ولـكن تلاهم جمال سالم وزكريا محيى الـدين فى أكتوبر ١٩٥٣، ثم كمال الديـن حسين فى ينايـر ١٩٥٤، وبذلك لم يكن كـمال الدين حسين هـو أول من دخل الوزارة بعدهم مباشرة، فـقد سبقه كل من جمال سالم وزكريا محيـى الدين، وقد تناول خالد محيى الدين نفـسه قصة تعيينهما بطريـقة غير مباشرة فى صفحة ٢٣٢ عنـد حديثه عن تقديم موظف فى وزارة المواصلات لاستـقالته خوفاً من جمال سالم، ولكـن بدون أن يصحح الخطأ الذى وقعت فيه المذكرات فى موضع سابق(!!)

❑

ويتصل بـهذا الخطأ خطأ آخر فـى صفحة ٢٤١ وإن كان يسـهل نـسبة مثل هـذا الخطأ إلى الطباعة أو إلى سرعة القلم فى الكتابة، فهـو يتحدث عن ٢٤ نوفمبر ١٩٥٤ فى الفقرة الثانية، بينما يتواصل الحديث ليكون عن أوائل ١٩٥٤، ويبدو لى أنه يقصد نوفمبر ١٩٥٣، خصوصاً أنه فى نهاية ٢٤٢ يـتحدث عن حسن إبراهيم وحسين الـشافعى قائلا إنهما لم يكـونا قد عينا وزيرين بعد، وهذا بالفعل يتوافق مع نوفمبر وديسمبر ١٩٥٣ لا ١٩٥٤، لأنهما عينا كوزيرين فى إبريـل ١٩٥٤، كما يتوافـق مع النصوص الـتى فى كتـابه فى صفحـة ٢٢٤ عن الأحداث التالية فى فبراير ١٩٥٤.

(٣٥)

وتبدو مذكـرات خالد محيى الـدين متأثرة إلى حد كـبير بعامل الـسن المتقدم التى نشرها صاحبها فيه، وما يعترى ذاكرة صاحبها مع التـقدم فى السن، ولهذا يقع خالد محيى الدين فى بعض الـتعارض مع رواياتـه التى يقدمـها هو نفسه، ولـنأخذ ـ على سـبيل المثال ـ روايـته عن مشـاركته فى تـدريب بعـض العرب لـلمشاركـة فى حرب فـلسطـين (بالتعـاون مع الجامـعة العربيـة)، فهو يروى لنا هذه الـواقعة فى صفحة ٥٧ بروايـة ثم يرويها فى صفـحة ٧٣ برواية أخرى تعطيه المبادرة والمبادأة.

ففى صفحة ٥٧ يقول:

«ومع تصاعد الأحداث الفلسطينية بدأنا أيضاً فى تدريب عدد من المتطوعين العرب بناء على طلب من جامعة الدول العربية، وكان عدد هؤلاء المتطوعين حوالى ٣٠٠٠ متطوع من مختلف البلدان العربية».

أما فى صفحة ٧٣ فيقول:

«وأنا كنت فى إدارة التدريب الجامعى، وفى مناخ الحماس الدافق اتصلنا عن طريق قائدنا بالجامعة العربية التى تفاهمت مع قيادة الجيش، وتم الاتفاق على إقامة مركزتدريب للمتطوعين العرب فى هايكستب، وقد دربنا الكثيرين.. حوالى ثلاثة أو أربعة آلاف، كانت هناك كتيبتان من السعودية، أى ألف فرد تقريباً، وحوالى كتيبة من السودانيين، وفلسطينيين من النازحين تحت ضغط الإرهاب الصهيونى، دربناهم وأعيدوا للقتال فى فلسطين، كما كان هناك عدد من التونسيين. وأعددنا برنامج تدريب سريعاً يستغرق حوالى شهر، وقد شاركنى فى هذه المهمة عدد من الضباط الوطنيين».

(٣٦)

ومع حرص هذه المذكرات على كثرة المعلومات والنبذات البيوجرافية فإن حديث خالد محيى الدين قد يعطينا الانطباع السريع بأنه لا يبدى الاهتمام الكافى بتعريف القارئ لمذكراته بكثير من الشخصيات التى ترد فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب القيم، وخذ مثلاً على هذا زملاءه من ضباط الفرسان الذين كانوا أبطال أزمة مارس ١٩٥٤، ألم يكن فى وسع خالد محيى الدين الزعيم الوفى أن يتحدث عن كل منهم بأربعة سطور تعرفنا على الأقل بما وصلوا إليه اليوم فى الحياة العامة على نحو ما فعل مع واحد منهم وهو توفيق عبده إسماعيل، أم أنه اكتفى بالحديث عمن تعرفه وهو الذى أصبح وزيراً؟

كما أنى صعقت حين وجدت خالد محيى الدين يقول فى نفس الصفحة إنه يعتذر لهم فقد يكون قد نسى اسماً أو أكثر؟ ما هذا يا أستاذ خالد وأنت الذى حدثتنا فى أول هذا الفصل أنك رجعت إليهم ليذكروك بالأحداث؟ ألم يكن فى وسع سيادتك أن تحصر أسماء مجموعة لا تزيد أعدادها على أصابع اليدين ولا يستغرق الحديث عنها فقرة أو فقرتين؟

يكاد قلمى أن ينطلق ليقول أما كفاهم أنك ـ وأنت الزعيم ـ نُفيت فحسب، بينما عانوا هم الأمرين هنا فى مصر على يد زملائهم من الثوار؟ وبعد أربعين عاماً يتعرضون ـ أو يتعرض بعضهم ـ لأن يهمل أخوهم الكبير(!!) ذكر أسمائهم(!!)

وعلى كل الأحوال فهذه هى فقرة خالد محيى الدين التى لابد لنا أن نكرر ذكرها وفاء لهؤلاء الأبطال، يقول صاحب المذكرات :

«ولست أستطيع، لا الآن ولا فى المستقبل، أن أفى هؤلاء الرجال حقهم: توفيق عبده إسماعيل، أحمد المصرى، أحمد حمودة، بهاء الحينى، محمود حجازى، فاروق الأنصارى، حسن الدمنهورى ، سامى ترك، صبرى القاضى، محمد إبراهيم عطية، مصطفى حمزة، سعد حمزة، حسن إبراهيم حسانين.. وغيرهم كثيرون ، وليعذرنى إخوتى أبطال الفرسان الشرفاء إذا كانت الذاكرة قد تخلت عنى فنسيت اسماً أو أكثر، والحقيقة أن العلاقة بينى وبين رجال الفرسان تظل دوماً مكتسية برداء خاص، ومهما اختلفت مواقفنا الآن، فإننا نظل أقرب إلى بعضنا البعض من الآخرين، فتوفيق عبده إسماعيل ضابط الفرسان الشجاع هو الآن عضو مجلس الشعب عن الحزب الوطنى ، ولكن عندما نجلس معاً فى مجلس الشعب يسرى بيننا من حب ومودة ما لا يسرى بين الآخرين».

«وبعد سفرى إلى الخارج، تعرض رجال الفرسان لعنت شديد، وحدث ما أسمى «بانقلاب الفرسان» حيث قبض على أحمد المصرى وعدد من ضباط الفرسان وحوكموا».

❑

وعلى الرغم من الوضوح الذى تتميز به هذه المذكرات فإننا نرى خالد محيى الدين يقصد بل يتعمد أن يهمل ذكر بعض الأسماء بدون داع، فهو ـ على سبيل المثال ـ لا يحدثنا عن عضو الشيوخ الذى كان سيفتاله فى صفحة ٦٥ ، رغم أنه ليس هناك غرض واضح من إهمال ذكر اسمه، وهو كذلك لا يعرفنا بكثير من الأسماء من زملائه فى سلاح الفرسان، وهو ينهج نفس المنهج مع المجموعة التى تحدث عنها من الشيوعيين الذين انضموا إلى حدتو (صفحة ٦٨ وصفحة ٦٩) مع أن منهم أسماء معروفة وشبه معروفة كالدكتور محمود القويسنى وصلاح السحرتى وجمال علام وآمال المرصفى وأحمد قدرى.. إلخ.. كذلك فإنه لا يحدثنا فى صفحة ١٤٨ بشىء عن هذا الصاغ (معتز) الذى حاول تحريك قوات البوليس الحربى ضد الثورة وهو موقف مهم جداً، لابد أن تتناوله مثل هذه المذكرات بشىء من التفصيل من أجل التاريخ.

أما الرفيق بدر الذى يدلنا خالد محيى الدين على أن عبدالناصر ظلمه حين لم يكن مقتنعاً بزعامته لخالد، فيبدو أن خالد محيى الدين قد ظلمه هو الآخر لأنه لم يحدثنا عن نشاطه بأكثر من ذكر اسمه وأنه اجتهد حتى أصبح ما أصبح قيمةكبيرة: ثقافة وفكراً وسياسية وقيادة.. ولكن بأكثر من التعريف المقتضب فى صفحة ٧٠ يبخل علينا خالد محيى الدين بأن يروى لنا تاريخ هذا الرجل فى عهد الثورة ، وهل هو على قيد الحياة أم لا؟ وهل دخل السجون والمعتقلات وكيف خرج منها... إلخ.

وينبغى لنا أن نقدر للأستاذ خالد محيى الدين أنه اجتهد فيما سجله فى هذه المذكرات محاولا الفصل ـ من جانبه ـ فى قضية الخلاف بين حدتو من جانب، وبين عبدالناصر من جانب آخر، ورغم أنه اجتهد كقاض فإنه كسياسى حكم فى النهاية بخطأ الجانبين، وإن كان فى السطر الأخير فى صفحة ١٠٠ قد لخص الموقف بقوله إن كليهما مخطئ «وربما تحمل الشيوعيون القسط الأكبر من المسئولية» ونحن نعقب فنقول: وقد فعلوا ياأستاذ خالد! ودفعوا الثمن بما فيه الكفاية! وهذا التحليل لخالد محيى الدين يعطينا فكرة عن مدى خطورة آرائه الوسطية فى العمل السياسى:

«... لقد أخطأ الشيوعيون منذ البداية».

«أخطأت «حدتو» تحديداً، لقد غرها أنها شاركت واشتركت فى صناعة هذا الحدث التاريخى، لكنها نسيت الفارق الهام بين التعامل مع مجموعة قليلة العدد من الضباط يعملون سراً، وبين التعامل مع ضباط يحكمون الوطن، ويطمحون إلى تعزيز حكمهم هذا».

«كما كانت «حدتو» متعجلة، وربما تحت ضغط الحركة الشيوعية العالمية التى كانت تدين حركتنا وتتهمها بأنها صنيعة للأمريكيين، وتصمها بأنها مجرد تعبير عملى عن الصراع الخفى والملتهب بين الاستعماريين الأمريكى والبريطانى، وكانت من ثم تتهم «حدتو» وتدينها لأنها كانت تؤيدنا، بل وكانت مشاركة وضالعة معنا.. ربما تحت هذا الضغط، وتحت ضغط المنظمات الشيوعية الأخرى التى كانت تتهمنا بأننا حركة فاشية، وتتهم «حدتو» بالعمالة، كانت «حدتو» تضغط من أجل مواقف مبدئية وواضحة وإعلان نوايا صريح وواضح من حركة الجيش، وكان هذا صعباً بل ومرفوضاً من قبل مجلس قيادة الثورة، فالحركة عندما حكمت كانت راغبة فى الاستقرار وفى حماية هذا الاستقرار».

«وأخذ الأمريكيون يتقربون من الحركة.. وأذكر أن عبدالمنعم أمين (وهو الذى قاد قوات المدفعية التى شاركت فى الثورة، وانضم بعدها إلى مجلس قيادة الثورة) قد دعانا إلى العشاء فى بيته، وحضر كافرى السفير الأمريكى والمستشار السياسى للسفارة الأمريكية، وأحسست أن هذه الجلسة كانت تمهيداً لعلاقة حسنة مع الأمريكان».

«وطبعاً أنا كيسارى كنت أشعر برفض داخلى لذلك، لكن الزملاء كانوا واقعين، فالاتحاد السوفيتى ضدنا ويهاجمنا، ومعركتنا الداخلية صعبة وشرسة، وأمريكا قوة عظمى وهى تقترب منا، ولا تبادرنا بالعداء بل تبدى ما يشير إلى احتمال تقديم مساعدات لنا».

«لكن مثل هـذه المقابلات والتصرفات أحدثـت حالة من القلق ورد الفعل لدى «حدتو»، وبدأوا يضـغطون بطريقـة غير متوازنـة علىّ وعلى يـوسف صديق بهدف دفـعنا للتـصادم مع الحركة، والمطالـبة بمواقف حاسمة، لكـن الحسم لم يكن ممكناً، فأغلبـية مجلـس الثورة كانت تمضـى وتتحسـس طريقـها للبـحث عن استـقرار لـلحكم دون تـصادم مبـكر مع قوة كـبرى كأمريكا».

◘

ثم يلخص صاحب هـذه المذكرات كل هذه الآراء فى عبارة بسيطة تـبدو وكأنها الخلاصة أو التقرير كما يقال فى البحث العلمى وهى قوله:

«وباختصـار كان اليسار فى ذلك الوقـت يفتقد القدرة علـى التعامل المتوازن مع سـلطة له علاقة قديمة بها، لكنهـا أصبحت علاقة غير متكافئة، ولـم يعمل علـى الاحتفاظ بنقطة ارتكازه داخل السلطة وتنمية دورها، بل أسرع بالتصادم بما أفـقده علاقته بالسلطة نهائياً بل أوقعه فى مواجهة مريرة معها».

ومع كل هـذا الوضوح لا ينسى خـالد محيى الـدين أن يلقىّ عـلى كاهل الرئيـس جمال عبدالناصر بالمسئولية:

«ومن الناحـية الأخرى فإن عبدالناصـر ـ وللحقيقة ـ قـد تغير سريعاً، وما أن وصـلنا إلى الحكم حتـى بدأ يستشعر حسـاسية فائقة من أصدقـاء الأمس، فى الماضى لم يكن يمـتلك هذه الحساسية، كان يرحـب بالتعامل مع الشيوعيين، وكان يعتمد عليهم ويثق فى كفاءتهم ورؤيتهم الشـاملة، لكنه وبعد نجـاح الثورة بدأ يـستشعر حـساسية فائقة، ولعل هـذه الحساسية قد عجلت بالصدام».

«أذكر بعد الثورة أنه بادرنى بالسؤال: ما هو اسم الرفيق «بدر» الحقيقى؟».

«كان عبد الناصر لم يزل غير قادر على تسيان هذا الميكانيكى ذى الحديث المبهر».

«لم أكنْ أعرف حتى ذلك الحين أن «بدر» هو سيد سـليمان رفاعى، وحتى لو كنت أعرف لما قلت له».

«وامتعض عبدالنـاصر من إجابتى: «لا أعرف» ـ ثم جاء فى يوم تال وبـادرنى قائلاً: تذكر أن عدداً من الضباط الشيوعيين فى الفرسان قد انضم إلينا. قلت: نعم، فسألنى: مَنْ هم؟».

«ورفضت أن أعطـيه الأسماء، وغضـب عبد الـناصر وسألنى: أين ولاؤك، هـل للثورة أم للآخرين؟! وأجبت إجابة قاطعة: المسألة ليست مسألة ولاء لكنها مسألة ضمير وشرف، وأنا لا ولن أشى بإنسان وثق بى وأعطانى بعض أسراره».

(٣٨)

ثم يشير خالد محيى الدين بقدر من التفصيل إلى واقعة من وقائع التصعيد بين حدتو والثورة:

«وإذ شعرت «حدتو» بأن حركة الضباط لا ترفع ذات الشعارات الحاسمة ضد الاستعمار الأنجلو ـ أمريكى وضد الأحلاف العسكرية، تلك الشعارات التى كانت ترفعها من قبل، والتى تحدثت عنها وثيقة «أهداف الضباط الأحرار»، قررت أن تخطو خطوة لإحراج النظام الجديد بأن تنشر هذه الوثيقة».

«وزارنى أحمد فؤاد ليسألنى: ما رأيك فى أن نطبع «أهداف الضباط الأحرار»؟ وقلت: إن الوقت غير مناسب، فقال: لابد من طبعها لكى لا يتراجع أحد عنها».

«ولم أوافقه على رأيه.. لكننا فوجئنا بها مطبوعة».

«وغضب عبد الناصر غضباً شديداً وشعر كأن «حدتو» قد أصبحت عبئاً على حركته وعلى توجهاته الجديدة، وسألنى أين الورقة الخاصة بـ«أهداف الضباط الأحرار» فقدمتها له.. فهز رأسه قائلاً: إذن هم الذين فعلوها».

«وبعدها بقليل كان الأمن يهاجم مقر الأجهزة الفنية لمنظمة «حدتو» ليصادر أجهزة الطباعة، ومن بينها جهازنا «الرونيو» الحبيب الذى زاملنا لأمد طويل.. استقر الآن فى يد الأمن، والذين عملوا عليه وطبعوا لنا منشوراتنا.. استقروا فى السجن».

«ولعل رواية سمعتها فيما بعد تلخص مجمل العلاقة بين «الضباط الأحرار» ومنظمة حدتو:

«كانت «حدتو» تطبع منشوراتنا كما قلت، وكان عبد الناصر لفرط حرصه يتسلمها بنفسه من مسئول اتصال خاص».

«فى الموعد المحدد.. وفى المساء كانت سيارة صغيرة تقف على كورنيش النيل بالروضة قبل قصر المانسترلى، وأمام عجلة القيادة شاب أسمر طويل يرتدى ملابس مدنية اسمه «موريس» (وكان موريس هذا هو عبدالناصر، ولعل هذا هو سر الادعاء الخاطئ بأن جمال كان عضواً فى «حدتو» وأن اسمه الحركى كان موريس».

«ووفق الاتفاق كان شاب أرمنى بعيد عن كل الشبهات يمتلك محلاً لإصلاح الراديو فى شارع الروضة اسمه «ملكون ملكونيان».. وهو واحد من كوادر «حدتو» الموثوق بهم، يقترب من السيارة ليسلم «موريس» لفافة».

«لم يكن ملكون يعرف من هو «موريس»، ولا ماذا فى اللفافات التى سلمها مراراً له».

«وبعد قيام الثورة شاهد ملكون صورة «موريس» تملأ الصحف.. وأيقن أنه أسهم إسهاماً تاريخياً فى إنجاح الثورة».

«لكن زهوه هذا لم يدم طويلاً، فما لبث البوليس أن قبض عليه مع زملائه المسئولين عن طبع المنشورات، وحكم عليه بالسجن خمس سنوات قضاها كاملة».

❑

ثم ينتقل خالد محيى الدين بالحديث عن دوره ورؤيته هو نفسه فى اضطراب هذه العلاقة فيقول:

«وبعد هذه الواقعة بدأ عبد الناصر يلح علىّ فى أن أقطع علاقتى بأحمد فؤاد لكننى لم أجد مبرراً لذلك».

«إنها دورة الأحداث».

«ولعلى الآن وأنا مستريح الضمير أجيب عن سؤال لابد أنه يلاحقك عزيزى القارئ مع هذه الأسطر: من المسئول عن هذا التصادم المبكر بين أصدقاء الأمس؟».

«وأجيب: الطرفان.. عبد الناصر والشيوعيون معاً.. كلاهما مسئول، وربما تحمل الشيوعيون القسط الأكبر من المسئولية».

(٣٩)

على الرغم من أن خالد محيى الدين لم يشر إلى مراجع فى كتابه، فإنه نقل عن كثير من الكتابات التاريخية التى تناولت هذه الفترة، وخذ ـ على سبيل المثال ـ صفحة ١٦٥ حين ينقل نص الإنذار عن مصدر آخر لا يذكر اسمه فينسى أن يحذف منه عبارة «ويمضى الإنذار منددا بتدخل الملك».. التى وضعها مؤلف آخر.. ولا تنتبه إدارة النشر فى مركز الأهرام للنشر إلى أن تحذف هذه العبارة وإنما تتركها كأنها من الإنذار وتجعلها من صلب الإنذار وبنفس بنطه.. إلخ. وليس هناك داع لأن أثبت هنا نص الفقرات التى يجدها القارئ فى صفحة ١٦٥ من كتاب خالد محيى الدين «والآن أتكلم».

(٤٠)

ويحفل كتاب خالد محيى الدين بالهجوم الشديد على كثير من المدنيين القانونيين الذين أحاطوا برجال الثورة فى أول عهدها، سواء فى ذلك السنهورى باشا أو سليمان حافظ أو

السيد صبرى، بل ويضم إليهم فتحى رضوان أيضاً، بل ويضم إليهم من عرفوا بأنهم أميل إلى الاشتراكية كراشد البراوى، بل إننا نراه بدون أى داع يضم إليهم رئيس الوزراء على ماهر الذى كان بالفعل فى مكانة كبيرة ولم يكن وضعه يسمح له أو يضطره أن يقتصر دوره على أن يشير على الثورة بما يرضيها على نحو ما كان يفعل الآخرون.. وليس كتابنا هذا مجالاً للحديث عن الهجوم على أشخاص إلا بقدر ما يتوافر لنا فى هذا الهجوم من رأى ذى فائدة فى تكوين الحكم على شخصية من الشخصيات التى لعبت دورا فى أى مرحلة من مراحل تاريخنا المعاصر.

ولابد لنا فى هذا الصدد أن نتأمل على سبيل المثال آراء خالد محيى الدين فى مجمل القوى السياسية التى أحاطت بالثورة حيث يقول بكل وضوح وصراحة:

«ويمكننى القول بأن أغلب من أحاطوا بالثورة من مستشارين ومن قوى سياسية كانوا يعملون جميعا من أجل استمرار العسكريين فى الحكم، وضد الديمقراطية والبرلمان».

وهو يردف هذا القول المجمل بإشارة إلى آراء سابقة له فيقول:

«قلت إن السنهورى وسليمان حافظ وفتحى رضوان كانوا يشجعون الضباط على تحدى الدستور والديمقراطية بحجة أنها ثورة، وأن للثورة قانونها الخاص، كذلك كان الدكتور سيد صبرى أستاذ القانون الدستورى يشجع فى هذا الاتجاه أيضا، ويقول إنه لامبرر للتمسك بالنصوص،وأن البلد فى وضع ثورى وبحاجة إلى خطوات ثورية وإلى فقه ثورى».

والإخوان المسلمين كانوا يشجعون هذا الاتجاه كذلك، ربما بأمل ضرب كل القوى السياسية الأخرى، ثم بعدها يتمكنون من احتواء الثورة، ناسين أن افتقاد الديقراطية قد ينقلب وبالا عليهم، وقد انقلب بالفعل وبالا عليهم وعنفا ضدهم».

«وكان يصب فى هذا الاتجاه أيضا أن الجماهير الشعبية لم تكن تحترم الحياة الحزبية السابقة، وكانت تشعر بما فيها من فساد وتحلل، وقد اندفعت هذه الجماهير فى تأييد رجال الثورة تأييدا مذهلا، خاصة بعد طرد الملك، وصدور قانون الإصلاح الزراعى، والحديث المتصاعد ضد الاستعمار، وشعار «ارفع رأسك ياأخى» وإلغاء الألقاب.. وكانت زيارات أعضاء «مجلس القيادة» لعديد من المدن فرصة لتحرك أمواج هادرة من البشر تهتف بحياتهم، وتحاول أن تحمل سياراتهم وتعرب عن تأييدها لهم، وكان ذلك كله يزيدهم تمسكا بموقفهم، وكثيرا ما كنت أناقش جمال عبدالناصر عن الديمقراطية وعن ضرورة إشراك الجماهير، فكان يرد علىّ باسما: ألا ترى أن الجماهير تؤيدنا».

«يضاف إلى ذلك أن الأحزاب السياسية لم تقاوم ـ ولو بأقل قدر ـ ما وجه إليها من صفعات، بل استسلمت استسلاما مثيرا للدهشة، وخيبت الآمال فيها، بما شجع الزملاء فى

«مجلس القيادة» على المضى قدما فى طريقهم، فباستثناء الإخوان المسلمين والشيوعيين لم يتحرك أحد».

«وبدأ أساطين القانون الدستورى يدبجون للثورة نصوصا تمكنها من التلاعب بالحياة الحزبية، ويرسمون لها خطوات ماكرة أربكت الأحزاب التى كانت مرتبكة بذاتها وضعيفة وعاجزة عن ممارسة أى فعل يمتلك صفة الاعتراض أو المقاومة».

«ففى البداية قالوا إنه يتعين على الأحزاب أن تطهر نفسها، وتجهد الأحزاب نفسها فى تطهير صفوفها وتتصادم داخليا، ويطرد البعض البعض الآخر بأمل الفوز بقبول ما تم فيها من تطهير، ثم تكتشف أن «الثورة» ترى أن هذا التطهير غير كاف، ثم يُسن قانون ملتو وملىء بالمخارج والثغرات يطلب إلى الأحزاب أن تتقدم إلى وزيرالداخلية بطلب إشهارها من جديد، ويعطى لوزير الداخلية حق الاعتراض على أى من المؤسسين، وبالفعل يتم الاعتراض على مصطفى النحاس، وكان هذا الاعتراض خطوة مبالغا فيها، فقد كان مصطفى النحاس بكل المعايير زعيما وطنيا مرموقا، وارتبك الوفد أكثر فأكثر، فتارة يعلن أنه يرفض الاعتراض على النحاس ويتمسك به، وتارة يعلن أنه سيقبل الاعتراض، وانقسم الوفديون».

«وهكذا أدى الخبراء الدستوريون الذين اشتهروا للأسف بأنهم ليبراليون دورهم فى مناوأة الدستور والحياة النيابية بمهارة فائقة».

(٤١)

كذلك لابد من مطالعة رأى خالد محيى الدين فى موقف سليمان حافظ الذى أفاد منه الرئيس عبدالناصر فى اللعب على حبال الاختلاف داخل جماعة الإخوان المسلمين:

«لكن عبدالناصر والزملاء فى «مجلس القيادة» أخطأوا فى حساباتهم مع الإخوان، فقد اتفقنا فى الأيام الأولى على إصدار قرار بالعفو عن المسجونين السياسيين».

«وركز عبدالناصر وعدد من الزملاء على ضرورة الإفراج عن السجناء من الإخوان المسلمين، وكانوا جميعا محكوما عليهم فى قضايا إرهاب واغتيالات، وهذا الإفراج وبرغم أنه أكسب الثورة علاقات حسنة فى صفوف الجماعة، إلا أنه كان ـ فى واقع الأمر ـ تشجيعا خفيا للتيار المؤيد للإرهاب والعنف فى صفوف الجماعة، فإذا كان المحكوم عليهم فى قضايا نسف وقتل وإرهاب يُفرج عنهم بهذه السهولة، فلماذا لا يكررونها مرة أخرى، بأمل الحصول على عفو من حاكم آخر أو حتى من نفس الحاكم».

«لكن الغريب فى الأمر هو أن هذا القانون قد طبق على الإخوان المحكوم عليهم فى قضايا إرهاب واغتيالات، ولم يطبق على الشيوعيين».

❑

ونأتى إلى واقعة من أطرف الوقائع فى الكشف عن طبيعة تعامل الثورة مع القانون ومع الحكم، وهى واقعة خطيرة وخطرة بقدر ما هى طريفة، ونحن نرى صاحب المذكرات فيها حريصاً على تصوير نفسه حفياً بالحفاظ للشيوعيين على حقوقهم، ونراه يروى حواراً دار بينه وبين سليمان حافظ حول تكييف الاتهام بالشيوعية، وما إذا كان جريمة اجتماعية أم اقتصادية أم سياسية. ومن الطريف أن تصوير خالد محيى الدين لما حدث يدلنا على مدى حيرة سليمان حافظ أمام «الطلبات» أو «الرغبات» المتعارضة لأعضاء مجلس قيادة الثورة.

ومع أن خالد محيى الدين يورد السياق مصوراً لما يريده من إبراز معنى قيام القانونيين بتفصيل القوانين حسب رغبة الحكام الجدد، إلا أن هذا لا ينفى أن سليمان حافظ كان يصدر فيما يفعل من تأثيم الشيوعية عن عقيدته الخاصة، بل ربما عقيدته العامة أيضاً، ولا ننسى فى هذا الصدد أن نشير إلى أن الرغبة فى هدم الوفد وزعمائه كانت تلقى هوى فى نفس سليمان حافظ، كما كانت تلقى هوى آخر فى نفوس أعضاء مجلس قيادة الثورة.. ومع هذا فإن خالد محيى الدين يتجاوز الإشارة عن هذه المعانى ليثبت فقط ما يريد إثباته من أنه كان أحرص من القانونيين على الديمقراطية من ناحية، وعلى حقوق الشيوعيين من ناحية أخرى:

«وأذكر أننا كنا مجتمعين فى «مجلس القيادة» عندما دخل علينا سليمان حافظ ومعه مشروع القانون الخاص بالإفراج عن المسجونين السياسيين، وسألته ببساطة: هل يطبق القانون على الشيوعيين؟ فأجاب بزهو: لا، فقد وجدت لهذا الأمر مخرجا، قلت: كيف؟ فقال: قلنا إن الشيوعية ليست جريمة سياسية، وإنما هى جريمة اجتماعية اقتصادية، فقلت: لكنها جريمة سياسية، وإذا قلت كده ولم تفرجوا عن الشيوعيين تبقى بايخة قوى، خصوصا أن التهمة الموجهة لهم هى محاولة قلب نظام الحكم وتغيير النظام الاجتماعى، وهم بذلك يحاكمون كمتهمين فى جريمة رأى ، فالأفضل عندى هو الإعلان أنه لن يُفرج عن الشيوعيين لأسباب سياسية بدلا من استخدام تفسيرات غير قانونية وغير منطقية. فرد مندهشا: حيرتونى، قلتم بلاش الشيوعيين فلقينا الحل، وبعدين رافضين وتقولوا بايخة قوى. فضحك الزملاء فى المجلس وقالوا له: معلهش، أصل خالد مختلف فى هذا الموضوع».

ويردف خالد محيى الدين مفسراً هذه المواقف من وجهة نظره فيقول:

«والحقيقة أن عبدالناصر كان يضمر فى هذا الوقت الدخول فى تصادم مع الأحزاب السياسية، فأراد أن يكسب الإخوان إلى صفه فى هذه المعركة، ولكنه فى نفس الوقت لم

يسمح بإعطائهم أى نفوذ داخل الثورة، بل ومارس داخلهم لعبة استقطاب البعض إلى صفه، فأحدث انقساما خطيرا فى صفوفهم، وشجعه ذلك على المضى قدما فى طريق تصادمه مع القوى الحزبية عامة».

(٤٢)

ولنقرأ قبل هذا حديث خالد محيى الدين عن نفسه بضمير الغائب وهو ينتقد هؤلاء القانونيين في مونولوج جميل يتحدث فيه عن نفسه بضمير الغائب وكأنه يستحى أن يقرن هجومه على أساطين القانون بمدح نفسه ، ولكنه يفعل هذا ويكرره ، وينسب إلى هؤلاء الأساطين أنهم كانوا يحرضون الثورة ضد القانون نفسه ، ولا يكتفى بهذا الاتهام ولكنه يتطرق إلى أن يسجل بكل صراحة أن واقع هؤلاء لم يكن إلا استشعارهم المصلحة الذاتية فى استمرار توليهم زمام الأمور وحكم البلاد بأنفسهم ، ومن الغريب أن خالد محيى الدين يستطرد فى هذه الفكرة إلى ما لا نهاية من دون أن يعترف أن هؤلاء ـ فى النهاية ـ لم يستمروا فى حكم البلاد على نحو ما كانوا ـ فى تخيله وتصويره ـ يهدفون أو يخططون:

«وفى هذه الأثناء كان الضابط ذو الثلاثين عاما (خالد محيى الدين) لم يزل يتمسك بالمبادئ التى قامت على أساسها حركة «الضباط الأحرار»: الديمقراطية.. الانتخابات.. البرلمان.. سيادة الشعب».

«ودهش الضابط الشاب إذ وجد أن أساطين القانون الدستورى، والذين طالما تحدثوا عن الدستور والبرلمان كانوا يستحثون الضباط ويحرضونهم على تأجيل الانتخابات ورفض اجتماع مجلس النواب، ومن ثم تأجيل قضية الديمقراطية».

«وللتاريخ أسجل أن الدكتور عبدالرزاق السنهورى وسليمان حافظ وعلى ماهر كانوا جميعا يحرضون الضباط على تجاهل البرلمان والدستور، وطبعا كانت هناك الكثرة الغالبة من الضباط الذين يستجيبون لذلك ويتقبلونه بحماس، بحكم أنهم يستشعرون مصلحتهم فى الاستمرار فى حكم البلاد بأنفسهم».

«وفى هذه الأثناء رتبت زيارة لعدد من أعضاء «مجلس القيادة» لفؤاد سراج الدين، وذهبنا.. جمال عبدالناصر وجمال سالم وبغدادى وعامر وأنا، والتقينا فى بيت واحد من أقاربه فى جاردن سيتى، تحدث سراج الدين ليستحثنا على تقنين الأوضاع بدعوة مجلس النواب إلى الاجتماع ، وإعطاء مجلس الوصاية كامل سلطاته الدستورية، وإعطاء المؤسسات دورها المحدد دستوريا، ولم يبد ارتياحا للأحاديث المتداولة عن قانون الإصلاح الزراعى».

«وبطبيعة الحال يمكن القول إن زملائى لم يهتموا كثيرا بحديث سراج الدين عن تقنين الأوضاع، خاصة أنه أفسد الحديث كله بإعلان تحفظه على قانون الإصلاح الزراعى، فأعطى الآخرين الفرصة للربط بين الموقفين: الديمقراطية والدستور، ورفض قانون الإصلاح الزراعى».

«وأصبح وضعى مع زملائى أكثر حرجا خلال هذه المناقشة».

«وفى هذه الأثناء أثار كل من الدكتور راشد البراوى (وهو أستاذ اقتصاد شهير ومترجم لعدد من الكتب الاشتراكية، وكان على علاقة بعبدالناصر) وأحمد فؤاد (وكان لم يزل على علاقة حميمة بعبدالناصر أيضا) أهمية أن تبادر الحركة بتقديم شىء ما للشعب، تلف به الجماهير حولها وتكتسب تأييدها».

«وكان الاثنان يلحان فى اتخاذ إجراء اجتماعى ما، كانا يقولون إن كل الحكام السابقين كانوا يتحدثون عن قضية الجلاء، وأن الجديد الذى يشد الجماهير ويحشدها خلف الثورة هو موقف اجتماعى يتعلق بأغلبية الشعب.. أى الفلاحين.. ومشروع آخر يهتم بتصنيع البلاد وتطويرها».

«وطلبنا إليهما إعداد مشروع قانون للإصلاح الزراعى، وما أن طرحت الفكرة حتى أثارت مشاكل عديدة، فعلى ماهر رئيس الوزراء كان فى دخيلة نفسه ضد الإصلاح الزراعى أصلا، وبدأ يثير العقبات، اقترح فكرة الضرائب التصاعدية بتصاعد الملكية الزراعية، وانتهى به الأمر بأن طالب برفع الحد الأقصى للملكية إلى خمسمائة فدان بدلا من مائتين.. وكانت حجة على ماهر أن ملاك الأرض هم الفئة المستنيرة والمثقفة فى المجتمع، وأنه من الصعب تحدى هذه الفئة وضرب مصالحها».

«أما أعضاء مجلس الوصاية، فقد عارض بهى الدين بركات بشدة فى مبدأ إصدار هذا القانون، وقال: إن هذه الطبقة قد اعتادت على مستوى معين من المعيشة، وأنه من الصعب المساس بهذا المستوى، وربما كانت معارضته هذه طبيعية، لكن الشىء الغريب حقا هو أن رشاد مهنا قد حاول أن يضع العديد من العراقيل أمام الموضوع، وأن يعرقل إصدار القانون بأى شكل».

(٤٣)

وينتقد خالد محيى الدين الفقيه القانونى الكبير الدكتور عبد الرزاق السنهورى بطريقة مباشرة وينسب إلى هذا الرجل «الفكرة الشيطانية» التى تبنتها الثورة فيما يتعلق بتأجيل

الانتخابات، وأنه استغل عرض قانون الإصلاح الزراعى وإقراره كذريعة لأن يشير على رجال الثورة بتأجيل الانتخابات خمس سنوات حتى تظهر الآثار الإيجابية لتنفيذ قانون الإصلاح الزراعى فى تقريب الشعب من الثورة وإبعاده عن زعمائه الحقيقيين، ومع أن رواية خالد محيى الدين لا نجد ما يؤيدها من روايات أخرى عن نفس الفترة، إلا أننا لابد أن نوردها فى إطارها وأن نشير إلى حرص خالد محيى الدين على إثبات مثل هذه الواقعة فى إطار حرصه على تصوير «اغترابه» وهو الضابط الشاب ذى الثلاثين ربيعا وسط هؤلاء الأساطين الذين كانوا حريصين على تحطيم الديمقراطية ويقول:

«أما المثير للدهشة حقا فهو أن السنهورى باشا اتخذ من قانون الإصلاح الزراعى ذريعة لضرب أى توجه ديمقراطى».

«فقد قال: إذا كنتم تريدون كسب الشعب من خلال قانون الإصلاح الزراعى، فإن آثار هذا القانون لن تظهر قبل خمس أو ست سنوات، فكيف تسارعون بإجراء الانتخابات فى فبراير؟ وبدأ يستحثنا على ضرورة تأجيل الانتخابات لفترة تكفى لضمان اكتساب جماهيرية حقيقية».

«ومرة أخرى أصدم.. فها هو كبير الفقهاء الدستوريين يستخدم قانون الإصلاح الزراعى ذريعة لضرب التوجه الديمقراطى، وطبعا يجد آذانا صاغية، ونفوسا تتقبل ما يقول بصدر رحب وترحيب شديد».

«وبرغم ذلك، وبرغم أن الكثيرين من الزملاء فى مجلس القيادة كانوا يتباعدون رويدا رويدا عن فكرة الانتخابات وفكرة الديمقراطية، إلا أنهم استخدموا موضوع الانتخابات سبيلا لإكراه على ماهر على الاستقالة».

«فقد أصدر على ماهر بصفته رئيسا للوزراء بيانا لم يتحدث فيه عن الانتخابات، ولم يتوافق مع وجهة نظرنا فى قانون الإصلاح الزراعى».

«واجتمع مجلس القيادة، وأصدر بيانا ضد على ماهر انتقد فيه عدم وضوح موقفه من قضية الانتخابات فى فبراير، ومن قانون الإصلاح الزراعى، كما انتقد قيام حكومة على ماهر بفرض ضرائب جديدة ورفع أسعار بعض السلع».

«وكان الموقف غريبا.. مجلس القيادة يصدر بيانا ضد رئيس الوزراء، ووقعت الصحف فى حيرة. وأذكر أن أحد الصحفيين قال لى وأنا أمليه البيان: هذا البيان ضد رئيس الوزراء.. قلت له: أعرف.. وانشره على مسئوليتنا».

«ووقع على ماهر في مأزق حرج، بل غاية في الحرج، وقرر أن يستقيل ثم تراجع عن الاستقالة، ثم عاد إليها بعد أن أيقن أن ثمة قوة أخرى غير مجلس الوزراء هي التي تملك مفاتيح السلطة».

(٤٤)

وهذه فقرة أخرى تتضمن رأى خالد محيى الدين الصريح فيما يسميه ألاعيب القانونيين التى بلورت الثورة بفضلها مجموعة القوانين المبكرة خلال الشهور الثلاثة الأخيرة من عام قيام الثورة ١٩٥٢، وقبل أن يبدأ عام ١٩٥٣ بحملة الاعتقالات التى شملت قادة الأحزاب والشيوعيين، والإعلان عن فترة انتقال وقيام هيئة التحرير:

«وهكذا ومع كل خطوة تمضى، ومع كل يوم يمر من أيام هذه الأشهر الثلاثة (أكتوبر ـ نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٥٢) كان يتحدد موقف الزملاء منى، وكنت أحدد موقفى منهم، وأصبحت وبصدق أستشعر خلافا شديدا مع ما يصدر من قوانين وتشريعات».

«قانون رأس المال الأجنبى، قانون الأحزاب، إلغاء دستور ١٩٢٣، حل الأحزاب، القبض على ضباط المدفعية».

«وفى هذه الأثناء أعلن مجلس قيادة الثورة، كسلطة سيادة، وتغير اسم «مجلس القيادة» إلى «مجلس قيادة الثورة»، وبطبيعة الحال كان نجيب رئيسه وجمال عبدالناصر هو الوكيل».

«وفى ١٨ يناير ١٩٥٣ شن الأمن حملة اعتقالات واسعة شملت ١٤ من قادة الأحزاب، و٣٩ شخصا بتهمة الاتصال بجهات أجنبية، و٤٨ شيوعيا أغلبهم أو ربما كلهم من أعضاء «حدتو»».

«وأعلنت فترة انتقال لمدة ثلاث سنوات، وأعلن قيام «هيئة التحرير» وأعلن الدستور المؤقت الذي أعلن أن سلطة السيادة فى الدولة هى لمجلس قيادة الثورة، ولرئيس مجلس الثورة فى مجلسه».

❑

ثم يبلور خالد محيى الدين حديثه هذا بكل أسف وأسى من طغيان الحكم العسكرى بفضل ألاعيب القانونيين فيقول:

«.. إنها مرة أخرى ألاعيب القانونيين: لرئيس المجلس سلطة السيادة في مجلسه، أي أن الرئيس بمفرده لا يمتلك سلطة السيادة، ولا المجلس بمفرده يمتلكها».

«كما تقرر تشكيل ما يسمى «المؤتمر المشترك» وهو هيئة تضم أعضاء مجلس قيادة الثورة والوزراء لمناقشة التشريعات وإصدارها».

«.. إنه الحكم العسكرى المباشر».

«واحسست أن كل أحلامى عن حكم نيابى وديمقراطى تتلاشى».

❑

ولكن المهم أن خالد محيى الدين فى وسط هذا الحديث عن هؤلاء القانونين جميعاً يثنى بشدة على تكنوقراطى بارز هو وزير المالية والاقتصاد عبدالجليل العمرى: «وأذكر أن عبدالجليل العمرى كان رجلاً شجاعاً، ومترفعاً،ومعتداً بنفسه، وقد اشترط لقبول الوزارة أن يعوض أصحاب الأراضى الخاضعة لقانون الإصلاح الزراعى بسندات، واشترط أن يكون سقف الملكية مائتى فدان وللأسرة مائة فدان، وكان مشروع القانون يقترح مائتى فدان فقط. وكان العمرى أيضاً يتحدث بحدة مع الضباط حتى أعضاء «مجلس القيادة» قائلا: لا تعطوا وعوداً إلا بعد سؤالى حتى أدبر لكم ميزانية».

مـــــذكـــرات الـضـبــاط الأحــرار

نـحــو حـــــكــــم الــــفــرد

3

«أرغـمـت فـاروق عـلـى التـنـازل عـن الـعـرش»

مذكرات:

عبد المنعم عبد الرءوف

دار الخيّـــال

(١)

صدرت هذه المذكرات بعد وفاة صاحبها بينما كانت جماهير كثيرة منها المؤرخون والسياسيون تطلع بشدة إلى أن يطالعوها فى وقت سابق على الوقت الذى صدرت فيه، وكانت هناك دوافع عديدة تجعل هؤلاء يتوقعون صدور المذكرات منذ عاد صاحبها إلى أرض الوطن بعد هروب شهير وقصص مطولة عن تاريخه الفريد الذى يمتد فى الماضى إلى عام ١٩٤١ حين قدر له أن يكون أحد الطيارين اللذين رافقا عزيز المصرى فى الهروب بالطائرة.. ثم مشاركته فى تنظيم الضباط الإخوان والضباط الأحرار ثم مساهمته فى حصار الملك بعد قيام الثورة ، ثم اشتراكه فى محاولات الإخوان المسلمين التصدى للثورة وهروبه بعدها من مصر، ولكن عوامل كثيرة تكاتفت حتى أخرت صدور هذه المذكرات وربما أخرت تحريرها أيضاً من قبل.

تحت عنوان «أرغمت فاروق على التنازل عن العرش» أصدرت دار الزهراء للإعلام العربى ما سمى بمذكرات عبدالمنعم عبدالرءوف فى عام ١٩٨٨، وقد رسم غلاف هذه المذكرات الفنان عصمت داوستاشى وجعل محور الغلاف صورة عبدالمنعم عبدالرءوف نفسه بملابسه العسكرية ، وبقامته العسكرية ، وبنظرته العسكرية أيضاً، وكأنه أراد أن يقدمه لنا فى صورة العسكرى الملتزم على حين أن صورته فى أدبيات السياسة المصرية هى صورة الإخوانى المنظم.

ومع هذا فقد أعطى عصمت داوستاشى وجه عبدالمنعم عبدالرءوف كل ما أمكنه أن يضفيه

عليه فى فن البورتريه من صرامة وتصميم، ويبدو أنه رسم هذا البورتريه من صورة مبكرة لعبدالمنعم عبدالرءوف، وقد أراد الفنان نفسه أن يدلنا على هذا حين جعل الرتبة التى على كتفى عبدالمنعم عبدالرءوف مموهة مبهمة وكأنها ظل رتبة،مع أنه كان من السهل عليه بالطبع أن يرسم ما شاء من النجوم أو النسور أو السيوف والعصىّ المتقاطعة.

وبالإضافة إلى هذا كله فقد رصع الفنان صدر صاحب المذكرات بشىء كثير من النياشين، مع أن التاريخ لم يتح لعبدالمنعم عبدالرءوف الفرصة للحصول على مثل هذه النياشين، وفى الجزء المقدم من غطاء الرأس أعطى داوستاشى بريشته ظلاً أسود وكأنه يرمز إلى اللون الأحمر الذى يكون فى هذا الجزء من غطاء الرأس الذى يرتديه الضباط الكبار والذى يدل على أن صاحب هذه الرتبة قد حصل على دورة أركان حرب وأصبح من حاملى هذه الدرجة، مع أنه لم يتح لعبدالمنعم عبدالرءوف أن ينتظم فى هذه الكلية، وبالتالى فإنه لم يتخرج فيها ولم يكن من حقه بالطبع أن يحمل علامتها فى زيه، ومن الطريف أن الرئيس جمال عبد الناصر كان قد لوح لعبد المنعم عبدالرءوف بأن الثورة ستسمح له بالدراسة فى هذه الكلية والحصول على شهادتها، وكان هذا فى بداية الثورة حين كان عبد المنعم عبدالرءوف لا يزال يعتقد فى أن التقدير والترقى الذى يطمح إليه لن يكون إلا فى إطار وظائف ورتب القوات المسلحة فحسب وليس فى إطار الدولة كلها بنوال مناصب الوزارة والسفارة والإدارة، على نحو ما حدث بعد ذلك لضباط الثورة بل وللضباط عموما من زملائهم.

لا أظن أنى قد أطلت فى الحديث عن غلاف هذه المذكرات، ولا عن «الطبعة» الذى هو موجود فى صورتها، ولكننى لا أزال أود أن أذكر للقارئ بعضاً مما لابد منه عن هذا الكتاب الذى صدر عام ١٩٨٨ بينما كان عبدالمنعم عبدالرءوف نفسه قد توفى فى ٣١يوليو ١٩٨٥.

(٢)

أبدأ بأن أذكر أن لى على هذه المذكرات ملحوظة ربما تبدو للقارئ وكأنها (أى الملحوظة) فى غاية الطرافة، وربما تبدو نوعا من التعسف فى الفهم أو القراءة.. ذلك أن الإنسان منا حين يقع فى خصومة إخوانه أو زملائه فإنه يصور الأمور تصويرا ذا صبغة شخصية تماما حتى إنه يقيم صرحا عاليا متضخما للدلالة على صحة هذا التصور مهما كان بعيدا أو قريبا من الواقع.. وهذا طابع بشرى أو خلق إنسانى مافى ذلك من شك.. ولكن يأتى مكمن العظة والعبرة من طبيعة هذا التصوير ومدى صدقه ومدى قابليته للصدق الفنى أو الاتساق مع الوقائع التاريخية وطبيعة الخلاف.

أما الأمر الطريف فهو أن عبدالمنعم عبدالرءوف مع كل هذا الذى لاحظناه من توصيفه خلافه مع الإخوان فى مراحل مختلفة على أنه خلاف تكتيكى، فإنه حريص على أن يضفى على خلافه مع قادة الثورة من زملائه طابعاً وظيفياً بحتاً، فهو يفيض فى رواية حديثه وأحاديثه ولقاءاته المتعلقة بحرصه على العودة إلى القوات الجوية، وبحرصه على رتبته وأقدميته وميزاته و.. إلخ.

ويكتفى عبدالمنعم عبدالرءوف بهذا الحديث «الوظيفى» عن خلافه مع قادة ثورة ٢٣ يوليو وكأن الخلاف اقتصر على شئون العاملين أو شئون الضباط فحسب، فالرجل حريص على العودة إلى القوات الجوية لأن ترتيبه فيها السابع ومن ثم فإنه سيفيد من هذا الموضع!!!

وقد يعجب القارئ لمثل هذا الحديث اليوم حين كان أنداد عبدالمنعم يتولون الوزارات لا قيادة الكتائب.

ولكنى لا أحب للقارئ أن يتورط فى هذا الشعور الذى قد يكون صادقاً فى نظره اليوم، وإنما أحب أن أقول له إن عبدالمنعم عبدالرءوف كان صادقاً بالفعل فى هذا الحديث لأنه فى السنة الأولى للثورة التى شهدت حوارات عبدالمنعم حول أقدميته ووظيفته العسكرية، كانت الأمور لاتزال تدور فى هذا الفلك، وليذكر القارئ ما أثبته فى كتابى «الوزراء» من أن أول ثلاثة من ضباط الثورة تولوا الوزارات وهم: عبدالناصر و البغدادى وصلاح سالم لم يتولوا الوزارة إلا فى ١٨ يونيو ١٩٥٣، أما فيما قبل ذلك فقد عمل عبدالناصر نفسه مديراً لمكتب القائد العام للقوات المسلحة، أى مديراً لمكتب الرئيس نجيب، كذلك فإن حسين الشافعى قد استكمل دراسته فى كلية أركان الحرب، ولم يكن قد اجتاز هذه الكلية بعد مع أنه كان وصل إلى رتبة البكباشى، وكان حسين الشافعى يومها قد أصبح مديراً لسلاح الفرسان.

وليس غريباً إذن ما نقرؤه من أن عبدالمنعم عبدالرءوف كان يطلب أن يكون ـ على سبيل المثال ـ قائداً للكتيبة ١٧ بدلاً من الكتيبة ١٩.. وهكذا.

ولكن هذا لا يمنعنا أيضاً أن نلتفت إلى ما كان تحت الرماد من نار، ذلك أن عامل الثقة بين عبدالناصر ورفاقه من ناحية، وبين عبدالمنعم عبدالرءوف من ناحية أخرى، لم يكن فى أحسن حالاته، وعلى الرغم من كل المجادلات و«التماحيك» فى المناقشات بين عبدالمنعم وبين البغدادى مثلاً، فإن أنور السادات بقدرته المعروفة على البلورة وبالثقة (التاريخية) التى كانت بينه وبين عبدالمنعم عبدالرءوف قد بلور لعبدالمنعم عبدالرءوف سر الخلاف من دون تصريح وكأنه يعفى نفسه من لوم أى من الطرفين، وصاغ هذا المعنى بوضوح فى تلك العبارة القصيرة التى أثبتتها مذكرات عبدالمنعم عبدالرءوف نفسه، ولكن عبدالمنعم عبدالرءوف لم يكن فى الحقيقة راغباً فى أن يثبت على نفسه أنه يمضى فى طريق آخر.

(٣)

وفى صفحات الكتاب ما يدلنا على أن هذا الكتاب كان فيما يبدو سيصدر عن دار الطباعة والصحافة والنشر الإسلامية (بسوق التوفيقية بالقاهرة)، وتؤكد هذا المعنى هذه الخاتمة التى تشغل الصفحات ٣٢١ ـ ٣٣١، وقد نُسبت إلى «التحرير» فى هذه الدار، وفيها حوار مهم جداً مع السيدة زوج شقيق عبدالمنعم عبدالرءوف، وهذه الدار المشار إليها بهذا الاسم هى المعروفة الآن عند كل ا لجماهير بأنها دار الإخوان المسلمين ومقرهم، ويبدو أنها كانت هى التى ستتولى نشر الكتب، ولكن يبدو أيضاً أن قرارات الإخوان المسلمين التى تمر بمستويات متعددة قد انتهت فى النهاية إلى عدم القيام بالنشر!

وهكذا انتقل الكتاب بالخاتمة التى أعدها «التحرير» فى دار الطباعة إلى دار الزهراء للإعلام العربى.

وكتب الأستاذ أحمد عيد موجه اللغة العربية بالمعاش مقدمة للكتاب ذكر فيها أن علاقته بالمذكرات بدأت منذ ١٩٧٩، وأن عبدالمنعم عبدالرءوف حضر إليه فى سبتمبر ١٩٨١ وحمل ما عنده من المذكرات وأخفاها، ثم هدأت الأحوال واستأنفا الكتابة حتى توفى صاحب المذكرات فى ١٩٨٥، إلى أن يقول الأستاذ أحمد عيد:

«وقد كان لزاماً أن تعود هذه المذكرات إلى ورثته، فأعادتها إليهم دار الطباعة والنشر الإسلامية، ليكون لهم فيها حق التصرف من جديد».

وقد أرخ الأستاذ أحمد عيد توقيعه لهذه المقدمة فى ٢٣ يوليو ١٩٨٦، أى بعد وفاة صاحبها بعام وقبل نشر المذكرات بعامين، وهو ما يعطينا فكرة أخرى عن مدى التردد أو التعطيل الذى تعرضت له هذه المذكرات التى كان من الممكن إنجازها فى شهر أو شهرين على الأكثر.

ويبدو أن هذا الحظ السيء الذى واجهته هذه المذكرات قبل نشرها قد استمر بعد نشرها، فإن الصحافة (الإخوانية) التى عادة ما ترحب بمثل هذه المذكرات لم تعطها ما تعطيه عادة لما هو أقل منها، سواء فى المحتويات أو فى أهمية صاحب هذه المذكرات.

(٤)

لعل هذا كله يعكس نقطة غاية فى الأهمية وهى ما قد نتسرع بأن نطلق عليه خلاف عبدالمنعم عبدالرءوف مع الإخوان، رغم كل ما عاناه بسبب الانتماء إليهم، ولعل من أبرز ما

قد يزكى هذا الخلاف فى مستقبل الأيام هو بعض ما ورد فى هذه المذكرات، حتى وإن كان أبرز ما ترويه هذه المذكرات عن ماضى الأيام هو هذا الخلاف.

ولو كان التغيير فى عنوان المذكرات وارداً لكان عنوانها الحقيقى متعلقاً بهذا الاختلاف الصامت مع الإخوان، وقد بدأ هذا الخلاف كما يدلنا عليه عبدالمنعم عبدالرءوف بما يسمى فى العسكرية «تقدير الموقف» فى أزمة مارس ١٩٥٤ حين كان عبدالمنعم عبدالرءوف يريد قراراً حاسماً بالتصدى لعبدالناصر وهو ما يزال فى أولياته، بينما كان الإخوان فى ظل الشورى وتقليب الرأى يتباطئون.

وكان عبدالمنعم عبدالرءوف يحذرهم من مصيرهم الذى حدث بعد ذلك، وكانوا هم يفكرون بطريقة أخرى.

ولأنه لم تكن هناك قنوات ديمقراطية واضحة فى نظام الإخوان، فقد كان عبدالمنعم عبدالرءوف يبحث عمن ينقل رأيه إلى أى مسئول فى الجماعة.

هكذا ضاع خيط الموقف أو خيط السيطرة على الموقف من الإخوان ـ على حد تعبير عبدالمنعم عبدالرءوف نفسه ـ وهكذا ضاع عبدالمنعم عبدالرءوف هو الآخر لمجرد الانتماء إليهم، مع أنه ربما كان قادراً على إنقاذهم وإنقاذ نفسه بالتالى.

وهكذا تتضح لنا بعض ملامح صورة هذا الرجل ـ العسكرى حقاً ـ وهو الذى أقام حساباته فى كل المراحل على تقدير الموقف وتأثر بهذا التقدير إلى أبعد الحدود حتى لنكاد نقول إنه كان يتفوق فى عسكريته على عبدالناصر وعلى السادات، ولكنه كان ـ بكل تأكيد ـ يأتى بعدهما بمراحل كثيرة فى آفاقه السياسية، وقدراته على اتخاذ المواقف التى تتناسب مع تقدير الموقف الذى وصل إليه بسبب انتماءاته، ولهذا فليس عجيباً أن نرى فى هذا الكتاب كل هذه المعاناة المتكررة التى خاضها عبدالمنعم عبدالرءوف فى غربته ومنفاه فى بيروت والأردن وتركيا، بل وفى محاولاته أن يزيد من مواطن هذه الغربة والنفى الاختيارى [أو الإجبارى] بالتفكير فى الذهاب أو فلنقل الرحيل أيضا إلى اليمن وإلى السودان، وإفريقيا!

(٥)

وإذا جاز لنا أن نطبق على هذا الكتاب الفكرة التى يطرحها السؤال الذى يوجه إلى القراء عن الفكرة الجوهرية التى خرجوا بها من قراءته، فمن المؤكد أن الأغلبية المطلقة من القراء ستجيب بأنها خرجت بفكرة أن المرء لابد أن يتخذ قراراً بألا يترك بلاده أبدا.

فقد عبر عبدالمنعم عبدالرءوف وهو فى سن الشيخوخة عن كل المصاعب التى لاقاها بسبب ترك الوطن فى مثل هذه الظروف وأفاض فى هذا التعبير من دون أن يعلن لنا ـ فى المقابل ـ عن نشوته بالهروب، ولا عن سعادته بالحرية حين حصل عليها ولو فى المنفى، ذلك أن هذا الرجل العظيم الذى ظلمه زمانه قد عاش حتى آخر حياته مهدداً تماماً بكل ما نذر له نفسه.

وليس من شك أن النفى والتشرد يمثل لمن يعانيه أزمة نفسية لا نهاية لها حتى لو انتهت الأزمة نفسها، ولكن النفى والتشريد لم يكن هو كل ما عاناه هذا الرجل، وربما أن المأساة الكبرى فى حياة عبدالمنعم عبدالرءوف كانت تتمثل فى جو التعتيم الذى كان يحيط حياتنا السياسية كلها.

وقد أصاب هذا التعتيم شخص عبدالمنعم عبدالرءوف فى الصميم.

وإذا كان لنا أن نصدق ما كتبه فى هذه المذكرات (ولو إلى حين) فها هى فصائل الإخوان المسلمين تستجيب بالتصديق لما استطاع عبدالناصر أن يشيعه من أن عبدالمنعم عبدالرءوف قد أصبح عيناً له عليهم، ولا يستطيع عبدالمنعم عبدالرءوف بالطبع أن يقنع هؤلاء واحداً واحداً بأن هذا الذى يتداولونه هراء، ولا يتفق مع المنطق، ذلك أن تنظيم الجماعة والتعتيم الذى كانت ومازالت مضطرة إليه، لم يسمحا لعبدالمنعم عبدالرءوف بالوصول إلى الوسيلة التى تمكنه من الدفاع عن نفسه بعد كل هذا، هذا بالإضافة إلى أن مصلحة كثيرين ممن كانوا فى مواقع مسئولة فى تنظيم الإخوان المسلمين ربما كانت تقتضى إبعاد أمثال عبدالمنعم عبدالرءوف عن صدارة الجماعة.

وللأسف الشديد فإن المراقبين من أمثالى قد يحزنون أو يبتئسون لمثل هذا الحظ السيئ الذى ظل يلقى بظلاله من حين إلى آخر على ديناميات هذه الجماعة.

وللأسف الشديد مرة ثانية فإن سيوف الاتهام تظل مسلطة على رقاب أمثال عبدالمنعم عبدالرءوف حتى بعد وفاتهم، ويكون من الصعب وربما من المستحيل أن تكتب كلمة تقدير لأمثاله فى الصحف الناطقة باسم الإخوان.

وهكذا قُدر لهذه الجماعة ـ ولا راد لقضاء الله ـ أن تعانى منذ رحيل حسن البنا من اضطراب شديد فى تقييم أصحاب الجهود والنشاط فيها، دون أن تكون هناك حقيقة معلنة أو متفق عليها.

وإنى لأنتهز هذه الفرصة فأرجو القراء أن يتوجهوا معى بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى أن يلهم «إخواننا» جميعاً الصواب والتوفيق.

(٦)

بعد كل هذا يستطيع القارئ الآن أن يمضى معنا فى مدارستنا لهذه المذكرات كى يقرأ مذكرات عبدالمنعم عبدالرءوف بروح الإنصاف، وبروح البحث عن الحقيقة أيضا، وبروح تقدير الدور الضخم الذى كان لهذا الرجل أو كان متوقعا منه أن يؤديه لجماعته، وفى ضوء كل هذه المفاهيم أو الاعتبارات يستطيع القارئ أن يقرأ هذه المذكرات ليجد فيها ـ بلا مبالغة ـ أهم وثيقة سياسية تتناول دور جماعة الإخوان المسلمين ورأيها فى السياستين الداخلية والعربية بدءا من ١٩٥٤.

فهذه المذكرات تقدم لنا فى كثير من مواضعها لقطات صادقة إلى حد كبير، ومعبرة إلى حد كبير، وليس من الصعب على المؤرخين أن يتناولوا الأسماء التى رمز إليها عبدالمنعم عبدالرءوف بالأحرف الأولى فيفكوا شفرتها، وأن يربطوا الأحداث المتتالية، وأن يقدموا صورة جميلة ومعبرة يزدوج فيها الظاهر (الذى هو مسجل فى صحفنا اليومية والأسبوعية فى تلك الأوقات) والباطن (الذى سجله عبدالمنعم عبدالرءوف فى هذه المذكرات).

وبهذين الوجهين من وجوه الحقيقة يمكن لنا أن نطلع على كثير من الأحداث برؤية أكثر عمقاً وشمولاً، وإن لم تكن هى الحقيقة الكاملة.

❏

ولابد أن نبدأ مدارستنا لهذه المذكرات بأن ننقل للقارئ صورة ـ ربما تكون معبرة، وربما لا تكون ـ عن الالتزام التنظيمى عند عبدالمنعم عبدالرءوف تجاه الإخوان المسلمين، فها هو فى صفحة ١٥٠ من مذكراته يذكر كيف أنه كان حريصاً على استئذان المرشد (وهو هنا يعبر عنه بالوالد) عند تفكيره فى الهرب من المعتقل فيقول:

«فى جميع المرات التى سمح لى حارسى بالذهاب لمقابلة زوجتى تمكنت من الذهاب إلى منزل الأخ الكريم الأستاذ محمود الجوهرى، الذى كان يسكن فى حى السلخانة، ووضحت لى خطورة ترك الحكم الفردى يقوى ويمد جذوره فى أرض الوطن، وبينت له أن الضربة القادمة سوف توجه ضد جماعة الإخوان، وأشهدته على صحة تنبؤاتى حول سوء نية جمال عبدالناصر وعصابته، وعدم اهتمام قادة الجماعة لتحذيراتى ونصائحى».

ويردف عبد المنعم عبد الرءوف بما يعتقد أنه كان تقدير الموقف الذى عرضه على أحد الإخوان لينقل تفصيلاته إلى المرشد العام، ويبدو مثل هذا العرض غريبا بعض الشىء، فكل ما يتناوله ويتداوله يبدو من البدهيات، كما أن موقف أى عضو فى الإخوان المسلمين لم يكن ليحتمل كل هذه الشروط التى يشترطها الصاغ معروف الحضرى:

«وطلبت منه إبلاغ الوالد (الإمام الهضيبي) أن محاكمتي ذريعة للزج بي وبجميع الشهود فيها في السجن، لحرمان الجماعة من العناصر العسكرية في الجيش بعد أن حرموها من عناصرها من ضباط البوليس، ثم بعد ذلك يطيحون بقادتها إما بالزج بهم في غيابات السجون أو بقتلهم اغتيالاً أو بأي وسيلة أخرى، وأخبرته أنني قررت الهرب سواء أقرر الإخوان القضاء على الحكم الدكتاتوري ورجاله، أم لا، لأنني أفضل أن أحيا حراً شريدا في أرض الله من أن أسجن مظلوماً في وطني».

«فإذا وافق الوالد على هربي فأرجو أن ترسل لي عن طريق زوجتي داخل حقيبة الطعام فوطة حمراء، وإذا لم يوافق فترسل فوطة صفراء أو زرقاء، وانصرفت في انتظار إحدى الفوطتين، رجعت إلى السجن وأنا متحرق شوقاً للفوطة الحمراء التي ستكون إيذاناً بحياة الحرية الحقة والكفاح، واستطعت رغم الحراسة الشديدة والتضييق الفظيع أن أنفرد بأخي في الله الصاغ أركان حرب معروف الحضري داخل دورة مياه السجن وأسررت إليه بموجز حديثي مع الأستاذ محمود الجوهري، وخاصة حكاية الفوطة الحمراء، وأكدت عليه ألا يبلغ أحداً أياً كان بهذا الحديث، وعرضت عليه الهروب فطلب مهلة ساعة للتفكير، وجاءني الرد منه كتابة موجزاً في الشروط التالية:

١ ـ أن يصله مندوب خاص من الوالد (الإمام الهضيبي) يطلب منه استعداد الجماعة للعمل.

٢ ـ أن تضمن له الجماعة رعاية شئون أولاده أثناء غيابه.

٣ ـ أن يشمل الهرب جميع الإخوان الذين معنا».

«وفي اليوم التالي وصلت لي حقيبة الطعام ووجدت بها الفوطة الحمراء فكانت برداً وسلاماً على قلبي، وتمكنت بعد وصولها من مقابلة أخرى مع معروف الحضري وأطلعته عليها وقلت له: اتصل أنت بطرقك الخاصة بالوالد، أما أنا فلا أستطيع مع السجن صبراً».

(٧)

وفيما بعد يذكر لنا عبدالمنعم عبدالرءوف قصة لقائه بواحد من زعماء الإخوان (صفحتي ١٦٢ و١٦٣) لا يحدد اسمه وإن كان تحديد اسمه ليس صعبا على مَنْ يحيطون علما بأحداث هذه الفترة ونشاط الجماعة فيها:

«وبعد حوالي أسبوع زارتني الشخصية الإخوانية المسئولة عقب تناول طعام الإفطار مباشرة ، وكانت هذه الشخصية هو الأخ (أ.أ.أ) وجلست بجواره ومعنا الأخ (م.م.ع)، وبدأ

الأخ (أ.أ.أ) حديثه بأن حمد الله، وأثنى عليه، وصلى وسلم على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه وتابعيه، وتضرع إلى المولى أن يهدينا سواء السبيل وينصر دعوتنا، وقال موجهاً كلامه لى: إنى أبلغك تحيات جميع إخوانك وقد كلفونى بأن أستمع لكل آرائك وكل طلباتك لأنقلها إليهم لدراستها، ثم أعود إليك بإجاباتهم وقراراتهم إزاءها».

«وقبل أن أسرد ما قلته رداً على حديث الأخ المسئول (أ.أ.أ) أقول إن معرفتى به وثيقة، فقد عرفته منذ عام ١٩٤٥ عندما عرفنى به الأخ عبدالرحمن السندى ببلدة الرقة فى عزبة الأخ (ح.ع) عندما كنت أقوم بتدريب شباب النظام الخاص للإخوان، هناك، وتعددت مقابلاتى به بين الحين والآخر فى مراكز تدريب فى الشرقية والقليوبية، والتقيت به فى المركز العام، وكنت أشعر دائماً بأهمية الدور الموكل إليه فى تأسيس النظام الخاص للإخوان، لذلك عندما جلست إليه وسمعت منه ما قال اطمأننت إلى كونى أتحدث مع شخص من أركان النظام، فقلت له: إننى أشهد الله، وأشهدك، وأشهد التاريخ على كل ما أقوله لك فى هذه الجلسة التاريخية».

«اعلم يا أخى أن هربى سيفسر لدى الحكومة بأن الإخوان هم الذين شجعونى وسهلوا لى السبيل، وأنهم سيستعينون بى فى تدريبهم سراً توطئة للقيام بانقلاب، ولن تتوانى الحكومة لحظة واحدة فى مراقبتكم مراقبة دقيقة، ثم تتحين الفرصة للزج بكم مرة ثانية فى غيابات السجون، لهذا فإننى أرجوك أن تبلغ المسئولين من قادة الجماعة إذا كانوا ينوون تغيير النظام القائم فعليهم أن يضعوا نصب أعينهم عامل الوقت بأن يتفقوا فوراً على خطة عمل ويسعوا لتنفيذها بإخلاص وسرعة ودقة، وإياكم والتأخير».

على هذا النحو ينبئنا عبدالمنعم عبدالرءوف ـ ربما بعد فوات الأوان ـ أنه كان واعيا جدا لعامل الوقت، وأنه نقل هذا الوعى إلى أصحاب القرار من الإخوان المسلمين، لكنهم لم يقدروا خطورة الأمر بنفس الدرجة من الدقة التى تمتع بها تقديره هو.

(٨)

وينتقد عبد المنعم عبد الرءوف بعض القرارات المتسرعة التى ينسب صدورها إلى الإخوان المسلمين من قبيل عدم اشتراكهم فى الحرس الوطنى، ومع أن مثل هذا التوجه الإخوانى كان واردا فى مثل تلك الأوقات، فإن الصواب الذى ينسبه عبد المنعم عبدالرءوف إلى نفسه لم يكن مسيطرا بما فيه الكفاية، وهو ما مكن مجموعة الثورة من الانتصار فى النهاية على الإخوان، ويأتى حديث عبد المنعم عبد الرءوف عن هذا الخطأ الفكرى أو الاستراتيجى للإخوان ضمن حديثه عن رفقته لأحد أفراد الإخوان فى الطريق حيث يقول:

«... وفى العودة أخبرنى عبداللطيف أنه التحق بالحرس الوطنى وكان مبرزاً فى إصابة الهدف ورقى لرتبة أومباشى، ولكنه بناء على تعليمات الإخوان بعدم الاشتراك فى الحرس الوطنى تركه منذ شهور».

«وهنا فكرت ملياً فى هذا الخطأ الكبير الذى ارتكبته قيادة الإخوان عندما اتخذت هذا القرار الذى تسبب عنه أولاً حرمان شباب الإخوان من التدريب العسكرى فى وقت هم فيه أحوج إليه، وثانياً فقد عدد من الإخوان لهم تأثيرهم الأدبى والمعنوى والمادى بين غيرهم من شباب الوطن، وثالثاً حرمان الإخوان من الأسلحة والذخائر المسلح بها الحرس الوطنى مما يزيد من أعبائنا فى سبيل الحصول عليها، ورابعاً إبعاد شباب الإخوان من صميم الحرس مما حرمنا من المعلومات التى تكشف نوايا الحكومة وصعوبة عملية استخدام الحرس، والاستفادة به فى القيام بأى عمل نفكر فيه».

وربما نسأل أنفسنا هل كان عبدالمنعم عبدالرءوف يتمتع حقا فى تلك المرحلة المبكرة بكل هذه القدرة على التفكير المنظم والمستشرف لآفاق المستقبل؟ أم أنه فى هذه المذكرات لا يعدو أن يكون رجلاً يدعى الحكمة بأثر رجعى؟

وعلى الرغم من أن عبد المنعم عبدالرءوف لا يحدد لنا بدقة مكانته أو مكانه فى التنظيم الخاص للإخوان المسلمين، فإنه يبدو وكأنه يريد أن يوحى بأنه كان من أصحاب الحل والعقد فيه، ونراه فى هذه المذكرات يجاهر بانتقاده للحال التى وصل إليها النظام الخاص للإخوان المسلمين فى الفترة التى يحددها بأنها كانت بعد شهرين من هربه، وهو لا يجد أى حرج فى توجيه انتقاداته بصوت عال وأفكار محددة وهو يقول فى صراحة:

«... مضى حوالى ثلاثة أسابيع منذ اجتماع قادة النظام، كنت فيها نهباً للغيظ والانفعال لمرور هذا الوقت الضائع، علاوة على شهر ونصف من قبل، فيكون المجموع شهرين وأسبوعاً دون أن نبدأ فى تجهيز شىء عملى، بل على العكس كانت كل الظواهر تدل على مظاهر ضعف كثيرة ومتنوعة تتلخص فى الآتى:

١ ـ الفصائل غير كاملة التسليح والتدريب، وبالكاد يمكن تسليح فصيلة واحدة على الوجه الأكمل، علاوة على بعض الأفراد فى الفصائل.

٢ ـ لم تتوقف قيادة النظام عن طبع وتوزيع المنشورات رغم معارضتى الشديدة، مما يدل على قصر نظر، وعدم تنسيق بين تفكيرى وتفكيرهم.

٣ ـ يتركز وجود الفصائل فى القاهرة، ويكاد الوجه القبلى يخلو منها تماماً، أما الإسكندرية والوجه البحرى فضعاف مما يجعل عملية حرب العصابات مركزة فى العاصمة، فيسهل القضاء عليها بعملية اعتقالات عشوائية واسعة النطاق.

٤ ـ إن العسكريين من رجال الجيش لم يلتقوا بى حتى الآن، ولم تبد أية ظاهرة تدل على أنهم أعادوا تنظيم صفوفهم بعد الضربة التى وجهتها لهم الحكومة، ونجم عنها محاكمتى، وإحالة عدد من الضباط إلى التقاعد ورفت بعض الصولات».

❑

وبعد سبع صفحات من الحديث السابق يعود عبدالمنعم عبدالرءوف لينعى على النظام (.. هكذا بدون تحديد.. وهو فى الغالب يقصد نظام الإخوان المسلمين الخاص، وربما يقصد أيضا نظامهم العام) ضعف الضبط والربط بين بعض الطلبة، وهو يدلنا على الظواهر التى تؤكد صحة نظرته هذه فيقول:

«... وقد بدا ذلك فى الرغبة فى الضحك والضعف البدنى، مما حدا باثنين إلى الاستئذان والعودة لمنزليهما ورغبة آخرين فى الزوغان من الطوابير والعمل فى المطبخ».

❑

وبعد خمس عشرة صفحة أخرى يتحدث صاحب هذه المذكرات بتعال وتأفف عن اللجنة الخماسية التى تشكلت فى بيروت من الإخوان المسلمين ولا ندرى لماذا لم يذكر اسم العضو الخامس فى هذه اللجنة، ولكنه يحدثنا فى كثير من المواضع عن عدم ارتياحه لهذه اللجنة التى كانت تضم أيضاً سعيد رمضان وكامل الشريف وسعد الوليلى، ويذكر أنه استقال من هذه اللجنة بعد أن «لمست كثيراً من التصرفات التى أرجو أن يعذرنى القارئ من عدم ذكرها». ويتناب القراء من أمثالى الشك من أن يكون عبد المنعم عبد الرءوف قد أراد بهذه التعمية أن يتجنب مزالق الرد على اتهامات أجنحة أخرى من الإخوان له.

ومن ناحية أخرى يحرص عبدالمنعم عبدالرءوف على أن يبدو فيما يرويه وكأنه يترفع عن أن يخوض فى مثالب زملائه من زعماء الإخوان المسلمين.

(٩)

وفى كثير من فقرات هذه المذكرات يتحدث صاحبها بعدم ارتياح أو باشمئزاز ونفور عما أشاعه عنه بعض الإخوان المسلمين من أنه أصبح جاسوساً لعبدالناصر على الإخوان فى أثناء تواجده فى بيروت(!!)

ومع هذا كله فإن هناك سطرين صريحين فى هذه المذكرات قد يدينان عبدالمنعم عبدالرءوف نفسه من وجهة نظر الإخوان، ولا أدرى كيف بقيا هكذا فى هذه المذكرات حتى

الآن، وأنا أقصد بهذين السطرين قوله هو نفسه راويا رأى السفيرالمصرى فى بيروت فيه (صفحة ٢٣١):

«وقال السفير: إن عبدالمنعم لا يفيد السفارة بشىء ولا خطر منه الآن فهو على خلاف مع قادة الإخوان».

وبالطبع فإن السفارة المصرية فى بيروت وعلى رأسها السفير المصرى كانت تعمل لمصلحة عبدالناصر ضد الإخوان وليس العكس!!

❑

كذلك فإن عبدالمنعم عبد الرءوف يناقش بتوسع أكبر مثل هذه الآراء فى الصفحة التالية راويا قصة وتفصيلات حوار اشترك فيه مع بعض الإخوان فإذا الحوار ينبئ بكل وضوح عن تقييم بعض هؤلاء لصاحب المذكرات على أنه خارج على الصف:

«قال الأخ.. لن تمر أيام إلا ونرى عبدالمنعم معنا فى التنظيم، فقال الأخ الزائر: إن الذى يريد الإصلاح يجب ألا يخرج من الصف، وهناك مثل عبدالمنعم!».

«قلت: مَنْ قال إننى خرجت من الصف؟! إننى حضرت إلى هذه البلاد عام ١٩٥٥ محكوماً علىّ بحكمين، الأول: بالأشغال الشاقة المؤبدة بتهمة محاولة انقلاب، والثانى: بالإعدام بسبب حوادث الإخوان، وحين وصلت، سئلت: هل أنت على استعداد للعمل؟ فأجبت بالقبول وتكونت اللجنة الخماسية لكننى شعرت بأنهم يتصرفون بعقول قديمة، كالقائد الذى حضر معارك الحرب العالمية الأولى، فعرضت عليهم اقتراحاتى من واقع تجاربى، فلم يتفاعلوا معى، وكنت أشد فيهم شدا دون جدوى».

«أما عن العمل والجهاد فأنا مستعد الآن للذهاب فوراً بملابسى هذه دون أن أودع أولادى فما رأيك؟».

«إننا منذ تعلمنا فرائض الإسلام مستعدون للاستشهاد فى سبيل الله، وانفض الاجتماع من غير أن نتفق على شىء، ومرت الأيام والشهور ولا أمل فى عودة المعاش، [ربما يقصد معاشه الرسمى الذى كان قد نجح بمعاونة زملائه من قادة الثورة فى تحويله إلى الخارج، وهو ما يستشهد به مناوئون على أنه كان يعمل لحساب عبد الناصر، والحاصل أن هذه الفقرة تنبئ عن أنه كان لا يزال على علاقة بطرفى الصراع فى مصر: عبد الناصر ونظامه من ناحية، والإخوان من ناحية أخرى] والإخوان لم يقرروا أى شىء، وكانت تأتينى مساعدات قليلة من بعض الأصدقاء، كانت تسد بعض الاحتياجات، لأن زوجتى كانت فى بداية عملها، وكان كثير من الإخوان يشكون فىّ [هكذا يقول ويروى]، حتى إن أحدهم صارحنى بأنى أتعامل مع

المخابرات المصرية، ودليله على ذلك حصولى على المعاش وجواز السفر، وحضور عبدالناصر حفل زفاف ابنتى!! فقلت له هل هذا دليل كاف؟ وأيهما أكثر شبهة.. أنا أم الذى يسمح له بالسفر إلى مصر ومعه أسرته؟».

ولا يذكر لنا عبدالمنعم عبدالرءوف فى هذه الفقرة مَنْ هو هذا الزميل المقصود بأنه كان يسافر مصر ومعه أسرته؟ ولكن يبدو أن هذا الذى يشير إليه كان إخوانيا سابقا من الذين احتفظوا بصلاتهم بالإخوان وبعبدالناصر فى ذات الوقت على نحو ما كان يشاع من أن عبد المنعم عبد الرءوف كان هو الآخر كذلك!! على أنه يجدر بنا هنا أن نذكر أنه فى موضع آخر من المذكرات يشير عبدالمنعم عبدالرءوف إلى زميله الضابط الإخوانى أبو المكارم عبدالحى على أنه كان يعيش فى بيروت ويتصل بالسفارة المصرية والمخابرات فى مصر.

❑

ويعود عبدالمنعم عبدالرءوف إلى مناقشة نفس هذه الفكرة المتعلقة بالاتهام بازدواجية الولاء، وهو يتناول هذه الاتهامات من وجهة نظره، فيتحدث عن أيام منفاه ويذكر فى فقرتين متتاليتين (كأنه أو كأن الناشر يقصد هذا المعنى) موقف كل من المخابرات المصرية والإخوان منه، وهذى هى عباراته حيث يقول:

«عاد الأخ نجيب وأخبرنى بأن صلاح نصر أمر بصرف مرتب لى لما بلغه من سوء حالتى المالية وهو مرتب لواء».

«وأبلغنى بأن صلاح نصر يخشى من عودتى لعمل تنظيمات فى مصر، فأجابه نجيب: فليكن حضوره على مسئوليتى وإن فعل شيئاً فاضربونى بالرصاص».

ثم يستطرد عبدالمنعم عبدالرءوف مباشرة بلا فاصل إلا عنواناً جانبياً «اجتماعات مع الإخوان»:

«اجتمعت مع بعض الإخوة وقال أحدهم: إن اجتماعات كثيرة لإخوان من عدة بلاد عربية عقدت وآخرها فى موسم الحج، وتقرر إعادة التنظيم وتجنب أخطاء الماضى، وهناك تقارب وتعاون كثير بينهم، وسمعت أحاديث كثيرة عن شقاق وخلاف، وضرورة إبعاد أشخاص عن العمل فى صفوف الجماعة حتى يستقيم الأمر، وكان من ضمن ما سمعت أننى صرت جاسوساً لعبدالناصر، وتعجبت لذلك فكيف أكون جاسوساً وأنا مشرد مرة فى الأردن وأخرى فى تركيا وحالياً فى بيروت أعانى من الظروف المادية والإقامة والبطالة، وأرجعت ذلك إلى أن هناك أشخاصاً يهمهم نشر هذه الشائعات لتغطية تصرفاتهم».

على هذا النحو لا يدافع صاحب هذه المذكرات عن نفسه فحسب، لكنه يتهم غيره حتى وإن كان لم يحدد أسماء مَنْ يتهمهم!!

وعلى هذا النحو نستطيع أن نفهم بسهولة كثيراً من الآراء التى لم يشأ عبدالمنعم عبدالرءوف أن يصرح بها، ولكنه اجتهد كثيراً حتى جعلنا نقرؤها فى سهولة، اجتهد الرجل كى يجعلنا نقرأ هذه الحقائق التى استنتجها هو من وقائع أوردها لنا متابعة كى نستنتج نحن القراء ما استنتجه هو، بعدما عانى فى سبيل حريته واستقراره واطمئنانه وأمنه وأمانه، ولنا أن نقرأ مثلاً ما يصرح به عبدالمنعم عبدالرءوف بالنص حيث يقول:

«وأستطيع أن أقرر هنا أن فضيلة المرشد حسن الهضيبى كان صريحاً معى لأول مرة مما أثلج صدرى».

ومعنى هذا بوضوح شديد أن عبد المنعم عبد الرءوف كان متيقنا من أن المرشد لم يكن صريحا معه فيما سبق من لقاءات.

ومن الواضح والذى لا يدع مجالاً للشك، أن عبدالمنعم عبدالرءوف أراد بهذا الكتاب أو أن كاتبه أو ناشره أن يعطينا فكرة عن أن الإخوان كانوا فى حالة من ضعف التنظيم وانفكاك أو انحلال الإرادة.

ونحن حين نحلل النصوص لا نستطيع أن نفرض عليها رؤيتنا، ولا أن نتجاوز لنقول مثلاً إن هذا الذى نفهمه من هذا الكتاب هو تكتيك إخوانى مثلاً، أو انتقام لعبدالمنعم منهم، إنما هذا هو النص الذى أمامنا وأمام القراء.

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى ما ذكره عبدالمنعم عبدالرءوف مثلاً فى أحد المواضع من أنه طلب منهم معلومات محددة حتى يمكن له أن يضع لهم خطة ما يسميه بانقلاب إسلامى، وهو يقول ما نصه بالحرف الواحد:

«فقال الأخ (أ.أ.أ): إن إخوانى المسئولين يطالبونك بوضع خطة لعمل انقلاب إسلامى. فقلت له: لكى أضع هذه الخطة فإنى أطالبكم بسرعة موافاتى بالمعلومات التالية والتى أرجو أن تكون مطابقة للواقع حتى نستطيع التنفيذ فى حدود إمكاناتنا:

١ ـ عدد أفراد النظام الخاص المدربين وغير المدربين على الأسلحة الصغيرة فى كل مديرية على حدة، خلاف العواصم.

٢ ـ عدد أفراد النظام الخاص المدربين وغير المدربين على الأسلحة الصغيرة فى القاهرة والإسكندرية والسويس وبورسعيد والإسماعيلية والمنيا وأسيوط وأسوان.

٣ ـ عدد أفراد النظام الخاص المدربين وغير المدربين على الأسلحة الصغيرة فى كل حى من أحياء القاهرة والإسكندرية.

٤ ـ كشف مفصل به جميع الأسلحة الصغيرة الصالحة للاستعمال: رشاشات ـ بنادق ـ طبنجات ـ قنابل يدوية ـ خناجر ـ ذخائر فى كل مديرية وعاصمة على حدة.

٥ ـ أسماء الضباط و الصف ضباط الذين يمكن الاعتماد عليهم بالجيش ومدى المساعدات التى يستطيعون تقديمها.

٦ ـ أسماء الضباط والصف ضباط الذين يمكن الاعتماد عليهم بالبوليس ومدى المساعدات التى يستطيعون تقديمها.

٧ ـ عدد السيارات والدراجات البخارية والدراجات العادية الموجودة لدى أفراد النظام الخاص.

٨ ـ كشف مفصل به المهن الفنية وغير الفنية التى يعرفها كل فرد من أفراد النظام الخاص، ودرجة إجادته القيادة لمختلف وسائل المواصلات، والدرجة العلمية الحاصل عليها».

ولا أظن أن أحداً كائناً من كان فى أى تنظيم سرى كان قادراً على أن يدلى لعبدالمنعم عبدالرءوف أو لغيره بكل هذه التفصيلات بمثل هذه السهولة.

(١١)

هل لنا بعد كل هذه التفصيلات التى قدمناها عن موقف صاحب هذه المذكرات من الإخوان وموقفهم منه بعد ثورة ١٩٥٢ وتطورات الأحداث فى ١٩٥٣ و١٩٥٤ هل لنا أن نعود بالكاميرا لبداية علاقته بهم.

من حسن الحظ أن عبد المنعم عبد الرؤف كان حريصا على أن يروى فى هذه المذكرات بداية تعاونه مع الاخوان المسلمين بقدر معقول من التفصيل، وإن لم يكن ـ فى ذات الوقت ـ قد تناول القصة كلها بالكامل، وهو يحكى قصة لقائه الأول بالمرشد العام الشيخ حسن البنا فى أواخر مايو ١٩٤٢ فيقول :

«ذهبت إلى المركز العام ، وأدخلنى الأخ الطوبجى غرفة فضيلة المرشد فوجدته ومعه رجلان ، هما المرحوم الصاغ محمود لبيب ، والدكتور مهندس حسين كمال الدين».

«استقبلنى الثلاثة بحرارة واستفسروا عن صحة الفريق أركان حرب عزيز المصرى باشا، وسألونى عن الأسباب الحقيقية لاندلاع النيران فى جناح الطائرة ، فأجبتهم بما أعرف فى اختصار ، ثم قلت لهم :

«لو أن الروح الإخوانية التى لاحظتها فى دروس الثلاثاء تسود الجيش المصرى لعاد ذلك

عليه بالخير الكثير ، وأن أول شئ يجب البدء فيه هو تكوين مجموعة من الضباط تعتنق مبادئ جماعة الإخوان المسلمين ، وهى الحق والقوة والحرية ، لتكون نواه تنبت منها خلايا تعم كل وحدات الجيش ».

«استحسن فضيلة المرشد العام الشيخ حسن البنا ذلك الكلام وقال لى:

«إن أخاك الصاغ محمود لبيب سيعينك على تحقيق هذه الفكرة ، سيكون المشرف على تكوين هذه المجموعة ، وتمنى لنا التوفيق».

(١٢)

كذلك تتضمن هذه المذكرات ما يرويه عبدالمنعم عبدالرءوف بكل وضوح ودقة عن قصة تكوين الخلية الأول لضباط الاخوان المسلمين من وجهة نظره حيث يقول :

«... استطعت فى شهر أكتوبر عام ١٩٤٢ أن أدعو ضابطا من ضباط الكتيبة الثالثة لحضور درس الثلاثاء بدار المركز العام لجماعة الإخوان المسلمين ، وهو النقيب جمال عبد الناصر حسين ، ثم اتبعته بضابط ثان وهو الملازم أول حسين أحمد حمودة الذى نقل على قوة الكتيبة ، ثم دعوت ضابطا ثالثا هو الملازم أول كمال الدين حسين من سلاح المدفعية ، وكان منزله قريبا من منزلى بحى السيدة زينب ، وكثيرا ماتجاذبنا أطراف الحديث أثناء ركوبنا (الترام) صباحا متوجهين إلى وحدتنا».

«ثم دعا الملازم أول حسين أحمد حمودة ضابطين أولهما شقيق زوجته الملازم أول سعد توفيق من سلاح الإشارة (توفى إلى رحمة الله عام ١٩٦٢) ، وثانيهما الملازم أول صلاح الدين خليفة من سلاح الفرسان ، وكانا زميلين فى الدراسة فى مدرسة الأمير فاروق الثانوية ، وكان لصلاح خليفة صلة وثيقة بجماعة الإخوان المسلمين ، ودعا الملازم صلاح الدين خليفة زميلا له من سلاح الفرسان هو الملازم أول خالد محيى الدين ، واكتمل عددنا سبعة عام ١٩٤٤ ، وواظبنا على اللقاء أسبوعيا فى بيت هذا مرة ، وفى منزل ذاك مرة أخرى ، وهكذا ، ولم يتغيب الصاغ محمود لبيب عن هذه اللقاءات إلا فى النادر».

«وكنا كلما حل مساء الثلاثاء التقينا لنستمع إلى رأى الإخوان المسلمين فى مشكلات الساعة داخليا وخارجيا، أو نستمع إلى محاضرة اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية بين هتافات الإخوان التى تهز وجدان كل مسلم. وكنا حريصين على أن يكون ذهابنا إلى درس الثلاثاء ، وجلوسنا وعودتنا متفرقين ، اتقاء لعيون المخابرات».

ويستطرد عبدالمنعم عبدالرءوف إلى أن يذكر بالأسماء مجموعة من الضباط المؤسسين لخلية الإخوان فى القوات المسلحة، وسيدهشنا أن نرى الخلية تضم كل هذه الأسماء المعروفة بعد هذا فى عصر الثورة:

«وازداد عدد خلايانا فى أسلحة الجيش».

«فمن سلاح الطيران انضم إلى تنظيمنا الطياران حسن إبراهيم مصطفى ومصطفى بهجت».

«ومن سلاح خدمة الجيش: المرحوم معروف الحضرى، وعبد الرحمن محمد أمين، ومجدى حسنين، وإبراهيم الطحاوى».

ومن المشاة: فؤاد جاسر، وجمال ربيع، وأحمد حمدى عبيد، ومحمد أمين هويدى ، ومحمد كمال محجوب، ووجيه خليل ».

«ومن مدافع الماكينة: وحيد جودة رمضان».

(١٣)

كما تحفل هذه المذكرات بتفصيلات قصة بيعة عبدالمنعم عبدالرءوف وجمال عبدالناصر وخالد محيى الدين وكمال الدين حسين ضمن سبعة من الضباط الشبان للإخوان المسلمين وهى البيعة السرية التى تحدث عنها أيضا خالد محيى الدين وحسين حمودة اللذين تتناول مذكراتيهما فى هذا الكتاب. ومن الجدير بالذكر أن الأقطاب الثلاثة أصحاب هذه المذكرات لم يختلفوا فى التفصيلات التى يروونها عن هذه البيعة.

وتشير هذه المذكرات إلى حقيقة الدور الإيجابى للفنان أحمد مظهر فى المحاولة التى قام بها عبدالمنعم عبدالرءوف لتهريب عزيز المصرى (صفحة ٢٩).

كما تعرفنا هذه المذكرات بجوانب مهمة من شخصية ونشاط عزيز المصرى (فى صفحتى ٢٧ و٢٨ وما بعد ذلك).

وتقدم لنا هذه المذكرات تعريفا جيدا بشخصية الصاغ محمود لبيب، ولكن مذكرات حسين حمودة تتفوق عليها فى هذه الناحية.

و تروى لنا هذه المذكرات تكوين الخلية الأولى «للضباط» الإخوان المسلمين من سبعة هم: عبدالمنعم، وعبدالناصر، وحسين حمودة، وكمال الدين حسين، وسعد توفيق.. شقيق زوجة

حسين حمودة، وصلاح الدين خليفة.. صديق حسين حمودة، وخالد محيى الدين.. صديق صلاح الدين خليفة (صفحة ٤٣)، وتتكرر هذه الأسماء بشيء من التفصيل فى الصفحات التالية. وفى هذه الجزئية تتفق هذه المذكرات تماماً مع مذكرات حسين حمودة التى نعرض لها فى باب آخر من هذا الكتاب.

وفى التاريخ المعاصر تظل بيعة هؤلاء الضباط بمثابة واقعة مهمة جدا للتدليل على الانتماء الاخوانى المبكر لجمال عبدالناصر على الرغم من طبيعة سلوكه وتوجهاته بعد وصوله إلى السلطة.

يقول عبدالمنعم عبدالرءوف:

«استدعانى وصلاح خليفة الصاغ محمود لبيب ، وعرفنا بالمرحوم عبد الرحمن السندى الذى شرح لنا متى وكيف سيتم أخذ العهد وحلف اليمين ، وقد تم ذلك على النحو الآتى :

«ذهبنا نحن السبعة فى ليلة من أوائل عام ١٩٤٦ إلى المركز العام لجماعة الإخوان المسلمين بالملابس المدنية حسب اتفاق سابق ، وبعد تكامل عددنا قادنا صلاح خليفة إلى منزل فى حى الصليبة بجوار سبيل أم عباس ، حيث صعدنا إلى الطابق الأول فوق الأرض ونقر صلاح خليفة على الباب نقرة مخصوصة وسأل:

«الحاج موجود ؟».

«وكانت هذه هى كلمة السر ففتح الباب ، ودخلنا حجرة ذات ضوء خافت جدا مفروشة بالحصير ، وفيها مكتب موضوع على الأرض ليست له أرجل ، فجلسنا على الحصير ، ثم قادنا صلاح واحدا بعد الآخر لأخذ العهد وحلف اليمين فى حجرة مظلمة تماما ، يجلس بها رجل مغطى بملاءة فلا تعرف شخصيته ، وكان سؤال الشخص المتخفى الذى يأخذ العهد:

هل أنت مستعد للتضحية بنفسك فى سبيل الدعوة الإسلامية ؟

فكان جواب كل منا : نعم.

فقال : امدد يدك لتبايعنى على كتاب الله وعلى المسدس.

ثم قال الرجل المتخفى :

إن من يفشى سرنا ليس له سوى جزاء واحد وهو جزاء الخيانة.

وبعد أن أعطى كل منا البيعة ، عدنا إلى الحجرة الأولى ذات الضوء الخافت ، فوجدنا شخصا عرفنا بنفسه ، وذكر أن اسمه عبد الرحمن السندى ، وقال : إنه يرأس النظام الخاص للإخوان المسلمين ، وهو تنظيم سرى مسلح يضم رجالا باعوا أنفسهم لله وكلهم مستعدون للموت فى سبيل الحق والحرية.

وكان الذين بايعوا على فداء الدعوة الإسلامية فى هذه الليلة حسب الأقدمية فى كشوف الجيش.

١ـ النقيب عبد المنعم عبد الرؤف من الكتيبة الثالثة مشاة (طيار سابق).

٢ـ النقيب جمال عبد الناصر حسين من الكتيبة الثالثة بنادق مشاة ، ورئيس الجمهورية فيما بعد.

٣ـ الملازم أول كمال الدين حسين من سلاح المدفعية وعضو مجلس قيادة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فيما بعد.

٤ـ الملازم أول سعد حسن توفيق (توفى إلى رحمة الله عام ١٩٦٢).

٥ ـ الملازم أول خالد محيى الدين من سلاح الفرسان وعضو مجلس قيادة الثورة، فيما بعد، ورئيس حزب التجمع الوحدوى الآن.

٦ ـ الملازم أول حسين محمد أحمد حمودة من الكتيبة الثالثة بنادق مشاة.

٧ ـ الملازم أول صلاح الدين خليفة من سلاح الفرسان وهو يعمل الآن مديرا لشئون العاملين بمحافظة الجيزة.

❑

ويجدر بنا هنا أن نشير فى عجالة إلى أن لهذه المذكرات آراء واضحة فيما يتعلق بعدد من أقطاب الإخوان المسلمين والأحداث التى مرت بهم:

- ❑ يشير عبدالمنعم عبدالرءوف إلى انضمام الأستاذ سيد سابق إلى الرئيس جمال عبدالناصر فى التشكيك فى صلاحية الأستاذ الهضيبى لمنصب المرشد (صفحة ١١٩).
- ❑ فى هذا الكتاب تحليل جيد لشخصية هنداوى دوير المتهم الرئيسى فى قضية اغتيال الرئيس عبدالناصر، وفى صفحتى ١٦٦ و١٦٧ يشير إلى اللقاء به، ويلخص رأيه فى أن هنداوى «طيب القلب، وكثير التدخين، ضعيف الإرادة، وعصبى المزاج وثرثار، قوى التحمل نوعاً ما، سريع اليأس».
- ❑ يشير إلى قيام «الأخ الأستاذ نجيب جويفل» بالتوسط بينه (أى بين عبدالمنعم عبدالرءوف) وبين السلطات المصرية دون أن يعرفنا به أو بعلاقته به (صفحة ٢١٤).
- ❑ يذكر لنا أن مظاهرة من عشرة آلاف شخص قامت فى الخرطوم تأييداً لعبدالناصر فى قرار إعدام سيد قطب ورفاقه (صفحة ٢٣٩)، وهى واقعة غير مشهورة، ولها دلالتها(!!)

□ فى صفحة ٢٥٤ يشير إلى «عصام العطار» على أنه سبب نكبة الإخوان فى سوريا وأن له ميولاً بعثية عفلقية، وأنه كان عضواً فى حزب البعث.

(١٤)

وتتضمن هذه المذكرات كثيرا مما يرويه عبد المنعم عبد الرؤف عن تطور علاقته بعبدالناصر والضباط الأحرار فيما قبل الثورة، وهو يذكر سببا يبدو وجيها ومنطقيا لإطلاق اسم «تنظيم الضباط الأحرار» على المجموعة التى كانت تضم جمال عبدالناصر وعبدالمنعم عبدالرءوف، ولسنا نملك الحكم على صواب ما يرويه صاحب هذه المذكرات لكننا نلاحظ حرصه على أن يروى إسراع الصاغ محمود لبيب إلى زوجة جمال عبدالناصر للتعبير عن التضامن الإخوانى مع أسرة جمال عبدالناصر مع أننا لا نفهم مما يرويه أن عبدالناصر أبعد أو اعتقل فى هذه الحادثة وإنما خرج من لدن لقائه برئيس الوزراء إلى عمله مرة أخرى :

«وفى ٢٥ من مايو ١٩٤٩ استدعى جمال عبد الناصر لمكتب رئيس الوزراء إبراهيم عبد الهادى بحضور رئيس هيئة أركان حرب الجيش عثمان المهدى ، ووجهت إلى جمال عبد الناصر تهمة الانتماء إلى جماعة الإخوان المسلمين وتدريبهم ، ولكنه استطاع أن ينفى هذه التهمة عنه».

«وأسرع الصاغ محمود لبيب المسئول عن تنظيم الإخوان الضباط بإرسال مرتب شهر لزوجة جمال عبد الناصر، وإبلاغها اهتمام إخوانه الضباط بموضوع التحقيق وأنهم لن يتخلوا عنه ، مما أثبت قوة ارتباطنا ماديا».

«وبمناسبة هذا الحادث اقترح علينا الصاغ محمود لبيب استبدال تنظيم الإخوان الضباط باسم (الضباط الأحرار) لإبعاد اسم جماعة الإخوان المسلمين المكروهة من الملك والأحزاب العميلة والإنجليز».

ينبغى هنا أن نتوقف لننبه إلى ملحوظتين:

الأولى: رواية جمال منصور عن اختيار هذا الاسم وأنه هو صاحب التسمية، وأن عبدالناصر نفسه ذكر هذا لمحمد حسنين هيكل، ويمكن للقارئ أن يقرأ تفصيلات ما يرويه جمال منصور فى الباب الخامس من هذا الكتاب.

أما الملحوظة الثانية فهى الإشارة إلى خطأ المذكرات فى إدخال حرف الجر الباء على

الشيء الجديد، بينما العكس (أى أن تدخل الباء على الشيء المتروك لا الجديد) هو الصواب، وهذا الخطأ مما يقلب المعنى تماماً كما نعرف.

(١٥)

ونأتى إلى ما يرويه عبدالمنعم عبدالرءوف عن حدوث التحول فى فكر جمال عبدالناصر، وهو التحول الذى قاده إلى توسيع ما قد نطلق عليه قاعدة العمل الانقلابى، وعدم قصره على الإخوان المسلمين الملتزمين فحسب:

«... وفى شهر سبتمبر ١٩٤٩ أبلغنى جمال عبد الناصر عقب حضوره إلى القاهرة فى إجازة ميدان أنه يريد عمل انقلاب ، ولا يستطيع تجميع الضباط حول مبادئ جماعة الإخوان المسلمين واتباع هذا الأسلوب المتزمت فى اختيارهم المتمثل فى أن يشترط فى الضابط الذى يراد ضمه للتنظيم اجتناب الخمر والميسر والنساء الساقطات ، وضرورة المواظبة على الصلاة ومحبة الجنود له، والتزام النساء من أهله بالزى الإسلامى ، والطاعة لقرارات مكتب الإرشاد وضرب لى مثلا بقوله:

«إن خالد محيى الدين تركنا عام ١٩٤٧ واعتنق المبادئ الماركسية ، وانضم إلى منظمة «أيسكرا» الشيوعية».

«وطال الجدال بينى وبين جمال عبد الناصر ، واستغرق عدة ساعات ، وظل كل منا متمسكا برأيه : جمال عبد الناصر يريد ضم أكبر عدد من الضباط بصرف النظر عن التسيب الخلقى والتحلل من الزى الإسلامى لنساء عائلة الضابط ، كما عارض بقوة طاعة الضباط لقرارات مكتب الإرشاد لجماعة الإخوان المسلمين ووصفهم بالتزمت».

«قلت له : إن التسيب فى اختيار الضباط سيوقعنا فى مطبات المخابرات ، كما أن عدم ارتداء زوجاتنا للزى الإسلامى سيجعلنا أضحوكة أمام جنودنا فى المناسبات الدينية والوطنية والطريق العام».

«وقال جمال عبد الناصر : إن هدفى الأول هو إلغاء النظام الملكى وقد انضم إلى تنظيم الضباط الأحرار ضباط حوصروا معى فى الفالوجا ، مثل صلاح سالم ، ويعمل معنا عبد الحكيم عامر ، وخالد محيى الدين».

«وبعد ذلك ذهبت إلى الصاغ محمود لبيب وحدثته بكل ماقاله جمال عبد الناصر وعزيز المصرى وماقلته أنا فقال : قل لجمال إن جماعة الإخوان المسلمين متزمتة متزمتة!!».

(١٦)

وتدلنا هذه المذكرات على حقيقة مهمة لا يتجاوزها عبدالمنعم عبدالرءوف ولا يلف حولها، وإنما هو يجد في نفسه الشجاعة في الاعتراف بها حيث يذكر عبدالمنعم عبدالرءوف في مذكراته أنه لم يعلم بنبأ قيام الثورة إلا من الإذاعة، مع أنه حاول الاتصال بعبدالحكيم عامر في الأيام السابقة على قيام الثورة، ولا يدلنا هذا إلا على أن أصحاب الحركة لم يكونوا راغبين في أن يعلم عبدالمنعم عبدالرءوف بخطتهم وهو ما يدلنا بصورة تلقائية على مدى التوجس المبكر منه ومن الإخوان المسلمين كذلك!!:

«.. وصلنا القاهرة، وذهبت إلى بيتي حيث زرت زوجتي وبنتي ، وفي يوم ١٩ يوليو ١٩٥٢ زرت شقيقيّ الكبيرين ، ثم توجهت صباح نفس اليوم إلى منزل عبد الحكيم عامر للسؤال عنه ، لأنني قرأت في أوامر المحطة العسكرية بالعريش نبأ مرضه ، وظهر لي من حديثي معه أنه بحالة جيدة ، ودعاني لزيارته في منزله بالعباسية الساعة ١٠٠٠ يوم ٢٠ يوليو ١٩٥٢ ، فذهبت إليه في الموعد المحدد ، وأبلغتني فتاة في سن الشباب وكبيرة الشبه بعبد الحكيم عامر بأنه غير موجود ، ولم يترك موعدا لي فانصرفت».

«وذهبت إلى داري أنتظر وأترقب أوامر من قيادة الجيش أو من مكتب الإرشاد لجماعة الإخوان المسلمين ، فلم يتصل بي أحد مطلقا لا من هؤلاء ولا من أولئك أيام ٢٢ يوليو إلى صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ عندما سمعت إذاعة القاهرة تعلن نبأ الانقلاب واحتلال مبنى قيادة الجيش بكوبري القبة ولم أبارح منزلي بقية نهار يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢».

«وبعد غروب الشمس لذلك اليوم ذهبت إلى مركز قيادة الجيش مرتديا الزي العسكري لسببين : أولهما تهنئة قادة الانقلاب ، وثانيهما تلقي الأوامر الخاصة بي كضابط في إجازة ميدان ، وإجازتي تنتهي بعد باكر لأعود إلى مقر عملي في أبي عجيلة».

«صعدت إلى الدور الأول ، وقد ساعد معرفة الضباط لاسمي ووجود بطاقتي الشخصية معي على وصولي إلى غرفة القيادة الجديدة، حيث وجدت على بابها الصاغ أركان حرب كمال الدين حسين ، وسألته عن جمال عبد الناصر ، فأشار لي إلى مكانه ، وكانت غرفته تقع في نفس الصف الذي نتحدث عنده ، وتفصلنا عن هذه الغرفة أربع غرف اتجهت نحو الغرفة، فوجدت جمال عبد الناصر يغط في نوم عميق ، فهززته عدة مرات وناديته باسمه كاملا ياجمال عبد الناصر .. وباسمه المدلل مرة (جيمي) وقلت له : أنا عبد المنعم عبد الرؤف .. اصح وكررتها عدة مرات ولكن دون جدوى ، ولكنه كان يقاطعني بكلمات متقطعة : الملك ! الملك ؟ اسكندرية .. اسكندرية .. رأس التين .. المنتزة .. رأس التين .. المنتزة !!».

«فتركته دون أن أهنته وعدت من نفس الطريق ، فاستوقفنى الصاغ أركان حرب كمال الدين حسين ، وقائد الأسراب حسن إبراهيم عضو مجلس قيادة الثورة عند غرفة القيادة الجديدة وسألنى الصاغ أركان حرب كمال الدين حسين : إلى أين أنت ذاهب ؟».

«فقلت له : إلى منزلى استعدادا للعودة باكر للعريش ، ومنها إلى أبى عجيلة حيث توجد كتيبتى».

«قال لى كمال : لا تسافر وستصلك أوامر عند الفجر عن تحركات جديدة».

«نظرت بسرعة داخل غرفة القيادة الجديدة فرأيت اللواء أركان حرب محمد نجيب جالسا والباقين متوارين ولم يدعنى أحد للدخول فلم أدخل ، واستنتجت من زيارتى أشياء هامة».

١ ـ أن الملك فى أحد قصريه بالإسكندرية يشغل بال عبد الناصر ويقلقه أثناء نومه.

٢ ـ أن الصاغ أركان حرب كمال الدين حسين أبلغ اللواء محمد نجيب نبأ حضورى لزيارة عبد الناصر واقترح عليه وعلى الذين كانوا معه فى الغرفة تعيينى فى إحدى الوحدات المسافرة إلى الإسكندرية لتنفيذ باقى الانقلاب.

٣ ـ أن هذا الاقتراح قوبل بالموافقة الفورية منهم ، بدليل أننى لم أمكث أكثر من ثلاث دقائق لمحاولة إيقاظ جمال عبد الناصر لتهنئته.

٤ ـ أن انضمام حسن إبراهيم إلى كمال الدين حسين ليبلغانى عدم العودة إلى أبى عجيلة ، وترقب أوامر عند الفجر كان لتفهيمى صورة الجدية للأوامر بأنها صادرة من قيادة الانقلاب ، فالأول كان زميلا لى فى سلاح الطيران ، وشاهدته عدة مرات فى بيت الفريق أركان حرب عزيز المصرى ، والثانى هو العضو الرابع فى الخلية الأولى لجماعة الإخوان المسلمين الضباط ، الذين أقسموا يمين البيعة لفداء الدعوة الإسلامية عام ١٩٤٦.

٥ ـ أن الأوامر التى ستصلنى عند الفجر ستكون السفر إلى الإسكندرية.

«انصرفت مسرورا تجاه منزلى وأبلغت زوجتى بأنى سأسافر باكر غالبا إلى الإسكندرية وليس لأبى عجيلة، وطالبتها بتجهيز حقيبة صغيرة بها غيارات وملابس، وعرفتها أن سيارة ستمر لتأخذنى عند الفجر».

«عند صلاة الفجر دق باب شقتى بالسيدة زينب الصاغ أركان حرب عبدالوهاب جمال الدين، وهو زميلى فى كتيبتى فى أبى عجيلة، وزاملنى فى نفس القطار لقضاءأجازة ميدان فى القاهرة، وأبلغنى بأننى عينت قائدا للكتيبة ١٩ بنادق مشاة، وهى فى انتظارى عند فندق مينا هاوس بالهرم على طريق مصر ـ إسكندرية،وأنه عين أركان حرب مجموعة اللواءالسابع الواقفة هناك أيضا، استعدادا للتحرك معا إلى الإسكندرية».

«ودعت زوجتى وركبت السيارة بصحبة الصاغ أركان حرب عبدالوهاب جمال الدين إلى حيث نشطت كتيبتى الجديدة ١٩ بنادق مشاة، وقمت بالتميم عليها فوجدت أن عدد ضباطها تسعة وكلهم برتبة ملازم أول، ما عداى فأنا برتبة مقدم، وكان هناك نقص كبير فى الصف ضباط والجنود، فعينت الملازم أول محمد كامل سليم أركان حرب لى، ووزعت الضباط الباقين على السرايا بمعدل واحد لكل سرية، وضابط للشئون الإدارية، وسادس للمخابرات».

ونأتى إلى فقرة يحاول عبدالمنعم عبدالرءوف (أو كاتب المذكرات) فيها أو بها أن يعطى الإيحاء بأن الجهاز السرى للإخوان كان على علم أو مشاركة فى خطوات الثورة فى تلك الأيام أو الساعات التى أعقبت الثورة:

«وعند وصول مقدمة مجموعة اللواء السابع بقيادة العقيد أحمد شوقى لميدان المنشية، أسرعت بسيارتى إلى محل تجارى يعمل فيه صديق لى منذ كنت طيارا فى محطة الدخيلة اسمه علىّ الدين زكى، وكلفته بتوصيل رسالة كتبها الأخ عبدالرحمن السندى (قائد النظام الخاص لجماعة الإخوان المسلمين) إلى أخ إسكندرانى اسمه القراقصى (قائد النظام الخاص للإخوان المسلمين بالإسكندرية) يبلغه فيها الثقة بى والتعاون معى فى جميع المجالات إذا تأزمت الأمور».

«طلبت من علىّ الدين زكى أن يؤكد على الأخ القراقصى أن يمر بى عند معسكر مصطفى باشا اليوم».

«أيقظتنى نوبة صحيان قبل صلاة الفجر بقليل، واستدعانى قائد مجموعة اللواء السابع العقيد أحمد شوقى وسلمنى قطعة من ورق النشاط كتب عليها الغرض المطلوب منى تنفيذه، وكان الغرض محاصرة قصر رأس التين، ومنع دخول وخروج أى شخص ومنع الاحتكاك على أن يتم ذلك قبل سعت ٧٣٠ اليوم ٢٦/ ٧/ ١٩٥٢ تحت قيادتك جماعة مدافع ماكينة، فى معاونتك تروب مدفعية متوسطة».

«أبلغت أن هذا الغرض متضارب فى الفقرتين الثانية والثالثة! إذ كيف يمكننى منع الدخول والخروج للموظفين وغيرهم على اختلاف رتبهم ووظائفهم وأعمالهم من وإلى القصر دون حدوث احتكاك؟»

«أجاب: تصرف بما تراه مناسبا».

«كان الوقت حينئذ سعت ٦٠٠ من يوم ٢٦/ ٧/ ١٩٥٢، وكان جنودى راكبين جاهزين للحركة فاتجهت بهم صوب قصر رأس التين، وعلى بعد ٣٠٠ ياردة ترجل الجميع وجمعت الضباط والصف ضباط والجنودُ المعينين بدل الصف ضباط كل سرية على حدة، وقائد مدافع

الماكينة وقائد تروب المدفعية، وشرحت لهم خطتي لمحاصرة القصر وهي لا تختلف كثيرا عن تقريري المدون بتاريخ ٢٧/ ٧/ ١٩٥٢ وهذا نصه ليقف القارئ منه على تلك الخطة:

«ك ١٩ مشاة..

رقم القيد ....

التاريخ ٢٧/ ٧/ ١٩٥٢

حضرة صاحب العزة قائد اللواء المشاة السابع القائمام أحمد شوقى

أتشرف بأن أرفع تقريرى هذا لعزتكم للتكرم بالنظر:

فى يوم ٢٤/ ٧/ ١٩٥٢ سعت ٢١٣٠ كنت بزيارة لهيئة أركان حرب الجيش للقوات المسلحة فقابلت عزتكم، وأصدرتم لى أمرا بتعيينى قائدا للكتيبة ١٩ مشاة، وحوالى سعت ٤٥٥ يوم ٢٥/ ٧/ ١٩٥٢ وصلتنى إشارة بمنزلى من مخصوص بأن الكتيبة المذكورة تحركت من ثكناتها، وطلب منى مقابلتها عند ميناهاوس، وقد قمت فورا بالتنفيذ، وقابلنى حضرة الصاغ إسماعيل السيد عبدالوهاب حيث سلمنى الكتيبة واتخذت قيادتها إلى الإسكندرية، وقد أعطى للكتيبة واجب محاصرة قصر رأس التين ومنع دخول وخروج أى شخص إليه».

«فى سعت ٧١٠ تحركت الكتيبة من ملعب البلدية متجهة نحو القصر فوصلته سعت ٧٤٠ وقد قمت فورا بتوزيع القوة حول القصر بعد استكشاف سريع، وقد وجدت أن الجانب الأيسر منطقة هامة حيث إنها مشرفة على الميناء مباشرة، فأمرت بتكثيفها بنيران مدافع الماكينة، وفعلا وضعت بها فصيلة مشاة وجماعة مدفع فيكرز، وقد تم الحصار فعلا سعت ٧٥٥».

«فى سعت ٨٠٠ وفى أثناء وجودى بتنظيم مواقع هذه المنطقة أطلقت طلقات نارية من جهة السراى على قواتى وشاهدت مدفع فيكرز ينصب فى حديقة القصر للاستعداد لفتح النيران على قواتى، فوجدت أنه من الضرورى سرعة تأمين قواتى، خاصة وقد ابتدئ بفتح النيران من ناحية الحرس، فأمرت بإطلاق النيران على مواقع الحرس وفعلا تم ذلك، وترك طقم المدفع موقعه ودخلوا القصر، وخرج خمسة من ضباط الحرس على رأسهم اللواء عبدالله باشا النجومى معلنين الاستسلام، وقدموا أسلحتهم، إلا أنه قد فتحت نيران سريعة وفردية من مبانى الحرس بالقصر من جهات عدة خاصة من أعلى المبانى على مواقعنا فجاوبناها بالمثل وأسكتناها، وخرج ضابط برتبة اليوزباشى (نقيب) حاملا علما أبيض معلنا استسلام كل مَن فى القصر».

«وبعد فترة حضر حضرة القائمام عبدالله رفعت من حرس القصر، وأخذ على عاتقه عدم

إطلاق أى طلقة من ناحية القصر، وعليه أمرت بوقف إطلاق النيران فى الحال، وقد أصيب فى المعركة كل من الجندى حميدة أبوسريع من ك ٢ .م .م، والجندى سعد الدين عطية من ك ١٩ مش».

«ولا يفوتنى أن أقرر ما قام به كل من حضرات الضباط والصف والعساكر الآتية أسماؤهم بعد لما أبدوه من شجاعة وثبات وتنفيذهم لأوامرى بحماس وإيمان تحت وابل من النيران السريعة، مما أثار إعجابى، كما أنهم يستحقون تقدير عزتكم وهم:

حضرة الصاغ إسماعيل السيد عبد الوهاب من ك ١٩ مش.

حضرة اليوزباشى مدحت زكى شعيب من ك ١٩ مش.

حضرة ملازم أول حسين على حافظ من ك ٢.م .م.

حضرة ملازم ثانى محمد كامل سليم من ك ١٩ مش.

حضرة ملازم ثان عبدالمحسن أبوزهرة من ك ١٩ مش.

وأمباشى ميخائيل فرنسيس.

وعسكرى محمد عبد الحليم إبراهيم من طقم رشاش فيكرز

وعسكرى محمد إبراهيم جاد الله من ك ٢ .م.م.

وعسكرى محمد أحمد على.

عسكرى سيد محمد سليمان.

عسكرى محمد البيومى أبو شهاب من طقم رشاش براوننج من ك ٢.م .م.

وتفضلوا بقبول وافر الاحترام ..

بكباشى

عبدالمنعم عبدالرءوف

قائد ك ١٩ مش»

❑

ولا يفوتنا فى حديث هذه المذكرات عن خروج الملك فاروق فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ أن نشير إلى احتمال الخلط بين الصاغ إسماعيل السيد عبدالوهاب (صفحة ٧٤) والصاغ عبدالوهاب جمال الدين (صفحة ٧٣)، طبعاً الاسمان مختلفان ولكن كان لابد بالتعريف بالشخصيتين حتى لا يختلط الحديث عن دورهما فى أحداث يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢.

ومما تنفرد به هـذه المذكرات أنها تروى موقفاً نبـيلاً للملك فاروق حسبمـا ورد على لسان العقيد عبدالله رفعت الذى كان قائداً لـلحرس الملكى يوم محاصرة رأس التين والذى يروى أن فاروقاً قال: «أنا أضحى بألف عرش ولا أسمح لكلب إنجليزى أن يـضع قدمه على أرض مصر ثانية».. وقد روى العقيد عبدالله رفعت هذا الموقف فى أول سبتمبر ١٩٧٥!!

(١٧)

وبالإضافة إلى ما تَضـمنته هذه المذكرات من حديث عن مساهمة عـبدالمنعم عبدالرءوف فى ثورة ٢٣ يوليو فإنها سرعان ما تنتقل إلـى الحديث عن محاولته [أو رغبته] فى العودة إلى القوات الجوية،بعد الثورة وكأنما كان هذا هو كل هدفـه فى الحياة فى تلك الفترة، أو كأنه يلجأ إلى هـذا الحديث لـيستبعـد ما يدور بـتفكـيرنـا حول موقـفه من الخـلاف المبـكر بين الـثورة والإخوان:

«... وفى أحد أيام شـهر سـبتمبر ١٩٥٢ حضر إلى مكتـبى بأرض المعرض قائـد الـسرب حسن عزت واللواء صلاح حتاتة وتحدث الأول مزكيا عودتى للقوات الجوية ، وأن قادة الثورة لن ينسـوا جهادى وتعاونى معهـم ، وخاصة عبد اللطيـف البغدادى ، ثم تدخل اللـواء حتاتة مؤازرا له فقلت له :

إنهم مسئولون أمام ضمائرهم عن عودتى لـلقوات الجوية ، ولن أبدأ بالكلام أو الكتابة فى هذا الموضوع.

وأصر حسـن عزت أن يأخذنـى معه فذهبـت إلى رئاسـة القيادة العـامة، وهناك دخل بمفرده حجرة قائـد الجناح عبد اللـطيف البغدادى ، وبـعد قليل خرج وصـحبنى إلى الداخـل وأثناء دخولى قابلنى صلاح سالم قائلا لى :

أنا زعلان منك !!

فاستحلفته بأن يخبرنى بالسبب فلم يجب.

فدخلـت الحجرة حيث وجدت الـبغدادى وحسن إبراهـيم وأنور السادات وعلى صبرى (شقيق حسين ذو الفقار صبرى زميلى فـى حادث الطائرة مع عزيز المصرى) وبدأ حسن عزت يوجه كلامه للبغدادى عن ضرورة رجوعى للقوات الجوية ، فقال البغدادى موجها كلامه لى :

لا .. لأنك متغيب عن القوات الجوية سنين !

فقلت له :

ولماذا ستعيدون زميلى فى نفس الحادث حسين ذو الفقار صبرى للطيران ؟!!

فرد البغدادى بقوله :

لأنه لا يزال يقرأ كتب الطيران.

فقلت له :

إن الطيران لا يحتاج إلى قراءة فقط ، وإنما يحتاج إلى لياقة صحية وأعصاب وتدريب وأنا أحس بقدرتى فى هذا المجال.

وهنا تدخل قائد السرب على صبرى شقيق حسين ذو الفقار صبرى قائلا :

إننى سأنسحب من لجنة الضباط بالقوات الجوية عندما ينظر موضوع رجوع شقيقى ، وبعد قليل تكلم صلاح سالم قائلا :

إننا لا نستغنى عنك فى سلاح المشاة.

فعقبت على كلامه وقلت له :

أشكرك ، ولكن حرمانى من العودة للقوات الجوية فيه مساس بكرامتى ، بل أرى أنكم لابد أن تعيدوا لى اعتبارى بإرجاعى ، كما أن أقدميتى فى القوات الجوية السابع ، وهذا فيه امتيازات أدبية ومادية ، فحرام عليكم أن تحرمونى من كل هذا ، وكل القادة يعرفون كفاءتى ووطنيتى وتدينى ، ولم أبخل على الضباط الأحرار بالمساعدات المالية وتوزيع المنشورات.

وهنا قال قائد الجناح جمال سالم :

على العموم اللجنة هى التى ستقرر كل شئ.

ثم تحولت إلى أنور السادات أطلب منه أن يقول كلمة طيبة فى هذا الموضوع ، فرد علىّ قائلا :

نعمل لك إيه !! إحنا ماشيين يمين وأنت ماشى شمال !!

فسكت ، واستأذنت فى الانصراف ، ومعى قائد السرب حسن عزت.

«وبينما أنا خارج رآنى جمال عبد الناصر ، وكان واقفا مع اليوزباشى شمس بدران فنادانى، ولكننى كنت متأثرا مما سمعت ، فاعتذرت لجمال عبد الناصر واستمررت فى السير إلى الخارج».

(١٨)

وبعد صفحات أخرى يحكى عبد المنعم عبد الرءوف تطور محاولاته فى هذا الموضوع بالذات وذلك بعد صدور قرار الثورة إعادة زميله حسين ذو الفقار صبرى إلى القوات الجوية وبقائه هو حيث كان دون أن يعود إلى محل أمانيه وهو يحكى قصة لقاءه بعبدالناصر وعبد الحكيم عامر فيقول :

«يوم ١٧ من أكتوبر ١٩٥٣ قابلت نائب رئيس مجلس الوزراء جمال عبد الناصر والقائد العام للقوات المسلحة عبد الحكيم عامر ، وجلسنا نحن الثلاثة حول نفس المائدة التى كنا نجلس حولها قبل قيام الحركة ، فى بداية الحديث قال لى جمال :

«إننى لم أكن أعرف أنك موجود هنا ، وقد حضرت بناء على مكالمة تليفونية من عبد الحكيم ، سألته عن هدى ومنى ابنتيه وعن ابنه خالد ».

«فقال : إننى أود أن تزورنى مع زوجتك».

«فلما كلمته عن شدة الحراسة وصعوبة الوصول إلى منزله قال :

«عندك عباس رضوان يدلك على الطريق».

«بدأنا مناقشة موضوع رجوعى إلى القوات الجوية ، فتحدثت عن موقفى من الضباط الأحرار قبل وأثناء وبعد قيام الحركة ، وماقدمته لها من خير وتضحية وذكرت جمال بموضوع مبايعته جماعة الإخوان المسلمين بجهة الصليبة».

«وأن الإخوان المسلمين هم أصحاب الفضل الأول فى هذه الحركة».

«وقد اعترف لى جمال عبد الناصر أمام عبد الحكيم عامر قائلا :

«أشهد أن الحركة حركتك وأنك مؤسسها الأول».

«فعاتبته على إغفال إسمى فى مذكراته التى نشرها !!».

«فقال :

«إننى لم أكتب سوى المقال الأول ثم استأنف الكتابة شخص آخر غيرى (ولم يرد أن يذكر اسم ذلك الشخص)

«وأكد لى جمال أنه لايزال يتمسك بصداقته لى ، ولمعروف الحضرى ، وأنه حريص على الود القديم».

«قلت له :

«إن من حقى الدخول معك فى مجلس قيادة الثورة».

«فرد على قائلاً :

«أنا موافق على هذا ».

«ومن خلال الحديث ، فهم جمال عبد الناصر أننى مديون ، فعرض أن يسدد كل ديونى ، ولكننى رفضت ذلك ، وفهمت منه أننى لست وحدى المديون وأن عبد الحكيم عامر وصلاح سالم مديونان لعبد الفتاح فؤاد ، الأول بمبلغ مائتى جنيه مصرى والثانى بمبلغ ثلاثمائة جنيه مصرى ».

«وأثناء جلستنا الثلاثية دخل علينا الطيار قائد أسراب على صبرى وصاغ أركان حرب صلاح نصر ويوزباشى عباس رضوان كما أطلعنى جمال على مذكرة تعد عن (النشاط السرى للإخوان المسلمين) و لم أقرأ منها إلا العنوان».

«وفى نهاية الجلسة طلب منى جمال عبد الناصر زيارته بمنزله لنأكل معا القرع ، وسألنى عما إذا كان عندى تليفون ، فأجبته أن عندى ثلاثة تليفونات ، وكرر ذلك مرة أخرى قبيل خروجه».

«وعندما هممنا بالخروج قال جمال : إنه سيخرج أولا حتى لا يعرف أحد أننا كنا مجتمعين».

ربما نتوقف هنا لنسأل أنفسنا: لماذا لم يسأل عبدالمنعم عبدالرءوف نفسه عن سر سلوك الرئيس جمال عبدالناصر وحرصه على إنكار ما قد يدل على اجتماعه مع عبدالمنعم عبدالرءوف أمام مساعديه أو زملائه!!

ونعود إلى رواية عبدالمنعم عبدالرءوف:

«وانتهى الاجتماع بالمصافحة والقبلات والوعد برجوعى للقوات الجوية إن شاء الله ».

«وفى يوم الأربعاء ٢ من ديسمبر ١٩٥٣ قابلت القائد العام بمكتبه فقال لى :

«إنه وقع نشرة ترقيتى إلى رتبة لواء جوى اعتبارا من ١ ديسمبر ١٩٥٣ وسآخذ أقصى معاش لقائد فرقة جوية ، حوالى ثمانين جنيها مصريا ، وسأعمل فى مصلحة الطيران المدنى بماهية أخرى فى مستوى درجتى ، وطلب منى الاتصال بقائد الجناح عبد اللطيف البغدادى بخصوص هذه النقطة».

(١٩)

ونعود بالكاميرا إلى الماضى أكثر وأكثر لنطالع البدايات الثورية لصاحب هذه المذكرات حيث يتحدث عبدالمنعم عبد الرؤف عن لقاءاته هو ومجموعة من زملائه بالثائر العظيم عزيز المصرى، وأثر هذه اللقاءات فى تكوين فكرهم الوطنى وشخصياتهم المستعدة للفداء والمغامرة:

«... لم يزد عدد الضباط الذين رأيتهم عند الفريق عزيز المصرى على بضعة ضباط أذكر منهم: ملازم أول محمد أنور السادات ، وملازم أول محمد وجيه خليل ، والطيارين الأوائل حسن عزت وحسن إبراهيم».

«ومما رواه لنا فرادى ومجتمعين أنه كان ضابطا فى الجيش التركى ، وحارب فى جبهة البلقان كما حارب فى الجبهة الغربية ، وكان يخصص بغلا ليحمل عليه ما لا يقل عن أربعمائة كتاب فى مختلف اللغات والدراسات ، وأنه يجب أن يتوافر فى الشباب الصدق والأمانة والجرأة والذكاء والقوة البدنية ، وأن يختار الزوجة المتعلمة الذكية ، وكان يحذرنا من الخونة سواء كانوا سياسيين أو عسكريين ، وأن الإنجليز أفسدوا جزءا من أجهزة الشرطة وجعلوه يعمل بأوامرهم لحماية مخططهم الاستعمارى ، وتنفيذ السياسات الخاصة بضرب الحركات الوطنية والمناهضة للملك والاستعمار ، بدلا من أن تقوم بواجبها الأمنى ومطاردة الانحرافات الخلقية ، ثم قال : لقد عانيت الكثير من ضباط المباحث فكانوا يراقبون تليفونى ، ويتنصتون على محادثاتى ، ويراقبون بيتى ويفتشونه من حين لآخر».

«وفى إحدى المرات التى فتشوا فيها بيتى وبعد أن غادرت الشرطة منزلى وجدت أن مذكراتى التى أعددتها عن تاريخ حياتى ودراساتى فى ألمانيا ومشاهداتى فى أنحاء العالم ، ومذكراتى فى الجمعيات السرية مثل جمعية العهد ، وجمعية الإصلاح والترقى ، واشتراكى فى حرب البلقان قد سرقت».

«وقال : إنه صاحب فكرة تحويل سيارة مدرعة فى الجيش المصرى الى قوة نيران بأن تدافع وتهاجم وتنسحب ، وذلك بأن ركب عليها رشاشا فوق أسطوانة دائرية ، بحيث يستطيع الجندى الذى يستخدم الرشاش أن يطلق نيرانه فى دائرة ٣٦٠ درجة ضد الطائرات وضد الأرض ، وقد تم الاستعانة بعمال ورش الصيانة لإعداد هذه السيارة ، وبذلك ثبت أن الصانع المصرى يستطيع أن يطور الأسلحة بدلا من شراء أسلحة بريطانية بمبالغ باهظة».

«كان اهتمامى بتاريخ عزيز المصرى وكثرة زياراتى له وضبط مواعيدى معه كفيلة بأن

تجعلنى محل ثقته ، الأمر الذى جعله يختار لى اسما حركيا غير اسمى الحقيقى للتعاون معه وهو اسم (نبيل) ولما كثر استعمال هذا الاسم استخدمت صناعة السباكة والحلاقة والتجارة لتحديد موعد اللقاء».

ويمضى عبد المنعم عبد الرؤف بعد ذلك فى رواية قصة استكشافه مع أنور السادات لجبل رزة (غرب فرع رشيد بالقرب من الخطاطبة) من أجل تهريب الفريق عزيز المصرى ، وقد استعان على ذلك ـ حسبما يروى ـ بالفنان أحمد مظهر ، وبصديقه محمد أبو المجد الفولى.

(٢٠)

وتحدثنا مذكرات عبد المنعم عبد الرءوف بقدر معقول من التفصيل عن حقيقة الدور الثورى المبكر فى تاريخ صاحبها، وهو الدور البارز الذى قام به فى محاولة هروب عزيز المصرى وهى المحاولة التى شاركهما فيها الطيار حسين ذو الفقار صبرى:

«... وبعدها قال لى عزيز المصرى كلاما ينوه فيه باستعمال طائرة فقلت له : إن الطائرات التى فى سربى صغيرة ، ولا تستطيع الطيران إلا لمسافات قصيرة وتحمل اثنين فقط ، الواحد خلف الآخر ، ثم فكرت فى جس نبض الطيار أول حسين ذو الفقار صبرى أحد طيارى سرب المواصلات والطيارات ماركة (أنسون) حيث تستطيع طائرات هذا السرب الاستمرار فى الجو أربع ساعات وهى حاملة مائة طن ، وتناقشت معه فى موضوعات كثيرة ومنها زيارة عزيز المصرى ، وتم اللقاء وخرج من الزيارة مهتما بضرورة مساعدة عزيز المصرى للسفر إلى الخارج».

«وفى يوم الخميس ١٦ من مايو عام ١٩٤١ حضر حسين ذو الفقار بعربة ضابط عظيم المطار ، وأخذنى من مكان قريب من منزلى ، واتجهنا إلى مكان قريب من فندق فيتيواز وأخذنا عزيز المصرى ، ودخل ثلاثتنا المطار موزعين واجباتنا كالآتى :

١ـ يقوم عبد المنعم عبد الرءوف بحراسة عزيز المصرى حتى يتم تحليق الطائرة بأمان.

٢ـ يقوم حسين ذو الفقار بإخراج الطائرة إلى مكان التحليق بمساعدة ميكانيكى الطائرة واختبارها ، وعليه بعد ذلك إعطاء إشارة لركوب عزيز المصرى وأمتعته ، وفى تلك الأثناء كان يوجد بقاعدة ألماظة بعض صف الضباط من أفراد البعثة البريطانية ، وتركنا أمر التصرف فيهم لحسين ذو الفقار ، وإذا حدث أن تدخلوا فى الأمر فعلى حسين ذو الفقار إعطاء إشارة التصدى لهم حتى ولو أدى الأمر إلى قتالهم ، وتم والحمد لله كل شئ وبسلام».

حوالى عشر دقائق ، سمعنا صوت انفجارات وتلاها مباشرة اندلاع النيران فى أحد الجناحين ، فأسرعت بتقديم مظلة الهبوط إلى عزيز المصرى للقفز بها من الطائرة ، ولكنه أخذها وألقاها بعصبية على أرض الطائرة ، فتركته وجلست بسرعة بجوار حسين أراقب محاولة النزول مستعينين بضوء القمر».

«وهبطنا فوق بستان يوسفى مغمور بالمياه فساعد ذلك على إطفاء النيران ، وخففت الأشجار من حدة الارتطام بالأرض ، ولما حاولنا الخروج من الطائرة وجدنا أنه من الصعب فتح بابها فكسرنا النوافذ وغصنا فى الأوحال والمياه حتى منتصف السيقان ، إلى أن وصلنا إلى الطريق الزراعى ، وعرفنا من بعض الفلاحين الطريق إلى مركز الشرطة ، واسم المأمور الذى أعار عزيز المصرى سيارة أوصلتنا من قليوب إلى ميدان الأوبرا ، ومنه ركبنا تاكسى إلى إمبابة حيث كان عزيز المصرى يعرف أحد المثالين ، وهو الأستاذ عبدالقادر رزق ، وكان مدرسا بمدرسة الفنون الجميلة ، واستضافنا عنده وكانت شقيقته تقوم على خدمتنا».

❑

هكذا تثبت رواية عبدالمنعم عبدالرءوف فى هذه المذكرات شيئا آخر خلاف ما هو شائع عن وجهة سفر عزيز المصرى وضابطيه، فلم تكن هذه الوجهة هى ألمانيا لكنها كانت وجهة أكثر قرباً بكثير عن هذا. ومن العجيب أننا حين نتأمل هذا الحادث الآن نعجب من أن عزيز المصرى لم يخطط لما كان ينبغى له أن يخطط له من تأليف قصة تغطى محاولة خروجه لو قُدر له أن يفشل فى هذا الهروب. وهكذا فإنه اضطر إلى الاختباء عندما فشلت المحاولة!!:

«وبعد مرور يومين أعلن مكافأة قدرها ألفا جنيه لمن يرشد عن ثلاثة من الضباط الهاربين ، وهم الفريق أركان حرب المتقاعد عزيز المصرى باشا ، والطيار أول حسين ذو الفقار ، والطيار أول عبد المنعم عبد الرؤف أبو الفضل ، وقيل : إننا كنا فى طريقنا إلى ألمانيا ، علما بأن الطائرات المصرية لا تستطيع أن توصلنا أكثر من بيروت ، وقد كان فى نيتى ونية حسين ذو الفقار العودة إلى مطار ألماظة مباشرة بعد تزويد الطائرة بالوقود ، وتحمل أى جزاء يوقع علينا».

«وفى يوم الجمعة ٦ من يونيو عام ١٩٤١ بينما كنت أنظر من ثقب فى شيش النافذة المطلة على الشارع العمومى شاهدت رجلا مرتديا جلبابا ينظر فى اتجاه البيت والنوافذ ، فأسرعت إلى عزيز المصرى وابلغته أن البيت مراقب ، فطلب منا ألا نطلق النيران إذا هوجمنا ».

«وبعد دقيقتين دق جرس الباب ، فذهبت شقيقة المثال عبد القادر رزق لاستطلاع الأمر، فرد عليها رجل من خلف الباب يسأل عن الأستاذ عبد القادر رزق ، فردت عليه بأنه ذهب

للصلاة ، فقال لها : خذى هذه البطاقة وأعطيها له ، ولما فتحت الباب وضع الرجل قدمه بين ضلفتي الباب ، ومنعها من إغلاقه ، وبأسرع مايمكن وجدت شخصا طويلا ممتلئ الجسم في غرفتنا وقال بصوت هادئ : عزيز المصرى أرجو أن تأمر الضباط ألا يستخدموا طبنجاتهم ، فرد عليه عزيز المصرى بأنه أمر بذلك ، وكان خلف هذا الشخص شخص آخر في نفس الشكل والطول ، ولكنه أنحف قليلا بحيث لا يرى أثناء وقوف الاثنين خلف بعضهما ، وكان مستعدا لاستعمال السلاح في أى لحظة. لأن طبنجته كانت فى يده مصوبة إلينا ، فقمنا بارتداء ملابسنا وذهبنا إلى سجن الأجانب ، وهناك وضع كل منا فى حجرة ، وسمح لنا بإحضار الطعام من منازلنا ، وكانت زوجتي الأولى ـ رحمها الله ـ حريصة على إحضار الطعام والملابس ومايلزمني بنفسها».

(٢١)

وفى رواية صاحب هذه المذكرات لتطورات قصة هروبه مع عزيز المصرى وحسين ذو الفقار صبرى وما أعقبها من عقوبات وقعت عليهم يذكر لنا عبدالمنعم عبدالرءوف كيف استقبلهم الزعيم مصطفى النحاس باشا وهو رئيس للوزراء وأنهى إليهم نبأ الإفراج عنهم فى ذلك اليوم بحضور وزير الدفاع ورئيس الأركان والضابط الآمر بالتشكيل، وهكذا نرى فى هذه المذكرات مدى صدق وطنية الوفد والنحاس باشا الذى لم يبق على هؤلاء فى المعتقل على الرغم من ظروف الحرب العالمية الثانية، بل إننا نلاحظ أن النحاس أفرج عن هؤلاء الوطنيين قبل أن ينقضى شهر على توليه رئاسة الوزارة!!:

«... وفى ٥ من مارس عام ١٩٤٢ استدعانا نحن الثلاثة مصطفى النحاس باشا رئيس حزب الوفد المصرى ورئيس الوزراء إلى جناحه الخاص بفندق مينا هاوس ، وبحضور أحمد حمدى سيف النصر باشا وزير الدفاع ، والفريق إبراهيم عطا الله رئيس هيئة أركان الجيش المصرى ، والضابط العظيم الآمر بتشكيل المجلس العسكرى ، الذى تولى محاكمتنا».

«وفى هذا الاجتماع ، أبلغنا الرئيس مصطفى النحاس باشا نبأ الإفراج عنا فورا اعتبارا من هذا اليوم على أن نكون تحت الرقابة العرفية».

❑

ويعود عبدالمنعم عبدالرءوف ليعترف فى مذكراته بأن عزيز المصرى كان ينوى الهرب إلى قوات المحور، ولكن بعد أن يهرب إلى جبل رزة، وقد رأيناه فى فقرة سابقة وهو يستنكر

إذاعة السلطات المصرية عن نيتهم الهرب إلى ألمانيا محتجا فى نفيه صحة هذه المقولة بأن الطائرة لم تكن لتقدر على توصيلهم لأكثر من بيروت!! ويبدو أن عبدالمنعم عبدالرءوف قد أراد أن ينفى أن تكون ألمانيا بمثابة وجهتهم المباشرة ـ فحسب ـ فى تلك الرحلة، لأنه هنا يعترف بأن قوات المحور فى الصحراء الغربية كانت بمثابة الخطوة التالية فى مسار عزيز المصرى على نحو ما نقرأ:

«فشلت محاولة هروب الفريق عزيز المصرى إلى جبل رزة ، ومن ثم إلى قوات المحور بقيادة الفيلد مارشال روميل فى الصحراء الغربية ، وبالتالى نجونا من الموت حرقا ، أو التهشم عند الاصطدام بالأرض».

ويشير عبدالمنعم عبدالرءوف إلى معاناته ومعاناة أسرته فى أثناء فترة اختفائه بعد فشل محاولة الهرب، ومن اللافت للنظر أنه يذكر أن أسرته لم تتلق المساعدة المالية المعتادة فى مثل هذه الظروف، كما أن زيارات الأصدقاء والأقارب قد انقطعت، وهو لهذا يحس مبكرا بالمعاناة التى حدثت نتيجة مشاركته فى عمل وطنى!:

«... ولم تكبدنا قيادة الجيش قيمة الخسائر المادية التى حدثت بالطائرة التى سقطت بنا فى بستان اليوسفى ، واصطدامها بأعمدة وأسلاك الهواتف التى حطمتها الطائرة. إلا أننى عندما أفرج عنى أحسست بتغير كبير قد حدث فى أسلوب حياتى ، فقد نقلت زوجتى أثاث شقتها إلى بيت أبيها ، واعتمدت عليه فى مصاريفها ، لأن وزارة الدفاع أوقفت صرف مرتبى ، ولم يكن فى مقدورها دفع إيجار الشقة ولم تجد مَنْ يساعدها ماليا بأى صورة من الصور ، وانقطعت زيارة الأصدقاء والأقارب لى خوفا على أنفسهم من عيون جنود التحرى».

(٢٢)

وتتضمن مذكرات عبدالمنعم عبدالرءوف صفحات وتفصيلات مهمة ومضيئة وموحية عن حرب فلسطين فى ١٩٤٨، وعلى الرغم من أن صاحب المذكرات لم يكن يقصد هذه التفصيلات لذاتها، لكنه تطرق إليها وهو يكتب مذكراته قاصدا إثبات دوره فى هذه الحرب فحسب، وليس فى هذا ما ينتقد فإن هذا الدور نفسه يلقى بكثير من الضوء على مسار الحرب نفسها وعلى الظروف الاجتماعية والاستراتيجية والسياسية والعربية التى أحاطت بها.

فقد كان عبدالمنعم عبدالرءوف من الذين طلبوا أن يحالوا إلى الاستيداع حتى يتطوعوا بالمشاركة فى الحرب، كما كان عبدالمنعم عبدالرءوف من الذين شاركوا فى المعارك الأولى لهذه الحرب إلى جوار الشهيد البطل أحمد عبدالعزيز.

وفى خضم هذا كله يروى عبدالمنعم عبدالرءوف بعضا من ذكرياته عن الفترة التى تزامل فيها مع معروف الحضرى وجمال عبدالناصر والاتهامات المتبادلة بين الزملاء، ويجد عبدالمنعم عبدالرءوف فى قلمه الجرأة إلى أن ينسب إلى عبدالناصر قوله إن الفلسطينيين خونة (اقرأ صفحة ٢٣٣) وذلك على الرغم من أنه كان يعرف بالطبع أن جمال عبدالناصر غائب عن الساحة لا يستطيع الرد.

(٢٣)

وهذه هى رواية عبدالمنعم عبدالرءوف عن دوره فى المشاركة متطوعا فى بداية حرب ١٩٤٨ وهو يستعيد ذكرياته عن هذه الفترة المهمة من تاريخه وتاريخنا الوطنى فيقول :

«قدمت طلبا للتطوع وسافرت فعلا مع الإخوان تحت قيادة المرحوم أحمد عبد العزيز وكثير من الإخوان الضباط ، وهم الصاغ أركان حرب كمال الدين حسين واليوزباشى أنور الصيحى ، واليوزباشى خالد فوزى، والصاغ حسين فهمى عبد المجيد».

«وقد رافقنا ـ مندوبا عن الإخوان ـ الشهيد الشيخ محمد فرغلى».

«خضت مع كتائب الإخوان المسلمين عدة معارك أهمها الهجوم على مستعمرة دير البلح والمنشية والعصلوج، وقد استطعت فى معركة دير البلح إنقاذ أرواح خمسة وعشرين متطوعا ، على رأسهم الصاغ أركان حرب معروف الحضرى ، الذى أصيب فى هذه المعركة برصاصتين فى رأسه وكتفه».

«أما معركة العصلوج فقد استطعت بفضل نشاط دورياتى المستمرة ليلا ونهارا أن أكون فكرة سليمة عن نيات العدو باقتراب مهاجمتى ، وتحققت معلوماتى ، ورغم تفوق العدو فى الرجال والسلاح وخفة الحركة ، وبالرغم من اعتصام الجنود المتطوعين من الليبيين فقد دخلت المعركة وحوصرت ٤٨ ساعة ثم انسحبت بما تبقى من قوات بعد أن كبدت العدو خسائر فادحة فى المصفحات والرجال وأجرى مجلس تحقيق معى أثبت براءتى وإدانة آخرين ممن هم أكبر منى رتبة».

ومن المؤسف أن عبدالمنعم عبدالرءوف لا يذكر لنا السبب الذى استند إليه قادته فى تحويله إلى مجلس عسكرى!! وهكذا يبدو كما لو أنه كان يحس بالخطأ فهو يتجاوزه بسرعة.

ويجمل عبد المنعم عبد الرءوف رواية تفصيلات سفر متطوعى الاخوان المسلمين إلى فلسطين ومشاركتهم فى حرب ١٩٤٨ فيقول:

«فى الفترة مابين ٢٥ أبريل ١٩٤٨ و٥ مايو ١٩٤٨ تم تدريب وتنظيم كتيبة معظمها من متطوعى جماعة الإخوان المسلمين، فى معسكر هاكستيب، بلغ عددهم ٢٨٠ مجاهدا، وأشرف على تدريبهم المقدم أركان حرب حسين أحمد مصطفى، والرائد أركان حرب على الخضاوى، والملازمون: أحمد رأفت بسيونى، وأبوبكر المنزلاوى، وحسين زكى عليش.. وغيرهم».

«وشمل التدريب الأسلحة الصغيرة، وطرق النسف والتدمير، وضرب النار، واختراق الضاحية، والمصارعة اليابانية».

«أما الضباط الإخوان المتطوعون المدنيون قادة السرايا فكانوا : الأخ أحمد حجازى من إخوان القاهرة شعبة العباسية، والأخ أحمد لبيب الترجمان من إخوان القاهرة شعبة الخليفة، والأخ نظيف عبدالحميد من إخوان القاهرة شعبة السيدة زينب، والأخ إسماعيل الفرماوى قائد فصيلة النسف والتدمير من شعبة العباسية، والأخ محمد نور الدين قائد فصيلة البويز (مضاد للدبابات)، والأخ مصطفى جاد من الإسكندرية من جماعة مصر الفتاة».

«كما تم تدريب مجموعة على استعمال اللاسلكى وتليفونات ألبذر».

وبعد رواية تفصيلات الأحداث التى وقعت فى نهاية أبريل وبداية مايو ١٩٤٨ يعود عبدالمنعم عبدالرءوف إلى الحديث بقدر آخر من التفصيل عن فترة سابقة [تسبق حديثه السابق بحوالى أربعين يوما] فيقول:

«وفى منتصف شهر مارس ١٩٤٨ وصلت كتيبة من إخواننا الليبيين والمراكشيين والتونسيين والجزائريين إلى معسكر هاكستيب بعد تدريبهم فى معسكر أقيم فى مرسى مطروح فى صحراء مصر الغربية، وبعد وصولها تولى قيادتها ضباط مصريون ممن تطوعوا للجهاد فى فلسطين بعد أن قدموا ضبات للإحالة إلى الاستيداع وكنت واحدا منهم».

«وقد أرسلت الخطاب التالى لقائد مدرسة المشاة وتسلم منى أصل الخطاب النقيب عبدالرءوف نافع بتاريخ ٢٨ أبريل ١٩٤٨».

«صاحب العزة قائد مدرسة المشاة   بوساطة حضرة أركان حرب المدرسة

«حيث إنه تقرر اشتراك بعض وحدات الجيش المصرى فى القتال بفلسطين فى القريب

العاجل، فأرجو من عزتكم الاتصال بالجهات الرسمية لنقلى لإحدى هذه الوحدات، ليكون لى شرف الجهاد لتحرير فلسطين».

«وتفضلوا بقبول وافر الاحترام».

«يوزباشى عبدالمنعم عبدالرءوف»

«مدرسة المشاة»

«التاريخ ٢٧ أبريل ١٩٤٨»

❑

ويردف عبدالمنعم عبدالرءوف بقوله:

«وقد سمح لى بالتطوع والسفر مع كتيبة المقدم أحمد عبدالعزيز، إلا أنه قد تأخر سفرى معها بضعة أيام بسبب مرض المرحومة والدتى، وقد تمكنت من اللحاق بالكتيبة بعد أيام قليلة».

«وكان ضباط هذه الكتيبة حسب أقدميتهم وأسلحتهم كالآتى:

«مقدم أركان حرب أحمد عبدالعزيز: سلاح الخيالة».

«مقدم مهندس أركان حرب محمد زكريا الوردانى : الأشغال الهندسية»

«نقيب عبدالمنعم عبدالرءوف: من مدرسة المشاة».

«ملازم أول كمال الدين حسين : مدفعية هاوتزر ٢٣ رطل».

«ملازم أول حسن فهمى عبدالمجيد : مدفعية م/ د ٢ رطل».

«ملازم أول مصطفى كمال صدقى : المخابرات».

«ملازم أول أحمد الحضرى : الإمداد والتموين»

«ملازم أول خالد فوزى : سلاح المدفعية».

«ملازم أول حمدى واصف : الإمداد والتموين».

«طبيب جراح دكتور محمد حسين غراب».

وها نحن نرى بين هذه الأسماء بعض قادة الثورة وبعض أعضاء الحرس الحديدى وبعض المنتمين إلى جماعة الإخوان المسلمين كذلك، وهو ما يدلنا بكل وضوح على غياب الحواجز فى تلك الفترة المبكرة من مساهمة الضباط فى الحركة الوطنية.

ولا يفوتنا فى مدارستنا لهذه المذكرات وما ترويه عن حرب فلسطين أن نشير إلى أن هذه

المذكرات تضرب أروع الأمثلة للوحدة الوطنية حين تتحدث عن مشاركة حارس عبدالمنعم عبدالرءوف له فى حرب فلسطين، وهو الجندى المتطوع ألفونس جيد فانوس (صفحة ٥١)، ويتكرر هذا مع الأمباشى ميخائيل فرنسيس (فى صفحة ٧٥) فى أحداث اليوم الخالد ٢٦ يوليو ١٩٥٢.

كما ينبغى أن نشير إلى أن فى هذه المذكرات فقرة مهمة عن طبائع الجنود العرب المشاركين فى حرب فلسطين والفروق بين المتطوعين الجزائريين والليبيين (صفحة ٥٥).

(٢٥)

ولعلنا ننتقل الآن إلى الحديث عن رؤية عبدالمنعم عبدالرءوف لشخصيات زملائه من الوجوه المعروفة فى تاريخنا المعاصر، ومن حسن الحظ أن هذه المذكرات قد تضمنت كثيرا من الآراء المهمة والكاشفة.

أما موقف عبدالمنعم عبدالرءوف من الرئيس جمال عبدالناصر فى هذه المذكرات فيتوقف على حالته النفسية التى كانت تتغير بالطبع من فقرة إلى أخرى ومن فصل إلى فصل، ولا ننسى أن ما بينهما كان نوعاً عميقاً من أنواع العواطف المشبوبة بالحب والإخاء، وحتى حين يريد عبدالمنعم أن يهاجم عبدالناصر بضراوة فإنه يقول فى شبه حب «وانظر إلى جمال السفاح...»، وهى صفة «شعبية متداولة» تحمل فى موسيقاها الداخلية الإعجاب والحنو على الصديق الذى يأخذ موقف الشرير، وهذه ـ على سبيل المثال ـ هى بقية الفقرة التى يتحدث بها عبدالمنعم عبدالرءوف عن جمال عبدالناصر بهذا الوصف فيقول:

«كان لسوء معاملتنا أثر كبير فى نفوسنا خاصة بعد أن وصل إلى مسامعنا اعتقال زوجة القائمقام يوسف منصور صديق، لأنها عاتبت زوجة جمال عبدالناصر تليفونياً وتطور العتاب بينهما إلى تبادل الألفاظ النابية، والمخجل فى تاريخ جمال السفاح ألا يتسع صدره لامرأة مناضلة كانت توزع بنفسها منشورات الضباط الأحرار فى الطرقات والدور فيزج بها فى سجن محطة مصر الرجالى، وبذلك فرق بين الزوجة وزوجها، وبينها وبين أبنائهما الصغار الذين لم يتعد سن أكبرهم إثنى عشر عاماً».

- وفى موضع آخر يذكر عبدالمنعم عبدالرءوف أن عبدالحفيظ الصيفى سأله عن رأيه فى عبدالناصر فقال له (فى منتهى الاختصار) إن لجمال عبدالناصر مزايا وعيوبا، أما عن مزاياه فهى طموحه وكرمه، وأما عن عيوبه فهى حقده وخبثه وقسوته.

- وفى موضع ثالث فى مذكرته لهيئة المحكمة للدفاع عن نفسه أنه كان يثق جداً فى جمال لنشاطه وذكائه، وكنت أعتبره ساعدى الأيمن، وعرفته بكثير من الضباط خاصة الضباط الطيارين وهم الذين ساعدوه فيما بعد فى انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢.
- وفى موضع رابع يروى عبدالمنعم عبدالرءوف لحظة علمه بوفاة عبدالناصر فلا يمنع نفسه من أن يصور الجو النفسى الكئيب على حد تعبيره الذى عاشه مع الجماهير حين علم بوفاة صديقه ـ وعدوه فى نفس الوقت ـ جمال عبدالناصر.

ولنطالع هذه الفقرة:

«وفى مساء يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ بينما كنت جالسا مع بعض الأصدقاء، إذا بى أسمع ضوضاء وصراخا فى الشوارع وأحدهم يقول: «الآن وقتها!!». عندها داخلنى شعور بأن حادثا كبيرا قد حصل للأمة العربية، وأنه من المحتمل أن يكون جمال عبد الناصر قد أصابه مكروه خاصة بعد أن تكرر كلام الناس فى الشارع أنهم فى مصيبة، وأن الوقت غير مناسب لمثل هذا الحدث لأن الشعب اللبنانى كان يعتبر جمال هو الزعيم العربى وأنه منقذهم وأنه... وحتى أتأكد من ظنى أدرت المذياع فوجدت جميع المحطات تذيع القرآن الكريم، وكذلك التليفزيون، وبعد فترة جاء النبأ، وأعلنت وفاة جمال عبدالناصر، فاستقبلت النبأ بحزن وذهول وقلت: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، وبدأت أسمع أصوات إطلاق النيران من الرشاشات وضرب الصواريخ وإشعال الحرائق، وكانت ليلة لم يستطع أحد النوم، وكان الحزن والحداد فى كل بيت، وعشنا فى هذا الجو الكئيب حتى بعد أن دفن، وظل الشعب اللبنانى يعبر عن حزنه وألمه، ولبست بعض النساء الأسود.. وبعد فترة هدأت الأحوال».

- وفى موضع خامس من هذه المذكرات يذكر أنه ما يزال يحتفظ بمصحف شريف أهداه له عبدالناصر وكتب عليه «إلى أخى عبدالمنعم ذكرى نجاته من معركة العسلوج بحمد الله».

(٢٦)

ويروى عبدالمنعم عبدالرءوف ـ فى وضوح ـ أنه عقب وفاة عبدالناصر (وانتخاب السادات لخلافته) سئل عن رأيه فيمن هو أحق بأن يخلف عبد الناصر وأنه انحاز فى هذا الرأى ـ الذى لم يكن بالطبع ليقدم أو ليؤخر ـ إلى أنور السادات الذى كان قد اختير بالفعل لهذا المنصب.

ولعل المفيد فى هذا الرأى أن عبدالمنعم عبدالرءوف ربما بلور لنا (برأيه هذا) باقتدار ودقة

المونولوج الداخلى الذى دار فى نفسية جمال عبدالناصر نفسه فى سنواته الأخيرة، وهو يقارن على سبيل المثال بين كل من أنور السادات وزكريا محيى الدين وعبداللطيف البغدادى، وقد مس عبدالمنعم عبدالرءوف نقطة فى غاية الأهمية وهى احتمال الاصطدام المبكر بين زكريا والإخوان المسلمين.

وربما يأتى بعد هذا فى الأهمية الفارق الذى أشار إليه عبدالمنعم عبدالرءوف فيما يتعلق بعدم قدرة البغدادى على الخطابة فى مقابل السادات:

« بعد فترة من وفاة عبد الناصر علمت أن قنصل مصر الأستاذ عبد اللطيف حافظ موجود فى مستشفى المقاصد للعلاج ، فذهبت لزيارته وبعد السلام والسؤال عن أحوالى سألنى: من كنت تنتخب لرئاسة الجمهورية؟ وأخذ يعدد أسماء حسن إبراهيم ـ البغدادى ـ زكريا».

«أجبت: أنتخب أنور السادات لأنه متدين ، حافظ للقرآن ، يصلى ، وعنده رحمة ومن أسرة متوسطة لاهى غنية ولا هى فقيرة ، وأنه أقدم ضابط سياسى بين جميع من عملوا فى محيط السياسة منذ عام (١٩٣٩) فقد كان الساعد الأيمن لعزيز المصرى ، وهو الذى طلب منى تسفيره إلى خارج البلاد عام (١٩٤١) ولما كان ملاحقا عام (١٩٤٥) اختفى عندى بضعة أشهر ، وأننى سلمته قصر رأس التين فى ظهيرة (٢٦ من يوليو ١٩٥٢) ، وذكرت أن البغدادى كان عضوا معنا لكنه ليس فى تدين أنور ولا يجيد الخطابة ، وأما زكريا فليس له ماض جهادى، وقلت إن أنور استطاع أن يعيش مع عبد الناصر (١٨) عاما ولم يصطدم به ، لأن عنده تجارب ومرونة ودهاء ، ولو جاء زكريا للحكم فسيجد مقاومة من جماعة الإخوان المسلمين».

(٢٧)

ثم يروى عبدالمنعم عبدالرءوف قصة عودته إلى وطنه بعد بداية عهد السادات، ونحن نراه يتجاوز عن رواية تفصيلات اتفاقه مع السلطة المصرية على هذه العودة، وهو يصور الأمر كما لو أنه عاد كما يعود أى مسافر، ولكن روايته بعد سطرين تشى فى وضوح بأن السلطات المصرية كانت قد وافقت على هذه العودة، وعلى أن تتم هذه العودة بصورة كريمة، وإلى حد أن يكون وزير الداخلية نفسه فى استقباله فى المطار:

«... اقتنعت بالعودة لوطنى الحبيب بعد غياب دام ثمانية عشر عاما ، وذهبت إلى السفارة وأبلغتهم بأنى سأعود لوطنى ، وكذلك أبلغت الأمن العام (يقصد الأمن العام اللبنانى) فأعطونى تأشيرة خروج وشكرتهم على ضيافتهم لى فى الفترة التى قضيتها فى لبنان ، وفعلا

عدت لوطني يوم ١٢ من سبتمبر عام ١٩٧٢ على طائرة إلى مطار القاهرة وكان فى استقبالى السيد ممدوح سالم وزير الداخلية».

ويورد عبدالمنعم عبدالرءوف بعض عن مقابلته مع الرئيس أنور السادات، وهى المقابلة التى تمت بعد خمسين يوما من عودته إلى وطنه:

«فى ليلة (٢٦ من رمضان ١٣٩٢ الموافق ٢ من نوفمبر عام ١٩٧٢) تحدد الموعد لمقابلة الرئيس أنور السادات فى منزله بالجيزة».

«استقبلنى بحفاوة وبينما كنا نتحدث فاجأنى بقوله: بأن على حكما بالإعدام ، وسألنى: ما رأيك ؟».

«قلت له: والله اللى تشوفه».

«قال: لقد أصدرت قرار اليوم بإلغاء كافة الأحكام الصادرة ضدك، وما يترتب عليها، وقرأ علىّ صورة من القرار ، وقد صدر بعد ذلك فى الجريدة الرسمية».

« عدت إلى المنزل وأخذت أسترجع الذكريات ، وكانت تمر أمام عينى حافلة بالصور والأحداث وهكذا الدنيا تمضى مسرعة».

هكذا نلحظ التعبير المتكرر عن امتنان غير كامل لأنور السادات، والمزيج من الحب والكراهية لعبدالناصر، وفيه أيضاً نظرة تعال وهجوم على بعض زملائه ومن هؤلاء عبدالحكيم عامر وجمال سالم بصفة أخص.

(٢٨)

وبعد تأملنا صورتى الرئيسين جمال عبدالناصر وأنور السادات فى مذكرات عبدالمنعم عبدالرءوف، ونأتى إلى حديث عبدالمنعم عبدالرءوف عن زملائه وأقرانه، ونحن نجد فى كتاب عبدالمنعم عبدالرءوف تمجيدا خاصا لرشاد مهنا وليوسف صديق، كما نجد فيه ما يعبر عن حب شديد وإعجاب بخالد محيى الدين.

أما محمد رشاد مهنا فإنه يحظى بتقدير عميق وتمجيد خاص من عبدالمنعم عبدالرءوف كما أشرنا، وفى صفحة ٢٩٢ يأبى عبدالمنعم عبدالرءوف إلا أن يذكر صاحب المذكرات هذه الآراء الواضحة فى تمجيد سيرة الرجل:

« كان محمد رشاد مهنا من الشخصيات المرموقة فى سلاح المدفعية وقد تخرج فى كلية

سان هرست بانجلترا هذا وقد اعتقل مرتين المرة الأولى فى ٢٣ يوليو ١٩٥٣ أى بعد قيام الثورة بعام واحد وأفرج عنه فى أبريل ١٩٥٦ والمره الثانية فى ٢٣ يوليو ١٩٦٥ أى فى العيد الثالث عشر لقيام الثورة وأفرج عنه فى يناير ١٩٦٧».

....

«فلا يمكن لأى محلل عسكرى أو مؤرخ لثورة (٢٣ من يوليو ١٩٥٢) أن يغفل عن ذكر اسمه لما يتحلى به من خلق إسلامى مكين ولاتصاله بأبرز الشخصيات المخلصة للوطن وإحاطته بجميع تنظيمات ضباط الجيش من أجل مستقبل أفضل لوطننا».

«تقدم للتطوع للحرب فى فلسطين كل من الصاغ أ.ح محمد رشاد مهنا وكان فى منصب أ.ح قسم القاهرة واليوزباشى أحمد فؤاد، وكان يشغل منصب ضابط إدارة العمليات الحربية للجيش، لكن رفض طلبهما بحجة عدم الاستغناء عنهما فى مصر، إلا أن أحمد فؤاد سافر إلى فلسطين وخطط للهجوم على مستعمرة نيتساليم والذى قاد الهجوم عليها هو القائمقام أ.ح محمد كامل الرحمانى وتم له الاستيلاء عليها».

«عندما قبض على الملازم أول محمد أنور السادات، والطيار ثانى حسن عبد العظيم عزت اشترك الصاغ أ.ح محمد رشاد مهنا فى دفع عشرة جنيهات كل شهر لأسرة الأول من مبالغ كانت تجمعها كل سنة دفعة فبراير عام (١٩٣٨) وواظبت على تقديمها للمرحوم الحاج محمد السادات الموظف فى المستشفى العسكرى العام بكوبرى القبة، إلا أن الحاج محمد (أى والد الرئيس السادات) طالب بأن يكون الدفع فى المستشفى وليس فى البيت تجنبا للمشاكل، فتم له مايريد بدون تردد من الصاغ أ.ح محمد رشاد مهنا، لما هو معروف أن البيت كان أكثر تعرضا للرقابة من المستشفى».

❏

على أن أكبر إنصاف يناله محمد رشاد مهنا فى مذكرات عبدالمنعم عبدالرءوف هو ذلك الحديث عن دوره البارز فى توجيه الضباط الأحرار ـ مبكراً ـ إلى الابتعاد عن فكرة المظاهرة السلمية التى كانوا ينوون تنظيمها والتحول إلى خوض انتخابات نادى الضباط.

وفضلا عن هذا فإن عبدالمنعم عبدالرءوف يشير إلى الشعبية الجارفة التى كان رشاد مهنا يتمتع بها والتى مكنته من أن يحصل على أكبر عدد من الأصوات فى تلك الانتخابات، ومع أن رشاد مهنا حسبما يروى عبدالمنعم عبدالرءوف قد حصل على عدد من الأصوات يفوق الأصوات التى حصل عليها محمد نجيب، فإن الإنصاف يقتضينا أن نذكر أن محمد نجيب كان ينافس ثلاثة آخرين على الرئاسة بينما كان رشاد مهنا مرشحا للعضوية فقط، وهكذا كان

بإمكانه أن يحصد كل هذه الأصوات لأن الناخبين كما نعرف ينتخبون أكثر من واحد للمضوية بينما هم بالطبع مقيدون بأن ينتخبوا واحدا فقط للرئاسة:

«نصح محمد رشاد مهنا تنظيم الضباط الأحرار عام (١٩٥١) بدخول انتخابات نادى الجيش وذلك أثناء اجتماع دعى إليه فى بيت الصاغ مجدى حسنين ، وكان الحاضرون جمال عبدالناصر والبغدادى وحسن إبراهيم وزكريا محيى الدين ، وبنصيحته هذه حول تفكيرهم عن عمل كان سيقضى عليهم تماما ، فقد كانوا يفكرون فى عمل مظاهرة احتجاج يسير فيها جميع الضباط الأحرار إلى إدارة الجيش ، للاحتجاج على تصريحات المستر (ايدن) فقال محمد رشاد مهنا للمجتمعين: إنكم بعملكم العلنى هذا ستكشفون أنفسكم كحركة سرية، فأخذوا بنصيحته ودخلوا انتخابات النادى».

«ونجح محمد رشاد مهنا فى انتخابات النادى بالإجماع إذ نال (٣٣١) صوتا وإن دل هذا النجاح الباهر على شئ فإنما يدل على تمتعه بتأييد قاعدة عريضة من الضباط فى سلاحه الأصلى وهو المدفعية ، أما اللواء محمد نجيب فقد نال (٢٧٨) صوت».

❑

أما الدفاع المهم الذى يدافع به عبدالمنعم عبدالرءوف عن محمد رشاد مهنا فيتعلق بما نسب إلى محمد رشاد مهنا من مسئولية عن مذبحة الضباط فى بداية عهد الثورة، وهى حركة تطهير أجريت فى الجيش المصرى على يد النظام الجديد، وفى هذا الصدد يقول صاحب هذه المذكرات:

«وقد أشاع الانتهازيون والوصوليون من مراكز القوى عن رشاد مهنا أنه هو الذى افتعل ودبر (مذبحة الضباط) قاصدين بذلك إيغار صدور الضباط المحالين على التقاعد وأقاربهم من الضباط العاملين ضده لينالوا من محبة القاعدة العريضة له، وإثارة الرأى العام والتشنيع عليه، والحقيقة أن الذى أمر بها هم فى الدرجة الأولى: البكباشى جمال عبدالناصر والصاغ عبدالحكيم عامر والصاغ صلاح سالم، وغيرهم من المتسلقين كى تقفز أقدميتهم للأمام، ويتولوا مناصب قيادية قبل تكامل تدريبهم وإعدادهم لها، والثلاثة الذين أداروا (مذبحة الضباط) هم: أحمد حمدى عبيد، ووحيد جودة رمضان، وإبراهيم نظيم».

ومن بين الشخصيات العسكرية التى تحظى بنقد عبد المنعم عبد الرءوف الدائب لها زميله أحمد حمدى عبيد، وهو زميل دفعته وإن كان أصغر منه فى السن بعدد من السنوات، ويروى عبد المنعم عبد الرءوف أن البكباشى أحمد حمدى عبيد كان من أبرز الضباط فى مؤتمر التطهير ، ومعه الصاغ وحيد رمضان، واليوزباشى محمد محمود عطية.

أما يوسف صديق منصور فإن الكتاب حافل بتقدير خاص له، وهو ما قد يستغربه بعض القراء، ولكن عبدالمنعم عبدالرءوف حل لنا هذا التناقض بأن أورد على لسان يوسف صديق نفسه قوله:

«أنا ماركسى فى الاقتصاد فقط، ولكنى مؤمن وموحد بالله جل جلاله».

على أن الأهم من هذا أن صاحب المذكرات يروى رأياً ينسبه إلى يوسف صديق بمسئولية الإخوان المسلمين عن استمرار الحكم القائم وعن شجاعته الفائقة واستعداده للتضحية بنفسه من أجل إحقاق ما يعتقد أنه حق وواجب من إنهاء هذه السيطرة!! وتتكرر بعد ثمانى صفحات الإشارة إلى هذه الرؤية وذلك مع تكرار حدوث المواقف البطولية ليوسف صديق.

❑

ونحن نرى عبدالمنعم عبدالرءوف حريصا فى مذكراته التى نناقشها فى هذا الباب على أن يروى لنا ـ بطريقته ـ قصة ليلة الثورة على نحو ما رواها له يوسف صديق، وليس فى كل النصوص المروية عن يوسف صديق أو المكتوبة بقلمه مثل هذا النص الفريد فى عبقرية اختصاره وتركيزه، وسرعة تلاحق الأحداث فيه، ولهذا فإننا حريصون على أن نمتع القراء به كما أورده عبدالمنعم عبدالرءوف:

«... قبل الثورة بيومين زاره فى منزله جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ، وكان صدره ينزف دما وأبلغاه أنهما حضرا ليبلغاه دوره فى الانقلاب ولكن لا داعى لذلك لما لمساه من حالته المرضية ، فذكر لهما أنها مسألة طارئة وقد أخذ العلاج وهى عادية جدا وكثيرا ماتحدث».

«كانت المهمة أن يتحرك بعدد (١٢) لوريا من معسكر هاكستيب إلى مكان بالقرب من المستشفى العسكرى العام فى كوبرى القبة ، ليعمل كنقطة (تجمع للأسرى) والذى سيسلمه هذه اللوريات الضابط عبد القادر مهنا ، وسوف يحضر إليه ضابط آخر لتحديد ساعة التحرك بهذه اللوريات ، والتواجد عند المستشفى العسكرى العام».

«وعندما ذهب إلى المعسكر صباح (٢٢) من يوليو وجد أن أحد الضباط النوبتجية لم ينم فى المعسكر فانتهزها فرصة وجمع الضباط وأبلغهم أنه تكفيرا عن هذا الخطأ سوف ينام الجميع بالمعسكر الليلة ».

«وفى نفس اليوم حضر ضابطان مستجدان ليتسلما عملهما وحدثته نفسه بأن يعطيهما

إجازة لمدة ٢٤ ساعة ولكنه لم يفعل ، وقال: لعلهما فيما بعد يفخران بأنهما فى أول يوم من خدمتهما اشتركا فى الانقلاب».

«وفى المساء وصله خبر من الضابط عبد القادر مهنا بأن اللوريات جاهزة لكى يمر ليتسلمها ، ثم حضر الضابط زغلول عبد الرحمن حوالى التاسعة مساء وأبلغه أن ساعة (س) هى (١٢) مساء وأن كلمة السر هى (نصر) ، ولكنه حوالى ١١ مساء أبلغ بأن قائد الفرقة اللواء عبد الرحمن مكى طلب عربته وسوف يحضر إلى المعسكر لوجود حالة طوارئ ، فعجل بالخروج من المعسكر قبل مجىء قائد الفرقة».

«وكان عدد الجنود ثلاثين جنديا كلهم شئون إدارية وزعهم على ثلاث عربات بكل منها عشرة جنود ، وأمر الضابط زغلول عبد الرحمن بالركوب مع الجنود فى اللورى الخلفى وطلب من الضابط عبد المجيد شديد الركوب معه فى العربة الأمامية ».

«وعند تحركه حوالى الساعة الثانية عشرة مساء إلا ربعا تقريبا ، وأمام معسكر (هاكستيب) ظهر اللواء عبد الرحمن مكى وأراد إعادة العربات لكن سارع إليه ضابطان وشهرا فى وجهه السلاح فاستسلم وقال لهما: إنه سوف يزوج ابنته غدا وانضم إلى ركب السير معتقلا ، استأنفوا السير مارين بأماكن عسكرية حساسة ، فلم يعترضهم أحد ولم ينضم إليهم أحد مما جعل الشك فى الأمر يلازم القائمقام يوسف صديق».

«وعند مشارف مصر الجديدة توقفت اللوريات ، وكان الذى أوقفهم قائد ثانى الفرقة العميد عبد الرءوف عابدين الذى سبق أن تلقى أوامر من السيد اللواء عبد الرحمن مكى بضرورة التوجه إلى المعسكر هاكستيب لوجود حالة الطوارئ ، فلما وصل هاكستيب أبلغه أحد الجنود أن هناك حالة طوارئ وتحرك لذلك السيد قائد اللواء، فأسرع العميد عبد الرءوف عابدين ليلحق بالعربات فلحقها ، وعند وصوله إلى جهة المقدمة ، ليكلم اللواء نادى عليه اللواء عبد الرحمن مكى وأمره بالانضمام لعربته ، وفجأة وجد نفسه محاطا بالمسدسات من كل جانب ولم يستطع المقاومة».

«واتجهت العربات إلى وسط مصر الجديدة ، دون أن تشاهد أى تحركات مما أدخل الشك فى يوسف صديق مرة أخرى، فأمر السائق بالتزام طريق جانبى ليتصل هاتفيا بمنزل البكباشى جمال عبد الناصر ليستطلع جلية الأمر».

«وما إن اصطفت العربات فى الطريق الجانبى حتى سمع جلبة ونقاشا فنزل ليتبين ما حدث ، فإذا بالضباط والجنود يحيطون باثنين يرتديان الملابس المدنية ، كانا قد اقتربا من (القول) فى حركات مريبة ، وما أن اقترب منهما يوسف صديق حتى تبين أنهما البكباشى أ.ح

جمال عبد الناصر والصاغ أ.ح عبد الحكيم عامر ، فأعلن لهما تعجبه من عدم تحرك أى قوات، فأبلغاه أنهما كانا يريدان الذهاب إليه فى معسكر هاكستيب ليخبراه بإيقاف التحرك لما أعلنت حالة الطوارئ حيث علمت رئاسة الجيش بنية الضباط بعمل الانقلاب».

«وهنا سألهما يوسف صديق: وماذا أفعل الآن وقد قبضت على اللواء عبد الرحمن مكى والعميد عبد الرءوف عابدين؟ فأجابه جمال عبد الناصر بأنه أطلعه على ماحدث وانصرفا مما جعل يوسف صديق يقرر شيئا واحدا وهو التقدم بمن معه من جنود إلى رئاسة الجيش ، وأمر الجنود فى اللورى الأول بسد الطريق الموصل إلى العباسية فانبطحوا على الأرض وسدوا الطريق ، ثم سد طريق كوبرى السيوفى وطريق مصر الجديدة بعشرة جنود أخرى ، وبدأ هجومه بالعشرة الباقين على رئاسة الجيش وتبادل مع حراسها النيران فاستسلموا فورا واعتقلهم جميعا لكنه لم يستطع الصعود».

«وفجأة شاهد جنود شرطة عسكرية قادمين من اتجاه العباسية فاعترضهم الضابط عبد المجيد شديد بالجنود العشرة المنبطحين واستطاع القبض على الضباط أما الجنود فاستخدمهم يوسف صديق فى اقتحام مبنى رئاسة الجيش ، فتم له ذلك وصعد إلى الدور الثانى ، وفى غرفة رئاسة الجيش أبصر خلف الزجاج سعادة الفريق حسين فريد ، وهو يستعد للدفاع عن نفسه ، فأمره ومن معه بتسليم ما معهم من أسلحة ففعلوا».

(٣٠)

ونأتى إلى بعض عبارات فى الرواية التى يرويها عبدالمنعم عبدالرءوف عن يوسف صديق حاول بها كاتب المذكرات الإيحاء بالتقليل من دور كل من الرئيس جمال عبدالناصر والرئيس محمد نجيب، مع أن الرواية لا تتحمل هذا التقليل لأن المذكرات بل والرواية نفسها تشهد لهما فى مواضع أخرى بدورهما الحقيقى:

«ثم استطرد قائلا: إن البكباشى جمال عبد الناصر حضر فى الصباح بعد عملية احتلال مبنى رئاسة الجيش ومعه مجموعة من الضباط الشبان ، وحملوا يوسف صديق على الأعناق وأخذوا يهتفون بحياته ثم عقد اجتماعا فى نفس المبنى خطب فيه قائد الجناح جمال سالم وأشاد بشجاعة يوسف صديق ، وقال: إن الضباط المجتمعين كانوا قد ارتضوا أن يكون البكباشى جمال عبد الناصر على رأسهم ، وهنا لم يمانع يوسف رغم أن جمال عبد الناصر كان أقل منه رتبة ، وسواء أكان هو على رأس الحركة أم غيره فالمهم أنها تقوم بإبلاغ مطالبها للمسئولين».

«ثم توجه جمال عبد الناصر إلى يوسف صديق وقال له: هؤلاء هم الضباط الأحرار الذين كنت تسأل عنهم وكنت أجيبك إنك سوف تعرفهم فى الوقت المناسب ، فلما تفرس يوسف صديق فيهم لم يجد بينهم شخصية معروفة لها وزنها يمكن أن يلتف حولها الجيش».

«فاقترح إحضار اللواء محمد نجيب فأرسل فى طلبه وحضر محمد نجيب ، وبعد ذلك أعد البيان الأول ، وتوجه البكباشى محمد أنور السادات مع مجموعة من السيارات المدرعة إلى الإذاعة لإذاعة بيان الثورة الأول».

«وتم تشكيل مجلس قيادة الثورة برئاسة محمد نجيب وأخذت البيانات العسكرية تتوالى بالإذاعة».

«ولكن مجلس الثورة لم يكن واضحا أمامه تماما ماذا يفعل ؟ وكيف يتحرك ؟ وهنا التفت القائمقام يوسف صديق إلى الزائرين: عبد المنعم عبد الرءوف والأستاذ أحمد عيد وقال موجها العبارة التالية للأول:

«أنت تعلم بعد ذلك ماحدث إلى أن تم طرد الملك ، ثم نادى على ابنته الصغرى ، وطلب منها إحضار شراب واستأنف الحديث قائلا:

«إنه بعد أن أتم عملية احتلال مبنى رئاسة الجيش بقليل شاهد البكباشى محمد أنور السادات ينادى باسم الصاغ عبد الحكيم عامر ، وهو يقترب من المبنى وهذا يدل على أن جمال عبد الناصر بعد أن شاهد ماحدث طاف عليهم بالحضور حتى تجمعوا ، وفى الصباح دخل بهم كما أسلفت».

ونأتى إلى جزء آخر من رواية عبدالمنعم عبدالرءوف التى ينسبها إلى يوسف منصور صديق، وهو جزء حافل بالإسقاطات الواضحة التى يفرضها الاختلاف أو العداوة على نحو ما نرى، وللقارئ أن يتجاوز عن تصديق كل ما فى هذه العبارات:

«وقال يوسف صديق إن البكباشى أ.ح زكريا محيى الدين بعد فترة أبلغه بأن مجلس قيادة الثورة سيتولى الوزارة وسيعين يوسف وزيرا ، فتعجب يوسف من هذا الرأى لأن الضباط لا دارية لهم بأصول الحكم ، ولأنهم لم يذكروا ذلك فى منشوراتهم ولم يتفقوا عليه!».

«فعقب زكريا بقوله: إننا لسنا أقل كفاءة من الوزراء وأننا سوف نحصل على الأموال الطائلة وتتحسن أحوالنا المالية».

«وطلب من يوسف إخراج مافى جيبه من نقود فأخرج يوسف من جيبه أربعة قروش هى كل ما كان معه ثم قال يوسف :

«إننا لا صلة لنا بالسياسة وعلينا أن نسلم البلد للسياسيين ، ثم ذكر يوسف أنه كانت

تصدر قرارات من مجلس قيادة الثورة لم يتفق عليها بالرغم من خطورتها ، فطالب بعمل مضبطة لاجتماعات مجلس قيادة الثورة ، لأن التاريخ سيضع يوما ما هؤلاء الضباط أمام المسئولية والمحاسبة».

«ولما لم يُجب إلى طلبه تقدم باستقالته وامتنع عن حضور الجلسات ، وظلت الاستقالة معلقة ، إلى أن أودع السجن مع عدد من الضباط منهم محمد رشاد مهنا وعبد المنعم عبد الرءوف وحسين حمودة وغيرهم».

«ذكر يوسف صديق أن الضابط زغلول عبد الرحمن أبلغه أنهم تحركوا من معسكر هاكستيب قبل الموعد بساعة ليغلل له عدم وجود تحرك للقوات فى الطريق ولكن يوسف لم يقتنع».

«وفى نهاية حديثه تنهد يوسف صديق وتحسر على ما آل إليه الأمر فى الجيش والبلد ، وتمنى لو كان يعرف ذلك المصير الذى وصلنا إليه عن طريق الثورة والثوار !!».

«سألته: إنك تتحسر على الثورة والثوار فلماذا تصورت مع الرئيس جمال عبد الناصر وممسكا بيده فى الصورة المعلقة فى مدخل بيتك؟!».

«فأجاب بأن جمال هو الذى أمسك بيده».

«ثم سألته: إنك من جماعة (حدتو) الشيوعية فكيف تفسر لى وضعك لعبارة (الله) فوق مخدعك الآن؟».

«أجاب بأنه يؤمن بالماركسية فى الاقتصاد فقط ، وفى نفس الوقت يؤمن بالله الواحد الأحد».

❑

على أى الأحوال فإن هناك موقفاً آخر لا يقل شجاعة عن هذا الموقف الذى سجله ليوسف صديق، وقد أورد عبدالمنعم عبدالرءوف قصته فى صفحة ١٢٣، وهو يحكى عن أيام اعتقالهما فى أول الثورة فيقول:

«فكر القائمقام يوسف صديق فى الإضراب عن الطعام ، ونفذ الإضراب وامتدت العدوى إلى البكباشى أركان حرب أبو المكارم عبد الحى ، والصاغ أركان حرب معروف الحضرى، والصاغ أركان حرب حسين حمودة ، واليوزباشى عبد الكريم عطية وإلىّ أنا أيضا. فحضر قائد السجن الحربى يرجونى العدول عن الإضراب مقسما لى بأن المرشد الأستاذ حسن الهضيبى سبق فى محنة مارس السابقة أن زجر الإخوان المضربين عن الطعام لمخالفة ذلك للدين الإسلامى. فصدقته وأوقفت إضرابى فورا».

(٣١)

ونأتى إلى ثالث الزملاء (أو الضباط) الأربعة الذين يحظون بثناء صاحب المذكرات، وهو خالد محيى الدين.

ومن المهم أن نشير إلى أن عبدالمنعم عبدالرءوف لا يشير إلى خالد محيى الدين إلا مسبوقاً بلقب البطل فهو عنده فى صفحة ١١٥ «الصاغ البطل» وهو صاحب الموقف الخالد الجرىء (صفحة ١١٤) وهكذا..

وهذه هى رواية عبد المنعم عبد الرؤوف عن خالد محيى الدين :

«... صديق حميم لقائد الأسراب حسن عبد العظيم عزت ، وقد تعرفا ببعضهما عندما كان الأول سجينا فى إحدى ثكنات سلاح السوارى».

«يؤمن بتحضير الأرواح التى كان يجريها فى عدة بيوت منها بيته وبيت جمال عبد الناصر ولست أعرف هل كان شيوعيا عندما أدى البيعة فى شارع شيخون أم أنه اعتنق المبدأ الشيوعى فيما بعد ؟ وعلى يد من ؟».

«وفى أوائل عام (١٩٥٠) بدأ تنظيم الضباط الأحرار فى طبع منشورات وجاءنى الصاغ خالد محيى الدين بمنزلى بالسيدة زينب طالبا منى التبرع لشراء ماكينة (رينيو) فأعطيته مبلغ سبعة جنيهات».

❑

وعلى نفس النحو يتحدث عبد المنعم عبد الرءوف بتقدير واضح عن موقف خالد محيى الدين فى أزمة مارس ١٩٥٤ وهى الأزمة التى وقعت أحداثها بينما كان عبدالمنعم عبدالرءوف نفسه فى السجن:

«... أخذت (أنباء) حوادث مارس تتوالى علينا من الخارج فسمعنا بالموقف الخالد الجرئ الذى وقفه الصاغ خالد محيى الدين هو وإخوانه من قوات سلاح الفرسان ، والمظاهرات الشعبية التى قادها الشهيد عبد القادر عودة ، مما أدى إلى الإفراج عن رئيس الجمهورية اللواء محمد نجيب وعودته إلى رئاسة الجمهورية ، وسقوط وزارة البكباشى جمال عبد الناصر ، وإلغاء مجلس الثورة ، والتصريح بعودة الحياة النيابية ، والإفراج عن المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين الأستاذ حسن الهضيبى ومَنْ معه من قيادات الجماعة ، وزيارة جمال عبد الناصر وصلاح سالم للمرشد فى منزله ردا للاعتبار ، وتكذيبا لكل التهم التى وجهت إليه، والإفراج عن ضباط الجيش المسجونين مع البكباشى إبراهيم حافظ عاطف عدا القائمقام رشاد مهنا».

وهذا هو رأى صاحب هذه المذكرات فى كمال الدين حسين، ولا ننسى أن كمال الدين حسين كان أحد السبعة الذين بايعوا البيعة الإخوانية مع عبدالمنعم عبدالرءوف وعبدالناصر وخالد محيى الدين وحسين حمودة وصلاح خليفة:

«... لمست فيه غزارة المعلومات والوطنية المتأججة ، وتوطدت بيننا أواصر المحبة والصداقة وتزاورنا فوجدته متمسكا بآداب الإسلام وبسيطا فى معيشته.وقد لبى كمال الدين حسين دعوتى لحضور اجتماع ضمنى وجمال عبد الناصر ومحمود لبيب ، وخرج من الاجتماع مقتنعا بمبادئ الإخوان المسلمين ، وأدى البيعة مع ستة ضباط آخرين ، وقد نوه هو إلى ذلك فى كتاب «الصامتون يتكلمون: عبد الناصر ومذبحة الإخوان».

«تطوع مع أول كتيبة تحت قيادة المرحوم القائمقام أ.ح أحمد عبد العزيز وسافر إلى فلسطين بتاريخ (٢٥/ ٤/ ١٩٤٨) ووقع اختيار المرحوم أحمد عبد العزيز علىّ لأكون أركان حرب له ، ولكننى رفضت مؤيدا الصاغ كمال الدين حسين ، لأنه قبيل سفره لفلسطين كان قد قدم طلبا للالتحاق بكلية أركان الحرب ، ولأننى كنت مدرسا بمدرسة المشاة، وبالإضافة إلى أعماله كأركان حرب لقائد المتطوعين كان يقود مجموعة من المدفعية الهاوتزر التى استطاع بواسطتها ضرب المستعمرات ومنع قوافل التموين عنها ، وأنه بعد إعلان الهدنة بين الدول العربية والعدو الصهيونى وعودة المتطوعين عاد إلى سلاح المدفعية والتحق بكلية أركان الحرب ونال فيها إجازة ماجستير ليصبح ضابط أركان ، وهناك التقى ثانية بالبكباشى جمال عبد الناصر بعد عودة الأخير من بلدة الفالوجا التى كان محاصرا فيها ، وتوطدت بينهما العلاقات ؛ لأن جمال كان يساعده فى شرح بعض المشروعات ، وخاصة بعد أن استأجر الصاغ كمال الدين حسين منزلا فى مصر الجديدة، وصار قريبا من منزل جمال عبد الناصر ونشطا معا فى تكتيل وتجميع الضباط الأحرار».

❑

كذلك فإن هذه أول مذكرات فيما قرأت تروى أن محمود رياض (أمين جامعة الدول العربية فيما بعد) شارك فى حرب فلسطين بالمرور مع قائد سلاح الحدود أحمد سالم باشا.

وفى هذه المذكرات إشارات أيضا مهمة إلى أدوار مهمة قام بها صلاح نصر قبيل الثورة وبعد قيامها بما يعطيه حقه . ويشير عبدالمنعم عبدالرءوف إلى روح يوسف السباعى النبيلة حين صافحه وتمنى له الخير على الرغم من أنه ـ أى عبدالمنعم عبدالرءوف ـ كان قد طعن فيه كعضو فى المجلس العسكرى الذى يتولى محاكمته فى عهد الثورة.

(٣٣)

بعد هذه الشخصيات التى تحظى بثناء صاحب هذه المذكرات، ربما ننتقل إلى تقييمه أو حديثه عن زملائه من المبرزين فى تاريخنا المعاصر.

ويمثل عبد اللطيف البغدادى نموذج القرناء الذين لا يحظون بإعجاب صاحب المذكرات على طول الخط، ولا يحظون منه بانتقاد واضح أيضا، وإنما هم يحظون بالتحفظ، ونحن نجد رأيه فى البغدادى يعلنه على النحو التالى:

«التقيت به بعد الثورة فى مناسبتين :

«الأولى : عندما اصطحبنى قائد الأسراب حسن عبد العظيم عزت لرئاسة الجيش ، كى يقنع قائد الجناح عبد اللطيف البغدادى بعودتى لسلاحى الأصلى وهو الطيران فلم يقبل».

«الثانية: فى ردهة مجلس الثورة وسألنى بدون مقدمات (هوه انت الذى عملت الثورة)؟».

«فأجبته: إنه سؤال سيجيب عنه التاريخ».

وهنا يلتفت صاحب المذكرات ليسأل :

«فهل يتذكر قائد الجناح عبد اللطيف البغدادى أنه كان عضوا فى العصابة التى كانت تحكم مصر؟ (كتاب الصامتون يتكلمون عبد الناصر ومذبحة الإخوان) ص (١٠٠)».

«وهل يتذكر قائد الجناح عبد اللطيف البغدادى أنه قال فى نفس الكتاب ص (١٠١) إن قائد الجناح على صبرى كان جاسوسا عليه ، ينقل كل حرف قاله إلى الرئيس جمال عبد الناصر الموجود فى الغرفة المجاورة؟».

«وهل يتذكر أنه تعاون مع مراكز القوى فى إلحاق الضرر بى حينما أعاد زميلى فى حادث الطائرة حسين ذو الفقار صبرى لسلاح الطيران ، ولم يقبل إعادتى وقد حاق بى الظلم بعد ذلك حينما حوكمت غيابيا أمام محكمة الشعب برئاسة أحد أصدقائه المقربين ، وهو المدعو قائد الجناح عبد الرحمن عنان ، الذى حكم على غيابيا بالإعدام رميا بالرصاص ؟».

(٣٤)

و من المهم أن يستجلى دارسو التاريخ موقف عبدالمنعم عبدالرءوف من زميله أبوالمكارم عبدالحى الذى عُين قائداً للإخوان الضباط عقب وفاة محمود لبيب فى ١٩٤٩، ونحن نراه

يثنى عليه عند ذكر توليه هذا المنصب وذلك على الرغم من أنه يروى لنا فى موضع آخر أنه عبر له فى مواجهته عن انتقاده لاختياره لهذه المسئولية، وسنقرأ هذا بعد قليل،ولكن دور أبو المكارم فى هذه المذكرات يصبح مطموساً فإذا لزم الحديث عنه فإنه يتجنب ذكر اسمه وإذا ذكره جعل دوره هامشيا على الرغم من أنه اعتقل مع عبدالمنعم عبدالرءوف وأوذى.. إلخ.

فلنبدأ إذن بأن ننقل الفقرة التى توضح حقيقة العلاقات بين هذين القطبين الإخوانين، حيث يقول عبدالمنعم عبدالرءوف:

«أول مرة التقيت فيها بأبى المكارم كانت فى بيته عام (١٩٤٩) وعندئذ صرح بأنه عين مسئولاً عن حركة الإخوان الضباط، فقلت له: إن ذلك أمر شاذ لأنك لم تشترك ولم تحضر أى اجتماع وتكتل للإخوان منذ بدأنا عام (١٩٤٣)، فأنا أول مَنْ عرض الفكرة على حسن البنا واستمررت بها واشتركت فى حرب فلسطين والقناة علاوة على تاريخى وسنى، وعرض الموضوع على عبدالرحمن السندى، فأراد تعيينى مسئولاً عن الحركة السرية للضباط، بينما يكون أبو المكارم مسئولاً عن الحركة العامة، فرفضت هذا، ومنذ ذلك التاريخ وعلاقتنا غير طيبة، إنه يعمل باختياره مع المخابرات المصرية».

....

ومن الواضح للقارئ وبخاصة من الجملة الأخيرة أن عبد المنعم عبد الرءوف كان يتهم «أبو المكارم عبدالحى» بالعمل طوعا مع المخابرات المصرية!! ولكنه فيما قبل هذا يختزل الفترة الممتدة من ١٩٤٩ وحتى الستينيات من دون أن يحدثنا عن طبيعة نشاط أبى المكارم عبد الحى فيها.

ويستطرد عبدالمنعم عبدالرءوف ليذكر كيف حضر أبو المكارم لبيروت فيقول:

«إنه جاء لزيارة زوجته الفلسطينية بعد أن استطعت الهروب من المحاكمة، وكنت أنا المتهم الأول فلم تجد المحكمة بعد هروبى مدعاة لمحاكمة الباقين، فسافر أبو المكارم إلى لبنان ومازال بها حتى الآن».

ربما نتوقف هنا لنسأل أنفسنا: هل من المعقول أن محكمة أيما كانت تتوقف عن محاكمة المتهمين جميعا لمجرد أن المتهم الأول قد هرب ... أم أن هذه إحدى الشطحات التى فى هذه المذكرات ؟!

(٣٥)

أما رأى عبد المنعم عبد الرؤوف فى جمال سالم فهو رأى قاس من جميع الوجوه :

«كان يلعب الميسر و يحتسى الخمر ، خدمنا معا كطيارين فى محطة ألماظة الجوية، ورأيته

بعينى يلعب القمـار بورق الكوتشينة مع زملائه المقامرين من الطيارين ، كما شاهدته يحتسى الخمر حتى الثمالة ، وفجأة أفرغ مافى بطنه على أرض مقصف نادى ضباط محطة ألماظة الجوية. وحدثت مشادة بينى وبينه عن أمريكا قبل الثورة حينما كنت فى العريش حيث اجتمعت به ومعنا القائمقام يوسف صديق ، وقائد الجناح مصطفى بهجت وقد استمعت لجمال سالم يشيد بعظمة أمريكا وشعبها والنظام والأخلاق والحرية!».

«فقلت له: إننى أخالفك فيما قلته عن أخلاق الشعب الأمريكي ! فالرشوة منتشرة حتى بين أعضاء الكونجرس والعصابات هناك تفرض إتاوات على الأثرياء والنواب لخطف الأطفال ، وأن أمريكا عدو للإسلام والمسلمين ، فهى التى تمد إسرائيل بكل ما تطلبه ، ولأمريكا جمعيات تبشير فى أفريقيا لفصل الجنوب عن الشمال العربى المسلم توطئة لتحويل وسط وجنوب إفريقية إلى مناطق نفوذ لا دين لها. قال جمال سالم ردا على كلامى: إن تمسكنا بالإسلام رجعية وتزمت !!».

«فأوقفت المناقشة ، ولم يمر أسبوع حتى طلعت مجلة آخر ساعة علينا بمقال فضحت فيه أمريكا وخطر العصابات على الانتخابات فأطلعت جمال سالم على المقال لكنه بدأ يكذبه فقلت له: إن المستقبل للإسلام إن شاء الله».

(٣٦)

وهذه فقرة من مذكرات عبدالمنعم عبدالرءوف تلخص لنا رأيه فى زميله الآخر الذى يحظى بنقده لشخصه وتصرفاته وهو المشير عبدالحكيم عامر، وقد أورده ضمن حديثه عن إسهامه فى لجنة كتابة تاريخ الثورة، وإن كان قد تحدث عن نفسه فى تلك الفقرة بضمير الغائب:

«فى إجاباته على أسئلة اللجنة المشكلة لكتابة تاريخ الثورة ذكر عبد المنعم عبد الرءوف أنه فى عام (١٩٥١) قلت للبكباشى أ.ح جمال عبد الناصر: أن عبد الحكيم عامر لايصلح لأن يكون ضمن أى تنظيم فى الجيش لتعاطيه الحشيش فأجابنى إننى(أى جمال) لو طلبت من عبد الحكيم روحه لأعطاها لى».

❑

وتتصل بآراء عبد المنعم عبد الرءوف فى عبد الحكيم عامر آراء فى غاية الخطورة والطرافة عن حرب ١٩٦٧ ومدى المسئولية عنها، وهو يورد هذه الآراء من خلال رواية لقائه بمجموعة

من الشباب العرب عقب انتهاء هذه الحرب، ويبدو صاحب المذكرات واضح الفكر والرؤية فى تحميل عبدالناصر المسئولية السياسية والعسكرية عن الهزيمة! دون أن ينزلق إلى الهجوم على عبدالحكيم عامر والقادة العسكريين، بل إنه يزكى من بين قادة حرب ١٩٦٧ كلا من الفريق الأول صدقى محمود، والفريق أنور القاضى!!:

«... زارنى بعض الشباب وسألنى أحدهم عن الحرب. قلت : إنها هزيمة لا تعادلها إلا هزيمة فرنسا ، والمسئول الأول والأخير سياسيا وعسكريا عبد الناصر ، لكونه اعتمد على مساندة روسيا له لكنها خذلته ، وتحطم سلاح الجو ومطاراته فى الساعات الأولى من المعركة ، واستسلام أربع فرق مشاة ، و٢١ فرقة مدرعة ، وهذا هو الوقت المناسب للإخوان».

هنا يبدو وكأن الشباب الذين زاروا عبد المنعم عبد الرءوف فى ذلك الوقت وحاوروه كانوا من المتعاطفين مع الإخوان أو المنتمين لهم، وهنا تبدو ردود عبد المنعم عبد الرءوف وهى تحاول الجنوح إلى المعقولية أو الموضوعية رغم ما تحفل به كتاباته عن هذه الحرب من ضباب فى الرؤية.

«ودافعت عن الجيش المصرى الذى لولا تحطم السلاح الجوى لانتصر ، قلت: إن المدفعية المصرية هى أقوى مدفعية فى العالم ، وقارنت بين صحراء سيناء والدلتا المكشوفتين وبين مواقع سوريا الجبلية العالية».

«فسأل أحدهم: هل هناك خيانة من الضباط الذين استقالوا أو أحيلوا للمحاكمة ؟ ».

«قلت: لا !! إن أكثر من أعرفهم أكفاء حسنو الخلق وزكيت صدقى محمود وأنور القاضى وقلت: إن أسباب الهزيمة تخلى الروس عنا ومفاجأة القوات الجوية وتدميرها ومطاراتها وتدخل الطيران الأمريكى والإنجليزى لصالح العدو ، وتفكك الدول العربية بين مصر وبين السعودية والأردن وتونس واليمن ، وحرب اليمن التى استنفدت قوى مصر من الرجال والسلاح والمال !!».

«لقد كان أجدى لجيش مصر التقدم داخل إسرائيل إذ يفصلها (٦٠) كيلو من أن ينسحب (٦٠٠) كيلو تحت سياط العدو ، بينما الضابط المقدم الذى أسرته إسرائيل ومعه ضابطان وجنديان هو من أصل يهودى خدم الجيش المصرى (٢٠) سنة وفرّ إلى إسرائيل ومعه معلومات خطيرة ، وأن اجتماعا سريا جرى بين الملك فيصل وثروت عكاشة فى روما أثناء عودة فيصل إلى بلاده ، وطلب ثروت من فيصل المرور بالقاهرة لمقابلة عبدالناصر ولكنه رفض ، وكان هناك (١٥٠٠) فدائى مصرى رفضوا العودة لمصر إلا بعد تحرير القدس».

«لم يأسر المصريون سوى أسير واحد بينما وقع الآلاف فى يد إسرائيل».

كما يورد عبدالمنعم عبدالرءوف مجموعة من الشائعات أو الأقاويل التى لا نملك حتى الآن تحقيقها علميا على نحو مطمئن، وهو يكتفى بإيرادها على سبيل السرد دون تحقيق أو تأييد أو تكذيب وكأنما هو حريص على استبقاء هذه الشائعات للتاريخ بحروف مطبوعة. ومن العجيب أن يجد رجل عسكرى سابق الجرأة فى نفسه ليروى بعض هذه الترهات والمهاترات دون تحقيق أو تعقيب يحفظ له ماء وجهه أمام نفسه ويقول:

«... ومما سمعته أيضا أن عبد الناصر كان من رأيه البدء فى عمل هجوم جوى مفاجئ على إسرائيل، لكن عبد الحكيم عامر وشمس بدران كانا معارضين ، وسافر إلى روسيا لشكايته للروس وقال لهم: إن المجنون عبد الناصر يريد عمل حرب ، ولما أجرى اليهود هجومهم المفاجئ أصدر عامر أمرا إلى الفريق عبد المحسن كامل مرتجى بالقبض على جمال ، إلا أن صلاح نصر أبلغ الخبر لجمال وطلب منه الاطمئنان وأن قوة من الفدائيين فى طريقها إلى عامر ومرتجى للقبض عليهما ، وفعلا أصيب عامر بسبع رصاصات فى جنبه الأيسر ومحاولة قتل عبد المحسن مرتجى».

❏

ويختلف رأى عبدالمنعم عبدالرءوف فى زملائه من قادة حرب ١٩٦٧، فعلى حين أنه يرى أن صدقى محمود وجمال عفيفى ضابطان ممتازان فإنه يجاهر بأن عبدالحميد الدغيدى وشقيقه عبدالحكيم الدغيدى سيئان.. (صفحة ٢٦١).

ويكرر صاحب هذه المذكرات مثل هذه المعانى أو التحليلات أو الشائعات فى موضع آخر فيقول :

«هناك ثلاث قوى وهى ناصرية ويمينية مع زكريا وإخوانية ، وسيعمل الإخوان مقاومة سرية فى القدس ، والشعب المصرى صار يحتقر الضباط المصريين بعد هزيمة (١٩٦٧) ، ومدكور أبو العز تولى قيادة سلاح الطيران ، لأنه أصدر أوامر عندما كان محافظا لأسوان بعمل دوريات جوية فوق السد ، وفعلا لم يستطع اليهود اختراق ذلك الدفاع ، وصدقى محمود كان ليلة الهجوم سكران مع جميع الطيارين بمناسبة زفاف ابنته ، وأيقظوه من النوم بعد أن تحطم سلاح الطيران والمطارات ، وعبد الحكيم بمناسبة الزفاف أعطى الضباط إجازة (٤٨) ساعة رغم حالة الطوارئ الموجودة ، وعقد اجتماع برئاسة الملك فيصل حدث فى روما حضره جميع سفراء الدول العربية وثروت عكاشة ، وأبلغهم فيه أن أسرائيل ستهجم».

هكذا لا يتورع ـ أو لا يتحرج ـ عبد المنعم عبد الرءوف عن رواية مثل هذه الأراجيف التى كان من السهل عليه أن يتحقق منها أو أن ينفى حدوثها من الأساس دون أن يعنى هذا تبرئة

للمسئولين أو تهوينا لحجم الهزيمة وما سبقها وما لحقها من أخطاء. وعلى سبيل المثال فهل يعقل أن مناسبة سعيدة كعقد قران (أو زفاف) ابنة قائد الطيران فى ليلة المعركة تحتمل الاختلاق، ولا يمكن لعبد المنعم عبد الرءوف التأكد من حدوثها أو عدم حدوثها خصوصا أن الرجل كان زميلا لصاحب المذكرات فى الطيران، وقد أثنى عليه فى موضع سابق ـ وقريب ـ من هذه المذكرات عند دفاعه عن الجيش المصرى فى حرب ١٩٦٧!

ويبدو والله أعلم أن المذكرات لم تجد ـ لهوى فى نفسها ـ مانعا من أن تنقل هذه الترهات عن حرب ١٩٦٧، وذلك على الرغم من أن حقائق الهزيمة كانت أفظع بكثير من هذه الترهات والمهاترات.

وقد كان من سوء حظ عبد المنعم عبد الرءوف أن أفسحت مذكراته هذه المساحة لهذه الشائعات، وهو خطأ ضخم سيظل ينتقص كثيرا من قيمة ومصداقية المذكرات!!

❑

ويشير عبد المنعم عبد الرءوف إلى لقاء مهم (لم يُشر إليه كثيراً) بين ثروت عكاشة والملك فيصل فى روما قبل حرب ١٩٦٧ (صفحة ٢٤٦).

(٣٧)

وتحفل هذه المذكرات بكثير من الآراء السياسية التى تشى، بل ربما تفصح عن انحياز فكر صاحبها وكاتبها إلى أفكار ومعتقدات جماعة الإخوان المسلمين، بل والآراء التى انفرد بها الإخوان تجاه بعض الأحداث ، ومن ذلك ـ على سبيل المثال ـ ما يرويه عبد المنعم عبد الرءوف عن حادث المنشية ورأيه فيه، وهو يورد الحديث عنه عرضا ذاكرا أنه عرف بالحادث فى أثناء هروبه :

«... سمعت النبأ وكان مفاجأة غير متوقعة ، وفى الصباح نشرت الصحف أنباء أدركت حين قرأتها أننى أمام أشياء لا يصدقها العقل ، وتواردت فى خواطرى علامات استفهام كثيرة حول هذا الحادث».

«ثم سلم الشهيد هنداوى نفسه وأدلى بكثير من الاعترافات والخطط التى لم تكن فى الحسبان ، وتحيرت مع هذه الاعترافات والخطط أيضا ، وأخذت أناقش تفاصيلها وأتعجب، ثم بدأت الاعتقالات الشاملة ، وأخذت الصحف تنشر ذلك وتكتب عن ضبط أسلحة ومتفجرات وأجهزة اتصال لدى أفراد الجماعة ، وغير ذلك من الأفانين التى كانت تطالعنا بها كل يوم».

«كما نشطت الإذاعة فى تحذير الناس من أفراد الجماعة ، وضرورة التبليغ عنهم ، لتتمكن الحكومة من القبض عليهم ، قبل أن يتمكنوا من الإضرار بمصالح الشعب».

(٣٨)

ولابد لنا فى مدارستنا لهذه المذكرات أن نتعرض لبعض الجوانب الاجتماعية فيها من حياة هذا الرجل الذى عاش حياته فى أكثر من مكان، ومن المثير للتأمل أن هذا الرجل «المجاهد» لا يحدثنا عن أسرته الصغيرة بما فيه الكفاية.

وعلى حين يذكر عبدالمنعم عبدالرءوف زوجته الأولى بكل الحب والتقدير طيلة أيامه الأولى وحتى هروبه من مصر، فإنه لا يذكر لنا شيئاً عنها بعد هروبه، ماذا فعل بها؟ وماذا فعلت بها الأيام؟ كل ما يذكره لنا من هذه الفترة جاء عرضاً فى الصفحات الأولى وقبل موعده الزمنى حين ذكر أن أنور السادات كان ممتناً لكرم عبدالمنعم وزوجته، وانتهز الفرصة ليرد الجميل لها بأن حضر مع عبدالناصر زواج ابنتها (ابنة عبدالمنعم) وشهدا على العقد (صفحة ٦١).. ولكن فيما عدا ذلك لا نجد لهذه الزوجة ذكراً بعد ذلك.

أما زوجته الثانية فإننا نفاجأ بها وسط الأحداث التى تجرى فى بيروت، وبأبناء عمومتها فى تركيا.

ويغفل عبدالمنعم الحديث عن الجانب الإنسانى أو الشخصى الذى دفعه إلى الزواج مرة ثانية، كما يغفل الحديث عن زوجته الأولى تماماً، ولولا أنه يشير إلى زوجته الأولى بوصفها بالأولى، لكان قد ضاع على القارئ تمييز الزوجتين من بعضهما.

ومع هذا فيبدو أن عبدالمنعم عبدالرءوف قد نسى أن يعطى زوجته الثانية حقها من التقدير لوقوفها بجانبه فى بيروت وتركيا.

(٣٩)

بعد كل هذا أظن أن الأوان قد آن لتتناول الرواية الأسطورية عن تهريب عبدالناصر لصديقه عبدالمنعم عبدالرءوف بعد محنة الإخوان المسلمين، وعن لقاء الرجلين فى الهند، وهى الرواية التى روج لهاالأستاذ فتحى رضوان فى مقال شهير سنورد بعض فقراته، ونبدأ بأن

نذكر للقارئ أن خاتمة هذا الكتاب قد خصصت لحديث صحفي أجرته إدارة التحرير لدار الصحافة والنشر الإسلامية مع السيدة زوج شقيق عبدالمنعم عبد الرءوف عن صحة الواقعة الخاصة بقيام عبدالناصر بتهريب عبدالمنعم عبدالرءوف.

وقد ألقت إدارة التحرير السؤال بطريقة محايدة ولكن هذه السيدة نفت بكثير من المنطق المرتب هذه الواقعة تماماً: وكأنما أرادت الدار أن تثبت هذه الواقعة التي وردت في مقال الأستاذ فتحي رضوان الشهير في مجلة الهلال، بينما أهملها عبدالمنعم عبدالرءوف تماماً.

وربما يبدو من الأفضل أن ننقل للقارئ نص ما ورد في ملحق هذه المذكرات بقلم «التحرير» في دار الطباعة والنشر الإسلامية وهذا هو النص بحذافيره :

«وكان لزاماً أمام ما نشر أن نتحرى الحقيقة لنعلنها على الناس أولاً ثم نثبتها في ملف الفريق عبدالمنعم عبدالرءوف الموجود لدينا ثانياً، فقامت دار الطباعة والصحافة والنشر الإسلامية بإيفاد الأستاذ جابر رزق الكاتب والصحفي والأستاذ أحمد عيد موجه اللغة العربية بالمعاش إلى الأستاذ محمد شديد المقيم حاليا ببلدته بهناي منوفية ، وأطلعاه على ما جاء على لسان الأستاذ إسماعيل النقيب ، فذكر لهما أن المرحوم الفريق عبد المنعم عبدالرءوف لم يدخل بيته إطلاقا ، وبالتالي يكون كل ما ذكر بخصوص المسدس ليس صحيحا على الإطلاق

· أما فيما يختص بواقعة لقائه مع المرحوم الرئيس عبد الناصر بالهند ، فقد قاما بسؤال السيدة حرمه فذكرت أنه لم يعين سفيرا للأردن بالهند ، كما أنه لم يكن سفيرا لها أبدا ، وذكرت كذلك أنه لم يعين في أي وظيفة بالأردن لا في الحرس الوطني ولا في غيره ، لأنه رفض ما طلب إليه وهو أن يقوم بحملة ضد عبد الناصر بالإذاعة والتليفزيون الأردني ، والقارئ لهذه المذكرات يتأكد تمام مما كتبه سيادته عن فترة وجوده بالأردن ويتأكد كذلك من صدق ما ذكرناه وأنه لم يسافر إلى سويسرا أيضا».

ثم يورد النص المنسوب إلى إدارة التحرير في دار الطباعة والصحافة والنشر الإسلامية بعض التفاصيل عن قصة هروب عبدالمنعم عبدالرءوف مشيرا إلى أن الأستاذ جابر رزق قد قام بإجراء حديث [صحفي!!] مع السيدة حرم المرحوم اللواء عبدالقادر عبدالرءوف على النحو التالي:

«س : اذكري لي متى التقى بك المرحوم الفريق عبدالمنعم عبدالرءوف أثناء هروبه؟».

«ج : هذا الكلام من سنين طويلة وليس من المعقول أن أتذكر اليوم أو الشهر إنما السنة ممكن وأظن ذلك كان عام (١٩٥٤). فقد اتصل بي بعد اتفاق سابق مع أخيه ولم أكن أعرفه من قبل فاتصل بي تليفونياً، وكان الاتفاق أن يقول لي أنا من غير ذكر اسمه، فأخبرته أنني سأنزل وأقابله وذهبنا إلى المكان الذي تقابلنا فيه مع أخيه، حيث كان أخوه يمتلك قطعة أرض

على ترعة المنصورية والذهاب إليها يكون من قبيل التمويه، وعاد والتقينا فى منطقة كلية طب الأسنان وتوجهنا إلى منزل بشارع التلول، ووجدنا أن هناك صندلة فوق الباب ليست مطروقة فمكث فيها إلى الصباح، وكان هذا المنزل مملوكاً لنسايب المرحوم اللواء عبدالقادر، وفى اليوم التالى ذهبنا بسيارة المرحوم اللواء عبدالقادر إلى منزل ابنته بالدقى وكان لابساً جلباباً بلدياً وفوقه بالطو ورأسه عار، ومكثنا بعض الوقت وعند خروج المرحوم الفريق عبدالمنعم من منزل ابنة أخيه، هوجم المنزلُ بحثاً عنه بقيادة الملازم حسن أبو باشا وزير الداخلية فيما بعد، وكان وقتها يقيم فى منزل خالة زوجه المجاور لمنزل ابنة شقيقته(!!) وذهبت به إلى منزل قريب لى فى مصر الجديدة وهو رجل كبير فى السن، وكان يقيم فى عمارة بآخر دور ولا يصعد إلى الشقة إلا الساكن فقط، وكنا موفقين فى ذلك، وذكرت لقريبى أنه ضابط فى الجيش ومن المنشقين وضد الثورة وأنه لا يريد الظهور، ومن حسن الحظ كان قريبى هذا رجلاً مثقفاً ومتفتحاً، لكنه بعيد عن السياسة والإخوان المسلمين، لذلك أخذ كلامى ثقة على أنه ضابط منشق وليس له صلة بالإخوان المسلمين لأن الحكومة كانت قد بدأت تتصرف ضد الإخوان».

«وكان صاحب الشقة يريد الخروج وكنا نتحايل عليه للبقاء ونتفنن فى تسليته فكان يقول: يابنى عايزين نخرج نشم هوا، لأنه رجل كبير ومسن، ويريد الخروج دائما، وكانت الجرائد قد بدأت تكتب وتنشر صور المطلوب القبض عليهم، فبدأ قريبى يشك فى الإنسان الموجود عنده، فذكرت له أن هذا عبدالقادر عبدالرءوف وله أخ اسمه عبدالمنعم عبدالرءوف هو الذى يبحثون عنه، أما عبدالقادر فهو مختف هنا خوفا من القبض عليه، وإن عبد المنعم الحكومة تتعقبه وستقبض عليه».

«ثم اتصلت بعبدالقادر وأبلغته بأن قريبى بدأ يشك وأعصابه الآن متعبة، فسألنى: وما العمل؟ فقلت: إننى سأكلم أختى التى تسكن فى روض الفرج. ولما سيطر الشك على زوج أختى نزل إلى الشارع ليأتى بالجريدة فإذا مكتوب فيها بالخط العريض «الهجوم اليوم بالدبابات والأسلحة النارية والمدرعات على شبرا وروض الفرج لوجود الإرهابى عبدالمنعم عبدالرءوف فى المنطقة».

«وبمجرد أن قرأ هذا الخبر وقع على الأرض أمام ترام رقم ٣٠ لأن منزلهم فى روض الفرج بعد الدوران بقليل، فنزل أخوه وأحضره إلى البيت».

❑

وتروى السيدة تفصيلات أخرى عن المحاولات التى شاركت فيها من أجل تهريب عبد المنعم عبد الرءوف:

«وبدأنا نفكر فى نقله إلى مكان آخر ، وكانت لى أخت أخرى تسكن فى مصر الجديدة فى

أول شارع بطرس غالى فى أول دور ، وكان زوجها الأستاذ وجدى عنايت ـ رحمه الله ـ صديقا لرجال الثورة ، وهو منتج سينمائى ومنزله غاص بالزائرين طول اليوم منهم ضباط شرطة وضباط جيش ، وأكثرهم من رجال الثورة ولا يفكر أحد فى أن يكون عبد المنعم عبد الرءوف موجودا فى هذا البيت ، وذهبنا به إلى هذا المنزل فى تاكسى ، فرحب به زوج أختى المرحوم الأستاذ وجدى عنايت ، ودخلا غرفة الأولاد وكان المنزل غاصاً بالزائرين ولا يفكر أحد منهم أن القادم عبد المنعم عبد الرءوف».

«وطبعا الناس الذين يعملون فى السينما يعرفون كثيرا من الأوساط منها الصالح ومنها المنحرف ، فكان زوج أختى يعرف رجلا يعمل فى التهريب اسمه الشريف ، هو الآخر توفى أيضا».

«قال له: أنا عندى واحد من المنشقين على الحكم من غير أن يذكر له الاسم يريد السفر إلى الخارج ، وكان أيامها عائلة لملوم ضد الثورة ، وعائلة سراج الدين ضد الثورة ، وعائلة بدراوى وبقايا من العائلة المالكة ضد الثورة ، مجاميع من الأسر تريد الخروج من البلد وترغب فى تهريب أموالها كذلك ، فقال له: عندى شخص ولم يذكر الاسم وأريد أن نسفره للخارج على أحد المراكب التى تذهب إلى لبنان أو سورية أو تركيا أو أى بلد آخر».

«فقال له: لا مانع عندى ولكن المبلغ الذى سيطلبه القبطان ستدفعه».

«فقال له: ليس لدى مانع ولم يسأل المهرب عن اسم الشخص ولم يذكر زوج أختى من يكون؟».

«وما حدث بعد ذلك أن الرجل لما ذهب إليه المرحوم عبد المنعم عبد الرءوف فى المنصورة من مصر الجديدة اكتشف شخصيته ، فبدأ يطلب المزيد من المال ، لأن المهربين يتعاملون مع المادة ولا يهمهم غيرها ، وطلب المبلغ الذى يرضيه نظير الإقامة عنده فى المنصورة وليس من أجل تهريبه للخارج.

«ولما وجدنا الموضوع تأخر وأنه لم يسفره للخارج ، كلفنى أخوه بأن أذهب إلى المنصورة وأحضره ثانية إلى القاهرة ، على أن يعطيه خريطة الصحراء ويوصله ، وكان أخوه يعمل فى سلاح الحدود وكان يعرف صحارى مصر كلها ومعالمها ، وكان لفترة طويلة محافظا لسيوة ، وفى يوم من الأيام قال: نطلعه مع قافلة جمال ويمشى ويتوكل على الله ، وفعلا ذهبت وأحضرته من المنصورة وذهبت به إلى أول مكان أخفيته فيه وهو عند قريبى فى مصر الجديدة، وكان لا يعرفه وعنده شك فقط فى أنه عبد المنعم ، وعندما ذهبنا إليه ومكثنا عنده مدة ثم بدأ يعاملنا بلؤم ويهاجمنا ويقول: هذا ليس عبد القادر بل عبدالمنعم ، ويحضر الجرائد ويقول هذه

صورته فأقول له كلا هذا عبد القادر وأما عبدالمنعم فلا نعرف طريقه وهما شديدا الشبه لأنهما أخوان ، فرفض أن يصدق وقال: إذا كان كلامك صحيحا فلنذهب إلى السينما ونروح المسرح أو نقعد فى محل ولو أحد سأله يخرج كارنيه ويثبت أنه عبد القادر».

«ثم فكرنا فى الرجوع للمنصورة لأن الهروب عن طريق الصحراء صعب وغير مأمون فى هذه الفترة ، فاتصلنا بزوج أختى المنتج السينمائى لنضعه أمام الأمر الواقع وقلنا له: إن الرجل الذى اتفقت معه لم ينفذ وعده وأخذ يتسلى علينا فبقى عنده عدة أيام ، فأحضر زوج أختى الرجل من المنصورة وقال له: قل لنا بصراحة ماذا تريد من النقود؟ فطلب الرجل (٣٥٠) جنيها وطبعا قال إن هذا المبلغ سيعطيه لقبطان المركب وليس له».

«وفى ذلك الوقت حين يريد أخوه أن يرانى كان يذهب إلى الإسكندرية ويعمل تمويها ويغير الاتجاهات ليبلغنى رسالة أوصلها له حتى لا يعرف أحد بأن لى علاقة بأخيه فيمشى ورائى والأسرة كلها كانت مراقبة وتهاجم فى أى وقت بالليل وبالنهار».

«وفكرنا فى العودة إلى المنصورة حين ذكر الرجل ما يريده ، فعلا عدنا إلى المنصورة من مصر الجديدة بتاكسى، وأخذ الرجل يقول اليوم نوة وتمضى الأيام ليتنفع بالمصاريف التى كان يتقاضاها نظير الإقامة بمنزله ، إلى أن هداه الله وقرر تسفيره فأعطيناه المبلغ المطلوب وأكثر ، أخذت الفلوس من المرحوم اللواء عبد القادر فأخذ منها الرجل ما أراد والباقى تسلمه المرحوم عبد المنعم وسافر من المنصورة إلى دمياط ، وركب الباخرة وكانت من البواخر التى تحمل الملح وأشياء بدائية وتوكل على الله ووصل إلى لبنان بسلامة الله».

«وكان زوج أختى له أسر (معرفة) هناك فاستقبلوه وبقى عندهم فترة حتى التقى بإخوانه هناك».

❑

وبعد أن أوردت دار الصحافة والطباعة والنشر الإسلامية تفصيلات هذه الرواية المطولة على لسان السيدة زوج أخ عبدالمنعم عبدالرءوف، حرصت «الدار» على معنى آخر بدا ذا أهمية لها وهو أن تؤكد بالرواية على لسان نفس السيدة أن الرئيس عبدالناصر لم يكن له فضل (أو دور) فى تهريب عبدالمنعم عبدالرءوف، ويدور الحوار حول هذه الجزئية بطريقة موجهة تكاد تريبنا فى المقصود منها:

س: حضرتك تعتبرى شاهدة فى هذا الموضوع فهناك كلام ، يقال : إن عبد الناصر يسر له الهروب من مصر!!

ج: أنا مستعدة أحلف على المصحف إن هذا الكلام كذب مليون فى المائة لأن هذا كان

نوعا من أنواع الدعاية ، فقد كان يريد أن يشمر باقى أعضاء مجلس الثورة وزملاءه بأنه رجل كبير القلب وأنه يسر له السفر وأخرجه من مصر بالرغم من أن عبد المنعم كان يريد اغتياله ، فهذا كلام غير معقول ولن يصدقه إنسان عاقل ، فقد كان يمكنه بجرة قلم أن يلغى حكم الإعدام الذى صدر ضده.

س: طبعا هذا الكلام مقصود به تشويه صورة عبد المنعم ؟

ج: هو ليس تشويهها فقد كان يرغب فى مجد شخصى ، عبد الناصر عايز يشعر الجماعة التى حوله بأن قلبه كبير وصاحب فضل ، بدليل أن الرجل الذى أساء إليه يسر له الهروب من مصر.

س: الناس ظنوا هذا لمشاهدتهم حضور عبد الناصر زفاف بناته؟

ج: لما المرحوم عبد القادر زار السادات فى منزله لأنه كان يتولى البنات فى صورة توصيل نقود إليهن من المؤتمر الإسلامى ، وكان أيامها رئيس مجلس الأمة فمن ضمن الحديث قال له ، تعرف يا عبد القادر بدون تكليف مع أن الناس قديما كانت تحترم الرتب فقد كان المرحوم عبد القادر برتبة الأميرلاى وكان السادات برتبة البكباشى . فقال له: تعرف ياعبد القادر (كده أخويه) ـ فقال له: خيرا وكان المرحوم رئيس محكمة عسكرية طويل البال (ورجل محنك) وعلى علم ،مثقف ومحارب وله أمجاد وكان متزنا جداً وليس متهورا وقوى الإسلام ، فقال خيرا ، فقال له السادات: لو كنت شفت عبد المنعم كنت رصصته بالطبنجة بتاعتى ، تتصور إن عبد الناصر هو الذى هرب عبد المنعم من السجن وأسكنه فى بيته مع أولاده لغاية ما أحضر له طائرة هليكوبتر وطلعه على الحدود وبعدها استريح كده وهرب.

«فطبعا عبد القادر ضحك لأنه أمام أسطورة دخلت التاريخ من ضمن أكاذيب الثورة التى كانت لاتنتهى ، وقد كان المرحوم عبد القادر هو صاحب المشكلة ويعرف الموضوع من أوله لآخره ، وقد كان هذا الكلام من تأليفهم وهو متأكد من ذلك طبعا».

❑

وبعد هذه الرواية التى ترويها السيدة زوج أخ عبدالمنعم عبدالرءوف للأستاذ جابر رزق تمضى دار الصحافة والطباعة والنشر الإسلامية فى تضييق خناق الأسئلة عمن اختلق رواية تهريب عبدالمنعم عبدالرءوف هل هو الرئيس السابق أم الرئيس اللاحق:

س: أنت حكيت أن هذا الكلام قيل وأن السادات قاله لعبد القادر فهل اختلقه السادات ؟

ج : لا ! السادات لم يختلقه إنما جمال عبد الناصر هو الذى اختلقه شخصيا وأن عبدالناصر قال للسادات: أنا خليته فى بيتى وطلعته خارج مصر.. وأنور السادات بيقول نقلا

عن لسان جمال عبد الناصر.. وأنه قال كنت رصصته بالطبنجة بتاعتى بالرغم من كل الذى عمله لى فى حياتى أيام ماكنت طريدا ، وقال : أنا كنت أدخل بيت عبد المنعم لو كان فيه آخر رغيف فى بيته كنت أنا الذى آكله بالرغم من كل هذا كنت ضربته بالطبنجة بتاعتى.. وبالرغم من كل ماحدث منه فقد أخذه جمال عبد الناصر إلى منزله وأخفاه حتى هربه إلى خارج مصر! .

س: هناك احتمال أن أنور السادات قال هذا الكلام تمجيدا لعبد الناصر

ج: لا يافندم عبد الناصر قال هذا الكلام لزملائه ليكتسب مجدا ويظهر بينهم بأنه رجل كبير القلب ليحصل على شعبية فى محيطه.

❑

وينتهى حوار دار الصحافة الإسلامية بسؤال غريب عن طبيعة صلة السيدة المحاورة بأخ عبدالمنعم عبدالرءوف، مع أننا طوال الحوار نفهم أنها كانت زوجا للواء عبدالقادر أخيه، فإذا بالسؤال والجواب يعيدنا إلى فترة التعارف قبل الزواج!!:

س: هل حدثت صلة بالأستاذ عبد القادر قبل الاشتراك فى عملية التهريب ؟

ج: نعم فقد كنت أذهب إلى مكتبه (هكذا بالهاء وربما المقصود مكتبة بالتاء المربوطة لأنه لا يعقل بالطبع أن يكون لضابط عسكرى مصرى مكتب فى السفارة الأمريكية) بالسفارة الأمريكية للاطلاع والترجمة ، وكان هو يذهب لعمل دراسات عسكرية ويستعير كتبا ، فتعرفنا وذكر أنه شقيق عبد المنعم عبد الرءوف ، وعبد المنعم فى ذلك الوقت كان بالنسبة لى أسطورة فكنت على استعداد للقيام بأى خدمات من أجل أخيه ، فقمت قبل هروبه من السجن بنسخ القضية على الآلة الكاتبة ، وكانت سرية طبعا لأنه راجل عسكرى والقضية عسكرية ، وليس من المصلحة معرفة أسماء الضباط فأعطانى المرحوم عبد القادر القضية ، وقمت بنسخها له كنوع من أنواع الخدمات التى كان يجب أن أقوم بها.

وانتهت المقابلة على ذلك».

على أنه لا يجوز لنا أن نترك هذا الجزء من دون الإشارة إلى أن عبدالمنعم عبدالرءوف فى مذكراته لم يوف هذه السيدة [أى زوج شقيقه] بعض حقها فى الحديث عن دورها فى تهريبه، كما أنه يظهر من هذه الفقرة الأخيرة كيف بدأت علاقة هذه السيدة العظيمة بعبدالقادر ثم عبد المنعم عبد الرءوف وإن كان إعجابها قد تعلق بأسطورة «عبدالمنعم» على نحو يذكرنا بما ترويه السيدة جيهان السادات عن تعلقها بأسطورة أنور السادات، وهو ما ينم عن طبيعة الفخر بالوطنية المتأججة عند بنات هذا الجيل حتى ممن كن يعملن بالوظيفة مع جهات أجنبية.

وللأسف الشديد فإننا نقول إن إهمال صاحب هذه المذكرات أو كاتبها للحديث عن دور هذه السيدة ليس بالأمر الغريب، فهو لم يذكر لنا دور زوجته الثانية بالوضوح الكافى فى مذكراته فقد كان حديثه عن زوجته الأولى التى تزوجها رحمة الله عليها عام ١٩٣٨ ثم جاء ذكرها عند الحديث عن تشييع جنازتها عسكرياً .. وبعد صفحات طويلة وجدنا عبد المنعم عبد الرءوف يتحدث عن حصول أنجاله على جثة أمهم بينما هو فى المنفى!!!

(٤٠)

وإذا كنا قد نقلنا كل هذا الحوار فلابد أن نروى سببه وهو رواية فتحى رضوان عن هروب عبدالمنعم عبدالرءوف، وذلك فى مقاله المعنون «عبد المنعم عبد الرءوف وأكبر قضية عسكرية فى تاريخ مصر الحديث «وقد نشره فى مجلة الهلال (سبتمبر ١٩٨٥) كما نشر كملحق لهذه المذكرات.

وسنرى فى مقال فتحى رضوان كثيرا من المبالغات التى كان مشهورا بها إذا ما تركت له الفرصة ليمضى فيها، ولا ننسى أنه عاصر كل بدايات ونهايات عبد المنعم عبد الرءوف وكانت هناك بعض المناطق التى تقاطع فيها نشاطهما الوطنى،وسنرى الجزء الأكبر من حديث فتحى رضوان مخصصاً لما شارك فيه أو كان شاهده، ثم إذا هو يقفز فى سرعة شديدة ليروى الرواية الأسطورية التى شاعت منسوبة إليه من لقاء عبد الناصر لعبد المنعم عبدالرءوف فى الهند ضمن السفراء العرب الذين اصطفوا لتحية الرئيس المصرى عند زيارته للهند!!

كما نلاحظ أن فتحى رضوان لم يجد حرجا فى أن ينقل نصوصا مقتبسة من كتابى أنور السادات وجمال حماد، ولكنها نصوص تؤكد ما هو معروف،وإن كان ـ فى المقابل ـ عند الحاجة إلى نصوص تؤكد دعاواه قد اكتفى بالكلام المرسل.. ولم يكن كل هذا غريبا على أسلوب فتحى رضوان رغم كل حبى العميق وتقديرى المتأجج له:

«غاب عن دنياه هذه الأيام الضابط عبد المنعم عبد الرءوف ، وهو اسم نجده فى كل مذكرات أو كتب تناولت تاريخ ثورة ٢٣ يوليو. لم يشذ عن هذه القاعدة لا ضابط ولا مؤرخ».

«ولم تعرف مصر عبد المنعم عبد الرءوف بوصفه ضابطا من تنظيم الضباط الأحرار ، بل عرفته فى مناسبة أخرى هزت مصر والوطن العربى هزاً عنيفا وبقيت تشغله لفترة طويلة».

«وكانت المناسبة التى عرفته فيها مصر ، حدثا ضخماً تمتزج فيه المجازفة المتسمة بالبطولة

والشجاعة والمناداة بالعمل السياسى المخطط له والمدبر ، ففى مايو سنة ١٩٤١ ، علمت الدنيا كلها أن رئيس أركان حرب الجيش المصرى الفريق عزيز المصرى حاول الخروج من مصر فى طائرة عسكرية ، تولى قيادتها اثنان من ضباط سلاح الجيش العاملين. وأن هذين الضابطين هما النقيبان: عبد المنعم عبد الرءوف ، و حسين ذو الفقار صبرى ، وأن الطائرة سقطت بركابها فى ناحية قليوب بعد أن اصطدمت بأسلاك كهرباء فى هذه المنطقة».

«ولم يعد لمصر شغل يشغلها إلا التحدث عن هذه الحادثة التى لم يسبقها شئ مثلها ، وترديد أسماء أبطال هذه المجازفة عزيز المصرى باشا والضابطين عبد المنعم عبد الرءوف و حسين ذو الفقار صبرى ، ثم متابعة تحريات المحاكمة العسكرية أمام المجلس العسكرى العالى الذى شكل من خمسة من كبار الضباط لمحاكمة هؤلاء الضباط وحفظت هذه القضية العسكرية بعد ذلك ، وأفرج عن الضباط الثلاثة وعاد الضابطان الشابان إلى عملهما فى الجيش ، ولكن فى غير سلاح الطيران».

«ولم يعد اسم عبد المنعم عبد الرءوف يذكر ، حتى فوجىء المصريون فى صباح يوم ٢٣ من يولية ١٩٥٢ ، بثورة عسكرية ، اقتلعت الملك ثم الملكية من جذورها. ثم استقرت الثورة ، وأخيراً بدأت الكتب والمقالات والبحوث تظهر لتروى وقائع ميلاد الحركة التى دبرت للثورة ونفذتها ، وقد أجمعت كل هذه المراجع على أمر واحد ، هو أن عبد المنعم عبد الرءوف ، كان ضمن أعضاء الخلية الأولى من خلايا الثورة ، وأنه كان الرجل الثانى بعد جمال عبد الناصر ، وأنه كان مثال الضابط الثائر ، استقامة وأمانة ، وإليك الأمثلة على ذلك».

«كان أول كتاب يروى قصة الثورة هو كتاب أنور السادات الذى جمع فيه مقالات كان ينشرها فى جريدة الجمهورية بعنوان «قصة الثورة كاملة» واختار للكتاب نفس الاسم. فذكر عبد المنعم عبد الرءوف كثيرا ، فقال: «تكونت الهيئة التأسيسية فعلاً وكانت تضم فى البداية جمال عبد الناصر و كمال الدين حسين و حسن إبراهيم و خالد محيى الدين و عبد المنعم عبد الرءوف ».

«ثم قال : بينما نحن نعد خطتنا لقلب نظام الحكم على أساس تقديرنا لموقف البلاد فى ذلك الوقت فوجئنا بالبكباشى عبد المنعم عبد الرءوف وهو ينادى بضم تنظيم الضباط الأحرار كله إلى الإخوان المسلمين . ولم يجد عبد المنعم عبد الرءوف مَنْ يستمع إليه. وأصر عبد المنعم عبد الرءوف على إخضاع الضباط الأحرار لجماعة الإخوان المسلمين وقال وهو يحاول إقناعنا بوجهة نظره إن جميع أعضاء تنظيم الضباط الأحرار يمكن أن يقبض عليهم قبل أن يتمكنوا من عمل شئ. من يرعى أطفالهم وزوجاتهم وأهلهم؟. وقلنا له جميعاً ، إننا مثله لنا

زوجات وأولاد ويهمنا أن نطمئن عليهم وعلى مصيرهم ، ولكن المسألة ليست مسألة شخصية فنحن نعد ثورة لا مؤامرة».

«وقد تحدث جمال حماد عن عبد المنعم عبد الرءوف فى كتابه «٢٣ يولية أطول يوم فى تاريخ مصر » قال :

« تخرج عبد المنعم عبد الرءوف فى الكلية الحربية عام ١٩٣٨ فهو من نفس دفعة السادات وعين ضابطا طيارا بسلاح الطيران وعرفت عنه الاستقامة والصلابة وصدق الوطنية ، وقد حذا عبد المنعم حذو الكثيرين من الضباط الشبان المتحمسين الذين اجتذبتهم شخصية عزيز المصرى فبدأ يتردد على منزله بالمطرية ، وتولدت نتيجة لذلك رابطة قوية من المودة والثقة إلى الحد الذى جعل عزيز المصرى يصارح عبد المنعم برغبته الملحة فى السفر إلى بيروت، ويسأله المعونة ، وكان عزيز المصرى يهدف من وصوله إلى بيروت أن يساعده عملاء الألمان على السفر إلى العراق للمساهمة فى ثورة رشيد عالى الكيلانى التى قام بها ضد الإنجليز».

«واستطاع عبد المنعم بدوره إقناع زميله « فى الكلية والدفعة » حسين ذو الفقار صبرى للاشتراك فى نقل عزيز المصرى إلى بيروت بطائرة من السلاح الجوى المصرى بحكم وجود حسين ذو الفقار فى سرب المواصلات».

«ولكن المغامرة التى وقعت يوم ١٦ من مايو سنة ١٩٤١ ، لم يتيسر لها النجاح فإن حالة الاستعجال تسببت فى أن يغلق الميكانيكى مفتاح الزيت بدلا من أن يفتحه مما أدى إلى هبوط الطائرة اضطراريا بالقرب من قليوب. ورغم اختفاء عزيز المصرى والطيارين لمدة ٢١ يوما فى حى إمبابة عند أحد أصدقاء عبد المنعم تمكن البوليس من القبض عليهم يوم ٦ من يونية سنة ١٩٤١ وأجرى التحقيق معهم بعد اعتقالهم ، وقدموا للمحاكمة ، واستمروا معتقلين حتى أفرج عنهم فى مارس ١٩٤٢ فى عهد حكومة النحاس».

ويستأنف فتحى رضوان حديثه فيقول:

«وقد كنت أعرف أطراف هذه المغامرة الكبرى على درجات من التفاوت .. وكانت معرفتى لعبد المنعم عبد الرءوف تجعله قريبا منى ، دون أن تنشأ بيننا صداقة حميمة ، فقد جمعتنا الظروف فى مدينة أسيوط ، و أنا فى السنة الأولى الثانوية ، فقد كان أبوه قائد ما يسمى ـ سنة ١٩٢٤ وما بعدها ـ بالأورطة التى كانت تعسكر فى عاصمة الصعيد ، وكان أبى مهندسا للرى ، وكان بيتانا متجاورين فى هذه المدينة ، وقد لعبنا معاً كثيراً ، ولكن بقيت علاقتنا سطحية ، حتى وقعت طائرته هو وزميله حسين ذو الفقار صبرى فى قليوب ، ولجأ

إلى صديق من أصدقائى هو المثال العظيم عبد القادر رزق الذى كان آنذاك مدرساً لفن الحفر فى مدرسة الفنون الجميلة».

«وكانت أجهزة الأمن تبحث أصلاً عن المرحوم أحمد حسين زعيم حزب مصر الفتاة ، وكانت صلتى به معروفة ، فراقبت أجهزة الأمن مكتبى ، وشاء الحظ أن يزورنى ذات يوم زميلى فى الحزب الوطنى أحمد مرزوق «أستاذ الرياضة فى معهد التربية البدنية العليا آنذاك» فتتبعوه حتى قابل بطريق الصدفة المحضة فى شارع عدلى المثال عبد القادر رزق وكان شخصية مجهولة للشرطة ، ولكن المخبر الذى كان يراقبنى بدا له أن يتعقب هذه الشخصية المطاردة وهو يمنى نفسة أن تقوده إلى حيث يختبئ أحمد حسين ».

«وسار وراء الشخصية المطاردة حتى وصلت إلى منزله فى حى امبابة فأبلغ رؤسائه الذين داهموا هذا المنزل وهم يعتقدون أنهم سيجدون أحمد حسين فإذا قائد الشرطة السياسية اللواء محمد إبراهيم إمام يرى نفسه أمام الفريق عزيز المصرى ومعه الضابطان عبد الرءوف وذو الفقار، وأمامهم أسلحتهم ، فصرخ فزعا خشية أن يقتلوه بهذه الأسلحة ، ولكنهم لم يفعلوا ، وألقى القبض عليهم، وسيقوا للمحاكمة ، أمام مجلس ضم خمسة من ألوية الجيش ، وترافع عنهم عدد من أكبر المحامين كان على رأسهم حافظ رمضان باشا رئيس الحزب الوطنى ، ورأت بريطانيا أنه ليس لها مصلحة فى استمرار القضية فحفظوها ، وأفرج عن المتهمين».

«ثم ما لبثت الثورة أن قامت واختلف عبد المنعم عبد الرءوف مع إخوانه من اليوم الأول ، كما أسلفنا ، وحكم على عبد المنعم عبد الرءوف بالموت ، ولكنه لجأ إلى الأردن وهناك عينه الملك سفيرا للأردن فى الهند ، وسافر جمال عبد الناصر إلى الهند زائرا لنهرو، وفى المطار اصطف سفراء الدول ليحيوا الضيف العظيم القادم ، ووقف فى مقدمتهم عبدالمنعم عبد الرءوف سفير الأردن فى الهند ، وصافحه عبد الناصر دون أن يلتفت جيداً إلى شخصه ، ثم عاد فدقق وإذا به يفاجأ بأنه يصافح صديق العمر ، وزميل الجهاد ، وعدوه أخيراً .. وأضحكته المفارقة ، ثم تعانقا ».

(٤١)

ومن المهم أيضا أن نلخص للقارئ ما كتبه الأستاذ إسماعيل النقيب عقب وفاة عبد المنعم عبد الرءوف بعنوان «عبدالمنعم عبدالرءوف سؤال بلا جواب»، وذلك فى صحيفة الأخبار ٢٥

أغسطس ١٩٨٥. وفى هذا المقال يلقى إسماعيل النقيب بكل وضوح وصراحة بظلال من الشك على طبيعة علاقة عبد المنعم عبد الرءوف بعبد الناصر واستمرار هذه العلاقة حتى هروبه، بل إن النقيب يوحى بدور واضح لعبد الناصر فى تهريب عبد المنعم عبد الرءوف خارج مصر.

وقد ذكر إسماعيل النقيب في الأخبار أن عبد المنعم عبد الرءوف «ظل فى منزل الأستاذ محمد شديد أربعة أشهر ولم يعلم بمكانه أحد حتى زوجة الأستاذ شديد كانت لاتدرى شيئا من أمر ذلك الضيف، الذى لا يغادر الغرفة المخصصة له فى حى شبرا بمسكن الرجل، وفجأة اختفى عبد المنعم من مسكن صديقه واكتشف الأستاذ شديد ذلك [الاختفاء] عقب عودته من المسجد بعد صلاة الفجر، واختفى مع عبد المنعم عبد الرءوف مسدس الأستاذ محمد شديد، وظل هروب عبد المنعم عبد الرءوف لغزا محيرا للرجل، حتى ظهر عبد المنعم عبد الرءوف فجأة فى جنيف بسويسرا، فكيف هرب من مصر؟ وكيف عرف الذين ساعدوا على هروبه مسكن محمد شديد؟ والأكثر من ذلك إثارة للسؤال أن المسدس الذى عثر عليه مع محمود عبد اللطيف الذى اتهم بإطلاق الرصاص على عبد الناصر وأعدم بعد ذلك، هو نفس مسدس محمد شديد الذى اختفى مع عبدالمنعم عبد الرءوف وكان قد شاع بين الناس عقب هروبه أن جمال عبد الناصر هو الذى قام بتهريبه من السجن وأخفاه فى منزله، حتى هربه إلى خارج البلاد».

مذكرات الضباط الأحرار

نحو حكم الفرد

4

فى الثورة والدبلوماسية

مذكرات:

جمال منصور

دار الخيّال

(١)

هذه مذكرات من نوع خاص كتبها واحد من الضباط الأحرار عاش حياته مرتين، وهو يعيش حياته الآن للمرة الثالثة، فقد كان واحداً من الذين بدأت بهم تنظيمات الضباط من أجل الخلاص قبل ثورة ١٩٥٢، ثم بدأ ـ أطال الله فى عمره ـ حياة أخرى بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حيث كان قد تخرج فى قسم العلوم السياسية من كلية التجارة بجامعة القاهرة، والتحق بالسلك الدبلوماسى بادئاً من بدايته، وتدرج فى وظائف هذا السلك حتى أصبح وكيلاً أول لوزارة الخارجية المصرية عند بلوغه سن التقاعد.

وعلى هذا النحو سنقرأ فى هذه المذكرات وفى هذه الحياة تاريخاً ممتداً لصورتين من صور الحياة المصرية المعاصرة، صورة الحياة فى سلاح الفرسان وما حفلت به هذه الحياة من ثورة بدأت كامنة، ثم اضطربت وقادت إلى الثورة التى نعرفها، ثم ثارت على الثورة نفسها فيما عُرف بأزمة مارس ١٩٥٤، بل وقبلها حين كانت هناك مقدمات للاعتراض الواضح والاختلاف المعلن بين مجموعة متميزة من سلاح الفرسان وبين قيادة الثورة متمثلة فى مجلس القيادة الشهير.

ومع كل هذا فإن هذا الكتاب لا يتجاوز فى حجمه الكتب المتوسطة، ولكنه كتب بطريقة جميلة ودقيقة فى نفس الوقت، وقد كان أبرز تكنيكات الكتابة فيه ما نجده فى الجزء الثانى المتعلق بالدبلوماسية حيث كُتب هذا الجزء على طريقة اللقطات المتتالية غير المترابطة، فوفر المؤلف على نفسه الجهد الذى كان مطلوباً منه أن يبذله لو أنه اضطر إلى تعقب الأحداث

كلها، وروايتها فى خيط واحد متواصل، أما الجزء الأول من هذا الكتاب فإنه على النقيض من الجزء الثانى جاء متواصلاً ومتصلاً وكأنما كتبه المؤلف مرة واحدة.

ولاريب أن هذا الكتاب قد أفاد من هذين الأسلوبين فى كتابة كل من الجزئين، فقد كان كل جزء منه بحاجة إلى الأسلوب الذى كُتب به.

وسأكتفى للقارئ للدلالة على بعض هذه المعانى أن أورد هذه الفقرة من آخر صفحات الجزء الثانى من هذا الكتاب حيث يقول صاحب المذكرات:

«... وشاءت الظروف أن أعمل فى بلاد كانت تربطنا بها علاقات وطيدة، بل علاقات متميزة بلغت قمة الجبال، ولكن تحدث تطورات مفاجئة تهز العلاقات بكل عنف حتى تكاد تقتلعها من جذورها. ونحاول التصدى لتلك المفاجآت أملاً فى وقف حدتها أو التخفيف منها، ولكن تأتى الرياح عاتية، ويسير التيار فى مساره العنيف يدفع كل شىء أمامه ويخلخل قاعدة الصداقة التى بنيناها على مدى السنين، ونبحث عن نسيم الخير الذى كان يأتى كل صباح ليملأ الدنيا من حولنا بالبشر والأمل، فلا نجده ولا حتى بشائره، فصديق الأمس توارى عن الصحبة، وإن رأيته فهو وجه جديد غابت عنه ابتسامة الحياة، وحل مكانها ليل العبوس».

«وفى رحلتى الطويلة، مشيت على الطريق بخطى ثابتة، أبذل ما استطعت من أجل مصر.. مصر التى أعطتنى الكثير وغمرتنى بوافر من التقدير، وملأت نفسى بالرضا على مر السنين. وكان اقتناعى راسخاً بأن العمل المخلص وحده هو القادر على رسم معالم الطريق. فلم يكن لى خيار فى مكان عن مكان، وما سعيت لبلد دون آخر، بل كنت أتأمل المستقبل وما يأتينى به دون إلحاح أو ملل».

«أحببت كل مكان رحلت إليه، أحببته بحلاوته ومرارته. لم أندم أنى ذهبت إلى بلد ولم أذهب إلى آخر».

«كان لكل موقع هدوءه وانفعالاته، لينه وصعوبته، قسماته وخصائصه، تماماً كوجه الإنسان، تعلو جبينه إشراقة الرضا أحياناً أو تجاعيد الضجر أحياناً أخرى».

«وكانت الإشراقة بشراً وخيراً».

«وحتى مع الضجر كانت ومضات الأمل، تأتى على الطريق، والانفراج يحمل مشعله».

(٢)

فى الباب الأول من هذه المذكرات يقدم لنا صاحبها بعداً اجتماعياً ونفسياً جديداً فى فهم العوامل التى قادت إلى الاقتناع بالثورة، أو قل الاقتناع بالتغيير، فلم تكن كلمة الثورة قد

تمكنت يومها من الواقع ولا من الخيال، هذا البعد الذى ينبهنا إليه جمال منصور فى رفق شديد هو ذلك الإحساس المتأرجح بين المكانة و المهانة الذى يواجهه الشبان «الأطهار» حين يبدأون فى العمل فى جو أقل طهراً أو أكثر مدعاة إلى الفساد أو الإهمال أو الضياع.

ونحن نعرف أو ندرك أن العوامل النفسية تلعب دورها الأقوى حين ينتقل الإنسان من مقاعد الدرس إلى مقاعد العمل، وحين يتحول من طالب علم إلى موظف مسئول، فما بالنا بهذه المجموعة وهم يلحقون بعد تخرجهم من الكلية الحربية مباشرة بسلاح الفرسان.

ولن نلخص للقارئ موقف جمال منصور وزملائه يومها ولن نستعرض تفصيلات هذا الموقف، وإنما سننقل للقارئ هذه الفقرات الجميلة التى يروى بها هذا الموقف حيث يقول:

«كان نصيب سلاح الفرسان فى دفعة (٣٠ يونية ١٩٤٤) اثنى عشر ضابطاً من أوائل الدفعة من بين أبناء الطبقة المتوسطة، وذلك لأول مرة فى تاريخ هذا السلاح الذى كان وقفاً على أبناء طبقة لا علاقة لها بباقى الطبقات، وبعد مقابلة مع أركان حرب سلاح الفرسان، توجه الضباط الجدد إلى آلاى الخيالة للبدء فى تلقى «فن الفروسية» فى فرقة كانت تسمى فرقة «الركبدارية»».

«دخلنا إلى مكتب أركان حرب آلاى الخيالة، ولم يكن بمفرده فى المكتب،بل كان معه عدد من قدامى الضباط الفرسان».

«وتصورت لأول وهلة أننى أخطأت الطريق، فقد رأيت وجوهاً لم آلفها ولغة لم أسمعها، كلمة بالعربية وأخرى بالفرنسية، وضحك واستهزاء بكل قادم جديد، أعنى بكل ضابط مستجد، ووجد أركان حرب الآلاى ومَنْ معه من قدامى الضباط الفرسان أن الفرصة سانحة لمزيد من التسلية بهذه المجموعة من مواطنى الدرجة الثانية، وأمعن فى طرح الأسئلة المحرجة قاصداً من ورائها إشعارنا بأن انضمامنا إلى سلاح الفرسان يعتبر شرفاً لا نستحقه، وتقبلنا كل هذا على مضض، فقد عودتنا العسكرية على احترام «الأقدمية»، وكان علينا أن نذعن للأوامر».

«وجاء موعد الطابور الأول، وكان فى السادسة صباحاً، وحضر إلينا أركان حرب الآلاى ممتطياً صهوة جواده كأنه فارس من «العصور الوسطى»، وأراد أن يظهر أهميته أمام هذا الجمع الجديد، فجعل جواده يرتفع به إلى أعلى ثم يهبط، ويجرى أمامنا ويميل يميناً ويساراً فى حركات أشبه بحركات رعاة البقر، لكننا عرفنا فيما بعد أن هذا هو ما كان يسمى «بفن الفروسية»».

«وبدأ الشاويش فى إلقاء الدرس الأول فى فرقة «الركبدارية»، فشرح لنا التكوين الجسمى

للحيوان الذى كان أمامنا، وانتهى بقوله «كل ده اسمه حصان»، فلم نتمالك أنفسنا من الضحك، وهنا ثار أركان حرب الآلاى واعتبر أن هذه إهانة أصابت فن الفروسية فى الصميم، كان نصيبنا «داخلية» عنيفة أظهر بها «الركبدار» مقدرته على التعبير بلغة لم نألفها».

(٣)

هكذا كانت بداية جمال منصور ومَنْ معه من زملائه فى سلاح الفرسان، فماذا عن الفترة التالية مباشرة التى تشكل فيها وعيهم وتنامى إحساسهم بأهمية التغيير، ومن ثم الثورة:

«وسارت الأيام متثاقلة فى بطء ونحن فى دوامة اليأس بين شرح «التعليمجية» من صف الضباط من جهة، وسخافات أبناء الطبقة المميزة من قدامى ضباط الفرسان من جهة أخرى، وكنا نراهم فى كل صباح وقد ارتدى كل منهم ملابس الفروسية وامتطى صهوة جواده ممسكاً بعصا طويلة «الأمشة»، وكان المفروض أن يستخدم هذه العصا لتسيير حصانه، ولكنه كان فى أغلب الأحوال يستخدمها ليبطش ويضرب وينزل غضبه على «المراسلة» إذا تأخر فى «شد» الحصان، أو تلكأ فى خلع حذاء سيده(!) بعد عودته من طابور الصباح».

«وكان لنا أن نمر بهذه التجربة الجديدة مع هذه المجموعة من فرسان العصور الوسطى فى بداية عهدنا بالجيش، ولعلنا نقول إن الصورة قد اهتزت أمامنا، وأدركنا أن عملنا الجديد فى الجيش لا يتعدى إعدادنا للخروج إلى الشوارع فى الاحتفالات السعيدة والحزينة، لنساهم فى الزخرفة التى تتطلبها مثل هذه المناسبات».

«وكنا نلتقى للإفطار فى ميس الفرسان بعد الطابور الأول. وكان من بين «الدفعة» أربعة من الضباط الشبان أحسوا معاً بالواقع الأليم الذى يعيشون فيه، وشعروا معاً بخيبة الأمل تملأ قلوبهم، كان هؤلاء الأربعة هم: سعد عبدالحفيظ، ومصطفى نصير، وعبدالحميد كفافى، وجمال الدين منصور، ولعل خيبة الأمل هى التى جعلتنا نقترب من بعضنا ونتحدث بعض الوقت.. ثم دفعتنا غيرتنا على وطننا وجيشنا إلى حديث أكثر تفصيلاً وأدق تعبيرا».

«وانتهت فرقة «الركبدارية»، وشعرنا بأننا قد تخلصنا من هذا العبء الذى كان جاثماً على أنفاسنا مدة ستة شهور، وذهبنا إلى رئاسة سلاح الفرسان لكى يتم توزيعنا على الآلايات المختلفة، وكان نصيب آلاى الدبابات اثنين منا (سعد عبدالحفيظ، وجمال منصور) وآلاى السيارات اثنين (مصطفى نصير، وعبدالحميد كفافى)».

«والتقينا يوماً فى أرض الطابور، وكان حديثاً صريحاً يجمع أربعة ضباط من دفعة ١٩٤٤

وواحداً من دفعة قبلنا، وتحدثنا طويلاً ولم يكن حديث الغرباء، بل كان كل منا منسجما مع الآخرين كأن كلاً منا يقرأ ما فى قلب أخيه، وكانت الفكرة التى سادت عقولنا جميعاً هى رفض الأوضاع السائدة فى الجيش والبلد، والعمل على تغييرها، وأن التغيير لن يأتى إلا بالقوة، والجيش هو صاحب هذه القوة. واتفقنا على أن نلتقى معاً لنبحث الأمر من كافة جوانبه ونضع بأنفسنا خطة العمل».

«كنا خمسة من سلاح الفرسان: عبدالحميد، جمال، مصطفى، سعد، حلمى، واجتمعنا فى بداية الأمر فى منزل مصطفى بالسيدة زينب فى شارع الكومى وكان منزلاً فسيحاً، ورغم كونه فى قلب الزحام إلا أنه لم يكن موضع مراقبة أو شك، وبدأنا الحديث، وكانت الفكرة التى تدور فى ذهن كل منا واحدة هى «الثورة» [هكذا يقول]، أما طريق الإعداد لها، فقد أخذ منا الكثير من اللقاءات، وفى كل مرة نلتقى كنا نجد أن آراء جديدة قد قفزت إلى أذهاننا، ولكن الحماس كان يدفعنا جميعاً إلى بداية العمل الجدى، وكان ما توصلنا إليه هو أن نبدأ أولاً بتكتيل الضباط حول حركة واحدة لا تبغى سوى صالح هذا الوطن».

(٤)

ومن أهم الفقرات فى هذا الكتاب تلك التى يعبر فيها المؤلف عن النشاط المبكر لتنظيمهم، وليس فى وسعنا أن ننقل كل هذه الفقرات للقارئ هنا، ولكن بوسع القارئ أن يعود إلى هذه المذكرات ليقرأ هذه الملحمة.

وسنكتفى بأن نورد إحدى الفقرات التى تحتاج شيئاً من التأمل فى طبيعة عمل المجموعات الصغيرة وديناميتها حين تنذر نفسها لهدف نبيل:

«انطلقت المجموعة الأولى بأفرادها الخمسة تسعى إلى الجيش بأسلحته المختلفة، بادئين بسلاح الفرسان، وأود أن أعترف هنا أن ضم بعض الضباط إلى الحركة كان أشبه بعبور حقل من الألغام أو سد منيع فى علو الجبال، ولكن على الجانب الآخر، كان هناك البعض الآخر الذى يقتنع بالفكرة بمجرد الحديث إليه ويدخل ضمن المجموعة ويواظب على اجتماعاتها ويقدس مواقيتها ولقاءاتها».

وفى وسع القارئ كما ذكرنا أن يعود إلى كتاب جمال منصور ليقرأ تفصيلات مهمة فى حركة زملائه، وكيف بدأت هذه المجموعة فى ضم زملاء من أسلحة الجيش المختلفة، وقد أجاد جمال منصور التعبير فى الفقرة السابقة حين ذكر أن الأمر كان يتراوح بين أن يكون

شبيهاً بعبور حقل الألغام فى حالة بعض الزملاء، وبين أن يقتنع البعض الآخر بالفكرة بمجرد الحديث إليه عنها.

ويروى لنا صاحب المذكرات بالتفصيل كيف أمكن لهذه المجموعة أن تشترى آلة الرونيو وأن توفق إلى من يتولى كتابة المنشورات على الآلة الكاتبة، وكان أحد الشبان المتحمسين وكان يعمل فى مكتب القطان للمحاسبة (وهو محمد شوقى عزيز).

كما يروى لنا صاحب المذكرات بعد ذلك بعض المصاعب التى واجهت توزيع هذه المنشورات وإرسالها بالبريد. ويحدثنا عن النجاح الكبير الذى حققته المنشورات، كما يحدثنا عن الالتقاء بضباط المدفعية، وأن محسن عبدالخالق كان أول هؤلاء، وقد تبعه بعد ذلك فتح الله رفعت، وأبو الفضل الجيزاوى، وأمين مظهر، وأبو اليسر الأنصارى.. إلخ.

كما يروى لنا صاحب المذكرات قصة زيارة مصطفى كمال صدقى وبصحبته رشاد مهنا (صفحة ٢٢) لأحد اجتماعات الجماعة فى منزل عبدالفتاح أبو الفضل، وكيف كان مصطفى كمال صدقى يعتقد فى ضرورة ضم بعض الصولات وصف الضباط (بل أكبر عدد منهم) نظراً لأنهم كانوا يمثلون عصب بعض الأسلحة، فضلاً عن أن بعضهم من أنصاف المتعلمين الذين يشعرون بمرارة كبيرة، وعقد نفسية تجاه القيادات المختلفة».

وبعد أن يذكر السفير جمال منصور فى مذكراته قصة تنظيم الضباط الذى بدأه هو وعبدالحميد كفافى وسعد عبدالحفيظ ومصطفى نصير فى سلاح الفرسان .. فإنه يروى كيف تم اتصال هذا التنظيم بسلاح المدفعية وكيف كان لقاؤهم برشاد مهنا حيث يقول:

«.... كان الزميل محسن عبدالخالق أول من نلتقى به من ضباط المدفعية، فقد كانت آراؤه واضحة وتتفق تماما مع آرائنا وأفكارنا. وجاء عن طريقه ضباط آخرون من المدفعية وفى مقدمتهم: فتح الله رفعت ، وأبو الفضل الجيزاوى، وأمين مظهر ، وأبو اليسر الانصارى وغيرهم. وجاء من ضباط المشاة : عباس رضوان ، وعبدالرحمن مخيون ، وعبدالفتاح أبو الفضل وغيرهم. كما انضم للحركة منذ البداية من سلاح الطيران عبدالمحسن الوسيمى ، وطلعت ناجى ، وعهدى خيرت ، وعبدالكريم محرم . ثم توالى الانضمام للحركة من كافة الأسلحة حتى عام ١٩٥٢. وأذكر أن أكبر اجتماع فى البداية كان يضم حوالى ٣٠ ضابطا من مختلف الأسلحة ، وكان فى منزل عبدالفتاح أبو الفضل فى السطوح فى شارع البرامونى ، خلف قصر عابدين».

❑

ثم يروى جمال منصور قصة انضمام زميلهم مصطفى كمال صدقى والنتائج غير المتوقعة (وربما غير المستحبة من وجهة نظره) لهذا الانضمام:

«انضم إلى الجماعة المرحوم الملازم عبدالسلام فريد ، من سلاح الفرسان ، وحضر معنا عدة اجتماعات ، وكان شاباً مملوءا بالحماس والغيرة ».

«وفى أحد الاجتماعات عرض على «الصحابة» اسم مصطفى كمال صدقى ، وألح فى ضمه إلى الحركة اقتناعا منه بأنه من العناصر الشابة الجريئة - ولم تكن الجماعة مقتنعة به حيث أنه كان يقوم بأعمال تتسم بالتهور لا لشىء ولكن بقصد التظاهر. والتقت الجماعة فى إحدى الليالى فى منزل عبدالفتاح أبو الفضل ، لمناقشة بعض المسائل التى تتعلق بالحركة والسبيل التى تحقق انتشارها بين أكبر مجموعة من الضباط ».

«وفى أثناء النقاش دق الباب وإذا بالقادم هو مصطفى كمال صدقى ، وبصحبته الصاغ رشاد مهنا والصاغ كمال عبدالحميد ! وكانت مفاجأة لنا جميعا ، خاصة وأننا لم نكن قد أعطينا موافقتنا على ضم مصطفى صدقى ، فضلا عن أن الصاغ رشاد مهنا كان فى ذلك الوقت أركان حرب قسم القاهرة ، وكان هذا المركز من أخطر المراكز فى الجيش إذ كانت مقدرات الضباط تتحدد فى هذا المكان».

«كانت دهشتنا كبيرة وأحسسنا بأن قدوم رشاد مهنا إلى هذا الاجتماع ماهو إلا بداية لكى يضع المسئولون أيديهم على حركتنا . وجلس الثلاثة أمامنا وتحدثوا معنا ، وظهرت على رشاد مهنا علامات الارتياح لأن يرى هذه المجموعة من الضباط تلتقى جميعا على رأى واحد وتعمل سوياً فى عزم وإصرار أملا فى تغيير الأوضاع بواسطة الجيش . وزال عنا القلق بعد فترة يسيرة من الوقت لما لمسناه من رشاد مهنا من تجاوب غير مباشر مع مبادىء الحركة ».

«ومع ذلك فقد طلب عبدالحميد كفافى من رشاد مهنا أن يتقدم لكى يضع يده على المصحف ويقسم بألا يبوح بسر هذه الجماعة ، وأصر على ذلك قبل أن يغادر مكان الاجتماع ولكن رشاد مهنا لم يوافق على أن يقسم ، واكتفى بأن أعطى كلمة شرف بأنه لن يبوح بسر هذه الجماعة ».

«وخرج الثلاثة : مصطفى صدقى ورشاد مهنا وكمال عبدالحميد من الاجتماع ، وظل الباقون فى اجتماعهم لمناقشة ماحدث ولمعرفة المسئول عن مجىء هؤلاء الثلاثة إلى هذا المكان. وقام عبدالسلام فريد بكل شجاعة وقال إنه أخبر مصطفى صدقى بمكان الاجتماع على أساس أن يحضر بمفرده لكى يتحدث مع باقى أعضاء المجموعة تمهيدا لضمه إلى الحركة ، ولكنه لم يكن يدر فى خلده بتاتا أنه سيحضر ومعه رشاد مهنا وكمال عبدالحميد. وقد شعر المرحوم عبدالسلام فريد بكثير من الحرج ، ومع ذلك فكانت ثقتنا كبيرة فى كلمة الشرف التى أعطاها لنا رشاد مهنا».

(٥)

ثم يصرح جمال منصور برأيه فى مصطفى كمال صدقى وأنه كان متهوراً إلى حد عدم التقدير، ويضرب على ذلك مثلاً بقصة الصول جلال الذى ضمه مصطفى كمال صدقى إلى الحركة فذهب إلى النقراشى باشا رئيس الوزراء وصار جاسوساً على الحركة مما أدى إلى القبض على مجموعة من الضباط وإحالتهم للنائب العام.

وها هو صاحب هذه المذكرات يحدثنا عن موقفه وموقف زملائه من هذه المحنة بعد وقوعها على هذا النحو ويقول:

«وبدأ النائب العام فى مهمته فى استجواب الزملاء واحداً بعد الآخر، وكان الصول جلال يتعرف على كل شخص منهم ليؤكد علاقته بالحركة، وأنه الشخص الذى تعرف عليه فى منزل مصطفى صدقى فى المعادى، واستمرت الأسئلة والاستجوابات أياماً طويلة وليالى».

«ولم يكن هناك بالقطع ما يدين هؤلاء الضباط، فأخذ النائب العام فى التحقيق من زاوية أخرى، وبدأ فى إعطاء حصة إملاء لكل ضابط لكى يتعرف على خطه، لكى يقارن خبير الخطوط فى وزارة الداخلية ما كتبه الزملاء فى حصة الإملاء بما جاء بالخطوط الموضوعة على ظروف الخطابات التى كانت تحمل المنشورات إلى ضباط الجيش، وقد كانت المقارنة فيها بعض التشابه، ولكنها ليست بالدليل القاطع على أن منهم مَنْ قام بكتابة العناوين التى وردت على ظروف المنشورات، ومع ذلك اجتهد النائب العام كثيراً لكى يظهر للسراى أن هناك شيئاً ما يربط بين هؤلاء الضباط وبين ما جاء فى المنشورات».

«وكان عطا الله باشا رئيس هيئة أركان حرب الجيش يسعى لتأكيد هذه الرابطة، أملاً فى أن يقضى على الحركة التى ظهرت فى الجيش وأظهرته أمام الملك بمظهر القائد الضعيف الذى لا يعرف شيئاً عن الجيش وعن خباياه وحركاته السرية التى تهدد كيان الجيش وتهدد الملك ونظام حكمه، وكان عطا الله باشا يسأل فى كل يوم عن نتيجة التحقيق، وعما إذا كانت الرابطة قد ظهرت بين هؤلاء الضباط والحركة التى كانت قائمة فى الجيش».

(٦)

وينتقل جمال منصور بعد هذا ليروى تفصيلات قصة القبض على اثنين من مجموعتهم المؤسسة وكيف استطاع الباقون منهم خارج المعتقل أن يستغلا هذا الموقف بذكاء شديد لصالح التنظيم وحركة ضباط الجيش الشبان:

«علمت فى نفس الليلة بأمر القبض على العزيزين مصطفى نصير وعبدالحميد كفافى. وكنت فى ذلك الوقت قد تم نقلى أنا ومصطفى نصير من سلاح الفرسان إلى سلاح الحدود، وذلك بأمر قائد سلاح الفرسان اللواء سعد الدين صبور الذى كان غير سعيد بوجودنا فى السلاح، أو وجود أى ضابط له رأى من قريب أو بعيد، وقد سبق أن تناولته المنشورات بكثير من التهكم والهجوم عليه، وقال لى مرة باللغة الإنجليزية: «سوف أنقلك إلى سلاح الحدود»، وتم نقل نصير إلى مرسى مطروح، أما أنا فتم نقلى إلى محطة الجبل الأصفر تمهيداً للنقل إلى الصحراء (الكونتلا) فى غضون شهرين بعد ذلك».

«وركبت قطار «المطرية» فى طريقى إلى مكان عملى الجديد، فالتقيت بالملازم أول السيد جاد، واقترب منى وقال لى بكثير من القلق إن الزملاء قد تم القبض عليهم. فأجبته بأننى أعلم ذلك، فقال لى: يجب أن تكون حريصاً لأن البوليس السياسى يعمل جاهداً على إلقاء القبض على كل مَنْ تحوم حوله الشبهة من الضباط، فقلت له: إن القبض على مصطفى نصير وعبدالحميد كفافى يعنى فى نظرى توقف نشاط الجماعة مؤقتاً إلى أن تتضح الأمور».

«ومرت عدة أيام وأنا أترقب أن يتم القبض علىّ فى أى لحظة نتيجة للتحقيق مع الضباط المقبوض عليهم، أو لأى قرينة قد يجدها المحقق لكى يلقى القبض علىّ أو على غيرى من زملاء الحركة، ومرت أيام قليلة وكأنها الدهر بأكمله، ونحن لا نعلم أى جديد عن الزملاء المقبوض عليهم، وفى مقدمتهم مصطفى نصير، وعبدالحميد كفافى».

«وكان علىّ أن أجتمع بباقى الجماعة المؤسسة - سعد وحلمى - بأى شكل لكى نتصرف إزاء ما حدث ولنتدارس ما يمكن أن نقوم به لمساعدة الزملاء المقبوض عليهم».

«والتقيت مع الأخ سعد، واتفقت معه على أن نقوم بكتابة منشور جديد باسم ضباط الجيش، أى بنفس الاسم الذى كانت تُذيل به المنشورات منذ أن نشأت الحركة وإلى حين القبض على الزملاء، واتفقت معه على نقاط المنشور، وكانت تنصب على إحداث الفرقة بين الملك ورجله الأول فى الجيش «عطا الله باشا» الذى كان متحمساً كما سبق أن قلت لأن يظهر بمظهر البطل القادر على ردع أى حركة فى جيش مولاه».

«فضلاً عن أن كتابة المنشور أثناء وجود الزملاء وراء القضبان سوف تجعل النائب العام فى حيرة من أمره، لأن القبض على هؤلاء الضباط كان يعنى إيقاف أى نشاط للحركة الذى كان يتمثل بصفة خاصة فى المنشورات، فإذا ظهر أى منشور فى هذا الوقت، فإن ذلك سيجعل النائب العام يعتقد أن هناك أفراداً آخرين مازالوا خارج القضبان ويجب القبض عليهم حتى يأخذ التحقيق دوره كاملاً، وحتى تضيق الدائرة على كل من ساهم فى هذه الحركة».

«ونشط البوليس السياسى نشاطاً خطيراً، وكنا نجد أثناء ذهابنا أو عودتنا الكثير من

المخبرين بجانب صناديق البريد وفقاً لتعليمات النقراشى فى ذلك الوقت، لكى يلقوا القبض على كل مَنْ يشتبه فيه حينما يقترب من صندوق البريد، فضلاً عن ازدياد التعاون بين البوليس السياسى ومخابرات الجيش، بحثاً وراء البقية الهاربة من يد العدالة».

(٧)

ويحرص صاحب هذه المذكرات على أن يورد لنا تفصيلات طريفة عن معاناة مجموعته فى كتابة المنشورات وإعدادها للتوزيع وطباعتها، ووضعها فى صناديق البريد، وهى تفاصيل جديرة بالقراءة على الرغم من تغير الظروف بفعل الزمن:

«وفى تلك الظروف القاسية، وفى ظل حركة الإرهاب التى كان يقودها البوليس السياسى بالتعاون مع عطا اللـه والمخابرات الحربية، كان لابد لنا أن نتحرك مهما كانت النتائج، آخذين فى الاعتبار أن أى نشاط من باقى أفراد «الجماعة» سوف يأتى بنتيجة ما، وإذا ساءت الأمور وجاوزت مداها فإن نهاية المطاف هى أن ننضم إلى زملائنا وراء القضبان، وهذا ما كان يجول بخاطرنا فى بعض حالات اليأس».

«وفى يوم خميس كنت فيه ضابطاً نوبتجياً لسلاح الحدود فى محطة الجبل الأصفر، دخلت إلى مكتبى وبدأت فى كتابة المنشور على النحو الذى اتفقت عليه مع الزميل «سعد»، وانتهيت من كتابته فى الثالثة من صباح الجمعة بعد أن أودعت فيه ما كان لى أن أودعه دفاعاً عن أصدقاء العمر وشباب الصحبة من الجماعة المؤسسة، وركزت فى المنشور على الظهور بمظهر الولاء «للملك» كما جاء فى المنشور «لقد أقسمنا يمين الولاء..» وأظهرت أن القبض على الضباط ما هو إلا محاولة من «عطا اللـه» لكى يكسب حظوة جديدة عند مولاه على حساب مجموعة أمينة من ضباط الجيش».

«وكان الاتفاق بينى وبين سعد أن يحضر إلى منزلى بحدائق القبة، لكى نراجع المنشور، وأخذ «سعد» المنشور معه، وذهب إلى محمد شوقى عزيز ـ فقد أصبح محل ثقتنا جميعا ـ وأعطاه المنشور الذى قام بكتابته على الآلة الكاتبة، وذهب الاثنان بعد ذلك إلى سطوح محطة مصر، حيث تم طبع المنشور من ٥٠٠ نسخة، حملها سعد فى تاكسى وجاء لى فى اليوم التالى فى منزلى، وجلسنا معاً ساعات عديدة لإجراء التجهيز المعهود لإرسال المنشورات، كانت لدينا كل العناوين، وأضفنا إليها أسماء أعضاء مجلس النواب، وكافة رجال الصحافة والوزراء، وكل ما تمكنا من معرفة مكان أو عنوان له».

«وبعد ساعات تعب طويلة، استعد كل منا لكى يقوم بالعملية الأكثر خطورة، وهى توزيع المنشورات على صناديق البريد المختلفة، وخرجنا ليلاً نهيم على وجوهنا، وقطعنا القاهرة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، واخترنا صناديق البريد التى لا تقع على الشوارع الرئيسية، بل الصغيرة منها فى الأحياء الشعبية التى كانت بعيدة عن أعين رجال الأمن والمخبرين، كنا نمتنع عن الاقتراب من أى صندوق بريد يقف بجانبه أو بالقرب منه أى شخص، فقد كان للمخبرين فى ذلك الوقت علامات نستطيع أن نميزها وأن نكشف صفتهم».

«وانتهينا من هذه المأمورية الصعبة فى فجر اليوم التالى، وأوصلت سعد إلى منزله فى العباسية، وعدت إلى منزلى بالقبة، وانتظرت الساعات الأولى من الصباح لأذهب إلى مكان عملى فى الجبل الأصفر».

«ومر يوم ومر الثانى، وإذا بالمنشورات تصل إلى أصحابها من الضباط وغيرهم، وإذا بالجميع فى حالة من الدهشة و التعجب، وانقلبت حالة الخوف التى كانت تملأ القلوب إلى حالة من الشجاعة والإقدام، والحديث عن مئات آخرين لابد أن يكونوا خارج القضبان طالما أنه لم تمض أيام على القبض على الزملاء وإذا بمنشور جديد يأتى بنفس نطاقه ونفس قوته».

«وأخذت الصحف تعلق على هذا الموضوع بكثير من الاهتمام لم نشهده من قبل».

«وكان للمنشور وقعه الكبير على النائب العام حيث إننا أرسلنا إليه منشوراً باسمه على سكنه، وكان مندهشاً من ذلك غاية الدهشة، وقرأ المنشور وذهب به إلى «النقراشى» الذى كان قد وصله هو الآخر نفس المنشور، وكان تعليق النائب العام، أنه لا يستطيع أن يستمر فى التحقيق مع الضباط المحتجزين فقط، بل لابد من القبض على أربعمائة ضابط آخرين حتى تستكمل حلقات التحقيق ويعرف أبعاد ومدى الحركة ويصل للنتيجة السليمة ويرفعها إلى المسئولين».

«وكان للمنشور أثره البالغ على «الملك» نفسه، لما جاء فيه من تمسك الضباط بملكهم وولائهم له، وكان من مستشارى الملك من انتهى به الأمر بعد اطلاعه على المنشور إلى أن يرفع تقريره إلى مليكه قائلاً له بطريقة دبلوماسية:

«إما الجيش وضباطه وإما عطا الله، ولك وحدك ياصاحب الجلالة أن تقدر وتعطى الأمر بما تنتهى إليه حكمتك..».

(٨)

ويصل جمال منصور إلى أن يقرر أن حركتهم قد حققت نجاحاً ملحوظاً بهذا التصرف الحكيم فيقول:

«وخرجت الصحافة بعد أيام لتقول إن عطا الله قد اعتكف بعض الوقت لأنه يشكو من الكلى، وكتبت بعض الجرائد فى قالب ساخر أن الأمر الحادث لعطا الله باشا «مش كلة» أى بمعنى مشكلة كبيرة وليس الأمر يتعلق بتعب فى كلى سعادته».

«وهكذا فإن الأقدار كانت تحتجز بعض الصحابة خارج القبضان لكى يقوموا بعمل ما ينفع الآخرين وراء القبضان، فيغير من اتجاه التحقيق ويغير من فكر الملك، وسارت الأمور بسرعة مذهلة، وكأن المائدة قد انقلبت على رجل الملك «عطا الله»».

«وجاء قرار الملك بالاستغناء عن عطا الله لأنه لم يكن أمامه حل آخر، فقد كان الملك بين أمرين أحلاهما مر: فإما أن يستغنى عن الجيش بضباطه، وإما أن يعفى رجله الأول «عطا الله» رغم ما كان يكنه له من محبة».

«وهكذا نجحت الخطة وأتى المنشور بثماره، وفرق بين الملك وعطا الله، وانتهى الأمر بالنائب العام بعد عدة شهور من احتجاز الضباط إلى أن يصدر الأمر بحفظ التحقيق وحفظ القضية، وعودة الضباط إلى أسلحتهم من جديد، وخرج الزملاء من وراء القبضان إلى الحرية والأمل، واتفقنا على أن تنقضى فترة من الهدوء دون نشاط، إلى أن نضع ملامح الخطوة التالية على طريق الثورة».

«وكان النائب العام فى ذاك الوقت هو السيد حافظ سابق، يعاونه السيد أنور حبيب، وقاضى المرافعات عيسوى دبوس، واستمر أمر النائب العام بحفظ القضية طيلة السنين منذ عام ١٩٤٧ إلى أن صدر القانون رقم ٢٤١ بتاريخ ١٦ أكتوبر ١٩٥٢، بشأن العفو الشامل عن الجنايات والجنح والشروع فيها التى ارتكبت لسبب أو غرض سياسى وتكون متعلقة بالشئون الداخلية للبلاد فى المدة من ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ إلى ٢٣ يوليو ١٩٥٢».

(٩)

ثم يمضى بنا صاحب المذكرات فى كتابه ليؤكد لنا ما نعرفه جميعاً عن الأثر الشديد الذى تركته حرب فلسطين فى نفوس الضباط ودفعتهم يوماً بعد آخر إلى التفكير فى طريق الخلاص، ويروى لنا جمال منصور كيف طلب منه خالد محيى الدين أن يقوم بتعريفه أو تقديمه إلى «حركة ضباط الجيش» لرغبته فى الالتقاء بأى منهم، وحين عرض جمال منصور الأمر على الزملاء كان رأيهم أن يأتى خالد محيى الدين للاجتماع بهم ليتعرفوا عليه وعلى مجموعته، وهكذا تم اللقاء بين المجموعتين (صفحة ٣٤).

ويحرص جمال منصور فى هذه المذكرات التى نشرها فى ١٩٨٩ على أن يذكر لنا أن مجموعة خالد محيى الدين وجمال عبدالناصر كانت تضم خمسة أعضاء فقط (هم عبدالناصر، وخالد، وعبدالحكيم عامر، وكمال الدين حسين، وحسن إبراهيم) وأن اثنين آخرين قد انضما إليهم وهم عبداللطيف البغدادى وصلاح سالم، وأن جمال سالم قد انضم لهذه المجموعة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ حين حضر أحد الاجتماعات مع البغدادى بلا دعوة، وأن أنور السادات انضم إليهم بترشيح من جمال عبدالناصر.

ثم يقول جمال منصور (صفحة ٣٦) بعد أن يروى هذا كله:

«ويتضح من ذلك أن أنور السادات لم ينضم إلى الحركة إلا قبل الثورة بشهور معدودة».

وهى ـ كما نرى ـ عبارة لا لزوم لها على الإطلاق، إلا أن يكون الهدف هو التأكيد على أن السادات انضم أو ضم مؤخراً، ومع هذا فإن النص نفسه يقطع بأن انضمام السادات حدث قبل قيام الثورة، ويبدو أن يداً أخرى قد امتدت إلى المذكرات لتضيف هذا التعقيب غير الذكى فى الفترة التى كان الهجوم فيها على السادات شيئا مستحبا من بعض أصحاب القلم.

وبعد ثلاث سنوات (١٩٩٢) من نشر هذه المذكرات، نشر خالد محيى الدين مذكراته «والآن أتكلم» وقد جاءت متفقة على هذه الأسماء التسعة أيضاً ومتفقة على الأسماء الخمسة التى انضمت فيما بعد الثورة إلى مجلس القيادة وهم: محمد نجيب، ويوسف منصور صديق، وزكريا محيى الدين، وعبدالمنعم أمين، وحسين الشافعى.

ولعل ما يعنينا فى هذا المقام أن نؤكد على أن الحقائق ثابتة وأن طريقة عرضها هى التى تختلف من كتاب إلى كتاب، ومن راو إلى آخر.

(١٠)

على أن أكثر ما يحرص جمال منصور عليه فى كل ما يرويه عن إرهاصات الثورة هو أن يحتفظ لنفسه ولزملائه بالأسبقية إلى التنظيم والعمل، وها هو يؤكد على هذا المعنى فيقول:

«ويتضح من ذلك، أن مجموعة جمال عبدالناصر وخالد محيى الدين، لم تبدأ فى التشكيل إلا فى نهاية صيف ١٩٤٩، فى حين أن مجموعة الفرسان، كما تدعمها الأحداث والمنشورات والتواريخ، قد قامت فى عام ١٩٤٥، وبدأت منذ ذلك التاريخ بتوعية الضباط

وإلقاء الضوء على ما هو حادث فى الجيش والبلاد ودعوتهم إلى التكتل من أجل مصر، وذلك عن طريق المنشورات واللقاءات الشخصية».

«... ولعل حادث عام ١٩٤٧ الذى سمى بـ«قضية المؤامرة الكبرى» التى تم فيها القبض على ضابطين من أعضاء الخلية الرئيسية للفرسان وهما عبدالحميد كفافى ومصطفى نصير، يؤكد أن مجموعة سلاح الفرسان كانت قائمة قبل هذا التاريخ، وقد جاء «خالد» إلينا فى أواخر عام ١٩٤٩ وأبلغنا أنه من بين مجموعة من الضباط من ذوى الرتب الكبيرة التى ترغب فى نوع من الاتحاد معنا، وقد رحبنا بذلك لإعطاء الحركة قوة دفع جديدة من الرتب الكبيرة، خاصة أن الأفكار والأهداف كانت واحدة».

«وعلى ذلك تمت إعادة تشكيل الخلية الرئيسية لسلاح الفرسان على النحو التالى: مصطفى نصير، عبدالحميد كفافى، جمال منصور، سعد عبدالحفيظ، عثمان فوزى، خالد محيى الدين، واعتبرنا خالد محيى الدين ضابط اتصال لمجموعة الفرسان مع المجموعة التى ينتمى إليها من الضباط ذوى الرتب الأكبر. وقد ظل خالد كضابط اتصال بين مجموعتنا والمجموعة الأخرى، التى أكد لنا أنها من خيرة الضباط، وأن أفكارها مماثلة لأفكارنا تماماً، وأن كل ما تريده هو أن تخلق رابطة فيما بيننا فى سبيل تكتيل أكبر عدد من الضباط حول هذه الأفكار».

«واكتفينا من خالد بهذا الحديث، وعملنا من جانبنا بكل إخلاص للتعاون مع المجموعة التى ينتمى إليها، دون كثير من الإلحاح لمعرفة أسماء الضباط الذين ينتمون إلى هذه المجموعة».

❑

هكذا يأتى نص جمال منصور الواضح والصريح بأن علاقة مجموعتهم مع مجموعة جمال عبدالناصر قد اقتصرت على هذه الرابطة التى كان خالد محيى الدين يمثلها.

ولم يزعم جمال منصور ـ لحسن الحظ ـ أنه هو الذى تولى القيام بالثورة، أو أنه هو الذى أسس المجموعة التى قامت بها واستولى عليها غيره فيما بعد، ولكنه دقيق جداً فيما يدعيه لنفسه ولمجموعته وفيما يرويه عن أدوارهم، وهو يروى بكل وضوح أن مجموعته سبقت إلى العمل وإن لم تكن قد سبقت إلى تفجير الثورة نفسها فى ٢٣ يوليو، وهو يدلل على مدى أهمية الجهد الذى بذلته مجموعته فى تمهيد الأرض للمجموعة التى قادها عبدالناصر منذ ١٩٤٩، وليس فى هذا ما ينتقص من جهد عبدالناصر، وإن كان بالطبع يقلل من كمية الجهد الذى بذله.

(١١)

وتلقى هذه المذكرات الأضـواء على علاقات ثورية مهمة، ولأن صاحبـها يحصر الحديث فيهـا على المجمـوعة المؤسسـة الأولى التى كـانت ينتمى إليهـا، فإنه يحـدثنا عن عـلاقة هذه المجموعـة بالقوى الـسياسية الـنشطة فـى ذلك الوقت، سواء فـى ذلك الإخوان المسـلمين أو الشيوعيون، أو الوفد .

ويؤكد لنا جـمال منصور فى مذكراته ما ذهـب إليه زملاؤه الضباط من قبـل ومن بعد فى حديثهم المتعالى (بلا داع) عن علاقتهم بالإخوان المسلمين، وها هو يقول:

«وكان الصاغ محـمود لبيب، المتقاعد مـنذ عام ١٩٢٤ [هكذا يذكر جمال مـنصور وكأنما تقادم العهـد بتقاعد الضابط يقـلل من قيمته كثاـر، ومن الجدير بالذكر أن محـمود لبيب كان ضابطا قديما مـن الذين خدموا فى عهد الدولة الـعثمانية شأنه شأن عزيـز المصرى] ، هو الذى يتولى تكوين مجموعات من ضباط الجيش تنضوى تحت أهداف وفكر الإخوان المسلمين».

«وكان هو الذى يديـر الجلسات بحثاً فى الـدين، وحثاً على الخلق الـكريم، وشرح القرآن بآياته، وتم الاتصال بين الصاغ محمود لبيب من جانـب، ومصطفى تصير وعبدالحميد كفافى من جـانب آخر، وأراد مـحمود لـبيب ضـم مصطـفى نـصير وكـفافى إلـى جماعـة الإخوان المسلمين، وتمـت لقاءات أخرى مع الشيخ حسن الـبنا، ولكن هذه اللقاءات أوضـحت معالم الطريق الذى يسعى إليه الإخوان تحت مظلة الدين والإسلام إلى أن تصل إلى الحكم».

«وعندما سـقطت وزارة النقراشى فـى أوائل عام ١٩٤٦ بعد حادث كوبـرى عباس وقام إسماعيل صـدقى بتشكيل الوزارة، اتـخذت جماعة الإخوان المسلـمين خطاً سياسياً تـؤيد فيه إسماعيل صدقـى وتساند مشروع صدقى ـ بيفـن، وتم التفاهم على تشكيـل بوليس الإخوان لمحاولة تهدئـة المظاهرات الطلابية والـعمالية، وخرج الشيـخ حسن البنا المرشد الـعام لجماعة الإخوان فى عربة حكمدار بوليس مصر المكشوفة أملاً فى تهدئة المتظاهرين».

«وحدث اشتباك بين المتظاهرين والجنود الإنجليز الرابضين وراء أسلاك وأسوار قشلاقات قصر النيـل، وسقط الكثير من الجرحى والـقتلى، وكان ذلك يوم الثلاثـاء، وهو موعد الدرس الدينى الـذى يلقيه المرشـد العام، فوقف الشـيخ حسن البنـا فى دار الإرشاد بالحلمـية الجديدة ليعطى درسه الدينى فى ذاك المساء الحزين عن «غـسل الميت»، وقامت مجموعة الفرسان بحل مجـموعـات الضبـاط التـى كان قد كـونها الـصاغ المتقاعـد محـمود لبـيب، وتم ضـم هذه المجموعات إلى تنظيم ضباط الجيش».

ومن حق القارئ أن يسأل جمال منصور عن بقية معلوماته عن مجموعات الضباط التى كونها محمود لبيب وعن أعضائها وعن المصير الذى لقيته؟

(١٢)

وفى هذه المذكرات يحدثنا السفير جمال منصور عن لقاء له مع الرئيس جمال عبدالناصر فى مطلع أيام الثورة فيروى لنا كيف كان الرئيس عبدالناصر قد بدأ ينظر بريبة وشك إلى عبدالمنعم عبدالرؤف وغيره من الضباط ذوى العلاقة بجماعة الإخوان المسلمين:

«... وبعد بضعة شهور من تعيينى فى الخارجية حدد لى عبدالناصر موعدا فى الصباح فى مجلس الثورة بالجزيرة، ودعانى على الافطار معه (شاى، لبن، بسكوت مارى).

«وانتقل عبدالناصر إلى موضوع آخر يبدو أنه كان يلح عليه فقال لى: هل تعلم أن الإخوان المسلمين يجتمعون هذه الفترة لإجراء عمل مضاد للثورة وقد قسموا البلد إلى منطقتين: إحداهما يرأسها « معروف الحضرى » والثانية يرأسها « عبدالمنعم عبدالرؤف ».

«إنهم يتصورون أننى لا أعرف شيئا عن أعمالهم السرية حالياً والتخطيط للإطاحة بالثورة، ولكننى وأنا أحدثك الآن يتم القبض على زعماء الإخوان وفى مقدمتهم الضابطين معروف الحضرى وعبدالمنعم عبدالرؤف».

(١٣)

كذلك يحدثنا جمال منصور عن علاقة مجموعته بحركة «حدتو» (الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى) وبحزب مصر الفتاة، ويروى أن زميليه عبدالحميد كفافى ومصطفى نصير التقيا مع أحمد حسين الذى اصطحبهما إلى أرض الغفير لكى يستعرض شباب الحزب، وكان هناك ما يقرب من ثلاثة آلاف شاب يأتمرون بأمره.

ويروى جمال منصور أن عبدالحميد كفافى قال لأحمد حسين إنه من الأفضل تدريب جماعات صغيرة على أن يكون التدريب أكثر جدية وحيوية، وإن عشرات من المدربين خير من الآلاف غير المدربين.

ويروى لنا جمال منصور كيف تولى كفافى وزملاءه تدريب مجموعات من أعضاء مصر

القناة وكيف جرى التعاون مع إبراهيم شكرى (وهو نفسه زعيم المعارضة المعاصر) الذى وافق على تخزين المفرقعات والقنابل فى عزبته فى أبى زعبل.

كما يروى صاحب هذه المذكرات قصة ملحمة وطنية فى التدريب على تفجير لغم بحرى فى قناة السويس، والتدريب على هذه العملية فى الحوامدية، وكيف لم يكتب النجاح لهذه التجربة، وقصة السفر بقطار الدلتا إلى المنزلة وعبور بحيرتها.. إلى آخر هذه المغامرة المحسوبة من أجل تحقيق الهدف القومى الكبير الذى كانت كل النفوس تبذل من أجله:

«... وافق الصحابة [هكذا يعبر جمال منصور عن مجموعته وكأنهم صحابة النبى، ولو أنه عرف المعنى الاصطلاحى للفظ ما استخدمه هكذا] على فكرة تفجير لغم بحرى فى قنال السويس. وكانت هذه مجرد فكرة ليس لدينا لتحقيقها شيء بالمرة سوى الشباب المليء بالحماس المتوقد غيرة على وطنه. وساقتنا الأقدار إلى شاب يملأ الحماس قبله، وهو طالب فى كلية الهندسة يسكن أمام قصر عابدين على وجه التحديد، أى على الجانب الآخر من قصر فاروق، واسمه أحمد محمود الشايب».

«وحينما تدخل منزله تجده كأى منزل عادى متوسط، لكن فى نهاية حجرة النوم كان هناك باب آخر يسوقنا إلى الورشة، وفى هذه الورشة وجدنا كل شيء ـ كل ما يمكن أن يتصوره أى منا ـ تجارب وتركيبات وأسلاك وحدايد».

«وتحدثنا معه فى شأن اللغم، فقال إنه يجرى تجارب على ألغام عادية لكنه سيبدأ من اليوم فى إجراء تجارب على الألغام البحرية التى يمكن تفجيرها تحت الماء. وأطلعنا على كل ما أعده لهذا العمل، وكادت قلوبنا تقفز من الفرحة لمعرفة هذا الشاب الذى أوحى إلينا بكثير من الثقة والإيمان. ووجدنا أننا لسنا وحدنا فى الميدان، بل هناك من صفوة الشباب من يحس إحساسنا ومن يعيش معنا».

❑

وهكذا يتذكر جمال منصور ويعترف بأمانة شديدة أنهم لم يكونوا وحدهم فى ميدان الوطنية وإنما كان هناك وطنيون كثيرون من بين المواطنين البسطاء لم يكونوا أقل حماسة ووطنية من الضباط الأحرار :

«وأثرنا معه مسألة أخرى تتعلق بالسلاح الكاتم للصوت الممكن استخدامه ضد الحراس الإنجليز الذين يقومون بحراسة القشلاقات فى منطقة القناة، حتى يمكن التخلص منهم بطريقة هادئة غير مسموعة، لإتاحة الفرصة للفدائيين للقيام بأعمال التخريب فى داخل معسكرات العدو ومخازن ذخيرته ومدرعاته وطائراته. وكان صريحاً معنا، فقال إنه لا يستطيع الآن أن

ينتج مثل هـذا السلاح، لكنه يجرى تجارب حاليـاً على نوع من السهم والقوس لـه تأثير قاتل، وأطلعنا على ما أعده فـى هذا الشأن، وأقنعنا بأنها وسيلة فعالة يمكـن بها التخلص من الحرس الإنجليز دون أى صوت، لفتح ا لطريق بهدوء إلى داخل المعسكر والقيام بالعمل المطلوب».

«واتفقـنا على أن يزودنا بـبعضها علـى قدر العدد من الـفدائيين المطلـوبين للقيام بـأعمال خاصة، وتواعدنا على اللقاء للإطلاع على آخر تطورات صناعة اللغم البحرى».

«وقع اختيارنا على خمسـة من الفدائيين من الطلبة والعمال، للقيام بـالتدريب على عملية تفجير اللغم البـحرى فى النيل على أن نذهـب إلى القنال لاختيـار المكان والمراكب التى سوف نفجرها، وكان التفكير يدور حول اختيار مركـب إنجليزى أو ناقلة بترول إنجليزية، حتى تكون الخسائر كلهـا فى الإنجليز، وحتى يظهر أمام الـعالم أن وجود انجلترا فى القنال لا يمـكنها حتى من حماية سفنها العابرة لها».

«وبعـد عدة أسابيع، عدنـا إلى الأخ «الشـايب» القاطـن أمام قصـر عابديـن، ودخلنـا أنا وكفافى ونصير إلى منـزله،ومنه إلى الورشة حيث أطلعنا على اللغم، وشـرح لنا طريقة العمل والتوصيلات الكهربائية اللازمة والبطارية التى يـجب وضعها على الشاطئ حينما نغرق اللغم فى أسفل القـناة. ووعدنا بتسليمـه لنا بعد أن يضع اللـمسات الأخيرة عليه. وكم فـرحنا بهذا اللغم وكم علقنا عليه آمالاً كبيرة».

(١٤)

وتتضمن مذكرات جمال منصور ما يروى به صـاحبها تطورات المحاولة الجريئة لزرع لغم فى القناة بعد أن أصبح هذا السـلاح الفتاك فى حوزة مجموعته بالفعل :

«... وبعد بضعة أيام ذهبنا إليه، وأخذنا منه اللـغم ووضعناه فى عربتى بعد تأمينه، وأخذنا كل المعدات الـلازمة لتفجيره، وكانـت المجموعة الفدائية فـى انتظارنا فى الجيزة، وقـام كفافى بعربتـه ومعه نصير بـاصطحاب ثلاثة، وأخـذت معى اثنين من المجـموعة و ذهبنا عـلى طريق الصعيد. كان الـقمر ساطعاً على صفحة النـيل، واخترنا هذا الوقت بالذات فى بـداية التجربة حتى يـكون الضوء مسـاعداً لنا فـى بداية الأمر، وحتـى لا نضل أو نتعـرض لبعض الـسكان هناك».

«نزلت المجموعة ومـعها اللغم البحرى والبطـارية والسلك وكل ما يلزم، وتركـنا العربتين فى جهة فى أعلى الطريق تظللهما أشجار النخيـل أو تخفيهما، ومشينا على أقدامنا ما يقرب

من ٥٠٠ متر فى طريقنا إلى النيل. وشرحنا للمجموعة واجب كل منهم، وأدرك الجميع ما نعلقه من أهمية على نجاح هذه التجربة».

«وكان من بين المجموعة أحد الشبان يعمل أسطرجيا، وددت لو عرفت اسمه أو تعرفت عليه الآن، ولكن أذكر له شجاعته التى ملأت نفسى ونفس كل من قابله. كان فريداً من نوعه، لا يفوته درس واحد. كان مثالاً للانضباط وحسن تلقى التعليمات وأدائها على أحسن وجه. وكنت تلمح على وجهه علامات الجد والرغبة فى العمل بشكل نادر. وكان يقدس المواعيد مهما كان الأمر حتى لو وصل به الحال إلى أن يترك عمله لحضور التدريب أو للقيام بعملية ما. ويحضر إلى المكان بملابسه التى يعمل بها ويديه قد تخضبتا بلون الجمالاكا، وقد لا يكون قد تناول غداءه أو عشاءه، ولكن كان العمل كل شىء لديه، والتدريب واجباً مقدساً بالنسبة له. لذلك وجد منا كل محبة وتقدير واحترام، وكنا نعتمد عليه كقائد للمجموعة لتنفيذ ما نطلبه منه».

«خلع هذا الشاب الأسطرجى ملابسه كلها غير مبال بالبرد القارس فى شهر ديسمبر على ضفة النيل، ونزل فيه مع فرد آخر من جماعته وابتعد قليلاً قليلاً سابحاً وممسكاً بإحدى يديه إحدى ذراعى اللغم. وفى منتصف النيل تقريباً غاص الأسطرجى إلى القاع حاملاً بين ذراعيه اللغم يعاونه فى ذلك زميله. كانت عملية على جانب كبير من المشقة، إذ أن الغوص كان يتم بدون أجهزة، وكانت العملية تعتمد كلية على طول النفس».

«كان يغوص باللغم لعدة أمتار بالقدر الذى يتحمله ثم يعلو إلى السطح. ويعاود زميله أداء نفس العملية بالتبادل إلى أن تم وضع اللغم فى قاع النيل بواسطة حبلين يحمل كل منهما طرفاً منه، إلى أن أحسا بأن اللغم قد اصطدم بقاع النهر فاعتبرا أن الخطوة الأولى من العملية قد تمت وكان عليهما أن يسحبا السلك الكهربائى الذى يتصل باللغم ويخرجا به إلى الشاطئ لتسليمه إلى باقى الجماعة، لكى تقوم بتوصيله بالبطارية الموجودة على شاطئ النيل».

«وخرج الأسطرجى وصاحبه من الماء وفى أيديهما السلك، وأعطيا طرفه إلى باقى الجماعة ولبسا ملابسهما فى الحال، وقدمنا لهما بعضاً من الشاى الساخن الذى كان معنا فى أحد الترامس، وشربا الشاى قدحاً وقدحين إلى أن عادت إلى جسمهما حرارته الطبيعية. وبقينا مع الجماعة للملاحظة ومراقبة ما سوف يحدث حين يتم الاتصال الكهربائى بين اللغم والبطارية،والجميع كلهم أمل فى سماع صوت الانفجار».

«انعقدت الأنظار حول الشخص المكلف بعملية التوصيل الكهربائى، وقام بالتوصيل اللازم وانتظر إلى أن أشار له الأسطرجى بإشارة التفجير، فضغط على المفتاح الكهربائى.. وأصغينا بآذاننا فلم نسمع شيئاً. وهكذا كانت محاولتنا الأولى فاشلة، فلم ينفجر اللغم ولم

نسمع له صوتاً واستولى علينا حزن عميق، فقد كنا على درجة كبيرة من الثقة فى اللغم وفى نجاحه. ومرت فترة غير قصيرة ننظر إلى بعضنا وينظر إلينا باقى أفراد المجموعة، ولسان حالهم يقول: أبعد كل هذا التعب لا نحقق النجاح الذى كنا ننتظره من ورائه، والذى يعتبر أول خطوة على الطريق وليست نهاية الخطوات».

«وأحسسنا جميعاً بكل ما يدور فى ذهن وفى نفس كل فرد منا ومنهم. وكان علينا أن نقرر الخطوة التالية، وحاول الشخص المكلف بالتوصيلات الكهربائية أن يجد عيباً فى عمله ولكن دون جدوى، فطلبنا من الأسطرجى وزميله أن ينزلا إلى الماء للعودة باللغم وخلعه من قاع النيل، فما كان منهما إلا أن نزلا من جديد فى هذا الجو القارس ممسكين بالحبل ليكون دليلاً لهما ومرشداً إلى اللغم فى قاع النيل، وكنا نلمحهما من على الشاطئ فى ضوء القمر يغوصان إلى أسفل ثم يرتفعان إلى أعلى ممسكين دائماً بالحبل. وفى لحظة غاص الاثنان إلى القاع ومرت ثوان قليلة كانت أنفاسنا خلالها حبيسة قلوبنا خوفاً من أن يكون اللغم قد انفجر تحت الماء دون أن نسمع له صوت، أو أن يكون أحدهما أو كلاهما قد توقف قلبه فى خضم الماء».

«ثم تنفسنا الصعداء حينما أبصرنا على مدى النظر الأسطرجى وزميله يحملان شيئاً بإحدى أيديهما ويضربان باليد الأخرى أمواج النهر فى الطريق إلى شاطئه».

«عاد الاثنان حاملين اللغم بكل ما فيه وما عليه من توصيلات كهربائية. وأقبلت الجماعة تسحب اللغم من زميلهم وتأخذ بيدهما إلى شاطئ النيل. ونزعنا كل التوصيلات الكهربائية من اللغم ولففناه فى قطعة بالية من القماش ووضعناه فى مقطف، وحمله اثنان من الجماعة إلى عربتى، وسرنا إلى حيث بدأنا رحلتنا للعودة. وقمنا بتوصيل الجماعة بعرباتنا بالقرب من منازلهم».

«واتفقت مع كفافى ونصير على أن نبقى اللغم بعربتى لأعود به إلى منزلى فلا خوف من ضياعه طالما أنه فى العربة مغلقاً عليه، على أن نلتقى فى اليوم التالى لكى نذهب إلى «الشايب» لنعرض عليه الأمر، ليقوم بدراسة اللغم لمعرفة سبب عدم تفجره، وإصلاح العطب إن وجد حتى نعاود الكرّة ونطمئن إلى الخطوة التالية، خطوة تفجير اللغم فى قناة السويس تحت المركب أو ناقلة البترول الإنجليزية».

«والتقينا أمام مقهى «أسترا» فى ميدان التحرير وذهبنا نحن الثلاثة ـ كفافى ونصير وأنا ـ فى عربتى إلى صديقنا «الشايب» الذى رحب بقدومنا مستبشراً خيراً، ولكنّا قصصنا عليه ما حدث بالتفصيل فلم يكن أسعد حالاً منا. وقال: أين اللغم فقلت له: هنا فى الحارة البعيدة عن منزلك فى عربتى».

«فقام بفتح باب الحديقة للدخول منه بعربتى وأغلق الباب من خلفى وأخرج اللغم من لفته وحمله إلى ورشته الصغيرة بجوار الحديقة. واتفقنا على أن نتصل به بعد عشرة أيام، حتى يجرى الدراسة اللازمة لمعرفة أسباب عدم تفجره. وانصرفنا نحن الثلاثة وعدنا إلى مقهى «أسترا» لكى نضع ملامح الخطوة التالية، ودار بيننا الحديث حول ما نحن فاعلون فى حالة نجاح التجربة الثانية من تفجير اللغم فى النيل، والاستعداد للعملية الكبرى وهى عملية إعداد اللغم ونقله بعد صناعته بمعرفة «الشايب» إلى منطقة القنال، وأى المناطق تصلح لكى نضع منها اللغم وكيفية الوصول إليها دون أن تشعر بنا الدوريات الإنجليزية التى كانت تمر على ساحل القنال فى حركة دائبة. واتفقنا على عدم تضييع الوقت وألا ننتظر إلى أن يطلعنا «الشايب» على نتيجة دراسته للغم، بل يجب أن نسعى الآن ونذهب إلى المكان الذى نختاره لكى ندرسه على الطبيعة ونعرف كل ملامحه ونرسمه».

❑

ثم يتحدث صاحب المذكرات عن الاتجاه بنشاطهم إلى منطقة المواجهة مع العدو فى قناة السويس:

«كان علينا أن نعرف على الطبيعة أسلم الطرق التى سوف نسلكها حتى نصل إلى القنال، وحتى نحدد تماماً المكان الذى يقع عليه اختيارنا ليكون مسرحاً لعملية تفجير اللغم البحرى فى إحدى ناقلات البترول الإنجليزية. وحددنا موعد السفر أنا وكفافى ونصير. إلا أن نصير أصيب بمرض (نزلة شعبية) ورغم إصراره على الذهاب معنا، لم نستجب له خوفاً من إصابته بمضاعفات قد يسببها له المجهود الشاق للرحلة. وكان الطريق الذى خططنا له هو الذهاب بالقطار من القاهرة إلى المنصورة، ثم ركوب قطار الدلتا من المنصورة إلى المطرية، وبعدها نعبر بحيرة المنزلة إلى أن نصل إلى الضفة الغربية للقنال، وهناك نحدد أنسب الأماكن لعمليتنا القادمة».

(١٥)

ويروى صاحب هذه المذكرات قصة الهجوم على معسكر التل الكبير وكيف قام عبدالحميد كفافى الذى يصفه جمال منصور بأنه كان أكثرهم جرأة بتجميع بعض الأفراد الذين كانوا يقومون بالتدريب وقادهم إلى منطقة القنال وهاجم معسكر التل الكبير ونسف السكة الحديد أمام بوابة المعسكر مما أدى إلى انقلاب أحد القطارات:

«... من ناحية أخرى واصلت الجماعة تدريبها على السلاح وتفجير القنابل اليدوية واستخدام الأسلحة المختلفة، لأننا كنا نريد تجهيزها للقيام بعملية تفجير اللغم، استعداداً للدخول فى معركة مع أى دورية إنجليزية قد تمر على القنال فى أثناء القيام بعملية التفجير. وكان لابد للجماعة أن تكون على دراية كاملة باستخدام المدفع الرشاش لحماية الأفراد فى أثناء عملية التفجير، وكذا استعمال القنابل اليدوية. وكانت عمليات التدريب هذه تتم فى شقة الزيتون من الناحية النظرية، ثم فى مقابر السيدة نفيسة وجبل المقطم للتدريب العملى. وسار هذا التدريب بشكل منتظم يدعو إلى الاطمئنان لأى عملية قادمة».

«وقام عبدالحميد كفافى ـ الذى كان أكثرنا جرأة ـ بتجميع بعض الأفراد الذين كانوا يقومون بالتدريب بشكل منتظم وقادهم إلى منطقة القنال، وهاجم معسكر التل الكبير ونسف السكة الحديد أمام بوابة المعسكر، مما أدى إلى انقلاب أحد القطارات المحملة بالمؤن وبعض المعدات الحربية وعاد فى نفس الليلة ومعه فريقه إلى القاهرة. وقد صدر بيان من محطة إذاعة لندن بتلك العملية. وعلى إثر ذلك، وبعد أن هاله تنظيم العملية ودقتها قام الجيش الإنجليزى باحتلال التل الكبير. وفى الاجتماع الأسبوعى عرض كفافى ما قام به مع فريقه فى معسكر التل الكبير، وأفاد خالد بأنه سوف يبلغ مجموعته بما تم لتعزيز التعاون بين المجموعتين فى العمل الفدائى ضد الإنجليز».

(١٦)

وفى الفصل الثالث من الجزء الأول من كتابه يناقش جمال منصور ما يسميه أو ما يطلق عليه ادعاءات حركة حدتو حول المنشور الوحيد الذى أصدرته تحت عنوان «أهداف الضباط الأحرار»، وأنه قد جاء ببرنامج صيغت منه الأهداف الستة للضباط الأحرار، ويحرص جمال منصور على أن يجهر بأن القول بأن هذا المنشور قد صيغت منه المبادئ الستة للثورة جاء بعيداً عن الحقيقة (صفحة ٦١).

أما واقع الأمر فى نظره فهو أن الخلية الرئيسية لسلاح الفرسان كانت قد وضعت بعض المبادئ التى تنير الطريق أمام الثورة بعد نجاحها، واتجهت إلى تبنى استراتيجية للثورة القادمة، «وذلك لربط التنظيم فى وقت السرية، وبعد قيام الثورة بمبادئ ثابتة تكون الإطار السليم لنشاط الثورة فى تحقيق أمانى ورفاهية الشعب».

«وقد تم وضع هذه المبادئ الرئيسية فى نقاط محددة، وفى كلمات مختصرة وقد أعدها عبدالحميد كفافى ومصطفى نصير وجمال منصور، وتمت دراستها وبلورتها وصياغتها بعد

مناقشات مع باقى أعضاء الخلية الرئيسية للفرسان، وكان ذلك فى منزل الصاغ عثمان فوزى، وكانت هذه المبادئ التى وضعتها اللجنة الرئيسية للفرسان هى نفسها مبادئ الثورة الستة، والتى جاءت فيما بعد فى كتاب «فلسفة الثورة»، وهذه المبادئ الستة هى:

١ ـ القضاء على الاستعمار وأعوانه من الخونة.

٢ ـ القضاء على الإقطاع.

٣ ـ القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم.

٤ ـ إقامة عدالة اجتماعية.

٥ ـ إقامة جيش وطنى قوى.

٦ ـ إقامة ديمقراطية سليمة».

«وقد قامت الجماعة التأسيسية لسلاح الفرسان بمطالبة «القيادة الجديدة» بأن يتم إعلان مبادئ الثورة الستة، ونشرها على أوسع نطاق، وذلك للالتزام بكل ما جاء فيها وحتى تكون دستوراً لهذه «القيادة الجديدة» لتسير عليه فى كل خطواتها».

(١٧)

وفى ثنايا حديثه عن نشاط الضباط الأحرار قبل الثورة يحكى السفير جمال منصور قصة لقاء له مع أحمد فؤاد عن طريق خالد محيى الدين ، ويستطرد منها إلى علاقة أحمد فؤاد بالثورة بعد قيامها على ضوء الخيارات التى وضعها عبدالناصر أمامه، ونحن ننقل هذه الفقرة لترينا الوجه الآخر لعلاقة خالد محيى الدين بالثورة:

«... كانت الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى تمثل الجناح اليسارى فى مصر. وقد ظهرت لها عدة منشورات تحدثت عن السياسة الخارجية والداخلية ، وكانت تهاجم الأحلاف بزعامة أمريكا ، وتؤيد الاتحاد السوفيتى والديمقراطيات الشرقية . وحينما تعطلت ماكينة الرونيو التى نملكها ، كان علينا أن نلجأ إلى أى وسيلة لطبع أحد المنشورات التى كانت قد أعدتها جماعة الفرسان».

«هنا تقدم الزميل خالد محيى الدين ليرشدنا إلى الجهة التى يمكنها القيام بهذا العمل. وحضر إلينا وبرفقته السيد أحمد فؤاد الذى كان يعمل قاضيا فى المحاكم ، ولكنه يرتبط ارتباطا وثيقا بحركة «حدتو» . وقال خالد إن الأخ أحمد يمكنه أن يطبع المنشور الذى تم

إعداده ، وذلك فى إحدى خلايا تنظيم « حدتو ». وبالفعل أخذ أحمد فؤاد المنشور وذهب به إلى جهة لا نعرفها ثم عاد بعد يوم واحد ومعه النسخ المطلوبة من المنشور ، وكانت هذه المقابلة هى أول وآخر لقاء مع حركة « حدتو ».

«وحينما نجحت الثورة ، جاء أحمد فؤاد لمقابلة عبدالناصر بناء على طلب الأخير ، الذى قال له: « إذا استمريت فى نشاطك الأول مع الاتجاه المعروف لحركة « حدتو » فإن أبواب السجون ستكون مفتوحة أمامك - أما إذا عدلت عن ذلك ومشيت معنا فى طريقنا فإن أبوابا أخرى سوف تفتح لك».

ويصل جمال منصور إلى أن يبلور رأيه فى أحمد فؤاد واختياره فيقول:

«واختار أحمد فؤاد الطريق الآخر ونبذ حركة « حدتو » ، وفتحت أمامه أبواب كثيرة ، كان أهمها رئاسته لمجلس إدارة بنك مصر.

(١٨)

ونأتى مع جمال منصور إلى القوة الثالثة والأهم وهى الوفد، ونحن نجد جمال منصور فى هذه المذكرات حريصا على أن يروى أن الضباط الشبان أرادوا الالتقاء بالنحاس باشا عقب حريق القاهرة، وأنهم أوفدوا إليه اليوزباشى محمد محمد النحاس ابن شقيقه، ولكن النحاس باشا لم يكن ـ حسب رأى صاحب المذكرات ـ قد تفاعل مع الأحداث ولم يكن ـ لديه الاستعداد للقيام بأى عمل ثورى أو انقلابى حتى لو ضمن دعم هذا العمل بتأييد من الجيش:

«... كانت الجماعة الأساسية لسلاح الفرسان موجودة ضمن قوات الطوارئ التى نزلت إلى المدينة وتجمعت فى حديقة الأزبكية،وكنا نتحدث معاً عما يمكن عمله فى ظل الظروف الحرجة التى تتعرض لها مصر، واتجه الرأى إلى الاتصال بحزب الأغلبية (الوفد) للوقوف على مدى استعداده للقيام بعمل ما وما هو مطلوب من الجيش لتأييد هذا العمل من أجل مصر».

«وفي تلك الليلة ـ في حديقة الأزبكية ـ قابلت زميلي اليوزباشي محمد محمد النحاس (وهو ابن شقيق النحاس باشا زعيم حزب الوفد) وقلت له: إن البلاد تحترق وإن الأمور تسير بسرعة فائقة ولا ندرى إلى أين المصير، فهناك «القصر» عدو الشعب، وهناك الإنجليز المحتلون لأرض الوطن، وهناك حزب الأغلبية (الوفد) خارج الحكم، فما رأيك أن نذهب سوياً إلى عمك مصطفى النحاس ونسأله عن موقفه إزاء ما هو حادث فى البلاد وما أعده فى تلك الظروف».

«وخرجنا معاً وتوجهنا مشياً على الأقدام إلى منزل عمه النحاس باشا فى جاردن سيتى، وكانت القاهرة غارقة فى الظلام بسبب حظر التجول،و دخلنا إلى قصر النحاس باشا وصعد محمد النحاس إلى الدور الثانى للقاء عمه وبقيت فى حجرة الانتظار فى الدور الأول على أن ألحق بالزميل محمد النحاس حينما يستدعينى، وانتظرت فترة من الوقت وجاءنى الخادم بقدح من القهوة».

«ومرت حوالى نصف ساعة ونزل محمد النحاس من الدور الثانى واصطحبنى إلى خارج القصر وسألته عما تم مع عمه ولماذا لم يرسل إلىّ لمقابلة الرجل للتعرف على ما فى فكره إزاء الأحداث الجارية، فأجابنى أن رسالة عمه إلينا نحن الضباط أن نحافظ على أمن البلاد، وهذا هو كل المطلوب منا. وأيقنت أن «الوفد» لم يكن قد تفاعل مع الأحداث وأنه ليس لديه الاستعداد للقيام بأى عمل حتى بتأييد من الجيش».

«وعدت إلى زملائى فى حديقة الأزبكية لأقص عليهم ما حدث، وأدركنا جميعاً أن الثورة إن جاءت فلن تأت إلا على يد الضباط دون انتظار لأى عون من أى حزب حتى وإن كان حزب الأغلبية».

هكذا يرى واحد من الضباط الثوريين ويروى بكل وضوح أن حزب الأغلبية لم يكن يرحب بأى تدخل من الجيش. ومن العجيب أن رجال حزب الأغلبية أيضا يؤكدون أنهم كانوا يؤمنون تماما بهذه الرؤية، ولنقرأ ما أوردناه فى كتابنا «على مشارف الثورة» مما تضمنته مذكرات إبراهيم باشا فرج على سبيل المثال.

(١٩)

ويروى لنا صاحب هذه المذكرات ملامح التوتر الشديد الذى حفلت به الأيام التى سبقت قيام الثورة مباشرة، واتصالات مجموعته بمجموعة الرئيس جمال عبدالناصر وقصة استدعاء اللواء عبدالمنصف محمود وكيل وزارة الداخلية لمصطفى نصير مع والده اللواء عبدالمجيد نصير (مفتش عام بوليس الوجه البحرى وصديق عبدالمنصف محمود)، وقد أدار عبدالمنصف الحديث بطريقة هادئة وقال لمصطفى: «إن نشاطك معروف ويحتمل القبض عليك فى أى لحظة والأفضل أن تبتعد عن أى نشاط فى هذه الفترة».

وهذا هو نص ما يورده صاحب المذكرات عن هذه الواقعة بالتحديد :

«وسارت الأيام ثقيلة تحمل معها كل يوم جديداً عن مراقبة البوليس السياسى لنا، حيث

كان «القصر» قد تأكد من قوة تنظيم الضباط الأحرار وأعطى أوامره إلى البوليس السياسى بالتعاون مع المخابرات الحربية للعمل على تركيز الرقابة على بعض العناصر من الضباط، خاصة من كان لهم تاريخ سابق مثل كفافى ونصير (حادث عطاالله)».

«أكد ذلك الزميل مصطفى نصير، بأن أخبرنا أن والده اللواء عبدالمجيد نصير الذى كان يعمل مفتشاً عاماً لبوليس وجه بحرى وتربطه علاقة صداقة طيبة مع اللواء عبدالمنصف محمود وكيل وزارة الداخلية، طلب منه أن يذهب معه إلى وزارة الداخلية لمقابلة اللواء عبدالمنصف محمود لأنه يود أن يراه».

«وفعلاً ذهب مصطفى مع والده، ولكنه أدار الحديث بطريقة هادئة، وقال لمصطفى: «إن نشاطك معروف، ويحتمل القبض عليك فى أى لحظة، والأفضل أن تبتعد عن أى نشاط فى هذه الفترة».

«وفى اجتماع للمجموعة الرئيسية «للفرسان» حضر خالد محيى الدين ليبلغنا بأن مجموعته (مجموعة خالد وجمال عبدالناصر) قد وصلت إليها أخبار تؤكد أن البوليس السياسى والمخابرات يسعى كل منهما لمراقبة عدد من ذوى النشاط السياسى بين الضباط، وذلك للوصول إلى رئاسة التنظيم أو بعض خلاياه».

«وأفاد «خالد» أن كفافى ونصير من أوائل المراقبين من هذه الجهات نظراً لتاريخهما السابق (حادث عطاالله)، لذلك يجب إيقاف أى نشاط لهما».

«ثم جاء محمد عبدالرحمن نصير (أحد أقرباء مصطفى وهو من الضباط الأحرار) ليؤكد لنا ما سبق أن قاله خالد، ثم أخطرنى خالد أن الدائرة بدأت تضيق حول المجموعة الرئيسية للفرسان، وقال لى: «ياجمال إن أسماءكم أصبحت تكاد تكون معروفة لدى البوليس السياسى، لذلك أرجوك أن تبتعدوا تماماً عن أى اجتماعات وألا تقوموا بأى نشاطات هذه الأيام، وياحبذا لو تركتم القاهرة وذهبتم بعيداً عنها».

«ورجانى خالد محيى الدين أن أبلغ هذا إلى الزملاء كفافى ونصير وسعد عبدالحفيظ، وقال: «إن الوصول إلى أحدكم سوف يجر الخيط إلى نهايته، ويقضى على الحركة بكاملها».

«وقد اتصلت بأعضاء مجموعة الفرسان واقترحت عليهم أن نسافر جميعاً خارج القاهرة كل فى اتجاه. وحصلنا على إجازات وسافر كل منا إلى جهة خارج القاهرة، وقامت الثورة بعد عدة أيام».

«وما أن قامت الثورة فى ٢٣ يوليو حتى عدنا إلى الثكنات فى سلاح الفرسان حيث تسلمت عملى مساعداً للزميل خالد محيى الدين فى رئاسة الفرسان، وتسلم الزملاء كفافى ونصير وسعد مراكزهم الجديدة فى آلاى الدبابات وآلاى السيارات».

«وبعد قيام الثورة بعدة أيام سأل أحد الضباط المقربين من عبدالناصر: لماذا تترك جمال منصور فى هذا الموقع بعد ما قام به من جهد كبير فى سبيل إنجاح الحركة؟ فرد عبدالناصر قائلا: «قولوا له أن يأتى بمكتبه ويضعه هنا أمامى..».

«ودارت الأيام مع الأحداث الأولى للثورة وبقيت فى موقعى بجانب زملائى فى السلاح نعمل معاً من أجل تأمين الثورة».

على هذا النحو يبدأ جمال منصور فى التعبير عن ضيقه من موقف الرئيس جمال عبدالناصر المبكر منه ومن غمطه ما كان يعتقد أنه حقه بعد نجاح الحركة.

(٢٠)

وفى صفحة ٦٤ وما بعدها يروى جمال منصور وقائع مهمة يلقى بها أو يحاول أن يلقى بها بعض الشكوك على مدى إخلاص مجموعة الضباط الأحرار لفكرة الثورة قبل نجاح حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ومن هذه الوقائع أن زملاء خالد محيى الدين (أى مجموعة مجلس قيادة الثورة) قد خلوا به فى توزيع المنشورات ولم يكونوا على مستوى المسئولية المتوقع منهم، وأنه ـ أى خالد محيى الدين ـ أعاد المنشورات إلى جمال منصور لكى يتولى هو ومجموعته توزيعها.

ويأخذ جمال منصور من هذه الواقعة دليلا على أن مجموعة الرئيس عبدالناصر لم تكن على ذات القدر من التضحية والإخلاص الذى كانت عليه مجموعة الفرسان، وهو المعنى الذى يكرر جمال منصور الحديث عنه كثيرا، وهو يحدثنا عن انطباعات خالد محيى الدين عن زملائه (من أعضاء مجلس الثورة) فيما بعد فيقول :

«وبعد ثلاثة أيام وجدت من يدق باب حديقة المنزل بعنف وإذا به خالد محيى الدين يحمل شنطة سوداء ويدفعها أمامى قائلا : خذ .. هذه هى المنشورات التى قمت بطبعها .. إن أيا من أولاد .. !! ليس على استعداد لعمل أى شىء .. لقد اخترع كل منهم حجة وسافر إلى بلده فى أجازة العيد ».

«وتحدث خالد بكثير من الضيق. ووجه عبارات قاسية وجارحة إلى من أصبحوا بعد بضعة شهور أعضاء مجلس الثورة».

«وكنت بين خيارين إما أن أرفض تسلم المنشورات بحجة قوية وهى مراقبة البوليس السياسى لنا وإما أن أقوم بالمغامرة مهما كانت النتائج فاتصلت بباقى الجماعة فحضروا إلى

منزلى. وانضم إلينا شقيقاى صلاح وسعد وبدأنا فى تجهيز المنشورات لإرسالها إلى أصحابها وانتهينا منها بعد منتصف الليل وقمنا بتوزيعها على صناديق البريد فى الأزقة البعيدة عن أعين المخبرين وعدنا مع الفجر لنستقبل يوما جديدا فى ظروف عصيبة».

«وسارت الأيام ثقيلة تحمل معها كل يوم جديدا عن مراقبة البوليس السياسى ».

(٢١)

كذلك يروى جمال منصور واقعة مهمة لم يروها خالد محيى الدين فى كتابه الذى صدر بعد كتاب جمال منصور بثلاث سنوات، بل على العكس، فإن خالد محيى الدين ينفى ما يشير إليه جمال منصور ويذكر ـ بكل تأكيد ممكن ـ أنهم لم يطلعوا على هذا الكشف أبداً.

وهذه هى رواية جمال منصور:

«... وقد تبين بعد قيام الثورة، أن معلومات خالد محيى الدين كانت سليمة، إذ كان هناك كشف بأسماء ١٣ ضابط جيش من الضباط الأحرار مطلوب اعتقالهم، وقد وجد هذا الكشف اليوزباشي محمد عبدالعزيز صادق (مدير عام مجلة أكتوبر بعد ذلك) عندما ذهب مندوباً عن القيادة الجديدة فى وزارة الداخلية فى درج مكتب اللواء محمد إبراهيم إمام، رئيس البوليس السياسى».

«وحسب رواية عبدالعزيز صادق كان هذا الكشف يحتوى فى مقدمته على أسماء مجموعة الفرسان: كفافي ـ نصير ـ جمال منصور ـ سعد عبدالحفيظ، ثم تسعة أسماء أخرى من بينهم جمال عبدالناصر، وقد قام عبدالعزيز صادق بتسليم هذا الكشف إلى جمال عبدالناصر فيما بعد».

«ويتضح أن أخبار هذا الكشف قد وصلت إلى مجموعة خالد محيى الدين وعبدالناصر مما أدى إلى الإسراع بالحركة وتقديم موعدها فقامت فى يوم ٢٣ يولية ١٩٥٢ بدلاً من نوفمبر ١٩٥٢، وتصورت ماذا كان يمكن أن يحدث لو تأخرت الثورة بضعة أيام وتمكنت السلطات من القبض على الضباط الواردة أسماؤهم فى القائمة».

«إن القبض على تلك المجموعة كان يعنى عدم قيام الثورة أو تأخير قيامها سنين طويلة إلى أن تأتى موجة أخرى من الأحرار تدفع أمامها كل تيار حتى يتحقق لها النجاح على طريق الحرية، أما الضباط الثلاثة عشر الذين وردت أسماؤهم على القائمة، فلم يكن أمامهم سوى أحد مصيرين، إما الإعدام رمياً بالرصاص، أو قضاء سنوات طويلة سوداء بين الأغلال وراء القضبان».

«وأذكر هنا أنه بعد قيام الثورة بعدة أيام، اتصل بى اليوزباشى محمد عبدالعزيز صادق وقال لى: «لقد كان لك فى نفسى تقدير كبير، ولكن عندما عثرت على الكشف الذى كان موجوداً فى درج مكتب اللواء محمد إبراهيم إمام ووجدت اسمك بين مقدمة الضباط الأحرار المطلوب القبض عليهم، فإن تقديرى لك زاد كثيرا».

هنا ينبغى لنا أن نكرر الإشارة إلى أن خالد محيى الدين لا يذكر فى مذكراته «والآن أتكلم» شيئاً عن هذه الأسماء ويؤثر أن يقفز على هذا الموضوع حتى كأنه يوحى أن الأسماء كانت هى أسماء ما عرف بعد ذلك بمجلس قيادة الثورة، ولكن رواية جمال منصور تحمل من القوة ما تحمله كل دعوى يبذل صاحبها جهداً فى إقامة الدليل عليها، خصوصاً أنه نشر هذا الموضوع قبل نشر كتاب خالد الذى لم يتعرض له بالتكذيب الصريح، وإن كان قد أكد أنه «لم يتم العثور على ورقة الأسماء».

(٢٢)

ويبلور جمال منصور سر الخلاف بين مجموعته وبين مجموعة عبدالناصر فيما بعد قيام الثورة بما حدث فى أحد اجتماعات سلاح الفرسان:

«فى أحد اجتماعات «الضباط الأحرار» فى مكتبى برئاسة سلاح الفرسان، تحدث «الأحرار» عن الوضع فى البلاد معبرين عن ضرورة إقامة حياة ديمقراطية سليمة».

«وقال بعض الزملاء إنه إذا كانت الحياة الديمقراطية قبل الثورة قد لوثتها الأحزاب السياسية ودفعتها إلى ما يخدم أغراضها فقط، فإن هذا لا يعنى أن نسدل الستار على الديمقراطية أو ينتابنا اليأس من عودة هذه الحياة إلى مصر، وإنه لمن الواجب أن تسعى الثورة بكل قدراتها فى سبيل تأكيد الديمقراطية فى البلاد بعد تطهير الأحزاب من العناصر التى أساءت إلى الديمقراطية والحياة السياسية فى البلاد».

«ثم جاء دورى فى الحديث فقلت: «لقد قامت الثورة من أجل الشعب ومن أجل إرساء القواعد الديمقراطية، إعمالا لأحد مبادئها الستة، ونحن نرفض أى نظام سوى النظام الديمقراطى، وإننا لم نخلع «فاروق» لكى نأتى فى مكانه بـ«١٣ فاروق» (وكان عدد أعضاء مجلس الثورة ١٣ عضواً فى ذاك الحين)، وقرب انتهاء الاجتماع فى المساء، خرج أحد الضباط متوجهاً إلى مجلس قيادة الثورة (وكان على بعد خطوات من سلاح الفرسان) وطلب مقابلة عاجلة مع البكباشى جمال عبدالناصر لأمر هام جدا».

«وبعد مشاورات مع الضابط النوبتجى المسئول فى القيادة، سُمح لضابط سلاح الفرسان بالدخول لمقابلة جمال عبدالناصر، وقص عليه تفاصيل ما حدث فى الاجتماع (وقد علمنا فيما بعد أن ضابط سلاح الفرسان الذى نقل ما حدث ليلة الاجتماع هو الصاغ صلاح عيداروس)».

«ودعا جمال عبدالناصر إلى اجتماع عاجل لمجلس الثورة فى نفس الليلة وتحدث عما أبلغه به الصاغ عيداروس، وقال عبدالناصر لأعضاء المجلس: «لقد سبق أن حذرتكم من «الصف الثانى» وضرورة التخلص منه، لأن أى عمل مضاد للثورة لن يأتى إلا على يد هذه الجماعة، وها أنا أحذركم مرة أخرى من هؤلاء الضباط، وإلا كانت العواقب وخيمة.. فلا أريد أن تهتز الكراسى من تحتكم»

« وبعد مناقشات انتهت مع حلول الفجر اتخذ مجلس الثورة قراراً بشأن اللجنة الأساسية للضباط الأحرار فى سلاح الفرسان،وفى اليوم التالى ذهبت إلى مكتبى فى رئاسة سلاح الفرسان، وجاء خالد محيى الدين وقد ظهرت عليه علامات الإعياء والتعب الشديدين، فسألته: ما بالك ياخالد؟ فأجابنى قائلا: «لقد اجتمع مجلس الثورة بالأمس لساعات طويلة انتهت مع الفجر»، فقلت له: لعله يكون خيراً، هل هناك أحداث بالبلد أدت إلى هذا الاجتماع المطول؟ فأجابنى خالد بكل الوضوح: «لقد اتخذ مجلس الثورة قراراً بإبعادك عن سلاح الفرسان، وهذا كان أمراً ضرورياً لأنك تتولى مركزاً هاماً فى السلاح، أما عن باقى الزملاء فقد تقرر نقلهم إلى وحدات إدارية داخل السلاح، فتم نقل عبدالحميد كفافى إلى الأساس، ومصطفى نصير إلى مركز التدريب الفنى».

(٢٣)

ويؤكد جمال منصور فيما يرويه عن حواره مع خالد محيى الدين أنه هو ـ أى جمال منصور ـ كان بمثابة الرجل الذى أطلق تعبير «١٣ فاروق» بدلا من فارق واحد!:

«وأضاف خالد: إن ما حدث فى جلسة الأمس أوضح بجلاء أنه لم يعد هناك تفاهم بين القيادة وبينكم. فقلت له: إننى أنا الذى قلت إننا لم نخلع «فاروق» لكى نأتى فى مكانه بـ«١٣ فاروق»، وإننى إذا كنت قد قلت هذا الكلام ومازلت مصمماً عليه استناداً إلى أحد المبادئ الستة التى وضعناها قبل الثورة، وقد رأى مجلس الثورة إبعادى عن السلاح، فلماذا ينقل باقى الزملاء؟!».

«وقلت لخالد: «إنكم تناقشون فى مجلسكم كل شئون البلاد، وفى مقدمتها إقامة حياة ديمقراطية سليمة، وكان طبيعياً أن تسمعوا صدى ذلك بين الضباط الأحرار الذين عاشوا كل فكر الثورة منذ فجر التمهيد لها، وكان عليكم أن تتعرفوا على ما يأتى بخاطر هؤلاء الضباط الذين هم الأبناء المخلصون لهذه الثورة منذ مرحلة التمهيد لها إلى أن نجحت بعد كفاح طويل على مدى السنين».

وأضفت قائلاً: «إن ما قام به مجلس الثورة لا أجد له ترجمة إلا رغبة سافرة من المجلس للتخلص من كل من كان له دور أساسى فى الإعداد للثورة، وإن «الخط الثانى» ـ كما تلقبونه ـ والذى رأى المجلس التخلص منه، قد بدأ فعلاً بإبعاد الجماعة التأسيسية للضباط الأحرار فى سلاح الفرسان، وكان لهذا القرار صدى قوى داخل السلاح وبين ضباطه».

❑

ثم ينسب جمال منصور إلى زميله عبدالحميد كفافى الموقف الجسور الذى كان يجرى التفكير فيه دون أن يأخذ سبيله إلى هذا التنفيذ:

« ومازلت أذكر ما قاله «كفافى» فى ذاك الوقت: «إننى أشعر بقوتى، وما علىّ إلا أن أدير المدافع فى آلاى السيارات المدرعة الذى أقوده وأقذف بقنابلها مجلس الثورة وأحطم جدرانه على رءوس أعضائه».

«وفى ٢٢ أكتوبر ١٩٥٢ صدرت الأوامر إلى كل من عبدالحميد كفافى ومصطفى نصير بالتوجه إلى مكتب البكباشى حسين الشافعى مدير السلاح الذى أبلغهما أن الاتجاه فى مجلس الثورة كان هو صدور أحكام ضدهما تتراوح بين الإعدام والسجن المؤبد والفصل من الخدمة إلا أن بعض أعضاء المجلس رأوا تخفيف هذه الأحكام، وانتهى الأمر بالإبعاد عن الوحدات القتالية، وذلك بنقل عبدالحميد كفافى إلى أساس الفرسان، ومصطفى نصير إلى مركز التدريب الفنى، وهى وحدات «إدارية» فى السلاح».

«وطلب حسين الشافعى من الزميلين كفافى ونصير ألا ينقلا هذا الخبر إلى أى من الضباط فى السلاح، ولكن الزميلين رفضا وطلبا ترتيب لقاء مواجهة بينهما وبين أعضاء مجلس الثورة لمعرفة نوع الاتهام الموجه إليهما وشهود هذا الاتهام، ووعد حسين الشافعى بأن يحاول إتمام هذا اللقاء، ولكن بشرط أن يتم تنفيذ النقل».

ثم يتطرق جمال منصور بعد هذا إلى اللقاء الذى عقد بحضور حسين الشافعى الذى اعترف فى نهايته بقوله: «إننى لم أكن أعرف كل هذا التاريخ لأنى حديث العهد فى تنظيم الضباط الأحرار».

ويعقب جمال منصور بأن حسين الشافعى «كان أميناً فى قولـه»، إلى أن يصل إلى القول بأن أحداً لا يستطيع أن ينكـر الدور الذى قام به ليلـة ٢٣ يوليو، هذا الدور الـذى جاء به إلى عضوية مجلس الثورة.

(٢٤)

وعلى مدى الصفحات ٧٢ ـ ٩٠ من هذه المذكرات تفصيلات مهمة بل وفى غاية الأهمية عن الخلافات المبكرة التى حدثت بين جماعات الضباط الأحرار بعد قيام الثورة، وفيها يعرض جمال منصور وجهة نظره بكل تفصيل.

وفى استطاعة الـقارئ أن يرجع إلى هذه الصفحات الـتى لا يجدى التلخيص فى الـتعبير عن روحها ومغزاها، خصوصاً ما رواه جمال منصور عن لقائه بعبدالناصـر بعد بضعة شهور من تعيـينه فى الخارجيـة وما نقله من حديـث عبدالناصر لـه عن نية الإخوان المسـلمين إجراء عمل مضاد للـثورة بقيادة معروف الحضرى وعبـدالمنعم عبدالرءوف، وعن نيتـه هو شخصياً ـ أى عبدالناصر ـ الإفراج عن ضباط سلاح المدفعية.

ونحن نطالع فى هذه المذكرات ما يرويه جمال منصور عن لقائه مع جمال عبدالناصر بعد انتقاله إلى العمل الدبلوماسى، وهى رواية تحرص على أن تتضمن كثيرا من الأفكار التى يريد جمال منصور تمـريرها، ومن هذا عرض جمال عبدالـناصر عليه أن يكون بمثابـة المسئول عن سـفارة مـصر فـى العـراق، ورغبـته هـو فى أن يـعمـل فى دول أخـرى.. فضـلا عن عـرض عبدالناصر عليه العودة إلى الجيش لو أراد.

وفيـما يخـص القضـايا العـامة ينـقل لنـا صاحب هـذه المذكرات فـى نفس الـرواية آراء لعـبدالناصـر فى الإخوان وموقـفه منـهم، كما يـروى تفاصـيل خلافات سـلاح المدفعيـة مع عبدالناصر:

«... ثم تحـدث عبدالـناصر عـن سلاح المدفـعية، وقال إنـه شعر بـحالة مـن القلـق وعدم الاستـقرار فـى سلاح المدفـعية. وكـان الرأسـان الكبـيران فـى هذا السـلاح هما رشـاد مهـنا وعبدالمنـعم أمين،وأنه لم يكن يـعرف عبدالمنعم أمـين إلا يوم ٢٢ يولية ، أى قبل الـثورة بيوم واحد ، إذ لم يكن له دور قيادى ولم يشارك فى الإعداد للثورة.

وأضاف عـبدالناصـر أنه وجد ضرورة إبـعاد هذيـن الرأسين عن سـلاح المدفعيـة، وقال:

«وحتى يمكن إبعاد هذين الرأسين من سلاح المدفعية بطريقة هادئة ومقبولة، قمت بتعيين رشاد مهنا وزيرا للمواصلات تمهيدا لتعيينه وصيا على العرش مع الأمير محمد على وبهى الدين بركات (وكان منصب «الوصى» هو أرفع وأسمى مناصب الدولة فى ذلك الحين)، ثم رشحت عبدالمنعم أمين لعضوية مجلس الثورة رغم ماضيه الخالى من أى جهد فى الثورة».

ويضحك عبدالناصر قائلا: «وبذا تمكنت من التخلص من هذين الرأسين فى سلاح المدفعية على الطريقة الإنجليزية Kicking them up».

«ولما جاء ذكر سلاح المدفعية قلت لجمال عبدالناصر: «لقد ذهبت إلى سجن الأجانب مرتين لأزور الزملاء محسن عبدالخالق وفتح الله رفعت وسعد عبدالحفيظ ومحيى الخولى. ولم أكن أتصور فى يوم ما أن يقوم ضابط حر بمحاكمة ضابط حر آخر، لأننا نعرف جميعا أن العلاقة بين الضباط الأحرار كانت علاقة مقدسة، فالكل عمل تحت جناح الظلام، وفى ظروف غاية فى الدقة والحرج، وأن أى خطأ أو وشاية كان يمكن أن تقضى على هؤلاء الأحرار، بل على الحركة نفسها». فرد عبدالناصر قائلا: «إنهم جميعا فى السجن، ولكنى أراعيهم كل الرعاية ، وأمرت بصرف مرتباتهم وإرسالها إلى عائلاتهم وتصلنى تقارير دورية عن أحوالهم». فقلت له: «هل لى أن أسأل عن وقت الإفراج عنهم؟». (وكنت أعلم أنهم لم يقضوا سوى عدة شهور فى سجن الأجانب) فأجابنى عبدالناصر: «إننى أعدك بأنه سوف يتم الإفراج عنهم جميعا، ولكن لا تسألنى عن موعد هذا الإفراج».

ورغم عدم إفصاح عبدالناصر عن موعد الإفراج عن الزملاء ، إلا أننى شعرت بشىء من الراحة النفسية عندما قال عبدالناصر: «إنه سوف يتم الإفراج عنهم».

❑

على أن من المؤسف جداً أن جمال منصور روى لنا وفاة زميلهم اليوزباشى محمد وصفى فى السجن ومرّ على هذا الحدث مروراً عابراً ضمن روايته لحديث زميله سعد عبدالحفيظ له:

«... وذهبت مرة ثالثة إلى سجن الأجانب والتقيت بالزميلين محسن عبدالخالق وسعد عبدالحفيظ وأبلغتهما بالحديث الذى دار بين عبدالناصر وبينى. ورغم أنهما ارتاحا نفسيا من سماع ذلك الحديث، إلا أن الزميل سعد عبدالحفيظ كان فى غاية الضيق حين قال لى: «إن أمامى أحد أمرين، إما الهرب إلى السودان، وإما أن أبعث إلى لجنة حقوق الإنسان للتحقيق فى أوضاعنا، خاصة بعد أن توفى الزميل «وصفى» فى السجن نتيجة لـلتعذيب والإهمال فى العلاج». وأضاف أنه عند التحقيق مع اليوزباشى محمد وصفى قام صلاح سالم بضربه بالحذاء على رأسه حتى أصيب بنزيف ومات بعد ذلك. ثم قال «سعد» بانفعال: وإذا لم ينفع أى من الحلين فليس أمامى سوى الانتحار».

(٢٥)

هذا هو جمال منصور يحدثنا أيضا بتفصيل معقول فى كتابه الذى بين أيدينا عن وقائع أزمة فبراير ١٩٥٤، ويذكر لنا بالتحديد أسماء الضباط الذين يصنفهم على أنهم (انتهازيون) وهو يقصد بهذا الوصف أولئك الذين حالوا بين رجال الثورة وبين التنازل عن الحكم تمهيدا للحكم الديمقراطى وتعيين خالد محيى الدين رئيسا للوزراء لفترة انتقالية مؤقتة يقوم فيها بإعداد البلاد ورسم الطريق أمامها نحو الحياة الديمقراطية السليمة ، تنفيذا لقرار مجلس الثورة المعروف فى ٢٧ فبراير ١٩٥٤.

ويجد جمال منصور فى نفسه شجاعة فائقة على أن يذكر أسماء هؤلاء بالتحديد رغم بقائهم على قيد الحياة عند نشر مذكراته ومنهم مَنْ وصل إلى منصب نائب رئيس الوزراء (عبدالمحسن أبو النور) أو إلى درجته (حسن التهامى).

يقول جمال منصور :

«... وتشاور مجلس الثورة فيما بين أعضائه واستقرار رأيهم على الاستقالة ، إلا أن بعض الضباط الانتهازيين الذين وثبوا إلى جوار « القيادة » منذ الأيام الأولى للثورة ، ومنهم أحمد أنور، وحسين عرفة، وجمال القاضى، ووحيد جودة رمضان، ومحسن (عبدالمحسن) أبو النور، وحسن التهامى رفضوا استقالة أعضاء مجلس الثورة ومنعوهم من مغادرة المبنى وأشهروا فى وجوههم الأسلحة ».

«وكان قد تم الاتفاق على أن يذهب « خالد » فى اليوم التالى إلى القيادة لكى يتسلم التكليف بتشكيل الوزارة».

«وما أن وصل إلى القيادة حتى تلقفته أيدى بعض الضباط وفى مقدمتهم كمال الدين رفعت ووحيد جودة رمضان وأحمد أنور واعتدوا عليه بالضرب والاهانة ، وطردوه من القيادة . ولم يمض وقت طويل حتى كان «خالد محيى الدين » فى طريقه إلى سويسرا بحجة علاج ابنته من مرض شلل الأطفال، ولكن واقع الأمر أن «خالد » كان فى طريقه إلى المنفى».

(٢٦)

ونأتى إلى الموضع الذى ينبغى أن نلخص فيه الآراء المهمة لجمال منصور فى أعضاء مجلس قيادة الثورة، ونبدأ برأيه فى الرجل الذى عين مديراً لسلاح الفرسان، وهو حسين الشافعى، وهو يوحى إلينا بسؤال مهم: هل كان الشافعى أقوى رجل فى مصر بعد الثورة؟

ويبدو لنا هذا السؤال الذى يطرحه صاحب المذكرات طريفاً، ولكن يبدو أن الفرض الذى فيه كان منطقياً، بيد أن شخصية حسين الشافعى وتأخر عهده بالإعداد للثورة هما ما منعاه من أن يأخذ المكانة التى كان يمكن أن يأخذها بأكثر مما أخذ بالفعل .

ولنتذكر أن حسين الشافعى كان أول من تولى وزارة الحربية من بين الضباط الأحرار وقبل عبدالحكيم عامر نفسه.

وهذا هو جمال منصور يروى قصة حوار بينه وبين زميلهم سيد جاد بعد قيام الثورة حيث يقول:

«... وذهبت فى اليوم التالى للقاء سيد جاد وكان يسكن فى عوامة قديمة بها بعض الأثاث المتهالك ـ وكانت راسية على النيل فى منطقة العجوزة ـ وما أن جلست حتى سألنى سيد جاد: تفتكر مين أقوى رجل فى مصر دلوقت ..؟ فقلت له :يتردد اسم محمد نجيب ولكنى اعتقد أن جمال عبدالناصر هو الأقوى ، ولايمكن أن اعتبره الرجل الثانى كما يقال عنه الآن ».

«فرد سيد جاد قائلا: انت غلطان لا محمد نجيب ولا جمال عبدالناصر إن أقوى رجل الآن فى مصر هو حسين الشافعى .. هو اللى جنب الجنازير .. هو اللى جنب الدبابات .. هو اللى يقدر يرفع الثورة لفوق ، وهو اللى يقدر يمرغ بوزها فى التراب .»

«ثم قال ضاحكاً: « فيه صينية كنافة قدام سلاح الفرسان فى الناحية الثانية من الشارع (يقصد مجلس الثورة) وكل واحد جرى عشان ياخذ حتة . حتى الضباط اللى كانوا معايا فى الحرس الحديدى كل واحد منهم جرى على هناك وأخذ حتة من الصينية .. ».

ويكتفى جمال منصور بإيراد هذه القصة على هذا النحو معتمدا على ما يوحى به تبنيه لها عند اختيارها للسرد فى هذا الموضع، دون أن يعبر عن تبنيه هو نفسه لما فى مضمون هذه القصة.

(٢٧)

ويمكن القول بأن حديث جمال منصور عن حسن إبراهيم يعد من أبرز الروايات التى تناولت الدور المبكر لحسن ابراهيم فى ثورة يوليو حيث يتحدث صاحب هذه المذكرات عن قيامه بطباعة المنشورات السرية التى كان الضباط الأحرار يصدرونها فيقول:

«... و التقيت بحسن ابراهيم فى مقهى « سفير » ، وركب بجانبى وكان دليلى فى الطريق

إلى أن وصلنا إلى إحدى العمارات فى وسط مصر الجديدة ، وأنزلنا ماكينة الرونيو . وصعدنا إلى إحدى الشقق ، وهناك قابلنا عبدالرحمن عنان الذى كان يعيش بمفرده فى تلك الشقة، وأودعنا آلة الرونيو لديه وهممت بالانصراف ، ولكن حسن ابراهيم رجانى فى أن أشرح كيفية تشغيل الماكينة وتم ذلك إلا أنه ـ على مايبدو ـ لم يستوعب ماشرحت».

«و كان قد تم إعداد منشور صغير ، وهو آخر منشور صدر بإسم الضباط الأحرار، تحت عنوان « هدية العيد » وكان ذلك قبل عيد الأضحى عام ١٩٥٢. ولم تمض أيام حتى اتصل بى حسن ابراهيم وقال إنه فى حاجة إلىّ فذهبت إليه فى مقهى سفير، واصطحبنى إلى شقة عبدالرحمن عنان حيث وجدت أوراقا متراكمة فى أنحاء الغرفة وقد لطختها أحبار الطباعة».

«كان واضحا أن محاولة قد تمت لتشغيل آلة الرونيو ولكنها فشلت فقمت بإعداد الآلة إعدادا سليما ، ودارت الآلة وطبعت حوالى ٥٠٠ منشور. وعدت إلى منزلى بعد منتصف الليل وتركت المنشورات فى حيازة حسن ابراهيم وعبدالرحمن عنان على أمل أن يقوما بإعداد وكتابة العناوين وإرسالها بالبريد وانتظرنا صدور هذه المنشورات فلم تظهر».

(٢٨)

وقد سبق لنا فى موضع آخر من هذا الباب أن نقلنا عن جمال منصور ما يرويه عن حوار دار بينه وبين جمال عبدالناصر عن تفكير عبدالناصر فى التخلص من كل من عبدالمنعم أمين ورشاد مهنا، وكيف أن عبدالناصر نجح فى تنفيذ خطته فيما يتعلق بهذين القطبين المهمين من أقطاب القوات المسلحة وسلاح المدفعية على وجه الخصوص ، ويبدو أن جمال منصور شأنه فى هذا شأن ضباط الفرسان لم يكن مستريحًا إلى الدور الذى لعبه ضباط المدفعية فى المشاركة فى قمع تمرد الفرسان من أجل الديمقراطية فى ١٩٥٤، وقد استعانت الثورة بضباط المدفعية حتى مَنْ كانوا مسجونين منذ ١٩٥٣ فى مجابهة الفرسان فى ١٩٥٤.

❑

أما زكريا محيى الدين فلا يحظى بكثير من التقييم والنقد فى هذا الكتاب، اللهم إلا فى ص ٨٠ حيث يروى جمال منصور أن خالد محيى الدين قال له فى أسى: « تصور أن ابن عمى زكريا محيى الدين رفض أن أعود إلى مصر وأصر على أن أبقى منفيا فى سويسرا وقدم رأيه إلى مجلس الثورة الذى يقول لو رجع خالد لمصر فإن دبان البلد [أى ذبابه] حيتلم عليه».

ويتحدث جمال منصور فى كتابه باستنكار واضح ونفور وتأفف طبعا عن الجهد (!!) الذى بذله كمال رفعت فى تأديب محمد نجيب وخالد محيى الدين فى أزمة ١٩٥٤ فيقول:

«... أما بالنسبة لمحمد نجيب ، ففى ذات اليوم طُلب من كمال رفعت أن يذهب إلى منزل محمد نجيب في الزيتون ، وكانت لديه التعليمات بأن يصطحبه إلى ميس المدفعية فى ألماظة ، ويتم التحفظ عليه هناك، ولكن عبدالحكيم عامر طلب من داود عويس أن يرافق كمال رفعت فى هذه المأمورية خوفا من أن يتصرف الأخير بطريقة هوجاء قد تؤثر على سير الأحداث بالنسبة لمحمد نجيب ».

«وبالفعل تحركت عربة وبها كمال رفعت وداود عويس وتوجها إلى منزل محمد نجيب فى الزيتون ».

«ودخل الضابطان إلى منزل محمد نجيب الذى قابلهما فى الصالة بالملابس المنزلية (البيجاما والروب) ، وبادره كمال رفعت بقوله إن لديه تعليمات بأن يصطحبه إلى مكان ما فى الجيش سوف يعرفه في وقته. وطلب من محمد نجيب أن يلبس ويستعد للذهاب معه ، ودخل محمد نجيب إلى غرفته وغاب فترة ثم عاد وسأل كمال رفعت : هل تريدنى أن ألبس ملابس مدنية أو عسكرية؟ فقال له: « لك أن تختار الملابس التى تراها ».

«ثم دخل محمد نجيب إلى غرفة نومه مرة أخرى وغاب فترة طويلة ، فقام كمال رفعت إلى وسط الصالة وصفق بيديه عاليا حتى ينبه محمد نجيب بأنه فى انتظاره . وظهرت علامات الانزعاج على وجه محمد نجيب ، وربما تبادر إلى ذهنه أنه سوف يخرج من منزله ولن يعود، وأن هناك مؤامرة لاغتياله والتخلص منه. وكان محمد نجيب مترددا ومتباطئا فى إعداد نفسه للذهاب مع الضابطين، وذلك لكسب الوقت، إذ أنه كان يتوقع أن يتحرك سلاح الفرسان الذى أعطى مهلة إلى «قيادة الثورة» حتى الساعة السابعة مساء لتنفيذ مطالبه».

«وكان ضباط سلاح الفرسان قد أعدوا خطة الهجوم على مجلس قيادة الثورة حاملين شعار «الديمقراطية»، لكن تم اعتقالهم قبل ساعة الصفر بعد أن وشى بهم أحد الضباط من البوليس الحربى، وهو اليوزباشى فؤاد الشاهد. وتم اعتقال أكثر من ٢٥ ضابطا من سلاح الفرسان، فى مقدمتهم أحمد المصرى وأحمد حمودة، وقدموا للمحكمة التى أشرف عليها زكريا محيى الدين، وصدر الحكم على أحمد المصرى بالسجن ١٥ عاما فيما سمى بـ«قضية أحمد المصرى وزملائه».

كما يحدثنا جمال منصور عن حسن التهامى بقدر من التأفف والنفور لا يقل عن القدر الذى أظهره فى حق كمال رفعت وهو يؤثر أن يورد ما يورده على لسان زميل مشترك لهما وهو سيد جاد وهو ينقل عنه أن حسن التهامى كان عضوا جزئيا فى الحرس الحديدى ، وأنه قام بإطلاق الرصاص من مدفع رشاش على «رفيق الطرزى» فى مصر الجديدة من عربة كانت تضم بعض أعضاء الحرس الحديدى وذلك تنفيذا لتعليمات السراى بسبب منافسة الطرزى للملك فاروق على إحدى الراقصات !!

ويحرص صاحب المذكرات بعد هذا إلى أن يستطرد ويشير إلى أن الرئيس السادات نفسه كان عضوا فى هذا الحرس دون أن يورد تفاصيل مماثلة عن تلك التى أوردها فيما يتعلق بحسن التهامى.

وهكذا نرى جمال منصور كالعهد به فى مواضع أخرى من هذه المذكرات يلجأ إلى وضع الروايات على ألسنة أصحابها، وربما يفعل هذا بقصد إخلاء مسئوليته وربما يفعله تعبيرا عن اعتقاده الذى لم يصل إلى درجة اليقين من صحة ما يذكره، وإن كان فى ذات الوقت حريصا على ألا يفرط فى الفرصة المتاحة له للإيحاء بما تتضمنه هذه الروايات من أفكار يريد لها الانتشار حتى وإن أخلى مسئوليته عنها.

وفى جميع الأحوال فلنقرأ هذا النص المهم:

«ثم استطرد ـ أى سيد جاد ـ قائلا: «إذا كان النظام الجديد قد رأى إبعادى عن الجيش بسبب عضويتى فى تنظيم الحرس الحديدى، فإنى أقول إننى لم أكن وحدى فى هذا التنظيم، بل كان هناك آخرون، ومنهم من وصل إلى أعلى مناصب الدولة بعد قيام الثورة. والواقع أننى الوحيد بين أعضاء الحرس الحديدى الذى أصابه هذا الضرر، وبدلاً من أن يعاملنى مجلس الثورة معاملة مماثلة لباقى أعضاء الحرس الحديدى، أو يتركنى لحالى فى الجيش، أجد نفسى وحيداً ـ دون الآخرين ـ مطروداً من القوات المسلحة».

«وأضاف سيد جاد قائلا: «إننى لو استعرضت أعضاء الحرس الحديدى لوجدت أن من بينهم أنور السادات الذى تلقاه د. يوسف رشاد طبيب خاص الملك ورئيس الحرس الحديدى بعد خروجه من السجن وبراءته من قضية أمين عثمان، وأحاطه برعايته وأعطاه مبلغ ألف جنيه حتى يساعده على تدبير أموره وأحوال عائلته التى كانت تعانى من الضيق المالى،

وأصبح السادات عضواً فى الحرس الحديدى له نفس مميزات باقى الأعضاء (مرتب ٨٠ج شهريا وعربة صغيرة)».

«ثم يضيف سيد جاد قائلا: "وأنظر إلى السادات، زميلى القديم فى الحرس الحديدى، أنظر إليه بعد قيام الثورة فأجده قد تربع فى كرسى مجلس الثورة.. أعلى سلطة فى البلاد».

«ثم حسن التهامى، الذى كان عضواً جريئاً فى الحرس الحديدى وقام بإطلاق الرصاص من مدفع رشاش على «رفيق الطرزى» فى مصر الجديدة من عربة كانت تضم بعض أعضاء الحرس الحديدى، وذلك تنفيذاً لتعليمات السراى بسبب منافسة الطرزى للملك فاروق على إحدى الراقصات وأتساءل أين حسن التهامى الآن؟ فأجده فى مكاتب الرئاسة بجانب المسئولين فى مجلس الثورة له كلمة وله شأن، ومن يدرى ربما يتم تعيينه قريباً وزيراً أو سفيرا».

«أما عبدالرءوف نور الدين فقد أراد له الله أن يستشهد فى حرب فلسطين حتى لا يرى نصيبه مع القادمين الجدد».

«فى حين أن مصطفى كمال صدقى أصابته لوثة وأدخل إلى إصلاحية للرجال إلى أن توفى».

«أما عبدالله صادق ضابط مطافئ الحرس، فقد قدم استقالته منذ اليوم الأول للثورة».

«وبالنسبة للضابطين حسن فهمى عبدالمجيد وخالد فوزى فقد اشتركا فى معظم العمليات التى أمر بها القصر وبالذات الاعتداء بالقنابل والرشاشات على منزل النحاس باشا فى جاردن سيتى، تنفيذاً لتعليمات الملك لتصفية أعدائه، ومع هذا فقد حظيا برعاية أعضاء مجلس الثورة ووجدا من يدافع عنهما، بل ويدفع بهما نحو المناصب الرفيعة فى الدولة».

«ثم يضيف سيد جاد فيقول: «لقد اشتركنا جميعاً فيما كلفنا به د. يوسف رشاد بناء على تعليمات الملك، حتى الحياة الخاصة للعائلة المالكة، ومنها مراقبة الملكة فريدة وما أشيع حول علاقتها بالسيد وحيد يسرى».

«واختتم سيد جاد حديثه معى قائلا: «لقد حدث لى ما حدث، ولكن تذكر دائماً قصة الثور الأسود والثور الأبيض».

ويكتفى جمال منصور بعد كل هذا بأن يعقب فى النهاية بانطباعه عن أثر حديث سيد جاد فى نفسه فيقول:

«وتركت «العوامة» بعد منتصف الليل وفى نفسى غصة كبيرة».

ولا يكلف جمال منصور نفسه بذل أى جهد نقدى أو تحليلى لهذه الروايات الكثيرة المتابعة التى نسبها إلى سيد جاد، وكأنما يريد أن ينقل للقراء الإحساس بالغصة التى أحس سيد جاد بها فحسب، أو كأنما هو يريد أن يعمم هذا الإحساس حتى لا ينفرد به!! وكأنما ينسى جمال منصور حقيقة مهمة وهى أن من الممكن فى مستقبل الأيام أن تنقل كل روايات سيد جاد هذه منسوبة إليه هو نفسه، أى إلى جمال منصور، لأنه هو الذى أوردها فى كتابه.

(٣١)

ثم يردف جمال منصور هذا الحديث الذى دار بينه وبين سيد جاد برواية ما دار بينه وبين خالد محيى الدين، ثم بينه وبين جمال عبدالناصر، ثم بين جمال عبدالناصر وأنور السادات مستنتجاً من هذا كله استنتاجات أكبر من الرواية نفسها، وهى روح تنم ببساطة عن أن جمال منصور إن كان صادقاً فيما يرويه فإنه لم يكن وربما لا يزال لا يفهم فى السياسة إلا بالقدر الذى هو متاح للإنسان بحكم كونه إنسانا فحسب:

«... وفى أغسطس ١٩٥٢، حضر خالد إلى مكتبى فى رئاسة الفرسان، وقال لى: «إني أود أن أتحدث معك على انفراد». وأضاف: «لقد كثر الكلام واللغط عن أنور السادات، ومدى علاقته بالدكتور يوسف رشاد طبيب الملكْ الخاص، وانتمائه إلى الحرس الحديدى قبل الثورة».

«وسألنى خالد عما إذا كان لدىّ معلومات عن حقيقة انتماء أنور السادات إلى الحرس الحديدى، فقلت لخالد: إن لدىّ معلومات أكيدة فى هذا الشأن، وقد جاءت على لسان أحد أعضاء الحرس الحديدى الذى عاش مع أنور السادات فترة انتمائه إلى هذا التنظيم. وأضفت قائلا: ولكنى أود أن تبقى هذه المعلومات بيننا وألا تبوح بها لأحد وأن تقسم قسماً عظيماً على ذلك. وأقسم خالد، وبدأت فى سرد قصة الحرس الحديدى كما رواها سيد جاد، وعلاقة السادات بالدكتور يوسف رشاد منذ أن خرج من السجن بعد براءته فى قضية أمين عثمان وضمه إلى الحرس الحديدى».

«واستمع خالد إلى كل ما قلت دون أى تعليق».

«ومرت ثلاثة أيام، وإذا بجمال عبدالناصر يطلب حضورى للالتقاء به فى مجلس الثورة. وفى الشرفة المطلة على حديقة المجلس، بدأ عبدالناصر فى الحديث عن آماله العريضة للنهوض بالبلاد رغم الصعوبات التى تلاقيها الثورة».

«وفجأة شعرت بيد تربت على كتفي والتفت لأجد خالد محيى الدين وقد جاء من الغرفة المجاورة، وطلب منى أن أعيد أمام جمال عبدالناصر ما قلته له منذ ثلاثة أيام عن السادات. فحزنت فى نفسى، ولم أكن أتمنى أن أقف هذا الموقف، وكنت أود أن تبقى تلك المعلومات حبيسة بينى وبين خالد، فقلت لخالد: إننا اتفقنا على ألا تبوح بتلك الأسرار وأنك أقسمت على ذلك».

«وهنا تدخل عبدالناصر وقال لى: «إننى لابد أن أعرف كل صغيرة وكبيرة عن كل من يتعاون معى فى مجلس الثورة، وإذا غابت عنى هذه المعلومات فمن إذن يحق له معرفتها؟». وقال فى حزم: «مهما طالت هذه الجلسة فإنك لن تترك هذا المكان إلا بعد أن أعرف علاقة السادات بالحرس الحديدى». فبدأت فى سرد القصة كما رواها لى اليوزباشى سيد جاد، وما أن انتهيت منها حتى قال عبدالناصر: «كنا نعلم بعض هذه المعلومات عن السادات، وكنا لا نريد أن نصدق أنفسنا، وكان الشك ينتابنا أحياناً، أما وقد عرفنا كل هذه التفاصيل فلم يعد هناك مجال للشك فى أن أنور السادات كان له علاقة وطيدة مع د. يوسف رشاد، وأنه كان عضواً بارزاً فى الحرس الحديدى».

«ثم أضاف عبدالناصر وهو فى غاية الضيق والانفعال: «أنا مش عارف ابن!!! ده لونه إيه ولا شكله إيه، أنا مش عارف له ميه لكن أنا حعرف إزاى أكشفه».

«وفى لقاء له مع السادات فى أحد اجتماعات مجلس الثورة جابهه عبدالناصر بما لديه من معلومات وكشف عن حقيقة انتمائه للحرس الحديدى، وبذلك طواه تحت جناحه على مدى عمره، فلم يكن يعترض أو يخالف جمال عبدالناصر فى أى أمر من الأمور، وكان يُظهر أنه اشتراكى أكثر من الآخرين، فضمن بذلك البقاء إلى جوار عبد الناصر حتى النهاية».

على هذا النحو من السذاجة المفرطة يعرض جمال منصور هذه الأفكار عن علاقة السادات بعبدالناصر، وعلاقة السادات بالحرس الحديدى، وكأنما كانت ثورة ٢٣ يوليو شيئا من قبيل المصادفة ليس إلا، أو كأنما نشأت من اجتماع مجموعة من الضباط فى مقهى دون أن يعرفوا عن بعضهم أى شىء يتعلق بماضيهم أو حاضرهم، فإذا هم بعد سنة أو أكثر يسألون رجلا لم يحضر اجتماعهم عن بعضهم البعض(!!)

ومن العجيب أن جمال منصور نشر هذا الكلام فى الفترة التى كانت الكتابات تركز فيها على عضوية السادات أو انتمائه للحرس الحديدى، ولم تمض شهور أو سنوات حتى كانت هناك روايات متعددة وواضحة الإسناد تشير إلى أن جمال عبدالناصر كان هو الآخر على علاقة بالحرس الحديدى إن لم يكن من أعضائه.

وهكذا يبدو أن جمال منصور نفسه لم يكن على علم بكل هذه الأسرار أو الحقائق، ومن ثم فإنه ـ فيما يبدو ـ اصطنع روايته التى قدمها على نحو لا يحفظ للرواية ماء وجهها حين تعرض على حقائق التاريخ، ولا يتبقى منها إلا أن جمال منصور نفسه كان هو البعيد عن حقائق الأمور وأسرارها. ويبدو أن هذا كان يتوافق مع خطة وتفكير عبدالناصر فى إبعاده عن جوهر العمل الثورى قبيل الثورة وليلتها.

(٣٢)

ويحرص جمال منصور فى هذا الكتاب على أن يعرض تعريضاً شديداً بأحد زملائه من الضباط السفراء، دون أن يذكر اسمه، واسمه معروف، فهو أول سفير لمصر فى فرنسا بعد رفع العلاقات إلى درجة سفير بعد عودتها فى الستينيات، ولكننا لا نكلف أنفسنا التصريح بما لم يستطع صاحب المذكرات التصريح به.

ومن العجيب أن جمال منصور حريص على انتقاد هذا الزميل على طول الخط، ومع هذا فإنه يعترف بما حدث وهو أنه بقى سفيراً لمصر فى فرنسا ٥ سنوات.

ولنقرأ هذا الذى يرويه جمال منصور لنرى كيف يلمز بعض الناس من السفراء بعضهم جهاراً نهاراً:

«أرسلت وزارة الخارجية ترشيح أحد سفرائها فى الجزائر فى عام ١٩٦٢، وما أن علم «بن بلا» بهذا الترشيح حتى قال للسيد على صبرى عند التقائه به فى مطار تونس: «أرجو أن تعفونا من هذا الرجل..!»، ثم أرسلت القاهرة طلب ترشيح نفس السفير فى المغرب، فجاءت برقية الملك الحسن حاملة رفض الموافقة على هذا الترشيح. وقد تصور بعض المسئولين المصريين أن المخابرات الفرنسية «المكتب الثانى» كانت وراء رفض هذا السفير فى كلا البلدين الجزائر والمغرب».

❑

ربما نتوقف هنا لنتعجب من أن يظن رجل من رجال الثورة أو ضباطها أو رجال السلك الدبلوماسى الممثل لها، أو بالأحرى يصرح بأن المسئولين المصريين كانوا يظنون أن هاتين الدولتين العربيتين المحررتين لا تزالا تحت سيطرة المخابرات الفرنسية.

ومع هذا فلنواصل قراءة رواية جمال منصور بكل ما فيها من مشاعر غير ودية:

«وحينما بدأ التفكير فى تعيين سفير جديد لمصر فى باريس، قال عبدالناصر ضاحكا:

«سوف أرشح (فلان.. نفس السفير) سفيراً فى باريس، فإن قبله الفرنسيون يبقوا يشربوه، وإذا لم يقبلوه ستبقى العلاقات على مستوى القائم بالأعمال إلى حين تعيين سفير آخر».

على هذا النحو يحرص جمال منصور على أن يصور الأداء السياسى للرئيس عبدالناصر، وربما كان تصويره ـ للأسف ـ قريبا من الصواب!:

«وفى ١٨ نوفمبر ١٩٦٣، وصلتنى برقية شفرية من القاهرة بترشيح نفس الشخص سفيراً لمصر فى باريس، وتوجهت إلى الخارجية الفرنسية وقابلت مدير المراسم وسلمته مذكرة بتاريخ حياته وطلب ترشيحه».

«وما أن قرأ مدير المراسم «المذكرة» ووقعت عينه على الاسم حتى رفع رأسه وعلى وجهه علامات الدهشة والتعجب، وسألنى: «هل السفير الجديد هو الصاغ الذى كان يعمل مساعداً للملحق العسكرى فى باريس فى أوائل الخمسينات؟»، فقلت له: «نعم.. وهذا واضح من تاريخ حياته المقدم لكم مع هذه المذكرة..!».

«فرد مدير المراسم بانفعال:

«ليس من شأنى أن أعبر عن دهشتى لهذا الاختيار، ولا أملك إلا أن أعرض اسم السفير الجديد على المسئولين، ولكنى أود أن أقول لك بصراحة إنه سوف يظل فى نظرى دائماً الصاغ الملحق العسكرى المساعد فى باريس».

«ثم رجع بمقعده إلى الخلف وقال فى حزم: «لعلك تعلم مَنْ هو المرشح ليكون سفيراً لفرنسا فى القاهرة بعد قطيعة سبع سنين، إنه جاك رو، أحد فطاحل الدبلوماسيين الفرنسيين، إنه كان مديراً للدائرة السياسية المختصة بآسيا، وهو المهندس الذى قام بتصميم العلاقات بين باريس وبكين لأول مرة فى تاريخ البلدين، وهو من أكثر سفرائنا علماً وثقافة..».

«وأضاف: «لقد اختارته فرنسا ليكون سفيراً لها فى مصر تقديراً له وإدراكاً لأهمية موقعه الجديد فى القاهرة..». وكانت حالة عدم الرضا ظاهرة فى حديث مدير المراسم كأن لسان حاله يقول: «لقد نظرت فرنسا إلى أهمية علاقاتها المستقبلة مع مصر فرشحت لها خيرة سفرائها، أما مصر فلم تفعل ذلك..!».

«وكان الجنرال ديجول حريصاً على فتح صفحة جديدة فى العلاقات الفرنسية ـ المصرية، فلم يرغب فى أن يجعل من قبول الاسم المقترح أو رفضه سبباً فى تعكير صفو العلاقات بين البلدين وهى تخطو خطواتها الأولى بعد قطيعة سبع سنين، وتمت الموافقة على ترشيحه سفيراً لمصر فى باريس، وبقى هناك خمس سنوات كاملة!!».

هكذا يبدو بكل وضوح أن التسامح جاء من ناحية الرئيس الفرنسى الجنرال شارل

ديجول، ولو أن الأمر كان بيد جمال منصور لرفض بالنيابة عن الفرنسيين ترشيح زميله الضابط المتقدم عنه فى درجات السلك الدبلوماسى سفيرا لمصر فى باريس!!

(٣٣)

ونأتى إلى أخطر فقرات هذا الكتاب على الإطلاق، وهى الفقرة التى يوحى لنا فيها صاحب المذكرات بكل وضوح بأن قوى معروفة فى مصر (على صبرى وعزيز صدقى على وجه التحديد) قد عملت على تخريب العلاقات مع ألمانيا الغربية، على حين كان الرئيس عبدالناصر يتمنى استمرار وازدهار هذه العلاقات!!

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب قد نشر فى عام ١٩٨٩ حين خفت أو تلاشت حدة الانتقاد الشديد والهجوم الضارى على سياسات على صبرى ومَنْ وسموا بأنهم مجموعة الانحياز للاتحاد السوفيتى كسامى شرف، إلا أن جمال منصور يجاهر باتهام هؤلاء بالمسئولية الكاملة عن الإساءة إلى علاقة مصر بألمانيا الغربية، وهو لا ينشئ هذا الاتهام من فراغ، بل إنه لا يصرح به فى البداية، وإنما هو يروى التسلسل الذى مرت به الأحداث ثم يلقى بالتبعة على هؤلاء الذين يسميهم بالجناح الخفى.

وهو يخصص الفصل السادس من كتابه لتناول هذا الموضوع، ويروى فى بدايته أنه ذهب للقاء وزير الخارجية الألمانى عقب الإعلان عن صفقة السلاح بين برلين وإسرائيل، وأن الوزير أجابه بأن مصر قد افتتحت مكتباً تجارياً لها فى برلين الشرقية، وهو ما يمثل سابقة جديدة فى عالم العلاقات الدولية ومثلاً تحتذى به دول العالم الثالث، ومع هذا فإن وكيل الخارجية لشئون الشرق الأوسط اصطحب جمال منصور إلى مكتبه وقال له هذه ورقة وقلم.. اكتب طلبات السلاح التى تريدها مصر من بلادى ونحن على استعداد للاستجابة لها فوراً.

ويمضى جمال منصور فى تناوله لقصة هذه العلاقات المهمة وتطوراتها إلى سرد كثير من الوقائع الهامة فيقول:

«تمت صفقة السلاح بين إسرائيل وألمانيا الاتحادية بمباركة وتأييد أمريكا، وما أن تكشفت تفاصيل تلك الصفقة حتى ذهبت للقاء شرويدر وزير الخارجية الألمانية وقلت له: إن الدول العربية لم تكن فى يوم ما طرفاً فيما لاقاه اليهود على يد النازى، ويؤسفنى أن أقول: «أنتم اقترفتم الجريمة ونحن ندفع ثمنها»، وتساءلت: «لماذا ندفع نحن فاتورة هتلر؟»».

«ثم تحدث شرويدر فقال: إن مصر قد سبق لها أن افتتحت مكتباً تجارياً لها فى برلين

الشرقية، له كافة الاختصاصات القنصلية والتجارية يرأسه دبلوماسى مصرى برتبة عالية. وإن وجه الخطورة فى ذلك هو أن هذا الإجراء كان سابقة جديدة فى عالم العلاقات الدولية، ومثلاً تحتذى به دول العالم الثالث».

«وأضاف الوزير شرويدر قائلا: «وهكذا دخل فى سجلات الخارجية الألمانية فى بون، ملف جديد لمصر سمى فيما بعد «النموذج الذى ابتدعته مصر» فى سبيل إنشاء علاقات دولية مع حكومة ألمانيا الشرقية، واقتفى أثرها باقى دول العالم الثالث».

«وانتهت المقابلة عند هذا الحد، واصطحبنى وكيل وزارة الخارجية الألمانية لشئون الشرق الأوسط إلى مكتبه وقال لى: «هذه ورقة وقلم.. اكتب على هذه الورقة طلبات السلاح التى تريدها مصر من بلادى، ونحن على استعداد للاستجابة لها فوراً».

ثم يروى جمال منصور بقية هذه القصة على نحو ما حدثت وقائعها التالية فى مصر:

«وفى صيف ١٩٦٤، مرت مصر بأزمة اقتصادية خطيرة، مما أدى بالسيد على صبرى رئيس الوزراء فى ذاك الوقت إلى إصدار تعليماته بإغلاق القنصليات و المكاتب الفنية فى الخارج، وذلك لضغط المصروفات، وأدركت حكومة بون الأزمة الاقتصادية التى كانت تعانى منها مصر، فاستدعانى «شولز» وكيل الخارجية الألمانية للشئون الاقتصادية وقال لى:«إن بلادى تقدر الظروف التى تمر بها مصر، وإنها حرصاً منها على صداقتها معكم فإنها تريد أن تقدم لها مساعدات اقتصادية، وهى على استعداد لتنفيذ الخطة الخمسية الثانية».

«واستأذنت فى السفر إلى القاهرة وقابلت رئيس الوزراء على صبرى، وعرضت عليه ما قاله لى وكيل الخارجية الألمانى واستعداد بلاده لتنفيذ الخطة الخمسية الثانية. فرد على صبرى قائلا: «لسنا فى حاجة إليهم ولا إلى الأمريكان.. نحن نسير وفق خطة يدعمها الاتحاد السوفيتى والدول الشرقية».

«ثم ذهبت للقاء د. عزيز صدقى وزير الصناعة وتحدثت معه عن العرض الألمانى، فلم تكن إجابته أفضل من إجابة على صبرى، وردد ما قاله رئيس الوزراء».

«ثم تحدد لى موعد مع الرئيس عبدالناصر، وتحدثت معه مستفسراً عما إذا كان الاقتصاد المصرى يسير فى مجال الكتلة الشرقية على طول الخط! فأجابنى: «هذا غير صحيح، ويجب أن تضع فى اعتبارك أن سياسة مصر الاقتصادية هى التعاون مع الغرب بنسبة ٥١٪، ومع الشرق بنسبة ٤٩٪»».

«فلخصت للرئيس ما دار بينى وبين كل من السيد على صبرى والدكتور عزيز صدقى، فلم يهتم الرئيس عبدالناصر بالاستماع إلى رأى أى منهما أو التعليق عليه، ثم سألنى فى حزم: «متى تسافر إلى مقر عملك فى بون؟ فقلت له: «غداً إن شاء الله» فرد علىّ قائلاً: «لا

تسافر إلا ومعك الخطة الخمسية الثانية بكل المشاريع التى تتضمنها، وإنى أوافق على أن تقوم ألمانيا الاتحادية بتنفيذ مشاريع الخطة بكاملها..».

«وعدت بالخطة إلى بون وبدأت اتصالاتى مع المسئولين الألمان الذين رحبوا كثيراً بتنفيذها، إلا أن الأحداث تلاحقت بسرعة وسدت طرق التفاهم بين البلدين، فقد أعلنت القاهرة عن زيارة «أولبراخت» رئيس دولة ألمانيا الديمقراطية».

على هذا النحو المذهل فإن جمال منصور ـ وهو رجلنا الأول فى ألمانيا الاتحادية ـ فى ذلك الوقت، يلخص المفارقة فيما وصلت إليه الأمور فى هذه الجزئية: فالرئيس عبدالناصر حريص على التعاون مع ألمانيا والغرب، ولكن بعض معاونيه فى مصر يتآمرون ضد هذا التعاون.

(٣٤)

ولست أظن أن الأمر كان بهذه البساطة التى أراد جمال منصور أن يصورها به، ولربما كان من الصعب على جمال منصور نفسه أن يدرك حقائق الأمور على نحو أوضح، ونحن لا ندعى هذا من عندياتنا، لكن قراءة ما يرويه جمال منصور نفسه عن لقاء آخر مع الرئيس عبدالناصر والحديث الانفعالى عن اعترافه بألمانيا الشرقية يؤكد لنا هذا المعنى، وقد تم هذا اللقاء فى نهاية ١٩٦٤، أى بعد شهور من اللقاء السابق الذى نقلنا للتو حديث جمال منصور عنه.

«القاهرة : ٢١ ديسمبر ١٩٦٤:

«تحدد لى موعد للقاء الرئيس عبدالناصر فى منزله بمنشية البكرى. وفى هذا اللقاء قلت للرئيس إن العلاقات بين مصر وألمانيا الاتحادية سوف تمر بأزمة خطيرة فى المستقبل القريب، لأن «بون» سوف تعترف بإسرائيل، فقال لى فى حدة: «وكيف عرفت ذلك؟»، فقدمت له تقريراً من صفحة واحدة بخط يدى وبه كل الأسانيد التى توضح بما لا يعدو للشك أن «بون» سوف تعترف بإسرائيل، وجاء فى ختام تقريرى الفقرة التالية:

«إن إقامة العلاقات الدبلوماسية بين ألمانيا الاتحادية وإسرائيل هو أمر واقع لاريب فيه، وإن عامل الوقت فقط هو الذى يحدد قيام هذه العلاقات على أعلى المستويات، وعلى ذلك يجب أن نبنى سياستنا مع ألمانيا الاتحادية من الآن على اعتبار أنها سوف تعترف بإسرائيل وتقيم العلاقات الدبلوماسية معها».

«وما أن انتهى الرئيس من قراءة تلك الخاتمة حتى انتصب واقفاً، وهو فى غاية الانفعال وأمسك بالتقرير فى يده ملوحاً وقال: «إذن سأعترف بألمانيا الشرقية..».

«وقد تأكد ما جاء فى تقريرى إلى الرئيس عبدالناصر من أن عامل الوقت فقط هو الذى يحدد قيام العلاقات بين ألمانيا الاتحادية وإسرائيل، فلم تمض ثلاثة شهور وعلى وجه التحديد فى ٧ مارس ١٩٦٥ حتى أبلغنى نائب وزير الخارجية كارستنز بأن حكومته قررت تطبيع علاقاتها مع إسرائيل».

❑

على هذا النحو يقدم جمال منصور الصورة وكأنه يبرئ عبدالناصر ويدين نفسه، فهو حسب روايته لم يقدم لعبدالناصر طريقا آخر ينقذ به الموقف، لكنه وضعه فحسب أمام الأمر الواقع أو القادم!

❑

ولا تقف التفصيلات التى يقدمها جمال منصور عن تطور العلاقات المصرية مع ألمانيا الاتحادية عند هذا الحد، ولكنه يمضى إلى ذكر أمثلة أخرى تعضد وجهة نظره القائلة بكل وضوح بأن جناحاً خفياً كان يسعى إلى تخريب هذه العلاقات.

ويضعنا جمال منصور فى حيرة شديدة، ولنا أن نتساءل: لماذا لم يذهب فى هذه المرة إلى اللقاء بالرئيس جمال عبدالناصر كما ذهب إليه من قبل فى الصيف؟

ونحن نقرأ ما يرويه صاحب هذه المذكرات فيما يتعلق بقصة الإعلان عن زيارة أولبرخت رئيس ألمانيا الديمقراطية لمصر، وأن رئيس البوندستاج [برلمان ألمانيا الغربية] رجاه أن يطلب من المسئولين فى مصر تأجيل هذه الزيارة أو إلغاءها، فلما حضر وقابل على صبرى رئيس الوزراء ضحك هذا وقال له: «إن تأجيل الزيارة له ثمن وإلغاءها له ثمن آخر»، فأجاب جمال منصور: «إن بون على استعداد لدفع أى من الثمنين، هنا أجاب على صبرى بأن هذه الزيارة لابد أن تتم ولا مجال للتراجع عنها، إنها ليست موجهة لألمانيا فقط، ولكنها موجهة ضد أمريكا فى المقام الأول.. هذه الزيارة هتخلى الأمريكان يركعوا على ركبهم» (صفحة ١٥٤).

ويأخذ جمال منصور هذه العبارة لعلى صبرى ويجعلها عنواناً للفصل كله.

(٣٥)

ونحن نرى جمال منصور فى هذه المذكرات وهو يروى لنا بشىء من التعاطف مع الألمان الغربيين كيف أبلغه المسئولون الألمان بعزمهم النهائى على إقامة علاقتهم مع إسرائيل وصدى هذا القرار فى العالم العربى، وقد حدث هذا فى بداية ربيع العام التالى (مارس ١٩٦٥):

«بون : ٨ مارس ١٩٦٥

«استدعاني البروفيسور «كارستنز» نائب وزير الخارجية (ورئيس دولة ألمانيا الاتحادية فيما بعد..)، وذهبت إلى وزارة الخارجية الساعة السابعة مساءً وكان يوم أحد، ولم يكن بالوزارة سوى «كارستنز» وحارس الأمن الألماني».

«بادرني كارستنز بالحديث قائلا: «هناك من الرجال المتزوجين مَنْ يكون له علاقة خاصة بإحدى السيدات غير زوجته، وهي ما تسمى بالعلاقة غير الشرعية».. فتعجبت أن يستدعيني كارستنز على عجل يوم «أحد» لكي يبدأ حديثه معي بتلك المقدمة، وانتظرت حتى يتم حديثه لأعرف ما مقصده من وراء تلك البداية».

«فاستطرد كارستنز قائلاً: «إن الزوجة الشرعية أمرها معروف ومصاريفها تكاد تكون محددة، فالعلاقة طبيعية بينها وبين زوجها، أما العلاقة الخاصة أعني علاقة الرجل بامرأة أخرى غير زوجته، فإنها تتطلب منه الكثير من الأعصاب، فهو يحسب كل خطوة يخطوها ويتلفت حوله حيثما سار، كما أنها تكلفه كثيراً. فطلبات العشيقة لا تنتهي، وهي تستغل تلك العلاقة الخاصة لكي تستفيد من العشيق أكبر استفادة طالما ظلت تلك العلاقة قائمة».

«ثم قال: «أما إذا تبدلت هذه العلاقة غير الشرعية إلى علاقة شرعية وصارت العشيقة زوجة، فإن الأمر يختلف تماماً وتأخذ العشيقة حجمها الطبيعي. فتصير زوجة، وبالتالي تصبح تكاليفها محدودة ومعروفة».

«فقلت لكارستنز: «أود أن أعرف ما سبب هذه المقدمة، وهل هناك ما يدعو لتعريفي بمثل هذا النوع من العلاقات».

«فرد كارستنز ضاحكاً وقال: «إنني جئت بهذه المقدمة لأقول لك إن علاقة بلادي بإسرائيل مازالت علاقة غير شرعية، وإن إسرائيل مازالت عشيقة وليست زوجة بالنسبة لنا، ولذلك فإن علاقتنا معها تتم في الخفاء مما يزيد من تكاليفها، وتدرك إسرائيل ذلك ولهذا فإنها تستغلنا أسوأ استغلال. وإن لقائي معك اليوم هو لكي أخبرك أننا رأينا أن نتزوج إسرائيل حتى تصبح علاقتنا معها علاقة شرعية، وحتى تقل تكاليفها وتتحدد مصروفاتها. ولقد اتخذت حكومتي قرارها بتطبيع علاقاتها مع إسرائيل».

ويستطرد جمال منصور بعد هذا راويا رد فعل الحكومات العربية التي بادرت باستدعاء سفرائها في بون، بل وبدأت تفكر في الاعتراف بألمانيا الشرقية كإجراء كفيل بتعكير صفو حكومة ألمانيا الاتحادية (الغربية)، ونرى فيما يرويه جمال منصور حرصه على تصوير قصور نظر بعض مساعدي الرئيس جمال عبدالناصر (سامي شرف)، ونرى على النقيض وزير الخارجية اللبناني وهو يكتل الدول العربية الإسلامية في حل وسط يقضي بقطع العلاقات مع ألمانيا الغربية وعدم الاعتراف بألمانيا الشرقية في ذات الوقت:

«أصدرت الحكومات العربية قرارها باستدعاء سفرائها فى بون، بعد أن أعلنت حكومة بون تطبيع علاقاتها مع إسرائيل. وفى اليوم التالى لوصولى إلى القاهرة تحدث معى تليفونياً رئيس البوندستاج الألمانى «جرستنمير» وقال لى: «إننى أعلم أن مجلس جامعة الدول العربية سوف يجتمع على مستوى وزراء الخارجية لاتخاذ قرارات مهمة تتعلق بالعلاقات المصرية ـ الألمانية فى ضوء الظروف والأحداث الجارية». وعقب قائلا: «لكم أن تصدروا ما شاء لكم من قرارات، لكن أرجو إبلاغ السيد الرئيس رجاءً خاصاً من حكومة بون ومجلسها النيابى، ألا تصل هذه القرارات إلى حد الاعتراف بألمانيا الديمقراطية». وأضاف أن حكومته ستظل صديقة لمصر وهى على استعداد دائم للتعاون معها فى كافة المجالات وبالذات فى تنفيذ الخطة الخمسية الثانية».

«وبعد أن انتهت المكالمة التليفونية بينى وبين مستر جرستنمير قمت بإبلاغ ملخص حديثى معه إلى السيد سامى شرف سكرتير الرئيس للمعلومات. وما أن انتهى حديثى معه حتى قال بانفعال: «يعنى رشوة.. يعنى حكومة بون عاوزة تدينا رشوة عشان ما نعترفش بألمانيا الشرقية».

«فقلت له بأن لكل منا وجهة نظره فى تفسير الرجاء الألمانى، لكننا نتفق جميعاً فى أن المصالح الوطنية تأتى قبل الانفعالات. وأوضحت له أن الاعتراف بألمانيا الديمقراطية ليس وارداً لدى كثير من الدول العربية، ومن الممكن أن توافق هذه الدول على قرار جماعى بقطع العلاقات مع حكومة بون ، لكنها «بكل تأكيد» لن توافق جميعها على الاعتراف بحكومة ألمانيا الديمقراطية».

«وطلبت من سامى شرف أن يبلغ السيد الرئيس رجاء حكومة بون ، مع التأكيد على وجهة نظرى بعدم الاعتراف بألمانيا الديمقراطية ، فى هذه المرحلة على الأقل».

«واجتمع وزراء الخارجية العرب يوم ١٤ مارس ١٩٦٥، وجاءنى السيد فيليب تكلا وزير خارجية لبنان وسألنى عن موقف مصر، فأجبته بأن الاتجاه هو الاعتراف بألمانيا الشرقية رداً على اعتراف «بون» بإسرائيل. فانزعج الوزير اللبنانى وقال إن بلاده لا تستطيع أن تساير مصر فى هذا الاتجاه ، كما أن السعودية وباقى الدول العربية الإسلامية سوف تتردد كثيراً فى اتخاذ مثل هذه الخطوة».

«وقام فيليب تكلا باتصالات عديدة مع وزراء الخارجية العرب للتكتل ضد فكرة الاعتراف بحكومة ألمانيا الشرقية ، ونجحت مساعى الوزير اللبنانى، وصدر قرار الوزراء العرب بقطع العلاقات مع ألمانيا الاتحادية، وهكذا لم تستطع مصر تنفيذ سياستها، ودفع

الدول العربية نحو الاعتراف بحكومة ألمانيا الشرقية، وسارت مع الأغلبية واكتفت بقطع العلاقات مع حكومة بون».

❑

على أن جمال منصور بعد أن يناقش في كتابه كل هذه التفصيلات المتتالية لتطور العلاقات العربية ـ الألمانية في تلك الحقبة، يضعنا أمام السؤال الذي أشرنا إلى طرحه له عن مدى نفوذ هذا الجناح الخفي في السياسة المصرية، وكيف أن هذا الجناح كان قادرا على أن يعطل بل ويقلب إلى النقيض توجيهات وتوجهات رئيس الجمهورية نفسه.

ورأيي أن حديث جمال منصور في هذه الجزئية لا يمثل أخطر ما في كتابه فحسب، لكنه يمثل أيضا بؤرة خطورة كبيرة فيما يتعلق بعلاقات مصر الدولية في تلك الفترة، ومع أن الأمور ربما لم تكن بهذه البساطة التي يرويها بها جمال منصور، فإن ما يرويه كان للدلالة في حد ذاته على مدى ما كانت مصر تعانيه من توجهات قاصرة وعصبية وقصيرة النظر يقوم بها بعض أبنائها.

وها هو جمال منصور يعبر عن انطباعاته في وضوح ويقول :

«... وأتساءل هنا إذا كان جمال عبدالناصر رئيس الدولة قد وافق على أن تقوم حكومة بون بتنفيذ مشروعات الخطة الخمسية الثانية في مصر، بل طلب منى ألا أغادر القاهرة إلا ومعي مشروعات الخطة لعرضها بكاملها على الجانب الألماني لتنفيذ ما بها من مشروعات في مصر، فمن المسئول عن تعطيل هذا القرار والوقوف ضد هذا الاتجاه؟؟».

ويردف جمال منصور بالإجابة مباشرة ودون توسع في التحليل أو التعقيب أو رواية آراء الآخرين المعاصرين لذات الأحداث ويقول:

«... إنني لا أجد أمامي إجابة على تساؤلي إلا أن أشير إلى الجناح الخفي الذي كان قريباً من قمة الرئاسة والقادر على التأثير على سياسة مصر الخارجية حينذاك، هذا الجناح الذي اعتبر ما عرضته حكومة «بون» لتنفيذ الخطة الخمسية الثانية وما تضمنته من مشروعات ذات أهمية بالغة أساسها البنية الأساسية في مصر ما هو إلا رشوة حتى لانعترف بألمانيا الديمقراطية على حد قوله..!! ».

❑

وعند هذا الحد يصل جمال منصور إلى أن يبدأ ما يمكن لنا أن نصفه بأنه «قصيدة تنديد» يهاجم فيها مجموعة من المسئولين المصريين كان على رأسهم على صبري، وقد يبدو لي أو لغيري من القراء أن جمال منصور يدافع عن التوجه الغربي في مواجهة زملائه الآخرين

الداعين إلى التوجه الشرقي، ولكنى أحسب أن جمال منصور قد أعطى لعلى صبرى ولمجموعته ولهذا الجناح الخفى وزناً وحجماً وتأثيراً أكثر بكثير مما كان له، ومع هذا فلابد أن نحترم وجهة نظر سفيرنا الذى عاش تلك الأيام مسئولا عن رعاية شئون بلاده فى إحدى أبرز الدول الغربية، فإذا به يجد نفسه عاجزاً عن أن يجد للأمور تفسيرا إلا على هذا النحو.

ولست أنكر أننى شخصياً كثيراً ما ألجأ إلى مثل تفسيره، ولكننى لا أظن أن على صبرى بالذات وبالتحديد كان صاحب هذه التوجهات، وأنه كان كذلك قادراً على أن يمهد لها ويفرضها، على كل الأحوال فلابد أن نقرأ تنديد جمال منصور:

«هذا الجناح الذى شجع على دعوة «أولبرخت» لزيارة مصر زيارة رسمية بدلاً من أن تكون زيارة شخصية كما كان مقرراً لها فى البداية، وتخيل هذا الجناح الخفى أن هذه الزيارة سوف تجعل الأمريكيين يجثون على ركبهم.. أمام مصر».

ويردف جمال منصور ملقيا باتهاماته على هذا الجناح الخفى(!!) فى السياسة المصرية فى نهاية عبدالناصر:

«هذا الجناح الذى تصور أن ألمانيا الديمقراطية تستطيع أن تحل محل ألمانيا الاتحادية، وتجلب معها المساعدات من كل نوع، وتنقذ مصر من كبوتها الاقتصادية التى كانت تعيشها فى ذاك الوقت، فمهد كل الطرق لاعتراف مصر بألمانيا الديمقراطية إلى أن تحقق له ذلك فى ١٠ يوليو ١٩٦٩».

«هذا الجناح الذى صوّر لعبدالناصر أن ألمانيا الاتحادية سوف تكون الخاسرة إذا قُطعت العلاقات معها، فوضع أمامه تقريراً فحواه أن التجارة الخارجية بين «بون» والدول العربية تمثل ٢٨٪ من مجموع تجارة ألمانيا الاتحادية، وقد جاء هذا فى أكثر من خطاب للرئيس عبدالناصر أثناء جولته فى المحافظات إبان الأزمة الألمانية ـ العربية، وقد تعجب الألمان بل العالم العربى أن يذكر عبدالناصر هذه الإحصائية البعيدة عن الواقع تماماً، إذ أن تجارة ألمانيا الاتحادية مع الدول العربية فى ذلك الوقت لم تكن تتعدى ٣, ٠٪».

❑

ثم يبلور جمال منصور ما استهدفه من كل هذا التنديد بإيراد هذه الرواية المهمة التى تدلنا من ناحية أخرى على مدى تغلغل الافتراء على الحقائق إلى الخطاب الرسمى للدولة على يد بعض كبار رجالها:

«وأذكر أننى حينما عدت إلى القاهرة بعد سحب السفراء العرب من بون، كلفنى السفير أحمد حسن الفقى وكيل وزارة الخارجية فى ذاك الوقت، بأن ألقى محاضرة على أعضاء

السلك الدبلوماسى المصرى عن الأزمة العربية ـ الألمانية، وتوضيح أبعادها وأثرها على مستقبل العلاقات بيننا وبين ألمانيا الاتحادية. وقد تطرقت فى المحاضرة إلى العلاقات التجارية بين بون والدول العربية وأوضحت أنها لا تتعدى ٣,٠٪، وتقدمت بإحصائية وافية تؤكد ما قلت».

«ولم يسكت هذا الجناح الخفى عند هذا الحد بعد قطع العلاقات، بل قام بتحطيم كل الروابط بين القاهرة وبون حتى الروابط الثقافية والمهنية. فقد كان الآلاف من طلبة الجامعات المصرية والمهنيين، خاصة طلبة كليتى الهندسة والعلوم، يذهبون إلى المصانع الألمانية للتدريب هناك فى مصانع «كروب» وغيرها، خاصة فى فترة الصيف، وقد وصل عددهم أثناء عملى سفيراً لمصر فى بون إلى أربعة آلاف طالب ومهنى. لكن هذا الجناح لم يوافق على استمرار ذهاب الطلبة والمهنيين إلى ألمانيا الاتحادية، ومنع أى بعثات على المستوى الفردى أو الجماعى من الذهاب إلى بون، ولكن فتح الطريق أمامهم إلى دول المعسكر الشرقى».

(٣٦)

على أن تصوير هذه المذكرات لتدهور علاقتنا بالدول الغربية لم يقف عند هذا الحد، وإنما تروى المذكرات التى نتدارسها أنه كانت لهذا التدهور معقبات أخرى امتدت إلى ميادين مختلفة منها ما يتطرق إليه جمال منصور من الحديث عن العقلية العبثية التى قادت وسادت تصرفات بعض المصريين تجاه الدول الغربية بعد هزيمة ١٩٦٧، وهو يروى واقعة فى غاية الأهمية:

«... وبلغ التحدى لأى مظهر من مظاهر الوجود الغربى فى مصر بعد هزيمة ١٩٦٧ إلى حد أن قامت وحدة عسكرية مصرية، باحتلال أحد المستشفيات الواقعة على النيل فى أسوان والذى تديره راهبات مسيحيات من ألمانيا الاتحادية، وقامت الوحدة العسكرية بطرد الراهبات والمسئولين فى المستشفى وأوجدت حالة من الذعر داخله».

«ولم يمض يومان حتى جاءنى فى وزارة الخارجية مندوب مجلس الكنائس العالمى فى بون ومعه القائم بالأعمال الألمانى فى القاهرة، وعبرا لى عن انزعاج المجلس لاحتلال الجنود المصريين للمستشفى الألمانى وطرد الراهبات المسيحيات، والمسئولين عن المستشفى الذى يعمل لخدمة الإنسانية».

«وما إن انتهت المقابلة حتى ذهبت إلى الوزير محمود رياض، وأوضحت له أبعاد هذا

الإجراء وأثره على مصر دولياً، مما يسبب إثارة مجلس الكنائس العالمى والدول المسيحية ضدنا فى الوقت الذى كنا نسعى فيه لكسب صداقة أى دولة بعد هزيمة ١٩٦٧».

«وتحدث الوزير تليفونياً مع الفريق فوزى وشرح له الآثار السلبية التى تؤثر علينا دولياً نتيجة هذا الإجراء، فأعطى الفريق فوزى أوامره إلى قائد الوحدة التى احتلت المستشفى بالجلاء فوراً عنه. وعادت الراهبات الألمانيات إلى المستشفى، وجاءنى مندوب مجلس الكنائس العالمى والقائم بالأعمال الألمانى للتعبير عن ارتياحهما لما قامت به الخارجية المصرية».

(٣٧)

ومن المهم أن نذكر أن عصبية بعض المسئولين المصريين فى ذلك الوقت من الستينيات كانت قد وصلت إلى درجة خطيرة جداً، ويكفى أننا رفضنا رسمياً معونة طبية لأنها جاءت من هولندا على حين كان وزير الصحة يرى أننا فى أشد الحاجة إليها، ولنقرأ ما يرويه جمال منصور:

«القاهرة: ٥ أغسطس ١٩٦٧

«بعد هزيمة ١٩٦٧، جاءنى سفير هولندا فى القاهرة، وقال لى إنه اقترح على حكومته أن تقوم بإرسال مساعدات طبية إلى مصر، نظرا لحاجتها إلى هذه المعونات خاصة بعد الحرب. وعرضت الأمر على الجهاز الرئاسى بالوزارة فأمر برفض تلك المعونات من هولندا لأنها صفقت وهللت لإسرائيل بعد انتصارها فى حرب ١٩٦٧».

«وحينما أبلغت السفير الهولندى بهذا القرار، أجابنى قائلاً: «إذا كان الانتصار قد تحقق لإسرائيل فوجد التصفيق والتهليل فى بلادى، فلماذا لا تقومون بعمل تحققون به الانتصار وسوف تجدون التصفيق من بلادى والتهليل على اتساع العالم».

«ثم قال: «إن العالم يصفق دائما للمنتصر!».

«وكانت تربطنى علاقة طيبة بالمرحوم الدكتور النبوى المهندس وزير الصحة الأسبق، وما أن علم بنبأ رفض مصر للمعونة الطبية الهولندية حتى اتصل بى تليفونياً ورجانى أن تجد وزارة الخارجية الوسيلة للحصول على تلك المعونات حيث إن مصر فى شدة الحاجة إليها».

«وجاءت إلى ذهنى فكرة فحواها أن يقوم «الصليب الأحمر الهولندى» بتقديم المعونة

الطبية إلى «الهلال الأحمر المصرى»، وبذلك نتجنب الناحية الرسمية من أن حكومة هولندا تعطى حكومة مصر».

«وتقدمت بمذكرة عاجلة إلى وزير الخارجية محمود رياض، ووافق على ما جاء فيها، فاستدعيت السفير الهولندي وأبلغته بما تم التوصل إليه بشأن المعونات الطبية من بلاده، فأظهر ارتياحه للفكرة وقال: «قد جنبتني أن أقف موقفاً حرجاً أمام حكومتي لأنني صاحب الاقتراح بإرسال المعونة إلى مصر».

«ولم تمض أيام حتى وصلت المعونة الطبية الهولندية إلى مطار القاهرة وتسلمها الهلال الأحمر المصرى. وتحدث إلىّ وزير الصحة ليقول: «كانت مصر فى حاجة ماسة إلى تلك المعونات».

(٣٨)

كذلك ينبغى لنا أن نشير الآن إلى قصة مماثلة يرويها صاحب هذه المذكرات سنتناولها بعد قليل،وهى قصة «العبث» السياسى المماثل فى نهاية عهد الرئيس السادات تجاه العلاقات المصرية ـ السوفيتية، وتصوير بعض أجهزة الأمن للموقف بصورة بعيدة عن الحقيقة، واضطرار قيادات الخارجية المصرية (كمال حسن علىّ وبطرس غالى) للبحث عن حل للخروج من مأزق الحاجة إلى إعادة الخبراء السوفييت لتشغيل المصانع التى تعطلت بعد ترحيلهم فى ذروة التصعيد السياسى لأزمة العلاقات مع الاتحاد السوفيتى، ويعطينا جمال منصور بروايته لهذه القصة درساً فى غاية الأهمية فيما يتعلق بمصالح الدول وكيف تدار هذه المصالح والعلاقات.

❑

لنقرأ ما يرويه جمال منصور عما صادفه (فى نهاية عهد الرئيس السادات) وهو وكيل أول لوزارة الخارجية ومشرف على مكتبى نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية ووزير الدولة للشئون الخارجية، حين صدرت إليه التعليمات باستدعاء السفير السوفيتى وإبلاغه أنه شخص غير مرغوب فيه، ونحن نرى جمال منصور من خلال هذه الرواية الطويلة حريصا على أن يلقى بعبء التصعيد فى تدهور العلاقة مع الاتحاد السوفيتى على نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية فى ذلك الوقت، وفى ذات الوقت فإن جمال منصور يشيد بجهد أقطاب الخارجية المصرية فى معالجة مثل هذه التصرفات غير المسئول ويقول:

«... وقبل سفره فى مهمة عاجلة خارج البلاد، اتصل بى د. بطرس غالى وزير الدولة للشئون الخارجية، وذلك من مطار القاهرة الدولى، وطلب منى استدعاء سفير الاتحاد السوفيتى لإبلاغه قرار الحكومة بأنه أصبح شخصاً غير مرغوب فيه».

«وكانت العلاقات بين البلدين ـ فى تلك الفترة ـ قد وصلت إلى أدنى درجة، وجاءت تصرفاتنا مشوبة بالعصبية الزائدة، وصدرت القرارات العنيفة واحداً بعد الآخر، من قطع العلاقات مع موسكو، إلى طرد الخبراء الروس، إلى اعتبار السفير السوفيتى شخص غير مرغوب فيه».

«وفى زحام هذه القرارات الملتهبة والملحة، كان علىّ أن أكون على جانب كبير من الهدوء، وآخذ الأمور بمزيد من الروية، اقتناعاً منى بفلسفة عشتها على مدى حياتى الدبلوماسية والتى أخذت من عمرى ثلاثين عاماً، تلك الفلسفة التى تقول إنه لا توجد قطيعة كاملة بين الدول ولا وصل أبدى بينها. وكنت أميل دائماً إلى أن أترك الخيط الرفيع يصل بين الطرفين المتنازعين دون أن ينقطع، ولذلك مارست سياسة الباب الموارب. وأشهد أن مَنْ وضع تلك السياسة فى قاموس الدبلوماسية كان على حق وكان بعيد النظر».

«استدعيت السفير السوفيتى فجاء، ومعه وزيره المفوض والمترجم، وهو خالى الذهن عما سوف أقوله له، وربما تصور أن الغرض من هذا الاستدعاء هو للاتفاق على وضع الترتيبات لتسفير الخبراء الروس وعائلاتهم والتوقيتات المناسبة لذلك، وكان هذا اللقاء من أصعب التجارب التى مررت بها على مدى سنين عملى فى الحقل الدبلوماسى، وقد شعرت بحاجتى الماسة إلى كل العبارات الهادئة التى جاءت فى قواميس اللغة، أستجمعها كلها لعلها تخفف من وقع حديثى مع السفير».

«وبدأت بالكلام عن العلاقات بين الدول بصفة عامة، وأن التاريخ وصفحاته يبين أن تلك العلاقات لا تبقى خضراء على قمة الجبال ولا جرداء على قاع الصحراء، لكنها تتأرجح بين القمة والقاع وتحملها الظروف أحياناً مع الغيوم القاتمة والضباب الكثيف فتحجب الرؤية ويتوقف المسير، ثم لا تلبث أن تنقشع الغيوم، بفضل ظروف أخرى، ويخف الضباب وتظهر معالم الطريق ويعود المسير».

«وأخذت أقترب من مرادى على طريق هادئ مع العبارات الهادئة. ثم قلت للسفير: «لعلك تتفق معى فى أن العلاقات بين البلدين قد دفعتها بعض التطورات الأخيرة إلى رمال الصحراء..»، فأجابنى بأنه يرى أن العلاقات بين البلدين تأخذ فى هذه الفترة منعطفاً حاداً، لكنه لا يجد سبباً قوياً لذلك. فقلت له إنه حدثت تصرفات من بعض أجهزة السفارة وإن شئنا

نقول إنها كانت تتسم بطابع الخروج عن التقاليد والأعراف الدولية، مما جعلها تبدو وكأنها عملية تجسس لا ترضاها مصر.. الأمر الذى دعا المسئولين إلى إبعاد الخبراء الروس من المصانع ومراكز الإنتاج المصرية».

«ويؤسفنى ياسيادة السفير أن أبلغك بقرار حكومتى باعتباركم شخصاً غير مرغوب فيه، ولكم أن تختاروا المدة التى تحتاجون إليها لكى تتمكنوا من جمع أوراقكم إيذاناً بالرحيل».

(٣٩)

ويتحدث صاحب المذكرات بعد هذا راويا انطباعات السوفييت تجاه قرارات مصر بقطع العلاقات الدبلوماسية:

«ولعل السفير السوفيتى لم يكن يتوقع أن تقوم مصر بدفع الأمور إلى هذا الحد، لكنه تماسك وقال فى هدوء كامل: «إن ما تدعيه أجهزة الإعلام المصرية فى هذا الشأن لا أساس له من الحقيقة، وسوف تثبت الأيام صحة ما أقول. لكن دعنى أتحدث إليك بصراحة، فأقول ربما كانت هناك أسباب أخرى لدى المسئولين فى مصر لاتخاذ مثل هذه القرارات!! وهذا شأنهم، أما القول بأن السفارة قد عبثت بالتقاليد والأعراف الدولية فهذا لم يحدث وأستطيع أن أقطع فيه بكل تأكيد، ولى كلمة أخيرة أقولها لك قبل أن أرحل عنكم: إن بعض المسئولين، تصوروا أموراً لم تحدث فاتخذوا تلك الخطوة التى أحدثت شرخاً فى العلاقات بين البلدين. لكن الزمن كفيل بإظهار الحقيقة، وأخشى أن تدفع مصر ثمن هذا الخطأ. هذا وسوف أغادر البلاد فى فترة تقل عن أسبوع..».

«ثم اتجهت بنظرى إلى الوزير المفوض، وقلت له إننى لست من المؤمنين بسياسة الأبواب المغلقة، بل أرى ضرورة الإبقاء على الخيط الرفيع دون أن ينقطع، ولك أن تأتى إلىّ فى أى وقت تشاء، وما عليك إلا أن تتصل بمكتبى لتحديد الموعد المناسب حينما ترغب فى ذلك. فشكرنى على ما قلته».

«ثم رافقت السفير ومرافقيه حتى الباب الخارجى، وودعته بكل المجاملة التى تفرضها مثل هذه المواقف».

«وما أن انتهيت من توديع السفير حتى دق جرس التليفون فى مكتبى لأستمع إلى د. فؤاد محيى الدين رئيس الوزراء الذى سألنى عن نتيجة المقابلة بينى وبين السفير السوفيتى فأبلغته بما تم وأن السفير سوف يغادر الأراضى المصرية فى أقل من أسبوع».

«وفى نفس اليوم، وحوالى منتصف الليل اتصل بى مرة ثانية السيد رئيس الوزراء تليفونياً فى منزلى، وطلب كشوفاً بكل أعضاء السفارة السوفيتية بالقاهرة، دبلوماسيين وإداريين. وقال إن عددهم كبير جداً، وإن المعلومات لدينا تشير إلى أن عددهم يصل إلى عدة مئات، فى حين أن سفارتنا فى موسكو ليس بها سوى عشرات من الموظفين من دبلوماسيين وإداريين. فطلبت من رئيس الوزراء مهلة يومين لكى أستجمع كل البيانات الدقيقة».

«وجاءتنى البيانات من السفارة السوفيتية بأسرع مما كنت أتوقع، وقدم لى القائم بالأعمال السوفيتى كشوفاً كاملة بالأعضاء العاملين بالسفارة بالقاهرة، وتتضمن الأسماء و أرقام جوازات السفر وتاريخ الوصول إلى مصر للعمل فى السفارة، ودرجة كل عضو وتوصيف عمله فى البعثة. ثم وصلتنى برقية من سفارتنا فى موسكو تحدد عدد أعضاء السفارة بثمانية أعضاء، أما أعضاء المكاتب الفنية الملحقة بالسفارة، فكان عددهم ستة وعشرون عضوا بين دبلوماسى وإدارى. أى أن مجموعهم أربعة وثلاثون عضوا».

«وتجمعت لدى كل الكشوف من البعثتين واتصلت بالسيد رئيس الوزراء، وأبلغته بأن الكشوف والبيانات جاهزة. فقال لى إنه قد تحدد اجتماع فى مقر رئاسة مجلس الوزراء برئاسته،يحضره وزير الداخلية ومدير المخابرات العامة، والسيد السفير أسامة الباز وكيل أول وزارة الخارجية، وذلك يوم الاثنين لمناقشة هذا الموضوع».

«وذهبت إلى الاجتماع ومعى ملف كامل باسم السيد رئيس الوزراء، وصورة من الملف إلى كل من الحاضرين. ويحتوى الملف على أسماء العاملين فى كل من البعثتين ووظيفة كل منهم. وكانت المفاجأة أن يتضح للمجتمعين أن عدد الأعضاء العاملين فى سفارتنا فى موسكو هو ٣٤ عضواً، فى حين أن عدد أعضاء السفارة السوفيتية فى القاهرة هو ٣٢ عضواً !! أى أن عدد أعضاء سفارتنا فى موسكو يزيد على عدد أعضاء السفارة السوفيتية فى القاهرة».

«ولم يصدق رئيس الوزراء [يقصد نائب رئيس الوزراء الدكتور أحمد فؤاد محيى الدين وقد أصبح رئيسا للوزراء بعد ذلك] هذه الأرقام، ونظر إلى وزير الداخلية وكأنه يقول له: «إن ما وصلنى منكم من معلومات وأرقام تختلف تماماً عن الأرقام الموجودة أمامنا!»».

«وانتهى الأمر إلى تكليف وزير الخارجية بالاتصال بالبعثتين للاتفاق على عدد الأعضاء فى كل منهما، على أن يكون متساوياً ولا يزيد على ستة أفراد دبلوماسيين واثنين من الإداريين. وتم إبلاغ السفارتين بذلك، وانتهت أزمة «الأرقام» فى كلتا السفارتين عند هذا الحد».

ثم يشيد السفير جمال منصور بروح التفهم والحرص على المصلحة التى كانت عند كل من السيد كمال حسن على والدكتور بطرس غالى فى نهاية عهد الرئيس السادات عندما اندفعت السياسة المصرية فى مطاردة السوفيت واخراجهم من مصر .. ويفصل القول فى التطورات التى تلاحقت ولقائه بالسفير السوفيتى .. الخ) ثم يذكر أن رجال الصناعة فى مصر طلبوا إلى وزارة الخارجية إعادة بعض الخبراء الروس ، ولكن رئاسة الوزارة كانت تعارض .

يقول السفير جمال منصور :

«... ولم تمر بضعة أيام على خروج الخبراء الروس من المصانع المصرية، حتى اتصل بى تليفونياً المهندس محمد المهيلمى رئيس هيئة التصنيع فى وزارة الصناعة وقال لى بالحرف الواحد: «نحن واقعون فى عرضك.. إن خروج الخبراء السوفيت من بعض المصانع أدى إلى توقفها بالكامل. سوف أحضر إليكم فى الموعد الذى تحدده، وياحبذا أن يكون غدا نظراً لخطورة الموقف، وسوف أصطحب معى ثلاثة من رؤساء مجالس إدارة مصانع الأسمنت فى مصر لدراسة الموقف معك وماذا يمكن أن نفعله».

«وجاء المهندس المهيلمى إلى مكتبى فى وزارة الخارجية ومعه رؤساء مجالس الإدارة المعنيين، وأذكر من بينهم المهندس جاد الكريم رئيس مجلس إدارة أسمنت طرة. وكان أول المتحدثين إذ قال لى: «ياسيادة السفير إنى أخسر يومياً خمسة وعشرين ألف جنيه مصرى، وهى خسارة جسيمة لا يمكن تعويضها». واستدرك قائلاً: «إن خروج الخبراء الروس من المصنع أثر تأثيراً كبيراً على الإنتاج، بل إن هناك مصنعاً جديدا جاء به الروس ولم يتم تركيبه وتركوه فى منتصف مراحل إعداده للعمل، وحاولنا استدعاء بعض الخبراء الغربيين للقيام باستكمل تركيب المصنع لكنهم فشلوا فى ذلك تماما..».

«ثم تدخل المهندس المهيلمى فى الحديث وقال:

«لقد حضرنا إليك لكى نعرف مدى إمكانية إعادة الخبراء الروس إلى بعض المصانع المصرية، ونحن نستعين بوزارة الخارجية باعتبارها الجهة الوحيدة التى يمكنها عمل الاتصالات اللازمة أملاً فى إيجاد الحل وإعادة هؤلاء الخبراء». وأضاف المهندس المهيلمى: «إن الأمر لا يتعلق بمصانع الأسمنت فقط، بل هناك توقف فى أعمال أخرى مثل الكهرباء والثروة السمكية واستصلاح الأراضى نتيجة لخروج الخبراء الروس».

«وانتهت المقابلة مع المهندس المهيلمى وزملائه ، ووعدتهم ببذل كل المساعى فى سبيل الوصول إلى حل».

وينتهز جمال منصور الفرصة ليعقب ـ ببراعة شديدة ـ ينتقد فيها توجهات بعض كبار رجال الدولة فى تلك الفترة وكأنه لم يكن قد أصبح بمثابة الرجل الدبلوماسى الأول أو الثانى [على أقل تقدير] بين أصحاب المناصب الكبرى فى وزارة الخارجية المصرية!!

«وهنا جال فى خاطرى ثلاثة أمور :

«أولها: ألم يكن هناك مسئول واحد يقف ليقول إنه لا يمكن الاستغناء عن بعض الخبراء فى مجالات معينة بدلاً من التهليل والتصفيق والانصياع للقرار دون إدراك للعواقب وتأثيرها على اقتصاد مصر وتوقف المصانع».

«ثانيا: تذكرت كلام السفير السوفيتى حين قال لى فى آخر لقاء معه: إن مصر قد أخطأت فى اتخاذها تلك الخطوة وأخشى أنه ستدفع ثمن هذا الخطأ».

«ثالثا: أدركت أن سياسة الباب الموارب والإبقاء على الخيط الرفيع فى العلاقات هى التى ستفتح لى الطريق لمعاودة الاتصال بالجانب الروسى»

«... ووجدت نفسى بين اتجاهين متنازعين: اتجاه رجال الصناعة الراغبين فى إعادة بعض الخبراء الروس لدفع الحركة من جديد إلى المصانع وإيقاف نزيف الخسائر ، واتجاه آخر يأتى من رئاسة الوزراء يلح الحاحا قاطعا على استئصال كل أثر للخبراء السوفيت . وبين هذين الاتجاهين كانت الدوافع الوطنية تحدد لى معالم الطريق لكى أسير مع الاتجاه الأول صيانة لاقتصاد مصر وسعيا لوقف الأضرار التى لحقت بإنتاج المصانع منذ أن تركها الخبراء الروس».

(٤١)

ويصل جمال منصور إلى الموضع الذى يروى فيه الجهود الدبلوماسية التى بذلها من أجل السيطرة على هذه الأزمة وكيف ساعده الوزراء المسئولون فى العمل من أجل تحقيق مصلحة مصر:

«وذهبت إلى المكتب المجاور لمكتبى لأقابل د. بطرس غالى وزير الدولة ، وأبلغته بما قاله لى رجال الصناعة وحاجتهم الملحة لإعادة بعض الخبراء السوفيت إلى مصانعهم . وأضفت بأننى سوف استدعى القائم بالأعمال السوفيتى للتحدث معه فى هذا الشأن ، فأجابنى وزير الدولة: « طالما أن هذا الإجراء هو من أجل مصر فإنى أعطيك الضوء الأخضر » .

« ثم ذهبت للقاء السيد الوزير كمال حسن على وأعدت عليه ماقاله لى رجال الصناعة،

وأبلغته بأننى أرى أن أقوم باتصالاتى مع الجانب السوفيتى ، فوافقنى على ذلك وقال لى: « إن إنقاذ تلك المصانع ووقف نزيف الخسائر يسمو على أى انفعالات ». واحتفظنا بسرية الموضوع داخل المكاتب الثلاثة إلى حين أن تتكشف الأمور عن أى جديد».

« واستدعيت القائم بالأعمال السوفيتى ، وجاءنى فى اليوم التالى وقسمات وجهه توحى بأنه يعلم سبب استدعائى له وقلت للقائم بالأعمال: إن بعض المصانع فى حاجة إلى عدد من الخبراء الروس الذين كانوا يعملون بها وخاصة مصانع الأسمنت. واستدركت قائلا: « إنى لا أتوقع أن أسمع منك إجابة الآن ، ولكننى سوف انتظر منك الرد فى خلال أيام ، الرد عما إذا كانت الجهات المسئولة السوفيتية توافق ـ من ناحية المبدأ ـ على إعادة بعض الخبراء فى مجال صناعة الأسمنت وفى حالة الموافقة نستطيع أن نتحدث عن التفاصيل ، وتذكر ماسبق أن قلته لك أمام السفير فى لقائى الأخير معه ، من ضرورة الإبقاء على الخيط الرفيع دون أن ينقطع، ولعل ما طلبته منك الآن يؤكد على هذه الضرورة .. ».

«ومر أسبوع تقريباً واتصل بى المهندس المهيلمى يسألنى عن أى جديد، فقلت له: إننى أتوقع أن يأتينى القائم بالأعمال السوفيتى بين يوم وآخر، وفى نهاية الأسبوع جاءنى القائم بالأعمال السوفيتى ليبلغنى بأن موسكو توافق ـ من ناحية المبدأ ـ على عودة بعض الخبراء فى أقل عدد ممكن. وتريد استيضاح بعض النقاط التى تتعلق بالمدة المطلوبة لبقاء الخبير فى المصانع المصرية، والمرتب الذى يعطى للخبير وفقاً لمستواه ودرجة خبرته، ومخاطبة سفارتنا فى موسكو لمنح التأشيرة لدخول الخبير إلى مصر فى حالة الموافقة على كل النقاط».

«واتصلت تليفونيا بالمهندس المهيلمى وأخبرته بما جاء به القائم بالأعمال السوفيتى، فسعد كثيراً بما سمع، إذ أنه لم يكن يتوقع أن تستجيب «موسكو» لطلبنا نظراً لجفاء المعاملة التى ظهرت من جانبنا إبان الأزمة. وأجابنى المهيلمى بأنه سوف يحضر فى اليوم التالى ومعه كافة البيانات باحتياجات المصانع المعطلة وعدد الخبراء المطلوبين، فى أقل الحدود، ومرتبات الخبراء القادمين كل حسب درجة خبرته. وجاءنى المهندس المهيلمى ومعه البيانات، وبدأنا فى مناقشة أجور ومرتبات الخبراء، واقترح أن تزيد أجورهم بنسبة ٣٠٪ عما كانوا يتقاضونه قبل الرحيل».

«وكان القائم بالأعمال السوفيتى يستمع إلى رأينا ثم يعود إلى سفارته للإبراق إلى موسكو بكل الخطوات. وبعد عدة لقاءات، تم الاتفاق على زيادة الأجور بنسبة تتراوح بين ٤٠٪ و٥٠٪ وفقاً لدرجة الخبرة».

«ويقول المهندس المهيلمى إن الخبير السوفيتى فى أى مصنع، يقوم بعمله على خير وجه

ولا يسبب أى مشاكل، كما أن طلباته محدودة للغاية، وإن رفع أجره بالنسبة الجديدة يظل أقل بكثير من نظيره الخبير الغربى الذى يعمل فى المصانع ذات الخبرة الغربية».

«واستمرت هذه اللقاءات على مدى شهر إلى أن تم الاتفاق على كل النقاط، وتم تحديد أسماء الخبراء كل فى اختصاصه، وأبرقنا إلى سفارتنا فى موسكو لمنحهم تأشيرات الدخول إلى مصر، وما أن وصل العدد الأول من الخبراء الروس إلى مصانع الأسمنت حتى جاء رؤساء مجالس إدارتها لتقديم الشكر إلى وزارة الخارجية».

«ثم بدأت اتصالات أخرى معى من جانب المسئولين فى بعض القطاعات مثل الثروة السمكية واستصلاح الأراضى وغيرها، وطلبوا بعض الخبراء فى تلك القطاعات، وكان طريقى مفتوحاً مع القائم بالأعمال السوفيتى الذى استجاب ـ بموافقة موسكو ـ على إيفاد العدد المحدود من الخبراء الروس».

«وقابلت السيد كمال حسن على والدكتور بطرس غالى وأبلغتهما بما تم. وهكذا عادت الحركة إلى المصانع المعطلة، ووقف نزيف الخسائر».

(٤٢)

ونأتى بعد هذا إلى انطباعات وذكريات صاحب المذكرات عن العلاقات العربية ـ العربية. ولابد أن نذكر للقارئ أنه عمل سفيراً لمصر فى سوريا وأن فترة عمله سفيراً فى سوريا قد شهدت آخر زيارة قام بها السادات إلى سوريا، وهى الزيارة التى سبقت زيارته لإسرائيل مباشرة.

وفى الصفحات التى يخصصها المؤلف لرواية ذكرياته عن هذه الأحداث يطلعنا جمال منصور على كثير من الطرائف والملابسات الشائكة التى واكبت هذه الزيارة، وهو يتحدث عن غياب نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية إسماعيل فهمى عن مرافقة الرئيس فى هذه الرحلة بهذه «الصورة» التى تستحق الإشارة إلى تفصيلاتها حيث يقول:

«فى ١٧ نوفمبر ١٩٧٧، تم آخر لقاء بين الرئيسين السادات والأسد، فقد جاء السادات فى زيارة إلى دمشق لمدة ٢٤ ساعة التقى خلالها مع الرئيس الأسد ليشرح وجهة نظره وتصوراته عن مرحلة السلام مع إسرائيل. وانتهت الزيارة دون الوصول إلى أى اتفاق، وافترق الرجلان وذهب كل منهما فى طريق».

«وفى ذلك اليوم هبطت طائرة الرئيس السادات فى مطار دمشق، وصعدت للقائه داخل

الطائرة، وكان فى استقباله الرئيس حافظ الأسد والسيد وزير الخارجية عبدالحليم خدام، وكافة الوزراء السوريين، وبعد إنتهاء مراسم الاستقبال الرسمى فى المطار تقدم إلىّ مدير المراسم برئاسة الجمهورية السورية وطلب منى أن أركب فى العربة رقم (٢) خلف عربة الرئيس مباشرة، والتى تقل الرئيسين المصرى والسورى».

«ثم علق مدير المراسم قائلاً: ستركب سيادتك العربة رقم (٢) لأنه على ما يبدو أن السيد إسماعيل فهمى نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية لم يحضر إلى دمشق مع الرئيس السادات، ولقد كانت العربة رقم (٢) مخصصة له، فأرجو أن تحل محله فى هذه العربة. وكان يقف معنا السفير حسن أحمد كامل رئيس ديوان رئيس الجمهورية، وسألته عما حدث، فانتحى بى جانباً وأفادنى بأن السيد إسماعيل فهمى لم يعلن عن اعتذاره عن عدم الحضور فى صحبة الرئيس السادات إلا صباح هذا اليوم، وأفاد بأنه مريض لا يستطيع السفر فقام السيد حسن كامل بإبلاغ الرئيس السادات باعتذار السيد إسماعيل فهمى فرد الرئيس: «أحسن إنه ما جاش، عمل طيب..».

هل يريد جمال منصور بهذه الرواية أن يشير إلى أن إسماعيل فهمى لم يعتذر عن مصاحبة الرئيس اعتذارا صريحا مع أن الشائع والمعروف هو أن إسماعيل فهمى لم يعتذر فحسب، بل واستقال من منصبه!! على كل حال فهذا نموذج من نماذج حرص أصحاب المذكرات على التقليل من قيمة أفعال رؤسائهم أو زملائهم إذا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا!!

(٤٣)

ويبدو صاحب هذه المذكرات كما لو أنه كان يتبنى وجهة نظر وموقف الرئيس السادات من المبادرة وضرورتها، وهو يحدثنا عن لقائه السريع بالرئيس السادات فى ذلك اليوم قبل توجهه إلى المؤتمر الصحفى، وهو حديث يحمل كثيراً من الآراء المهمة ننقلها ونثبتها على مسئولية صاحب المذكرات نفسه :

«... وفى السادسة مساء نزل الرئيس السادات من غرفته وصافحنى وطلب منى أن أبقى فى قصر الضيافة إلى حين انتهاء الاجتماع بين الرئيسين. وكانت عربة الرئاسة السورية فى انتظار الرئيس السادات التى أقلته بمفرده إلى منزل الرئيس الأسد لبدء المحادثات على انفراد دون حضور أى مسئول مصرى أو سورى. وكانت رئاسة الجمهورية قد وجهت دعوة إلى كافة السفراء العرب وذلك على العشاء تكريما للرئيس السادات، لكن صدرت التعليمات فى آخر لحظة بإلغاء هذا الحفل».

«وانتظرت مع باقى الوفد فى صالون الاستقبال فى قصر الضيافة، ومرت الساعات ساعة بعد أخرى ونحن ننتظر عودة الرئيس السادات، وبدأ القلق يساورنى فأدركت أن المحادثات قد صادفت صعوبات، الأمر الذى جعل الرئيسين يقطعان كل هذه الساعات فى حوار متصل».

«وفى الواحدة من صباح اليوم التالى سمعنا آلات التنبيه لموكب السيد الرئيس وهو قادم إلى قصر الضيافة، فقام الجميع لتحيته عند قدومه. ولعلنى أقول هنا إن الرئيس السادات كان قد ذهب للقاء الرئيس الأسد فى السادسة مساء وهو فى أبهى هيئة، ثم عاد فى الواحدة من صباح اليوم التالى وكأنه خارج من حلبة للملاكمة».

«وأحس الجميع بأن شيئاً خطيراً قد حدث فى لقاء الرئيسين. وتقدمت لمصافحة الرئيس السادات ورافقته إلى الدور العلوى حيث يقيم، ثم سألته عن أى توجيهات، فقال لى إن مؤتمرا صحفياً عالمياً سوف يعقد فى قصر الضيافة فى العاشرة صباحاً وسوف يحضره هو والرئيس الأسد».

«وعدت إلى دار السكن لأستريح بعض الساعات قبل انعقاد المؤتمر الصحفى العالمى. وفى التاسعة صباحاً عدت من مكتبى إلى قصر الضيافة، ووجدت حشداً هائلاً من الصحفيين العرب والأجانب. وكان هناك بعض الوزراء السوريين، ومن بينهم المرحوم أحمد إسكندر وزير الإعلام السورى الذى تقدم إلىّ ليبلغنى بأن الرئيس الأسد لن يحضر المؤتمر الصحفى لكنه سوف يصطحب الرئيس السادات بعد انتهاء المؤتمر ويودعه فى المطار قبل سفره إلى القاهرة».

« وصعدت إلى الدور العلوى وكان الرئيس السادات قد قارب على الانتهاء من ارتداء ملابسه، وتقابلنا فى الصالة المجاورة لغرفته وصافحنى، وسأل عن المؤتمر الصحفى فأبلغته بأن عدداً كبيراً من الصحفيين العرب والأجانب موجودون حالياً فى الدور الأول، ولكن السيد أحمد إسكندر وزير الإعلام أبلغنى بأن «الرئيس الأسد» لن يحضر المؤتمر».

«وظهرت علامات عدم الارتياح على وجه الرئيس السادات، وقال إنه رغم أن الأسد قد اتفق معه على حضور المؤتمر الصحفى إلا أنه كان لديه انطباع بأنه لن يحضر هذا المؤتمر، ودار الحديث بين السادات وبينى، وسألنى عن الأوضاع الداخلية فى سوريا، وعن ردود الفعل المحتملة بشأن زيارته المقبلة لإسرائيل، فشرحت له سياسة حزب البعث، وأضفت أننا لابد أن نتوقع حملة إعلامية وانتقادات عنيفة من بعض الدول العربية لأن مثل هذه الخطوة لن يتقبلها بسهولة بعض القادة العرب الذين عاصروا قضية فلسطين وعاشوا فيها. فأجابنى: «أنا رميت طوبة العرب، ونفضت إيدى منهم، ولهم أن يفعلوا ما يشاءون».

«وأضاف قائلاً:

«لقد عشنا سنين طويلة نحاول أن نجد حلاً للمشكلة الفلسطينية، ومرت السنون دون أن ننجز شيئاً لا لصالح الفلسطينيين ولا لصالح قضية الشرق الأوسط.. ولقد فكرت فى بادئ الأمر أن أدعو إلى لقاء قمة بين الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن، أى بين الزعماء الخمسة الكبار.. أدعوهم للمناقشة الواضحة والأمينة، وأطالبهم بوضع نهاية لمآسى الفلسطينيين وإيجاد حل عادل لقضية الشرق الأوسط، وكان هناك رأى آخر بالدعوة إلى مؤتمر دولى للسلام فى المنطقة، ولكنى لم أوافق على ذلك لأن مثل هذه المؤتمرات لن تؤدى إلى أى نتيجة وربما عاشت القضية عشرات السنين دون حل، شأنها فى ذلك شأن مؤتمر نزع السلاح والمفاوضات الجارية بشأنه والتى بدأت منذ عشرين عاماً ولم تجد طريقها الصحيح حتى الآن..».

« إننى سوف أذهب إلى آخر الدنيا فى سبيل السلام، وفى سبيل إيجاد حل عادل للقضية الفلسطينية، وإنهاء الحرب فى المنطقة والتوجه بقدرات الشعب المصرى فى سبيل التنمية الاقتصادية ورفع مستوى المعيشة لهذا الشعب الذى قاسى كثيراً وتحمل كثيراً ودخل حروباً طاحنة دمرت اقتصادياته وأتت على أخضره ويابسه. كفانا حروباً أفقرتنا.. كفانا نزاعاً على الحلول من أجل القضية الفلسطينية. إن من حق بلادنا أن تعيش فى سلام من أجل التنمية والتقدم الاقتصادى».

على هذا النحو لخص جمال منصور فى عبارات رفيعة المستوى وجهة نظر الرئيس السادات ربما بأحسن من عرض الرئيس السادات نفسه لها فى ذلك الوقت.

(٤٤)

وفى هذه المذكرات فقرة مهمة جداً لتاريخ العلاقات العربية ـ العربية حرص السفير جمال منصور على أن ينقل لنا بإثباته لها فى هذه المذكرات حقيقة مشاعر الوزراء السوريين تجاه سياسات قائد الثورة الليبية الرئيس القذافى وتأتى هذه الفقرة ضمن حديثه عن زيارة الرئيس السادات لسوريا:

«... ثم نزل الرئيس السادات إلى الدور الأول فى قصر الضيافة، وكان فى انتظاره بعض الوزراء السوريين وفى مقدمتهم وزير الإعلام د. أحمد إسكندر ود. الفحام وزير التربية،

ووزراء الاقتصاد والصحة وغيرهم، وصافحهم الرئيس السادات. وبدأوا فى الحديث عن مشاكل العالم العربى».

«واستفسر بعض الوزراء من السوريين عن علاقات مصر بليبيا، وتساءلوا عن عدم مواصلة القوات المصرية تقدمها فى الأراضى الليبية لاحتلالها، وأضافوا أنه كان من الأفضل للعالم العربى كله أن تحتل القوات المصرية الأراضى الليبية لوضع حد للشغب الذى يحدثه «القذافى» فى هذا الجزء من العالم، ولكى تصبح مصر أكثر قوة فى المجال الاقتصادى بفضل الثروة البترولية الضخمة التى تمتلكها ليبيا».

□

وهنا يحرص جمال منصور على أن يثبت رأى الرئيس السادات الذى لم يشأ أن يترك الملاحظة العابرة لحال سبيلها وحرص على أن يوضح حقيقة الموقف المصرى:

«فأجاب السادات: «إن الغرض من التدخل العسكرى المصرى فى ليبيا كان لإعطاء القذافى درساً لا ينساه، وليعلم أننا قمنا بهذا العمل العسكرى بعدما استنفدنا كل السبل السلمية معه وبعد أن نفد صبرنا، وإن مصر ليست دولة غازية، لا تريد أن تضرب ابناً عربياً، ولكنها اضطرت إلى ذلك للإصلاح والتهذيب ولكى يعلم «القذافى» أن مصر شوكتها قاسية ومؤلمة، ولكن الوزراء السوريين عبروا مرة ثانية عن أملهم فى أن تضع مصر يدها على ليبيا، وسوف تجد كل التأييد من داخل ليبيا ومن العالم العربى بأكمله وسوريا فى المقدمة».

(٤٥)

ولا يخلو هذا الكتاب من ذكريات لطيفة تتعلق بوجوه المجتمع العالمى الذين قدر لصاحب المذكرات أن يلقاهم خلال عمله الدبلوماسى، ولعل أبرز حدث فى هذا الجانب هو حضوره زواج أمير موناكو من الممثلة العالمية جريس كيلى حين كان يعمل كقنصل لمصر فى مارسيليا:

«... وجهت إلينا الدعوة لحضور حفل زواج الأمير رينيه أمير موناكو من ممثلة السينما المعروفة جريس كيلى. وجاءتنى الدعوة باعتبارى معتمداً لدى إمارة موناكو بجانب عملى قنصلاً عاماً فى مارسيليا، ودخلنا إلى كاتدرائية «موناكو» لحضور مراسم الزواج. وكان المكان مليئاً بالمدعوين وشاهدت لأول مرة نجوم السينما المعروفين مثل أفا جاردنر وجريجورى بيك

وجيمس ستيوارت ورجل الأعمال «هيلتون»، وقد جاءوا جميعاً لمشاركة زميلتهم جريس كيلى فى هذه المناسبة السعيدة».

«وما أن انتهت مراسم الزواج فى الكاتدرائية حتى دعانا كبير الياوران للتوجه إلى حديقة القصر الواسعة التى مدت فيها الموائد بما عليها من أطعمة أوروبية مختلفة. ودخلنا إلى حديقة الأمير، ورأيت بعض الشخصيات المعروفة وكان بينهم «الأغاخان» وبعض الملوك السابقين الذين تركوا بلادهم بعد الحرب العالمية الثانية ودخول النظم الجديدة فى شرق أوروبا. والتقت عينى بالسيد محمود أبو الفتح فقمت بتحيته، وسألنى عن صفتى فعرفته بنفسى، وتبادلنا الحديث عن كل ما هو حولنا ما عدا السياسة».

«وكنت أتجول مع زوجتى فى حديقة القصر،وإذا بى أجد نفسى على بضع خطوات من الملك السابق فاروق. فتوقف الملك لحظة ولعل ماشد انتباهه هو الملامح المصرية الصميمة الواضحة على وجه زوجتى، ولم يتكلم أى منا وانصرف كل منا فى طريقه».

«وشاهدت الملك يتجه نحو محمود أبو الفتح ويتحدث معه وهو يشير إلينا بإيماءة جانبية. ويبدو أن أبو الفتح أفاده بأننى القنصل المصرى، ورأيت الملك وهو يتجه نحونا بغضب ولكن يتوقف فجأة ويعود أدراجه لينضم إلى باقى مجموعة الملوك السابقين».

«ولست أدرى ماذا كان ينوى أن يفعله حينما اتجه إلينا وهو مقطب الوجه».

«ويبدو أن وجودى فى تلك المناسبة ممثلاً للنظام الجديد الذى أقصى فاروق عن عرشه، قد حرك مشاعر الملك، وأعاد إلى نفسه ذكريات لم تكن سعيدة».

(٤٦)

ومن التجارب الإنسانية الثرية التى تعرض لها صاحب هذه المذكرات ما يحكيه عن إحدى السيدات التى تعرفت إليها أسرته فى فرنسا وقدرتها على التنبؤ، وهو يعرض القصة تحت عنوان «قارئة المنديل» :

«مارسيليا: ٢٢ فبراير ١٩٥٥

«بعد ساعات من ممارسة رياضة المشى فى إحدى الحدائق العامة، جلست وزوجتى على إحدى الأرائك المنتشرة فى الحديقة، وأقدم علينا طفل وطفلة، وأخذت زوجتى تداعبهما فى لطف، وانتهى الأمر إلى أن تعرفنا على والدى الطفلين. لم يكن الوالد غريبا عن مصر، إذ عمل فى شركة قنال السويس سنوات طويلة، ثم ترك العمل هناك وتفرغ للتجارة الدولية بين

فرنسا وساحل أفريقيا الشمالى. ونشأت علاقة صداقة بيننا ودعيانا إلى منزلهما الريفى، ثم وجهنا إليهما الدعوة مع الطفلين فى دار السكن بالقنصلية».

«وبدأ الرجل يتحدث عن تجارته التى تعرضت فى فترة ما إلى خسائر كبيرة، ثم تحدث عن زوجته وقدرتها على قراءة الماضى والمستقبل، وذلك بأن تأخذ منديلاً من صاحب الشأن وتفركه بين يديها وتغمض عينيها وتلخص ما تراه عن الماضى والمستقبل. ويدلل الرجل على قدرة زوجته فى هذا المجال فيقول: كنت أنتظر بضاعة سبق أن تعاقدت عليها من المغرب لتصل بالباخرة إلى مارسيليا، وقبل وصول الباخرة بليلة واحدة، كنا موجودين بالمنزل وسألت زوجتى مداعباً «ياترى أخبار البضاعة إيه؟». فأمسكت الزوجة بمنديل زوجها، وأغمضت عينيها وقالت: «إنى أعتقد أن البضاعة لن تصل..». فاندهش الزوج وقال لزوجته: «يبدو أنك متعبة الليلة، وغير قادرة على الرؤية السليمة». فقالت الزوجة: «إنى أرى البضاعة وهى تحترق على ظهر الباخرة..». فلم يلتفت الزوج إلى حديث زوجته، وذهب إلى فراشه لينام. ويقول الزوج: وفى السادسة من صباح اليوم التالى وصلتنى برقية من وكيل شركة الشحن تفيد بأن السفينة الشاحنة للبضاعة قد احترقت فى عرض البحر.. ويعلق الرجل بأنه أصيب بخسائر كبيرة كادت تقضى على تجارته».

«وهنا تحمست زوجتى (أى زوجة صاحب المذكرات) وأعطت السيدة الفرنسية منديلاً من عندها فأخذته بين يديها وأغمضت عينيها، وقالت: «أرى أن أول مولود لك سيكون أنثى، وأنها ستمرض وتكون بين الحياة والموت لكنها ستشفى بعد فترة». ثم قالت لزوجتى: «إنك ستفقدين شخصاً عزيزاً عليك إثر حادث»، ثم أنهت قراءتها للمنديل وقالت: «ولكن المستقبل أمامك يبشر بكل نجاح مع زوجك».

«ومن الغريب أن تصدق السيدة الفرنسية فى كل ما قالت، فقد كان أول مولود لنا أنثى مرضت وكانت بين الحياة و الموت لكنها شفيت بعد فترة، وفقدت زوجتى شقيقها الطيار الذى استشهد فى حرب ١٩٥٦».

«ثم طلبت السيدة الفرنسية منديلاً منى وأغمضت عينيها وقالت: «إنى أراك فى الماضى وكأنك مرتدياً بذلة وعلى كتفيك ما يشبه الشبكة النحاس، وأراك وقد كنت فى لقاء مع شخصية كبيرة جداً قبل مجيئك إلى هنا، وأرى فى مستقبلك أنك ستأتى مرة ثانية إلى هنا فى فرنسا، ولكن فى منصب أعلى، وأنه لن يكون لك ولد وأن ذريتك كلها بنات».

«وصدقت قارئة المنديل فيما قالت، فقد كنت قبل التحاقى بالعمل الدبلوماسى ضابطاً بالفرسان يضع الزرد (الشبكة) على كتفيه، وقد قابلت الشخصية الكبيرة جداً وهو جمال عبدالناصر قبل سفرى إلى مارسيليا، وعدت إلى فرنسا مرة ثانية بعد سبع سنين لأتسلم

منصب أول قائم بالأعمال فى باريس بعد عودة العلاقات بين البلدين ولم يمنحنى الله ولدا وكانت نعمته على بابنتين».

(٤٧)

ومن الطريف أن هذه السيدة كانت مع هذه القدرة الميتافيزيقية صاحبة شخصية فرنسية قادرة على تقويم الزوج وإصلاح أخطائه والاعتذار عنها على نحو ما نقرأ فى هذه القصة:

«... وقد توطدت العلاقات بيننا وبين تلك العائلة الفرنسية، وكنا نتزاور إلى أن جاءت أحداث ١٩٥٦ وأعلن الرئيس جمال عبدالناصر تأميم شركة قناة السويس، وكنا قد تواعدنا مع العائلة الفرنسية على اللقاء معاً على الشاى فى دار السكن بالقنصلية، وما أن جلس الرجل على مقعده حتى بدأ يتحدث بلهجة حادة مستنكراً ما قامت به مصر، والخطأ الكبير الذى أقدمت عليه بتأميمها للقنال، ثم وجه كلامه لى قائلاً: «إن أفضال فرنسا على العالم وعلى المنطقة لا تعد ولا تحصى، وإن الوجود الفرنسى فى مصر حينما ذهب إليها نابليون، كان خيراً وبركة لكم. إننا أصحاب الفضل فى تعليمكم ونقل ثقافتنا إليكم، إننا صنعناكم وعلمناكم وثقفناكم وخلقنا منكم طبقة المتعلمين والمثقفين، وجعلنا منكم سفراء وقناصل».

«وقد أصابنى نوع من الذهول أن أسمع مثل هذا ا لكلام من رجل مثقف وموجود فى رحابى، ولم أتمالك نفسى وهممت بالرد عليه.. لكن قامت عنى زوجته بهذه المهمة وهى تصرخ فى وجهه لكى تثنيه وتمنعه عن الكلام، وقالت له: كيف تجرؤ على أن تتحدث بهذه اللهجة الجارحة إلى هذه العائلة الكريمة ونحن فى ضيافتها، إنك لابد أن تكون قد فقدت وعيك وعقلك، إنك أخطأت خطأ جسيماً، إننى لن أسامحك، لن أصفح عنك، لن أصفح عنك».

«وجذبت الزوجة الفرنسية زوجها من يده ودفعته أمامها إلى باب الخروج. وفى اليوم التالى جاءت الزوجة دون موعد مسبق، حزينة باكية تتأسف عما حدث من زوجها وتقول: إنها لا تجد أى مبرر لذلك، ورجت فى إلحاح أن نقبل عذرها وأن نصفح».

«ومضت الأيام بسرعة وانقطعت العلاقات بين مصر وفرنسا بسبب الاعتداء الثلاثى. وفى يوم رحيلنا من مارسيليا، جاءنا الأصدقاء وكان فى مقدمتهم الزوجة الفرنسية وزوجها، وطلب الزوج أن نقبل اعتذاره وأسفه عما بدر منه».

ولا أستطيع بعد كـل هذا الحديث فى السياسة والدبلوماسيـة أن أحرم القارئ من أن أنقل إليه هذه التجربة الإنسانية الأخرى التى أوردها جمال منصور فى هـذه المذكرات، والتى ترينا كيف يمكـن لسيدة ـ فى هذه الحالة مـصرية وليست فرنسية ـ أن تقود خطوات نفسـها إلى ما تريد من مستقبل، بهدوء أعصاب وقوة إرادة:

«... أرسل لى أحد الزملاء السـفراء رسالة ومعها خطاب مرفق، راجيـاً أن أسلم الخطاب باليد إلى سـيدة مصرية كانت تقيـم فى تلك الفترة فى بـاريس، وأعطانى رقم تليفـون إقامتها هناك. فطلبـت من السكرتيرة طلب رقم التليـفون، رد عليها صوت خشن يشـبه كثيراً صوت الرجال، وجاءتنى السـكرتيرة لتقول إنها حاولت عدة مرات وفى كل مرة يرد عليها رجل وفى آخر مرة سبها. فقلت لها سأحاول أنا هذه المرة».

«وأدرت رقم التليفون فرد علىّ الصوت الخشن، فقلت له: ياسيدى هل أستطيع أن أتحدث مع.. ولـم يعطـنى الـفرصة لـلاسترسـال فى الحديـث، وقال الصـوت: «إنتـى سيدة ولـست سيدا!!»، فقلت: آسف جدا على هذا الخطأ، وسألتـها: هل السيدة فلانة تسكن طرفكم، وهل أستطيع أن أتحدث معها؟ فقال الصوت: نعم إنها تـسكن هنا لكنها غير موجودة الآن. فتركت رقم تليفون السفارة راجياً أن تتصل بى عند عودتها».

«وفى اليوم التـالى تحدثت السيدة المصريـة، وبدأت كلامها بأن تأسفت لمـا حدث فى اليوم السابق. وقالت: «إن هذا الصوت هو صوت خالتى، وإنى أوافقك على أنه أوحش من صوت الرجال، وقد سبب لى كثـيراً من الإزعاج كلما تحدثت إلى أى من صديقاتـى»، واتفقت معها على أن تأتى إلى السفارة لتسلم ا لخطاب المرسل إليها من القاهرة».

«وجاءت السيـدة المصرية فرحبت بـها وسلمتها الخطـاب وجاء الساعى وقدم لهـا فنجان قهوة، ثم انشغلت عنها دقائق محدودة للنظر فى بعض الأوراق العاجلة الموجودة على مكتبى، إلى أن تنتهـى من شرب القهوة، وفجأة وبدون مـقدمات وجهت السيدة كلامـها لى وقالت: «تعرف إن دمك تقيل ويلطش..»، فرفعـت رأسى عن الأوراق التى كانت أمامى، ولم أتصور أن هذه السيدة التى أراها لأول مرة توجه إلىّ هذه العبارة داخل مكتبى بالسفارة».

«ثم قالت بسرعة: «أنت حتشوفنى مرة واحدة وأنا قاعدة قدامك دلوقت، أما الأوراق التى على مكتبك يمكن تشوفها فى أى وقت ثانـى»، ولم أتمالك نفسى من الضحك، ولم تترك لى

فرصة التعليق على كلامها وقالت: «أنا معرفكش ولكنى أعرف مراتك». وتحدثت تليفونياً من مكتبى مع زوجتى التى دعتها إلى العشاء فى نفس الليلة بمناسبة وجود وفد رسمى مصرى».

«وسمعتها تقول لزوجتى: «أنا مش واخدة على عشوات السفارات، ومكنتش عاملة حسابى إن حد فى السفارة هيعزمنى ومعنديش فستان مناسب، جهزى لى فستان من عندك أحضر به العشاء». وذهبت السيدة إلى الجانب الآخر من الطريق حيث دار السكن وأخذت الفستان من زوجتى، وحضرت معنا العشاء الرسمى فى السفارة فى نفس الليلة».

«ولم يمر وقت طويل حتى صارت هذه السيدة زوجة مرموقة لأحد كبار سفرائنا فى الخارج».

(٤٩)

كذلك فإنى لا أستطيع أن أهمل فى هذه المدارسة الحديث عما يرويه صاحب هذه المذكرات عن عمل المرأة المصرية فى المجال الدبلوماسى فى وقت مبكر، والقصة التى يقدمها لنا جمال منصور فى هذا الكتاب ترينا كيف كانت المرأة المصرية عند حسن الظن بها قادرة على أداء وظيفتها بنجاح تام حيث يقول:

«أعيدت العلاقات بين مصر وفرنسا فى ٤ أبريل ١٩٦٣، بعد قطيعة دامت سبع سنوات منذ عام ١٩٥٦ بسبب العدوان الثلاثى على مصر. وأعدت وزارة الخارجية كشفاً بأسماء بعض الزملاء لاختيار أحدهم قائماً بالأعمال فى باريس، وكنت من بين المرشحين، وقد وقع الاختيار علىّ وصدر القرار الجمهورى بتعيينى أول قائم بأعمال لسفارة مصر فى باريس بعد عودة العلاقات».

«وفى لقاء مع السفير حافظ إسماعيل وكيل وزارة الخارجية فى ذلك الوقت، تحدثنا عن التشكيل الجديد للسفارة المصرية فى باريس والأعضاء الذين تم اختيارهم للعمل هناك، وكانت من بينهم الملحق الدبلوماسى «هدى المراسى»، وكانت أول تجربة للخارجية المصرية فى إرسال إحدى الدبلوماسيات المصريات للعمل بالخارج».

«واقترحت على السفير حافظ إسماعيل أن يتم تعيين آنسة أخرى هى إلهام فهيم لتعمل معنا فى السفارة، ولإتاحة الفرصة للآنستين للمعيشة معاً وتدبير أمورهما وتهيئة حياتهما سوياً

فى جو الأمان والهدوء، وهما فى بداية عهدهما بالعمل فى الخارج. ولقد اقتنع السفير حافظ إسماعيل وتم سفر الآنستين إلى باريس واختارا سكناً مناسباً لهما قريباً من السفارة».

«وما أن ظهرت صورة هدى المراسى على اتساع الصفحة الأولى فى جريدة «فرانس سوار» وتحتها تعليق الصحيفة «ابتسامة هذه الآنسة تساوى إعادة العلاقات بين مصر وفرنسا»، حتى انهالت المكالمات التليفونية على السفارة تسأل عن الآنسة الملحقة الجديدة صاحبة الوجه الباسم».

«ووصلت إلى «هدى» كثير من الدعوات الاجتماعية من الفرنسيين، ومن أعضاء السلك الدبلوماسى الأجنبى الأوروبى واللاتينى فى باريس».

«وجاءتنى «هدى» تسألنى ماذا تفعل مع هذا السيل من الدعوات الاجتماعية، فقلت لها: هذا أمر طبيعى، ويجب أن تنتظرى دعوات مثيلة على مدى حياتك الدبلوماسية، ولك أن تختارى بعضها وتمتذرى عن الأخرى وفقاً لارتباطاتك ولابد من الاندماج فى العمل الدبلوماسى بكافة نواحيه والذى يتمثل بعض منه فى تلك المناسبات الاجتماعية، والتى عن طريقها يمكن التعرف على المسئولين وأعضاء السلك الأجنبى وتكوين نوع من الصداقات الهادفة والتى تفيدك فى عملك الدبلوماسى».

«ومرت بضعة أيام على ظهور صورة «هدى» فى جريدة «فرانس سوار» وجاءنى خطابان، أحدهما من مستشار سفارة تشيلى فى باريس، والآخر من سكرتير أول سفارة الأرجنتين، وعبر كل منهما فى خطابه عن رغبته فى الاقتران بالآنسة هدى، وسألا عن كيفية تحقيق هذا الأمل».

«وأنهيت الموضوع منذ بدايته، فأرسلت خطاباً لكل منهما أوضحت فيه أن الشريعة الإسلامية لا تسمح بذلك، فضلاً عن أن هناك قواعد تحكم أسس العمل لأعضاء السلك الدبلوماسى المصرى، ومنها عدم السماح بالزواج من أجنبى أو أجنبية، وإلا فقد العضو وظيفته الدبلوماسية».

❑

ولا يقف تقدير جمال منصور لهدى المراسى - عليها رحمة الله - عند أى حد، حتى إننا نراه حفياً بأن يشيد بشهامتها وإخلاصها فى العمل:

«ووصلتنى برقية من الخارجية المصرية بتكليف السفارة بمهمة تتسم بطابع الحذر والجدية.

واستدعيت إلى مكتبى أحد أعضاء السفارة وشرحت له المهمة، وحددت له ساعة وتاريخ اللقاء مع الطرف الآخر فى محطة باريس، وكان الموعد فى ساعة متأخرة. وجاء اليوم المحدد، وغاب الزميل الفاضل عن السفارة من أول النهار ولم يخطر أحداً. وعبثاً حاولنا الاتصال به فى منزله، وكانت ترد علينا «المربية». كان الزميل الفاضل يصطحب معه مربيته السودانية التى اهتمت به منذ الصغر، علماً بأنه كان قد تجاوز الخمسين من عمره. كانت المربية ترد علينا بأنه غير موجود ولا تعرف له مكاناً. لقد اختفى الزميل حتى يتجنب الذهاب إلى المكان المحدد خوفاً من أى عواقب غير متوقعة قد تحدث له».

«وكان لابد من تنفيذ المهمة. ودخلت هدى المراسى إلى مكتبى وقالت: سأقوم أنا بهذه المهمة مهما كانت النتائج، وأصرت على ذلك. فأكبرت لها موقفها وثباتها. وذهبت هدى إلى محطة باريس، وقابلت الطرف الآخر وتسلمت منه الرسالة، وأتمت مهمتها على خير وجه وعادت تحمل إلىّ نتيجة اللقاء».

«هكذا كان موقف هدى المراسى، وهكذا تصرفت بشهامة تفوق شهامة الرجال، وبكل الضيق والحزن والأسى نظرت إلى الرجل أو ما يشبه الرجل، عندما عاد إلى السفارة فى اليوم التالى ليبرر غيابه لأسباب واهية وأعذار بعيدة عن أى حقيقة، إذ اتضح فيما بعد أنه كان بمنزله بكامل عافيته، لكنه آثر الاختفاء حتى ينتهى اليوم المحدد لتنفيذ المهمة التى سبق أن طلبتها منه. وحزنت فى نفسى وندمت أن يكون بين أبناء الخارجية مثل هذا الرجل، الحاصل على درجة الدكتوراه من باريس».

مذكرات الضباط الأحرار

نحو حكم الفرد

5

كنت نائبا لرئيس المخابرات

مذكرات:

محمد عبدالفتاح أبوالفضل

دار الخيّال

(١)

لم يكن اسم محمد عبدالفتاح أبو الفضل من الأسماء المعروفة للجمهور المصرى قبل نشره لهذه المذكرات، هل نقول على الرغم من أنه كان نائباً لرئيس المخابرات؟ أم إن الأولى أن نقول: لأنه كان نائباً لرئيس المخابرات.

ربما يتمتع السببان بالقبول لدى القارئ الذى قرأ مذكرات أبو الفضل فى وقت كان اسم رئيس المخابرات العامة فيه بعيداً عن التناول، وهو النهج الذى لجأت إليه الدولة فى مصر منذ بدايات عهد الرئيس السادات خلافاً لما كان سائداً فى عهد جمال عبدالناصر حين كان الناس جميعاً يتداولون اسم صلاح نصر.. وقد كان أبو الفضل نائباً لصلاح نصر، ولكنه حين نشر مذكراته (١٩٨٥) لم يكن الناس متعودين على أن يلموا بأسماء أصحاب المناصب الكبيرة فى المخابرات العامة.

فيما قبل عمله فى المخابرات العامة لم يكن أبو الفضل معروفاً للجمهور المصرى أيضاً، وقد كان هذا شأن كثير من الضباط الأحرار، بل كان هذا هو شأنهم المعتاد باستثناء أعضاء مجلس قيادة الثورة ثم قطبى هيئة التحرير (الطحاوى وطعيمة) وقطب الشئون العامة (وجيه أباظة) ثم ضحايا ما عرف بمؤامرة سلاح المدفعية فى ١٩٥٣ وضحايا ما أطلق عليه تمرد سلاح الفرسان فى ١٩٥٤، ثم أولئك الذين رشحوا أنفسهم لعضوية مجلس الأمة فى ١٩٥٧ ثم الذين تولوا مناصب بارزة فى الدولة، سواء كوزراء أو محافظين أو سفراء، ولم يكن عبدالفتاح أبو الفضل بين هؤلاء جميعاً.

ولم يكن القارئ العادى من جيلنا يتوقع أن نائب رئيس المخابرات هذا الذى ينشر مذكراته واحد من الضباط الأحرار إلا بعد ما بدأ فى قراءة هذه المذكرات، وإذن فقد كان عنوان هذا الكتاب نفسه بمثابة اللقطة الصحفية الناجحة شأن عنوان مذكرات عبدالمنعم عبدالرءوف «أجبرت فاروق على التنازل عن العرش».

على أن هذا الكتاب القيم قد لقى رغم هذا نوعاً من سوء الحظ غير المقصود إن جاز هذا التعبير.

فقد ظهر هذا الكتاب فى أعقاب ضوضاء كثيرة أحدثها حسن التهامى بتصريحات متكررة عن بطولاته وعن قدرته على توجيه (بل وتكتيف) جمال عبدالناصر نفسه، وحين ظهر كتاب محمد عبدالفتاح أبو الفضل فى الأعقاب التالية لتصريحات التهامى، تعمد معظم الصحفيين والكتاب الذين كانوا يهاجمون التهامى أن يلقوا الضوء بكثافة شديدة على بعض فقرات من هذا الكتاب هاجم فيها أبو الفضل زميله حسن التهامى وألقى على تصرفاته كثيراً من الشكوك ، وهكذا أصبح القراء الذين لم يقرأوا الكتاب وقرأوا عنه فى الصحف، أسرى انطباع خاطئ (وهذا هو ما سميناه سوء الحظ غير المقصود) أن هذا الكتاب لم يصدر إلا للهجوم والرد على حسن التهامى.. ولعل القارئ الذى يقرأ كتابى هذا الآن يتعجب من أن يضم الكتاب باباً عن هذا الكتاب الذى يظنه القارئ مجرد فصل فى محاورات التهامى.. وهذا هو سوء حظ الكتاب غير المقصود ، وربما سيظل سوء الحظ هذا ملازماً لهذا الكتاب على الدوام فى الذاكرة الوطنية.

ومن أطرف ما يمكن أن دار الشروق أصدرت طبعة جديدة من هذا الكتاب (٢٠٠١) فحرص صاحبها على أن يضمن مقدمة الطبعة الثانية كل ما من شأنه أن يحصر الكتاب فيما انحصر فيه بفضل التعليقات الصحفية التى كتبت على الطبعة الأولى.

(٢)

أما إن هذا الكتاب واحداً من أهم الكتب التى كتبت فى تاريخ مقدمات ثورة يوليو ١٩٥٢، وخطط ضباطها قبل قيامها ، فأمر لاشك فيه ، وبخاصة إذا عرف القارئ أن بيت مؤلفه محمد عبدالفتاح أبو الفضل كان فى كثير من الأحيان مقراً للاجتماعات السرية التى مهدت لقيام الثورة.. ومع هذا فإن هذا الكتاب يحفل بما حفلت به شخصية صاحبه من العمل المنظم والمنتظم فى هدوء وأناة وصبر وإنكار للذات ، ولولا أنه نشر فى سلسلة شهرية هى

«كتاب الحرية» لما أتيح له هذا القدر من الانتشار، وليس هـذا بالعجيب فى مجتمعنا الثقافى الذى يعانى مما لا نريد أن نخوض فيه من سلبيات وعيوب قاتلة لأننا لو خضنا لما كفانا كتابنا هذا كله.

فى هذا الكتاب نجح عبدالفتاح أبو الفضل فى أن يقدم رؤية متوازنة للخطوات التى مهدت لقيام الثورة، فهو رجل مخلص لم يضع الطموح على بصيرته أى غطاء، ولم يفرض عليها أى حجاب، وهو لهذا بعيد كل البعد عن الادعاء والغرور، وبعيداً أيضاً عن الندم أو السرور، وبعيد ثالثاً عن اجترار الشرور!

ويحتوى هذا الكتاب على صفحات فى غاية الأهمية والحيوية والدقة تولى فيها صاحب المذكرات تصوير المعارك الحربية فى حرب فلسطين، وسوف نتناول بعض ما رواه صاحب المذكرات عن المعارك التى اشترك فيها وشهدها فى تلك الحرب.

وقد خصص محمد عبدالفتاح أبو الفضل جزءاً كبيراً من كتابه للحديث عن دوره فى جهاز المخابرات العامة، ودوره كضابط مخابرات فى المواجهة المبكرة للاحتلال الإنجليزى، وذلك فى أثناء ما عرف بحركة الفدائيين فى القناة، وهى صفحات مشرفة بلاشك، كما أنها تعطينا بعض الضوء عن أهمية تمتع ضابط المخابرات بقدرات خاصة من الذكاء وحسن التصرف ودقة التدبير والقدرة على التنبؤ ومواجهة الخصوم بنفس أسلحتهم، والتغلب على الصعاب الطارئة وما إلى ذلك كله من المؤهلات الأساسية لضابط المخابرات، وهى المؤهلات التى يستحيل بدونها النجاح على مَنْ يقوم بهذا العمل.

وفى الحقيقة فإن عبدالفتاح أبو الفضل كان يهدف من كتابه إلى مثل هذا الذى كتبه عن الدور الوطنى والمضىء للمخابرات، وبخاصة أنه عانى مثل غيره من زملائه من الحرب الشعواء التى وجهت إلى هذا الجهاز والتى وصلت إلى حد المطالبة بإلغائه، وهو يعترف بهذا فى المقدمة، وهو يجهر فى عنوان الكتاب باعتزازه بهذه الوظيفة الوطنية المهمة.

وهو فى هذه المواضع الثلاثة يستحق الشكر: على العنوان، وعلى ما أشار إليه فى المقدمة، وعلى ما قدم فى صلب هذا الكتاب.

(٣)

وفى هذه المذكرات يروى محمد عبدالفتاح أبو الفضل سبباً مرسباً (كما نقول فى الطب) لتشكيل تنظيم الضباط الأحرار وهو إحساسه هو وزملائه بالمهانة عندما كانوا مكلفين بالمشاركة فى استقبال الإمبراطورة فوزية شقيقة الملك عند عودتها من إيران، وهو يقول:

«... عادت الإمبراطورة فوزية شقيقة الملك فاروق وزوجة شاه إيران إلى البلاد، تصحبها شائعة الخلاف مع الشاه، كانت ستصل بالطائرة إلى مصيف الأسرة بالإسكندرية، لتهبط بها فى مطار النزهة فى أحد أيام شهر يونيو شديدة الحرارة، وخرجت كتائب من حامية الإسكندرية ومن ضمنها كتيبتى الرابعة لتصطف على جانبى الطريق من مطار النزهة حتى القصر، وطال انتظارنا للموكب، ثم أبلغنا أن الطائرة ستتأخر عدة ساعات أخرى، وعلينا أن ننتظر وقوفا».

«أثارنا انتظارنا الطويل المهين كضباط، حتى يحين موعد وصول الطائرة، وتجمع لفيف من الضباط الشبان، وكنت معهم وأخذ كل منا يعبر عن سخطه على هذه المهانة، وكان تعليقنا أن الجيش لم يشكل لمثل هذه المهام المهينة، وإنما عليه أن يقوم بواجبه الأول من تدريب ومناورات واستعداد ليوم الذود عن الوطن».

«وعندما طال الانتظار امتد الحديث وتناول ما نقاسيه ويقاسيه الشعب من المستعمر ومن الحكام، لم ينته هذا الاجتماع الواقف إلا ونحن على ميعاد آخر للحديث فى مثل هذه الأمور، تم الاتفاق فى الحال على بدء اجتماعاتنا».

«وكان الاجتماع الأول فى منزلى ٦ شارع البرامونى بعابدين، فى غرفة فسيحة أعلى المنزل، وتوالت الاجتماعات وتنوعت الأحاديث الوطنية، واتسعت حلقة التنظيم حيث كنا نحضر فى كل اجتماع وبرفقة كل واحد عدد قليل من الضباط الوطنيين الموثوق بهم بعد جس نبضهم، ثم وضعنا دستوراً لهذا التنظيم بعد فترة لاحقة بألا ينضم أى ضابط له إلا بعد أخذ الآراء عليه قبل حضوره، وكنا نتناول فى هذه الاجتماعات شبه السرية مآخذ الشعب على الملك ورجال القصر، وعلى الحزب الحاكم وأحزاب المعارضة والبرلمان ومواقفهم وتجاوزاتهم، وتوصيل هذه المعلومات التى لا تنشر فى الصحف عن هذه المآخذ».

(٤)

وبعد بعض الحديث عن ملامح نشاط هذا التنظيم المبكر يصل بنا محمد عبدالفتاح أبو الفضل إلى النهايات التى انتهى إليها هذا التنظيم، ونحن نلاحظ أنه يورد اسم واحد من الأربعة الذين نشر باسمهم كتاب «ثورة يوليو والحقيقة الغائبة» قبل أن ينشر هذا الكتاب، وهو بهذا يؤكد على الرؤية التى يقدمها عن نفسه جمال منصور فى الكتاب المشار إليه، وفى كتاب آخر سبقه وهو مذكراته التى تناولها فى الباب الخامس من كتابنا هذا الذى بين أيدينا:

«وتوالت الاجتماعات في منزلي وفي منزل ضابط الفرسان «مصطفى نصير» بالسيدة زينب، وبعد أكثر من خمسة اجتماعات كانت صورة هذا التنظيم كالآتي:

«عن الفرسان «دون ذكر الرتب» السادة:

١ ـ مصطفى عبدالمجيد نصير. ٢ ـ عبدالحميد عبدالسلام كفافي. ٣ ـ محمد حلمي إبراهيم. ٤ ـ جمال منصور. ٥ ـ محمد سعد الدين عبدالحفيظ. ٦ ـ عبدالسلام فريد. ٧ ـ رضا صابر صبري. ٨ ـ سعد حنفي حسن. ٩ ـ عبدالرحمن فهمي. ١٠ ـ مصطفى كمال صدقي»

«عن المدفعية «دون ذكر الرتب» السادة:

١ ـ محسن عبدالخالق السيد . ٢ ـ فتح الله رفعت فتح الله. ٣ ـ رشاد مهنا. ٤ ـ محمد كمال عبدالحميد. ٥ ـ سعد زايد. ٦ ـ محمد أبو الفضل الجيزاوي. ٧ ـ مدحت فهمي. ٨ـ علي حسن مصطفى. ٩ ـ محمد أحمد حسن. ١٠ ـ أمين مظهر. ١١ ـ زكي منصور. ١٢ـ محمد أبو اليسر الأنصاري. ١٣ ـ أنور الصبحي. ١٤ ـ فؤاد مجدي.

«عن الإشارة «دون ذكر الرتب» السادة:

١ ـ محمد عبدالعزيز الألفي. ٢ ـ عبدالله أباظة. ٣ ـ أحمد عبدالدايم. ٤ ـ شريف أباظة.

«عن المشاة «دون ذكر الرتب» السادة:

١ ـ محمد محمد علي بدران. ٢ ـ عبدالرحمن مخيون. ٣ ـ محمد عبدالفتاح أبو الفضل. ٤ ـ عباس عبدالوهاب رضوان. ٥ ـ إبراهيم بغدادي. ٦ ـ محمد هاشم حسين. ٧ـ رياض مصطفى سامي. ٨ ـ محمد محمد أبو شهبة. ٩ ـ السيد جاد عبدالله سالم. ١٠ـ محمد نيازي. ١١ ـ حسين عبدالقادر. ١٢ ـ فوزي عبدالعظيم. ١٣ ـ حسن عبدالسلام القويسني . ١٤ ـ حسن التهامي. ١٥ ـ أحمد عبدالله طعيمة.

«سلاح خدمة الجيش «دون ذكر الرتبة» السيد:

١ ـ حسنين حسني عبدالمجيد.

«المهمات «دون ذكر الرتبة» السيد:

١ ـ هاشم سعيد العربي .

«البحرية «دون ذكر الرتبة» السيد:

١ ـ رجب فهمي .

«الطيران «دون ذكر الرتب» السادة:

١ ـ عبدالمحسن أحمد صالح الوسيمى. ٢ ـ محمد فكرى زاهر. ٣ ـ عز الدين العيادى. ٤ ـ مختار سعيد. ٥ ـ أحمد شكرى. ٦ ـ عهدى خيرت. ٧ ـ طلعت ناجى. ٨ـ عبدالكريم محرم.

ويبلغ عدد الأسماء التى أوردها أبو الفضل فى كتابه:

١٠ من سلاح الفرسان

١٤ من سلاح المدفعية

٤ من سلاح الإشارة

١٥ من سلاحة المشاة

١ من سلاح خدمة الجيش

١ من سلاح المهمات

١ من البحرية

٨ من الطيران

ويعترف أبو الفضل بأن هذا التنظيم كان تنظيماً موسعاً وكانت تنقصه شروط الأمن الكافية، ومع ذلك لم ينكشف أمره إلا بعد حملة فلسطين.

كذلك يعترف أبو الفضل فى هذه المذكرات بأن الحرس الحديدى نفسه قد انشق من هذا التنظيم الوطنى المبكر الذى كان هو نفسه مشاركا فيه، أما تنظيم ثورة يوليو فقد أفاد من هذا التنظيم وإن لم يكن هو هو، وهو حريص على إثبات هذا المعنى بوضوح شديد حيث يقول:

«ولا أدعى أن هذا التنظيم هو نفس تنظيم الضباط الأحرار، لكن بعد عودتنا من حملة فلسطين استمر التنظيم فى عقد اجتماعاته فى الوقت الذى كان فيه تنظيم الضباط الأحرار آخذاً فى التكوين، ودخله بعض أعضاء من تنظيمنا، كذلك انشق من هذا التنظيم فى مرحلة لاحقة تنظيم الحرس الحديدى وكان أغلبنا معارضين لفكرة تكوين الحرس الحديدى لتعاونه مع الملك، وهو أحد عناصر الفساد المحددة. لذا استبعدنا جميع الذين انضموا إلى الحرس الحديدى ومنهم: سيد جاد عبدالله، وحسن التهامى، ومصطفى كمال صدقى، وخالد فوزى وغيرهم».

وهكذا نرى بوضوح ـ وربما لأول مرة فى مذكرات كتبها أحد الضباط الأحرار أنفسهم ـ أنه لم تكن هناك حدود فاصلة تماماً بين تنظيم الضباط الأحرارمن ناحية، والحرس الحديدى من ناحية أخرى عند نشأة هذا التنظيم أو ذاك، وذلك رغم حرص بعض الضباط بل والكتاب

(فيما بعد) على تأكيد وجود هذه الحدود منذ البداية.. وبعض هذه الأسماء التى يشير إليها عبدالفتاح أبو الفضل فى هذه الفقرة هى أسماء عدد من المعروفين حتى اليوم بالانتماء إلى تنظيم الضباط الأحرار الذى قام بالثورة فى ١٩٥٢.

ومن الجدير بالذكر أن أبو الفضل قدحرص فى كتابه على تسجيل أسماء مَنْ كان يعتقد أنهم أعضاء الحرس الحديدى بالكامل فى صفحة ٨٦، وهذا هو نص عباراته:

«وكان الملك يستعين لفرض إرادته وتهديد خصومه واغتيالهم بزمرة من ضباط الجيش المغامرين، أطلق عليهم اسم الحرس الحديدى وهم: الدكتور يوسف رشاد، وحسن التهامى، ويوسف حبيب، وخالد فوزى، وعبدالرءوف نور الدين، ومصطفى كمال صدقى، وحسن فهمى عبدالمجيد، وعبدالقادر طه، وسيد جاد عبدالله سالم، وبلغ من خطورة دور هذا التنظيم الإرهابى أنه عندما اختلف الملك مع أحد أفراس الحرس الحديدى نفسه الضابط عبدالقادر طه، قام الحرس الحديدى باغتيال هذا الضابط بأوامر الملك».

وهكذا نجد هذا الرجل الذى يحصر أعضاء الحرس الحديدى بالاسم لا يورد اسم أنور السادات بينهم. ومع هذا فإن أحداً لم يستغل روايته، بما يليق بها من استشهاد أو تفنيد، فلا المدافعون عن السادات استشهدوا بها فى نفى انتمائه للحرس الحديدى، ولا متهموه فندوا هذه الرواية من أجل أن يبقى سيف الانتماء إلى الحرس الحديدى مسلطا على تاريخ السادات.

(٥)

ويشير أبو الفضل فى هذه المذكرات بتفصيل معقول إلى تنظيم آخر يطلق عليه مسمى «تجمع» وقد تكون هذا التجمع فى عام ١٩٤٠ حين طالبت قيادة الجيش البريطانى فى مصر السلطات المصرية بأن يقوم الجيش المصرى بتسليم أسلحته إلى الجيش البريطانى، وتكونت فى الحال مجموعة وطنية صغيرة من ضباط المدفعية فى حامية مرسى مطروح، قررت فيما بينها وجوب تحريض باقى ضباط وقوات الحامية فى التصدى لهذا الأمر برفض تسليم الأسلحة لهم:

«كان هذا التجمع من الضباط المصريين يضم دون ذكر الرتب: عبدالمنعم أمين، وإبراهيم حافظ عاطف، وأحمد فؤاد، ومنصور المغربى، وحافظ إسماعيل، ومصطفى لطفى، وحسين الهادى، وانتهت الحرب العالمية الثانية، ثم اشترك الجيش المصرى فى حملة فلسطين، وتفرق شمل هؤلاء الضباط وكذا تنظيم الوطنيين السرى».

«وفى أوائل عام ١٩٥١، وبعد حملة فلسطين، تجمع شمل بعضهم وانضم إليهم الضابطان عبدالحميد الدغيدى وحسين محفوظ. وإزاء ما كان يعانيه الشعب المصرى وقتها من تجاوزات السفارة البريطانية وتسلطها على أمور البلاد، وخضوع القصر والوزراء لها، وبسبب الفشل الذى عاد به الجيش المصرى من حملة فلسطين نتيجة جهل القيادة وتصرفات السياسيين، وفضائح صفقات الأسلحة التى كان للحاشية الملكية ضلع فيها، عاد هذا التجمع، أو التنظيم، إلى الاجتماع فى منزل إبراهيم حافظ عاطف بشارع جسر السويس وتشاروا وقاموا بصياغة انتقاداتهم فى أمور بلادهم فى شكل منشورات».

«وقام إبراهيم حافظ عاطف بمسئولية كتابة وطبع وتوزيع هذه المنشورات من داخل الوحدة التى كان يقودها فى مدرسة المساعدة الجوية، وساعده فى الكتابة على الآلة الكاتبة الكاتب المدنى المرحوم صلاح عبدالحميد، وتطوع الضابط المرحوم على لبيب حسنى بالطباعة، كما اشترك بعض المدنيين فى مرحلة لاحقةفى هذا العمل، ومنهم المرحوم الدكتور عبدالحميد حسين، وكان لمنشورات تلك المجموعة صدى طيب الأثر فى أوساط الضباط الذين وزعت عليهم، وبمجرد توزيع أول منشور، اتصل بالمجموعة كمال الدين حسين وعلى فوزى يونس واقترحا البدء فى عمل تنظيم وخلايا حتى يتحقق العمل الجاد المنظم بأقصى قدر من الأمان».

(٦)

وبنفس القدر من الاهتمام الحفى والتسجيل الدقيق يشير عبدالفتاح أبو الفضل إلى المجموعة الثورية التى كونها مصطفى كمال صدقى من تنظيم ١٩٤٦وضم إليها بعض صولات الجيش ومنهم الصول جمال جلال الذى أبلغ فى أكتوبر ١٩٤٧ عن أسماء ٢٩ ضابطاً متآمراً، ومن ثم أمر محمود فهمى النقراشى باشا رئيس الوزراء بمراقبة هؤلاء الضباط فلم يثبت عليهم أى تآمر، ولم يتخذ ضدهم أى إجراء (نلفت نظر القارئ هنا إلى أن جمال منصور فى مذكراته التى عرضناها فى الباب الخامس من هذا الكتاب يذهب إلى القول بأن النقراشى هو الذى شجع الصول على الوشاية).

ويستأنف عبدالفتاح أبو الفضل روايته فيما يتعلق بهذا الموضوع فيقول:

«ولما لم يستجب رئيس الوزراء لهذا البلاغ قام الصول جمال جلال بتبليغ ذلك إلى عطاالله باشا رئيس هيئة أركان حرب الجيش، الذى أبلغ بدوره الملك «فاروق» وأمر الملك عطا الله باشا باعتقالهم، وجرى التحفظ عليهم فى ميس المشاة، وأجرت النيابة معهم تحقيقات

قام بها النائب العام حافظ سابق، ولم يثبت عليهم أى شيء وأفرج عنهم وكان من الضباط المعتقلين كل من (دون ذكر الرتب): محمد رشاد مهنا، وعبدالرءوف نور الدين، وعثمان فوزى، وعبدالحميد كفافى، وأحمد يوسف حبيب، وصول فنى محمد حسين، وأنور الصيحى، وعبدالقادر طه، وأحمد فؤاد، ومصطفى كمال صدقى، وحسن فهمى عبدالمجيد، ومصطفى نصير، وعبدالمنعم عبدالرءوف، وممدوح جبة. وعقب ذلك أعفى عطاالله باشا من منصبه، وعين بدلاً منه عثمان المهدى باشاً رئيساً لهيئة أركان حرب الجيش».

ينبغى لنا هنا أن نكرر الإشارة إلى ما سجله جمال منصور عن هذه القصة وقد أوردنا روايته مع التعليق عليها فى كتابنا هذا.

(٧)

بعد هذه التفصيلات المهمة عن تنظيمات الضباط السرية ننتقل مع صاحب هذه المذكرات إلى حديثه المهم عن حرب فلسطين. وفى هذه المذكرات فقرة مهمة جداً عن هذه الحرب ترينا أن التهوين من شأن العدو كان فيما يبدو خلقاً متأصلاً فى بعض قادة الجيش المصرى منذ ما قبل الثورة، ولنقرأ ما يرويه محمد عبدالفتاح أبو الفضل:

«... جاء يوم ١٣ مايو وكنت ضابطاً برتبة ملازم أول بالكتيبة التاسعة مشاة، فصدرت الأوامر بالتحرك إلى حدود فلسطين وتوجهت الكتيبة بجميع وحداتها إلى رصيف محطة العباسية العسكرية بالقاهرة، وقبل أن نصعد إلى القطار الحربى الذى أقلنا إلى الميدان، حضر إلينا قائد القوات المصرية المعين لقيادة هذه الحملة اللواء المواوى».

«وبعد فترة حضر أيضاً رئيس هيئة أركان حرب الجيش اللواء عثمان المهدى باشا، وقبل أن يتحرك القطار أطل علينا المواوى وإذا به يلقى علينا خطاباً استهان فيه بقوات العدو فأخذ يصفها بأنها كالعصابات الإجرامية التى يطاردها البوليس المصرى فى الصعيد، واندهش الكثير منا لمدى استهتار القائد الموكل إليه أرواح شباب الأمة، حيث إن جميعنا قد قرأ فى الصحف قبل قيام الحملة عن عنف الإرهاب الصهيونى، وما كان يعانيه الجيش البريطانى نفسه على يد تلك العصابات، بالإضافة إلى الفيلق اليهودى المدرب على أحدث فنون القتال التقليدى».

❑

أما الصفحات ٥٥ ـ ٦٩ من هذا الكتاب فتحمل كثيراً من التفصيلات الدقيقة عن أعمال

البطولة فى حرب فلسطين التى شارك فيها محمد عبدالفتاح أبو الفضل وعدد من زملائه الشهداء والأبطال، ومن المهم أن تنقل للقارئ صورة إحدى هذه المعارك وقد كتبت بأسلوب أدبى راق يطلعنا على طبيعة حرب فلسطين وحقيقة أدائنا فيها:

«بعد أن أمضت القوات يوماً للراحة فى غزة، كلفت قيادة القوات الكتيبة الأولى مشاة بالهجوم على مستعمرة دير سنيد، وهى مستعمرة حصينة تقع بالقرب من غزة، ويبدو أن الاستعداد لهذا الهجوم كان أدق وأشمل من الإعداد لمعركة الدنجور، حيث تم الاستكشاف المسبق لها».

«لذلك وعلى الرغم من قوة هذه المستعمرة إلا أن الكتيبة الأولى أمكنها الاستيلاء عليها بخسائر قليلة فى الجنود ومرتفعة بعض الشىء فى الضباط (حيث استشهد فى هذه المعركة حوالى ٧ ضباط و٣٠ جندياً)، وسقط الشهيد الأول من دفعتنا فى هذه المعركة وهو الملازم مصطفى كمال عثمان. وبعد تلك المعركة بعدة أيام كلفت كتيبتى التاسعة مشاة بمهاجمة مستعمرة «نيتساليم».

«عندما صدرت إلينا الأوامر بالاستعداد لمهاجمة «نيتساليم» قام قائد الكتيبة القائمقام محمد كامل الرحمانى ومعه قادة السرايا (٤ سرايا فى الكتيبة) وقادة الفصائل المعاونة (قادة فصائل الهاون والمدفعية المضادة للدبابات الملحقة على المشاة والحمالات المدرعة ومدافع الماكينة وبسلاح الإشارة) بالاستكشاف الدقيق قبل المعركة (كما تقضى أصول الحرب)، وعندما تم وضع الخطة شرحت لنا بالتفصيل وصدرت إلينا الأوامر المباشرة بالاستعداد، فانتشرت السرايا الأربع بالكتيبة ومن ضمنها الفصيلة التى كنت قائدها، وتم انتشار الجنود على خط يبعد مسافة كافية عن مرمى نيران أسلحة العدو الخفيفة. وكلفت كل سرية بالهجوم على أحد الأضلاع الأربعة للمستعمرة».

«وفى اللحظة الحاسمة بدأنا المعركة فقامت مدفعيتنا الميدانية من عيار ٢٥ رطل بالقصف المركز لمدة نصف ساعة ومعها وفى نفس الوقت قامت المدفعية المضادة للدبابات الموزعة على السرايا بضرب محكم مستخدمة القذائف الحارقة وقنابل شديدة الانفجار، موجهة نيرانها على الدشم الحصينة المواجهة لكل سرية مصرية».

«وخلال القصف وقبل أن تتوقف المدفعية بخمس دقائق صدرت لنا الإشارة بالتقدم إلى الأمام، وعندما توقف القصف انبطح الجميع متخذين سواتر طبيعية من الأرض التى أمامنا، ثم أخذ كل من الجنود والضباط فى الضرب على المستعمرة حيثما تراءى لكل منهم. ثم استأنفت المدفعية الضرب بعد خمس دقائق».

«خلال الضرب قمنا بقفزة جديدة إلى الأمام وفى القفزة الرابعة وقبل أن تتوقف المدفعية للمرة الأخيرة قامت بضرب قذائف الدخان، وفى حماية هذا الساتر من الدخان تقدمنا بأسرع ما يمكن حتى اقتربنا من الأسلاك الشائكة التى تحيط بالمستعمرة».

❑

ويستطرد صاحب هذه المذكرات راوياً كيف تضافرت جهود الأسلحة المختلفة من الجيش المصرى من أجل النجاح فى الأداء والانتصار فى معركة نيتساليم فيقول:

«وقام رجال سلاح المهندسين بتفجير الأسلاك الشائكة والألغام المدفونة تحتها بواسطة ألغام خاصة اسمها «طوربيد بنجالور»، وهى مواسير طويلة بها شحنة من المتفجرات، وبذلك أحدثت ثغرة مكنت رجال المشاة من الاقتحام».

«وخلال عملية الاقتحام وبعد دخولنا سور الأسلاك الشائكة تأخرت سريتى بعض الشىء على الضلع الشرقى للمستعمرة لوجود مقاومة شديدة من إحدى الدشم المواجهة لنا، والتى لم يكن قد نال منها ضرب المدفعية المصرية بعد».

«وفجأة رأيت إشارة النجاح من طبنجة إشارة إحدى الفصائل الأخرى التى تمكنت من اقتحام الموقع قبلنا (كانت طلقة خضراء ثم تبعتها طلقة أخرى بيضاء بلون العلم المصرى فى ذلك الوقت). وكان رد فعل قائد سريتنا سريعاً، فقد وجه من موقفه قذائف المدفعية المضادة للدبابات على الدشمة المستعصية، وفى لحظات شاهدنا انفجار الدشمة فنهضنا من مواقعنا واقتحمنا الدشمة المهدمة، وانضمت بذلك سريتى لباقى سرايا الكتيبة التى تمكنت من احتلال جميع دشم الدفاع لمستعمرة نيتساليم، فانتهت المعركة بنجاح».

«والفضل لدقة الاستكشاف ودقة الخطة والتوقيت الجيد، وقبل كل ذلك ثبات الرجال».

«وبعد نهاية المعركة تمكنا من أسر ثمانية جنود وخمس مجندات بينما خسرت قواتنا من الضباط اليوزباشى خليف، ومحسن حمد، ومصطفى حامد، وأركان حرب الكتيبة الصاغ سليمان عفيفى».

«وبعد حصر الأسلحة التى جمعناها من العدو وجدنا فى الدشم بأركان المستعمرة بنادق قناصة يبدو أنها كانت تستخدم فى اصطياد الضباط بعد تمييزهم من الزى والتسليح المختلف، فقمنا بتبليغ هذه الملاحظة، وبناء على ذلك استبدل الضباط ملابسهم بنفس زى الجنود حتى نتفادى بقدر الإمكان خسائرنا العالية فى الضباط».

(٨)

على هذا النحو من التصوير الجيد والدقيق يروى محمد عبدالفتاح أبو الفضل فى هذه المذكرات جهود إحدى وحدات الجيش المصرى المقاتلة فى حرب فلسطين، ثم ها هو يروى ذكرياته عن الفترات اللاحقة وعن جهود وحدات أخرى، فنرى فيما يرويه أصداء المشاعر تجاه هذه الحرب التى كانت بالنسبة لهذا الجيل من الضباط المصريين بمثابة أولى الحروب:

«وبعد هذه المعركة انسحبت كتيبتى إلى موقع دفاعى فى غزة، وأمضينا أياماً بين المعارك فى إعادة تدريب الجنود خلال فترات الصباح، وفى صيانة وتنظيف الأسلحة وتعويض الخسائر والذخائر. وفى تلك الفترة كانت تصلنا الصحف والمجلات المصرية التى كنا نقف منها على روح الشعب المصرى فى القاهرة. وبقدر سعادتنا بأفراح الشعب المصرى عند سماعه أخبار انتصاراتنا، بقدر أسفنا لما كان ينشر فى روزاليوسف من أخبار مجتمع طبقة الحكام».

ويبدو عجيبا أن يبدو حديث هذا الضابط بالذات وهو حريص على أن يحمل نوعا من أنواع الثأر لمجلة روزاليوسف يظهر فيما يكتبه عرضاً عن انتقادها فيما كانت تنشره، بينما نعرف أن الرأى العام بين زملائه كان ممتنا بالفعل لنفس المجلة لتبنيها إثارة هذا الموضوع نفسه على يد إحسان عبدالقدوس.

❑

كذلك فإن صاحب هذه المذكرات لا يبخل علينا فى حديثه برواية أصداء قبول الهدنة فيما بين الضباط المشاركين فى الحرب الذين كانوا مندهشين لقبول مبدأ الهدنة حيث يقول:

«وبعد معركة نيتساليم ثانى معركة ينتصر فيها الجيش المصرى وبشائر النصر تظهر للعرب عامة ومصر خاصة، أعلنت الهدنة فجأة. وقبلت مصر الهدنة، والتزمت بها وانتشر التساؤل بين الضباط عن حكمة وسر قبولنا الهدنة ونحن فى أحسن أحوالنا العسكرية. وخلال الهدنة أعاد العدو تنظيم نفسه، وتدفقت عليه المعونات العسكرية والمهاجرون والمتطوعون من اليهود، وانهالت عليه الأسلحة من الشرق والغرب، وقبل نهاية الهدنة يطلب العدو مدها ثلاثة أيام أخرى لتكون لديه فرصة أكبر للاستعداد، فرفضت مصر الهدنة، واستؤنف القتال لكننا بدأنا نشعر بزيادة مفاجأة فى أسلحة العدو،ازدادت مقاومته وظهرت لأول مرة الطائرات الحديثة فى تشكيلات الإسرائيليين التى لم يكن لها أثر قبل الهدنة. وكذلك تم استكمال نقص المدفعية التى عانوا منها قبل الهدنة».

«وفى نفس الوقت تقدم الكونت برنادوت المبعوث الدولى للأمم المتحدة بمشروع التقسيم المشهور، فرفضت إسرائيل وامتنع العرب عن إبداء الرأى فيه، ثم قامت إسرائيل باغتيال الكونت برنادوت الوسيط الدولى، كما اغتيل أحمد عبدالعزيز قائد الفدائيين المصريين وهو مسافر ليلاً على الطريق بين الخطوط المصرية ـ الأردنية».

❑

وفى موضع لاحق يعبر صاحب المذكرات عن أسفه لقبول مصر الهدنة الثانية بعد معركة تبة الفناطيس فيقول:

«مرة أخرى وافقت مصر على الهدنة الثانية، وياليت مصر لم توافق علي أى من الهدنتين. فحتى معركة تبة الفناطيس كانت قواتنا متفوقة فى كل شيء إلا القيادة العليا. فقد أعطت فترة الهدنة الثانية فرصة للدول الكبرى لتدعيم وتقوية إسرائيل، فوصل تسليحها إلى درجة عالية من القوة فلم يمكننا تحقيق أى نصر بعد ذلك حتى قيامنا بآخر معركة اشتركت فيها وهى معركة نجبا».

(٩)

وبنفس الحماس والحب يروى محمد عبدالفتاح أبو الفضل فى هذه المذكرات باعتزاز شديد دور كتيبته فى معركة أسدود، ونحن نحس بالفخر ونحن نقرأ فى هذه الفقرات دور جندى مصرى عظيم من طراز الشاويش وهبة البطل الشجاع النبيه الجسور، كما سوف يتضاعف فخرنا ونحن نرى الانتصارات المتوالية تحرزها قواتنا فى هذه المعركة بفضل الانتباه وحسن التصرف اللذين تميز بهما أفراد القوات المسلحة المصرية، وسيجعلنا هذا نأسى لما أصاب هذه القوات من ظلم فى المعارك التالية فى عهد الثورة بفضل سوء اختيار القادة بل والتفريط فى أصول العلم العسكرى نفسه:

«... وأثناء الهدنة الأولى تحركت كتيبتى لاحتلال موقع دفاعى متقدم على مشارف بلدة أسدود (بالقرب جداً من العدو)، فكان الموقع بالنسبة لنا مثالياً حيث كان يقع على حافة خور شديد العمق، ويبعد أمام مدينة أسدود بحوالى كيلومترين، وتبعد مدينة أسدود بحوالى ٣٥ كم فقط عن يافا. فكان هذا الخط الدفاعى آخر مواقعنا».

«وفى ليلة حالكة الظلام وبعد انتهاء الهدنة الأولى، فتحت المدفعية الإسرائيلية نيرانها المتوالية على مواقعنا الدفاعية فى أسدود، فردت عليها المدفعية المصرية بنيران كثيفة، وبعد فترة

طويلة توقف ضرب المدفعية الإسرائيلية، لكن المدفعية المصرية استمرت فى الضرب والتوقف على فترات متتابعة خشية أن يكون ضرب المدفعية الإسرائيلية تمهيداً لعملية أكبر أثناء الليل».

«وتوقف الضرب من الطرفين فجلست داخل خندقى فى رئاسة الفصيلة أتسامر مع زميلى عبدالمنعم خليل قائد الفصيلة المجاورة لى فى المواقع، وهو من نفس سريتى».

«وفجأة تسلل إلى خندقنا شاويش الفصيلة «الشاويش وهبة» وكان رجلاً رياضياً يقوم بتدريب السباحة لرجال الجيش قبل الحملة، فطلب منى تزويده بأكبر كمية من القنابل اليدوية ثم قام بتجهيزها أمامنا حيث تكون معدة للاستخدام، ووضعها جميعاً داخل حقيبة «الجراية» الخاصة به (وهى حقيبة من القماش يزود بها كل جندى فى الميدان تثبت على جانبه ليحتفظ فيها بتعيين الميدان)، وأخبرنا أنه كان فى أحد خنادق المواقع الأمامية المشرفة مباشرة على الخور فسمع أصواتاً تأكد أنها أصوات تسلق أفراد من العدو للخور، وأنه يجب التعجيل باكتشاف الأمر، وإلا فاجأنا العدو بعملية اقتحام لخطوطنا الدفاعية. فتركنا الشاويش وهبة وذهب حاملاً حقيبة الجراية المملوءة بالقنابل اليدوية وتوجه نحو الموقع الذى اكتشف الأصوات منه، وقبل أن يذهب اتفق معى على إشارة خاصة بحيث يقوم بالتصفير عندما يتأكد تماماً من التسلل، فإذا سمعت الصفير أقوم على الفور بضرب طلقات إشارة لتنير الموقع وما حوله خاصة فى الخور».

«وذهب الزميل عبدالمنعم خليل إلى موقعه وبعد عدة دقائق سمعت صفير الشاويش وهبة، ثم تلا ذلك مباشرة صوت انفجار قنبلة يدوية أو اثنين، فقمت على الفور بضرب طلقة مضيئة، أضاءت الخور،وبعدها مباشرة سمعت انفجارات متتالية لقنابل الشاويش وهبة، ثم تتابعت أصوات قنابل أخرى من خطوطنا، ويبدو أن الإسرائيليين تمكنوا حتى الصباح من إخلاء جرحاهم، واستولينا منهم على كميات كبيرة من الأسلحة والمعدات. وكان من ضمن الغنائم جهاز لاسلكى مصنوع فى تشيكوسلوفاكيا وكان يعتبر فى ذلك الوقت من أحدث الأجهزة التى يمكن حملها على الظهر».

«وأثناء وقوف بعض الضباط من الوحدات المصرية المجاورة على حافة الخور وهم يشاهدون آثار المركة معتقدين أن المعركة قد انتهت، إذا بطلق نارى يصيب الزميل عز الدين مختار (وكان من كتيبة أخرى) فى كتفه، وشعرت أن العدو لا يزال يحتل موقعاً قريباً فأخذت أتفحص المنطقة الفضاء أمامى بمنظارى المكبر، وفجأة لاحظت حركة فى سطح أحد المبانى البعيدة، وكان المبنى شبه مهجور ويبعد بحوالى كيلومترين عن مواقعنا».

«ذهبت فى الحال إلى موقع المدفعية المضادة للدبابات الموجود تحت قيادتى فى الفصيلة

وسألت حكمدار الموقع عما إذا كان لديه دانات شديدة الانفجار، وطلبت من الموقع توجيه مدفعيته على ذلك المبنى بعد تحديده لهم، وأن يجعل الهدف هو سقف الدور العلوى. وانتظرت قليلاً وأخذت أراقب المبنى بالمنظار المكبر حتى تم الضرب ورأيت جثثاً تطير إلى أعلى. ولم تنتظر المدفعية أية أوامر أخرى، ففتحت جميع نيرانها على الموقع بشدة وإتقان حتى تهدم المبنى تماماً».

«وبعد أن توقفنا عن الضرب جاء قائد الحمالات المدرعة بالكتيبة الملازم أول سيد رفعت إسماعيل وركبت معه حمالته، وفى حراسة باقى الحمالات خرجنا نجوب ونطهر أرض المعركة ولم نجد أية مقاومة حتى وصلنا المبنى الذى دمرته مدفعيتنا، ولم نجد سوى جثث قتلى فقط بأسلحتهم ومعداتهم وأجهزة اتصالهم، ووجدنا فى إحدى الغرف المهدمة خريطة ميدان أخذناها على عجل مع بعض الغنائم الأخرى، وعدنا سريعاً إلى مواقعنا لنتفحص هذه الخريطة بتأن وفهمنا من فحص الخريطة أن هذا المبنى كان العدو قد اتخذه مركزاً للقيادة وعلى الخريطة علامات تدل على تفصيلات دفاعاتنا مما يدل على قيامهم بالاستطلاع الجيد قبل هذه المعركة الليلية، كما يدل أيضا على احتمال وجود جواسيس لهم داخل خطوطنا».

«الخريطة التى وقعت فى أيدينا كانت تحتوى على رسومات وعلامات لمواقعنا الدفاعية فى العمق، وفعلاً تذكرت عند ذلك أنه أثناء القتال الليلى كنت أشعر ببعض الطلقات الطائشة وهى تمر من فوق رءوسنا ومن خلف موقعنا، وبالقطع كان هناك بعض القناصة الإسرائيليين خلف مواقعنا، وبعد المعركة بعدة أيام انسحبت الكتيبة من الموقع الأمامى فى أسدود للراحة فى مواقع خلفية عند مدينة غزة».

(١٠)

وتحظى معركة «تبة الفناطيس» باهتمام صاحب هذه المذكرات وروايته لبعض تفصيلاتها الدقيقة وهو يحدثنا عنها بشىء من التفصيل مصوراً لنا كيف كانت القوات الإسرائيلية المعادية على درجة عالية من الكفاءة ودقة التصويب والقدرة على الالتفاف، ومع هذا فإن الأفراد المصريين لم يعدموا الحيلة للتمكن من مواجهة العدو:

«... وفى مواقع الراحة فى مدينة غزة وبعد منتصف الليل، سمعنا تبادلاً للنيران صادراً من موقع قريب من غزة، وبعد هدوء المعركة مرت نصف ساعة أو أكثر ثم وصلتنارسالة تليفونية لقائد سريتنا وسرية أخرى تأمرنا بالتأهب للتحرك والاشتراك فى معركة قادمة، وتحركنا أثناء

الليل، فعلمنا عندما وصلنا إلى موقع قريب من ميدان المعركة أن مستعمرة نيتساليم التى سبق استيلاءنا عليها قد أغار عليها الإسرائيليون بعد منتصف الليل فى معركة هجوم ليلى أيضاً فتمكنوا من الاستيلاء على إحدى الدشم التى يحتلها المصريون، إلا أن بقية القوات المصرية الموجودة بالمستعمرة أمكنتها استرداد هذه الدشمة، لكن الإسرائيليين المنسحبين قاموا باحتلال موقع يشرف على المستعمرة وهو عبارة عن تبة عالية بها فناطيس مهدمة محل معسكر قديم للجيش الإنجليزى».

«وقد مكن هذا الموقع الجديد الإسرائيليين من إطلاق قنابل الهاون على مستعمرة نيتساليم، مما أعطاهم القدرة على قطع خط الإمداد عن المستعمرة التى يحتلها الجنود المصريون، لذلك كانت مهمتنا الاستيلاء على تبة الفناطيس لتأمين وجودنا داخل المستعمرة، وصدرت الأوامر لقائد سريتنا (السرية ٣ فصائل) بالهجوم، وتقدمنا تحت ستار ضرب المدفعية متبعين نفس تكتيك الهجوم السابق على مستعمرة نيتساليم، فكنا نقوم بقفزات يتخللها ضرب متقطع للمدفعية».

«ولكن كلما تقدمنا مسافة بسيطة كنا نضطر للانبطاح أرضاً فيتوقف تقدمنا بسبب كثرة الخسائر، حيث تمكنت نيران العدو من إصابتنا حتى ونحن منبطحون أرضاً، فقد مكنهم موقعهم المرتفع من كشف جميع تحركاتنا وأصبحنا أهدافاً سهلة».

«وعندما اقتربنا تماماً من موقع الأسلاك الشائكة للإسرائيليين لم يعد من الممكن التقدم شبراً آخر، فكل من حاول الوقوف كان يصاب فى الحال، ونحن على حالنا هذا قمت باختبار مدى إحكام تصويبهم لعل الفرصة تسنح بالهجوم، فكنت أخلع الخوذة الخاصة بى، فأضعها على طرف السونكى وأرفعها إلى أعلى كأن أحد الجنود المصريين يحاول الوقوف والتحرك، وبالفعل كانت الطلقات تتساقط بإحكام على الخوذة فأعيدها ثانية على رأسى، وبالتالى قنعنا بالسكون فى مواقعنا».

وفى حديثه عن معركة تبة الفناطيس يروى محمد عبدالفتاح أبو الفضل فى هذه المذكرات ما يدلنا على أن المشير عبدالحكيم عامر كان يتمتع بذكاء عسكرى وقدرة على التخطيط الجيد فى أوليات حياته العسكرية، وأنه استطاع اللجوء إلى الوسيلة المناسبة للتغلب على استعدادات الإسرائيليين وإمكاناتهم، مما مهد للنصر فى هذه المعركة التى كان لمحمد عبدالفتاح أبو الفضل نفسه دور بطولى فيها نال بسببه الترقية الاستثنائية:

«... كانت مواقع العدو فى تبة الفناطيس على دشم وخنادق مواصلات لم يعمل لها أسقف للحماية (مكشوفة)، لذلك قام عبدالحكيم عامر بمراجعة مواقع ومسافات الدشم

المكشوفة بدقة بحيث يتم إحكام الضرب فوقها مباشرة بدانات «الشرابنيل» التى تتصف بخاصية الانفجار قبل الارتطام بالأجسام الصلبة فى الهواء وأعلى الهدف مباشرة، وبذلك يمكن للمدفعية المصرية إصابة القوات الإسرائيلية المدافعة داخل خطوطها المكشوفة، وهو ما لم يكن متاحاً خلال خطة الضرب السابقة».

«ومن مواقعنا كنا نشعر بآثار انفجار دانات الشرابنيل فوق رءوس جنود العدو، وأثناء الضرب بالأسلوب الجديد أردت أن أختبر مدى إحكام ضرب العدو علينا فرفعت الخوذة على طرف السونكى مرة أخرى فلم تنطلق أية رصاصة نحوها، دليلاً على أن العدو حدثت به خسائر جسيمة، وكرد فعل تلقائى نهضت دون تفكير وهتفت بأعلى صوتى «الله أكبر» فهب الجنود خلفى وهم يرددون نفس الهتاف العظيم الذى صار تياراً يدفعنا فى حماس ودون خوف لنتقدم ونقتحم كأن صدمة كهربائية قد أصابتنا فتسرى من شعر الرأس إلى أصبع القدم».

«ولاحظ أومباشى كان يقف بجانبى أحد الإسرائيليين يقف على مقربة من زملائى وقد أمسك فى يده المرفوعة فوق رأسه قنبلة يدوية ورفع الأومباشى صوته ليحذرنى فوجه بندقيته نحو الجندى الإسرائيلى، وفى تلك اللحظة لمحت يده وهى تكاد تقذف القنبلة أمامى فقفزت جانباً فى الوقت المناسب، وعندما أفقت رأيت الجندى الإسرائيلى وقد مزقته القنبلة بعد أن أصابه الأومباشى فسقط على الفور إلا أن القنبلة انفجرت فيه قبل أن يتمكن من إلقائها علىّ، وتنبهت على صوت بقية الجنود وهم يقتحمون بقية المواقع فى نجاح بعد أن أطلق أومباشى آخر من جنودى طلقة الإشارة الخاصة بنجاحنا فى اقتحام الموقع».

«وأثناء تلك الفترة الرهيبة من الشلل التام ونحن أسرى أماكننا وأنا فاقد القدرة على التقدم أو حتى التقهقر قبل الاقتحام، مرت علىّ فترة تولتنى فيها رعشة الخوف الشديد، إلا أن الله أراد أن يلقننى درساً خاصاً عملياً، وأنا على حالتى هذه حاولت إحدى الحمالات المدرعة أن تعاون فى الاقتحام فتقدمت فى سرعة فائقة صوب مواقع العدو، وكان خلف الحمالة بعض الجنود وبرفقتهم ضابط يحتمون خلفها، لكن العدو تمكن من إصابة الحمالة فتوقفت عن الحركة واضطر طاقمها إلى إخلائها والانبطاح أرضاً، وتملك الذعر الشديد الضابط الذى كان يحتمى خلف الحمالة فاستدار للخلف وأخذ يجرى وهو فى شدة الفزع لكنه قبل أن يقطع مسافة كبيرة أصيب فى ظهره وسقط مضرجاً فى دمائه، فكانت صورة الضابط وهو يولى ظهره للقتال خوفاً ونزعاً صورة ألهبت الحماس فى قلبى وتغلبت على مشاعر الخوف فى داخلى».

«وتمت ترقيتى ترقية استثنائية من رتبة الملازم أول إلى رتبة اليوزباشى لاشتراكى فى هذه المعركة بفضل الله وإلهامه، ورحم الله زملائى من الفصائل الأخرى الذين استشهدوا فى هذه المعركة».

(١١)

ويحرص عبدالفتاح أبو الفضل كذلك على أن يقدم فى هذه المذكرات وصف تفصيلياً لمعركة «نجبا» وهى آخر معركة اشترك فيها، وهو يصفها بأنها المعركة التى استعد لها العدو بخطوط دفاعية قوية، فضلاً عن خندق من النيران :

«... قبل المعركة بيومين قمنا مع قائد الكتيبة باستكشاف تفصيلى لأرض المعركة، وبعد انتهائنا من الاستكشاف الأرضى ركبنا طائرة فاستكملنا بها عملية الاستكشاف من الجو».

«وفى صباح يوم المعركة أخذ كل منا موضعه حسب الخطة التى أخذت تتكرر قبل كل معركة منذ معركة «دير سنيد» و«نيتساليم»، فبدأت المدفعية فى الضرب التمهيدى ونحن خارج مرمى نيران أسلحة العدو الخفيفة، وتلت ذلك عملية التقدم على مراحل تخللها ضرب متقطع للمدفعية، وفى المرحلة الأخيرة عندما اقتربنا من الأسلاك الشائكة فوجئنا بنيران هائلة تشتعل من داخل خندق عميق يحيط بالمستعمرة من جميع الجهات، فتوقفنا عن التقدم، والنيران تزداد اشتعالاً وكلما قاربت على الخمود (أى النيران) تعاود الاشتعال مرة ثانية فيصعب على جندى المشاة اجتياز الخندق لعمقه واتساعه، فتعطلت عملية الهجوم وبذلك تأخرت عملية الاقتحام النهائى».

«وتولانى الملل والإجهاد من طول الانتظار وحرارة الشمس الحارقة، ورأيت خلفى إحدى المدرعات المشتركة فى المعركة فزحفت أنا والشاويش وهبة لنحتمى تحت هذه الدبابة من حرارة الشمس الشديدة وانتظاراً للفرج».

«وأخذت أفكر فى إمكانية تكرار عملية الاقتحام كما قمت بها فى تبة الفناطيس. بدأت فى عمل الاختبار التقليدى برفع الخوذة على طرف السنكى بعد الزحف قليلاً من تحت الدبابة، إلا أن نيران العدو كانت تنهال على الخوذة كدليل على تمام استعداد العدو وتيقظه وسلامة خطوطه الدفاعية فى حماية مانع النيران الرهيب الذى منحهم الوقاية الكافية لكى يعيدوا تنظيم خطوطهم الدفاعية التى أصابتها المدفعية المصرية خلال عملية الضرب التمهيدى».

«وبعد أن قمت باختبار مدى يقظة العدو عدت مرة أخرى تحت الدبابة صارفاً النظر فى هذه اللحظة عن المجازفة بعملية اقتحام بمفردى، ويبدو أن الشاويش وهبة فى هذه اللحظة كان قد أصابه التعب من الوضع الذى استقر عليه تحت الدبابة ومن ضيق المساحة، فحاول أن يستلقى على جنبه فرفع جنبه الآخر فأصيب فى الحال وتأوه بشدة لكنه دون أن يشعر رفع جنبه الآخر فأصيب فيه، وبعد فترة ترك لى الشاويش وهبة سلاحه واستأذن فى الانسحاب زاحفاً إلى الخلف. وعندما لاحظ العدو حركة الشاويش تحت الدبابة توالت النيران المركزة على موقعى، فقررت التحرك من تحت الدبابة إلى مكان آخر، وقبل أن أهم بالزحف ناديت على جندى كان يرقد بجانبى فلم يجبنى، فأخذت أدفعه بيدى كى أنبهه ليشترك معى فى عملية الزحف لكنه كان جثة هامدة، أصبح فى عداد الشهداء».

«وانسحبت إلى العراء والشمس المحرقة ثانية، وبعدطول انتظار عاودت تجربتى برفع الخوذة فلم تصدر أى طلقات، فاعتقدت أن اللحظة الحاسمة قد جاءت معتقداً أن المدفعية المصرية قد نالت من خطوطهم الدفاعية، فنهضت للاقتحام فلم أشعر إلا ودانة هاون من العدو تنفجر بالقرب منى فانبطحت أرضاً على الفور، وتوالت دانات الهاون حولى فلم أشعر إلا والدماء تسيل من ساعدى، وأحمد الله أن الدانات لم تصبنى إصابة مباشرة، فقط أصابتنى شظايا متناثرة من دانات العدو. تم إخلائى للخلف، فأجريت لى عملية سريعة لتنظيف الجرح فى المستشفى الميدانى المتنقل، ثم رحلت فى قطار الجرحى إلى مستشفى القاهرة، وعلمت وأنا فى القطار أن النيران فى خندق العدو استمرت مشتعلة حتى مغرب ذلك اليوم، وأن الهجوم المصرى توقف مع انسحاب القوات المصرية فلم تستكمل هجومها بأى هجوم ليلى».

❑

ويحرص محمد عبدالفتاح أبو الفضل على أن يصور مشاعره حين عاد من المعركة لاستكمال علاجه فى مستشفى العجوزة، فإذا به يسمع أصوات الموسيقى الراقصة الصاخبة فى ملهى الكيت كات، ثم إذا به يسمع صفارات الإنذار التى تنبئ بأن إسرائيل أصبحت تملك طائرات تهاجم بها القاهرة :

«وصل قطار الجرحى الذى أقلنا من الجبهة حتى محطة إمبابة خلف كازينو الكيت كات استعدادا لإخلائنا ونقلنا إلى مستشفى العجوزة، ولشدة دهشتى سمعت أصوات الموسيقى الراقصة الصاخبة وهى تنبعث من ملهى الكيت كات، وكأن البلاد لم تكن تخوض حرباً يسقط فيها العديد من الجرحى والقتلى كل يوم، وأخذت أناجى نفسى «فرح وفساد هنا... وتقشف وموت هناك». وفجأة تعالت صفارات الإنذار لتصم آذان القاهرة منذرة بقيام

إسرائيل بغارة جوية. لقد أصبح لدى إسرائيل طائرات قادرة على التجرؤ بضرب القاهرة والفضل للهدنة وتعزيزات الدول الكبرى».

❑

ويصور صاحب هذه المذكرات لحظة نفسية مفعمة بمشاعر خطيرة حين علم وهو فى المستشفى بأن أحد البيوت فى الشارع الذى يسكن فيه فى القاهرة قد تهدم! :

«عند وصولى إلى المستشفى سمعت أخباراً زادت من جزعى، ونهضت محاولاً ارتداء ملابسى. كانت الغارة الجوية الإسرائيلية على القاهرة قد أسفرت عن تهدم أحد المنازل بحى عابدين وبالذات فى شارع البرامونى، وهو نفس الشارع الذى يقع فيه منزل الأسرة وتقطن فيه والدتى وشقيقاتى الأربع».

«وحاولت الخروج للاطمئنان عليهم لكن أحد الأطباء الشبان منعنى وأصرّ أن يذهب هو، وبالفعل عاد وبصحبته شقيقتى الكبرى التى فوجئت بى وطمأنتنى على سلامتهم، وإن أحد المنازل المجاورة لنا قد تهدم، فحمدت الله وشكرته على سلامة الأسرة».

«ومرت علينا بالمستشفى أيام وأخبار الجبهة تصلنا عن طريق إخوتنا من الضباط والجنود الجرحى الذين توافدوا على المستشفى فى أعداد كبيرة».

«كان الموقف يزداد سوءاً مع مرور الوقت، وعلمنا بحصار كتيبة كاملة بأسلحتها المعاونة فى «الفالوجا» إلا أن الكتيبة صمدت صموداً رائعاً والعدو يحيط بها من كل مكان، لكنها تمكنت من صد جميع الهجمات بإصرار، وأن قوافل التموين المسلحة تمكنت كذلك من اختراق هذا الحصار والوصول بالمؤن والذخائر للرجال المحاصرين. كما بلغنى أن كتيبتى التاسعة حوصرت هى الأخرى لكنها تمكنت من الانسحاب إلا أن الانسحاب كان غير منظم فأصابتها خسائر كثيرة».

«وتوالت ضربات العدو حتى أمكنه مطاردة القوات المصرية داخل حدود مصر بالقرب من العريش».

(١٢)

ويحدثنا أبو الفضل فى فصل كامل عن دوره ودور زملائه فى المقاومة السرية ضد الاحتلال أثناء العدوان الثلاثى على مصر عام ستة وخمسين (١٩٥٦)، وفى هذا الفصل يسجل أبو الفضل أدواراً بطولية متعددة قام بها الضباط وأبناء الشعب على خير وجه، مما

ساعد على تحقيق جلاء القوات المعتدية فى النهاية، وهو يروى تفاصيل تكوين فصائل المقاومة السرية فى تلك الفترة فيقول:

«فى النصف الثانى من يوليو سنة ١٩٥٦، تم انتقاء نخبة من الزملاء من ضباط الجيش والبوليس والمدنيين وتحدد لكل منهم منطقة لنشاطه للتحضير لعمل المقاومة السرية. كان فى منطقة أبو سلطان الزميل سعد [لم تذكر المذكرات بقية الاسم] ناظر محطة أبو سلطان، الذى سبق عمله معى أثناء مقاومة البريطانيين فى القنال فى الأعوام السابقة لإقامة الجلاء، وكانت له مدة خدمة طويلة بالمنطقة وله معارف فى كل مكان وفى كل القرى المحيطة. كلفته ومعه المواطن المكافح غريب تومى (غريب خضيرى) بإعادة الاتصال بالمندوبين السابقين بالمناطق الأخرى لإيوائه قيادات المقاومة، وتحضير غطاء مناسب لكل منهم».

«ثم تم تزويد كل منهم بموتوسيكل أو فيسبا، وتمت عملية تجهيز أماكن رئاسات المقاومة الفعلية والتجهيز، وذلك فى مدة عشرة أيام وكان التوزيع كالآتى:

«الإسماعيلية: عبدالفتاح أبو الفضل (رئاسة)

«القنطرة غرب: محمد الصلاحى والحاج محمد المعداوى

«الإسماعيلية: ضياء الدين حسنين، فايد: م. أول يحيى راشد

«السويس: م. أول عبدالقادر عبدالعظيم

«الصالحية: الشيخ حسين اللق (شيخ البلد)

«بورسعيد: صاغ يحيى القاضى ويوزباشى مصطفى كمال الصياد وباشجاويش باراشوت حسنى عوض والسيد إبراهيم عبدالغفار والسيد محمد على الشاعر».

«وبدأت القيادات فوراً فى تجنيد أفراد جماعات المقاومة ومن نفس أفراد المقاومة الشعبية الذين سبق تعاملهم ضد الجيش البريطانى قبل اتفاقية الجلاء، لكن بشكل سرى، وكل قيادة جهزت فى منطقتها مخازن لتشوين [هذا هو اللفظ المقصود، وفى الأصل المطبوع: لتسويق] الأسلحة والمتفجرات والمعدات التى ستستخدم فى المقاومة، وإذا بدأ العدوان كان من المفروض أن تتحول هذه المقاومة السرية إلى مقاومة شعبية شاملة».

«ولما شعرت بالموقف يتحرج وقد تسوء الأحوال، فقد عجلت بتسلم أكبر كمية من الأسلحة والمعدات إلى أفراد من الجيش أو الحرس الوطنى، وقام الزميل صلاح [لم تذكر المذكرات بقية الاسم] بإعداد كميات كبيرة من زجاجات المولوتوف والقنابل القرطاسية (هولو تشارج) وأعددت مقراً سرياً لرئاستى بالإسماعيلية فى إحدى الشقق هناك».

«فى يوم الاثنين ٢٩ أكتوبر مساء كنت بمدينة الإسماعيلية وعلمت هناك ومن خلال اتصال تليفونى مع رئاسة المخابرات بالقاهرة، أن إسرائيل قامت بالاستيلاء فى أثناء الليل على منطقة ممر متلا فى سيناء وهى خالية من القوات المصرية وبها فقط بعض جنود الحدود، مخترقة بذلك الحدود المصرية، وقد تمت الغارة على الممر بإسقاط جنود المظلات، وكذلك تم الهجوم على سدر الحيطان بقوة تقدر بكتيبة، وأن حجم العملية يدل على أنها مقدمة لعدوان شامل وليست عملية إسرائيلية محدودة».

«وفى صباح يوم الثلاثاء ٣٠ أكتوبر ١٩٥٦ سافرت إلى القاهرة وقابلت المشير عبدالحكيم عامر، الذى أمر بسرعة صرف جميع ما أحتاجه من معدات وأسلحة من مخازن الجيش والحرس الوطنى لتوزيعها على المقاومة الشعبية. وفتحنا مركز تجميع لقوات المقاومة من خارج المنطقة بعزبة الأستاذ حسين ذو الفقار عمدة طويحر بالشرقية، ومركز رئاسة فى نفيشة فى عزبة العمدة قاسم سلطان».

«وفى مساء ٣٠ أكتوبر ١٩٥٦ ظهرت تمثيلية الإنذار البريطانى ـ الفرنسى مطالبا الجانبين المصرى والإسرائيلى بإيقاف القتال برا وجوا، وأن يسحب كل منهما قواته بعيدا عن القنال بمسافة عشرة أميال على الأقل. وعلى أن توافق مصر على احتلال القوات البريطانية والفرنسية مؤقتا للنقط الرئيسية فى كل من بورسعيد والإسماعيلية والسويس لضمان حرية الملاحة، على أن ينفذ ذلك خلال ١٢ ساعة وإلا سيضطرون للتدخل العسكرى. ورفض مجلس الوزراء المصرى هذا الإنذار واستمر الطيران المعادى فى ضرب قواتنا طول النهار على طريق تقدمها إلى سيناء».

«وفى يوم الأربعاء ٣١ أكتوبر ١٩٥٦ تأكدت لدينا المعلومات التى سبق أن رفعها جهاز المخابرات إلى الرئاسة عن الاستعدادات البريطانية فى قبرص ومالطة للنزول فى منطقة قناة السويس، وذلك بقيام العدو بغارات جوية مركزة ومتلاحقة على جميع المطارات المصرية بمنطقة القناة، وظهر جليا أن الهدف هو تدمير السلاح الجوى المصرى الذى سيطر على سماء المعركة مع إسرائيل حتى ذلك اليوم، بالرغم من مساعدة الطيران الفرنسى للقوات الإسرائيلية».

«وفى يوم الخميس ١ نوفمبر ١٩٥٦ استمرت الغارات المركزة على جميع الأهداف والمنشآت المصرية، وبدأت الطائرات البريطانية والفرنسية فى اللجوء إلى الطيران المنخفض لتحقق دقة إصابة أهدافها.. وصدر فى صباح يوم ١ نوفمبر ١٩٥٦ قرار مصرى بسحب القوات المصرية من سيناء لإفساد مخطط بقطع خط الرجعة على الجيش المصرى فى سيناء، واستمرت الطائرات المعادية فى ضرب القوات على طريق الانسحاب. وفى نفس الوقت

وصلت كميات هائلة من الأسلحة للتوزيع فى المنطقة على الشعب بأكمله ليقاتل بجانب الجيش».

❑

ولا تخلو هذه المذكرات بالطبع من تسجيل آراء صاحبها فى الأحداث الكبرى التى مرت بالوطن، وعلى رأسها الحروب العربية ـ الإسرائيلية المتتالية، ومن الإنصاف أن نذكر أن أبو الفضل قد تجنب الانحياز الأعمى فى تقييم القوات المسلحة التى ينتمى إليها، وأنه آثر أن يبدى آراءه الموضوعية فى مستوى الأداء ، وأن يذكر المآخذ البارزة عليه من وجهة نظره، وقد فعل الرجل هذا وهو يتألم، لكنه نجح فيما فشل فيه غيره ، فقد نجا من قدر كبير من الاستملاء وهو ينتقد مواقف القيادات السياسية والعسكرية المسئولة عن هذه الفترة.

وعلى سبيل المثال نرى صاحب هذه المذكرات وهو يتحدث بأسى شديد وأسف بالغ عن موقف القوات المسلحة المصرية فى أثناء العدوان الثلاثى من واقع ما رآه وشاهده بنفسه فيقول:

«... وفى يوم السبت ٣ نوفمبر سنة ١٩٥٦ أثناء مرورى على طريق القاهرة ـ الإسماعيلية مع قوى المقاومة الشعبية لمقاومة الغارات الجوية على الطريق دخلت محطة أبو صوير الجوية العسكرية ، وكان منظر العدد الكبير من الطائرات المصرية الميج الروسية الصنع وهى محطمة على أرض المطار مؤلماً للغاية».

«وعلمت هناك من أحد الفنيين أن هذه الطائرات ما كان يجب أن تضرب وتحطم بهذه السهولة (أولا) لأن الزمن الذى كان يستغرقه الطيار من وقت الإنذار حتى الصعود إلى الجو بهذا النوع من الطائرات زمن بسيط جداً ، لكن الطيارين المصريين وقت ضرب القاعدة كانوا يبيتون فى فندق بمدينة الإسماعيلية (فندق المسافرين) ولم يكن بالمحطة العسكرية أى طيار. (ثانيا) أنه كان من المفروض على المسئولين عن القاعدة أن يخفوا الطائرات تحت الأشجار الموجودة حول أرض المطار خصوصاً أن هذا النوع يمكن سحبه بسهوله ولو بالأيدى لخفة هذه الطائرات».

«وفى نفس اليوم أرسلت كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر ومواد النسف إلى المقاومة الشعبية فى بورسعيد دخل بها الزميل سمير غانم وعاد».

«وفى بورسعيد صباح يوم الأحد ٤ نوفمبر سنة ١٩٥٦، بدأ الهجوم المركز من العدو وكانت القطع البحرية الفرنسية والبريطانية قد دخلت الغاطس أمام بورسعيد حتى وصل بعضها إلى مسافة ٤٠٠ متر من الشاطئ ، ووجهت نيران مدافعها على شواطئ بورسعيد

وبورفؤاد وكانت تسقط ألف دانة مدفعية فى الدقيقة على ساحة بورسعيد آنذاك وهى ٤ كيلومترات مربعة، وبذلك فاقت كثافة النيران المعادية أكبر تركيز بالنيران لأية معركة من معارك الحرب العالمية الثانية. فدمرت كافة الأسلحة المصرية الثقيلة المضادة للسفن والطائرات، وأمست بورسعيد خالية من الأسلحة الثقيلة».

«وبدأت قيادات المقاومة الشعبية بالمدينة: مصطفى كامل الصياد، وحسنى عوض التنسيق مع ما تبقى من وحدات الجيش القليلة فى المدينة للتعاون معها والاشتراك فى خطة الدفاع وذلك بجمع طوائف الشعب، وكان قائد الكتيبة الرابعة مشاة العقيد حسين توفيق يسن وهو المسئول عن الدفاع على طول الشاطئ ووحداته منتشرة من منطقة مطار الجميل إلى الجبانات إلى البلاح إلى كوبرى الرسوة بأعداد بسيطة. كذلك كان هناك عدد محدود من رجال الجيش المصرى فى منطقة مكاتب شركة القنال».

«وكان الموقف مؤثراً للغاية عندما رحب القائد حسين توفيق يسن باشتراك المقاومة مع قواته. وقال لمصطفى الصياد إنه كان يشعر قبل هذه المساهمة الشعبية بضعف وقلة قواته وبالوحدة القاتلة على طول هذه الجبهة، لكن الشعب المسلح بالروح العالية رفع من روحه وروح جنوده المعنوية وأقسم بالله على المقاومة لآخر طلقة».

«استمرت الغارات الجوية ومدفعية الأسطول فى الضرب والإجهاز على مواقع المدفعية المصرية ومدفعية السواحل وبطارية الصواريخ التى استشهد عدد كبير من جنودها. نظمت المقاومة طريقة لترحيل النساء وكبار السن والأطفال عبر البحيرات إلى دمياط والمطرية، وفى مساء ٤ نوفمبر ١٩٥٦ كانت وحدات الجيش المتبقية فى المدينة كلها من المشاة فقط، وهى عبارة عن الأحياء من الكتيبة ٢٧٥ فى بورفؤاد والكتيبة ٢٩١ والكتيبة الرابعة، كذلك كانت هناك بطارية مدافع صاروخية فى حى المناخ وكتيبة حرس وطنى بين مطار الجميل والبلاح».

«ويوم الأثنين ٥ نوفمبر ١٩٥٦ فى الساعات الأولى من الصباح استأنفت مدافع الأسطول والطائرات المعادية الضرب على مواقع وخنادق الجيش والمقاومة ثم توقفت مرة واحدة بما كان يوحى ببدء إنزال قوات العدو على الشاطئ».

«وفى الساعة التاسعة صباحاً [ربما يقصد الساعة السابعة لأنه يشير فى الفقرة التالية إلى أن الموجة الثانية هبطت فى التاسعة صباحا] أسقط العدو موجته الأولى من رجال المظلات بمنطقة مطار الجميل وتمكنت قوات المقاومة والجيش هناك من إبادتها عن آخرها».

«وفى التاسعة هبطت الموجة الثانية بشكل موسع على طول الشاطئ وعلى بورفؤاد، وأبلى الجميع بلاء حسناً فى مقاومتها وأبيد معظمها إلا بعض هابطين منفردين تمكنوا من الهروب

فى المناطق القريبة لكن الشعب كان يتعقبهم ويجهز عليهم وحدثت خسائر كبيرة فى جنود الجيش واستشهد كثير من أفراد المقاومة».

(١٣)

ويحرص صاحب المذكرات على أن يشيد ببطولة قائد القوات المصرية المدافعة عن بورسعيد فى هذه الحرب وهو الشهيد العقيد حسين توفيق يسن، وإن القارئ ليعجب من أسماء وبطولات هؤلاء الأبطال الشهداء الذين أغفلت بلادنا تكريمهم حتى هذه اللحظة:

«... فى نفس الوقت ضرب البطل القائد العقيد حسين توفيق يسن قائد القوات المصرية المدافعة، المثل الأعلى فى الفداء، واستشهد فى خندقه فى منطقة الجبانات، وكان القدوة فى سلوكه وقوة عزيمته لجنوده وإخوانه من أفراد الشعب المشترك معه فى الدفاع الجيد. ونظراً لكثرة خسائر العدو فى الهابطين من المظلات فى هذه المناطق الدفاعية المستميتة، تم إسقاط الموجة الثالثة بشكل مكثف على المناطق الخالية من الدفاعات حول وابور المياه وموجة أخرى من المظليين الفرنسيين فى بورفؤاد فى منطقة بعيدة بعض الشىء عن الدفاعات المصرية وكونت رأس كوبرى بها بعد أن طاردها بعض أفراد المقاومة والجنود المصريين، وحدثت خسائر كثيرة بين الطرفين، ولكن الفرنسيين تمكنوا أخيراً من احتلال بورفؤاد كما تمكنت القوات الهابطة عند وابور المياه منه واحتلته قبل غروب يوم ٥ نوفمبر ١٩٥٦».

«وفى مساء يوم الأثنين ٥ نوفمبر ١٩٥٦ وبينما إيدن يعلن كذباً فى مجلس العموم أن بورسعيد استلسمت، استأنفت الغارات الجوية المركزة على المدينة وبخاصة على مخازن الأخشاب ومستودعات البترول والكبائن الخشبية وحى المناخ وكل ما هو قابل للاشتعال، واشتعلت المدينة بشكل مخيف، وتحولت إلى كتلة هائلة من النيران، وسيطر العدو فى مساء هذا اليوم على موقعين فقط هما موقع وابور المياه وموقع منعزل فى بورفؤاد».

«بعد فجر يوم ٦ نوفمبر ١٩٥٦ وعلى أول ضوء لصباح كانت شوارع المدينة مملوءة بجثث الشهداء من المدنيين. واستأنف العدو العمليات الجوية ومدفعية الأسطول الضرب بشكل مركز ومتواصل إلى أن أحدثوا ستارة كثيفة من الدخان على طول الساحل استطاع بها العدو الاقتراب والتقدم بقوارب إنزال الجنود المحملة، ونجح فى إنزال قوة مشاة الأسطول وعدد من الدبابات، وتمكنت هذه القوات المعادية من احتلال مناطق متفرقة على الساحل».

«فى نفس الوقت تمكنت قوات مظلات [العدو] من احتلال مطار الجميل بعد تدمير كل

دفاعاته تحت ستار نيران الغارات الجوية ومدفعية الأسطول، وتمكنت قوات الأسطول المعتدى من احتلال ميناء بورسعيد وأنزل العدو جميع وحداته ودباباته التى اتجهوا بها وخلفها الجنود المترجلون إلى المدينة بعد أن أحدثوا ثغرة فى سور الميناء، وانتشروا فى أنحاء مدينة بورسعيد، وكانت تقابلهم الجموع الشعبية المسلحة، وأحدثوا فى الشعب خسائر كبيرة إلى أن وصلوا داخل الشوارع، فكانت المعارك العنيفة مع الشعب الرابض فى كمائن فوق الأسطح وفوق أشجار الحدائق وخلف البواكى ومن داخل المنازل، وكانت معركة رهيبة ولكن غير متكافئة، حيث تمكن العدو من هدم كثير من المنازل بواسطة مدافع الدبابات».

(١٤)

ويضرب صاحب هذه المذكرات المثل على وطنية أبناء شعبه وحبهم لبلادهم ببعض البطولات التى قام بها أفراد المقاومة الشعبية فى بورسعيد شارحا بالتفصيل ما حدث فى عمليتى الأشجار وخلف البواكى:

«عملية الأشجار: انتشر بعض أفراد من الفدائيين المصريين فوق أشجار حديقة البلدية (حديقة الباشا) وانتظروا مرور إحدى دبابات العدو وخلفها عدد من الجنود المترجلين، وفجأة فتحوا عليهم النيران من فوق الأشجار فقضوا على جميع المترجلين من العدو، وقبل أن توجه مدافع الدبابات إليهم النيران تمكنوا من النزول والهرب».

«كمين خلف البواكى: كمن جمع من الفدائيين خلف البواكى عند المنزل رقم ٤٥ شارع عبادى فى انتظار مرور إحدى دوريات الأعداء، وعندما أخذوا يطلقون النيران على الدورية تمكنت الدورية من إصابة يسرى بخيت الذى استشهد فى الحال وسقط جنديان بريطانيان قتلى، وتقدم شقيق الشهيد يسرى بخيت ليحمل جثته بعد انسحاب أفراد المقاومة واستشهد الشقيق الآخر وجدى بخيت وكانت والدتهما مقيمة فى نفس المنزل فخرجت تصيح على ولديها غير عابئة بجنود العدو واتجهت صوب الجثتين وقبل أن يصوب جنود الأعداء النار على الأم الثكلى تمكنت مجموعة أخرى رابضة فى إحدى النوافذ من الضرب على باقى أفراد الدورية البريطانية وقتل جميع أفرادها».

«وعند تقاطع شارع محمد على بالقرب من شارع الحميدى أمام كنيسة الأقباط، كانت هناك دبابة بريطانية مفتوحة البرج ويقف به ضابط يراقب المنطقة وخلفه دبابة أخرى، وفجأة خرج الفدائى عبدالله إبراهيم وبيده قنبلة يدوية واندفع بسرعة فائقة بجانب الدبابة وقبل أن

يأخذ الضابط حذره ألقى الفدائى بالقنبلة داخل فتحة الدبابة وأصيب الضابط وحدث انفجار داخل الدبابة أوقفها وأطلقت الدبابة الثانية النيران على البطل واستشهد الفدائى عبدالله إبراهيم».

«احتل بعض القناصة البريطانيين أسطح كثير من المنازل ليؤمنوا تحركات قواتهم فى الشوارع، وفى منطقة حديقة زغلول أمام رصيف فرقة المطافئ كانت مجموعة من الفدائيين تسير، ولم يكن موجوداً أى جنود بريطانيين فى الشوارع ولم يتوقع الفدائيون وجود القناصة بأعلى المنازل المجاورة، وفجأة أطلق القناصة النيران عليهم وأصابوا عدداً من الفدائيين واستشهد بعضهم، ولكن كان معهم الفدائى اليونانى الأصل والمصرى الموطن بنايوتى مافروماتين وتأكد من مكان القناصة من فوق منزل نفوسة واحتمى بنايوتى بجانب إحدى البواكى ومن موقعه وبمدفعه أخذ يطلق النيران عليهم، وحضرت دورية بريطانية فى الحال وأطلقوا النيران على بنايوتى واستشهد مع زملائه المصريين بعد أن تمكن من قتل أحد القناصة البريطانيين».

«فى مساء يوم ٦ نوفمبر ١٩٥٦ قطعت القوات المعتدية مياه الشرب عن المدينة من وابور المياه حيث كانوا يحتلون منطقة محطة وخزان المياه».

«وفى الساعة الثانية من صباح يوم ٧ نوفمبر سنة ٥٦ أوقف المعتدون إطلاق النار طبقاً لقرار هيئة الأمم، لكنهم استمروا فى إشعال الحرائق فى المبانى التى كانوا يعتقدون أن بها أوكار للمقاومة الشعبية، وباتت بورسعيد حزينة على شهدائها الأبطال، عطشى بغير مصدر للمياه، جرحى لا يجدون الرعاية الكافية من تضميد الجراح ولكنها كانت رافعة الرأس لقيامها بواجبها المقدس فى الدفاع لآخر رمق».

(١٥)

ويورد محمد عبدالفتاح أبو الفضل فى مذكراته التى بين أيدينا تفصيلات مهمة عن عملية نسف طريقى القناة والمعاهدة، وتنبئنا التفصيلات الدقيقة التى يرويها صاحب هذه المذكرات عن مدى قدرة أفراد شعبنا العظيم على التصدى بأنفسهم لكل احتمالات الغدر والاعتداء إذا ما ابتعدت عنهم التوجيهات الفاسدة والقيادات الجاهلة، فهذا هو الشعب المصرى بكل طوائفه يتقدم لتحقيق إنجازات عسكرية عجزت عنها قيادة القوات المسلحة فى ١٩٥٦ و بعدها بتسع سنوات فى ١٩٦٧ للأسف الشديد :

«... يوم ٦ نوفمبر ١٩٥٦ أعلن همرشلد سكرتير عام الأمم المتحدة موافقة بريطانيا وفرنسا على إيقاف القتال فى مصر ابتداء من منتصف ليل ٦ نوفمبر ١٩٥٦، ولعلمنا أن الكلام شىء والفعل شيء آخر توقعنا تقدم القوات المعادية واتصل كمال رفعت بالرئيس جمال عبدالناصر واقترح كمال نسف طريقى القنال والمعاهدة واستمرارنا فى المقاومة».

«واتفق مبدئياً على نقطة دفاعية بمثابة عنق الزجاجة حددناها على الخرائط وسط الملاحات وأرض رخوة جداً يصعب تقدم الدبابات عليها إذا ما نسف الطريقان عندها، لتعطيل أى تقدم للجيش البريطانى والفرنسى فى اتجاه الإسماعيلية، ثم التقدم فى اتجاه بورسعيد لاستعادة موقع جسر الحرس».

«وأبلغنا بعض المتطوعين بالإسماعيلية بأن هناك عملية هامة سنقوم بها، وتوافدت علينا أعداداً كبيرة من المتطوعين المدربين وغيرهم. وفى السابعة والنصف مساء تحركنا فى طابور كبير من العربات لا تقل عن ٧٠ عربة مدنية بعضها محملة بالأفراد من جميع الأعمار من سن ١٤ سنة إلى ٧٠ سنة وهم يحملون أسلحتهم ومواد النسف وأدوات الحفر».

«واصلنا زحفنا إلى جسر الحرس بتكتيك قتالى تحرزاً من أن تكون القوات المعادية قد احتلته. وفى النهاية وجدناه خالياً ووزعت القوات عليه فى مواقع دفاعية وعدت بمفردى لموقع النسف. وأثناء حفر مواقع النسف خرج إلينا أهل القنطرة غرب وعلى رأسهم مأمور قسم القنطرة البكباشى عمرو وهبى ومعه كل قوة البوليس هناك، وقوة أخرى من خفر السواحل وقوة مسلحة من أهالى القنطرة، وعندما شعروا بوجودنا ونحن نعمل على الطريق فى ظلمة الليل حضروا مقدمين أنفسهم للمقاومة فى أى عمل يساهمون به للدفاع عن بلادهم وعمل الجميع بعزيمة صادقة مما عجل بالانتهاء من عملية الحفر».

(١٦)

ويستأنف صاحب هذه المذكرات حديثه راوياً المشاركات الفاعلة التى شاركت بها قوات الحرس الوطنى لتزداد القوات الوطنية قوة وثقة بنفسها. ويحرص صاحب المذكرات على أن يرينا أن الفهم الاستراتيجى لحقائق الأمور ولتكتيكات الدفاع لم يكن بالأمر الصعب ولا المستحيل على أمثال هؤلاء الوطنيين من غير ذوى المواقع الرسمية فى السلطة، فهم يسمعون الراديو ويحللون ما أعلنه رئيس وزراء فرنسا ويتصرفون على هذا الأساس:

«... حضرت قوات الحرس الوطنى محملة على اللوارى وكان خليطاً من طلبة الجامعات

وطلبة كلية البوليس وموظفين وتركنا لهم جميع أفراد المقاومة التى كانت معنا وكذلك قوات البوليس وخفر السواحل ليعاونوا فى عملية الدفاع لتعطيل أى تقدم للأعداء فى اتجاه الإسماعيلية، وأثناء الانتظار حتى يتم الاحتلال، فوجئت بصوت قائد الحرس الوطنى فى الظلام، ووجدتنى أتذكر هذا الصوت لأنى أعرف صاحبه تمام المعرفة واقتربت منه، فتحققت أنه كمال عزمى، الذى يحمل رتبة يوزباشى احتياطى. كنت قبل هذه اللحظة أجهل كل شىء عن نشاطه الوطنى حيث كان المسئول عن تدريبى فى شركة الإعلانات المصرية (دار الجمهورية) قبل سفرى إلى السودان، أثناء فترة تدريبى، كان يبدو لى أنه شخص مدنى أبعد ما يكون عن اختياره لعمل جاد كالتطوع والعمل الفدائى، وعلمت أنه عمل ضابطاً احتياطياً متطوعاً فى حملة فلسطين مع قوات أحمد عبدالعزيز».

«سمعنا أن جى موليه رئيس وزراء فرنسا أعلن عن سقوط الإسماعيلية فى البرلمان الفرنسى، فاستنتجنا أنهم قد يهاجمون الإسماعيلية، فعدنا إلى الإسماعيلية لتجهيز مواقع فدائية حولها وبداخلها».

«فى نفس الليلة (٦ نوفمبر ١٩٥٦) وجهت روسيا إنذاراً جديدا إلى الدول المعتدية أعلنت فيه أنها ستسمح لعدد هائل من المتطوعين الطيارين ورجال الدبابات والمدفعية والضباط بالسفر إلى مصر للقتال جنباً إلى جنب مع الشعب المصرى لطرد المعتدين إذا لم ينسحبوا».

«وإزاء تباطؤ المعتدين فى الانسحاب، أعلن الاتحاد السوفيتى أنه لن يقف مكتوف الأيدى أمام هذه القرصنة الدولية، وأذيع أيضاً فى نفس الليلة نبأ نسف سوريا لأنابيب البترول التى تؤثر على تدفق بترول العرب المحلى إلى بلاد المعتدين، وكذلك نسف آبار البترول فى جميع أنحاء مناطق البترول العربية وكان للأخوة الفلسطينيين الفضل فى كل ذلك».

«وفى الساعات الأولى من صباح يوم ٧ نوفمبر ١٩٥٦ وصلتنا إشارة من القوة التى احتلت جسر الحرس (من الحرس الوطنى بقيادة كمال عزمى) أن هناك قوة معادية تتقدم، سمعوا أصواتها من موقع الكاب أمامهم. وبعد ساعة أخرى حوالى الساعة الثانية اشتبكت دورية من العدو مع قوة دفاع جسر الحرس واستشهد اثنان من طلبة الجامعة هما محمد محروس وبهجت قيودان، وأصيب طالب الطب محمد صادق سامى، وأسر طالب الجامعة جواد حسنى الذى استشهد بعد ذلك وهو فى معسكر الأسرى فى بورفؤاد ، وقتل ثلاثة من الأعداء».

على هذا النحو يقدم عبدالفتاح أبو الفضل كل هذه التفصيلات دون أن يروى لنا كيف احتفظ بها فى ذاكرته طوال الفترة التى انقضت منذ ١٩٥٦ وحتى كتب مذكراته، كما أنه لا

يشير بطريقة أو بأخرى إلى أنه استعان بمصدر رسمى أو مرجع مكتوب لرواية كل هذه التفصيلات، ومع تركيزه على الدور الذى أداه و شارك به فإنه لحسن الحظ لا يورط نفسه فى تقييم أدوار غيره من قادته و رؤسائه، وكأنه يكتفى برواية ذكرياته فحسب مع أنه يحرص فى معظم ما يرويه على أن يضع ذكرياته فى إطار التاريخ العام، ومع هذا فإنه لا يعنى بأدوار غيره على نحو ما نتوقع أو ننتظر.

(١٧)

وبعد صحفات من الحديث عن المقاومة السرية يحكى محمد عبدالفتاح أبو الفضل تجربة نفسية فى غاية الثراء، وهى قصة وقوعه هو نفسه فى الأسر لفترة قصيرة وهو يحكى تفاصيل طريفة عن معاملته هو وزملائه فى أثناء هذ الأسر ، فضلاً عن أنه يورد سبب أسرهم على النحو الطريف الذى يذكره حيث يقول:

«... فى يوم ١٤ ديسمبر وصلتنى إشارة شفرية عن طريق جهاز اللاسلكى لأعود من بورسعيد، ومعى الزميل محمد فائق ليحل محلنا سعد عفرة بمجموعة أخرى، رتبت طريقة العودة مع الريس عبدالمنعم الذى سبق أن حضرنا معه من المطرية».

«وغادرنا بورسعيد عن طريق القابوطى صباح يوم ١٥ ديسمبر مبكرين بعد ارتداء ملابس الصيادين، وكان معنا الأستاذ الطناحى من مجموعة الإعلام (لعله يقصد الأستاذ طاهر الطناحى الكاتب البارز فى دار الهلال فى ذلك الوقت) حيث كان مريضا».

«قادنا الريس عبدالمنعم عن طريق آخر فى مياه البحيرة الضحلة مسافة طويلة لنصل إلى مركبه فى (الغاطس) بعد جزيرة صغيرة هى جزيرة الخندق، وعندما وصلنا إلى هذه الجزيرة ظهرت فجأة طائرة استكشاف بريطانية تطير فوق الملاحة وأخذت تحوم حولنا على ارتفاع منخفض، وقبل أن تصل إلى القارب مباشرة خرجت علينا من داخل أعشاب البحيرة دورية بريطانية فاحتجزتنا جميعاً وكان معنا عدد كبير من الصيادين والعمال، وأمرونا بالجلوس على الأرض».

كنت أرتدى سويتر وضعت فى جيوبه الداخلية نماذج من المنشورات والصحف التى كنا نطبعها ونقوم بتوزيعها داخل بورسعيد ضد الاحتلال».

«وتوقعنا المتاعب فخلعت السويتر وبه المنشورات ووضعته داخل الأعشاب وأخذت فقط بطاقتى المزيفة ومائة جنيه كانت معى أعطيتها للريس عبدالمنعم واحتفظت بالبطاقة فى جيب

الجلابية. وعلى الفور بدأوا بتفتيشنا وعثروا مع الريس عبدالمنعم على النقود فاستولوا عليها، أما أنا فقد سلبونى دبلة الزواج وأخذوا من الأستاذ الطناحى علبة الدواء، أما محمد فايق فوجدوا فى يده ساعة سلبوه إياها، وأخذ محمد فايق يصيح بالإنجليزية: أعطونى ساعتى.. أعطونى ساعتى.. أنا مدرس وفى حاجة إلى ساعتى. وأخذ الإنجليز يضحكون، وبالطبع لم يعيدوها له».

«ثم جاءت مرحلة الاستجواب وكان يوجه السؤال بالإنجليزية ضابط بريطانى وبجانبه مترجم يتكلم اللغة العربية باللهجة الشامية. ولما جاء دورى كان الضابط بعد أن اطلع على البطاقة يوجه لى السؤال باللغة الإنجليزية، وكنت لا أعيره اهتماماً لأنى صاحب محل دراجات لا يفهم الإنجليزية. وقد تم الإفراج عن الريس عبدالمنعم والأستاذ الطناحى والزميل محمد فايق وركبوا المركب إلى المطرية، أما أنا فقد كشفو ا على باطن كفى ووجدوها غير خشنة بدرجة كافية كعامل يعمل بيديه، واحتجزونى مع عدد آخر من المعتقلين، وأرسلوا فى الاستفسار عن صحة المعلومات التى بالبطاقة، واحتجزت لمدة ثلاث ساعات قاموا بتشغيلى مع باقى الأسرى فى نقل الحجارة «دشمة مدفع» كانوا يقومون بتحصينها، وكان العمل متواصلاً، ثم أفرج عنى وحدى، وعدت مسرعاً إلى بورسعيد مرة ثانية لأبلغ باللاسلكى أننى لازلت محتجزاً فى بورسعيد وكانوا قلقين علىّ حتى أبلغهم محمد فايق بما حدث».

«وفى يوم ١٧ ديسمبر قبل الغروب فوجئت وأنا برئاسة المقاومة بحضور سعد عفرة فى زى رجال الإسعاف وبصحبته آخرون من رجال إسعاف الإسماعيلية ومعهم عربة إسعاف جاءت بتصريح من البوليس الدولى عبر طريق الإسماعيلية - بورسعيد خلال نقط تفتيش الجيش الفرنسى، استبدلت ملابسى بملابس أحد أفراد الإسعاف لأعود بدلاً من سعد عفرة».

«وفى يوم ٢٣ ديسمبر احتفلنا جميعاً بجلاء العدو».

(١٨)

ولا يجد صاحب هذه المذكرات [ولا كاتبها] أية صعوبة فى الحديث عن معتقداته الشخصية تجاه الأحداث الكبرى التى مر بها الوطن فى أثناء حياته ومشاركاته فى السياسة العامة، وعلى سبيل المثال فإن محمد عبدالفتاح أبو الفضل يحكى مأساة ١٩٦٧ من وجهة نظره بكل ما فيها من أسف وأسى، وهو يروى فى البداية وقبل وقوع الحرب كيف أنه شاهد قوات الاحتياط فى محطة سكة حديد القنطرة شرق فى حالة يرثى لها من الفوضى، وهو يصف حالها فى ذلك اليوم فيقول:

«... فوجئت في المحطة بحالة من الفوضى لقوات الاحتياط يعجز الإنسان عن وصفها، والمفروض أنها على وشك الاشتراك فى القتال فى الجبهة، كان الكل فى ملابس مدنية ومعظمهم بجلاليبهم الريفية ويحملون بنادقهم وليس هناك أى زى عسكرى، جمعوا من قراهم على عجل، ودون أى ترتيبات إدارية، وتسلموا أسلحتهم فقط وهم بجلاليبهم المدنية وشحنوا فى السكة الحديد كالدواب دون أى تجهيز أو ترتيب إدارى من مأكل أو مشرب أو راحة».

«كانوا يندفعون لشراء طعامهم من الباعة الجائلين بالمحطة فى فوضى شاملة لا يتعدى مظهرهم خفر الريف إن لم يكونوا أقل مستوى من ذلك».

ويبلور أبو الفضل وصفه لقوات الاحتياط المصرية هذه فى قوله:

«حشد هائل من الشباب والرجال الضائعين نتيجة إهمال واستهتار سلطات القوات المسلحة بآدميتهم وإنسانيتهم، انعكس الشعور بالضياع علىّ كرجل عسكرى ومقاتل سابق».

«وسألت نفسى: «هل هذه هى حالة قواتنا التى سنواجه بها جنود عدوتنا إسرائيل؟ وفى المقابل: هل عدوتنا إسرائيل عندما أعلنت التعبئة عاملت شبابها بهذا الأسلوب غير الآدمى؟».

ثم يردف أبو الفضل بقوله :

«اعتذرت عن عدم إلقاء أى كلمات وغادرت المحطة حزيناً متشائماً من هذه المأساة الإنسانية، كل ذلك جعلنى عندما عدت إلى مكتبى بالقاهرة أبادر بكتابة مقال فى نشرة الاشتراكى ظهر فى العدد ٦٢ بتاريخ ٢٧/ ٥/ ١٩٦٧ عن المواجهة المنتظرة مع إسرائيل جاء فيه: «إن المواجهة بيننا وبين إسرائيل هى تحد حضارى، أى صدام كامل بين مجتمعين وليس مجرد جيشين».

❑

قد نستطيع أن نسأل أنفسنا هنا سؤالاً بسيطاً: هل كان مقال أبو الفضل فى نشرة الاشتراكى كافياً لأن يقرع أجراس الخطر؟ وهل كانت هذه العبارات العمومية كفيلة بتصوير دقيق أو موح لحالة الفوضى التى وجد عليها قوات الاحتياط؟ وهل كان هذا المقال هو أقصى ما يستطيعه نائب رئيس المخابرات السابق؟

(١٩)

وعلى مدى صفحات أخرى من المذكرات يحدثنا أبو الفضل بنفس الروح الوطنية الناقدة عن مشاعره المشابهة حين جاءه طلاب مصريون بالجامعة الأمريكية ووضعوا

أنفسهم بحماس كبير تحت تصرفه فلم يستطع أن يجد جهة حكومية تلبى هذا التطوع الشعبى، ثم يحكى لنا قصة اجتماع المجلس الأعلى للمقاومة الشعبية قبل المعركة بأسبوع فيقول:

«وفى صباح يوم ٣٠ مايو سنة١٩٦٧ عقد أول اجتماع للمجلس الأعلى للمقاومة الشعبية بجميع أعضائه برئاسة السيد زكريا محيى الدين وحضر الاجتماع كبار قادة الجيش، وبعد توزيع الواجبات، أسند إلىّ قيادة تنظيم المقاومة الشعبية فى منطقة القنال، ولما سألت عن الترتيبات المتاحة لأجل تجنيد وتدريب وتنظيم وإمداد مَنْ سأقودهم من شعب القنال، تبين لى أن الحرس الوطنى سيوضع تحت تصرفى فى وقت اللزوم وسيكون جاهزاً لأى عمليات دون الحاجة إلى تشكيل مقاومة شعبية كما حدث فى ١٩٥٦».

«وجاء دور قائد الحرس الوطنى الضابط يوسف حسن محمد وسبق لى الخدمة معه فى الجيش وقال: إنه استكمالاً لتقوية قواته فإنه فى حاجة إلى تشكيل ثلاثة لواءات جديدة، سألت رئيس الاجتماع عن الزمن الكافى لتشكيل هذه اللواءات الثلاثة فأجاب بأنه يمكن تشكيلها فى وقت من أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع».

«أثارنى هذا الرد غير المنطقى وانفعلت قائلا: «إن ثلاثة لواءات معناها عدديًا لا يقل عن ثمانية آلاف جندى، وإن أى قائد عسكرى لو أعطى هذا العدد من قطع الشطرنج لفشل فى رصها وتشكيلها فى مثل هذه المدة، ناهيك عن التشكيل والتدريب والإعاشة، وتسليح هذا العدد الهائل من الرجال».

«وقبل نهاية الاجتماع طلبنى السيد زكريا محيى الدين لمقابلته فى مكتبه، وسألته وأنا فى غاية القلق عما إذا لم تكن القيادة السياسية فى الدولة وعلى أعلى مستوى قد اجتمعت وناقشت تقدير موقف عن حالة الحرب المنتظرة للوقوف على مدى قدرة مصر على الصمود والمواجهة إزاء أى عدوان محتمل قد تشارك أو تساهم فيه أى من الدول الكبرى مع إسرائيل، على الأقل من ناحية التموين والوقود وخلاف ذلك من الاحتياجات الاستراتيجية الهامة، كان الرد أن الرئيس عبدالناصر اكتفى بوعد أخذه من المشير عامر بأن الجيش المصرى إذا دخل المعركة مع إسرائيل فسوف ينتصر على طول الخط».

هكذا يكرر عبدالفتاح أبو الفضل ما هو شائع عن علاقات قياداتنا الكبرى فيما قبل معركة ١٩٦٧ دون أن يتعمق الحديث عن طبائع هذه المناقشات ومدى صدق ما هو مروى عنها.

(٢٠)

ثم نأتى إلى حديث صاحب هذه المذكرات عما بعد وقوع الواقعة فى ٥ يونيو حيث يروى لنا أبو الفضل أحداثاً مهمة حدثت فى ثانى أيام الحرب، أى فى ٦ يونيو فيقول:

«... وفى فجر ٦ يونيو كان هناك إنذار بغارة على القاهرة، توجهت بعدها مباشرة فى الصباح المبكر إلى مبنى المخابرات العامة، وقابلت رئيس المخابرات العامة، وأشار علىّ بالمشاركة فى اجتماع مع رؤساء هيئات المخابرات لوضع تقدير موقف بناء على آخر المعلومات عن قواتنا وقوات العدو والمؤامرات الخارجية».

«وأثناء وجودى فى هذا الاجتماع اتصل بى زكريا محيى الدين بصفته رئيس المجلس الأعلى للمقاومة الشعبية وطلبنى لمقابلته فى الحال لأمور تخص المقاومة الشعبية، وفى مكتبه وجدت كلاً من كمال رفعت، وإسماعيل فريد، ولطفى واكد، وطلب منا التوجه فى أقرب فرصة إلى منطقة القنال ليتولى كل منا قيادة المقاومة الشعبية فى إحدى مدن القنال الأربع: السويس والإسماعيلية والقنطرة وبورسعيد. وأوصانا عند وصولنا مدينة الإسماعيلية أن نذهب إلى قيادة الجيش هناك التى قد يمكنها مدنا بما نطلبه من معدات وأسلحة وذخائر للمقاومة».

«وبعد خروجنا من مكتبه اختار كل منا المدينة التى سيذهب إليها، وكان إسماعيل فريد للسويس، وكمال رفعت للإسماعيلية، ولطفى واكد للقنطرة، وأنا لبورسعيد».

ثم يحرص محمد عبدالفتاح أبو الفضل على إدانة زميله أمين الشباب فى ذلك الوقت ضمن حديثه عن الاستعداد للذهاب لقيادة المقاومة:

«اجتمعنا بعد الظهر وبعد تجهيز أنفسنا للسفر إلى الإسماعيلية فى مكتب عباس رضوان بالأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى، وكان هناك كثير من الزملاء منهم أمين الشباب الدكتور حسين كامل بهاء الدين وأشرت عليه بكل الصدق وحسن النية بالمشاركة فى المقاومة بمنظمة الشباب التى يشرف عليها حيث إننا فى سبيل الذهاب إلى منطقة القنال وطلبت منه،إما الذهاب معنا لتولى قيادة شباب المنظمة هناك، أو إمدادنا بقادة وأعضاء وأفراد منظمات الشباب، سواء من أنحاء الجمهورية بعامة، أو من منطقة القنال بصفة خاصة، لأن هذا الوقت كان هو وقتهم، لم أحظ منه بأية إجابة، وتظاهر بالانشغال، وترك المكان وحتى لم أحظ منه بأى تعليق، ويحتمل أنه كان محرجاً لعدم صدور أوامر له بذلك».

ويروى محمد عبدالفتاح أبو الفضل أنه كان موجوداً مع زميله «القائد العسكرى المعروف» اللواء عبدالمنعم خليل فى مقر القيادة بالإسماعيلية طيلة الساعة التى تولى فيها أحد القواد إصدار أمر التعليمات بالانسحاب على القادة الموجودين، ويروى أبو الفضل واقعة مهمة تنبئنا عن مدى المظهرية والتمثيل اللذين كان يسيطران على الجيش المصرى حتى بعد وقوع الهزيمة، فيقول:

«قبل نهاية أمر العمليات سأل القائد قادة الوحدات بجملة تقليدية «أى أسئلة؟؟» ولم يوجه أى من قادة الوحدات بسيناء أى سؤال، وقبل أن ينصرف القادة توجهت إلى صديقى وزميلى اللواء عبدالمنعم خليل، وقبل أن يغادر غرفة القائد، وسألته عن حقيقة أمر العمليات الذى سمعناه معهم لتونا يلقيه قائد القوات؟ وهل كل هذه القوات التى ستنسحب والتى ذكرها موجودة فعلاً تحت السيطرة والقيادة وسليمة ولم تتحول بعد إلى فلول كالتى شاهدناها عند نقطة مرور العباسة قبل حضورنا بساعة ونصف ساعة».

«ضحك اللواء عبدالمنعم فى مرارة وقال: إن كل ما سمعناه معهم هو تمثيل فى تمثيل، وإن الجيش المصرى فى هذه اللحظة فى حالة بالغة من الفوضى، وعدم السيطرة، وقام فعلاً بالانسحاب تلقائياً وقبل صدور هذه الأوامر الرسمية، وليس هناك أى مظهر للتماسك غير هؤلاء المتلقين لهذه الأوامر المزيفة».

«وسألته لماذا لم يوجه أحد منهم أسئلة للقادة يستوضح فيها حقيقة الأوضاع كما يعلمها كل منكم؟ ورد القائد عبدالمنعم خليل فى أسف: «إنه أثناء فترة القهر الطويلة لضباط الجيش بين عامى ٥٦ و٦٧، تعودوا على السكوت وعدم توجيه الأسئلة التى قد تكون محرجة للقيادة».

«وأضاف فى مرارة: إن كل ما استمعنا إليه فى أمر العمليات عن توفير الوقاية الجوية والأرضية للقوات المنسحبة غير متوفرفى هذه اللحظة فى القوات المسلحة، وإنه يتوقع مذبحة جوية على القوات المنسحبة فى الصباح، خصوصا فى مناطق عبور القنال وعلى طول طرق الانسحاب المفتوحة».

❑

ويكشف لنا عبدالفتاح أبو الفضل فى هذا الكتاب عن وجهة نظر مهمة ينسب الفضل فيها إلى الشباب، وإن كان هو نفسه مقتنعاً بها حيث يرى أن الجماهير التى خرجت فى ٩ و١٠

يونيو ١٩٦٧ تهتف لعبدالناصر، لم تخرج للتمسك به وبنظامه، لكنها خرجت مطالبة بتصحيح الأخطاء لأن من خرَّب مصر عليه أن يحقق النصر، وهكذا يصرح أبو الفضل بمثل هذا الرأى وإن كان ينسبه [وارداً ضمن حوار] إلى محاوريه لا إلى نفسه، وها هو عبدالفتاح أبو الفضل يفيض فى هذا المعنى فيقول:

«بعد عودتى من بورسعيد بأيام، بعد النصر فى معركة رأس العش، كنت أزور شقيقتى وكان أولادها الشبان من طلبة الجامعة مجتمعين فى غرفة مجاورة مع زملاء لهم، طلب منى أولاد شقيقتى أن أجتمع بزملائهم بعد أن علموا بوجودى وأننى كنت أقود المقاومة الشعبية فى بورسعيد، بالإضافة إلى عملى كواحد من قيادات العمل السياسى بالاتحاد الاشتراكى».

«لاحظت منذ بداية الحوار مدى تحفزهم وسخطهم من النتائج التى وصلت إليها مصر بهذه الهزيمة وبهذا الحجم، طلبت منهم أن يعبروا عن أنفسهم سواء على شكل أسئلة أو استفسارات أو تعليق على أن يتركوا لى التعليق والإجابة فى النهاية، وكانت جميع أسئلتهم وتعليقاتهم مرآة عكست بصدق مدى شعورهم بالمرارة والسخط والإحباط والضياع، وأنهم كانوا ضحية التغرير بهم من القيادات السياسية».

«وشعرت أن هذه الهزيمة كادت أن تصل بهم إلى حالة اليأس، وحتى أعيد إليهم التوازن النفسى قمت بشرح معركة رأس العش التى قام بها شباب وشيوخ مصر من المتطوعين والجنود أمام قوات إسرائيل المزهوة بحلاوة النصر، وضربت مثلاً آخر بعملية إغراق السفينة الإسرائيلية الحربية «إيلات» على أيدى عدد قليل من جنود البحرية أبناء مصر، هم طاقم زورق طوربيد صغير، وأردت أن أختم حديثى بكلمة تشجيع فقلت لهم: إن البركة فى شباب مصر لتحقيق ما يبدو لنا الآن أنه مستحيل، رد أحدهم بتلقائية صادقة: «إن من خرَّب مصر عليه أن يحقق النصر، ثم على الشباب بعد ذلك وليس قبلها أن يتولى استئناف المسيرة، وإن جيلكم (يقصد جيلى) هو الذى تسبب فى الهزيمة فعليكم إزالة هذا العار أولاً قبل أن تطلبوا منا أى عمل».

«وتبعه شاب آخر قائلاً: «أرجو ألا يتولاك كمسئول سياسى ومن النظام أى شك أو تفكير بأن مطالبة الشعب بعد تنحى عبدالناصر بالتمسك به وبنظامه تأييدٌ له، ولكنها مطالبة بتصحيح الأخطاء وإزالة الهزيمة، وعلينا كشباب بعد ذلك أن نتولى المسئولية، وإن ما عبر عنه زميلى بأن الذى خربها هو الذى يجب أن يصلحها هو تعبير صادق لموقف شعب مصر كله، رغم ما شاب ذلك من مظاهر راقصة مخجلة من أعضاء مجلس الشعب [يقصد: مجلس الأمة]».

«وكان ردى: «كلامك مطابق للحقيقة، لذلك كان فى قبول عبدالناصر ونظامه المسئولية والاستمرار فى العمل لإزالة آثار العدوان أبلغ دليل على أن جيلنا مازال فى الميدان ليصحح الأخطاء، وسوف يتحقق النصر على الرغم من أننا خسرنا معركة، وسواء أردتم أم لا فإن الشباب سيشارك فى إزالة هذا العار لأن المعركة القادمة كأى معارك مضت، عمادها هو الشباب، شباب الجيش وشباب العاملين، وإننا لم ننكسر بدليل هذا التعبير الصادق عن تصميم الشباب الذى جاء على ألسنتكم حالاً».

وهنا ينتهز عبدالفتاح أبو الفضل الفرصة ليردف بقوله:

«وبعد هذا اللقاء مباشرة (يردف أبو الفضل) صممت على ضرورة كتابة هذه المذكرات».

ومع هذا فإننا لا نجد فى المذكرات إشارة إلى سبب تأجيل نشرها من ذلك الحين وحتى نشرت.

(٢٢)

ونأتى إلى بعض حديث هذه المذكرات عن فترات العمل المبكر فى المخابرات العامة المصرية بعد أن قامت الثورة وانخرط فى العمل مع هذه المخابرات.

يحدثنا محمد عبدالفتاح أبو الفضل فى هذه المذكرات أنه بعد الانتهاء من توقيع اتفاقية الجلاء فى يوليو ١٩٥٤ علم من قيادته أن مهمته القادمة ستكون فى السودان وأنه سيعمل تحت مظلة أنه مراسل صحفى لجريدة الجمهورية، وبنفس القدر من الاهتمام بالتفاصيل الدقيقة والحرص على المعرفة المتكاملة يروى أبو الفضل مهمته فى السودان، ويورد عبدالفتاح أبو الفضل مثلاً بسيطاً ومهماً لقدرة المستعمر الإنجليزى على صياغة نفسية الشعب السودانى بحيث استطاع تشويه العلاقة الأخوية المصرية ـ السودانية:

«... حضرت فى إحدى الأمسيات عرضاً سينمائياً بإحدى دور العرض بالخرطوم، وحين عرضت الجريدة الإخبارية الناطقة فى بداية العرض، ظهرت ملكة بريطانيا فى إحدى الفقرات وفى إحدى المناسبات البريطانية، وكانت تمتطى صهوة جواد من خيول الحرس الملكى المطهمة وترتدى ملابس الحرس الملكى الملونة الفخمة فتؤدى التحية العسكرية للحرس المصطف أمامها فى خشوع ونظام، عند ذلك ضجت قاعة السينما المحتشدة بالشعب السودانى، وأخذوا يصفقون أثناء هذه اللقطة تصفيقاً شديداً ويهمهمون استحساناً، وتلت هذه الفقرة أخرى ظهر فيها جمال عبدالناصر وهو يخطب فى الجماهير المصرية، وركزت الجريدة الناطقة الأجنبية

عليه وهو فى حالة عصبية ظاهرة ويضرب بيده على المنصة بحماس، فما كان من نفس الجمهور السودانى إلا أن ضج بالأصوات المعادية والسخرية لمرأى عبدالناصر».

وإذن فإننا نفهم من رواية رجل المخابرات أن رجال عبدالناصر ـ ومنهم صاحب هذه المذكرات ـ لم يكونوا مفتونين إلى النهاية بعظمة وكمال شخصية عبدالناصر، وأنهم كانوا يدركون بوسيلة أو بأخرى أن فى شخصية الرجل كثيرا من النقص إذا ما قورن على سبيل المثال بملكة بريطانيا، ولو فى الأفلام السينمائية المأخوذة لهما.

(٢٣)

ويحدثنا أبو الفضل فى هذه المذكرات عما كان بمثابة إحدى الفوائد الاقتصادية الهامة لعمله فى المخابرات فى السودان، فيذكر قصة إدراكه للأهمية الاستراتيجية للصمغ العربى وربما كانت هذه القصة من القصص النادرة التى تدل على التفات رجال المخابرات المصرية لحقائق مهمتهم التى تتعلق بالأمن القومى بمعناه الواسع:

«...خلال رحلتى للأبيض اصطحبت معى مساعدى فى المكتب عبدالفتاح فرج السودانى الأصل الجنوبى».

«وفى أحد أيام الرحلة استيقظت مبكراً وبعد أن تناولنا الإفطار خرجنا معاً فى جولة بالمدينة، واسترعى انتباهى مبنى على النمط الأوروبى الحديث، وفى ملابسهم البيضاء الناصعة أحاطت جموع غفيرة من السودانيين بالمبنى، ولاحظت أحد الأجانب الذين يقيمون معنا بالفندق، وهو يقف بجوار المبنى ويتحدث مع فريق من جموع السودانيين».

«أثار الموقف فضولى فسألت عن سر المبنى وسبب تجمع الناس من حوله، فعلمت أننا فى موسم لتسويق محصول السودان من الصمغ العربى وأن السودان تستأثر بحوالى ٨٥٪ من حصة الإنتاج العالمى لهذا المحصول، أما المبنى الحديث هذا فهو مبنى بورصة الصمغ العربى.. والرجل الأجنبى الواقف فى وسط السودانيين هو مندوب الحكومة البريطانية ويعمل مستشاراً لشركات تجارة الصمغ العربى.. وقد اعتاد الحضور كل عام فى هذا الموسم ليشرف على عملية تجارة الصمغ العربى، أما باقى السودانيين ذوى الملابس الوطنية البيضاء فمعظمهم مندوبون للشركات الأجنبية التى تقوم بشراء الصمغ العربى من السودان، و«الأبيض» تعتبر مركز تجميع هذا المحصول».

«ودفعنى الفضول لدخول مبنى البورصة فلم يعترضنى أحد إلا أن الجميع أخذوا ينظرون

إلىّ مستغربين ومستفسرين عمن أكون، وتغاضيت عن هذا ووقفت أراقب ما يحدث، فبدأت المزايدات لشراء وبيع الصمغ العربى ولاحظت أن ثلاثة فقط من مندوبى الشركات هم أنشط المندوبين حيث تمكنوا من الحصول على معظم المحصول المطروح فى البورصة وبأسعار متفاوتة بنسبة ضئيلة جدا».

«وعند الاستفسار علمت أن مندوب شركة جلاتلى وهانكى Glatly and Hanky هو الذى تمكن من الحصول على معظم الكمية المطروحة، وإن هذه الشركة البريطانية يرأس مجلس إدارتها الجاسوس البريطانى الشهير فى البلاد العربية «عبدالله فلبى» وكان يشغل فى الوقت نفسه منصب المستشار السياسى للملك سعود. أما ما تبقى من المحصول فقد حصلت عليه أيضاً شركتان بريطانيتان، وهكذا احتكرت بريطانيا الصمغ العربى».

«وعند وجودى فى أول إجازة بمصر اتصلت بالدكتور رياض تركى وكان رئيساً لمركز البحوث القومى، وبعد سرد القصة كاملة عليه فكر قليلاً ثم أجاب إنه يعلم أن الصمغ العربى له استخدام هام فى تكنولوجيا استخراج البترول. وأشار علىّ بزيارة حقول البترول البريطانية فى البحر الأحمر التابعة لشركة شل (Shell) وأعطانى اسم أحد المهندسين الجيولوجيين المصريين العاملين هناك، وهو من تلاميذه، وعلمت بالفعل أن الصمغ العربى يستخدم فى عملية حفر آبار البترول، فعندما تدور البريمة بسرعة فائقة خلال علمية الحفر ينتج عن تلك الحركة السريعة حرارة مرتفعة فيبرد بواسطة خليط من الطفلة والصمغ العربى ويسمى هذا الخليط (Draga Gum)».

«وكذلك عندما يتأكد من وجود البترول تصنع ماسورة خاصة من نفس هذا الخليط ليمر من خلالها البترول المتدفق من البئر، فهذه الماسورة الخاصة هى الوحيدة القادرة على مقاومة تيار البترول المتدفق واحتكاكاته، كما تحمى البريمة أثناء عملية الحفر من التآكل والكسر».

«وعند عودتى إلى القاهرة وإطلاعى على إحصائيات التجارة الدولية، تبين لى أن بريطانيا كانت وقتها هى المحتكر الوحيد لتجارة هذه المادة، وأنها تعيد بعد ذلك توزيعه وبيعه إلى جميع الدول المنتجة للبترول، وبناء على ذلك رفعت تقريراً يتضمن قصة الصمغ العربى كاملة مع التوصية بأن تحاول مصر فى السنة التالية وفى موسم المحصول أن تقوم بشراء الصمغ العربى عن طريق بنك مصر فرع السودان، وهو فرع كان يرأسه الأستاذ عمارة، وبالفعل فى السنة التالية، وكنت قد تركت العمل بالسودان، علمت أن بنك مصر هناك قد تمكن من دخول المزاد، ونتيجة للمنافسة تسبب فى رفع السعر لصالح المنتج السودانى، وحصلت مصر على حصة مجزية من النصيب الذى احتكرته بريطانيا طويلاً».

وفى معرض حديثه عن دوره فى السودان يحدثنا أبو الفضل أنه اكتشف أن إحدى الشخصيات التى استعانت بها الثورة فى موضع مرموق وهو «ملس عندوم» رئيس مكتب الاتصال الحبشى بالسودان كان عميلاً للولايات المتحدة.. ويقول:

«... كان الأستاذ صلاح محمد على رئيس وكالة الأنباء العربية يعمل مع مدير جريدة (Morning News) وهى جريدة باللغة الإنجليزية تصدر فى السودان، وكان المدير بريطانيا أقام بالسودان مدة طويلة جداً، وعلمت من صلاح محمد على أن لهذا الرجل نشاطاً اجتماعياً ورياضياً واسعاً، فهو حريص على سباق الخيل ويقوم بالتحكيم أثناء السباق وعند متابعة أخبار وتشاطات هذا الرجل ساورنا ـ أنا وصلاح ـ شك فى أن هذا البريطانى يقود شبكة الجاسوسية البريطانية بالسودان. وعن طريق صديق لنا داخل مصلحة التليفونات السودانية وضعت مكالمات هذا المدير تحت المراقبة».

«وبعد مدة وجيزة من وضعه تحت المراقبة تأكدنا من أنه على اتصال مريب بجميع المستشارين البريطانيين فى حكومة السودان، فهو يتلقى منهم أوفى المعلومات وهم بدورهم يعملون بتعليماته. كما ثبت اتصاله بمعظم وكلاء الوزراء الدائمين بحكومة السودان، وظهر أن معظمهم يتعاون تعاوناً كاملاً مع بريطانيا، إلا أن أخطر ما تأكدنا منه هو علاقته المريبة برئيس مكتب الاتصال الحبشى بالسودان (ملس عندوم) وكان يعتبر من أخطر عملاء الولايات المتحدة الأمريكية فى السودان».

«وفى نفس الوقت تمكنا بعد مجهود شاق من استمالة سكرتير مدير جريدة (Morning News) السودانى للعمل معنا، وقد تمكن هذا السكرتير من الحصول على نسخة من مفتاح خزينة المدير الإنجليزى التى يحتفظ فيها بالأوراق السرية فقمنا بتصويرها وإعادتها إلى مكانها ثانية».

«وعن طريق هذه المستندات القيمة تأكدنا من أن هذا المدير رئيس شبكة الجاسوسية البريطانية بالسودان، وبالتالى حصلنا على المعلومات التى أثبتت أن «ملس عندوم» الذى تعلم بمصر فى مدارس أسيوط على علاقة وثيقة بالمخابرات الأمريكية، وعن طريق التصنت على مكالماته التليفونية تبيّن لنا أنه على اتصال ببعض العناصر المصرية الأصل والسودانية الجنسية التى يهمها بقاء الاستعمار البريطانى فى السودان لازدهار أعمالهم».

ويعقب عبدالفتاح أبو الفضل على رواياته هذه بما نطلق عليه فى أحاديثنا العامة كلام الناس الطيبين، فهو يروى أن الحكومة المصرية لم تعاقب هذا الرجل الجاسوس وإنما رحبت به مرتين، مرة سفيرا للحبشة وعميدا للسلك الدبلوماسى، ومرة أخرى لاجئا سياسيا بعد سقوط هيلاسيلاسى. ولا يروى عبدالفتاح أبو الفضل أى أصداء لعلاقات متوترة بينه وبين هذا الرجل، ولا علاقات ودية بين هذا الرجل وبين آخرين من المصريين كانوا ـ هم بالذات ـ قادرين على أن يوفروا له الحماية والتكريم:

«وللأسف وعلى الرغم من كشف العلاقة المريبة «لملس عندوم» والتى سجلتها فى المخابرات المصرية إلا أن مصر وافقت فى وقت لاحق أن يكون سفيراً للحبشة بمصر ولفترة طويلة، وكان عميداً للسلك الدبلوماسى الأجنبى فى مصر، ثم أكرمته مصر فصار لاجئاً سياسياً بعد سقوط هيلاسلاسى».

(٢٥)

كذلك ينبهنا أبو الفضل فى هذه المذكرات ـ بعد فوات الأوان ـ إلى أن الثورة كانت قد وقعت أسيرة لضباط المخابرات السابقين الذين كانوا يخدمون الاحتلال الإنجليزى نفسه.. وهو يروى هذه الواقعة بالنص التالى:

«ففى أحد الأيام الأولى من عملى بالمخابرات، كنت موجوداً بمكتبى عندما حضر أحد كبار ضباط المخابرات وكان يعمل بها من قبل الثورة (والسبب فى الإبقاء عليه بعد الثورة أنه كان يتصل بالضباط الأحرار ويحذرهم أولاً بأول عما يصل الجهاز من معلومات عنهم)، فأعطانى كمية من التقارير باللغة الإنجليزية مكتوبة على ورق خفيف، ملون وبالآلة الكاتبة.. كلفنى بدراستها ووضع الرأى عن كل تقرير على حدة».

«عكفت على هذه التقارير ووجدت بكل ورقة منها معلومات عن شخصية مصرية، وعن علاقاتها. وكانت جميع التقارير عن شخصيات لها صلة بالشيوعية الدولية، استوقفنى اسم أحد الصحفيين المصريين المشهورين وكان يقيم بألمانيا هرباً من اضطهاد الملك السابق وهرباً من السلطات المصرية، كانت معلوماتى عن هذا الشخص قد تكونت من خلال المشاركة فى العمل الوطنى داخل تنظيمات الضباط، وكانت معلوماتى أنه من الوطنيين المخلصين، كثيراً ما تصدى فى كتاباته للظلم والفساد الملكى وتجاوزات السفارة البريطانية (هو الدكتور كمال الدين جلال).

«أثارنى الموضوع، وأخذت أعيد قراءة جميع التقارير وأدقق فيها وفى معلوماتها التى أجمعت على اتهام الأشخاص موضوع التقارير بالنشاط الشيوعى الخطير، وناقشت الزميل كمال رفعت، وتم اختيارنا لعدة تقارير يسهل التحقق من المعلومات المدونة بها عن طريق ضباط المباحث العامة الجدد، وعن طريق رجال وزارة الداخلية الذين عملوا فى البلاد التى يقيم بها بعض هؤلاء المتهمين بالشيوعية، وجاءتنا المعلومات التى تؤكد أن جميع هؤلاء المتهمين بالشيوعية لهم نشاط ضد الاستعمار البريطانى، وبعكس ما ورد بالتقارير فإن نشاطهم كان لصالح الوطن».

❑

ويردف صاحب هذه المذكرات بذكر واقعة أخرى أكدت له شكوكه وأثبتت له صواب رؤيته فيما يتعلق بعلاقة بعض رجال العهد الجديد بالمستعمر البريطانى نفسه:

«وقبل أن أعيد هذه التقارير للضابط الكبير بالمخابرات، علمت بالصدفة فى أحد الأيام، أن الملحق العسكرى البريطانى يقوم بزيارته فى مكتبه فانتظرت حتى انتهاء الزيارة، ثم دخلت عليه فى مكتبه وقبل أن أسلمه ما معى من التقارير.. أعطانى كمية جديدة من التقارير.. لها نفس مواصفات التقارير السابقة، وكلفنى أيضاً بدراستها.. وأعطيته التقارير السابقة وقد دونت عليها ملحوظاتى التى تفيد بأن المعلومات التى وردت بها كلها مزيفة ومدسوسة، وسألته إن كانت هذه التقاير التى تسلمتها منه لتوى قد تسلمها من الملحق العسكرى البريطانى.. الذى كان يزوه قبل دخولى عليه.. فضحك، وعند ذلك واجهته بشكوكى، ورجوته بضرورة معالجة مثل هذه التقارير بمنتهى الحذر».

«وبعد عدة أيام من التحرى والاستقصاء، علمنا أن هذا الضابط الكبير بالمخابرات كان مكلفاً بالاتصال بالملحقين العسكريين الأجانب، ومن ضمنهم الملحق البريطانى. وكان منذ ما قبل إلغاء معاهدة ٣٦، ومنذ سيطرة البعثة البريطانية على المخابرات المصرية والجيش المصرى، يداوم شهرياً على إرسال يومية الحرب الخاصة بالجيش المصرى التى تحتوى على أخطر المعلومات العسكرية السرية عن قوة الجيش العددية ومعداته الصالحة للعمل، والتى تحت الإصلاح، والتالفة، وما إلى ذلك من أسرار.. المفروض أنه محظور إطلاع أى أجنبى عليها، وكان يرسلها بطريقة رسمية ومستمرة ودورية».

ولا يفوت عبدالفتاح أبو الفضل أن يعقب فى النهاية بما يفيد أن الأمور قد استقامت ومضت فى طريق الصواب:

«وبطبيعة الحال فقد اتخذت الإجراءات اللازمة لوقف مثل هذه المهازل».

ويحفل هذا الكتاب بتوجيه الانتقادات إلى جهاز ورجال المباحث العامة، وربما يعطى هذا الانتقاد صورة نمطية لهجوم بعض قادة المخابرات على أداء الأجهزة الشرطية وانتقادهم لهذا الأداء فى وضوح شديد، ولا يجد عبدالفتاح أبو الفضل حرجاً فى أن ينتقد جهاز المباحث العامة فى صراحة ووضوح، وهو على سبيل المثال ينتقد تقاريرها عن صلاح حسين فى صفحة ٣٧٢، فقد جاء فى أحد خطاباتها أنه شيوعى وفى خطاب آخر أنه «إخوان مسلمين».
[ومن المهم أن نذكر هنا أن حسن طلعت فى مذكراته «فى خدمة الأمن السياسى» التى تناولناها بالمدارسة فى الباب الخامس من كتابنا «الأمن القومى لمصر» قد تعرض لهذه النقطة بالذات، بشىء من التفصيل، وانتهى إلى التساؤل ما ذنب المباحث إذا كان قد بدأ من الإخوان ثم أصبح شيوعيا].

كما يروى أبو الفضل قصة درامية لتقرير المباحث العامة عن أحد الشبان الوطنيين الذى كان على وشك التعيين فى المخابرات لولا تقرير المباحث العامة الذى يتحدث عنه أبو الفضل فى صفحة ٢٦٨ بقوله:

«وشعرت بكثير من الرهبة والخوف لخطورة المعلومات المضللة التى يقوم بالحصول عليها جهاز المباحث العامة، والتى قد تتسبب فى الضرر البالغ لأشخاص أبرياء..».

وليس كتابى هذا الذى بين أيدينا مجالاً لحصر انتقادات أبى الفضل للمباحث العامة، لكنها نقطة من النقاط التى أثارها والتى لابد لنا أن نسجلها وإن كنا لا نستطيع بحكم قصور وسائلنا أن ندخل فى تحليل مثل هذه الانتقادات والفصل فى صحة الروايات المختلفة عن ذات الحدث.

❑

ونأتى الآن إلى بعض فقرات التقييم التى حظيت بها بعض الشخصيات العامة فى مذكرات محمد عبدالفتاح أبو الفضل.

ونحن نجد محمد عبدالفتاح أبو الفضل بحكم عدائه التقليدى لشمس بدران (وهو عداء له ما يبرره، كما أنه ليس بالعداء الشاذ على أية صورة) نجده حريصا على أن يضمن ضمن حديثه عن هزيمة ١٩٦٧ هذه الفقرة المهمة التى تدين شمس بدران بمشاعر الكراهية التى ينسبها صاحب المذكرات إلى أحد الضباط الذين قابلهم فى بورسعيد بعد الانسحاب من سيناء، ومن العجيب أن أبو الفضل ينسب الفكرة كلها إلى هذا الضابط، ثم يشير فى تعقيبه على ما رواه إلى أن الأيام أثبتت صحة وجهة نظر هذا الضابط الذى لم يذكر لنا اسمه، وإن كان قد أفاض فى تصوير فهمه (العميق!!) لطبائع الأمور، ومن العجيب أيضا(!!) أن ينسب

أبو الفضل إلى هذا الضابط التفكير فى إمكان أن يكون شمس بدران مهيئا أو مستعدا للوصول إلى رئاسة الجمهورية:

«... وفى بورسعيد قابلت أحد الضباط الذين حضروا شاردين من سيناء، ولما سألته عن السبب فى عدم التحامهم مع الجيش الإسرائيلى وكان من الواجب بعد أن فقدنا السيطرة الجوية أن يقوم الجيش المصرى بالالتحام مع الجيش الإسرائيلى بحيث يصعب على الطيران الإسرائيلى فى هذه الحالة أن يتدخل، وكان هذا هو الأمر الطبيعى للخروج من مأزق السيطرة الجوية الإسرائيلية».

«وجاء رده ليعكس شعور وحالة ضباط الجيش تجاه قيادتهم وقال: «لم يكن لدينا كضباط الدافع لبذل أى مجهود لأننا لو انتصرنا كنا سننتصر لأجل أن يصل شمس بدران فتى القيادة المدلل ليكون رئيس جمهورية، وأضاف إن كل من كان قد أوقعه الحظ السيء من كبار قادة الجيش أو الضباط ليواجه شمس بدران بأى معارضة أو خلاف فى الرأى، كان مصيره التعذيب والاضطهاد والإذلال بما هو فوق طاقة البشر. فهل كنت تريدنا أن ننتصر لأجل أن يصل الانتهازيون إلى أعلى المراكز؟».

«وبعد أن انصرف هذا الضابط علق الدكتور محمود فهمى الذى كان حاضراً هذه المناقشة بأن هذه هى الخيانة الكامنة فى أوضح صورها».

ومع هذا فإن عبدالفتاح أبو الفضل يردف هذه الرواية مباشرة بقوله:

«وظهربعد ذلك أن ما توقعه الضابط كان صحيحاً حيث عُلم بعد ذلك أن شمس بدران كان فعلاً بعد الهزيمة من أول المرشحين لرئاسة الجمهورية وحتى قبل أن يتم التفكير فى زكريا محيى الدين».

(٢٦)

وينبهنا عبدالفتاح أبو الفضل فى هذه المذكرات إلى أنه كان من حسن حظه (وإن لم يصرح بهذا مباشرة) أن اكتشف مبكراً مدى المأزق الذى وضعت الثورة فيه نفسها بانسياقها وراء دعاوى ونظرية الأمن، ووقوعها بالتالى فى براثن الانتهازيين.

ويبدو عبدالفتاح أبو الفضل وهو يورد مثل هذه الفقرات وكأنه من رجال الصحافة أو الثقافة لا من ضباط الثورة أنفسهم، فضلاً عن كونه من قادة المخابرات، وهو يروى لنا واقعة فى غاية الأهمية حدثت معه هو نفسه فى وقت مبكر جداً فيقول:

«... عند عودتى إلى المنزل وجدت على الباب عربة عسكرية وبها سائق من المخابرات.. بادرنى السائق بأن مدير المخابرات أرسله فى طلبى وإحضارى فى أى وقت، استبدلت ملابسى، وارتديت الزى العسكرى، وركبت معه إلى أن وصلنا لمبنى المخابرات، ولكنه لم يدخل المبنى، بل دخل مبنى مجلس قيادة الثورة وكان مجاوراً لمبنى المخابرات، تعجبت لمدة قصيرة واستنتجت بسرعة سبب هذا الاستدعاء بهذا الأسلوب ودخلت غرفة كبيرة بها طاولة مستطيلة، وأثناء انتظارى ـ لدقائق ـ على انفراد استرجعت واقعة اجتماع فى منزلى تم بينى وبين جميع الزملاء السابقين من تنظيم الضباط الوطنيين، حدث بناء على طلبهم فى منزلى قبل يومين، وتناولوا فيه مآخذ على بعض أعضاء مجلس الثورة وبالذات ضد أنور السادات الذى كان يلتقى فى مكتبه بدار الإذاعة بعدد من ملوك [يقصد أقطاب أو زعماء] الأحزاب القديمة، وبدأ يتوسط لهم كما كان يجرى فى دهاليز وكواليس الحكم قبل الثورة».

«كما سجلوا مآخذ على تصرفات الثورة فى أنها تشغل نفسها بالكثير من توافه الأمور.. كانتداب أحد كبار ضباط الطيران (عبدالرحمن عبدالعال) لمطاردة تجار الطماطم الذين يرفعون الأسعار، وكان مندوب الثورة يجلدهم فى الشوارع والميادين مما يسىء إلى الثورة، وكنت ـ لخطورة الموقف ـ قد اقترحت على المجتمعين أن نسجل هذه المآخذ على شكل تقرير أوصله إلى مجلس الثورة حتى لا يئول الاجتماع تأويلات أخرى».

«وفعلاً دونا هذه المآخذ فى ورقة وأخذتها معى فى اليوم التالى، وذهبت بها إلى مجلس الثورة، وكان المجلس فى اجتماع وأبلغت شمس بدران سكرتير المجلس بما حدث باختصار، وبمنتهى الصدق والصراحة، وأعطيته التقرير المكتوب ليوصله للمجلس وانصرفت، وصدق ظنى، فبعد فترة قصيرة حضر السيد زكريا محيى الدين وجلس على رأس مائدة الاجتماعات وأخذ يسألنى عن هذا الاجتماع بطريقة جعلتنى أشك فى وصول تقريرى الأصلى لهم، وجاءت أسئلته بأسلوب فهمت منه أن شمس بدران قد أخفى التقرير، وادعى أنه اكتشف بنفسه شبه مؤامرة عن اجتماعنا، فرويت لزكريا محيى الدين (الذى كان يأخذ وضع المحقق) بطريقة وبتسلسل وتفاصيل الدعوة للاجتماع، وما تم فيه وواقعة كتابة المآخذ فى تقرير سلمته لشمس بدران، وبه كل التفاصيل».

«وأثناء هذا الحديث العاصف بينى وبين زكريا محيى الدين دخل إلى القاعة جميع أعضاء مجلس الثورة، واحداً بعد الآخر، والتفوا حول الطاولة وحولى أنا وزكريا محيى الدين، وكنت قد بدأت فى الانفعال والرد بشىء من التوتر، حيث كنت لا أتصور إطلاقاً أن يصل تدهور مستوى الرجولة والأخلاق إلى هذا الحضيض من شمس بدران الذى من المفروض أنه كان ينتمى إلى رجال الثورة».

«ويبدو أن حديثى بهذا التسلسل وهذه الصراحة والانفعال الصادق أثر على بعض الحاضرين لأنه بعد فترة وجيزة امتلأت القاعة بكل أعضاء مجلس الثورة بمن فيهم أنور السادات وسمعنى وأنا أعدد المآخذ المسجلة عليه هو شخصياً. وفى أثناء الحديث انفعل جمال سالم وأخذ يوجه لى ظلماً كلمات اعتبرتها غير لائقة فعنفته برجولة، وكان لى به معرفة سابقة، حيث كان صديقاً لأمين الخشاب قائدى فى السجن الحربى، وكان كثيراً ما يحضر لزيارته وتعارفنا جيداً هناك قبل الثورة».

«وفجأة، وبدون سابق معرفة له إطلاقاً، انبرى كمال الدين حسين مدافعاً عنى فى حين كان عبدالناصر صامتاً لا يتكلم، وكان واقفاً ويضع إحدى رجليه على كرسى ومكتفيا بالإنصات، وقال لهم كمال حسين: يجب ألا تعطلوا الرجل أكثر من ذلك، وشدنى من يدى وقال لى بعطف وأخوة ورجولة: مع السلامة ياعبدالفتاح!».

وبعد هذا كله يعلق محمد عبدالفتاح أبو الفضل بقوله :

«وأنا فى طريق العودة إلى المنزل استعدت الصورة كاملة وتنبهت فجأة إلى خطورة وحساسية تصرفات رجال الثورة فى بادئ أيامها، ومر بخاطرى مثل عن طباع القطط «كقطة أكلت بنيها» فالثورة هى القطة، ومن شدة حرصها على أوضاعها وأسرتها تبدأ فى التهام أبنائها، كما أننى استوعبت ذلك الدور الخسيس الذى لعبه شمس بدران، وللأسف فإنه استمر مقرباً من النظام حتى صار وزيراً كبيراً مسئولاً عن أمن البلاد إلى أن حاقت الهزيمة بنا فى ١٩٦٧ وكان هو أحد عناصرها الأساسية».

(٢٧)

وعلى نفس الخط يجهر محمد عبدالفتاح أبو الفضل بانتقاد شديد للفريق أول محمد فوزى ولم يكن الفريق فوزى حتى ذلك الحين الذى نشرت فيه مذكرات أبو الفضل قد لقى مثل هذه الانتقادات، بل كان ما يزال محتفظا بصورته على أنه هو الذى بنى الجيش المصرى بعد الهزيمة، ومن العجيب أننا نجد هنا عسكريا سابقا ـ هو صاحب هذه المذكرات ـ يصور نفسه من ناحية العلم العسكرى فى موقف أقوى بكثير من موقف القائد العام للقوات المسلحة حيث يقول:

«وفى يوم الخميس ٢٢ يونيو دعانى القائد العسكرى لمنطقة بورسعيد اللواء المقدم كقائد للمقاومة الشعبية للقاء المارشال زخاروف رئيس هيئة أركان حرب القوات السوفيتية بعد

مروره مع قادة الجيش المصرى الجدد على وحدات الجيش المصرى والمقاومة الشعبية فى بورسعيد وبورفؤاد».

«وأثناء انتظار ميعاد الغداء ونحن جالسون دارت مناقشة بينى وبين الفريق محمد فوزى وزير الحربية، وكنت أتساءل عن مدى خطورة استطلاع الأقمار الصناعية على خطوطنا الدفاعية لأنى كنت قبلها قد لاحظت ليلاً مرور هذه الأقمار الصناعية فوق سماء المنطقة، ولفت نظرى إليها أحد أفراد المقاومة أثناء مرورى عليهم فى مواقعهم».

«وكان رد الفريق فوزى أنه لا خطورة إطلاقاً من هذه الأقمار لأنه نظراً لارتفاعها الشاهق فإن أجهزتها لا يمكنها أن تميز بين العربة الجيب وجهاز الرادار، وأجبته بأن هذا مخالف للحقيقة لأن الطائرة الـ U2 الأمريكية التى سبق أن تمكن السوفيت من إسقاطها سليمة، بعد فحص أجهزة التصوير التى كانت بها وجد أن أجهزتها قادرة على تصوير رأس المسمار الشيشة من ارتفاع ١٢ ألف قدم، وتصوير مانشيت الجريدة على ارتفاع ٢٢ ألف قدم، وقد ظهر كل ذلك فى أحد أعداد مجلة «لايف» الأمريكية الذى تصادف لى الاطلاع عليها ضمن موضوع شامل عن التصوير وذلك قبل العدوان».

فوجئ الحاضرون بالمارشال زخاروف يخبط بيده على الطاولة بشدة ويوجه الكلام بالإنجليزية إلى الفريق فوزى الذى كان بجانبه ويشير قائلاً: «المقاومة الشعبية على حق»، ويكمل حديثه: «لأننا فى الاتحاد السوفيتى لدينا جداول زمنية بمواعيد مرور الأقمار الأمريكية وأثناء مرورها فى سمائنا نغطى ونموه جميع دفاعاتنا»، وكان بجانب زخاروف أحد المترجمين الروس قام بترجمة الحديث بينى وبين الفريق فوزى له».

أعلى هذا النحو وإلى هذا الحد وصلت معاملة زخاروف للفريق فوزى ومن هم دونه من قادتنا؟ بينما صاحب المذكرات حريص على الاستشهاد بمن أيد وجهة نظره ضد الفريق فوزى نفسه!

ربما يكون من الواجب علينا أن نشير إلى ما حفلت به مذكرات الفريق مدكور أبو العز من حديث عن غطرسة زخاروف، وقد تناولناها بالتفصيل فى الباب الأول من كتابنا «فى أعقاب النكسة».

❑

ونأتى إلى تعليق عبدالفتاح أبو الفضل بعد هذه القصة مباشرة:

«لا عيب فى ألا يتمكن أى قائد من الاطلاع بنفسه على كل ما يجىء بالمجلات، ولكن يجب أن تكون لديه مكاتب متخصصة ومخابرات تمده بكل ما يمس عمله، عموماً لم يكن هذا

غريباً عليه [يقصد على الفريق أول محمد فوزى] أو على مَنْ حوله من قادة الجيش الجدد لأنهم جميعاً كانوا مسئولين بشكل أو بآخر عن الهزيمة. فهم مَن كانوا يشغلون مراكز قيادية عليا فى الجيش ولكن الذى تغير فقط بعد الهزيمة هو المشير عامر وهيئة مكتبه، ولم يحدث التغيير الجذرى فى الجيش، ونفس الشىء حدث فى القيادات السياسية العليا التى كان يجب أن تهتز هى الأخرى».

وهكذا نجد أبو الفضل يذهب إلى ما لم يذهب إليه غيره من المنتمين للمؤسسة العسكرية ويجاهر بأن التغيير كان لابد أن يشمل كل هؤلاء القادة مع أن من بينهم كما نعرف من انتصروا فيما بعد فى حرب ١٩٧٣.

على أن محمد عبدالفتاح أبو الفضل فى صفحة ٣٠٧ وقبل نهاية كتابه بفقرة واحدة، يحرص على أن يدين كذلك الرقابة على الصحف من دون أن يصرح بذلك، فهو يروى واقعة معركة رأس العش ثم ينهى قصتها بقوله:

«وقام الصحفى جلال كشك بكتابة مقال لجريدة الجمهورية عن أبعاد ونتائج هذه المعركة أنهاها بثلاث كلمات صادقة: «وقفنا، وقاتلنا، فانتصرنا» ولكن الرقابة حذفت الكلمات الثلاث!

(٢٨)

ويحرص أبو الفضل فى مذكراته على إدانة جماعة الإخوان المسلمين فى كثير من المواضع، من ذلك انتقاده لهم فى موقفهم من اتفاقية الجلاء حيث قاوموا هذه الاتفاقية بعد عقدها، وعنده أن مثل هذه المقاومة من الكبائر، وليس مثل هذا الرأى بغريب عليه بحكم عقليته وتكوينه، لكن ما يهمنا أن ننقله عنه هو تلك التفاصيل التى يوردها عن نشاط جماعة الإخوان فى تلك الفترة، ومدى تفسيره لهذا النشاط، وهو يقول بصراحة فى صفحة ١٤٦:

«واستمرت عناصر الرفض ـ وكان معظمها من الإخوان المسلمين ـ فى إحداث قلاقل فى منطقة القنال، كما تم نسف بعض الكبارى والطرق. وكان رد الدولة حاسماً باعتقال الفاعلين».

وقبل هذا فإن أبو الفضل يبدى استياءه من رفض الشيخ محمد فرغلى المشاركة فى الدفاع عن مدينة الإسماعيلية حين طلب هو منه ذلك ويقول:

«وذهبت لمقابلة فضيلة الشيخ محمد فرغلى رئيس الإخوان المسلمين بالإسماعيلية للمشاركة بشباب الإخوان فى الدفاع عن المدينة، إلا أنه رفض وأخذ ينتقد عملية خطف الجندى البريطانى «ريجدن»، وأكد أنه لم يكن لها أى مبرر أو معنى فشكرته على ذلك، وانصرفت فى الحال».

ولكنه ـ وهذا إنصاف منه لنفسه ـ يذكر بعد ذلك أن الشيخ فرغلى قد اتصل به تليفونياً بعد إذاعة بيان صلاح سالم برفض الإنذار وأبدى استعداده وشباب الإخوان للدفاع عن المدينة:

«وبعد إذاعة البيان، اتصل بى تليفونياً الشيخ محمد فرغلى. تراجع وأبدى استعداده وشباب الإخوان، للدفاع عن المدينة وباركت ذلك، وكلفته بإعطاء التعليمات لشباب الإخوان، بالنزول إلى الخطوط الدفاعية، المخططة شعبيا بمدينة الإسماعيلية».

ومن ناحية ثالثة نجد عبدالفتاح أبو الفضل يذكر جانباً آخر مهماً هو إخلاص إخوانى سابق هو أبو المكارم عبدالحى وغيرته حين قابله فى تركيا.

«حضر الزميل أبو المكارم عبدالحى فى زيارة لتركيا، وزارنى هو وأسرته، وهو ضابط سابق ومن الوطنيين الذين كانوا ينتمون إلى جمعية الإخوان المسلمين، وكان قد صدر عليه حكم فى قضية الإخوان وظل هارباً بالدول العربية مدة طويلة. ولشدة غيرته على بلده وقومه عرض علىّ التعاون فى تعريفى بأهم رجال ورؤساء الجمعيات الإسلامية التركية بحكم صلاته الدينية بهم. وقد أمكن الاستفادة بأعضاء هذه الجمعيات فى العمل ضد إسرائيل».

«كانت قد وصلتنى معلومات غير مؤكدة أن لإسرائيل أبحاثاً فى مجال المياه الثقيلة التى تستخدم فى صنع القنبلة النووية من الهيدروجين، وكان المطلوب التأكد من ذلك ومدى ما وصلت إليه إسرائيل من أبحاث فى تصنيع هذه القنبلة النووية».

«أمكننى الاتفاق مع المندوب «فاوست» (الاسم الكودى) وهو شاب تركى خريج كلية العلوم وله معرفة بأحد الدروز بإسرائيل، وهو زميل دراسة فى إحدى الحلقات العلمية فى فترة من الفترات ويعمل فى مركز البحوث بمعهد رحبوت الإسرائيلى».

«سافر المندوب (فاوست) إلى إسرائيل وأمكنه الاتصال بالعالم الدرزى الإسرائيلى الجنسية. وكان فاوست يتجول فى إسرائيل بصفته سائح ضمن وفد سياحى تركى، أمكنه بعد الاتصال بصديقه الدرزى وبالمناقشات العلمية أن يحفظ فى الذاكرة عن ظهر قلب جميع

المعلومات التى استنتجها من الأحاديث، واكتفى بكتابة بعض رموز قليلة فى صفحات متفرقة فى نوتة التليفون الخاصة به لتساعده على تذكر هذه المعلومات».

«وعندما عاد إلى تركيا أمكنه وضع تقرير مفصل عن بعض المطلوب منه بعد إعادة تجميع كل ذلك من واقع الذاكرة وما دونه من رموز. وكانت عبارة عن معادلات كيميائية لمشروع تحضير المياه الثقيلة فى إسرائيل».

«وقد أمكن استكمال هذه المعلومات من مندوب آخر أجنبى. أما المندوب (فاوست) فقد تكررت زياراته على فترات متباعدة لإسرائيل للحصول على معلومات أخرى ذات أهمية علمية واستراتيجية طلبت الرئاسة منى الحصول عليها وكانت على شكل أسئلة علمية فنية محددة».

وأبو المكارم عبدالحى هذا هو الذى يرد ذكره كثيراً فى مذكرات عبدالمنعم عبدالرءوف، والذى لا يزال يحتاج إلى دراسة لأدواره قبل الثورة وبعدها.

(٢٩)

على أن من أهم ما فى كتاب محمد عبدالفتاح أبو الفضل أنه ينبئنا فى كثير من فقرات مذكراته عن بعض صور الروح الوطنية العظيمة التى كانت تسيطر على أغلبية الضباط فى الجيش المصرى، وسنجد أمثلة على هذه الروح فى مواضع متفرقة، سواء فى الأحداث التى وقعت قبل الثورة أو بعدها، وقد رأينا أمثلة كثيرة لبطولة زملاء أبو الفضل، كما تحفل المذكرات بجسارتهم فى حركات الضباط قبل الثورة، ولا تقتصر إشادة أبو الفضل بزملائه فقط، بل إنه حريص على الإشادة فى عدة مواضع بالضباط الكبار، ومن هذه المواضع نجد أول إشارة إلى أن اللواء على نجيب شقيق اللواء محمد نجيب كان هو الآخر يحضر الاجتماعات التى كانت تدعو إليها منشورات الضباط الأحرار والتى يتحدث عنها أبو الفضل فيقول:

«وكانت الاجتماعات التى ندعو لها بالمنشور يحضرها أعداد كبيرة من كبار وصغار الضباط، وكان يواظب على حضورها جميعاً اللواء محمد نجيب وشقيقه اللواء على نجيب، ولم يكن يتم فى تلك الاجتماعات أى نشاط أو كلام بالطبع، وكنا فقط فى شبه مظاهرة لا يُعرف منظمها والكل يسلم على الآخر ونتناول المشروبات الخفيفة ثم الأحاديث العادية، وكل منا ينظر للآخر فى ريبة وتخمين لاستكشاف مَنْ هو مصدر هذه المنشورات والدعوة إلى هذه الاجتماعات».

ومن الجدير بالإشارة والإشادة حديث صاحب هذا الكتاب عن ذلك «الموقف الوطنى الذى لا ينسى»، فهو عنوان فصل من فصول هذا الكتاب، وهو موقف يستحق أن يروى هنا لأنه ينبئنا عن أن الروح العامة كفيلة بتحقيق إضافات مهمة إلى النجاح الذى تحققه أى حركة وطنية، وهو ما يتضح من رواية محمد عبدالفتاح أبو الفضل لنبل أو جسارة أو شهامة أحد قادته حيث يروى فيقول:

«فى أواخر ١٩٥١ كنت لا أزال أعمل بالسجن الحربى، وفى أحد الأيام، عقب عودتى من التفتيش على السجن الحربى بالإسكندرية، حيث قضيت يومين هناك وبمجرد دخولى من باب السجن بالعباسية، لكى ألتقط سيارتى (الفيات) الخضراء التى كنت قد تركتها بفناء السجن، تم إبلاغى أن قائد السجن أمين مصطفى الخشاب ينتظرنى عند العودة وعلىَّ أن أتوجه إلى مكتبه فورا».

«دخلت على قائدى فبادر بإخبارى أن قائد البوليس الحربى عصام المصرى حضر إليه بالأمس خلال وجودى بالإسكندرية ومعه كشف بأرقام سبع أو ثمان سيارات مدنية.. وأن إحدى هذه السيارات خضراء اللون وقد شوهدت فى إحدى الليالى خلف قسم عابدين، ترجل منها شخص أسقط رزمة من المظاريف فى صندوق البريد المثبت خلف جدار قسم عابدين».

«وسأل الخشاب قائد البوليس الحربى لماذا يتم البحث عن سبع أو ثمانى سيارات مادامت السيارة المشتبه فيها واحدة؟ فأجابه أن عسكرى البوليس لم يتمكن من قراءة أرقام السيارة ربما لعدم إجادته القراءة أو لأن الإضاءة ليلاً لم تكن كافية أو لكلا السببين معاً. لذلك تمكن من التقاط رقمين فقط من أرقام السيارة الستة، وأن البوليس اتصل بقلم المرور الذى أحضر كشفاً بعدد السيارات التى يشترك فيها هذان الرقمان، ومن المتوقع أن تكون من بينها سيارة خضراء اللون،وأنه قد تم حصر سبع أو ثمانى سيارات مدنية، وإحدى هذه السيارات مملوكة لضابط بالجيش المصرى يعمل بالسجن الحربى واسمه محمد عبدالفتاح أبو الفضل، لذلك جاء قائد البوليس الحربى للتأكد من رقم ولون هذه السيارة».

«عند ذلك الحد توقف الخشاب عن سرد القصة وسألنى مبتسماً إن كنت فعلاً قد اشتركت فى توزيع أى منشورات فأنكرت بطبيعة الحال، وكان الخشاب ضمن مَنْ وصلهم أحد هذه المنشورات، فأخرج المنشور من درج مكتبه وسلمه لى وهو يضحك، ثم قال إنه ذكر لقائد

البوليس الحربي إن العربة التي جاءت بالكشف والتي أملكها ليست خضراء اللون ولكنها ذات لون رصاصي غامق، وبذلك انتهى الموضوع عند هذا الحد (حيث إن ألوان السيارات في ذلك الوقت لم يكن يتم تدوينها في رخصة السيارة) فإذا ما تم تغيير لون السيارة لن يكون في وسع قائد البوليس الحربي أن يتأكد من شيء».

«وابتسم قائدي الخشاب وهو يصافحني قائلا: إنه قد حان الوقت لأن أسرع بالعودة إلى منزلي، فآخذ سيارتي فوراً لكي أدهنها باللون الرصاصي الغامق فوراً، وبالفعل تركته، وذهبت لكي ألتقط سيارتي من فناء السجن، وتماوجت في داخلي مشاعر الدهشة والامتنان، وأنا أنظر إلى سيارتي التي وجدت لونها قد تبدل فعلاً من الأخضر إلى الرصاصي الغامق».

«وعلمت بعد ذلك أن القائد الخشاب بعد انصراف قائد البوليس الحربي بادر بإحضار عدد من المسجونين الذين يجيدون دهان السيارات فقاموا في وقت قصير بإزالة اللون الأخضر تماماً،ثم قام قائدي واشترى على نفقته مسدس «دوكو» وكلفهم بالدهان والتلميع حتى تبدل لون السيارة».

ويعقب صاحب هذه المذكرات على هذا بجملة قصيرة محملة بالامتنان فيقول :

«لم ولن أنسى هذا التصرف الرجولي من قائدي الخشاب الذي يعبر أصدق تعبير عن علاقات الإخاء والرجولة والشهامة والوطنية في تلك الأيام».

مذكرات الضباط الأحرار

نحو حكم الفرد

6

أسرار حركة الضباط الأحرار والإخوان المسلمين

مذكرات:

حسين حمودة

دار الخيّال

(١)

حسين حمودة اسم غير معروف بنفس الدرجة التى يعرف بها خالد محيى الدين، وجمال عبدالناصر، وكمال الدين حسين، ولا بدرجة عبدالمنعم عبدالرءوف.. ولكنه كان معروفاً بدرجة أكبر من صلاح خليفة، وسعد حسن توفيق. ما الداعى إلى هذه المقارنة؟ الجواب أنه بهؤلاء السبعة بدأ تنظيم الضباط الإخوان،أو تنظيم الإخوان المسلمين فى الجيش. وقد انضوى حسين حمودة فى هذا التنظيم حين كان ملازماً أول (هو وأربعة من زملائه)، بينما كان عبدالمنعم عبدالرءوف وجمال عبدالناصر نقيبين.

وفى مذكرات عبدالمنعم عبدالرءوف عن هذه الفترة أن حسين حمودة كان ثانى مَنْ دعاهم إلى دخول هذا التنظيم بعد جمال عبدالناصر، وأن حسين حمودة هو الذى تولى دعوة ضابطين آخرين هما شقيق زوجته (سعد توفيق) وزميله فى الدراسة (صلاح خليفة).

وفى مذكرات خالد محيى الدين ما لا يختلف عن هذه المعلومات فى جوهرها ولا تفصيلاتها.

أما فى مذكرات حسين حمودة نفسه ـ التى بين أيدينا فى هذا الباب ـ فإنه يتواضع ويذكر أنه دعا سعد توفيق، لكن صلاح خليفة كان على صلة بالإخوان هو الآخر وإن كان زميل دفعته.

هذا إذن واحد من ثلاثة فقط من هذا التنظيم المبكر نشروا مذكراتهم، وقد نشر مذكراته (١٩٨٥) عن دار الزهراء للإعلام العربى قبل أن ينشر خالد محيى الدين مذكراته (١٩٩٢)،

وقبل أن تُنشر مذكرات عبدالمنعم عبدالرءوف بعد وفاته (١٩٨٨)، وقد نشر حسين حمودة مذكراته وهو على قيد الحياة ثم توفى بعدها بسنوات.

ومع هذا فإن أحداً من المعنيين بالتاريخ المعاصر سواء على المستوى الوطنى أو الأكاديمى لم يتنبه إلى أن يسأل حسين حمودة كثيراً من الأسئلة التى تحتاج كتابة التاريخ المعاصر إلى إجابتها بشدة.

ولكن حسين حمودة نفسه خدم بلاده ومواطنيه على نحو ما تعود من الهدوء والصمت، وقد أبرأ ذمته من أن يبقيها وقد احتفظ لنفسه بما كان لابد أن تتيحه تلك النفس لكل الناس لكى يعرفوا الجوانب المختلفة من الحقيقة التى صنعت تاريخهم المعاصر.

(٢)

تمتاز هذه المذكرات بقدر كبير من التنظيم الحقيقى، فقد جعلها المؤلف مقسمة على ١٢ فصلاً دون أن يقفز فى كل صفحة ما بين الوقائع المختلفة، ودون أن يخلط بين ما هو سابق وما هو لاحق، كما تمتاز هذه المذكرات بقدر كبير من الترتيب خصوصاً وأن الفصول الأربعة الأولى جاءت لتغطى التعاقب الزمنى لرحلة حياة مؤلفها مع الضباط الأحرار، ثم إنه جعل الفصول التالية فصول «رأى» إن صح هذا التعبير [الصحفى]، فهو فى هذه الفصول يبدى آراءه فى كثير من الأحداث التى لم يشارك فيها حتى وإن كتب هذه الفصول بطريقة المؤرخين. فالفصل الخامس مثلاً يتحدث عن قارعة يونيو ١٩٦٧، وهذا بالنص هو عنوان الفصل الذى قسمه حسين حموده إلى عشر نقاط.

أما الفصول السادس والسابع والثامن فإن حسين حمودة يخصصها للحديث عن هوية جمال عبدالناصر، وهى مسألة قد حيرته فى مرحلة مبكرة، ولهذا فإنه يخصص الفصل السادس لدراسة علاقة جمال عبدالناصر بالإخوان المسلمين، والفصل السابع لدراسة علاقته بالماركسيين، أما الفصل الثامن فيطرح لنا فيه رؤيته هو لشخصية عبدالناصر بعد دراسته لها «هوية عبدالناصر» محاولا تفسير تناقض انتماءات عبدالناصر ما بين الإخوان والماركسيين، ومقدما تحليله لهذا التناقض، وفى هذا الفصل يصرح بصوت عال أن عبدالناصر كان بمثابة الطاغية الفرد.. كما سنرى فى وصفه له (صفحة ١٦١) الذى سننقله فى موضعه بإذن الله.

ويجد كاتب هذه المذكرات القدرة على أن يتناول أحداث عهد السادات بشىء من التحليل، فهو يتحدث بسعادة بالغة عن ثورة ١٥ مايو ١٩٧١ فى الوقت الى كانت الموجة التى

تنكر على أحداث ١٥ مايو ١٩٧١ صفة الثورة هى الموجة السائدة فى الكتابات الصحفية والسياسية المصرية.

ويتحدث حسين حمودة فى الفصل العاشر عن حرب أكتوبر ١٩٧٣ ويتولى تفنيد الحجج الواهية التى كانت ظهرت فى وقت من الأوقات (القريبة من زمن ظهور هذه المذكرات) لتدعي أن الحرب كانت تمثيلية.

ويخصص المؤلف فصلاً آخر هو الحادى عشر للحديث عن الرئيس السادات، وفيه لا يبرئ السادات من أحداث سبتمبر ١٩٨١ الأخيرة، وإن كان يلقى بتبعتها على رجاله.

أما الفصل الأخير فإن كاتب المذكرات يجعل عنوانه «هل حكم الضباط الأحرار مصر بعد الثورة؟»، وهو سؤال فى غاية الأهمية، وإن كان الجمهور لا يعتقدون ـ ولهم العذر فى ذلك ـ أن هذا الموضوع مما يحتاج إلى سؤال ويظنون أن العكس كان هو الصحيح!!

(٣)

ولاشك أن هذه المذكرات تمتاز أيضاً بقدر كبير من الانضباط التاريخى الذى يُمكننا كقراء ويُمكن المؤرخين والباحثين من الاعتماد عليها فى كثير من المواضع.

وينبغى لنا فى البداية أن ننبه إلى أن خلاف حسين حمودة مع عبدالناصر لم يبدأ مبكراً كخلاف عبدالمنعم عبدالرءوف وغيره، بل إن حسين حمودة قد قضى عاماً فى كلية أركان الحرب ما بين سبتمبر ١٩٥٢ و١٩٥٣، ثم سافر ضمن هذه الدفعة إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى رحلة عسكرية علمية، وعاد إلى القوات المسلحة، حتى كانت أزمته مع النظام قبل أحداث مارس ١٩٥٤.

ولهذه النقطة أهميتها الخاصة، فهى تعكس لنا بوضوح أن حسين حمودة كان واحداً من الضباط الأحرار الذين قبلوا أن يستمروا فى العمل فى القوات المسلحة فى مواقعهم ومن دون أن يحصلوا على سلطة معينة أو يشاركوا فى الوظائف أو المواقع المرموقة فى الحكومة أو يخرجوا من قواعدهم، بل إنه مضى إلى أكثر من ذلك فدرس فى كلية أركان الحرب ليكون مهيئاً للترقيات اللاحقة.. ولكن شيئاً ما حدث فى بداية ١٩٥٤، هذا الشىء فى نظر حسين حمودة وفى مذكراته لم يكن إلا «وشاية، وفبركة» جعلته متهماً بالتعاون مع الإخوان ضد عبدالناصر.. على حين أن الأحداث قد جعلت حسين حمودة يتعرض لكل ما تعرض له الإخوان القائمون بالتمرد أو العازمون فعلاً على التمرد.

ولسنا هنا فى مجال الحكم على حسين حمودة هل اشترك فى ذلك التمرد أم لم يشترك، ولكننا نجد أنفسنا وقد أصبحنا الآن وبعد وفاة هذا الرجل العظيم أمام تاريخ عانى منه هذا الرجل على أنه اشترك، أى أنه دفع المقابل حتى لو لم يكن قد قام بما يستحق هذا العقاب [الظالم].

(٤)

من أهم ما ينبئنا عنه حسين حمودة فى هذه المذكرات، ذلك الأثر الذى تركه حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ فى نفسيته، وهكذا نجده يشارك الرئيس نجيب والرئيس السادات وغيرهم من الضباط الرأى أو التعبير عن الأثر المدمر لهذا الحادث فى نفوسهم كرجال عسكرية وطنية، ومن الطريف أن كاتب هذه المذكرات يذكر أنه كان مريضاً فى المستشفى العسكرى العام بكوبرى القبة حين وقع هذا الحادث، وكان عزيز المصرى هو الآخر محتجزاً فى هذا المستشفى بعد محاولته الشهيرة الفرار إلى ألمانيا فى مايو ١٩٤١.. وفى هذا المستشفى التقى الرجلان وانتقلت شرارة الوطنية الثائرة فيما يبدو من عزيز المصرى إلى حسين حمودة، وفى هذا المجال يورد حسين حمودة فى هذه المذكرات على لسان عزيز المصرى كثيراً من العبارات التى يمكن وصف بعضها بأنها إخوانية التوجه، على الرغم من أنه لم يعرف عن عزيز المصرى ذلك التوجه الإخوانى فى ذلك الوقت المبكر ولا بعده، وها هو يقول:

«... وفى يوم من الأيام التى تلت حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ طلبت من الضابط القائم بحراسة الفريق عزيز المصرى أن يستأذن لى فى مقابلته فأذن لى، وكان الوقت بعد غروب الشمس بقليل. وجلست مع عزيز المصرى جلسة طويلة استمرت حوالى ست ساعات تقريباً، سمعت فيها منه حديثاً عجبا».

«لمست فى عزيز المصرى علماً غزيراً وجرأة منقطعة النظير وكرهاً عميقاً للاحتلال البريطانى وللملك فاروق وحاشيته، وأخيراً وجه عزيز المصرى الكلام لى قائلا: «أنتم شباب الضباط، ماذا تنتظرون، أنتم المسئولون عن إنقاذ شعب مصر من الاحتلال البريطانى والاستبداد السياسى المتمثل فى حكم أسرة محمد على، عليكم بالتكتل وتكوين رأى عام مستنير بين الشباب من ضباط القوات المسلحة».

«وأوصانى بالتزود بالعلوم والمعارف والقراءة المستمرة فى علوم وفنون الحرب والتاريخ العسكرى والسياسى والجغرافيا العسكرية والسياسية والاقتصادية وعلوم النفس والاجتماع

والاقتصاد، وركز على علوم القرآن والسنة النبوية المطهرة، وبخاصة ما يتعلق بأحكام الجهاد فى سبيل الله».

«وقال عزيز المصرى إنه ليعجب من المسلمين المعاصرين وأحوالهم وأن أول ما نزل من القرآن الكريم هو كلمة «اقرأ»، وهى كلمة تدعو إلى الاهتمام بالعلم، وأن يصبغ المسلمون حياتهم بالصبغة العلمية، والمنهج العلمى كان من خصائص الحضارة الإسلامية قبل أن يحصل عليه الغرب من المسلمين ويوظفه فى خدمة حضارته، ومع ذلك فالمسلمون اليوم هم أبعد الناس عن سلوك المنهج العلمى فى حياتهم، ثم وجه عزيز المصرى نصيحته الخالدة لى قائلا: «اقرأ.. اقرأ فى كل كتاب.. اقرأ فى السياسة والحرب والاقتصاد، اقرأ واملأ رأسك بنور العلم».

(٥)

ومن المهم أن ننقل عن هذه المذكرات التعريف الموجز الذى يقدمه صاحبها بالصاغ محمود لبيب المسئول عن حركة الضباط فى الإخوان المسلمين، وسوف نفعل، ومن المهم أيضا بنفس الدرجة أن نشير إلى أن صاحب المذكرات يروى أنه سأل محمود لبيب: من هم الإخوان المسلمون؟ وماهى أهدافهم؟ أى أنه يريد أن ينهى إلينا أنه لم يعرف الإخوان المسلمين إلا من خلال محمود لبيب، وقد أخبرنا كذلك أنه لم يعرف محمود لبيب إلا من خلال عبدالمنعم عبدالرءوف:

«لقد عرفنى الصاغ محمود لبيب بنفسه بأنه كان يعمل ضابطاً بالجيش المصرى وكان يخدم بسلاح الهجانة بالسلوم مع الملازم صالح حرب (صالح حرب أصبح وزيراً للدفاع فى مصر عام ١٩٣٩) عام ١٩١٤ وأنهما (أى محمود لبيب وصالح حرب) عندما علما بنبأ إعلان انجلترا حمايتها على مصر سنة ١٩١٤ وخلع الإنجليز للخديوى عباس حلمى الثانى، ثارت نفسيهما ضد الإنجليز وصمما على عمل شىء لإنقاذ مصر».

«وكانت مصر فى ذلك الوقت تابعة لدولة الخلافة العثمانية ومحتلة فعلاً بالقوات البريطانية منذ عام ١٨٨٢. وكان السنوسيون فى ليبيا يقاتلون الإيطاليين الذين استطاعوا أن يحتلوا شواطئ ليبيا سنة ١٩١١، فتصدى لهم السنوسيون وكانت تركيا دولة الخلافة الإسلامية تمد السنوسيين بالأسلحة والذخائر والمؤن والعتاد الحربى والضباط الأتراك بواسطة

الغواصات الألمانية (فقد كانت تركيا وهى دولة الخلافة الإسلامية حليفة لألمانيا فى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨) واتفق السنوسيون مع الأتراك على مهاجمة مصر من الغرب أثناء زحف القوات التركية من الشرق على مصر عبر فلسطين».

«اتفق محمود لبيب وصالح حرب ومن معهم من الضباط المصريين مع السنوسيين على أن ينضموا بقواتهم المصرية للسنوسى ويشتركوا معه فى الهجوم على مصر عن طريق ساحل البحر الأبيض المتوسط والواحات. وفعلاً انضم محمود لبيب وصالح حرب بقواتهما للسنوسى، وشنوا الحملة المعروفة فى التاريخ بالحملة السنوسية على مصر سنة ١٩١٥».

«وبعد أن فشلت (أى الحملة السنوسية) سافر محمود لبيب فى غواصة ألمانية إلى استانبول وبقى هناك إلى أن سقطت الدولة العثمانية وأعلن مصطفى كمال أتاتورك إلغاء الخلافة الإسلامية وتخلى تركيا عن زعامتها للعالم الإسلامى. فهاجر محمود لبيب من تركيا إلى ألمانيا وظل هناك إلى أن صدر عفو عام سنة ١٩٢٤ عن كل المعتقلين والمسجونين والمنفيين السياسيين».

«وعاد محمود لبيب إلى مصر وعين بوظيفة ضابط بمصلحة خفر السواحل، ولكنه اختلف مع عقل باشا مدير مصلحة خفر السواحل فطلب تسوية حالته فأحيل إلى المعاش برتبة الصاغ (رائد) والتقى محمود لبيب بحسن البنا وكان الأخير يخطب بأحد مساجد القاهرة فقابله محمود لبيب بعد الخطبة وقال له إنى صاحب فكرة وقد جاهدت فى سبيلها وقص عليه قصته وأنا (أى محمود لبيب مخاطباً حسن البنا) مستريح لفهمك للإسلام وطريقتك فى نشر الدعوة الإسلامية وأريد أن أعمل معك فى هذا المجال . فرحب به حسن البنا وظل محمود لبيب يعمل مع حسن البنا إلى أن أصبح محمود لبيب وكيلاً لجماعة الإخوان المسلمين».

❑

وشأن كل مذكرات جادة يكتبها صاحبها من واقع خبرته الشخصية بالحياة والأحياء فإن المذكرات التى بين أيدينا تلقى أضواء مهمة وقوية على ما لم ينتبه إليه غيرها من أحداث ووقائع لم يشهدها الكثيرون على الرغم من أهميتها فى صنع التاريخ والأحداث.

على هذا النحو نرى فى محمود لبيب صورة أقل تمردا وخضرمة من عزيز المصرى الذى شارك فى أكثر من تمرد وفى أكثر من معركة حربية! وهو إذن ضابط «عثمانى» قديم إن صح التعبير. كما أنه هو الذى اختار بنفسه أن ينضم إلى حسن البنا فى مرحلة مبكرة حتى وصل إلى مكانة وكيل جماعة الإخوان المسلمين.

(٦)

وعلى نفس هذا الخط من الحديث عن أدوار الرجال الوطنيين الذين لم يصلوا إلى مواقع السلطة المؤثرة فإن من أهم ما انفردت به هذه المذكرات فى رأيى هو إلقاؤها الضوء على الدور الشجاع الذى قام به ذلك الجندى المجهول العظيم سعد توفيق ليلة الثورة، فقد كان يخدم فى المخابرات الحربية التى كانت فى الدور الأرضى من مبنى قيادة الجيش فى كوبرى القبة، ولما لاحظ أن حسين فريد جاء إلى مكتبه فى الساعة التاسعة وبدأ يستدعى القادة، ذهب من فوره إلى جمال عبدالناصر ليستحثه على البدء فى الثورة، وها هو حسين حمودة يروى لنا هذه الوقائع فى صفحة ٨٢ وما بعدها فيقول:

«وكانت إدارة المخابرات الحربية بالدور الأرضى من مبنى رئاسة الجيش، فترك سعد حسن توفيق رئاسة الجيش حوالى الساعة ١٠ مساء يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٤ وتوجه إلى منزل جمال عبدالناصر حسين بكوبرى القبة وأبلغه أن خطة الثورة قد اكتشفتها رئاسة الجيش وأن حسين فريد رئيس الأركان قد دعا قواد الأسلحة والوحدات إلى مؤتمر عاجل فى مبنى الرئاسة، ومعنى ذلك أن الثورة عرضة للفشل».

«وطلب سعد حسن توفيق من جمال عبدالناصر أن يتصرف بسرعة على ضوء هذه المعلومات باعتباره المسئول عن خطة الثورة، فأسرع جمال عبدالناصر إلى منزل عبدالحكيم عامر واتجها جهة ألماظة لعلهما يستطيعان إحضار بعض القوات لاعتقال المجتمعين فى رئاسة الجيش».

«ومن جهة أخرى كان القائمقام يوسف منصور صديق مكلفاً فى الخطة بالتحرك بقواته ليشكل احتياطا للقيادة الثورية، وذهب يوسف صديق ومعه ضباطه الأحرار إلى هاكستب فوجد هناك عقبة خطيرة إذ اعترضه ضابط عظيم محطة هاكستب البكباشى أحمد المعتز بالله الكامل الذى اتصل باللواء مكى قائد الفرقة الذى أفاد بعدم إجراء أى تحرك حتى يحضر، فقرر يوسف صديق التحرك بقواته قبل الميعاد المحدد لقيام الثورة وقبل وصول اللواء مكى قائد الفرقة حتى لا تفسد الخطة ويتعذر عليه التحرك بقواته».

«وألقى يوسف منصور صديق القبض على ضابط عظيم محطة هاكستب البكباشى المعتز بالله الكامل، وأمر ضباطه الأحرار بالخروج بالقوة التى كانت تحت أيديهم قبل الميعاد فخرجوا ووجدوا فى الطريق اللواء مكى قائد الفرقة فاعتقلوه، وعند الميدان بالقرب من مطار ألماظة أسرت طلائع قوات يوسف منصور صديق كلا من جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وكانا

يحومان حول هذه القوة وكان ضباط يوسف صديق الأحرار لايعرفون جمال عبدالناصر ولا عبدالحكيم عامر، فلما حضر يوسف صديق أفرج عنهما فورا».

«وأخبر جمال عبدالناصر يوسف منصور صديق بالموقف، وكلفه بالتوجه بالقوة التى معه إلى رئاسة الجيش للقبض على حسين فريد رئيس الأركان ومَنْ معه من قادة الجيش، فقام يوسف منصور صديق بهذا الواجب على أتم وجه، وكان له الفضل الأكبر هو والمرحوم سعد حسن توفيق واللواء محمد نجيب فى نجاح ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وكل شىء تم بإرادة الله فهو الميسر لما حدث».

(٧)

ويروى صاحب هذه المذكرات كيف تكونت الخلية الأولى من الضباط الإخوان على نحو يتوافق مع ما رواه بعد ذلك [من حيث تاريخ النشر] كل من عبدالمنعم عبدالرءوف وخالد محيى الدين فى مذكراتيهما اللتين تناولناهما فى بابين سابقين من هذا الكتاب، وهذه هى فقرات حسين حمودة:

«... وسألت حسن البنا هل تعرفون أحداً من ضباط الجيش غيرى أنا وعبدالمنعم عبدالرءوف يمكن أن نتعاون معه فى هذا السبيل؟».

«فقال حسن البنا: نعرف ضابطاً اسمه صلاح خليفة. التقيت بصلاح خليفة فوجدت أنى أعرفه، فصلاح خليفة كان زميلاً لى أثناء دراستى الثانوية بمدرسة الأمير فاروق الثانوية بروض الفرج».

«فكرت فى طريقة نشر الدعوة فى الجيش، وكان يقطن بجوارى بحمامات القبة ضابط ملازم أول من دفعتى اسمه سعد حسن توفيق (اقترنت بشقيقته عام ١٩٤٧ وتوفى المرحوم سعد توفيق سنة ١٩٦٢) فكلمته فى الموضوع فوافقنى على الفكرة».

«ثم التقيت مع عبدالمنعم عبدالرءوف وصلاح خليفة فقلت لهما إنى تحادثت مع ضابط من دفعتى اسمه سعد حسن توفيق، فقال صلاح خليفة إنه تحادث مع ضابط من سلاح الفرسان اسمه خالد محيى الدين».

«وقال عبدالمنعم عبدالرءوف: لقد تحدثت مع ضابطين هما اليوزباشى جمال عبدالناصر والملازم أول كمال الدين حسين، وسنلتقى جميعاً فى منزلى يوم الجمعة القادم بعد صلاة المغرب».

«التقينا بمنزل عبدالمنعم عبدالرءوف بالسيدة زينب فى مطلع عام ١٩٤٤ وكان عددنا سبعة ضباط هم حسب الأقدمية فى كشف الجيش المصرى وقت ذاك:

«١ ـ اليوزباشى عبدالمنعم عبدالرءوف.

«٢ ـ اليوزباشى جمال عبدالناصر حسين (رئيس جمهورية مصر بعد محمد نجيب).

«٣ ـ الملازم أول كمال الدين حسين (عضو مجلس قيادة ثورة ٢٣ يوليو ٥٢).

«٤ ـ الملازم أول سعد حسن توفيق (توفى لرحمة مولاه سنة ١٩٦٢).

«٥ ـ الملازم أول خالد محيى الدين (عضو مجلس قيادة ثورة ٢٣ يوليو ٥٢).

«٦ ـ الملازم أول حسين محمد أحمد حمودة (كاتب هذه السطور).

٧ ـ الملازم أول صلاح الدين خليفة (ضابط متقاعد الآن)».

«التقينا نحن السبعة وحضر اجتماعنا الصاغ محمود لبيب وكيل جماعة الإخوان المسلمين، وتكررت اجتماعاتنا مرة كل أسبوع فى منزل عبدالمنعم عبدالرءوف بالسيدة زينب، وفى منزل جمال عبدالناصر فى منطقة تقاطع شارع أحمد سعيد بشارع رمسيس (الملكة نازلى سابقاً) وفى بيت كمال الدين حسين بالسيدة زينب، وفى بيت خالد محيى الدين بشارع الخليج المصرى بالحلمية ثم بمنيل الروضة وفى بيتى بحمامات القبة».

«وتكررت اجتماعاتنا الأسبوعية ولم تنقطع أبداً طيلة سنوات ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ ، وانقطعت اجتماعاتنا اعتباراً من مايو سنة ١٩٤٨ بسبب حرب فلسطين».

❑

ثم يلخص حسين حمودة نشاط خليته الإخوانية ـ العسكرية، ونراه يقرر أن محمود لبيب (وليس جمال عبدالناصر أو غيره من الضباط الشبان) كان هو الشخص الوحيد الذى يعرف كل أعضاء هذا التنظيم السرى:

«كانت الخلية الرئيسية فى تنظيم الإخوان المسلمين داخل القوات المسلحة مكونة من سبعة ضباط هم: عبدالمنعم عبدالرءوف وجمال عبدالناصر وكمال الدين حسين وسعد توفيق وخالد محيى الدين وحسين حمودة وصلاح خليفة».

«وظلت هذه الخلية تعمل سراً طيلة أربع سنوات وأربعة أشهر بدءاً من عام ١٩٤٤ حتى ١٥ مايو ١٩٤٨ لضم أكبر عدد ممكن من الضباط إلى صفوف هذا التنظيم السرى. واتسع نطاق هذا التنظيم وتكونت خلايا جديدة فرعية منبثقة من الخلية الرئيسية فشكل كل فرد من أفراد الخلية الرئيسية خلية فرعية وكل خلية فرعية لا تزيد على سبعة أفراد على ألا يخطر أى واحد منا الآخرين بأسماء المنضمين معه فى هذه الخلايا السرية مراعاة لأمن الحركة».

«وكان محمود لبيب يحضر الاجتماع الأسبوعى للخلية الرئيسية ويحضر أيضاً الاجتماعات نصف الشهرية للخلايا الفرعية المنبثقة من الخلية الرئيسية».

«وأصبح بذلك محمود لبيب هو الشخص الوحيد فى هذا التنظيم السرى الذى يعرف جميع المشتركين فيه.. وصار محمود لبيب هو حلقة الاتصال بين الضباط المنضمين للتنظيم ليس فى الجيش فقط بل وفى الطيران أيضاً».

«وكان محمود لبيب بالنسبة لنا جميعاً فى منزلة الوالد أو أكثر، يحاول ربط أكبر عدد من ضباط القوات المسلحة على فكرة العمل بشريعة الإسلام».

«واتسع نطاق العمل السرى ليشمل قطاع المدنيين من شباب الإخوان المسلمين».

(٨)

ويورد صاحب هذه المذكرات قصة البيعة «الشهيرة» التى شارك فيها مع زملائه الستة الآخرين [ومنهم جمال عبدالناصر وخالد محيى الدين]، ونكاد نرى تطابقا فيما يرويه هو وخالد محيى الدين وعبدالمنعم عبدالرءوف، ومن المهم أن نلفت النظر إلى أن رواية هؤلاء الثلاثة تكاد تتطابق فيما يتعلق بكثير من التفصيلات الموحية، ولنقرأ ما يرويه حسين حمودة:

«ذهبنا نحن السبعة فى ليلة فى أوائل عام ١٩٤٦ إلى المركز العام لجماعة الإخوان المسلمين بالملابس المدنية حسب اتفاق سابق، وبعد أن تكامل العدد، قادنا صلاح خليفة إلى منزل فى حى الصليبة بجوار سبيل أم عباس حيث صعدنا إلى الطابق الأول فوق الأرضى فنقر صلاح خليفة على الباب نقرة مميزة، وقال الحاج موجود؟ وكانت هذه هى كلمة السر.. ففتح الباب ودخلنا حجرة بها ضوء خافت جداً مفروشة بالحصير وفيها مكتب موضوع على الأرض ليس له أرجل».

«ثم قادنا صلاح خليفة واحداً بعد واحد لأخذ العهد وحلف اليمين فى حجرة مظلمة تماماً يجلس بها رجل مغطى بملاءة فلم نعرف شخصيته، وحين جاء دورى جلست أمام هذا الرجل المختفى.. وكان سؤال هذا الشخص المتخفى الذى يأخذ العهد: «هل أنت مستعد للتضحية بنفسك فى سبيل الدعوة الإسلامية وإعلاء كلمة الله؟»».

«فقلت: نعم».

«فقال: «امدد يدك لتبايعنى على كتاب الله وعلى المسدس سلاح العصر»، فوضعت يدى على مصحف ومسدس وبايعته على فداء الدعوة الإسلامية وعدم إفشاء أسرارها».

«وقال الرجل المتخفى :

«إن مَنْ يفشى سرنا فليس له منا سوى جزاء واحد هو جزاء الخيانة، وأظنك تعرف جيداً هذا الجزاء».

«وبعد أن بايع كل منا عدنا إلى الحجرة ذات الضوء الخافت فوجدنا شخصاً عرّفنا بنفسه وذكر اسمه (عبدالرحمن السندى)، وقال إنه يرأس التنظيم السرى الخاص بجماعة الإخوان المسلمين، وهو تنظيم سرى مسلح يضم شباناً من الطلبة والعمال والفلاحين والحرفيين ممن باعوا أنفسهم لله واستعدوا للموت فى سبيل إعلاء كلمة الله».

«ثم ذكر كل واحد منا اسمه ليتعرف علينا عبدالرحمن السندى، وكان الذى بايع على فداء الدعوة الإسلامية فى هذه الليلة هم بحسب الأقدمية فى كشف الجيش المصرى وقتذاك:

«١ ـ اليوزباشى عبدالمنعم عبدالرءوف.

«٢ ـ اليوزباشى جمال عبدالناصر حسين .

«٣ ـ الملازم أول كمال الدين حسين .

«٤ ـ الملازم أول سعد حسن توفيق.

«٥ ـ الملازم أول خالد محيى الدين .

«٦ ـ الملازم أول حسين محمد أحمد حمودة (كاتب هذه السطور).

٧ ـ الملازم أول صلاح الدين خليفة .

«وفى هذه الليلة تفاهمنا مع عبد الرحمن السندى على أن نقوم بتدريب شباب الإخوان من أعضاء التنظيم السرى على استعمال الأسلحة، فقال إنه سيرسل لنا شخصاً للاتفاق معه على تنظيم هذه العملية».

ينبغى لنا هنا أن نلاحظ أن هؤلاء السبعة (وهم نفس مَنْ أورد كل من خالد محيى الدين وعبدالمنعم عبدالرءوف أسماءهم أيضا) كانوا هم أنفسهم الذين بدأ بهم تنظيم الضباط الإخوان على نحو ما نقلنا عن حسين حمودة نفسه فى فقرة سابقة، وكأنما ظل هؤلاء جميعا ملتزمين منذ بدأوا التنظيم وحتى بايعوا هذه البيعة التى لا يصل إليها المنتمون الجدد إلا بعد فترة غير قصيرة من البدايات، ويعطينا هذا دليلا على مدى تمكن الفكرة من نفوس هؤلاء وعقولهم حتى إن أحدا منهم لم يترك التنظيم فى مرحلة مبكرة.

(٩)

وفى وسط هذا الكتاب يروى حسين حمودة كيف قطع جمال عبدالناصر العلاقة بالإخوان المسلمين، ومن اللافت للنظر أن شهادته التى هى شهادة واحد من بين المقربين من الجانبين عبدالناصر والإخوان تتناقض مع بعض الروايات التى تذهب إلى أن هذه العلاقة ظلت قائمة وفاعلة حتى مطلع الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ولكن حمودة ينبئنا عن أن هذه الصلة بين الجانبين قد فترت منذ مرحلة سابقة وبالتحديد عقب حرب ١٩٤٨، وهو يروى هذا المعنى الدقيق بثقة ووضوح فيقول :

«... وبقيام حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ توقف نشاط التنظيم السرى للضباط واستشهد عدد منهم فى الحرب. وظل كاتب هذه السطور فى فلسطين بعد وقف القتال حتى نقل مدرساً بالكلية الحربية فى ١٩ نوفمبر ١٩٥٠. وقد فاتحنى جمال عبدالناصر فى أوائل عام ١٩٥٠ فى إعادة تكوين التنظيم السرى للضباط وذكر لى أنه سيتكون من عناصر التنظيم السرى السابق للإخوان المسلمين فى القوات المسلحة ومن عناصر أخرى من الضباط الذين قاسموه محنة الفالوجا، وسيحاول أن يضم عناصر أخرى من غير المتدينين بشرط أن تتوفر فى الضابط صفة الشجاعة وكتمان السر».

«وقال لى جمال عبدالناصر: إنه بموت حسن البنا ومحمود لبيب انقطعت صلة الإخوان المسلمين بالتنظيم السرى لضباط الجيش الذى بدأه محمود لبيب سنة ١٩٤٣، وإنه يرى لدواعى الأمن قطع الصلة بعبدالرحمن السندى رئيس التنظيم السرى المدنى لشباب الإخوان، وبخاصة بعد الحديث الذى دار بين جمال عبدالناصر وإبراهيم عبدالهادى رئيس الوزراء بشأن قيام عبدالناصر وبعض رفاقه من الضباط بتدريب شباب الإخوان المسلمين على استعمال الأسلحة قبل حرب فلسطين».

«وقال: إن تسرب هذه الأنباء للحكومة ربما كان بسبب تعرض بعض شباب الإخوان المسلمين المعتقلين فى عهد إبراهيم عبدالهادى للتعذيب فى السجون بواسطة رجال البوليس السياسى».

«فوافقته على عدم الاتصال بعبدالرحمن السندى ضمانا لأمن تنظيم الضباط».

على هذا النحو بدأ إذن انفصال عبدالناصر عن الإخوان، فيما يرويه حسين حمودة أحد السبعة المؤسسين لتنظيم الضباط الإخوان وقد كان لهذا الانفصال ما يبرره حسب روايته.. بل إن حسين حمودة يعترف بأنه هو نفسه وافق عبدالناصر على السياسة التى رأى أن يتبعها.

ونفهم من هذا ـ إذا جاز لنا ـ أن عبدالناصر ظل على الولاء لحسن البنا حتى استشهد الأخير، وأنه لم يبدأ محاولته الانفصالية عن الإخوان إلا بعد وفاة حسن البنا، وإن كانت العلاقة بين الطرفين قد فترت فى فترة سابقة بسبب وقوع حرب فلسطين نفسها، وما واكب هذا من ضغوط حكومات السعديين على الإخوان وعلى التنظيمات السرية فى الجيش فى ذلك الوقت.

(١٠)

كما يتحدث حسين حمودة بقدر غير قليل من التحفظ عن الصورة التى وصل إليها تنظيم الضباط الأحرار فى الكلية الحربية على يد جمال عبدالناصر فيما قبل (أو قبيل) الثورة ويقول:

«ولما كنت قد نقلت للكلية الحربية فى ١٩/ ١١/ ١٩٥٠ فقد انتظمت بناءاً على تعليمات من جمال عبدالناصر فى تشكيل الضباط الأحرار فى الكلية الحربية، وكان يقوم بالتدريس معى بالكلية الحربية فى هذه الفترة مجموعة من الضباط».

«وقد أخبرنى جمال عبدالناصر بأسماء الضباط الأحرار الموجودين فى الكلية الحربية وهم الذين نجح جمال عبدالناصر فى ضمهم لتنظيم الضباط الأحرار، وهم: زكريا محيي الدين، وعبدالحليم عبدالعال يوسف، ومحمد حمدى عاشور، ومحمد أحمد البلتاجى، وكمال الدين الحناوى».

«وكان البكباشى زكريا محيى الدين قائداً للسرية الثانية لطلبة الكلية الحربية وكنت أخدم معه بهذه السرية برتبة الصاغ، وكان زكريا محيى الدين هو المسئول عن الضباط الأحرار فى الكلية الحربية بحكم أنه أقدم الضباط الأحرار فى الكلية الحربية».

«وكان زكريا محيى الدين يتميز بهدوء الأعصاب وندرة الكلام والكتمان الشديد. وشكلت قيادة الضباط الأحرار من نفس القيادة السابقة لتشكيل الذى بدأه عبدالمنعم عبدالرءوف مع محمود لبيب سنة ١٩٤٤».

«فكان عبدالمنعم عبدالرءوف وجمال عبدالناصر عن سلاح المشاة، وكمال الدين حسين عن سلاح المدفعية، وخالد محيى الدين عن سلاح المدرعات، وأنور السادات بعد عودته للجيش من سلاح الإشارة».

ثم يروى حسين حمودة واقعة انفصال عبدالمنعم عبدالرءوف عن تنظيم الضباط الأحرار،

ومن الطرافة أن روايته تتضمن أن عبدالحكيم عامر كان هو الذى حل محل عبدالمنعم عبدالرءوف فى قيادة التنظيم، وهذا من سخرية الأقدار التى نحتاج إلى عمل درامى ليبرز مثل هذا التناقض، ومن العجيب أننا نرى فى مذكرات عبدالمنعم عبدالرءوف تحاملا شديدا على شخص عبدالحكيم عامر بأكثر حتى من التحامل على نتائج تصرفاته وقيادته، بل نرى عبدالمنعم عبدالرءوف وهو يختلف مبكرا مع عبدالناصر حول شخص عبدالحكيم، وربما نتساءل إذن: أفكان هذا نتيجة لحلول عبدالحكيم محل عبدالمنعم فى تلك الفترة من حياة التنظيم؟.

وعلى كل الأحوال فلنقرأ نص ما يرويه حسين حمودة:

«وحدث بعد ذلك خلاف فى الرأى بين جمال عبدالناصر وعبدالمنعم عبدالرءوف بخصوص تبعية هذا التنظيم السرى للإخوان المسلمين كالتنظيم السابق الذى بدأه عبدالمنعم عبدالرءوف سنة ١٩٤٣ مع المرحوم محمود لبيب، ورفض جمال عبدالناصر تبعية التنظيم للإخوان المسلمين، وافق باقى الضباط على رأى جمال عبدالناصر فانسحب عبدالمنعم عبدالرءوف من قيادة الضباط الأحرار وحل محله عبدالحكيم عامر عن سلاح المشاة، وبقى عبدالمنعم عبدالرءوف جندياً من جنود الثورة، فعندما نشبت الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ اشترك عبدالمنعم عبدالرءوف فيها وحاصر قصر رأى التين بالإسكندرية وأجبر الملك فاروق على التنازل عن العرش».

(١١)

لعلنا ننتقل الآن من كل هذا الذى هو تاريخى فى المقام الأول وشخصى فى المقام الثانى، إلى ما هو شخصى فى المقام الأول وتاريخى فى المقام الثانى، وفى الحق أن المذكرات قد نجحت فى إجادة الحديث عن هذا وذاك، وليس من الغريب أن تحفل هذه المذكرات بكثير من الألم النبيل الذى يصور به صاحبها مشاعره تجاه الأذى الذى أصابه على يد الثورة بعد قيامها، على الرغم من جهده الوطنى، وربما بسبب هذا الجهد الوطنى أو الثورى ولا يقف صاحب المذكرات عند حدود الآلام النفسية أو المادية التى حاقت به هو نفسه، لكنه يتألم ويشركنا معه فى التألم لما أصاب الوطنيين الأحرار من أصحاب الإخلاص الوطنى والجهد الثورى

الحقيقى: فهو على سبيل المثال يتحدث فى صفحة ١٩٥ من هذه المذكرات بمرارة وأسى عن مقتل سعد توفيق أحد السبعة الذين بدأ بهم تنظيم الضباط الإخوان فيقول:

«... وقُتل سعد حسن توفيق بالسم بعد أن دسوا له السم فى كوب شاى، ورفض عبدالناصر تسليم جثته لشقيقه اللواء إسماعيل توفيق، وأصرت الحكومة على دفن الجثة بمعرفتها لإخفاء معالم الجريمة، وسعد توفيق ويوسف صديق ومحمد نجيب كانوا أهم العوامل فى نجاح ثورة يوليو ١٩٥٢ كما بينت سابقا».

«ولقد عهد عبدالناصر بالوظائف الرئيسية فى القوات المسلحة وغيرها إلى فئة من معدومى الضمائر وتخلص من أصحاب العقائد سواء كانوا من الإخوان أم الشيوعيين».

«وكان عبدالناصر يعى دوره تماماً ورسم خططه للانفراد بالسلطة واعتمد على معدومى الضمائر فساعدوه ثم انقلبوا عليه وأصبح الأمر إليهم فطغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد».

وفى هامش هذه الصفحة يعيد كاتب المذكرات بلورة الحديث عن تاريخ صهره وزميله سعد توفيق فيقول:

«كان سعد توفيق من الضباط الأحرار المنتمين للإخوان المسلمين، وعمل سكرتيراً لعبدالناصر بعد الثورة، واطلع على أسرار كثيرة عن عبدالناصر، ورأى عبدالناصر لأسباب غير واضحة حتى الآن التخلص من سعد توفيق، وقد علمت من شقيقه اللواء إسماعيل توفيق أنه أخطر بوفاة شقيقه سعد توفيق غرقاً بالإسكندرية، فذهب لاستلام جثته فأبت السلطات تسليمه جثة شقيقه، وعلم أنه أنقذ من الغرق، وأعطى كوب شاى شربه فمات، وقد أصرت السلطات على دفن الجثة بمعرفتها لإخفاء الحقيقة وسبب الوفاة».

(١٢)

وتحفل هذه المذكرات بكثير من الحديث الوجدانى الذى يبدو تلقائى الطابع بينما هو فى حقيقة الأمر صورة ممتزجة من عبرات وعبارات نفسية بليغة، ولعل من أهم تلك المواضع تلك العبارة التى تبلور لنا ما يعتمل فى نفس الشرفاء حين يتعرضون للظلم.. يقول حسين حمودة فى صفحة ١٠٧:

«وإنه لأمر شديد القسوة على النفس أن يتحدث الإنسان عن مهانة تعرض لها، ولكن رواية الحقيقة للتاريخ قد تمنع تكرار هذه الجرائم فى سجون مصر مستقبلاً».

ولو لم يكن فى مذكرات حسين حمودة غير هذه العبارة التى تنطق بالحكمة النفسية كلها لكفاه.

على أن هناك فقرة أخرى حافلة بكل المشاعر والتحليلات النفسية الأخرى ينبغى لنا أن نقرأها مع حسين حمودة وهو يصف حال مصر بعد خروجه من السجن بعد الإفراج عنه للمرة الثانية، ونحن نرى قدرة تعبيرية ضخمة تلخصها فقرات حديثه الذى يأتى فى موضعه وبتلقائية شديدة، ومع ما فى هذا الحديث من عبارات بلاغية وكلشيهات محفوظة، فإن التصوير الذى يتضمنه يكاد يتطابق تماما مع الواقع الذى أدركنا صورته فيما يتعلق بتلك الفترة:

«خرجت من السجن يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٥٨ فوجدت مصر قد تغيرت وتحولت كلها إلى سجن رهيب، وتحول شعب مصر إلى شعب صامت صمت نزلاء القبور، خرست الألسنة وكسرت الأقلام، وقهرت حرية الرأى والفكر، وكممت الأفواه وأصبحت الصحف مملوءة بالشعارات التى بغير مضمون أو تنفيذ، والمدح الباطل للحكام».

«وارتفع المنافقون والانتهازيون والوصوليون ولم يعد لأهل العلم والمثقفين وأصحاب الخبرة ورجال السياسة ورجال الأعمال كلمة أو رأى فى إدارة شئون البلاد».

«ونشطت أجهزة الأمن المنوط بها أساساً تعقب نشاط أعداء البلاد من جهة الخارج، والمجرمين والمفسدين فى الأرض فى الداخل، كل أجهزة الأمن نشطت فى تعقب الأحرار والشرفاء من المواطنين وكتابة التقارير السرية عنهم، ومحاولة الإيقاع بهم بتدبير المؤامرات الوهمية بحجة حماية أمن حاكم مصر ونظامه الديكتاتورى».

«وأخذت هذه الأجهزة تتسقط أى كلمة يتفوه بها مواطن لعلها تكون الدليل للوصول إلى أول خيط تتبعه هذه الأجهزة للوصول إلى التنظيمات السرية التى تضمر شراً بحاكم مصر. ثم تؤخذ الضحية إلى السجن لتلاقى من أصناف التعذيب الوحشى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».

«وتتوالى الاعترافات الكاذبة بمؤامرات تحاك فى الظلام لحاكم مصر، وتتوالى المحاكمات الاستثنائية والأحكام الظالمة وقد استحوذ الذعر على الخلق من شيوع الجاسوسية وأصبح كل فرد فى مصر يحسب زميله فى العمل أو جاره فى السكن جاسوسا».

«ولو أنك اعتبرت شعب مصر كله جواسيس لم تكن مغالياً، ويتجسسون عمن ولمن؟

يتجسسون على بعضهم البعض لحساب جمال عبدالناصر حاكم مصر المطلق. وكان عبدالناصر يباهى الحكام الآخرين بأجهزة مخابراته وأنه يعلم دبيب النمل وما يحدث بين المرء وزوجه فى عقر داره.

«وحتى نواب رئيس الجمهورية والوزراء لم يسلموا من ذلك، وكانت أجهزة التجسس ترفع التقارير اليومية إلى جمال عبدالناصر عن أنور السادات وزكريا محيى الدين وغيرهما».

❑

على هذا النحو يعمد صاحب هذه المذكرات إلى تصوير الواقع قبل أن يشغل نفسه برواية الوقائع التى حدثت فى هذه الفترة المؤلمة من حياته وحياة وطنه.

ونحن نراه يواجهنا بالحقيقة فى عبارة حافلة بمشاعر نفسية قاسية (جاءت فى صفحة ١٣٤) ضمن تحليله لهزيمة يونيو ١٩٦٧ يقول فيها: «فليس من المعقول أن يجتمع عدد من المصادفات السيئة بالنسبة لمصر كما تجمع فى هذه الحرب، مما يغلب على الظن أن فى الأمر خيانة وطنية وأن هذه الخيانة كانت فى أعلى المستويات».

وهو يحلل الموقف ويرى أن هناك ما يؤكد نظريته هذه:

١ ـ الضجة الإعلامية بلا مبرر.

٢ ـ المعلومات الكاذبة.

٣ ـ ضبط النفس .

٤ ـ الضربة الجوية.

٥ ـ تغيير الخطة من هجوم لدفاع.

٦ ـ الانسحاب.

٧ ـ من المسئول؟ وتحت هذا العنوان يركز صاحب هذه المذكرات على فكرة أن الرئيس السادات قال فى ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ فى مجلس الشعب إن القوات المسلحة المصرية كانت ضحية يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ ولم تكن أحد أسبابها.

٨ ـ التاريخ المشرف للعسكرية المصرية.

وفى هذا الكتاب أيضاً فقرة تنطق بتحليل نفسى ذكى، وهى تلك الفقرة التى وردت فى صفحة ١٩٠ حيث يقول حسين حمودة:

«والرأى عندى أن أنور السادات قُتل مظلوماً وأن قتلته هم بطانته وليس الجناة الذين ارتكبوا الحادث بنية تخليص مصر من فرعون جديد».

(١٣)

وفى هذا الكتاب أيضاً فقرة مهمة جداً عن ذلك الإخلاص للوطن الذى يميز كثيراً من قادة الشرطة المصرية حتى فى أحلك اللحظات، وأنا أحب أن أرويها هنا ليقرأها كل الذين يكون من نصيبهم أن يقرأوا هذا الكتاب وأن يتولوا الحكم فى يوم من الأيام، فإن هناك من الوظائف المرتبطة بالدولة مواقع كثيرة ترتبط بالدولة نفسها أياً كان الحاكم ، ولا ينبغى أبداً أن يصاب شاغلو هذه الوظائف الحساسة بالخوف من توليها حين يجدون أن تقلدها قد لايعود عليهم إلا بالتشريد والتعذيب مع كل تغيير فى شخص القائم على الأمور.

وينبغى لنا جميعاً أن نفهم أن ولاء هذه الوظائف للنظام وليس للقائمين برئاسته ، أقول هذا حتى نتجنب ما يروى أنه قد حدث فى مايو ١٩٧١ من أنه كان هناك اتجاه لتوجيه الاتهام إلى المسئولين عن مباحث أمن الدولة لولا أن أنور السادات بفضل حنكته السياسية انتبه مبكراً ، وحذر من أن يقوم أنصاره بمثل هذه الخطوة.

وعلى أى الأحوال فإنى أعتذر عن هذا الاستطراد ، وأنقل للقارئ ما كتبه حسين حمودة عن موقف مهم حدث فى مطلع الثورة:

«... وطلب منى اللواء أحمد طلعت حكمدار بوليس العاصمة (وكان بين المعتقلين فى الكلية الحربية منذ ٢٤ يوليو ١٩٥٢) الاتصال بالمسئولين عن الثورة لأن لديه وثائق فى خزانة مكتبه يود تسليمها لرجال الثورة لأنها ستنفعهم فى حكم البلد على حد قوله، ونصحنى أن أبلغهم بتشديد الحراسة على إبراهيم عبدالهادى رئيس وزراء مصر فى عهد الإرهاب الملكى خشية أن ينتهز الإخوان المسلمون فرصة الثورة ويقتلوه مما يسىء إلى الثورة وهى مازالت بعد لم تتمكن من تثبيت أقدامها، فذهبت للقيادة العامة وقابلت جمال عبدالناصر وأخبرته بما دار بينى وبين اللواء أحمد طلعت حكمدار بوليس العاصمة فقال جمال عبدالناصر: اطمئن جداً من ناحية الإخوان المسلمين فأنا (أى جمال عبدالناصر) متصل بحسن الهضيبى وأخذت موافقته قبل قيام الثورة، وأنا متفاهم مع الإخوان المسلمين على كل شىء ولا خوف على حياة إبراهيم عبدالهادى من انتقام الإخوان المسلمين ، والإخوان يتعاونون معنا الآن ويقومون بحراسة مرافق البلاد الحيوية والسفارات الأجنبية ولهم عناصر مسلحة على طريق القاهرة ـ السويس، وطريق الإسماعيلية ـ القاهرة، وفى منطقة قنال السويس لمراقبة تحركات القوات البريطانية أولاً بأول وإبلاغنا بأى شىء يرونه».

«وبالنسبة للوثائق اذهب بنفسك مع اللواء أحمد طلعت بالحراسة اللازمة على حكمدارية

بوليس القاهرة وأحضر الأوراق وأعده للمعتقل، فذهبت لمعتقل الكلية الحربية وأخذت اللواء أحمد طلعت ومعى حراسة كافية مكونة من ضابط وعشرة من ضباط الصف والعساكر مسلحين بالمدافع الرشاشة، وتوجهت لحكمدارية بوليس العاصمة ومعى اللواء أحمد طلعت الذى صعد إلى مكتبه وجلس وفتح المكتب وأخرج ما فيه من دوسيهات وأوراق ثم فتح خزانة حديدية وأخرج ما فيها من أوراق ودوسيهات وقد حزمنا كل هذه الأوراق على هيئة طرد حملتها معى وأعدت اللواء أحمد طلعت لمعتقل الكلية الحربية وسلمت طرد الأوراق الذى أحضرناه من خزانة ومكتب اللواء أحمد طلعت لجمال عبدالناصر».

(١٤)

لعلنا الآن ننتقل للحديث عن تاريخ الفترة المبكرة من عهد الثورة إلى تطور علاقة حسين حمودة بالرئيس جمال عبدالناصر، على أنه يجدر بنا قبل أن ننقل للقارئ بعض اللقطات من التطور التاريخى لعلاقة حسين حمودة بعبدالناصر، أن ننقل فقرة مهمة كتبها حسين حمودة فى صفحة ١٦١ فى بداية حديثه عما سماه بهوية جمال عبدالناصر، وفيها يقول:

«... إن جمال عبدالناصر كان يبحث لنفسه عن دور بطولى، وقد أشار جمال عبدالناصر إلى ذلك فى كتابه «فلسفة الثورة» الذى كتبه له محمد حسنين هيكل الصحفى المعروف، ولكى يصل البطل إلى أهدافه لابد له من أن ينفرد بالمجد، ولكى ينفرد بالمجد لابد له من الانفراد بالسلطة، فتتبع مَنْ توهم مزاحمته له فى ذلك المطلب بالاعتقال والتعذيب الوحشى والمحاكمة الظالمة والسجن لمدد طويلة أو الإعدام أو القتل غيلة حتى قلم الأظفار الخادشة واستبد بحكم مصر».

«وكانت لجمال عبدالناصر خاصية انتهاز الفرص وتدبير المكايد للوصول إلى المقاصد من أى طريق، فكان لا يهمه فى سبيل الوصول إلى غرضه شرف الوسيلة فأساء إلى مَنْ أحسنوا إليه وتآمر ضد مَنْ غمروه بفضلهم وتنكر لمن قدموا له المعروف، وظلت هذه النزعة رائدة فى مغامراته السياسية وعلاقاته الإنسانية منذ قيام الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى أن مات فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠».

❑

ويصل حسين حمودة إلى مناطق ومحطات متقدمة فى اتهامه عبد الناصر بالانتهازية والميكافيلية:

«لقد كان دستوره وإنجيله وقرآنه كتاب «الأمير» لمكيافللى، الذى قرأه عبدالناصر سبع عشرة مرة حتى حفظه عن ظهر قلب كما أخبرنى بذلك هو شخصياً. فقد كنت فى زيارة له قبل الثورة، ووجدت كتاب الأمير لمكيافللى على منضدة فى حجرة الصالون فاستعرته منه لأقرأه فأعطاه لى، وقال إنه يحفظه عن ظهر قلب لأنه قرأه سبع عشرة مرة، فلم يمض على قيام الثورة عام حتى تحركت نفس عبدالناصر إلى خوض غمار الدسائس السياسية ليحقق عن طريقها آماله فى الانفراد بحكم مصر، فانتهز فرصة خلاف نشأ بين محمد نجيب ورشاد مهنا فأوغر صدر نجيب وصدور زملائه أعضاء مجلس القيادة ضد رشاد مهنا فتخلص منه وحكم عليه بالسجن المؤبد فى محاكمة ظالمة كان هو فيها الخصم والحكم».

«ثم أرسل لرشاد مهنا فى سجنه مَنْ يقول له إنه أنقذه من حكم الإعدام وأن كل أعضاء مجلس الثورة كانوا مصممين على إعدامه وظل عبدالناصر يجادلهم ١٦ ساعة حتى أقنعهم بتخفيف حكم إعدام رشاد مهنا إلى السجن المؤبد».

«ثم دبر نهاية محمد نجيب على النحو المعروف، وأثبت فى كتب التاريخ التى تدرس لأطفالنا بالمدارس أن جمال عبدالناصر هو أول رئيس لجمهورية مصر فى التاريخ، ظنا منه أن التاريخ يمكن تزييفه».

«ثم بطش بالماركسيين وأتبع ذلك حل الأحزاب السياسية وبطش برجالها».

«ثم بطش بالإخوان المسلمين، وتم البطش بالإخوان على مراحل، فبدأ بإنشاء هيئة التحرير فى أواخر عام ١٩٥٢ وكان يطمع فى خلق قاعدة شعبية تدين له بالولاء المطلق الذى لا مساءلة فيه ولا مجال حتى لاستفسار، ثم طلب من حسن الهضيبى أن يتولى الإخوان تدعيم هيئة التحرير بواسطة شعبهم المنتشرة فى جميع أنحاء مصر فيكون الإخوان هم نواة هيئة التحرير وهم قادة الحزب الجديد الذى سيرأسه عبدالناصر».

(١٥)

وينبغى لنا أيضا أن نتأمل أن صاحب هذه المذكرات قد سجل ملاحظة فى منتهى الذكاء والأهمية وهى أن عبدالرحمن السندى ومَنْ شايعوه فى تأييد عبدالناصر ضد الهضيبى لم يعتقلوا فى سنة ١٩٥٤، وتحليل حسين حمودة لهذه الفترة من فترات علاقات عبدالناصر بالإخوان المسلمين لتحليل فى غاية الأهمية والذكاء، وهو يشى بقدرته على فهم الصراعات والسلوكيات السياسية حتى ولو كان هذا الفهم بعد حين:

«واعتقد حسن الهضيبى أن عبدالناصر ينافسه على زعامة الإخوان مستغلاً وجود سلطة الدولة فى يده فيستخدم ذهب المعز وسيفه مع الإخوان حتى يخضعهم لإرادته، وقد ساعد عبدالناصر على ذلك استمالته لعبدالرحمن السندى رئيس التنظيم السرى المدنى لجماعة الإخوان المسلمين، الذى شايع عبدالناصر ضد حسن الهضيبى، واستطاع عبدالرحمن السندى أن يستقطب عدداً من الإخوان من أعضاء مكتب الإرشاد ومن الجهاز السرى ومن الشعب لصالح عبدالناصر، ويلاحظ أن عبدالرحمن السندى ومَنْ شايعوه فى تأييد عبدالناصر ضد الهضيبى لم يعتقلوا فى سنة ١٩٥٤».

«ومن الذين أيدوا عبدالناصر من الإخوان المسلمين الشيخ الباقورى وصالح عشماوى وعبدالرحمن البنا شقيق الإمام الشهيد حسن البنا وغيرهم كثيرون، وقد رفض حسن الهضيبى طلب عبدالناصر وحذر الإخوان من الانضمام لهيئة التحرير واعتبر كل أخ مسلم ينضم لهيئة التحرير مفصولاً من الإخوان، وهذا هو سر حنق جمال عبدالناصر على حسن الهضيبى ومَنْ تمسك بزعامته من الإخوان».

«... ولقد أدرك حسن الهضيبى أن عبدالناصر ينوى الاستئثار بالسلطة لا شريك له فيها، بل ويطمع أيضاً فى إخضاع هيئة الإخوان المسلمين لأهوائه مع إلغاء اسم الإخوان، وينضوى الإخوان تحت هيئة التحرير، وبذلك تفقد الحركة الإسلامية التى بدأها حسن البنا سنة ١٩٢٨ أهم مقوماتها: الاسم والفكرة وتصبح هيئة تابعة لعبدالناصر».

«وبوقوف حسن الهضيبى ضد أطماع عبدالناصر التى لا حد لها انتهز عبدالناصر فرصة الشغب الذى حدث يوم ١٢ يناير ١٩٥٤ بمناسبة زيارة نواب صفوى الزعيم الإيرانى لجامعة القاهرة حيث وقع صدام بين شباب الإخوان ومنظمات الشباب التابعة لهيئة التحرير فاستصدر قراراً من مجلس قيادة الثورة يوم ١٤ يناير ١٩٥٤ بحل جماعة الإخوان المسلمين واعتقال فريق منهم على رأسه المرشد حسن الهضيبى وزعماء الإخوان بالقاهرة والأقاليم».

«وفى يوم ٢٥ مارس ١٩٥٤ اضطر عبدالناصر تحت ضغط الثورة المضادة التى واجهته (أزمة مارس ١٩٥٤) إلى الإفراج عن حسن الهضيبى وجميع المعتقلين من الإخوان».

«وقد وضح تماما أن عبدالناصر هادن الإخوان ليلتقط أنفاسه فى أزمة مارس ١٩٥٤ حتى يعد خطة جديدة للفتك بجماعة الإخوان وقد كان، فاتخذ من تمثيلية محاولة اغتياله فى أكتوبر سنة ١٩٥٤ مبرراً لاعتقال عشرين ألفاً من الإخوان وتم تعذيبهم تعذيباً وحشياً فى السجن بأسلوب بربرى وهمجى لم يسبق له مثيل فى تاريخ البشرية».

(١٦)

وفى عبارات صريحة وواضحة يؤكد حسين حمودة على معنى مهم وهو أن ثمة اتفاقاً بين الإخوان والرئيس نجيب لو تم وخرج إلى حيز التنفيذ لكان كفيلاً بالقضاء على عبدالناصر وهو يقول عقب العبارات السابقة مباشرة:

«والمعروف فى ذلك الوقت أن محمد نجيب لم يكن على وفاق مع عبدالناصر، وأن محمد نجيب كان ينوى استخدام سلطته القانونية كرئيس شرعى للبلاد فى إعفاء جمال عبدالناصر وزملائه أعضاء مجلس الثورة من مناصبهم وحل مجلس قيادة الثورة وإعادة الديمقراطية والحكم النيابى الصحيح إلى البلاد».

«وقد طلب محمد نجيب من الإخوان المسلمين تأييد خطوته فى ذلك الاتجاه بعد إعلانها عن طريق مظاهرات شعبية تعم القطر المصرى كله من أسوان للإسكندرية، وكان للإخوان المسلمين قدرة على تنظيم هذه الانتفاضة الشعبية بواسطة شعبهم المنتشرة فى جميع أنحاء البلاد لما لهم من رصيد شعبى ضخم بين أبناء الشعب المصرى، كما كان محمد نجيب يتمتع فى ذات الوقت بحب الشعب المصرى كله».

«وقد تسربت بعض أنباء هذه الاتصالات بين الإخوان ومحمد نجيب إما عن طريق بعض الإخوان المتصلين بعبدالناصر، أو عن طريق الضباط المحيطين بمحمد نجيب، فتفتق ذهن عبدالناصر لعمل هذه التمثيلية عن محاولة اغتياله فى المنشية ليكون فى ذلك مبرر للفتك بجماعة الإخوان المسلمين ثم الفتك بمحمد نجيب لإجهاض الحركة الشرعية المزمع عملها بواسطة محمد نجيب والتى سوف يؤيدها الإخوان. ولقد سبق أن ذكرت أن على شفيق صفوت سكرتير عبد الحكيم عامر الذى قام بتعذيبى فى أثناء التحقيق معى فى السجن الحربى بعد حادث المنشية المزعوم، كان يصر على أن أوقع على أوراق تفيد أن اللواء محمد نجيب كان يتعاون مع حسن الهضيبى ضد جمال عبد الناصر وأعضاء مجلس قيادة الثورة.».

❑

وفى وسط مذكراته يبلور حسين حمودة رأيه فى الرئيس عبدالناصر بعد هذا كله بطريقة أخرى فيقول:

«لقد كان جمال عبدالناصر متآمراً بكل ما فى هذه الكلمة من معنى، وحكم مصر ثمانية عشر عاماً من خلال أجهزة سرية قوامها خلايا يمسك هو بخيوطها جميعاً دون أن تدرى عن بعضها البعض شيئاً، وفات عبدالناصر أن هذا الأسلوب الإرهابى وإن أفلح فى فرض هيمنته

إلا أنه لا يفلح فى إدارة الدول، وعلى هذا الأساس يكون عبدالناصر شخصاً لا فكر له معينا، وإنما هو متآمر من الطراز الأول كل همه فرض هيمنته».

ويصل حسين حمودة إلى أن يسجل بقلمه أقسى نقد وجه إلى الرئيس عبد الناصر:

«ولم يكن عبدالناصر رجل سياسة قط ولا كان رجل حرب على الإطلاق، فقد كان أسداً أمام الشعب الأعزل فقط. إن عدد المعتقلين والمسجونين السياسيين قد بلغ رقماً يقرب من مائة ألف نفس من يوم أن تولى عبدالناصر حكم مصر إلى أن مات».

(١٧)

ومع هذا فإن حسين حمودة يثبت لنا فى هذا الكتاب وفى صفحات مبكرة منه ـ وربما بدون أن يقصد ـ بُعد نظر عبدالناصر السياسى حين كانت تدور المناقشات بينهما قبل قيام الثورة، وكان حسين حمودة يرى أن يكون الضباط الإخوان فى الجيش من ذوى الأخلاق الحميدة، والضمائر الحية، فضلاً عن صفة الشجاعة وكتمان السر، وأن من لا يخشى الله لا يستبعد عليه ارتكاب أى جريمة، وبخاصة لو نجحت الثورة وأصبح فى يده سلطة، على حين كان جمال عبدالناصر يعتقد فى «أن الحالة السياسية فى مصر خطيرة جداً وأن الإصرار على توفر صفة التدين فى الضباط تزمت لا داع له لأن أغلبية ضباط الجيش فى ذلك الوقت لا تتوفر فيهم صفة التدين.. وبالتالى سيتأخر تنفيذ الثورة وربما قد لا نستطيع القيام بها إلا بعد وقت طويل جداً، وطول الوقت قد يؤدى إلى كشف الحركة والقائمين عليها فتموت الثورة قبل أن تقوم».

ومع أن عبد الناصر لم يثبت ولم ينف فيما كتب وسجل عن الثورة أن هذه كانت وجهة نظره، فإننا لا نستطيع أن نتقبل الأمر على نحو ما يصوره حسين حمودة حتى مع ما هو متوافر لنا من تأكيد عبد المنعم عبد الرءوف على ذات الفكرة، ومبلغ علمى وظنى أن أيا من الإخوان أو عبد الناصر لم يكن ليعنى العناية الكافية باختيار أتباعه وأدواته فى التنفيذ، وإلا ما تم اختراق الإخوان لمصلحة عبد الناصر على نحو ما نعرف من تاريخ عبد الناصر والإخوان.

ولعل ما يؤيد ما أذهب إليه هو قراءة هذا النص الذى يحاول حسين حمودة من خلاله استرجاع تطور فكر عبدالناصر تجاه الإخوان، ونحن نرى عبد الناصر وقد نجح فى أن يحصل من محمود لبيب على سر الأسرار فيما يتعلق بالضباط من أعضاء تنظيم الإخوان، كما نراه يروى لحسين حمودة أنه لم يترك بيت محمود لبيب وهو يحتضر إلا بعد أن حصل على هذا الكشف الثمين:

«فى ليلة من ليالى عام ١٩٤٥ كنت مع جمال عبد الناصر بمنزل عبد المنعم عبد الرءوف بالسيدة زينب، وكنا ثلاثتنا نجلس فى فراندة بالمنزل ونتناول طعام العشاء، وتطرق الحديث إلى جماعة الإخوان المسلمين فقال جمال عبد الناصر: «أنا لغاية دلوقت مش قادر أعرف الإخوان عاوزين إيه من الجيش بالضبط».

«فقلت له: الذى أفهمه من المرشد حسن البنا ومن الصاغ محمود لبيب أن الإخوان لا يطلبون من الجيش شيئا على الإطلاق، وإنما سياستهم هى نشر الفكر الإسلامى فى كل قطاعات الشعب: الجيش والبوليس والقضاء وطلبة الجامعات والمعلمين والمحامين والأطباء والمهندسين والمحاسبين ورجال الأعمال والعمال والفلاحين وطلاب المدارس الثانوية والمتوسطة والتنظيم النسائى للأخوات المسلمات». «وذلك عن طريق التربية والتعليم والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حتى إذا أصبح لهذه المبادئ أغلبية شعبية فى مصر تقدموا لحكومة مصر بمطالبهم التى تتلخص فى أن تكون كلمة الله هى العليا فى المجتمع المصرى المسلم. وكلمة الله هى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومعنى ذلك تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ومحاربة الفساد فى المجتمع وفق منهج الله، فإذا استجابت الحكومة انتهى الأمر لأنه ليس من سياسة الإخوان السعى للحكم لأن الحكم فى نظرهم تكليف لا تشريف، ومسئولية خطيرة أمام الله تعالى. والمسلم الحق لا يسعى إلى الحكم ولكن إذا اختاره الناس وكلفوه بالحكم فيجب عليه النزول على إرادة الشعب».

«أما إذا رفضت الحكومة مطالبهم فسيقومون بعمل جماهيرى ضدها كالمظاهرات الشعبية السلمية فى جميع مدن مصر وقراها، والإضراب العام والعصيان المدنى كالامتناع عن دفع الضرائب».

«وعلى الجيش والبوليس أن يقفا موقفا سلبيا من الحركة الشعبية لأن الجيش والبوليس عصا الحاكم التى يضرب بها الشعب، فإذا امتنع الجيش والبوليس عن ضرب الحركة الشعبية أسقط فى يد الحاكم وكانت نهايته على يد الشعب الذى يؤيده جيش الشعب وبوليس الشعب».

«فقال عبد الناصر: «هذا الأسلوب سيطول جدا وربما يتعذر تنفيذه ولا يجعل لنا نحن ضباط الجيش دورا ملموسا وسنكون تابعين لا متبوعين».

«فقلت له: على كل حال الموضوع ليس مطروحا الآن وهو سابق لأوانه».

❑

بعد هذه الرواية يتأمل صاحب المذكرات فيما ساقه من حوار وهو يقدم لنا بعض أفكاره على هيئة استنتاجات لاتخلوا من لوم للنفس على عدم الوصول المبكر إليها :

«من هذا الحديث كان يجب على أن أتنبأ بنيات عبد الناصر، ولكنى لم أفطن وقتئذ إلى هذه النوايا، وعلى كل حال فكل ما حدث بقضاء من الله وقدره. ومع ذلك فقد أقسم جمال عبد الناصر معنا فى ليلة من الليالى الأولى لعام ١٩٤٦ على المصحف والمسدس فى حجرة مظلمة فى حى الصليبة مع المرحوم السندى على فداء الدعوة الإسلامية والعمل فى سبيلها، وكنا فى هذه الليلة سبعة ضباط هم: عبد المنعم عبد الرءوف، وجمال عبدالناصر، وكمال الدين حسين، وخالد محيى الدين، وسعد حسن توفيق، وحسين محمد أحمد حمودة (كاتب هذه السطور)، وصلاح خليفة، وقام جمال عبد الناصر بتدريب شباب الإخوان المسلمين على استعمال الأسلحة، واشتركت معه ومع عبد المنعم عبد الرءوف والمرحوم السندى فى وضع خطط الهجوم على الإنجليز فى القاهرة والإسكندرية حين شن شباب الإخوان حرب العصابات ضد الإنجليز عامى ١٩٤٦ و١٩٤٧،حتى اضطرت بريطانيا إلى سحب قواتها من القاهرة والإسكندرية عام ١٩٤٧. وفى عام ١٩٤٨ تعاون الإخوان مع الجيش المصرى فى حرب فلسطين على النحو الذى ذكرته».

❑

«وفى عام ١٩٤٩ قبل وفاة محمود لبيب وكان دهمه المرض، زرته وأنا فى إجازة ميدان فوجدت عنده جمال عبد الناصر فى بيته بالظاهر، وكانت حالة محمود لبيب الصحية متأخرة، وكان راقدا فى فراشه لكنه كان ـ رحمه الله ـ صافى الذهن، وقال محمود لبيب: إنى سأموت ولن أعيش طويلا وأكتب الآن مذكرة بأسماء الضباط الذين يشملهم التنظيم السرى والمبالغ المتبقية طرفى من الاشتراكات (كنا ندفع ٥٠ قرشا اشتراكا شهريا للإنفاق منه على شئون التنظيم، وكان محمود لبيب هو أمين صندوق هذا التنظيم السرى للضباط) وسأسلمها لجمال عبد الناصر لتستمروا فى الرسالة بعدى. وطلب منى أن نكون يدا واحدة وأن نعاون جمال عبد الناصر وعبد المنعم عبد الرءوف . ونظرا لانشغالى بموعد آخر فقد انصرفت وتركت جمال عبد الناصر مع محمود لبيب. ولما مات لبيب شيعت جنازته ووجدت فى جنازة محمود لبيب جمال عبد الناصر فسألته بعد الجنازة: هل سلمك محمود لبيب ورقة الأسماء فأجابنى عبد الناصر بأنه لم يخرج من بيت محمود لبيب يومها إلا ومعه الورقة بالأسماء، وكذلك نقود الاشتراكات».

«وفى عام ١٩٥٠ أفهمنى عبد الناصر أنه سيعيد التنظيم السرى لضباط الجيش والذى بدأه عبد المنعم عبدالرءوف ومحمود لبيب سنة ١٩٤٤ وتوقف فى عام ١٩٤٨ بسبب حرب فلسطين».

«وقال عبد الناصر لى إنه سيضم إلى هذا التنظيم عناصر أخرى من غير الضباط الإخوان وبخاصة الضباط الذين قاسموه محنة الفالوجا وغيرهم ممن يلمس فيهم صفتى الشجاعة والكتمان».

«وقال جمال عبد الناصر إنه بموت حسن البنا ومحمود لبيب انقطعت صلة الإخوان بضباط الجيش، وإنه يرى لدواعى الأمن قطع الصلة بعبد الرحمن السندى رئيس التنظيم السرى المدنى للإخوان، وبخاصة بعد الحديث الذى دار بين إبراهيم عبد الهادى وجمال عبدالناصر».

(١٨)

كذلك فإن حسين حمودة يذكر لنا (ولا نقول يعترف) أنه حضر مع عبدالناصر عدة لقاءات بالأمريكيين قبل قيام الثورة، وفى الحقيقة فإن حسين حمودة يضع هذه اللقاءات فى إطار طبيعى جداً بعيداً عن اتهام عبدالناصر أو الثورة كلها بالعمالة، ورواية حسين حمودة فى غاية الأهمية لأنها تتسم بكثير من المعقولية والاتزان، فضلا عن اعترافها بحدوث الاتصال بالأمريكيين:

«وكانت انجلترا قد خرجت من الحرب العالمية الثانية مفلسة اقتصاديا، وأصبحت الولايات المتحدة الأمريكية هى القوة العسكرية والاقتصادية الأولى فى العالم نتيجة الحرب العالمية الثانية».

«وكانت الولايات المتحدة تهدف إلى أن يحل النفوذ الأمريكى فى منطقة الشرق الأوسط محل النفوذ الإنجليزى. فحاول الأمريكان مع الملك فاروق باعتباره صاحب السلطة الشرعية فى مصر لتوجيهه فى الاتجاه المطلوب، إلا أنهم نفضوا أيديهم منه لفساده وعدم اهتمامه بالأمور السياسية وانصرافه بكل تفكيره إلى اللهو والمجون والفسق».

«فحاولوا الاتصال بالجيش عن طريق الملحق العسكرى الأمريكى بالسفارة الأمريكية بالقاهرة الذى كان بحكم وظيفته على اتصال بوزارة الدفاع».

«وكان الأمريكان يعرضون على مصر خدماتهم فى تدريب ضباط الجيش المصرى فى معاهد الولايات المتحدة العسكرية، وغير ذلك من التيسيرات التى يمكن أن تقدمها دولة كبرى كالولايات المتحدة الأمريكية لمصر».

ونأتى إلى الفقرة المهمة :

«وقد حضر كاتب هذه السطور شخصياً عدة اجتماعات فى منزل الملحق العسكرى الأمريكى بالزمالك مع جمال عبدالناصر، وكان الكلام يدور فى مسائل خاصة بالتسليح والتدريب والموقف الدولى والخطر الشيوعى على العالم بعامة، والشرق الأوسط بخاصة، وأن الولايات المتحدة ستساند أى نهضة تقوم فى مصر، لأن بقاء الحال على ما هو عليه فى مصر ينذر بانتشار الشيوعية».

«وهذه الاتصالات بالسفارة الأمريكية كانت فى الفترة من عام ١٩٥٠ ـ ١٩٥٢، ولم يكن يتعدى الكلام أكثر من ذلك».

كذلك يعترف حسين حمودة بفضل الولايات المتحدة الأمريكية على الثورة بطريقة مباشرة، وهو يعتبر موقف الولايات المتحدة الأمريكية أحد الأسباب الخمسة وراء نجاح حركة الجيش (بالإضافة إلى مواقف سعد توفيق ويوسف منصور صديق ، ومحمد نجيب، واهتزاز ألنظام الملكى).

ويروى صاحب المذكرات أن السفير الأمريكى كافرى هو الذى توصل للملك فاروق إلى الاتفاق بخروجه حيا:

«ومما لاشك فيه أن الولايات المتحدة الأمريكية هى التى حالت دون تدخل القوات البريطانية لحماية الملك فاروق. ولقد أيدت الولايات المتحدة الأمريكية الثورة فور إعلان قيامها، وفتحت أبواب معاهدها العسكرية على مصاريعها لتدريب ضباط الجيش المصرى بالمئات فور قيام الثورة، ومما لاشك فيه أن عبدالناصر وهو المنظم الحقيقى لحركة الضباط الأحرار كان على صلة أكثر وثوقاً بالسفارة الأمريكية. وقد قام الملك فاروق بالاتصال بالسفير الأمريكى (كافرى) من أجل حمايته وبناء عليه طلب السفير الأمريكى من رجال الثورة عدم قتل الملك، وتركه يخرج من البلاد حياً وهو ما حدث فعلاً!!».

❑

ومن خلال رواية ذكرياته عن فترة دراسته فى الولايات المتحدة الأمريكية بعد قيام الثورة، يروى لنا حسين حمودة قصة لقاء مع رئيس قسم الشرق الأوسط فى الخارجية الأمريكية وتعليق الرئيس جمال عبد الناصر على ما رواه حسين حمودة له عن هذا اللقاء، وعلى عكس ما قد يُظن فإن حسين حمودة يثبت لعبد الناصر وضوح رؤية مبكرة فيما يتعلق بآفاق تعاونه مع الأمريكيين:

«حضرنا حفلة فى السفارة المصرية أقامها لنا السفير أحمد حسين سفير مصر فى الولايات

المتحدة الأمريكية وقتئذ، وحضر هذا الحفل مستر هنرى بايرود رئيس قسم الشرق الأوسط فى وزارة الخارجية الأمريكية».

«وقد قال لنا السفير أحمد حسين: إن مستر بايرود يحب الشراب فسأسقيه حتى أفك عقدة لسانه».

«وظل السفير المصرى يناول مستر بايرود كأسا وراء كأس حتى تكلم بايرود فقال: إن الولايات المتحدة يهمها أن تقيم علاقة متينة مع القاهرة، لأن القاهرة من أكبر عواصم العالم نفوذا ولها تأثير روحى عظيم على العالم الإسلامى».

«وأرجو أن تبلغوا المسئولين عن قيادة الثورة المصرية أن الولايات المتحدة الأمريكية مستعدة لتسليح الجيش المصرى بأحدث الأسلحة، ولكن لنا شرطا واحدا ألا وهو توقيع معاهدة للأمن المتبادل بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية. وبعد عودتى من أمريكا فى نهاية عام ١٩٥٣ ذهبت إلى جمال عبد الناصر وذكرت له ما حصل فى الولايات المتحدة فى كلية الحرب العليا عن الحزام المحمدى والحلف الإسلامى وما نطق به مستر هنرى بايرود أمام السفير أحمد حسين، فكان رد عبد الناصر هو الآتى:

«المشكلة الرئيسية ليست بيننا وبين الاتحاد السوفيتى، ولكن المشكلة بين العالم العربى وبين انجلترا وفرنسا وإسرائيل.. فانجلترا مازالت جيوشها فى مصر والسودان وشرق الأردن والعراق وعدن، وفرنسا مازالت تحتل تونس والجزائر ومراكش، واستقطعت إسرائيل أكثر من نصف فلسطين، فكيف ندخل فى معاهدة تحالف ضد الاتحاد السوفيتى الذى لا يوجد بينه وبين العالم العربى أى مشكلة، وإذا كانت الولايات المتحدة جادة فيما تدعيه من أنها راغبة فى صداقة العالم العربى فعليها معاونته فى تحرير أرضه من الاستعمار الفرنسى والبريطانى، وحل مشكلة فلسطين بما يصون حقوق أصحابها الشرعيين، وعلى هذا الأساس فإن حكومة مصر ستقاوم كافة الأحلاف التى تروج لها الولايات المتحدة فى منطقة الشرق الأوسط حتى ينال العرب حقوقهم كاملة».

(١٩)

لعلنا نأتى الآن إلى ذروة الدراما الإنسانية فى علاقة صاحب هذه المذكرات بالرئيس عبدالناصر، وبداية الخلاف ـ الدموى ـ بين الرجلين، ونحن نرى على نحو ما قرأنا فى الفقرات السابقة أن الود والتعاون بين عبد الناصر وحسين حمودة كان لايزال قائما حتى

نهاية ١٩٥٣ كذلك فإن حسين حمودة يروى قصة لقاء له بعبدالناصر، حين وشى به الواشون (على حد تعبيره) أنه يشارك الإخوان تحركاتهم من أجل عمل مضاد، فينبئنا بحديثه المرتب عن مدى صبر جمال عبدالناصر عليه فى الحوار، ومن المفيد أن ننقل للقارئ الرواية الطويلة التى يروى بها صاحب المذكرات بداية متاعبه مع الرئيس عبدالناصر فى يناير ١٩٥٤:

«... بعد عودتى من الولايات فى نهاية ديسمبر سنة ١٩٥٣ عينت فى وظيفة أركان حرب اللواء السابع المشاة بالعباسية».

«وفى يوم ١٤ يناير ١٩٥٤ نشرت صحف القاهرة بياناً صادراً من مجلس قيادة الثورة بحل جماعة الإخوان المسلمين واعتقال حسن الهضيبى مرشد الجماعة وبعض أعضاء الجماعة وأودعوا السجن الحربى».

«وفى مساء يوم الجمعة ١٥ يناير ١٩٥٤ كنت فى ميدان الأوبرا حيث التقيت بالدكتور غراب والصاغ خليل نور الدين فجلسنا بعض الوقت فى كازينو أوبرا نتجاذب أطراف الحديث».

«وعند انصرافنا تقابل خليل نور الدين مع شخص يعرفه يرتدى الملابس المدنية فعرفنا به وهو الصاغ أحمد سبل، وقال له خليل نور الدين: تعال معنا نوصلك فى طريق عودتنا إلى منازلنا، فركبنا نحن الأربعة الدكتور غراب وأنا وخليل نور الدين وأحمد سبل عربة الدكتور غراب».

«فعرفت من أحمد سبل أنه نجل اللواء عبد الواحد سبل، فقلت له إنى أعرف والدك وهو رجل معروف فى الجيش بتدينه الشديد. وأثناء سير السيارة قال أحمد سبل: ما رأيكم فى قرار مجلس الثورة بحل جماعة الإخوان المسلمين؟ فقلت له الموضوع غريب، وبخاصة اتهام مجلس الثورة الإخوان بأنهم اتصلوا بالإنجليز من خلف ظهر مجلس قيادة الثورة، وقلت: أنا سأستفسر عن هذا الموضوع من جمال عبدالناصر لأعرف تفاصيل الموضوع».

«فقال أحمد سبل: «الموضوع واضح ولا يحتاج إلى أى استفسار، فمجلس الثورة يريد الاستبداد بحكم البلاد وإحنا لو سكتنا فماحدش هيقدر عليهم بعد كده»، ثم قال: «أنا عندى ١٢ ضابط إخوان مسلمين فى آلاى مدفعية واحد وهم ثائرون جداً لحل الإخوان وعايزين يعملوا حاجة إيجابية، فإذا كنت ياخليل تعرف حد من ضباط الإخوان فى المشاة أو المدرعات تبقى قوة كافية تقدر تعمل حاجة تخلص مصر من هذا الطغيان».

«فقلت له لا داعى لمثل هذا الكلام... لا داعى لإثارة المشاعر وعلينا التزام الهدوء حتى

تتضح الأمور لأن جو الإثارة والانفعال ليس فى مصلحة البلاد. وانصرف كل منا إلى منزله».

«وفى صباح ١٨ يناير ١٩٥٤ اتصل بى تليفونياً فى مكتبى برئاسة ا للواء السابع المشاة بالعباسية الصاغ أركان حرب صلاح نصر مدير مكتب اللواء عبد الحكيم عامر قائد عام القوات المسلحة وطلب منى الحضور لمبنى القيادة العامة لمقابلة القائد العام للقوات المسلحة».

«فذهبت على الفور وصعدت إلى مكتبه فاستقبلنى صلاح نصر وأدخلنى غرفة القائد العام، فوجدت جمال عبدالناصر جالساً على مكتب عبد الحكيم عامر ولم يكن عبد الحكيم عامر موجوداً فى مكتبه».

«فسألنى جمال عبد الناصر عن مدى صلتى الآن بالإخوان المسلمين فقلت له إن صلتى بالإخوان المسلمين أنت تعرفها جيداً ولا تعدو الصلة التى كانت تربطنى وتربطك بهم منذ عام ١٩٤٣ حتى ١٥ مايو ١٩٤٨، وهو تاريخ دخول الجيش المصرى حرب فلسطين حيث انقطعت صلتى بالإخوان».

«واشتركت معك سنة ١٩٥٠ فى تنظيم الضباط الأحرار كما هو معلوم لديك جيداً، ولما نقلت مدرساً بالكلية الحربية فى ١٩ نوفمبر ١٩٥٠ انتظمت فى نواة الضباط الأحرار بالكلية الحربية كما اتفقت على ذلك معك، واشتركت فى تنفيذ الثورة ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بتجهيز معتقل الكلية الحربية كما هو معلوم لك».

«وأنت تعلم جيداً أنى لا أعرف أحداً من الإخوان المسلمين غير المرحوم حسن البنا والمرحوم محمود لبيب وعبد الرحمن السندى رئيس التنظيم السرى المدنى لجماعة الإخوان المسلمين».

«أما القيادة الجديدة للإخوان فلا أعرف حسن الهضيبى ولا أعرف أحداً من أعضاء مكتب الإرشاد ولا أى شخص فى جماعة الإخوان المسلمين على الإطلاق».

«ولقد قطعت صلتى بعبد الرحمن السندى بناء على نصيحتك لى فى سنة ١٩٥٠ بعد أن أعلمك إبراهيم عبد الهادى رئيس وزراء مصر بأنك كنت مع آخرين من الضباط تدربون الجهاز السرى للإخوان المسلمين».

«فقال جمال عبدالناصر: «أنا لا أسأل عن هذا ولكن أسأل عن مدى صلتك الآن بعبد المنعم عبد الرءوف».

«فقلت له: «أنت تعلم أن عبد المنعم عبد الرءوف هو الذى أدخلنى تنظيم الإخوان العسكرى وهو الذى أدخلك هذا التنظيم سنة ١٩٤٣، وتعلم المجهود الذى قام به المرحوم محمود لبيب فى تكوين التنظيم السرى لضباط القوات المسلحة فى الفترة من سنة ١٩٤٣

حتى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨».

«فقال: أنا أعرف ذلك ولكنى أريد أن أعرف صلتك بعبد المنعم عبد الرءوف بعد الثورة».

«فقلت له: لا توجد أى اتصالات بينى وبين عبد المنعم عبد الرءوف من ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ حتى الآن».

«فبعد حرب فلسطين كان عبد المنعم عبد الرءوف يخدم فى سيناء وكنت أنت فى القاهرة مدرساً بكلية أركان الحرب فاقتصر اتصالى فى الفترة التى أعقبت حرب فلسطين عليك ولم أقابل عبد المنعم عبد الرءوف مطلقاً».

«فقال: وما صلتك بمعروف الحضرى؟ فقلت له: معروف الحضرى من خيرة ضباط الجيش، وكان معنا فى تنظيم الإخوان قبل حرب فلسطين وفى تنظيم الضباط الأحرار بعد حرب فلسطين، واشترك فى تنفيذ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، فقال: أعرف ذلك ولكن هل هناك اتصالات بينك وبينه بعد الثورة، فقلت: لا».

«ثم سأل جمال عبد الناصر: وما مدى صلتك بأبى المكارم عبد الحى، فقلت له: البكباشى أركان حرب أبو المكارم عبد الحى من خيرة ضباط الجيش، وكان زميلاً لى فى التدريس بالكلية الحربية وهو من الضباط الإخوان الممتازين».

«ثم سألته: ماذا تقصد من هذه الأسئلة؟ ولماذا قمت بحل الإخوان؟ وهل مازلت عند اتفاقك الذى عاهدنا الله عليه قبل الثورة أن الحكم سيكون بكتاب الله عز وجل، إن وفقنا الله فى الاستيلاء على السلطة فى الدولة».

«فقال جمال عبد الناصر: من جهة الحكم بالقرآن أنا أحكم به من الآن، ولكن خطوة خطوة حتى يطيق الناس لأن فى البلد أجانب ومسلمين فاسقين والأمر يحتاج إلى ترو وسياسة».

«فقلت له: وما سبب حل الإخوان؟».

«فقال : لأنهم عصاة».

«قلت له : وما مظاهر عصيانهم؟».

قال جمال عبد الناصر: أنا طلبت من حسن الهضيبى حاجات رفضها».

«فقلت له: وما هى هذه الطلبات التى رفضها حسن الهضيبى؟ فقال جمال عبد الناصر: «طلبت منهم الانضمام لهيئة التحرير فرفضوا».

«فقلت له هم أحرار طالما لا يأتون أعمالاً من شأنها الإضرار بالصالح العام».

«فقال جمال عبد الناصر: لا ليسوا أحراراً، أنا عايز البلد تنتظم كلها فى هيئة سياسية واحدة تمشى وراء أهداف الثورة، وبذلك نستطيع تحقيق أهداف الثورة بسرعة وبلا منازعات أو اختلاف فى الرأى. أنا عايز البلد كلها على رأى وفكر واحد هو فكر الثورة. فقلت لعبدالناصر : لكنك فى قرار حل الإخوان اتهمتهم بالخيانة لاتصالهم بالإنجليز. فقال جمال: اتصالهم بالإنجليز كان بعلمى وبالاتفاق معى، ولكنى أؤدبهم حتى يخضعوا لإرادتى ونعرف نمشى بالبلد ولا يبقاش فى مصر سلطتين، أنا عايز سلطة واحدة بس».

«فقلت له: إذن أنت تتجه بالبلد نحو حكم الفرد المطلق، ونحن لم نتفق معك على ذلك، وهذا الاتجاه خطير وسيدفع شعب مصر ثمناً فادحاً نتيجة لهذا الاتجاه الديكتاتورى».

«وقلت له: إن طريق الحرية هو الطريق الوحيد لتقدم الشعوب، لأن الأمر يجب أن يكون شورى بين المؤمنين كنص القرآن الكريم، أما حكم الفرد المطلق فسوف يوردنا موارد الهلاك».

«وسألته عن قصة اتصال الإخوان بالإنجليز فقال عبد الناصر: لقد طلب الإنجليز الاتصال بالمرشد العام للإخوان المسلمين لاستطلاع رأيه ورأى الإخوان فى مشروع المعاهدة المزمع عقدها معهم بشأن جلاء القوات البريطانية عن مصر ورغبة انجلترا فى استمرار التحالف مع مصر وعودة القوات البريطانية إلى مصر فى حالة الحرب أو خطر الحرب أو قيام حالة دولية مفاجئة».

«اتصل الإخوان بعبد الناصر وأعلموه بطلب الإنجليز فوافق عبد الناصر على ذلك على أن يوافيه الإخوان بما سوف يدور من حديث بينهم وبين الإنجليز. وفعلاً أخطر الإخوان عبد الناصر بكل ما دار بين مبعوث السفارة البريطانية ومندوبى الإخوان المسلمين فى هذا اللقاء».

«ثم عاد عبد الناصر إلى أسئلته المثيرة.. فقال عبد الناصر: وما صلتك بالدكتور غراب؟».

«فقت له: الدكتور غراب طبيب فى الجيش وجار لى فى السكن».

«فقال : وما صلتك بخليل نور الدين؟».

«فقلت له : خليل نور الدين من دفعتى فى الكلية الحربية، فقال: هل هو من الإخوان؟».

فقلت : أعلم أنه من الإخوان».

«ثم قال عبد الناصر: وما صلتك بأحمد سبل؟».

«فقلت : لا أعرفه».

فقال عبد الناصر: «ازاى ما تعرفوش أنت تكذب علىّ»».

«فقلت له: أنا لا أكذب، فقال عبدالناصر: «ألم تكن تركب عربة الدكتور غراب مساء

الجمعة ١٥ يناير ١٩٥٤ وكان معك خليل نور الدين وأحمد سبل وتحدثتم فى موضوع خطير بخصوص الإخوان»».

«فأدركت على الفور أنه كان هناك رقابة ما وأن عبدالناصر علم بما دار بالعربة من حديث وأنه استدعانى لهذا الغرض ولم يخطر ببالى مطلقاً أنه علم بما دار فى العربة من أحمد سبل نفسه كما اتضح لى فيما بعد».

«فقلت لعبد الناصر: الحقيقة أنا لا أعرف أحمد سبل مطلقاً، وقصصت على عبد الناصر نص حديث أحمد سبل فى العربة، فقال عبدالناصر: أنا عرفت الموضوع مساء الجمعة ١٥ يناير ١٩٥٤ عند منتصف الليل وانتظرت حضورك السبت ١٦ يناير ١٩٥٤ أو الأحد ١٧ يناير ١٩٥٤ ولما لم تحضر لتبلغنى بما حدث استدعيتك اليوم الاثنين ١٨ يناير ١٩٥٤.وعدم تبليغك لى يجعلنى لا أطمئن إلى مدى ولائك لى، لذلك سأضطر لاعتقالك حتى تنجلى الأمور، وضغط جمال عبدالناصر على جرس فدخل ثلاثة ضباط من الشرطة العسكرية كانوا جاهزين».

«اعتقلت للمرة الأولى فى حياتى وللمرة الأولى فى عهد جمال عبدالناصر يوم ١٨ يناير سنة ١٩٥٤».

«ورحلت بواسطة الشرطة العسكرية من مكتب جمال عبدالناصر إلى مقر الشرطة العسكرية بباب الحديد حيث وضعت فى زنزانة تحت الأرض ثم نقلت يوم ١ فبراير ١٩٥٤ إلى سجن الأجانب بباب الحديد».

«فوجدت فى سجن الأجانب بعض ضباط الجيش المسجونين فى قضية رشاد مهنا، وأذكر منهم: مصطفى راغب محمد ومحسن عبد الخالق ، ووجدت بعض الضباط المعتقلين لكونهم من الإخوان المسلمين أذكر منهم: البكباشى عبد المنعم عبد الرءوف والبكباشى أبو المكارم عبد الحى والصاغ معروف الحضرى والصاغ جمال ربيع».

«وكان يوجد معنا فى سجن الأجانب فى ذلك الوقت الأستاذ فؤاد سراج الدين».

❑

على هذا النحو من رواية تفصيلات حوار طويل وأحداث متعاقبة فى فترة قصيرة يقدم لنا حسين حمودة من وجهة نظره بترتيب وتفصيل قصة تفجر الخلاف بينه وبين عبدالناصر، وهو لحسن الحظ لا ينصف نفسه فقط ولكنه ينصف عبدالناصر بما يرويه عن موقف عبدالناصر منه رغم ظلمه له فى النهاية.

وعلى الرغم من كل ما نأخذه ويأخذه غيرنا على عبدالناصر، إلا أننا لا نستطيع إخفاء إعجابنا بقدرته (أى قدرة عبد الناصر) هذه على الصبر حتى وصل عبدالناصر إلى أن قال لحسين حمودة إنه عرف الموضوع مساء الجمعة ١٥ يناير ١٩٥٤ وانتظر أن يحضر له حسين حمودة السبت والأحد فلما لم يحضر لإبلاغه بما حدث استدعاه يوم الاثنين ١٨ يناير و«عدم تبليغك لى يجعلنى لا أطمئن إلى مدى ولائك لى، لذلك سأضطر لاعتقالك حتى تنجلى الأمور».

«وهكذا اعتقل حسين حمودة ـ كما يذكر ـ لأول مرة فى حياته (وقد ظل معتقلاً حتى ٢٩/٦/١٩٥٤ ثم عاد إلى الاعتقال فى ١٩ نوفمبر ١٩٥٤ للمرة الثانية).

(٢٠)

أما القصة الطريفة فى الكتاب كله فهى قصة اعتقاله الثالث، وهو الاعتقال الذى لم يستمر إلا لساعات قليلة وخرج منه مصحوبا بالاعتذار وباطمئنان مدير المباحث العامة عليه بنفسه:

«فى يوم ٦ سبتمبر ١٩٦٥ استيقظت من النوم على صوت طرق شديد على الباب، فأوقدت نور حجرة النوم ونظرت فى الساعة فوجدتها الثالثة صباحا. فذهبت إلى باب الشقة وفتحته فاقتحم الشقة حوالى سبعة أفراد يرتدون الملابس المدنية شاهرين مسدساتهم، ثم سألنى كبيرهم: هل أنت حسين حمودة ؟ قلت: نعم، قال: تفضل معنا، فقلت: ومن أنتم؟ قالوا: مباحث عامة، فقلت لكبيرهم: وما سبب ذلك؟».

«قال: تعليمات وزير الداخلية باعتقال جميع الإخوان المسلمين فى مصر».

«فوجدت أن المناقشة مع هؤلاء الناس لا تجدى، فطلبت من كبيرهم أن يسمح لى بارتداء ملابسى فرفض فخرجت معهم بملابس النوم (جلابية).

«فذهبت معهم إلى مبنى قسم شرطة الزيتون حيث أودعت غرفة الحجز ولم يكن بها أحد غيرى. وتلا ذلك فتح باب غرفة الحجز كل فترة ليقذف فيها بمعتقل جديد حتى وصل عددنا إلى حوالى أربعين شخصاً فى حجرة مساحتها حوالى ٤ فى ٥ أمتار تقريباً».

«وظللنا وقوفاً من صباح ٦ سبتمبر ١٩٦٥ حتى صباح ٧ سبتمبر ١٩٦٥ وحوالى الساعة ١٠ صباح يوم ٧ سبتمبر ١٩٦٥ فتح السجان باب غرفة الحجز ونادى حسين حمودة فقلت أنا، فقال تعال كلم فى التليفون فى غرفة ضابط مباحث القسم».

«فكلمت أحد الأشخاص الذى عرفنى بنفسه قائلاً: «أنا أحمد صالح داود مفتش المباحث العامة» فقلت له: أنا حسين حمودة، فقال: أنت كنت ضابط فى الجيش، فقلت: أيوه، فقال: إحنا متأسفين لقد قبض عليك خطأ وسيفرج عنك الآن أعطنى ضابط المباحث».

«فأعطيت التليفون لضابط مباحث قسم الزيتون الذى كلمه أحمد صالح داود وأمره بإخلاء سبيلى فوراً، فخرجت من قسم شرطة الزيتون بالجلابية التى أرتديها إلى منزلى فقالت لى زوجتى: «اتصل فوراً باللواء حسن طلعت مدير المباحث العامة وأعطتنى رقماً».

«فاستفسرت منها عن الموضوع فقالت: منذ ساعة تقريباً اتصل اللواء حسن طلعت بمنزلى وقال لزوجتى: «هو حسين بك حمودة موجود» فقالت له السيدة زوجتى: لأ.. دول جم أمس الأول وقبضوا عليه، فقال لها حسن طلعت: إحنا أفرجنا عنه... ومن فضلك أول ما يحضر خليه يتصل بى بالتليفون وأعطاها رقما».

«فاتصلت به فقال اللواء حسن طلعت إنه مكلف رسمياً من الرئيس جمال عبد الناصر بإخطارى بأن الإفراج عنى كان بأمر جمال عبد الناصر شخصياً».

(٢١)

ويورد صاحب هذه المذكرات فقرات سريعة عن التعذيب الذى تعرض له فى سجون الثورة التى أسهم هو نفسه فى القيام بها، ولابد أن ننظر إلى شهادته باحترام شديد وذلك لسبب مهم وهو أنه حرص على أن يثبت أن معاملته فى فترة من الفترات وهى فترة السجن الحربى كانت حسنة جداً، وهكذا فإنه لا يتجنى وإنما يذكر الصور المختلفة لتى لقيها من المعاملة، ونبدأ بأن نورد ما يرويه عن اعتقاله فى السجن الحربى فى ١٩٥٤:

«... بقينا فى السجن الحربى وكانت المعاملة حسنة جداً والزنزانات مفتوحة طول النهار والطعام يحضر لنا من بيوتنا بعربة السجن الحربى، والجرائد تصلنا بانتظام والاتصال التليفونى بعائلاتنا مسموح به، وقائد قسم القاهرة يمر علينا يومياً ويسأل عن طلباتنا ويزورنا طبيب يومياً».

«وكان حمزة البسيونى يلعب معنا الطاولة، وبقينا فى السجن الحربى إلى أن جاء يوم ذهب عبد المنعم عبد الرءوف إلى المحاكمة، ولم يعد، وتبين أنه هرب من حارسه العميد محمد نبيه خطاب».

«وبعد هرب عبد المنعم عبد الرءوف ضيقوا علينا الخناق وصار كل واحد منا يقضى ٢٤ ساعة فى الزنزانة الانفرادية لا يتصل بمخلوق ولا يتكلم مع أحد، وفى ٢٩ يونيو ١٩٥٤ صدرت الأوامر بالإفراج عنى وعن أبو المكارم عبد الحى ومعروف الحضرى و جمال ربيع، أى عن الضباط الذين اعتقلوا بمقولة إنهم ينتمون لجماعة الإخوان المسلمين».

وفيما بين الاعتقال الأول والاعتقال الثانى بقى صاحب هذه المذكرات فى إجازة إجبارية ينتظر مصيره:

«ذهبت يوم ٣٠ يونيو ١٩٥٤ إلى اللواء السابع المشاة بالعباسية لتسلم عملى، فأفهمنى قائد اللواء الأميرالاى السرساوى أنى فى إجازة إجبارية منذ اعتقالى فى ١٨ يناير ١٩٥٤، فذهبت للقيادة العامة للقوات المسلحة وقابلت الصاغ صلاح نصر مدير مكتب عبد الحكيم عامر فأفادنى أنه لم يبت فى أمرى بعد وعلىّ البقاء فى الإجازة الإجبارية لحين التصرف فى شأنى بمعرفة المسئولين فى قيادة القوات المسلحة».

«فذهبت لمنزل زكريا محيى الدين وزير الداخلية وكان يسكن فى ذلك الوقت بمنشية البكرى بعمارة رشاد بشارع الخليفة المأمون، فقابلنى فى منزله وقال:إن النية قد اتجهت لتحويلى إلى وظيفة مدنية».

«وظللت فى منزلى فى انتظار قرار من المسئولين بشأن عملى المقبل حتى يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٥٤ وهو اليوم الذى أذاعت فيه الحكومة المصرية بياناً يفيد أن شاباً ينتمى إلى جماعة الإخوان المسلمين حاول قتل عبدالناصر بأن أطلق عليه ٨ رصاصات فى ميدان المنشية بالإسكندرية فلم يصب بسوء».

❑

أما فى المعتقل الجديد (الاعتقال الثانى) فقد رأى صاحب هذه المذكرات الويل والثبور وعظائم الأمور وهو يحكى تجربته فيقول:

«اعتقلت يوم ١٩ نوفمبر ١٩٥٤ للمرة الثانية فى عهد جمال عبدالناصر، ووضعت فى زنزانة بمعتقل ٢ بالسجن الحربى، وأثناء دخولى الزنزانة كان القائمقام يوسف منصور صديق عائداً من دورة المياه إلى الزنزانة فقال لى: «جيت ليه ياحسين ده فيه ضرب وتعذيب حتى الموت».

وهنا يورد حسين حمودة عبارته التى أشرنا إليها من قبل :

«فكم من نفوس قتلت، ورجال صلبت وجسوم (يقصد:أجسام) مثل بها وهي على قيد الحياة، وبالنسبة لشخصى فقد نالنى من هذا العذاب الكثير والذى لا يحتمله بشر، ففى صباح يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٥٤ استدعيت لمكتب حمزة البسيونى قائد السجن الحربى ووجدته فى مكتبه ومعه اليوزباشى شمس بدران مدير مكتب عبد الحكيم عامر، وكان بالغرفة اثنان من الجنود بأيديهم الكرابيج السودانية».

«وما أن رآنى شمس بدران حتى بادرنى بسيل من الشتائم القذرة التى لا تصدر إلا من أحط الناس خلقاً وأعرقهم فى الإجرام والخسة والنذالة».

«فقلت له: عيب ياشمس، فقال: بتقول إيه ياابن.. وانهال علىّ ضرباً بيده القذرة الملوثة بدماء الشرفاء والأبرياء، ثم أمر مَنْ كان بالغرفة من الجنود أن يذهبوا بى إلى غرفة التعذيب، فجذبنى أحد الجنود من ملابسى فمزقها، ودفعنى خارج الغرفة، وانهال هو وزميله علىّ ضرباً بالكرباج، ثم اقتادونى إلى زنزانة فى سجن (٤) وعلقت كما تعلق الذبائح على صلبة من الحديد رأسى إلى أسفل وقدماى إلى أعلى مع ثنى الركبتين وربطونى بالحبال و انهال علىّ الجنود بالكرابيج السودانية على كل جسدى: على الصدر والظهر والبطن والأرجل والوجه والرأس حتى تعب الجنود من كثرة الضرب فأنزلونى من فوق التعليقة بعد أن فقدت الوعى وظن الجلادون أنى فارقت الحياة فألقوا علىّ جرادل مياه باردة فأفقت بعض الشىء وشعرت بقشعريرة شديدة من البرد، ثم نقلونى على نقالة إلى زنزانتى بمعتقل (٢) وأنا بين الحياة والموت».

«وسمعت أحد الجنود يقول: سيبوه ابن.. هنا لحد الصبح، وإن مات ندفنه جنب المعتقل اللى دفناه امبارح بعد ما مات من التعذيب».

«وفى اليوم التالى ٢١ نوفمبر ١٩٥٤ جاءنى اليوزباشى على شفيق صفوت مساعد شمس بدران، وفتح باب الزنزانة فلم أستطع الوقوف من شدة الإعياء وكنت لم أتناول طعاماً منذ ١٩ نوفمبر ١٩٥٤، فما كان من الجندى المرافق لعلى شفيق صفوت إلا أن قال: قوم ياابن.. فلم أستطع الوقوف فركلنى الجندى بقدمه وأوقفنى بالقوة، وأمسك بى ليسندنى حتى لا أقع على الأرض، وانهال علىّ على شفيق صفوت ضرباً بالبوكس على وجهى عدة ضربات فسالت الدماء من أسنانى التى كسرت نتيجة هذه الضربات».

«وظل على شفيق صفوت يضربنى بالبوكس حتى تعب فأمسك الكرباج من الجندى المرافق لى وظل يضربنى على جسدى حتى وقعت على الأرض من شدة الألم حتى فقدت الوعى تماماً ورحت فى غيبوبة تامة».

«وقد شاهد عملية تعذيبى الأخ جمال إسماعيل (ضابط شرطة) والأخ جمال ربيع (ضابط جيش) حيث كانا يشاركاننى الإقامة فى الزنزانة. وقد نال كل منهما من التعذيب ما يعجز القلم عن وصفه».

«وفى اليوم التالى استيقظت فى الفجر وأنا فى غاية الألم، فكل عظامى تنشر، وجسمى كله ينزف، وملابسى ممزقة، وملوثة بالدماء، فقلت فى نفسى: هل قمنا بالثورة لنحرر مصر من طغيان فاروق أم لتعود مصر إلى أشد أيام العصور الوسطى وحشية وهمجية؟».

ويبلور حسين حمودة ما دار فى وجدانه من تفكير وندم فى ذلك اليوم:

«وهل وضعنا ثقتنا فى جمال عبد الناصر ومهدنا له الطريق لحكم مصر لتكون النتيجة أن يستعين عبد الناصر بالسفلة والأوغاد ومعدومى الضمائر للقضاء على خيرة شباب مصر خلقاً وعلماً ووطنية».

«فيا ويل مصر من جمال عبد الناصر وأعوانه الظلمة، وما أسود المصير الذى ينتظر شعب مصر على يد هذا السفاح وأعوانه!».

❑

ثم يصور حسين حمودة بكل ما يمكنه من دقة بقية الصورة التى صنعتها أو وقعت فيها «الثورة» فى ذلك الوقت المبكر من حكمها:

«وكان السجن الحربى قد امتلأ بالمعتقلين من الإخوان وحشروا حشراً فى الزنزانات حتى امتلأت ففتحت الحكومة معتقلات أخرى فى القلعة وغيرها، وكان لحمزة البسيونى هواية عجيبة هى الإشراف على طوابير التعذيب الجماعية للمعتقلين السياسيين، وكانت هذه الطوابير تجرى فى فترتين من ٧ ـ ٨ صباحاً ومن ٤ ـ ٥ مساء».

«وكان الطابور يبدأ بإدارة أسطوانة لأم كلثوم تذاع بواسطة ميكروفون هى أسطوانة «ياجمال يامثال الوطنية».

«ويجمع المعتقلون جميعاً فى فناء السجن الحربى وينتظمون فى طابور، ويصدر لهم الأمر بالجرى بالخطوة السريعة داخل فناء السجن لمدة ساعة وتنهال عليهم كرابيج الحراس، وكان بعض المعتقلين مرضى بالقلب أو من كبار السن الذين لا يستطيمون الجرى فينهال عليهم الجنوب ضرباً بالكرابيج حتى مات عدد كبير منهم أمام أعين باقى المعتقلين، فتحضر عربة تنقل إليها الجثث وتخرج أمام أعيننا لتدفن فى الصحراء».

❑

ويشير حسين حمودة إلى أنه فهم من على شفيق صفوت أن جمال عبد الناصر

وعبدالحكيم عامر كانا يستحثانه من أجل الحصول من حسين حمودة على اعتراف مزيف بعلاقة تحريض بين محمد نجيب وحسن الهضيبى، ومع أننا لا نستطيع أن نعرف بالضبط هل كان على شفيق يفعل هذا من عندياته أم أنه كان مكلفا بهذا الفعل، إلا أن هذا لا يقلل من مدى بشاعة هذه الصورة الفظيعة:

«وفى يوم ٢٢ نوفمبر ١٩٥٤ استدعيت لمكتب حمزة البسيونى فوجدت على شفيق صفوت الذى قال لى: المطلوب منك أن تشهد ضد اللواء محمد نجيب وتذكر أنه كان يتعاون مع حسن الهضيبى ضد جمال عبد الناصر ومجلس الثورة. فقلت له: أنا لا أعرف محمد نجيب ولم أقابله فى حياتى مطلقاً، ولا أعرف حسن الهضيبى، فيرد علىّ على شفيق صفوت ويقول: أنا كل يوم بنشتم من تحت راسك، فقلت له: مين اللى بيشتمك، قال: جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر، فقلت: ليه، قال: بيقولوا إنت خايب مش عارف تمضيه على ورقة يقول فيها إن محمد نجيب هو اللى بيحرض الإخوان ضد مجلس قيادة الثورة، فقلت له: يا على أنا لا أعرف محمد نجيب ولا حسن الهضيبى، فيعتدى علىّ على شفيق صفوت بالضرب بالبوكس وبالكرباج حتى يتعب ثم يمشى».

«وهكذا ظل التعذيب يتكرر يومياً بواسطة على شفيق صفوت حتى تورمت قدماى من الضرب وصار لون جسدى كله كلون الكبدة تماماً، وفى يوم طلبونى لمكتب حمزة البسيونى فوجدت هناك على صبرى وصلاح الدسوقى الششتاوى وما إن رآنى صلاح الدسوقى الششتاوى حتى بادرنى بسيل من الشتائم القذرة، فنهره على صبرى وقال له: اسكت ياصلاح، وجاب (أى أحضر) كرسى، وأجلسنى وأرسل فى استدعاء طبيب السجن وطلب منه أن يغير على الجروح التى أحدثها الضرب».

«وبعد أن انتهى الطبيب من عمله أخذنى على صبرى خارج المكتب وقال: الريس عبدالناصر عارف إن موقفك سليم ومفيش حاجة عليك، بس عايزك تروح المحكمة تشهد إن محمد نجيب هو المحرض للإخوان ضد عبدالناصر ومجلس الثورة، فقلت له: أنا متألم جداً من التعذيب وجسدى كله بينشر وقد لا أستطيع السير ولا الذهاب إلى المحكمة، فأمر حمزة البسيونى بالكف عن تعذيبى وتركى أستريح يومين قبل الذهاب للمحكمة، وفعلاً رفع عنى التعذيب لمدة ثلاثة أيام ثم ذهبت تحت حراسة مشددة لمجلس الثورة بالجزيرة وأدخلت إلى حجرة فوجدت فيها زكريا محيى الدين وزير الداخلية فقلت له: ياافندم ده فيه تعذيب فى السجن الحربى، وضرب وإهانة شديدة للمعتقلين، وفيه ناس ماتت من التعذيب، فابتسم زكريا محيى الدين وقال: وماله ياسيدى لما تنضرب».

«ولما جاء ميعاد الشهادة صممت على أن أقول للناس كلمة للتاريخ قبل أن يقتلنى هؤلاء

السفاحون، فوقفت أمام المحكمة وكانت برئاسة جمال سالم وقلت: المعلومات التى أعرفها أن اللواء محمد نجيب مطرشق من أعضاء مجلس الثورة بسبب الحكم الديكتاتورى فى البلاد، وأن الإخوان المسلمين والوفديين وسائر الأحزاب السياسية وكل شعب مصر يطالب بالحرية والحكم الديمقراطى ويرفض الديكتاتورية العسكرية رفضاً باتاً، وشعب مصر ليس له سوى مطلب واحد هو الحرية والحكم النيابى السليم».

«وعدت للسجن الحربى فوجدت حمزة البسيونى فى انتظارى فقال: إيه اللى قلته فى المحكمة ده، لقد جاءت أوامر من عبد الناصر شخصياً بضربك علقة جامدة على كده، ولأمر لا أعرفه جاء أحد الجنود وأخبره بشىء فخرج من مكتبه مسرعاً وقال للحارس: وديه الزنزانة، فذهبت مع الجندى إلى الزنزانة ولم أخرج منها إلا إلى المحاكمة».

(٢٢)

وبعد صفحات يحكى حسين حمودة بمرارة شديدة وأسى بالغ بعض تفاصيل تجربته الأليمة هو والإخوان فى بداية عام ١٩٥٥ فى ليمان طرة فيقول:

«فى ١٧ يناير ١٩٥٥ رحلت إلى ليمان طرة مع عدد كبير من الإخوان المسلمين لم أكن أعرف منهم أحداً من قبل، ولما دخلنا ليمان طرة أجبرنا على ارتداء زى المساجين الأزرق ووضعت فى أرجلنا السلاسل الحديدية ووضعنا فى عنبر خاص بالإخوان المسلمين وكلفتنا إدارة الليمان بتنفيذ عقوبة الأشغال الشاقة بالذهاب يومياً إلى الجبل فى طابور يضم ما لا يقل عن ألفين من المسجونين فى ملابسهم الزرقاء يتقدمهم مأمور الجبل على صهوة جواده شاهراً سيفه ويحيط بالطابور مائة جندى مسلحون بالبنادق من طراز «لى انفلد» الإنجليزية الصنع مركباً بها السونكيات».

«وكان الإخوان المسلمون من المسجونين السياسيين فى مقدمة الطابور يليهم المجرمون من المسجونين العاديين من القتلة واللصوص ومهربى المخدرات وهاتكى الأعراض».

«وكان نزلاء طرة قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ من المجرمين العاديين،و بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ انضم إلى نزلاء ذلك الليمان علماء الأزهر الشريف وأساتذة الجامعات والوزراء السابقون وضباط الجيش والشرطة ورجال القضاء والمحامون والمهندسون والأطباء والصحفيون ورجال الفكر وطلاب الجامعات والعمال والفلاحون».

«وكنا نعمل فى قطع الأحجار فى جبل طرة (٩ ساعات يومياً) تبدأ من الساعة السابعة

صباحاً حتى السـاعة الرابعة بعد الظهر، ويحيط الجنود بمنطقة العمل بالجبل شاهرين أسلحتهم والبنادق معمرة وجاهزة لإطلاق النار على المساجين لإفنائهم لدى ظهور أي بادرة من بوادر التمرد أو الامتناع عن العمل، فينهال الرصاص على الجميع فيقتل من يقتل ويصاب من يصاب ولا دية له. وهذا هو نظام الليمان منذ أن أنشأه الإنجليز عند احتلالهم مصر سنة ١٨٨٢».

«وحدث ذات يوم ونحن نعمل فى تقطيع وحمل الأحجار لوضعها فى عربات السكة الحديد أن جاء اللواء محرم عثمان مدير عام مصلحة السجون، ومحرم عثمان كان ضابطاً بالجيش المصرى ونقلته الثورة بعد ٢٣ يوليو إلى مصلحة السجون، وكنت أعرفه فقابلته فى الجبل وتحدثت معه وقلت له هل يجوز أن يكلف المسجون السياسى بقطع الأحجار وحملها على هذا النحو المهين، فأبدى الرجل أسفه وقال إنها تعليمات وزارة الداخلية ولا أملك سوى تنفيذها».

(٢٣)

أما لحظة الإفراج عنه فيصورها صاحب هذه المذكرات بكل ما فيها من تعاقبات، لكنه يبدو وكأنه متبلد الشعور تجاهها، وهو بهذا يعبر ـ فى تلقائية ـ عن صدق فنى وشعورى يتناسب تماما مع إحساسه باللحظة ومع ذكرياته عنها أيضا:

«فى يوم الثلاثاء ٣٠ سبتمبر ١٩٥٨ تم الإفراج عنى من سجن قرة ميدان وتم الإفراج بالأسلوب الآتى:

«استدعانى القائمقام عبد الحميد حلمى مدير سجن قرة ميدان إلى مكتبه فى الساعة ١١ صباح يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٥٨ وأخبرنى أنى مطلوب الساعة ٤ بعد الظهر للذهاب فى مهمة خارج السجن، فطلبت منه أن يسمح لى بالاتصال تليفونياً بأى شخص من أهلى لإحضار ملابس مناسبة بدلاً من ملابس السجن الزرقاء ، فقال: لا داعى لذلك لأنها مأمورية سرية للغاية، وستعود ثانية إلى السجن فلا داعى لأن تشغل بال أهلك بهذا الموضوع».

«وسأحضر لك ملابس من أحد الأفراد الذين هم محبوسون احتياطياً على ذمة قضايا يكون حجم جسمه مقارباً لحجم جسمك، فأحضروا لى بدلة وقميصاً وكرافتة، وفى الساعة ٤ بعد الظهر خرجت من السجن بدون أى حراسة وركبت سيارة ملاكى القاهرة كانت فى الانتظار وركب بجوارى الملازم أول زايد رستم من قوة سجن قرة ميدان بملابسه المدنية، ولاحظت عدم وجود أى سلاح ظاهر معه وكان سائق السيارة يرتدى ملابس مدنية».

«وتوجهت السيارة إلى مبنى وزارة الداخلية، وصعدنا لمكتب اللواء عبد العظيم فهمى مدير إدارة المباحث العامة الذى أمر ضابط السجن الملازم أول زايد رستم بالانصراف، فأصر ضابط السجن على أخذ إيصال المسجون فاستدعى عبد العظيم فهمى البكباشى زهدى وأمره بإعطاء إيصال لضابط السجن».

«وبعد فترة من الوقت قصيرة شربت فيها فنجاناً من القهوة، توجهت مع اللواء عبدالعظيم فهمى فى سيارته بدون حراسة إلى الدقى حيث وقفت السيارة أمام فيللا عليها حراسة مشددة، ثم دخلنا المنزل فوجدنا زكريا محيى الدين وزير الداخلية فرحب بى وقال: «مالك خاسس ليه كده».

«فقلت له مما لاقيناه من أهوال فى السجن الحربى وليمان طرة ونقص فى الغذاء الحيوى فى سجن الواحات الخارجة، وقد تأثرت حالتى الصحية وأصبت بعدة أمراض منها السكر وارتفاع ضغط الدم وضعف فى قوة الإبصار وخلع لجميع أسنانى وروماتيزم فى المفاصل».

«فقال زكريا محيى الدين: إحنا كنا نبذل أقصى ما يمكننا فى موضوع التغذية بسجن الواحات فى حدود الإمكانات المتاحة، وأبحنا لكم الطرود من عائلاتكم حينما علمنا بأخطار نقص الغذاء، فقلت له: لقد حدث ذلك فعلاً».

«وأخبرنى زكريا محيى الدين بأن الرئيس جمال عبد الناصر قد أصدر قراراً بالإفراج عنى اعتباراً من هذه الليلة، وقال زكريا محيى الدين: إن عبدالناصر كلفه بأن يقول لى إنه لا يمكن له ـ أى لعبدالناصر ـ أن ينسى أبداً تضحياتى (كاتب هذه السطور) فى سبيل مصر واشتراكى فى تنفيذ الثورة ليلة ٢٢ يوليو ١٩٥٢».

«ويرجو عبد الناصر أن تنسى الماضى وما تعرضت له من إساءة وتفتح صفحة جديدة. فقلت لزكريا محيى الدين: «إنى مؤمن بالله وأعلم أن ما أصابنى لم يكن ليخطئنى، وكل ما حدث تم بقضاء من الله، ولعل فيه الخير لى والله أعلم ونحن لا نعلم».

«وشكرت زكريا محيى الدين للحفاوة التى لقينى بها فى بيته، وانصرفت مع عبد العظيم فهمى إلى وزارة الداخلية حيث أطلق سراحى من هناك، فركبت «تاكسى» من وزارة الداخلية لمنزل والد زوجتى بسراى القبة، وكانت مفاجأة تامة لزوجتى وأولادى، وفى اليوم التالى ذهبت فى الصباح لسجن قرة ميدان وأعدت الملابس التى استعرتها لصاحبها بالسجن».

هكذا لا ينسى حسين حمودة أن يذكر لنا أنه أعاد الملابس التى استعارها (بالأمر) إلى صاحبها فى سجن قرة ميدان!! ولسنا نعرف كيف يكون شعور المسجون وهو يعود إلى السجن فى اليوم التالى للإفراج عنه لمثل هذا السبب الوجيه والغريب (!!) .

ويجاهر حسين حمودة بما لم يستطع أحد غيره أن يجهر به حتى الآن، فهو حين يتحدث عن محاكم الشعب التى شكلها مجلس قيادة الثورة لمحاكمة الإخوان المسلمين، ويذكر أن الاتهام الذى قدم به إلى المحكمة وقدم على أساسه أكثر من ألف إنسان هو أنه «أتى أفعالاً ضد نظام الحكم الحاضر وذلك باشتراكه فى تنظيم سرى مسلح»، وهنا يعقب حسين حمودة بصوت عال فيقول:

«والعجيب أن هذه التهمة كانت باطلة بطلاناً تاماً لسبب بسيط، هو أن التنظيم السرى المدنى للإخوان كله كان يؤيد جمال عبدالناصر ضد حسن الهضيبى ولم يعتقل عبدالرحمن السندى رئيس التنظيم السرى للإخوان عام ١٩٥٤، وكان أعوان عبدالرحمن السندى كلهم خارج السجون فى عهد عبدالناصر».

وقبل هذا كله يتحدث حسين حمودة فى مذكراته التى بين أيدينا بنفس الروح المتألمة حين يروى ذكرياته عن محاكمته ضمن مَنْ حوكموا من الإخوان المسلمين فى أعقاب حادث المنشية الذى تعرض فيه عبدالناصر للاغتيال:

«... وكان رئيس المحكمة يسأل المتهم (الضحية) إن كان مذنباً أو غير مذنب، فيرد المتهم بأنه غير مذنب فيأمره بالانصراف، وفى اليوم التالى يأتون بالمتهمين الذين مثلوا بالأمس أمام المحكمة ليسمعوا الحكم عليهم بالشنق أو الإعدام رمياً بالرصاص أو السجن المؤبد أو المؤقت».

«وقد حكمت محكمة الشعب على حوالى ١٠٠٠ شخص من الإخوان المسلمين منهم ستة بالشنق وهم الشهداء: محمود عبداللطيف، وهنداوى دوير، وإبراهيم الطيب، وعبدالقادر عودة، ومحمد فرغلى، ويوسف طلعت».

«وقد واجهوا الموت بشجاعة وقالوا وهم معلقون على حبل المشنقة: «نشكر الله لأننا نموت شهداء»».

«وتحدثت صحف العالم كله عن شجاعة هؤلاء الذين اقتحموا الموت بهذه البطولة النادرة، ولم تكتب صحف مصر حرفاً واحداً عما قاله هؤلاء الأبطال وهم على حبل المشنقة، أما الشهيد القاضى عبدالقادر عودة فقد قال وهو على حبل المشنقة بعد أن حمد الله الذى رزقه الشهادة: «اللهم اجعل دمى لعنة على رجال الثورة».

ويبلور حسين حمودة مشاعره وإحساسه بالظلم من زميله السابق الرئيس جمال عبدالناصر :

«وكان من نصيبى من هؤلاء السفاحين الظلمة الحكم علىّ بالسجن لمدة خمسة عشر عاماً مع الأشغال الشاقة، وحكم على باقى الألف بالأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة، وكان هذا الحكم الظالم صدمة عنيفة لى لم تخطر لى على بال، لقد كنت بريئاً مائة فى المائة، وما كنت متآمراً ضد عبدالناصر ولا رجال الثورة ولا داعياً إلى فتنة، وما كنت أتصور أن يصل الأمر بجمال عبدالناصر إلى هذا الحد الخطير من الطغيان والظلم، ولقد دعته قدرته إلى ظلم الناس ولم يتذكر قدرة الله عليه، ولكن الله يمهل ولا يهمل، ولقد أحيانى الله حتى رأيت بعينى رأسى مصارع هؤلاء الظالمين فى الدنيا واحداً إثر واحد».

(٢٥)

ولا يجد حسين حمودة حرجا فى أن يوجه اتهامات مباشرة إلى جمال عبدالناصر فى عقيدته وفهمه الدينى والإنسانى والسياسى، وها هو يقول فى صفحة ١٦٥ وما بعدها:

«لقد ظن عبدالناصر أنه لا يوجد فى هذا الكون إله وتذكر قدرته على ظلم الناس ولم يتذكر قدرة الله عليه، وهكذا مارس عبدالناصر حكم مصر، أشاع فيها الإرهاب ونشر الجاسوسية فسكت الناس هلعاً وخوفاً، وكانت لجمال عبدالناصر قدرة عجيبة على إخفاء نياته وإظهار غير ما يبطن، وقدرة عجيبة على استمالة زملائه ضد ضحيته القادمة حتى أفناهم جميعاً وضيعهم واحداً إثر واحد، ولم يكن لعبدالناصر أصدقاء قط إلا عبدالحكيم عامر الذى أخلص لجمال عبدالناصر كل الإخلاص وساعده فى كل عمليات التعذيب والتنكيل بالمواطنين».

«واستعان عبدالناصر وعبدالحكيم عامر بمجموعة من معدومى الضمير من الضباط كشمس بدران وعلى شفيق صفوت وحمزة البسيونى.. إلخ. وهم الذين أشرفوا على عمليات التعذيب ضد الإخوان وغيرهم، وكانت النتيجة هلاك عبدالحكيم عامر نفسه بنفس الطريقة التى أهلك بها غيره فمات بالسم مقتولا».

❑

وهنا يجد حسين حمودة من واجبه أن يفصح عن رأيه الشخصى فى نهاية عبد الحكيم عامر ونراه ينتصر لنفس الفكرة التى كان كمال الدين حسين أبرز المتحمسين لها، وهى أن عبدالحكيم عامر لا يمكن أن ينتحر فيقول :

«والذى يعرف عبدالحكيم عامر يعرف يقيناً أنه لا يمكن أن ينتحر، ولكن التفاصيل التى عرفت فيما بعد أن عبدالناصر استدعاه إلى منزله للاتفاق على تصفية الجو والسفر سوياً إلى السودان».

ويستطرد حسين حمودة مباشرة إلى الحديث غير المباشر عن نتائج انتحار عبد الحكيم عامر، وهى أن عبدالناصر انفرد بالعار الذى لحق به وبتاريخه بدلاً من أن يحقق أحلامه فى الانفراد بالمجد!!:

«ولما كانت العلاقة بين ناصر وعامر [حافلة بوجود] الذين زاحموا أهل الخبرة،وأحاطوا بجمال عبدالناصر وصديقه الحميم عبدالحكيم عامر إحاطة السوار بالمعصم فعزلوهما عن الشعب وخوفوهما منه وأدخلوا فى روعهما أنهم الحامون لهما من القتل غيلة على يد الإخوان وغيرهم من أبناء الشعب، وبذلك أصبح شمس بدران هو صاحب الحل والعقد فى الدولة. لقد كان الواحد من الضباط إذا قابل المشير عامر وعرض عليه مظلمة وصدق له المشير عامر على رفع ما تظلم منه، يعرقل تنفيذها شمس بدران ويقول للمتظلم «إنت رحت للمشير خليه ينفعك»، فهل حقق عبدالناصر أحلامه فى الانفراد بالمجد؟ كلا».

«لقد حقق عبدالناصر شيئاً واحداً هو الانفراد بالعار الذى لحق به وبتاريخه حتى تقوم الساعة، عار هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧».

(٢٦)

كذلك فإن حسين حمودة يصل ـ في أكثر من موضع من كتابه ـ إلى القول بأن حادث الشروع فى قتل جمال عبدالناصر فى ١٩٥٤ كان مدبراً بإحكام وبتخطيط جيد لدفع جمال عبدالناصر للانقضاض على جماعة الإخوان المسلمين، وهذا هو نص عبارته فى صفحة ١١٢ وبهذا التعبير المحكم: «الدفع إلى الانقضاض».

وهكذا يبدو أن حسين حمودة يعلق التهمة فى رقبة أحد غير عبدالناصر، لأنه لو أراد أن يتهم عبدالناصر بأنه مخرج التمثيلية لقال: «لإعطاء عبدالناصر المبرر».

ويروى حسين حمودة فى صفحتى ١١٨ و١١٩ وما بعدهما قصة قيام أحد الضباط بزيارته فى السجن على أنه رسول من عبدالناصر، وقصة إرساله برقية تهنئة لعبدالناصر بالجلاء فى يونيو ١٩٥٤ (صفحة ١١٩)، والتهنئة الأخرى بتأميم قناة السويس (صفحة ١٢٠)، ومساندته فى أثناء العدوان الثلاثى (صفحة ١٢٢).

ومع أن حسين حمودة كما رأينا فى روايته لحديثه مع عبدالناصر كان حريصا على إنكار أية صلة له بالإخوان وبقيادتهم، إلا أن هذا الإنكار فيما يبدو لا ينسحب إلا على ما قبل أوائل سنة ١٩٥٤، وبالتحديد على ما قبل لقائه بالضابط أحمد سبل الذى كان مدسوسا عليه من عبدالناصر، ونحن نرى حسين حمودة فى هذا الكتاب لا يبرئ نفسه تماماً من الاتصال بالإخوان فى ١٩٥٤، وهو فى إحدى فقرات كتابه (وبالتحديد فى صفحة ١٦٤) يروى قصة اللقاء بالهضيبى فيقول:

«... وللحقيقة والتاريخ أذكر أن هناك اجتماعاً عُقد فى أحد منازل الإخوان المسلمين بجهة قصر العينى حضره المرشد حسن الهضيبى، وكاتب هذه السطور، ويوسف طلعت، والشيخ فرغلى، ومحمود عبده، وإبراهيم الطيب، وعبدالمنعم عبدالرءوف، وكان عبدالمنعم عبدالرءوف هارباً من السجن وموجوداً بمصر ولم يخرج بعد من البلاد».

«وفى هذا الاجتماع تكلم المرشد حسن الهضيبى وقال إن اللواء محمد نجيب «مطرشق» من أعضاء مجلس قيادة الثورة بسبب الحكم الديكتاتورى فى البلاد، وأن اللواء محمد نجيب ينوى حل مجلس الثورة وإعادة الحياة الديمقراطية إلى البلاد عن طريق تكوين هيئة تأسيسية منتخبة لتضع دستوراً للبلاد، وذلك حتى يمكن أن تستقر الأوضاع فى مصر فى ظل حكومة مدنية تتمتع بتأييد الشعب المصرى، وأن يعود الجيش إلى الثكنات لممارسة دوره الطبيعى فى الدفاع عن البلاد ضد العدوان الخارجى».

«وهذا الاجتماع كان قبل حادث المنشية بحوالى شهر، ولم يتعرض أحد على الإطلاق فى هذا الاجتماع لموضوع تدبير جريمة لاغتيال عبدالناصر، بل كان تعقيب الشيخ فرغلى على كلام المرشد حسن الهضيبى أن على اللواء محمد نجيب اتخاذ الخطوة الأولى من جانبه باعتباره الحاكم الشرعى للبلاد، فيصدر القرارات التى يراها صالحة لإنقاذ البلاد من الديكتاتورية، والإخوان مستعدون لتأييد هذه القرارات بعمل حشود شعبية فى القاهرة والإسكندرية وسائر مدن القطر المصرى».

ويصل حسين حمودة بعد هذا كله إلى تسجيل رأيه القاطع الباتر بأن حادث المنشية لم يكن إلا تمثيلية!!:

«وعلى هذا الأساس فحادث المنشية تمثيلية لاشك فيها لتبرير عمليات القمع والتعذيب والمشانق، ولو كانت محاولة اغتيال عبدالناصر صحيحة فلماذا لم يقدم الإخوان لمحاكم

الجنايات وفيها قضاة متخصصون وظيفتهم إقرار العدل بين الناس؟ ولماذا الضرب بالسياط حتى تتمزق الأجساد ونفخ البطون وألوان التعذيب؟».

«كل هذه التصرفات الإجرامية التى أقدم عليها عبدالناصر وأعوانه تؤكد أنه لم يكن هناك جريمة على الإطلاق ولا أدلة قانونية على أنه كانت هناك محاولة اغتيال».

(٢٨)

بعد كل هذه الموضوعات التى تتكون من نسيجها صورة دقيقة عن التاريخ السياسى لصاحبها فى ظل الثورة وقبلها، هل لنا أن ننتقل إلى ما ترويه المذكرات عن بعض شئون الوطن بعيداً عن صراعات الضباط والتنظيمات، وإن لم تخل هذه الشئون والشجون الوطنية من أثر هذا الصراعات أيضا.

فى هذه المذكرات تفصيلات ومهمة عن حرب فلسطين ١٩٤٨، وعن دور الجيش المصرى فيها، وعن مشاركة الإخوان المسلمين، وتأتى هذه الآراء جميعا منطبعة ومتأثرة بوجهة نظر صاحب المذكرات، لكنها فى الوقت نفسه تضيف إلى معلوماتنا عن الحرب وإلى معرفتنا بهذه الفترة من تاريخنا المعاصر.

ويُدقق حسين حمودة فى المعلومات التى يوردها فى هذه المذكرات عن حرب فلسطين، كما أنه يقدم هذه المعلومات بطريقة علمية ومنهجية مرتبة، مما يتيح لقارئها أن يفيد منها إلى أبعد الحدود، وحين يذكر سفر الكتيبة الأولى إلى ميدان القتال فإنه يذكر كل أسماء الضباط المتطوعين، كما يحرص على أن يعطى أحمد عبدالعزيز حقه من الثناء الذى يستحقه، وهو يقول على سبيل المثال:

«وبدأت الكتيبة الأولى تدريبها وسافرت إلى ميدان القتال يوم ٢/ ٤/ ١٩٤٨ بقيادة البطل الشهيد المرحوم البكباشى أحمد عبدالعزيز،ومعه عدد من الضباط المتطوعين هم: زكريا الوردانى، وعبدالمنعم عبدالرءوف، ومعروف الحضرى، وكمال الدين حسين، وحسن فهمى عبدالمجيد، ومصطفى صدقى، وخالد فوزى، وأنور الصيحى».

«وقد لمع البطل أحمد عبدالعزيز فى هذه الحرب ودأبت الصحف العربية والعالمية على تتبع أنبائه وتحركاته وعملياته الحربية، وأولته من العناية والاهتمام ما لم تول أحداً من قادة الجيوش العربية النظامية ممن يفوقونه فى الرتبة والمنصب، وكان البطل أحمد عبدالعزيز شخصية عسكرية نادرة تتميز بجرأة خارقة وولع شديد بالمغامرة واعتزاز بنفسه».

«اندفعت الكتيبة الأولى من متطوعى الإخوان المسلمين تحت قيادة البطل أحمد عبدالعزيز (وفى صحبته الشيخ محمد فرغلى.. الذى شنقه عبدالناصر عام ١٩٥٤) يوم ٥مايو ١٩٤٨ فوق فلنكات السكة الحديد حتى خان يونس، ثم انطلقت بسرعة مخترقة صحراء النقب مستخدمة تكتيك الضرب والحركة وأخذت تكتسح المستعمرات اليهودية وتعترض القوافل المعادية، وتفتك بها وتغنم أسلحتها حتى وصلت إلى بيت لحم، وأشرفت على مدينة القدس الشريف».

«وقاد الكتيبة الثانية من متطوعى الإخوان المسلمين البكباشى عبد الجواد طبالة وكانت هذه الكتيبة ترافق الجيش المصرى وتشترك معه فى الدفاع عن منطقة غزة، وتتولى حصار بعض المستعمرات اليهودية، وتقوم بحراسة النقط الهامة على خطوط مواصلات الجيش المصرى، ثم استقرت بعد ذلك مع زميلتها الكتيبة الأولى فى بيت لحم عقب استشهاد أحمد عبدالعزيز».

وفيما يبدو لنا من قراءة ما سجله حسين حمودة فإن العمل الفدائى للإخوان المسلمين فى فلسطين قد استمر ناجحا حتى بعد وفاة أحمد عبدالعزيز:

«وتولى قيادة الكتيبتين الأولى والثانية بعد وفاة البطل أحمد عبدالعزيز البكباشى عبدالجواد طبالة وتجمعت الكتيبتان فى منطقة جنوب القدس الشريف حيث كان من نصيب هذه القوات الدفاع عن منطقة الخليل وبيت لحم ومرتفعات صور باهر».

«وتمت المحافظة على هذه المنطقة الهامة حتى تم تسليمها للجيش العربى الأردنى بعد وقف القتال وإعلان الهدنة».

❏

ويمس حسين حمودة نقطة مهمة فى وحدة العرب وبخاصة فى مواجهة الصهيونية حين يتحدث بنقاء وصفاء عن علاقة المسيحيين بالإخوان فى حرب فلسطين فيقول:

«وكم كان جميلاً أن يقوم الإخوان المسلمون بالدفاع عن مقدسات المسيحيين فى فلسطين، إذ كان نصيبهم الدفاع عن مدينة بيت لحم التى تقع على بعد ستة أميال جنوب القدس وهى إحدى المدن المسيحية المقدسة، إذ تقع فيها كثير من آثار المسيحيين وكنائسهم وبخاصة كنيسة المهد التى يحج إليها مسيحيون من جميع أنحاء العالم وغالبية سكانها من المسيحيين العرب».

«وقد احتفى المسيحيون بالإخوان المسلمين عند دخولهم للدفاع عن مدينتهم، وكان الإخوان يبادلونهم هذا الشعور الكريم لما رأوه من إخلاصهم ولما شاهدوه من غيرة صادقة على كرامة العرب، وقد استشهد حول أسوار بيت لحم عدد هائل من شباب الإخوان المسلمين دفاعاً عن مقدسات المسيحيين، وظل الإخوان يدافعون عن مدينة بيت لحم عاماً كاملاً دون أن تقع حادثة واحدة من تلك الحوادث التى تقع عادة بين الجنود والمدنيين من أهل البلاد».

ومن المهم أن نجتزئ للقارئ ما يرويه صاحب المذكرات عن قصة ومأساة الفالوجا :

«وفى ١٤ أكتوبر ١٩٤٨ هاجمت سرية يهودية قرية بيت حانون واستطاعوا احتلالها فى ١٦ أكتوبر ١٩٤٨ بعد مقاومة باسلة من قوات الجيش المصرى التى كانت تحتل البلدة،وبذلك قطع اليهود طريق المواصلات الرئيسى على ساحل البحر الأبيض المتوسط والذى كان يربط مدينة غزة ببقية المناطق فى الشمال حتى أسدود على ساحل البحر. فصدرت الأوامر لقوات الجيش المصرى بالانسحاب من أسدود والمجدل إلى غزة عن طريق شاطئ البحر الأبيض المتوسط لتفادى الطريق المرصوف الذى قطعه اليهود باحتلالهم بلدة بيت حانون.. وكان المفروض أن يصدر قرار انسحاب مماثل لقوات الفالوجا إلى مدينة بئر سبع وبذلك يكون الجيش المصرى قد انسحب إلى خط دفاع ثان هو خط غزة ـ بئر سبع وبذلك يكون الانسحاب منظما».

«ولكن العجيب أن قوات الفالوجا ظلت فى مواقعها حتى أحاط بهم اليهود من كل جانب. وقد ترتب على بقاء قوة معطلة فى الفالوجا قوامها خمسة آلاف رجل ضياع مدينة بئر سبع وما أعقب ذلك من انهيار القطاع الشرقى عسلوج ـ العوجة ثم اقتحام اليهود لحدود مصر الشرقية والزحف حتى مشارف مدينة العريش لتطويق الجيش المصرى المتواجد على الشريط الساحلى رفح/ غزة».

«أما قوة الفالوجا فقد أحكم اليهود حولها الحصار وظنوا أن هذه القوات لا تلبث أن تستسلم غير أن قوات الفالوجا الباسلة خيبت ظنهم ومضت تدافع عن مراكزها باستبسال حتى من الله عليها بالنجاة بعد نهاية الحرب وإعلان الهدنة وغادروا أرض الفالوجا بكامل أسلحتهم فى ١١ مارس ١٩٤٩».

«وقد قام الإخوان المسلمون بجهد رائع فى إمداد قوات الجيش المصرى المحاصرة فى الفالوجا بالمؤن والذخيرة بقوافل الجمال عبر الصحراء، وكان للبطل الصاغ معروف الحضرى جهد مشكور فى هذه الفترة فكان يتولى قيادة هذه القوافل إلى أن وقع فى أسر اليهود وظل فى الأسر حتى تم تبادل الأسرى بعد الهدنة».

«بعد حصار الفالوجا شدد اليهود هجومهم على حامية بئر سبع مفتاح فلسطين الشرقى وعاصمة النقب فاحتلوها يوم ٢٧ أكتوبر ١٩٤٨».

«وكانت القيادة العسكرية المصرية لحملة فلسطين سنة ١٩٤٨ قد رأت بعد استشهاد البطل

أحمد عبدالعزيز تجميع كتيبتى الإخوان الأولى والثانية فى منطقة الخليل وبيت لحم ومرتفعات صور باهر».

«ولم يبق مع القوات المصرية النظامية من المتطوعين إلا الكتيبة الثالثة من متطوعى الإخوان المسلمين فكلفتها القيادة العامة لحملة فلسطين بإرباك مستعمرات النقب، فقام أفراد الكتيبة الثالثة لمتطوعى الإخوان المسلمين بمحاصرة مستعمرات اليهود فى صحراء النقب وتدمير شبكات مواسير المياه حتى كادت هذه المستعمرات أن تموت عطشا».

«وبسقوط بئر سبع يوم ٢٧ أكتوبر ١٩٤٨ فى أيدى اليهود أصبح فى مقدور اليهود التنقل بحرية بين أرجاء صحراء النقب، وأصبح موقف القوات المصرية فى القطاع الشرقى حرجاً للغاية، مما دفع اللواء المواوى قائد حملة فلسطين أن يطلب رسمياً فى عدة خطابات له إلى الأمانة العامة للجامعة العربية تجنيد أكبر عدد ممكن من شباب الإخوان وإرسالهم فوراً إلى ميادين القتال فى فلسطين ليتمكن من السيطرة على الموقف فى القطاع الشرقى، قطاع عوجا - عسلوج - بئر سبع - الخليل - بيت المقدس، وكلف اللواء المواوى الأستاذ الشيخ محمد فرغلى رئيس متطوعى الإخوان فى حرب فلسطين بالسفر إلى القاهرة لاستعجال تجهيز وتعبئة شباب الإخوان المسلمين».

«وفى ١١ نوفمبر ١٩٤٨ قررت الحكومة المصرية سحب اللواء المواوى وتعيين اللواء أركان حرب أحمد فؤاد صادق قائداً لحملة فلسطين، وكان أفراد الكتيبة الثالثة للإخوان المسلمين لا يزالون يحتلون المواقع المحيطة بمستعمرات اليهود».

«وفى ذات يوم صدرت أوامر بسحب الإخوان من تلك المواقع ووضعهم فى معسكر برفح، وبمجرد سحب الإخوان من تلك المواقع بادر اليهود إلى احتلالها، وبذلك انحلت القيود التى كانت تكبل المستعمرات اليهودية بالنقب».

«ولم تمض أيام قليلة حتى احتل اليهود [لعلنا نلاحظ هنا أن حسين حمودة كان مايعبر عن العدو باليهود وهو توجه إخوانى النزعة فى مقابل ما أشاعته الثورة من الحديث عن العدو بمسمى الصهيونية] تبة الشيخ نوران، ولقد حاول الجيش المصرى استردادها فهاجمها بقوات كبيرة فى ٦ ديسمبر ١٩٤٨ ولكن ذهبت محاولاته أدراج الرياح. أما بقية المواقع التى كان يحتلها الإخوان وصدرت لهم أوامر قيادة حملة فلسطين بإخلائها فقد احتلها اليهود».

«فاحتل اليهود تل جمة فى ٥ ديسمبر ١٩٤٨ وتل الفارعة فى ١٨ ديسمبر ١٩٤٨، وكان سحب الإخوان من مواقعهم المنيعة والحد من نشاطهم العسكرى يرجع إلى الإجراءات الشاذة التى اتخذتها حكومة النقراشى قبيل حل جماعة الإخوان فى مصر».

(٣٠)

ويحرص حسين حمودة فى هذه المذكرات على رواية قصة تحرير العسلوج من الاحتلال الإسرائيلى، مستشهداً بشهادة أدلى بها قائد القوات المصرية فى الحرب [اللواء المواوى] ويقول:

«... وإذا بالدول العربية تقبل الهدنة الأولى لمدة أربعة أسابيع تبدأ من ١١ يونيو ١٩٤٨. وقد اغتنم اليهود فرصة الهدنة فهاجموا قرية العسلوج واحتلوها.وكان احتلال العسلوج يعنى قطع مواصلات الجيش المصرى فى القطاع الشرقى من الجبهة المصرية، مما دعا القيادة العسكرية المصرية إلى تنظيم خطة لاستردادها».

«وأترك وصف المعركة الخاصة باسترداد قرية العسلوج للواء أحمد على المواوى القائد العام لحملة فلسطين سنة ١٩٤٨، وهى مقتبسة من شهادة أدلى بها سيادته بين يدى القضاء المصرى فى إحدى قضايا الإخوان المسلمين التى عرفت باسم «قضية سيارة الجيب».

«وكانت إجابة اللواء أحمد المواوى رداً على سؤال وجهه إليه الدفاع فى القضية المذكورة:

«س: هل كلفتم متطوعى الإخوان بواجب خاص عند مهاجمتكم عسلوج؟»

«ج: نعم.. العسلوج بلد تقع على الطريق الشرقى واستولى عليها اليهود أثناء الهدنة..ولهذا البلد أهمية كبرى بالنسبة لخطوط مواصلات القوات المصرية وكانت رئاسة الجيش بالقاهرة تهتم كل الاهتمام باسترجاع العسلوج حتى إن رئيس هيئة أركان حرب الجيش أرسل إلىّ إشارة هامة يقول فيها: (لابد من استرجاع العسلوج بأى ثمن) فكانت الخطة التى وضعتها لاسترجاع العسلوج هى الهجوم عليها من الشرق والغرب».

«فكلفت [الضمير يعود على اللواء المواوى قائد القوات المصرية فى حرب فلسطين] المرحوم البكباشى أحمد عبدالعزيز قائد متطوعى الإخوان المسلمين بإرسال قوة من الشرق من المتطوعين وكانت قوة صغيرة لا تجاوز ثلاثين فرداً كلهم من متطوعى الإخوان بقيادة ضابط برتبة ملازم. وأرسلت قوة كبيرة من الغرب تعاونها جميع الأسلحة ولكن القوة الصغيرة هى التى تمكنت من دخول القرية والاستيلاء عليها».

«ولما سأله المحامون عن السبب فى تغلب القوة الصغيرة أجاب: القوة الغربية كانت من الرديف (احتياط الجيش المصرى العامل) وضعفت روحهم المعنوية بالرغم من وجود مدير العمليات الحربية فيها إلا أن المسألة ليست مسألة ضباط، المسألة مسألة روح، إذا كانت الروح ميتة لا يمكن للضابط أن يعمل شيئاً، لابد من وجود الروح المعنوية العالية».

ويتهى حسين حمودة من هذه القصة المجيدة بالعبرة الخالدة التى يسجلها فى قوله:

«وهكذا تحررت عسلوج على يد قوة صغيرة من متطوعى الإخوان المسلمين بقيادة ضابط ملازم».

وربما يجدر بنا أن نكرر الإشارة إلى قصة احتفاظ عبد المنعم عبد الرءوف بمصحف شريف أهداه له جمال عبد الناصر بمناسبة تحرير العسلوج!!

(٣١)

وربما تنفرد هذه المذكرات بأنها قدمت رؤية واضحة جداً (وإن تكن شخصية) لأزمة عميقة جداً واجهت مصر حين كان النقراشى وحسن البنا يبدوان وكأنهما يتنازعان الزعامة السياسية فى مصر، وانتقل هذا النزاع إلى القوات المشاركة فى حرب فلسطين، ولا نكون منصفين إذا نقلنا رؤية حسين حمود ة على أنها الحقيقة المطلقة، بينما النقراشى غائب عن هذه الدنيا، ولكن لابد لنا أن ننقل هنا (مع إبداء التحفظ) بعض فقرات مما كتبه حسين حمودة مما يصور به هذه القصة من وجهة نظره حيث يقول:

«أصدر النقراشى رئيس الوزراء أوامر مشددة إلى اللواء فؤاد صادق قائد حملة فلسطين الجديد بسحب قوات الإخوان من مواقعهم وسحب أسلحتهم واعتقالهم وإرسالهم كأسرى حرب إلى المعتقلات فى مصر، ولكن اللواء فؤاد صادق رفض بشدة اعتقال هؤلاء المجاهدين واكتفى بسحبهم من مواقعهم وأبقاهم فى معسكر بمنطقة رفح المصرية ومعهم أسلحتهم، وفى الوقت الذى كان فيه حسن البنا يعد قوات كثيفة ليدخل بها إلى فلسطين كان النقراشى يرتكب أبشع حماقة يمكن أن تصدر عن رجل دولة مسئول فى حالة الحرب، ولم تلبث الأنباء أن جاءت بقيام المذبحة، فسيق زعماء الإخوان إلى المعتقلات وكان من بينهم الشيخ محمد فرغلى رئيس الإخوان المسلمين بفلسطين الذى أرسله المواوى ليستعجل حضور شباب الإخوان المتطوعين للجهاد فى فلسطين. وفى ليلة ٧ ديسمبر ١٩٤٨ حوصر معسكر الإخوان برفح بقوات كبيرة من الجيش المصرى وحضر اللواء البردينى ومعه عدد من ضباط البوليس الحربى وطلبوا مقابلة قائد معسكر الإخوان المسلمين».

على أن المفاجئ فى هـذا الموقف التاريخى كله هو ما يرويه صـاحب هذه المذكرات من أنه هو نفسه (وليس أحدا آخر) كان بمثابة الضابط الذى كـلف بقيادة معتقل رفح الذى اعتقل فيه الإخوان المسلمون الـذين كانوا يشاركون فى العمـليات الحربية، مع أنه كان على ما صور لنا نفسه بمثابة الإخوانى المنتمى:

«وانتـهت حرب فلسطيـن باتفاق رودس سـنة ١٩٤٩ وكان مـن شروط الاتفاق سـحب الجيش المصرى كله من فلسطين ويكتفى بلواء مشاة فقط فى قطاع غزة/ رفح».

«وقد وقع اختيار قيادة الجيش المصرى على اللواء الرابع المشاة الذى كنت أخدم فيه للبقاء فى فلسطـين بقطاع غزة/ رفح وتـم سحب قـوات الفالوجا وباقى قوات الجـيش المصرى إلى سيناء ومنطقة القنال ووادى النيل. وطلبت القـيادة المصرية من الإخوان المسلمين برفح تسليم أسلحتهم ومعدات الحرب تمهيداً لترحيلهم لمصر».

«وسلم الإخوان أسلحتهم بلا مناقشة وبدون أى اعتراض، وبعد انتهاء تـسليم الأسلحة تم نقل الإخوان إلى عنـبر كبير جداً فى رفح كان من عـنابر الجيش البريطانى قـبل جلاء الإنجليز عن رفح. وقيل للإخـوان إنهم سيبيتون فى هذا العنـبر ليلة واحدة ليركبوا القـطار فى الصباح إلى القاهرة».

«وقع اختيار قيـادة حملة فلـسطين علىّ لـلإشراف على معتقل الإخوان المسـلمين برفح.. وطلـب منى اللواء فؤاد صادق حسـن معاملة هؤلاء المـعتقلين قائلاً: لقد شارك هؤلاء الشباب من الإخوان المسلمين الجيش المصرى فى الجهـاد ورووا بدماء شهدائهم أرض فلسطين وكانوا جنوداً أبطـالاً أدوا واجبهم كأحسـن ما يكون الأداء. فلا أقل من أن تجـيب لهم كل طلبـاتهم المعقولة ولا تشـعرهم بالندم على ما قدمـوه من تضحيات من أجل بلادهم، فـقلت له: سأبذل جهدى وانصرفت وقلت لنفسى: أهكذا جزاء المجاهدين الصادقين فى هذا البلد؟ لا حول ولا قوة إلا بالله.. وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون».

«فوجئ الإخـوان صباح اليوم الـتالى فوجـدوا العنبر مـحاطاً بقوات مـسلحة مـن الجيش المصرى، ورأيـت أن أخطرهم بـالحقيقة فـقلت لزعـمائهم إن الحكـومة المصريـة قد أصدرت تعليمـاتها لقيادة الجيش المصـرى بفلسـطين باعـتقال الإخوان المجاهدين فترة مـن الزمن حتى تهدأ الأحوال فى مصر. وقلت لهم إنهم سيلقون مـعاملة كريمة جزاء ما قدموه من تضحيات

لأمتهم،وإن جميع طلباتهم المعقولة مجابة، وأرجو ألا تتسببوا فى إحراجى لأنى أنفذ الأوامر الصادرة إلىّ من رؤسائى».

«وجاء اللواء فؤاد صادق فى اليوم التالى فقال: إن الحكومة المصرية طالبته مراراً باعتقال الإخوان المسلمين المقاتلين وكان يراوغ بحجة احتياجه لهم فى القتال الدائر على أرض فلسطين. فلما انتهت الحرب اضطر لتنفيذ أوامر الحكومة وأصدر أمراً لى أمام الإخوان بتلبية جميع طلباتهم المعقولة، وقال الرجل علنا أمام الإخوان: «إن الجيش المصرى لن يستطيع أن يفى هؤلاء الإخوان حقهم من الإكرام وليس فى وسعه إلا أن يواسيهم فى محنتهم كما وقفوا معه واستبسلوا فى معاونته».

«ظل الإخوان فى المعتقل شهرين ثم انضم إليه إخوان صور باهر بقيادة اليوزباشى احتياط محمود بده، ثم انضم إليهم إخوان بيت لحم والخليل. ومضت حياة المعتقلين هادئة قطعها الإخوان فى العبادة وطلب العلم».

(٣٣)

هكذا يتبنى حسين حمودة فى هذه المذكرات وجهة نظر الإخوان المسلمين القائلة بأن الملك والحكومة المصرية كانا يخشيان من تصاعد أو تنامى القوة العسكرية للإخوان المسلمين بسبب الاشتراك فى حرب فلسطين، وأن محاولات الإخوان الجادة فى حرب فلسطين لم تكن فى نظر هؤلاء إلا تمهيدا لحركة يقومون بها فى مصر. ومع أن هذا لم يحدث على نحو ما توحى به رؤية الإخوان، فإن حسين حمودة يطرح وجهة النظر هذه بقوة وجاذبية ويقول:

«كان الملك فاروق ينظر بعين الريبة إلى الإخوان المسلمين ويخشى أن يؤلفوا جيشاً فى فلسطين يكون خطراً على عرشه. حقاً لقد كان الإخوان المسلمين خطراً على إسرائيل، وقد فهم اليهود ذلك حق الفهم فى ميدان القتال، فأوحى اليهود إلى الإنجليز الذين أوحوا إلى الملك فاروق وأدخلوا فى روعه أن استمرار الإخوان فى جهادهم بفلسطين والنشاط الذى يجريه حسن البنا فى مصر لتجهيز قوات إخوانية كثيفة ليدخل بها فلسطين، وإيقاظه لروح الجهاد الدينى فى الشعب المصرى، سيصبح خطراً داهماً على عرش فاروق. فأمر الملك فاروق رئيس وزرائه محمود فهمى النقراشى باتخاذ الإجراءات اللازمة للبطش بجماعة الإخوان المسلمين واستئصال شأفتهم».

«ولقد سبق أن ذكرت أن اللواء المواوى طالب بإرسال أكبر عدد من متطوعى الإخوان

المسلمين وإرسالهم فوراً إلى ميدان القتال بفلسطين وسافر لهذه الغاية الشيخ محمد فرغلى رئيس متطوعى الإخوان فى حرب فلسطين إلى القاهرة بتعليمات مكتوبة من قائد حملة فلسطين اللواء المواوى».

(٣٤)

ويورد حسين حمودة راويا عن محمود لبيب وجهة نظر الإخوان من موقف محمود فهمى النقراشى باشا منهم فى أثناء حرب فلسطين، ويحرص الإخوان فى الرواية التى يوردها ويعرضها (أو يتبناها) حسين حمودة على أن يصوروا النقراشى فى صورة السياسى الأخرق الذى آثر النجاح فى معركة داخلية على النجاح فى المعركة الحربية مع العدو، ومع أن الوقائع والمنطق لا يخدمان رؤية حسين حمودة التي يوردها، فإننا لابد وأن نعرض وجهة نظره:

«ولقد أخبرنى الصاغ محمود لبيب أن عبد الرحمن عزام أمين الجامعة العربية قد استدعاه فى ذلك التاريخ ورجاه أن يعمل على تجنيد أكبر عدد ممكن لأن خطورة الموقف العسكرى فى فلسطين تتطلب إرسالهم على جناح السرعة. ومضى محمود لبيب فاتصل بشعب الإخوان فى جميع أنحاء مصر وطلب تجهيز أكبر عدد ممكن من الأفراد، ولكن ما إن تناهى النبأ إلى مسامع النقراشى رئيس الوزراء حتى رفض قبول الفكرة رفضاً باتاً».

«ولم يستطع محمود لبيب فهم أسباب الرفض فى حينه حتى جاءت الحوادث الغريبة بعد ذلك لتعلن الحقيقة المرة.. ذلك أن النقراشى كان مشغولاً بتنظيم خطة للفتك بجماعة الإخوان المسلمين ومحوها من الوجود، ولو أدى الأمر إلى تعريض جيش مصر فى فلسطين لأفدح الأخطار وتعريض الأرض التى اكتسبها بدمائه إلى الضياع وتسليمها لليهود بلا قتال».

«إذ أصدر النقراشى رئيس الوزراء أوامر مشددة إلى اللواء أحمد فؤاد صادق قائد حملة فلسطين الجديد بسحب قوات الإخوان من مواقعهم وسحب أسلحتهم واعتقالهم وإرسالهم كأسرى حرب إلى المعتقلات فى مصر. لكن اللواء فؤاد صادق رفض بشدة اعتقال هؤلاء المجاهدين، واكتفى بسحبهم من مواقعهم وأبقاهم فى معسكر بمنطقة رفح المصرية ومعهم أسلحتهم».

«وفى الوقت الذى كان فيه حسن البنا يعد قوات كثيفة ليدخل بها إلى فلسطين، كان النقراشى يرتكب أبشع حماقة يمكن أن تصدر من رجل دولة مسئول فى حالة الحرب».

«ولم تلبث الأنباء أن جاءت بقيام المذبحة، فسيق زعماء الإخوان إلى المعتقلات وكان من

بينهم الشيخ محمد فرغلى رئيس الإخوان المسلمين بفلسطين الذى أرسله المواوى ليستعجل حضور شباب الإخوان المتطوعين للجهاد فى فلسطين».

«وفى ليلة ٧ ديسمبر ١٩٤٨ حوصر معسكر الإخوان برفح بقوات كبيرة من الجيش المصرى وحضر اللواء البردينى ومعه عدد من ضباط البوليس الحربى وطلبوا مقابلة قائد معسكر الإخوان المسلمين».

«وقال اللواء البردينى لقائد الإخوان: لقد أبلغتنا الحكومة المصرية أن قراراً صدر بحل الإخوان بمصر والقائد العام اللواء فؤاد صادق بناء على طلب الحكومة يطلب تسليم الأسلحة ومعدات الحرب خشية أن يركب بعض شباب الإخوان رءوسهم ويرتكبوا بعض الحماقات يكون فيها أبلغ الضرر. وهم شبان فى مقتبل العمر متحمسون وقد لا يقدرون عواقب تصرفاتهم فى هذه المرحلة الخطيرة التى يجتازها الجيش المصرى، وأنت رجل عاقل، فأرجو ألا تمانع فى تسليم الأسلحة ومعدات الحرب. فقال له قائد الكتيبة الثالثة من متطوعى الإخوان: إن مسألة حل الإخوان المسلمين أمر غير وارد وهذه الدعوة غير قابلة للحل لأنها دعوة الله وستجد حتماً من يعمل لها من غير الإخوان المسلمين».

«أما خشية الجيش من قيام حركة انتقامية فى الميدان فتلك خشية لا موضع لها على الإطلاق. فإن إيمان الإخوان بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم يمنعهم من التفكير فى مثل هذه الأعمال، وإن هؤلاء الشباب الذين باعوا أنفسهم لله لن يختموا جهادهم بضرب وجوه المؤمنين من إخوانهم ضباط وجنود الجيش المصرى».

«وعلى هذا فتسليم الأسلحة لا مبرر له، وعلى القائد العام أن يطمئن تماماً ويبلغ المسئولين فى مصر بهذا الرأى، وأن يتحمل التبعة وهو رجل شريف وشجاع».

«وأخيراً اتفق اللواء البردينى مع قائد الإخوان على كتمان الأمر حتى يقابل قائد الإخوان اللواء فؤاد صادق فى الصباح. وذهب قائد الإخوان فى الصباح لمقابلة اللواء فؤاد صادق الذى قال له: إنه فكر فى الأمر فاستقر رأيه على معالجته بالحكمة وأنه سيترك للإخوان حرية الاختيار فإن رأوا كلهم أو بعضهم مغادرة الميدان والذهاب إلى بلادهم فى مصر فسوف يسهل لهم أمر العودة، وإن رأوا أن يستمروا فى الحرب مع الجيش المصرى فسيظلون فى أماكنهم دون أى تغيير فى أوضاعهم. على أن يرجو أن يتدبر الإخوان الأمر وأن يعلموا أن الجيش المصرى فى حاجة إليهم وإلى جهودهم ولا يليق بهم التخلى عنه فى هذه الظروف».

«ثم طلب جمع الإخوان فى موعد معين ليتحدث إليهم ولما عاد قائد الإخوان إلى المعسكر وجد أنباء قرار حل الإخوان قد سبقته إلى أفراد المعسكر عن طريق أجهزة الراديو. فشرح لهم

ما دار بينه وبين اللواء فؤاد صادق وتشاور الإخوان فى الأمر واستقر رأيهم بالإجماع على البقاء ومواصلة القتال مع الجيش المصرى حتى تضع الحرب أوزارها».

«وفى اليوم التالى حضر اللواء فؤاد صادق وعرف إجماع الإخوان على البقاء لمواصلة القتال فى سبيل الله فحياهم اللواء صادق على روحهم الوطنية الطيبة. هذا كان رأى شباب الإخوان المقاتل مع الجيش المصرى، فماذا كان رأى قيادة الإخوان فى مصر».

«لقد أرسل حسن البنا خطاباً سرياً مع أحد الإخوان يقول فيه: لا شأن للمتطوعين بما يجرى فى مصر، ومادام فى فلسطين يهودى واحد يقاتل فإن مهمتهم لم تنته، وأوصى الإخوان بالهدوء وعدم مقاومة الحكومة فى إجراءاتها التعسفية حتى لا يستفيد الإنجليز واليهود من الفتنة لأن الإخوان المسلمين لو قاوموا الحكومة لتحولت الفتنة إلى حرب أهلية لن يستفيد منها سوى أعداء مصر».

«وأمر حسن البنا الإخوان أن يتحملوا المحنة وأن يسلوا أكتافهم للسعديين ليقتلوا ويشردوا كيف شاءوا حرصاً على مصلحة شعب مصر وإبقاء على وحدة الأمة وتفادياً لنشوب حرب أهلية لا يستفيد منها سوى أعداء الإسلام».

«وصدع الإخوان بالأمر وتحملوا مصائب المحنة بصبر وجلد، ومضى السعديون فى خطتهم الطائشة يعتقلون ويعذبون حتى بات أى فرد فى مصر تحت رحمة البوليس السياسى».

«وكان طبيعياً أن تبرر الحكومة المصرية خطتها فأخذت وسائل الإعلام التابعة لها تشيع أنباء مختلقة عن مؤامرات وهمية تدبر فى الخفاء لقلب نظام الحكم، وطفحت الصحف الحكومية بتفاصيل هذه المؤامرات الوهمية ولم يسمح للإخوان بالدفاع عن أنفسهم وفرض التعتيم الإعلامى التام لكيلا يعرف شعب مصر حقيقة الأمور».

(٣٥)

وعلى حين تختلف الآراء فى قصة الأسلحة الفاسدة إلى حد أن أحد قادة الضباط الأحرار وهو ثروت عكاشة يميل إلى أنها كانت قصة غير حقيقية مستنداً فى هذا الرأى إلى قرار البراءة الذى صدر عن القضاء المصرى، فإن حسين حمودة يعطينا رواية أخرى أكثر معقولية، ويعطينا تفسيراً حكيماً يستحق أن ننقله عنه هنا.

ونحن نرى رؤية حمودة مكونة من ثلاث جزئيات:

- فالمسئول هم أعضاء اللجان التى اشترت الأسلحة.
- ولا يُعقل أن يكون الملك مسئولاً أو متواطئاً.
- هذا فضلاً عن أن الأسلحة الفاسدة مع وجودها بالفعل لم ترسل إلى ميدان القتال.

وهى رؤية تتسم كما قلنا بالمعقولية والتوازن:

«عندما دخل الجيش المصرى فلسطين فى ١٥ مايو ١٩٤٨ كنت مدرساً بمدرسة المشاة. وقد أرسلت حكومة مصر فى ذلك الوقت لجاناً لشراء الأسلحة من دول أوروبا، وكانت الأسلحة الخاصة بسلاح المشاة ترسل عينة منها لمدرسة المشاة لتجربتها وتدريب الضباط والجنود الجدد عليها قبل إرسالها لميادين القتال، وفى يوم من الأيام الأخيرة لشهر مايو ١٩٤٨، كلفت بترجمة كتاب من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية عن سلاح جديد اسمه (Bigit mortar) اشترته إحدى لجان مشتريات السلاح من أسبانيا».

«وأثناء قيامى بعملية الترجمة فى مدرسة المشاة حضر البكباشى عبدالعليم منصور مهران ومعه البكباشى مهندس مصطفى النيال وقالا تفضل معنا إلى تبة البندرول (جبل صغير بالقرب من مدرسة المشاة) لتجربة السلاح الجديد، فقلت لهما تفضلا وسألحق بكما بعد أن أتم جمع الورق الموجود فى يدى وأحفظه تحت القفل فى الخزينة، فذهب البكباشى مهران والمهندس النيال إلى مكان التجربة عند تبة البندول، وذهبت لألحق بهما بعد قليل من الوقت لا يتجاوز ربع ساعة، فسمعت صوت انفجار شديد تحطم على أثره زجاج شبابيك مدرسة المشاة، فأسرعت عدواً إلى تبة البندرول فوجدت أنهم أطلقوا أول دانة من هذا المدفع فانفجرت الدانة داخل الماسورة الخاصة بالمدفع، وقتل البكباشى مهران وأصيب المهندس النيال إصابة خطيرة فى رأسه أودت بحياته بعد ذلك، كما قتل تسعة من ضباط الصف المعلمين من قوة مدرسة المشاة كانوا جميعاً فى التجربة مع البكباشى مهران والمهندس النيال».

«وأرى أن المسئول الأول عن إحضار الأسلحة الفاسدة لمصر هى اللجان التى أرسلت إلى أوروبا لشراء الأسلحة والذخائر وأستبعد تماماً أن يكون الملك فاروق شريكاً فى هذه الجرائم، لأن الملك هو القائد الأعلى للجيش وانتصار الجيش فخر للملك ولاشك فى هذا، مع العلم بأنه لم يرسل إلى ميدان القتال بفلسطين سنة ١٩٤٨ أية أسلحة فاسدة لأن السلاح كان يجرب فى مصر قبل إرساله إلى ميدان القتال».

(٣٦)

ولا تخلو مذكرات حسين حمودة من تقييم موضوعى أو ذاتى أو ممتزج الموضوعية والذاتية لكثير من شخصيات عهد الثورة.

ويحظى الرئيس محمد نجيب بإنصاف حسين حمودة فى أكثر من موضع من هذه المذكرات، حتى إنه يعترف بأن شخصه كان أحد أهم أسباب نجاح الثورة، وهو يروى رواية مهمة عن تفضيل عبد الناصر الابتعاد عن اللواء أحمد فؤاد صادق لما رآه من حرصه على معرفة كافة تفاصيل التنظيم وأفراده، وهى فكرة قريبة من الصواب ومن المنطق بعدما تكشفت بحكم التاريخ طبائع شخصية الرئيس عبدالناصر، وأرى أن من الأوفق الانتصار لها على الروايات الأخرى التى وردت عن اعتذار ا للواء أحمد فؤاد صادق عن قيادة الحركة لنقرأ هذه الرواية:

«لقد قام بالثورة ٩٩ ضابطا من ضباط الجيش ليلة ٢٣ يوليو ٥٢، بينما كان بالجيش المصرى فى ذلك الوقت حوالى خمسة آلاف ضابط».

«ومعظم الضباط الثائرين كانوا من رتب الملازم واليوزباشى والصاغ ـ وأعلى رتبة كانت رتبة البكباشى ـ واثنين من رتبة القائمقام وهما أحمد شوقى ويوسف منصور صديق. ولنجاح الثورة يلزم وجود رتبة كبيرة على رأس الثائرين».

«وقد سبق أن عرض تنظيم الضباط الأحرار قيادة الثورة على الفريق عزيز المصرى فاعتذر لكبر سنه وضعف صحته، ثم عرضت قيادة الثورة على اللواء أحمد فؤاد صادق قائد حملة فلسطين».

«وكان رد اللواء فؤاد صادق أنه سوف يقوم بعمل مثل العمل الذى قام به أحمد عرابى سنة ١٨٨١، فإذا فشلت الثورة فستكون رقبته هى الثمن».

«لذلك فهو يريد أن يستوثق من إمكانية نجاح الثورة، وعليه فهو يطلب أن يجتمع بجميع الضباط المشتركين فيها خلية من وراء خلية حتى يتعرف على جميع الضباط، وحتى يطمئن على إمكانية النجاح».

«وعندئذ رفض عبد الناصر الاستمرار فى المفاوضات مع اللواء فؤاد صادق لأن معنى ذلك أن يفقد عبد الناصر سيطرته على تنظيم الضباط الأحرار، وبالتالى تنهار آماله التى يتطلع إليها».

«ثم عرضت قيادة الثورة على اللواء محمد نجيب فقبلها بلا قيد ولا شرط».

«وكان اللواء محمد نجيب يتمتع بشعبية ضخمة بين ضباط الجيش وبمجرد صدور البيان الأول للثورة باسم اللواء محمد نجيب انضم كافة ضباط الجيش للثورة، وقد كان من الممكن أن تتحرك قوات أخرى موالية للملك للقضاء على الثورة، ولكن زعامة وشعبية محمد نجيب حالت دون الحرب الأهلية ومكنت لنجاح حركة الجيش يوم ٢٣ يوليو ٥٢».

❑

كذلك يحظى يوسف منصور صديق بتقدير صاحب هذه المذكرات، وهو يعده من أسباب نجاح الثورة بشجاعته وتصرفه وسرعة هذا التصرف.

❑

ويحظى خالد محيى الدين فى هذه المذكرات ـ شأن حظه وحظوته فى كل المذكرات التى يتناولها كتابنا هذا فى أبوابه المختلفة تقريباً ـ بالثناء الجميل والتقدير لشخصيته ، وهذا هو حسين حمودة يتحدث عنه بالخير فيقول:

«... فى عام ١٩٤٧ نقل خالد محيى الدين إلى التدريب الجامعى وأراد انتهاز الفرصة للاستزادة من العلم فالتحق بكلية التجارة حيث اتصل به جماعة من الماركسيين وأقنعوه بمذهبهم .وقد ناقشنى خالد محيى الدين فى يوم من أيام عام ١٩٤٧ وكنا سويا فى منزله بباب الخلق إنه نشأ فى أسرة دينية وأبوه من أتباع إحدى الطرق الصوفية وأنه ـ أى خالد محيى الدين ـ يشاهد لأتباع هذه الطرق الصوفية خرافات تأباها العقول السليمة مما عقده من ناحية رجال الدين . فقلت له لك بعض الحق يا أخى فإن كثيرا من الخرافات أدخلها بعض أدعياء الصوفية فى أفهام وعقول العوام من الناس . والإسلام برىء من الخرافة ومن كل شئ غير معقول لأن الإسلام دين العقل والعلم .

«وقد أعجبنى فى خالد محيى الدين صراحته وعدم لجوئه إلى إخفاء ما يعتقده كما يفعل المنافقون ».

«فكان خالد محيى الدين واضحا وصريحا وكان شهما فى المحافظة على الأسرار التى ائتمن عليها أثناء صلته بالإخوان المسلمين ».

«وإنى أقرر هنا عن اقتناع تام أن اقتناع خالد محيى الدين بالماركسية اللينينية إنما هو فى الجانب الاقتصادى فقط من هذه الفلسفة الماركسية».

«وبالنسبة لإنكار كارل ماركس لوجود الله وإنكاره للأديان وقوله عنها إنها أفيون الشعوب فلا أعتقد على الإطلاق أن هذه المقولة يؤمن بها خالد محيى الدين».

هذا هو ملخص رأى حسين حمودة فى خالد محيى الدين، ولابد أن نكرر على القارئ هنا ما ذكرناه فى الباب الرابع من هذا الكتاب من أن عبدالمنعم عبدالرءوف كان هو الآخر يتحدث عن خالد محيى الدين بصفة البطل.

❑

ويحظى سعد توفيق أحد الضباط السبعة الذين بايعوا الإخوان فى بداية ١٩٤٦ بتقدير عميق من المؤلف الذى كان يرتبط به بصلة النسب، فقد كان زوجا لأخته، وهو يصل فى تقديره إلى أن يذكر أن الدور الذى قام به فى حركة الجيش كان أول أسباب نجاح حركة الجيش فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ويقول:

«كان سعد حسن توفيق يعمل ضابط نوبتجى برتبة رائد ليلة قيام الثورة فى إدارة المخابرات الحربية، التى كانت موجودة بالدور الأرضى بمبنى رئاسة هيئة أركان حرب الجيش المصرى بكوبرى القبة، وهو المبنى المقابل للكلية الحربية فى ذلك الوقت (الكلية الفنية العسكرية حاليا)».

«لاحظ سعد توفيق وصول الفريق حسين فريد رئيس هيئة أركان حرب الجيش إلى مكتبه حوالى الساعة ٩ مساء يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٢، وبدأ يستدعى قادة الجيش المصرى تليفونيا للحضور لاجتماع عاجل بمبنى رئاسة الجيش.. فترك سعد توفيق النوبتجية وذهب إلى منزل جمال عبد الناصر فى كوبرى القبة وأخبره بأن الثورة انكشف أمرها، وطلب من عبد الناصر سرعة التصرف وإحضار قوة من قوات الثورة على جناح السرعة للقبض على المجتمعين فى رئاسة الجيش».

وربما ينفرد حسين حمودة بمثل هذا الحديث عن بطل أبعد وأوذى وتوفى مبكرا، ولكن تتابع الأحداث ليلة الثورة لا يمنع من صدق رواية حسين حمودة عن هذا الدور الخفى الذى قام به هذا الجندى المجهول.

❑

كذلك فإن حسين الشافعى هو الآخر يحظى بهذا التقدير وبالثناء على دوره ليلة الثورة، وهو حين يتحدث عنه فى صفحة ٨٩ مثلاً يقول: «إنه رجل شجاع ذو أخلاق حميدة ونزيهة وكان له دور رئيسى مع ثوار يوليو ١٩٥٢ فى سلاح المدرعات».

(٣٧)

وعلى النقيض من هذين الزميلين تحظى شخصيات كثيرة من أقطاب عهد الثورة بانتقاد صاحب هذه المذكرات.

وفى هذه المذكرات يذكر لنا حسين حمودة أنه كان قد اكتشف خصال حمزة البسيونى منذ مرحلة مبكرة جداً حين زامله فى عام ١٩٤٥ ووجده إنساناً غير طبيعى يتميز بالتوحش والقسوة والإجرام، وأنه لم يدر فى ذلك الوقت ما تخبئه الأقدار لشعب مصر على يد ذلك السفاح المجرم(!!) (صفحة ٤٠).. وللقارئ أن يقارن ما ينبئ عنه حديث حسين حمودة من تقيم لحمزة البسيونى بتقيم آخر مناقض تضمنته الفقرات التى كتبها الأستاذ فتحى رضوان فى كتابه «٧٢ شهرا مع عبدالناصر» عن هذا الرجل ووصفه فيها بأنه كان شبه ملاك!! ولا يعجبن القارئ فقد كانت لمبالغات الأستاذ فتحى رضوان هذه الطبيعة وهذا الطابع!!

وهذه هى الفقرات التى يروى فيها حسين حمودة ذكرياته عن موقف مبكر لحمزة البسيونى:

«فى ٦ يونيو ١٩٤٥ صدرت الأوامر للكتيبة الثالثة للمشاة والتى كنت أخدم بها فى ذلك التاريخ، بالتحرك لأسوان، فسافرت معها بالسكة الحديد».

«وفى مدينة قنا وصلت تعليمات عاجلة بإنزال ٤٠ صف وعسكرى من الكتيبة لتوزيعهم كإمدادات لمقاومة الجراد على سواحل البحر الأحمر بواقع ٢٠ عسكريا لمدينة الغردقة، و٢٠ عسكريا لمدينة القصير».

«فنزلت من القطار فى محطة سكة حديد مدينة قنا بناء على تعليمات قائد الكتيبة ومعى ٤٠ صف وعسكرى يوم ٧ يونيو ١٩٤٥».

«وفى يوم ٨ يونيو ١٩٤٥ تحركت السيارات من قنا إلى سفاجة ثم الغردقة ثم القصير ثم إلى مناجم الذهب بالسكرى».

«ثم سافرت من مناجم الذهب بالسكرى إلى إدفو بالسيارات مع قول عربات من وزارة الزراعة مع الملازم أول حمزة البسيونى، وفى الطريق من السكرى إلى إدفو كنت أنا وحمزة البسيونى فى السيارة الأمامية، وكان حمزة البسيونى يقود السيارة بنفسه، ووراءنا قول عربات وزارة الزراعة وبه مهندسون زراعيون من الوزارة المذكورة لا أذكر أسماءهم الآن».

«وأثناء السير فى الصحراء شاهد حمزة البسيونى غزالة تجرى فى الصحراء فترك الطريق المرصوف وجرى بالسيارة وراء الغزالة أملاً فى اصطيادها».

«وظل يطاردها حوالى ساعة ولم يستطع اللحاق بها لأنها كانت أسرع من السيارة وهربت منه فى الجبال. فعدنا إلى الطريق المرصوف لنبحث عن سيارات وزارة الزراعة فوجدنا قول سيارات الزراعة متوقفاً على الطريق فى النقطة التى تركناه فيها والمهندسون الزراعيون ترجلوا من سياراتهم وفى انتظارنا».

«ولما وصلنا عندهم تكلم أحدهم وكان رجلاً يكبرنا فى السن بكثير وقال: «إيه شغل العيال ده، تسيبونا فى الصحراء وتطلعوا تجروا وراء الغزال، وتقعدوا ساعة، مش تلاحظوا إن معكم ناس».

«فما كان من حمزة البسيونى إلا أن جرى وأحضر بندقية من السيارة وحاول تعميرها بالرصاص وقتل هذا المهندس الزراعى، فجريت نحو حمزة البسيونى وخطفت منه البندقية وقلت له: «أنت مجنون.. هم لهم حق وإحنا اللى غلطانين». وطيبت خاطر السادة مهندسى الزراعة واعتذرت لهم عن هذه الواقعة وكانوا جميعاً أكبر منا فى السن فقبلوا الاعتذار».

«من هذه الواقعة أيقنت أن حمزة البسيونى إنسان غير طبيعى وأن خلق التوحش والقسوة والإجرام سجية فيه، ولم أدر فى ذلك الوقت ما تخبئه الأقدار لشعب مصر على يد ذلك السفاح المجرم حمزة البسيونى».

(٣٨)

كذلك يخصص حسين حمودة كثيراً من وقته فى هذه المذكرات لتحليل شخصية شمس بدران ودوره فى عهد عبدالناصر وذلك فى أكثر من موضع، لكنه يركز على هذا الموضوع فى صحفات ١٤١ ـ ١٤٥.. وهو لا يتناوله كشخص فحسب، ولكنه يتناول الموضوع كله فى ضوء بناء الدولة والقوات المسلحة، وأدوار القادة، والأشخاص، ويحلل لنا الأخطاء التى وقعت فيها الثورة بإسناد مثل هذه المهام إليه ، والآثار التى ترتبت على مثل هذا الأسلوب.. إلخ). كما يتناول «شمس» ودوره فى المؤامرة التى اتهم فيها جمال ربيع فى صفحة ٢١٣ وما بعدها.

وإذا أضفنا لفقرات حسين حمودة فقرات مهمة أخرى رواها عبدالفتاح أبو الفضل ونقلناها عنه أو أشرنا إليها فى الباب السابق من كتابنا هذا، لأمكن لنا أن نفهم ما يحب كثيرون أن يتجنبوه عندما يأخذون بتعميم الأحكام وينكرون أن يكون شخص واحد (مثل شمس بدران) بمثابة مصدر متجدد لكثير من الفساد وسوء التصرف.

وعلى النقيض من هـذين فإن حسين حمودة يعتز (صفحة ٤١) بزمالته لشعراوى جمعة ويذكر أنه كان مـن الضباط الممتازين، وأنه لم يـكن له أى تصور سياسى كما أنـه لم يكن من الضبـاط الأحرار، ولم يشـترك فى الثورة ولـم تكن له صـلة بالإخوان المسـلمين ولاغـيرهم، وكذلك فإنه فى صفحة ١٠٢ يثنى ثناء جماً على محمد أحمد سكرتير عبدالناصر.

وهؤلاء الأربعة (حمزة البسيونى، شمس بدران ، شـعراوى جمعة، محمد أحمد) يمثلون نموذجيـن مختلفـين للشخـصيات البارزة فـى عهد عبدالـناصر عندمـا يواجهون الحكـم على شخصياتهم بعد سنوات من واحد من الذين ظلموا بشدة فى عهد عبدالناصر.

وينبغى لى ـ بعد هذا ـ التنبيه إلى أن هـذه المذكرات لا تخلو من إشارات مفيدة إلى وقائع محددة قام بها أشـخاص معينون فى مراحل وأدوار معـينة من عهد الثورة ، على سـبيل المثال هذه هـى أول مذكـرات أجد فيـها حـديثا عـن دور لعـلى صـبرى فى الاتـصال بـالمعتـقلـين والمسجونين من الإخوان (راجع صفحة ١١٠).

وفى خاتمـة المذكرات روايات مـهمة عن محـاولة الهروب مـن سجن الواحـات وخطاب حسين حمودة إلى مجـلة «المسلمون» بعد ما نشرت مذكرت سيد قطـب التى تعرضت لهذه الواقعة (راجع صفحة ٢١٦ وما بعدها، وما قبلها أيضاً).

ومما يتمـيز به هذا الكتـاب عن غيره من كتـب المذكرات التى تنـاولت نفس الفتـرة ونفس الأحداث أنه يقدم سيرتين ذاتيتين مهمتين لاثنين من أقطاب الحركة الوطنية. ففى هذا الكتاب ملخص ممتاز لسيرة حياة الفريق عزيز عـلى المصرى وظروف دراسته فى مصر وتـركيا وألمانيا وفرنـسا، والحروب التـى اشترك فـيها، وكـذلك الحركات الـسرية، والـوظائف الـتى تقلـدها وظروف تركه لهذه الوظائف. ويمكن للقارئ أن يرجع إلى الصفحات ٢١ وحتى ٢٤ ليطالع هذه السيرة الحية الحافلة بالإنجاز والطموح.

وفى هذا الكـتاب أيضاً سـيرة ممتـازة للصاغ محمـود لبـيب (صفحتى ٢٨ و٢٩) وقد نـقلنا عن صاحب هذه المذكرات معظم ما فيها، وإن لم تكن السيرة التى يقدمها المؤلف عن محمود لبيب بنـفس القدر من الثراء ـ والإعجاب والانبـهار ـ الذى قدم به حسين حمـودة سيرة عزيز المصرى، وربما كان ذلك بسبب الاختلاف بين تاريخ حياة الشخصيتين.

(٣٩)

ويتضـمن هذا الكتاب أول مـا نشر ـ فى صورة مـذكرات شخصيـة ـ عن تنظيم الـضباط الإخوان فى الجيش (وقـد نشرت نفس المعلومات بـعد ذلك مع اختلافات طفيـفة جداً لاتكاد

تمنع القول بأن المعلومات نشرت بالنص، وذلك فى مذكرات عبدالمنعم عبدالرءوف (١٩٨٨) وخالد محيى الدين (١٩٩٢) وغيرهما.

وتضيف رواية حسين حمودة عناوين البيوت التى كان هؤلاء يجتمعون فيها، فبيت عبدالمنعم عبدالرءوف فى السيدة، وبيت عبدالناصر عند تقاطع شارع أحمد سعيد بشارع رمسيس، وبيت كمال الدين حسين فى السيدة، وبيت خالد محيى الدين فى شارع الخليج المصرى فى الحلمية ثم فى منيل الروضة، وبيت حسين حمودة فى حمامات القبة.

كذلك فإن حسين حمودة يحدد فترة العمل السرى بأنها امتدت أربع سنوات وأربعة أشهر، ويقف بحركتهم عند ١٥ مايو ١٩٤٨ حيث بدأت حرب فلسطين، ومن ناحية ثالثة فإن حسين حمودة يحدد لنا زمن واقعة البيعة التى تمت على المصحف والمسدس بأنها تمت فى أوائل ١٩٤٦.

❑

ومع أن هذه المذكرات لاتحفل بالطرائف إلا أنها لاتخلو منها ومن ذلك أن حسين حمودة يعطينا فكرة يصور بها أو يقدم نموذجاً لإحدى صور سوء التفاهم الذى حدث فى بداية نشاط الإخوان الضباط فى ١٩٤٦ فيروى لنا هذه الحادثة:

«اجتمعنا نحن الضباط السبعة المذكورين أعلاه فى منزل جمال عبدالناصر فى العباسية (فى شارع فرعى بالقرب من تقاطع شارع أحمد سعيد بشارع الملكة نازلى.. رمسيس الآن)، وكان ذلك فى عصر يوم من أيام ١٩٤٦، وحضر شاب قصير نحيف أبيض يلبس الملابس الإفرنكية وعرفنا بنفسه وقال إن اسمه حجازى.. فسألناه عن اسمه بالكامل فقال إن اسمه الحركى حجازى ولا داعى لمعرفة معلومات عنه أكثر من ذلك ، وما لبث أن أخرج حجازى هذا مسدساً صغيراً بمشط من جيبه وأخذ يشرح لنا طريقة استعمال هذا المسدس».

«دهشنا نحن الضباط لهذا التصرف الساذج والغريب، وطلبنا من حجازى أن يتوقف عن الاستمرار فى هذا الشرح وأن يرسل لنا عبدالرحمن السندى ، وحددنا له موعد ومكان الاجتماع القادم مع السندى ، جاء عبدالرحمن السندى فى المكان والزمان المحددين وتكلم جمال عبدالناصر فقال: نحن ضباط صناعتنا الأسلحة واستعمالاتها ، فإذا كنتم تريدون الاستفادة من خبرتنا فلا مانع لدينا ، فاعتذر السندى وقال لقد حدث خطأ غير مقصود ، وإن حجازى كان موفداً لتدريب خلية من المدنيين على استعمال المسدس فأعطاه العنوان الخاص بجمال عبدالناصر خطأ وسهوا».

«وبدأنا مرحلة جديدة فى تدريب شباب الإخوان المسلمين ، قمت أنا وكمال الدين حسين وخالد محيى الدين بترجمة كتاب عن حرب العصابات من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية،

وكنا نعقد حلقات الترجمة يومياً فى منزلى بحمامات القبة بعد صلاة العصر، وبعد أن فرغنا من الترجمة أعطيتهـا لجمال عبدالناصر الذى قام بطبعها فى مطبعة الكلية الحربية حيث كان يعمل مدرساً بها، وبعد الطبع أرسل جمال عبدالناصر النسخ المطبوعة إلىّ فى منزلى بحمامات القبة مع أحد ضباط صف الكلية الحربية وكان هذا الأخير محل ثقة جمال عبدالناصر، وسلمت بدورى جميع نسخ كتاب حرب العصابات بعد ترجمتها إلى العربية لعبدالرحمن السندى رئيس التنظيم السرى المدنى للإخوان المسلمين، وقد قام عبدالرحمن السندى بتوزيع نسخ هذا الكتاب بمعرفته على أفراد التنظيم السرى المدنى التابع له».

(٤٠)

ويقدم لنا حسين حمودة فى مذكراته فكرة تفصيلية عن نشاط تنظيم الإخوان الضباط فى تدريب شباب الإخوان المسلمين حيث يقول:

«وبدأنا بعد ذلك مرحلة جادة فى تدريب شباب الإخوان المسلمين، وكانت التدريبات تتم فى صحراء حلوان وجبل المقطم وفى محافظة [يقصد: مديرية] الشرقية، ومحافظة الإسماعيلية، وقد اشترك جمال عبدالناصر معى فى تدريب شباب الإخوان المسلمين عامى ١٩٤٦ و١٩٤٧، وكان التدريب يتم على الأسلحة الصغيرة مثل الطبنجات والبنادق والرشاشات القصيرة والقنابل اليدوية وأساليب النسف والتدمير بأصابع الجيلجنيت وأسلوب استخدام زجاجات المولوتوف ضد دبابات العدو، والتدريب كان يتم لرؤساء الخلايا وهم يدربون الأفراد التابعين لهم بدورهم، وذلك لأن معرفة أفراد التنظيم بالكامل لأى شخص غير مطلوبة للأمن السرى».

ويلمح لنا حسين حمودة بطبيعة العلاقة بين تنظيم الإخوان الضباط وجماعة الإخوان المسلمين من ناحية، وبين الجمعية السرية التى كان يتزعمها أنور السادات والتى تولت اغتيال أمين عثمان، وهو يذكر فى صراحة أنهم ـ أى الضباط الإخوان ـ كانوا ينوون قتل أمين عثمان لولا أن محمود لبيب طلب منهم عدم تنفيذ عملية اغتيال أمين عثمان، وقال إن «تشكيلاً سرياً آخر سينفذ القتل فى هذا الخائن» (صفحة ٣٨).

ولاشك أن هذه العلاقة بين أنور السادات من ناحية، وبين الإخوان وتنظيمهم السباعى من ناحية أخرى، كانت فى حاجة إلى ضوء أكثر من كاتب هذه المذكرات، وإذا صح ما يرويه حسين حمودة عن هذه الواقعة بالذات فإننا نكاد نرى أن عبدالناصر وبعض أعضاء التنظيم الإخوانى قد جنحوا بالفعل إلى توجهات وسلوكيات أنور السادات وتنظيمه وليس العكس.

(٤١)

وقد ذكرنا فى موضع متقدم من هذا الكتاب أن لحسين حمودة وجهة نظر فى أن الضباط الأحرار لم يحكموا مصر بعد الثورة، وهو يقيم حجته على هذه الرواية بالقفز وراء وأمام بعض الحقائق التى نعرفها كلها، فهو يثبت الاستثناءات ويتجاهل ما هو ثابت، وهو يقول فى صفحة ١٩٤:

«ولكن الحقيقة التى لم يكشف عنها بعد هى أن الضباط الأحرار لم يحكموا مصر بعد الثورة، لقد كان تنظيم الضباط الأحرار الذى قام بالثورة ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ مكوناً من ٩٩ ضابطاً معظمهم من الإخوان المسلمين وفيهم خمسة من الشيوعيين وأقلية ضمها عبدالناصر من الضباط معدومى الضمائر كأمثال شمس بدران وعلى شفيق صفوت وحمزة البسيونى. وكان عبدالناصر يعرف الضباط الإخوان واحداً واحداً، وتخلص منهم فور قيام الثورة بسجنهم.

لقد كان لعبدالمنعم عبدالرءوف دور بارز فى حصار قصر رأس التين وإجبار فاروق على التخلى عن العرش، وفور إتمام العملية قبض عبدالناصر على عبدالمنعم عبدالرءوف وسجنه وفر عبدالمنعم عبدالرءوف من السجن وفر من البلاد فحكم عليه عبدالناصر بالإعدام فى محاكمة غيابية. ولم يعد عبدالمنعم عبدالرءوف لوطنه إلا فى عهد أنور السادات.

وأما باقى الضباط الأحرار من الإخوان ـ ومن بينهم كاتب هذه السطور ـ فقد فصلوا من وظائفهم وسجنوا وعذبوا وشردوا. وبالنسبة للضباط الأحرار من الشيوعيين فقد استبعد خالد محيى الدين منذ قيام الثورة ولم يشغل أى منصب فى الدولة، كما أجبر على مغادرة البلاد فترة. وقبض على يوسف منصور صديق وهو الذى احتل رئاسة الجيش ليلة الثورة».

(٤٢)

بقى أن نقول إنه ليس فى هذا الكتاب أخطاء تاريخية واضحة اللهم إلا فى صفحة ٦٩ حين يذكر أن المتهمين فى مقتل حسن البنا قدموا للمحاكمة فى أغسطس ١٩٥٤ بينما كان هذا فى أغسطس ١٩٥٢. كما أنه فى صفحة ٧٠ يذكر أن عبدالناصر أفرج عن قتلة حسن البنا عقب محاولة الاعتداء عليه فى ١٩٥٤، نكاية فى الإخوان، بينما يذكر المستشار عبدالحميد يونس فى صفحة ٤٨ من كتابه «حكايات قضائية» الصادر فى سلسلة كتاب اليوم فى يوليو ١٩٩٤ ما يدل على أن الأميرالاى محمود عبدالمجيد قد ظل فى السجن سنوات (لا سنتين فقط) حتى أفرج عنه إفراجاً صحياً بعد ما كف بصره وهو فى السجن.



عربية للطباعة والنشر

7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين

تليفون : 3256098 - 3251043